سورة الشورى

[٨٠٤] أخرج ابن المنذر عن عكرمة قال لما نزلت: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾[(١)] قال المشركون بمكة لمن بين أظهرهم من المؤمنين قد دخل الناس في دين الله أفواجاً فاخرجوا من بين أظهرنا فعلام تقيمون بين أظهرنا فنزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ﴾[(٢)] الآية.

[٨٠٥] ك.. وأخرج عبد الرزاق عن قتادة في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ﴾[(٣)] الآية قال هم اليهود والنصارى قالوا كتابنا قبل كتابكم ونبينا قبل نبيكم ونحن خير منكم.

[٨٠٦] وأخرج الطبراني بسند فيه ضعف عن ابن عباس قال: قالت الأنصار لو جمعنا لرسول الله ﷺ مالاً فأنزل الله: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾[(٤)] فقال بعضهم إنما قال هذا ليقاتل عن أهل بيته وينصرهم فأنزل الله: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾[(٥)] فعرض لهم التوبة إلى قوله: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ﴾[(٦)].

[٨٠٧] وأخرج الحاكم وصححه عن علي قال: نزلت هذه الآية في أصحاب الصفة ﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[(٧)] وذلك أنهم قالوا: لو أن لنا فتمنوا الدنيا وأخرج الطبراني عن عمرو بن حريث[(٨)] مثله.

* * *

---

[٨٠٤] (١) سورة النصر: الآية (١).
(٢) سورة الشورى: الآية (١٦).
[٨٠٥] (٣) سورة الشورى: الآية (١٦).
[٨٠٦] (٤) سورة الشورى: الآية (٢٣).
(٥) سورة الشورى: الآية (٢٤).
(٦) سورة الشورى: الآية (٢٥).
[٨٠٧] (٧) سورة الشورى: الآية (٢٧).
(٨) ما أشار إليه رواه أيضاً الواحدي في أسباب النزول ص (٢١٤) من طريق حيوة قال أخبرني أبو هانىء الخولاني أنه سمع عمرو بن حريث يقول: إنما نزلت هذه الآية في أصحاب الصفة وذلك أنهم قالوا لو أن لنا الدنيا فتمنوا الدنيا.

(٤٢) سورة الشورى مكيّة وآياتها ثلاث وخمسون

سورة الشوري من السور المكية التي تهتم ببناء العقيدة الإسلامية ، وتعالج أصول الإيمان التي ينبغي أن يتحلى بها المؤمنون وهي الاعتقاد بوحدانية الله جل وعلا ، والإيمان بالملائكة والرسل ، والبعثِ والجزاء ، وغير ذلك من فروع الإيمان ، التي هي من أهداف السور المكية لبناء الشخصية المسلمة على أساسٍ متين من العقيدة الصافية ، والإيمان الصادق الراسخ ، والمحورُ الذي تدور عليه السورة هو موضوع « الوحي والرسالة » حتى ليكاد يقال إنه المحور الرئيسي الذي ترتبط به السورة الكريمة .

سميت السورة الكريمة « سورةً الشوري » تنويهاً بمكانة الشوري في الإسلام ، وأهميتها في حياة الجماعة المسلمة ، وتنبيهاً للمؤمنين على أن يقيموا حياتهم على هذا المنهج الفاضل الأمثل « منهج الشوري » الذي هو أساسٌ في تكوين الدولة الإسلامية كما قال تعالى في صفة المؤمنين « وأمرهم شوري بينهم ، ومما رزقناهم ينفقون » .

تبتدىء السورة الكريمة بتقرير مصدر الوحي ومصدر الرسالة وهو ربُّ العالمين الذي بعث الأنبياء والمرسلين لهداية البشرية وإخراجها من ظلمات الشرك والضلال ، إلى نور المعرفة والإيمان ، وتوجه الأنظار إلى قضية الإيمان بالمالك الواحد الديان ﴿ حم . عسق . كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك اللهُ العزيز الحكيم . له ما في السموات وما

في الأرضْ وهو العليُّ وهو العظيم﴾ وتستطرد السورة إلى ذكر حال بعض المشركين في الجحود بالله ورسله حتى إن السموات ليكدن يتفطَّرن من هول تلك الفعلة الشنيعة التي جاء بها بعض المنحرفين من الإشراك بالله وتكذيب رسله بعد وضوح الآيات والدلائل ﴿ تكادُ السمواتُ يتفطَّرن من فوقهن ، والملائكةُ يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض ، ألا إن الله هو الغفور الرحيم والذين اتخذوا من دونه أولياء ، الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل﴾ .

وتعود السورة الكريمة إلى الحديث عن الحقيقة الأولى « حقيقةِ الوحي والرسالة » فتقرر أن القرآن هدايةُ الله للبشرية ، أنزله بالحق على خاتم المرسلين لينذر الخلائق أجمعين – أهلَ مكة ومن حولهم من أمم الأرض – ذلك اليوم الرهيب الذي يجتمع فيه الخلق للحساب وينقسمون إلى قسمين : سعداء ، وأشقياء ، وأن الظالمين ليس لهم ناصر ولا شافع ﴿ وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً ، لتُنذر أُمَّ القرى ومن حولها ، وتُنذر يومَ الجمع لا ريب فيه ، فريقٌ في الجنة وفريقٌ في السعير . ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ، ولكنْ يُدخل من يشاء في رحمته والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير﴾ ثم تقرر السورةُ « وحدةَ الرسالة » بعدما قررت في البدء « وحدة المصدر » وتُبيّن أن الدين واحد ، أرسل الله به جميع المرسلين ، وأن البشرية بحاجة إلى قيادة جديدة بعدما آل أمرها الى الفوضى والارتياب في أمر الدين ولذلك بعث الله خاتم الرسل بهذه الرسالة الجديدة رسالة الإسلام ﴿ شرع لكم من الدين ما وصَّى به نوحاً والذي أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أَنْ أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كَبُر على المشركين ما تدعوهم إليه ، الله يجتبي إليه مَن يشاء ويهدي إليه من يُنيب . وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ، ولولا كلمةٌ سبقت من ربك إلى أجلٍ

مسمًّى لقُضيَ بينهم ، وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شكٍ منه مريب﴾ ثم يأتي التعقيب المباشر لتحميل الرسول ﷺ أعباء الرسالة الجديدة لقيادة ركب الإنسانية إلى طريق السعادة وشاطىء الإيمان ﴿ فلذلك فادع واستقم كما أُمرت ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنتُ بما أنزل الله من كتاب ، وأُمرتُ لأعدل بينكم ، اللهُ ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا وإليه المصير ﴾ .

ثم تبدأ جولة جديدة مع المكذبين بالقرآن والمنكرين للقيامة ، فلقد أوغلوا في الضلالة وأبعدوا حتى استعجلوا في قيام الساعة ، بينما المؤمنون خائفون لأنها موعد القضاء العدل ، والقول الفصل ﴿ اللهُ الذي أنزل الكتاب بالحقِّ والميزان ، وما يدريك لعلَّ الساعة قريب ؟ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ، والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ، ألاَ إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد﴾ .

وتنتقل السورة الكريمة إلى الحديث عن دلائل الإيمان في الأنفس والآفاق ، وعن آثار القدرة الإلهية في خلق هذا الكون العجيب ، فما المطر إلا آثار رحمته ، وما هذه المخلوقات إلا آثار قدرته ، وما هذه السفن الضخمة التي تمخر عُباب البحار ، كأنها جبال شاهقة تحمل فوق ظهرها الأرزاق والمتاع والبشر ، إلا آثارُ صنعِه الباهر وحكمته الجليلة ﴿ وهو الذي يُنزّل الغيثَ من بعد ما قنطوا وينشر رحمته ، وهو الوليُّ الحميد . ومن آياته خلق السمواتِ والأرض وما بثَّ فيهما من دابة ، وهو على جمعهم إذا يشاء قدير . وما أصابكم من مصيبة فبما كسبتْ أيديكم ويعفو عن كثير . وما أنتم بمعجزين في الأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير . ومن آياته الجوارِ في البحر كالأعلام . إن يشأْ يسكنِ الريح فيظللن رواكد على ظهره إن في ذلك لآياتٍ لكل صبّار شكور .

أو يوبقهُنَّ بما كسبوا ويَعْفُ عن كثير. ويعلمَ الذين يجادلون في آياتِنا ما لهم من محيص﴾ . وتذكِرًا لآيات الكريمة الناس بالاستجابة لدعوة الله وطاعة رسله قبل أن يفاجئهم ذلك اليوم العظيم الذي لا ملجأ يقيهم من عذاب الله ، ولا شافع لهم ولا نصير ﴿استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مردَّ له من الله ، ما لكم من ملجأٍ يومئذٍ وما لكم من نكير . فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً ، إن عليك إلا البلاغ وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها ، وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور﴾ .

وفي ختام السورة يعود السياق إلى الحقيقة الأولى « حقيقة الوحي والرسالة » لتكشف عن طبيعة هذا الاتصال بين الله والمختارين من عباده ﴿وما كان لبشرٍ أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنه عليٌّ حكيم﴾ ثم تختم السورة الكريمة بذكر حقيقة الرسالة المحمدية وأنها رحمة وهداية من الله ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ، ما كنت تدري ما الكتابُ ولا الإيمانُ ولكنْ جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم . صراطِ اللهِ الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور﴾ وهكذا يتناسق السياق في البدء والختام .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الشورى[١]

بسم الله الرحمن الرحيم.[٢]

﴿حمٓ﴾[١] ﴿عٓسٓقٓ﴾[٢]

قوله عز وجل: **حم عسق**. قال بعضهم: **حم**، هو اسم من أسماء الله تعالى. وقيل: هو[٣] اسم من أسماء القرآن. وقال بعضهم: **حم**، أي قُضِي ما هو كائن.[٤] وقد ذكرنا الحروف المقطعة فيما تقدم.[٥] وقال بعضهم في **عسق**: [ال]عين عبارة عن عذابه، والسين عن المسخ،[٦] والقاف كناية عن القذف. يقول[٧] صاحب هذا القول: يخرج عين من الأرض فيها عذاب ويُمْسَخ رجل من هذه الأمة بالبادية فيقذفه الناس بالحجارة. ***والله أعلم***. وقال بعضهم: -وهو قول ابن عباس- **حم سق**،[٨] على إسقاط حرف العين؛ ثم يقول: السين كل فرقة تكون؛[٩] والقاف كل جماعة تكون،[١٠]

---

[١] ر ن- سورة الشورى؛ ن م + ذكر أن حم عسق كلها مكية إلا آيات؛ ث + مكية وهي خمسون وثلاث آيات.

[٢] ن + رب وفق والأمل فحقق.

[٣] ن – هو.

[٤] جميع النسخ + وقد ضعف هذا القول ابن عباس رضي الله عنه والصحيح من الأقوال أن حم خبر مبتدأ محذوف وتنزيل الكتاب خبره من الله صفة الكتاب (ر: صفته لكتاب؛ ث: صفة لكتاب) والتقدير هذا حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الرحيم. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ٩١ظ.

[٥] جميع النسخ – وقد ذكرنا الحروف المقطعة فيما تقدم. والزيادة من نسخة جار الله، ورقة ١٧٧و. انظر: تفسير أول سورة البقرة و سورة آل عمران.

[٦] ر م: عن المسيح. المَسْخ: تحويل صورة إلى صورة أقبح منها وتحويل خلْق إلى صورة أخرى؛ يقال: مَسَخه الله قِرْدًا يَمْسَخه وهو مَسْخ ومَسِيخٌ (*لسان العرب*، «مسخ»).

[٧] ن: كقول.

[٨] ن ث: حم عسق.

[٩] ر ث م: يكون.

[١٠] جميع النسخ: يكون. والزيادة من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ٩٢و.

وذُكر أنه[1] كان يَعلم[2] علي بن أبي طالب[3] كرم الله وجهه حساب العين. وكذلك ذكر في حرف ابن مسعود وأُبَيّ رضي الله عنهما أنهما قرءا[4] حم سق[5] على طرح العين.[6] وقال بعضهم: العين عبارة عن العذاب، والسين عن سيكون، والقاف / عن الوقوع، أي قُضي ما سيكون لك.[7] [٢٩٣و] **والله أعلم**.[8] وذكر عن جعفر بن محمد بن علي رضي الله عنهم[9] قال: العين عبارة عن العذاب، والسين عبارة عن سيكون، ولم يفسر القاف وقال: عَجَبٌ!، أو كلام نحوه.[10] **والله أعلم**. وقال بعضهم: العين عبارة عن علمه، والسين السلام، والقاف عبارة عن القدرة، وهذا[11] محتمل. وجائز أن يكون كل حرف من هذه الحروف المقطعة عبارةً عن صفة من صفاته أو اسمٍ من أسمائه على عادة العرب بالاكتفاء عن حرفٍ عبارةً عن جميع الكلمة؛ فالحاء عبارة عن حلمه وحكمته وحكمه، والميم عبارة عن ملكه ومجده، والعين عبارة عن علمه، والسين عبارة عن سنائه وسُودَدِه،[12] والقاف عبارة عن قدرته وقوته. يكون كل حرف من هذه الحروف عبارةً عن اسم من أسمائه أو صفة من صفاته، أو عبارة[13] عن حكم من أحكامه. وهذا الذي ذكرنا كله على الإمكان والاحتمال، لا يَسَع لأحد[14] أن يحقق فيه التفسير أنه كذا وأنه أراد كذا، لأنه من المتشابه وأنه من السر[15] الذي لم يُطْلِع الله تعالى عليه أحدا إلا رسلَه عليهم الصلاة والسلام.

---

[1] ر م – أنه.
[2] م: بعلم.
[3] ن + رضي الله عنه و.
[4] جميع النسخ – أنهما قرءا. والزيادة من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ٩٢و.
[5] ر م ث: وحم سق.
[6] انظر: *تفسير الطبري*، ٢٠/٤٦٥.
[7] جميع النسخ: ذلك. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ٩٢و.
[8] ر – أعلم.
[9] هو جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين، الإمام السادس عند الاثنا عشرية.
[10] ولم أجده مرويا عن جعفر الصادق، لكن القرطبي روى عنه وعن سعيد بن جبير رضي الله عنهما التفسير التالي: «الحاء» من الرحمن، و«الميم» من المجيد، و«العين» من العليم، و«السين» من القدوس، و«القاف» من القاهر (*الجامع لأحكام القرآن*، ١٨/٤٤٢).
[11] ر م: وكذا.
[12] والسُّودَدُ: الشرف، وقد يُهمَز وتُضم الدال الأُولى: السُّؤدُدُ، لغة طيء، وقد سادهم سُودًا وسُودُدًا وسِيادةً وسَيْدُودة (*لسان العرب*، «سود»).
[13] جميع النسخ: وعبارة. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ٩٢و.
[14] جميع النسخ – لأحد. والزيادة من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ٩٢و.
[15] ن + من.

﴿كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٣]

وقوله عز وجل: **كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك**، أي كما أوحى إليك فقد أوحى إلى الذين من قبلك مثله. ثم اختلف في قوله: **كذلك**. قال بعضهم: أي كما أوحينا إليك بسورة حم عسق أوحينا بها إلى الذين من قبلك. وقال بعضهم: أي كما أوحينا إليك بهذه الحروف، يعني حم عسق بعينها فقد أوحينا بعين هذه الحروف إلى الذين من قبلك، وهو حم عسق. وقال بعضهم: كما أوحينا إليك بحم عسق،[١] أوحينا إلى الذين من قبلك من الرسل بمعني ذلك.[٢] وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: ليس نبي إلا وقد أوحى إليه بحم عسق، كما أوحى إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وهو على ما ذكرنا.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾[٤]

وقوله: **له ما في السماوات وما في الأرض**، يخرج ذكر هذا في هذا الموضع على وجوه. أحدها[٣] أي له ما في السماوات وما في الأرض شهودًا[٤] على ألوهيته ووحدانيته. والثاني أن ما في السماوات والأرض[٥] وما فيهما[٦] دلالاتُ وحدانيته وربوبيته. والثالث **له ما في السماوات وما في الأرض**، أي كلهم عبيده وملكه، فلا يحتمل أن يتخذ من ملكه وعبيده ما ذكروا من الولد والشريك والصاحبة وما قالوا فيه؛[٧] إذ لا أحدَ يتخذ من عبيده وملكه[٨] ما ذكروا من الولد والشريك والصاحبة، فعلى ذلك يتعالى الله من أن يكون له في ملكه ما ذكروا. *والله أعلم*.

وقوله: **وهو العلي العظيم**، العلو والعظمة في الشاهد يكون من وجوه ثلاثة. أحدها العلو عبارة عن القهر والغلبة، يقال: فلان عالٍ، أي غالب وقاهر والعظمة عبارة عن القدرة والمنزلة ونَفَاذ الأمر. والثاني يكون العلو عبارة عن الكبرياء والسُّودَد، وكذلك العظمة.

---

[١] جميع النسخ: حم عسق. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ٩٢و.
[٢] ن + والله أعلم.
[٣] ر م – أحدها.
[٤] جميع النسخ: شهود. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ٩٢و.
[٥] ن: وما في الأرض.
[٦] ر م: فيها له؛ ث + له.
[٧] ر ث م – فيه.
[٨] ر م: و من ملكه.

والثالث العلو يكون عبارة عن الارتفاع في المكان، والعظمة عظمة في البدن والنفس. وهذا مما لا يكون فيه كثرة[1] مَنْقَبَةٍ وقدرٍ ولا شيءٍ من ذلك، ولا يزيد ذلك في صاحبه رفعة ولا مرتبةً، والله يتعالى عن الوصف بهذا. فإنما رجع الوصف له بالعلو والعظمة إلى الوجهين الأولين: السلطانِ[2] والقدرة ونفاذ الأمر والمشيئة، أو الكبرياءِ[3] والغلبة؛ فأما ما رجع إلى الارتفاع في الأمكنة والعظمة في البدن فهو صفة المخلوق وهم الموصوفون بذلك. تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا.[4]

﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[٥]

وقوله: **تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن**، يحتمل هذا وجهين. أحدهما تكاد يتفطرن لذنوب أهل الأرض وفسادهم وعِظَم ما قالت الملحدة[5] في الله من الولد والشريك والصاحبة، كادت تتشق لذلك وتتساقط، كقوله في آية أخرى: تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمٰنِ وَلَدًا.[6] بين في هذه الآية أنها كادت تنفطر وتنشق[7] لماذا؟ وهو دعواهم للرحمن ولدا، فلذلك يحتمل هاهنا هذا المعنى. *والله أعلم*. والثاني كادت تنشق[8] لبكاء أهلها عليها إشفاقا[9] ورحمة على أهل الأرض. ويحتمل تكاد تنشق[10] لعظمة الرب وجلاله وعِظَم[11] سلطانه، كقوله تعالى: لَوْ أَنْزَلْنَا هٰذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ،[12] أخبر أنه لو جعل في الجبال والأرض والسماء من المعنى والتمييز ما جعل في البشر لكانت هذه الأشياء بالوصف[13] الذي ذكر من الخضوع لربها.

---

[1] ن: كبير.
[2] ر م: والسلطان.
[3] ر م: والكبرياء.
[4] يشير المؤلف رحمه الله إلى هذه الآية الكريمة: ﴿سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا﴾ (سورة الإسراء، ١٧/٤٣).
[5] ر: وعظم ما قالت الملحدة؛ ث: وعظيم ما قالت الملحدة؛ م: وعظم ما قالت الملاحدة.
[6] سورة مريم، ١٩/٩٠-٩١.
[7] ن: ينفطر وتتشقق.
[8] ن: تنشقق.
[9] ر ث م: وإشفاقها؛ ن: وإشفاقك. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ٩٢ظ.
[10] ن: تنشقق.
[11] ن: وعظيم.
[12] سورة الحشر، ٥٩/٢١.
[13] ث + الوصف.

وهو كما ذكر في آية أخرى: وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ،[١] يخبر عن شدة خضوع هذه الأشياء وخشوعها لربها وتذللها له، وعناد الكفرة واستكبارهم وقلةِ خضوعهم وخشوعهم لربهم. *والله أعلم*.

ويحتمل أن يكون قوله تعالى: **تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن**، لكثرة أهلها وازدحامهم فيها وعبادتهم[٢] لربهم، على ما ذُكر في الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم: «أَطَّتِ[٣] السماء / وحُقَّ لها أن تَئِطَّ، ما من موضع قدم فيها إلا ومَلَكٌ فيها ساجد أو راكع أو قائم يسبح الله تعالى ويصلي له».[٤] *والله أعلم*. [٦٩٣ظ]

وقوله: **والملائكة يسبحون بحمد ربهم**. هذا يدل على أن ما ذكر من تفطر السماء لعظم ما يقول الملحدة[٥] فيه من الشريك والولد والصاحبة حيث قال على إثره: **والملائكة يسبحون بحمد ربهم**، أي الملائكة ينزهونه ويبرءونه عما يقولون فيه ويُثْنُون عليه بالثناء الذي يليق به ويصفونه بما هو أهله. *والله أعلم*.

وقوله: **ويستغفرون لمن في الأرض**، امتحنهم جل وعلا بالتسبيح له والثناء عليه[٦] والاستغفار لأهل الأرض على ما ذكر. ثم قال[٧] بعضهم: إن قوله: **ويستغفرون لمن في الأرض**، منسوخ بقوله تعالى: فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا،[٨] لأن الأول عامٌّ لجميع أهل الأرض والثاني خاص. لكنّ هذا بعيد محال أن يستغفر الملائكة ويطلبوا[٩] التجاوز من ربهم لمن يقول له بالشريك والولد والصاحبة؛

---

[١] سورة البقرة، ٧٤/٢.

[٢] ر م: وعبادهم.

[٣] من الأطيط صوت الأقتاب. وأطيط الإبل: أصواتها وحنينها. أي إن كثرة ما فيها من الملائكة قد أثقلها حتى أطّت. وهذا مَثَل وإيذان بكثرة الملائكة، وإن لم يكن ثَمّ أطيط وإنما هو كلامٌ تقريب أريد به تقرير عظمة الله تعالى (*النهاية* لابن الأثير، «أطّ»).

[٤] عن أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أطّت السماء وحُقّ لها أن تَئِطّ ما فيها أربعُ أصابعَ إلا وعليه ملكٌ واضع جبهته ساجدًا لله تعالى. لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وما تلذذتم بالنساء على الفُرُشات ولَخرجتم إلى الصُعُدات تَجْأَرون إلى الله». قال: فقال أبو ذر: والله لَوَدِدْتُ أني كنت شجرة تُعضَد. (*مسند أحمد بن حنبل*، ١٣٨/٥؛ وسنن *ابن ماجة*، الزهد ١٩؛ وسنن *الترمذي*، الزهد ٩.

[٥] ر م: الملاحدة.

[٦] جميع النسخ: له.

[٧] ث م: ما ذكرتم قال.

[٨] ﴿الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وَسِعْتَ كلَّ شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وَقِهِمْ عذابَ الجحيم﴾ (سورة المؤمن، ٧/٤٠).

[٩] ر م: ويطلبون.

وإذا كان كذلك كان استغفارهم يرجع إلى المؤمنين خاصة على ما ذُكر في آية أخرى: وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا، وبقوله: فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ،[1] فكان المراد من العام هو الخاص لأن المراد[2] منه العموم، ثم صار منسوخا بورود الخاص متراخيا. *والله أعلم*.

ثم إن كان استغفارهم لجملة أهل الأرض على ما يقولون فهو عبارة عن طلب السبب الذي به تقع[3] لهم المغفرة وهو التوبةُ عن الشرك والتوحيدُ، فيكون هذا سؤال التوحيد والهداية لهم تقع[4] المغفرة لهم بذلك التجاوز[5] ويصيروا لذلك أهلا.[6] وعلى ذلك يخرج استغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه أنه سؤالُ وطلبُ السببِ الذي به[7] يقع[8] المغفرة له وأن يجعله[9] أهلا لذلك. وكذلك أَمْرُ الرسل عليهم السلام قومَهم بالاستغفار ربهم؛[10] وهو ما قال هود عليه السلام: وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ،[11] وقول نوح: [فَقُلْتُ] اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا.[12] لا يحتمل أن يقولوا لهم: قولوا «نستغفر الله»،[13] ولكن يقولون لهم: اطلبوا واسألوا[14] ربكم السبب الذي به تقع[15] المغفرة لكم، وهو التوبة عما هم فيه واختيار الهداية والرشد لأنفسهم ليكونوا لذلك أهلا. فعلى ذلك يخرج استغفار الملائكة أن كان لجملة أهل الأرض على ما يقول بعض أهل التأويل.[16] وعلى هذا لا حاجة إلى النسخ ولا يحتمله. *والله أعلم*.[17]

---

[1] سورة المؤمن، ٤٠/٧.
[2] ن: لا أن المراد.
[3] ر ث م: يقع.
[4] جميع النسخ: ليقع.
[5] ن ث: والتجاوز.
[6] ر م - أهلا.
[7] ث - به.
[8] جميع النسخ: يقع.
[9] ن: ولن يجعله.
[10] جميع النسخ: لهم.
[11] سورة هود، ١١/٥٢.
[12] سورة نوح، ٧١/١٠.
[13] ر م: قول أستغفر الله؛ ث: قول يستغفر الله.
[14] ر م: طلبوا وسألوا.
[15] جميع النسخ: يقع.
[16] ر: التوحيد.
[17] ر م - والله أعلم.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾[٦]

وقوله: **والذين اتخذوا من دونه أولياء**، يحتمل قوله: **أولياء** الأصنام التي عبدوها دون الله تعالى اتخذوها أربابا وآلهة دون الله فعبدوها. ويحتمل **اتخذوا من دونه أولياء**، أي والذين اتخذوا أولياء من دون أولياء الله،[١] كقوله تعالى: لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ،[٢] وقوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ،[٣] وقوله تعالى: إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللهِ.[٤] ***والله أعلم.***[٥] وقوله: **الله حفيظ عليهم**، يخبر أنه لا عن غفلة وجهل منه يعملون ما يعملون، ولكنه حفيظ عليهم وعلى أعمالهم لكنه يؤخر ذلك عنهم لحكمة. ***والله أعلم.***

وقوله: **وما أنت عليهم بوكيل**، يحتمل وجهين. أحدهما **وما أنت عليهم بوكيل**، أي لا تؤاخذ[٦] أنت[٧] بمكانهم كقوله: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ.[٨] والثاني **ما أنت عليهم بوكيل**، أي بمسلَّط عليهم ولا حفيظ، إنما أنت رسول فعليك البلاغ،[٩] كقوله تعالى: إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ،[١٠] وقوله: مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ.[١١] ***والله أعلم.***

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾[٧]

وقوله: **وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا**، أي مثل الذي أوحينا إليهم قد أوحينا إليك قرآنا عربيا،[١٢] أي جعلناها قرآنا عربيا[١٣] ليكون أقرب إلى الفهم وأولى أن يكون حجة عليهم

---

[١] جميع النسخ - اتخذوها أربابا وآلهة دون الله فعبدوها ويحتمل اتخذوا من دونه أولياء أي والذين اتخذوا أولياء من دون أولياء الله. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ٩٢ظ (هكذا في نسخة جار الله، ورقة ١٧٩و).

[٢] سورة آل عمران، ٢٨/٣.

[٣] سورة الممتحنة، ١/٦٠.

[٤] سورة الأعراف، ٣٠/٧.

[٥] ر م - والله أعلم.

[٦] ن ث: لا تؤخذ.

[٧] م - أنت.

[٨] سورة النور، ٥٤/٢٤.

[٩] ن + والله أعلم.

[١٠] الآية ٤٨ من هذه السورة.

[١١] سورة المائدة، ٩٩/٥.

[١٢] جميع النسخ - أي مثل الذي أوحينا إليهم قد أوحينا إليك قرآنا عربيا. والزيادة من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ٩٣و (وهذه الزيادة موجودة في نسخة جار الله، ورقة ١٧٩و).

[١٣] ر ث م - أي جعلناها قرآنا عربيا.

وأبلغَ في الحِجاج، لأنه ذكر فيه الأنباء السالفة والأخبار المتقدمة باللسان العربي غيرِ لسان تلك الأنباء ومن غير أن يختلف إلى أحد من أهل ذلك اللسان لِتوهّم التعلم[1] منهم بلسانهم والنقل بلسان نفسه، فدل أنه إنما عَرَف بالله تعالى.

وقوله: **لتُنْذر أم القرى ومن حولها**، أي لتنذر[2] أهل أم القرى وأهل من حولها من القرى. ثم يحتمل تسميته مكة[3] أم القرى وجوها ثلاثة. أحدها[4] سماها أم القرى لما منها دُحيثْ[5] سائر الأَرَضِين والقرى. والثاني سماها أم القرى[6] لأن فيها[7] أولَ بيت وضع للناس وأول بناء بُنِيَ في الأرض، فسماها لذلك أم القرى. ***والله أعلم***. والثالث سماها أم القرى لما على الناس أن يَؤُمُّوها[8] ويَقْصِدُوها بالزيارة، ولأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أول من[9] بعث رسولا بُعث[10] فيها، فإليها يؤمّ ويقصد بالدعوة أوّلَ ما[11] يَؤُمّ ويُقصَد، ثم من بعد ذلك يؤم إلى سائر القرى والبلدان ويقصد. والأَمُّ القصد، ومنه أُخذ التيمم، ولذلك سماها أم القرى. ***والله أعلم***.

وقوله: **وتُنْذر**[12] **يوم الجمع**، أي وتنذر[13] بيوم الجمع. ويحتمل أن يكون قوله: **وتنذر يوم الجمع**، أي تنذر[14] بالقرآن يوم الجمع لا ريب فيه. وقوله: **فريق في الجنة وفريق في السعير**، قد بين الله تعالى السبيلين جميعا على الإبلاغ، وبين عاقبة كل سبيل إلى ماذا يفضي مَن سلكها. ***والله أعلم***.

---

[1] ن: العلم.

[2] ر ث م: لينذر.

[3] ر ث م: كله.

[4] ر ن ث: إحداها.

[5] الدَّحْو: البَسْط. دحا الأرضَ يَدْحُوها دَحْوًا: بسطها (*لسان العرب*، «دحا»).

[6] ن + لما منها دحيت سائر الأرضين والقرى.

[7] جميع النسخ: لأنها.

[8] م: يؤمها.

[9] جميع النسخ: ما. والتصحيح من نسخة جار الله، ورقة ١٧٩و.

[10] ر م – بعث.

[11] ر: مما.

[12] ث: وينذر.

[13] ر ث م: وينذر؛ ن: أو تنذر.

[14] ر ث م: أي ينذر.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[٨]

وقوله: **ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة**، يخبر أن عنده من اللطائف والقدرة ما لو شاء لجعلهم جميعا أمة واحدة وعلى دين واحد، وهو ما قال: وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ،[١] الآية. فلو جعل ذلك لأهل التوحيد والإيمان لكانوا جميعا على دين / الإسلام على ما أخبر أنه لو كان ذلك مع أهل الكفر لكانوا جميعا أهل كفر. [٦٩٤و] ثم قوله: **ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة**، لا يحتمل[٢] مشيئة الجبر والقسر -على ما يقوله المعتزلة- لوجوه. أحدها لما لا يكون الإيمان في حال الجبر والقهر، لأنه لا صنع لهم في ذلك ولا اختيار لهم. والثاني أن كل أحد بشهادة الخلقة مؤمن موحد لله تعالى، ثم لم يصيروا[٣] بذلك مؤمنين؛ فعلى ذلك بالجبر والقهر إذ في الحالين ليس ذلك[٤] فعلَ المؤمن إنما هو فعل غيره. فدل أنه أراد أن يشاء منهم ما يكون مختارين في الإيمان لا مجبورين. والثالث أن الإيمان بالجبر والقهر مما لا يعرفه الناس، ولا يطلق اسم الإيمان عليه في العرف. وقد وعدهم الإيمان وجَعْلَ الدين واحدا، وهذا عند التعارف ينصرف إلى ما يوجد منهم عن طوع واختيار لا بالجبر والقهر، فتكون[٥] الآية منصرفة إلى المعهود عند الناس على ما هو الأصل في الكلام. ***والله الموفق.*** وعندنا أراد به مشيئة الاختيار وأخبر[٦] أن عنده من اللطائف ما لو أعطى الكل لآمنوا جميعا عن اختيار، لكنه لم يعطهم ذلك ولم يشأ،[٧] لما علم منهم أنهم لا يرغبون فيه ولا يختارون ذلك، ولكنْ إنما يختارون ضد ذلك ونقيضه.[٨] لذلك لم يشأ لهم وإنما يشاء لمن علم أنه يختار ذك فضلا. وقوله: **ولكن يُدخل من يشاء في رحمته**، يخبر أن من أعطى ذلك إنما يعطيه رحمة منه وفضلا، لا أنهم يستوجبون[٩] ذلك منه ويستحقون عليه. ***والله الموفق.***

---

[١] سورة الزخرف، ٤٣/٣٣.
[٢] ر م: ولا يحتمل.
[٣] ر م: لم يصيروا؛ ن: لم يصيروا لهم، و"لهم" مشطوب.
[٤] ر ث م - ذلك.
[٥] ر ن م: فيكون.
[٦] ر: أخبر.
[٧] ر: ولو يشاء.
[٨] ر: عند ذلك ونقيضه؛ ن: ضد ذلك ويقبضه.
[٩] ن: مستوجبون.

ثم إن الله تعالى سمى الإيمان مرة رحمة بقوله: **ولكن يدخل من يشاء في رحمته**، ومرة سماه نعمة بقوله: صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ،[1] ومرة سماه مِنّةً بقوله: وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ،[2] وبقوله: بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ،[3] الآية. فلو كان الإيمان يقوم بالذي يكون الكفر من القدرة ولم يكن من الله تعالى إلى المؤمنين إلا وقد كان ذلك[4] مثله إلى الكافر -على ما يقوله المعتزلة: إن الإيمان إنما يكون بالذي يكون الكفر- لم يكن لتسميته هذا نعمة ومنة ورحمة وتسميةِ الكفر ضدّه معنى. *والله الموفق*. وبعد، فإنه لو كان على ما يقول المعتزلة لكان ما ذكر من النعمة والمنة والرحمة إنما يكون بالخلق ومنهم[5] لا بالله تعالى ومَنِّه. دل أن عنده لطائف، من أعطى تلك اللطائف آمن واهتدى، ومن لم يعطه إياها لم يؤمن. وقد أعطى المؤمن تلك و لم يعطه[6] الكافر، لذلك كان ما ذكرنا. *والله الموفق*.

ثم في تخصيص أم القرى ومن حولها بالنِذارة وجهان.[7] إذ ذكر[8] في آية أخرى أنه نذير للعالمين جميعا بقوله: لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا.[9] فإذا كان مبعوثا إلى جميع العالم لا إلى بعض دون بعض كما كان بعض الأنبياء عليهم السلام فلا بد أن يكون لتخصيص أم القرى ومن حولها معنىً وحكمةٌ. أحدهما[10] لما يحتمل أن يكون لأهل مكة طمع في شفاعته وإن لم يتبعوه، إما بحق القرابة والاتصال وإما[11] بحق الأيادي[12] ولمن حولهم بحق الجوار. فذكر تخصيصهم بالإنذار بيوم الجمع حتى يزول طمعهم بدون الاتباع والنزوع عن الشرك، إذ ذلك لا يزول بمطلق الإنذار

---

[1] ر ث م - ومرة سماه نعمة بقوله صراط الذين أنعمت عليهم. سورة الفاتحة، ٦/١.

[2] ﴿قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده﴾ (سورة إبراهيم، ١١/١٤). يبدو أن المؤلف رحمه الله عد الرسالة من أعلى مراتب الإيمان، لأن هذا القول من الآية قول الرسل يخبرون به نعمة الرسالة التي أنعمها عليهم.

[3] ﴿يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان﴾ (سورة الحجرات، ١٧/٤٩).

[4] ر ث م - ذلك.

[5] ر م: منهم.

[6] جميع النسخ: و لم يعط. والزيادة من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ٩٣ظ (هكذا في نسخة جار الله، ورقة ١٨١و).

[7] جميع النسخ: وجوه. وفي نسخة جار الله: وجهين. انظر: ورقة ١٨١و.

[8] ر م: إن ذكر.

[9] ﴿تبارك الذي نَزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا﴾ (سورة الفرقان، ١/٢٥).

[10] جميع النسخ: أحدها. والتصحيح من نسخة جار الله، ورقة ١٨١و.

[11] ر: وإنما.

[12] الأيادي جمع الجمع لليد مثل أكرع وأكارع؛ أكثر ما تستعمل الأيادي في النعم لا في الأعضاء (*لسان العرب*، «يدي»).

لما عندهم[١] وفي زعمهم[٢] أن المراد بذلك غيرهم، لما لهم من زيادة سبب الوسيلة معه. *والله أعلم*.[٣] والثاني أي تنذر[٤] هؤلاء ومن ذكر شِفَاهًا ولمن بَعُدَ منهم خبرا،[٥] أو خص[٦] هؤلاء بحق البداية، ثم بالأقرب فالأقرب. وعلى ذلك يخرج قوله تعالى: وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ،[٧] على الوجوه التي ذكرنا.

وقوله سبحانه وتعالى: **والظالمون ما هم من ولي ولا نصير**، أي ما لهم من ولي يشفع ولا من نصير ينصر ويمنعهم من عذاب الله تعالى.[٨]

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٩]

وقوله: **أم اتخذوا من دونه أولياء**، أم هاهنا على الإيجاب، معناه بل اتخذوا من دونه أولياء،[٩] أي أربابا. **فالله هو الولي**، أي هو الرب. **وهو يحيي الموتى**، قد عرفوا[١٠] أن الإحياء إنما يكون بالله تعالى لا بالأصنام التي عبدوها وإن كانوا ينكرون البعث والإحياء بعد الموت، فقد عرفوا[١١] أنه لو كان إنما يكون بالله تعالى لا بالأصنام التي عبدوا دونه.[١٢] **وهو على كل شيء قدير**، ظاهر قد تقدم ذكره.

﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[١٠]

وقوله: **وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله**، يحتمل قوله: **وما اختلفتم فيه** وجوها. أحدها في القرآن، والثاني في رسول الله صلى الله عليه وسلم، والثالث في الدين. فإن كان اختلافهم في القرآن فقوله: **فحكمه إلى الله**، فيما أقام من الحجج والبراهين أنه من الله وأنه من عنده جاء،

---

[١] ن – والنزوع عن الشرك إذ ذلك لا يزول بمطلق الإنذار لما عندهم.
[٢] ر م: في زعمهم.
[٣] ر م – والله أعلم.
[٤] ر م: أن ينذر.
[٥] ن: ولم يعد منهم خيرا.
[٦] ن: إذ خص.
[٧] سورة الشعراء، ٢٦/٢١٤.
[٨] ر م – الله تعالى.
[٩] ر ث م – أم هاهنا على الإيجاب معناه بل اتخذوا من دونه أولياء.
[١٠] ر ث م: وقد عرفوا.
[١١] جميع النسخ: فلو عرفوا. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ٩٣ظ.
[١٢] م: عبدوها.

حيث عجزوا عن إتيان مثله أو مقابلة شيء يوازيه. وإن كان اختلافهم في رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رسول أو ليس برسول، فقد أقام من الدلائل والبراهين ما يدل على رسالته ونبوته سمعيات وعقليات، مالا يتعرض لردها إلا من كابر عقلَه وعاند لُبَّه. وكذلك لو كان اختلافهم في الدين فقد أقام ما يعلم كل ذي لُبٍ وعقل أنه هو الصواب وأن غيره من الأديان ليس بحق. وقال بعض أهل التأويل في قوله: **وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله**: أي إلى كتاب الله، كقوله: فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ،[1] أي إلى كتاب الله. لكن هذا لا يصح،

[٦٩٤ظ] فإن قوله: فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ / فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ، إنما هو في المؤمنين إذا وقع بينهم الاختلاف في شيء من الأحكام يُرَدّ ذلك إلى كتاب الله وإلى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم. وأما قوله تعالى: **وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله**، إنما هو في محاجة الكفرة، فهو في غير ذلك المعنى، إذ هم لا يعتقدون كونه حجة وإنما يُرجَع [فيه] إلى دليل آخر عقلي. ***والله أعلم***.

وقوله: **ذلكم الله ربي**، أي ذلك الذي يفعل هذا هو ربي. **عليه توكلت**، في كل أمري. **وإليه أنيب**، بالطاعة. ويحتمل أن يكون اختلافهم الذي ذكر هو اختلافَهم في الله تعالى، كقوله: وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ.[2] وقوله: **ذلكم الله ربي**، أي ذلكم الذي اختلفتم فيه هو ربي؛ **عليه توكلت**، أي عليه اعتمدت؛ **وإليه أنيب**، أي إليه أرجع. ثم نَعَتَه فقال:

﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[١١]

فاطر السماوات والأرض، وقال[3] في موضع آخر: اَلْحَمْدُ لِلهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ،[4] وفي موضع آخر: اَلْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ،[5] وقال في موضع آخر: بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.[6] قال بعض الباطنية: المبدع هو الذي ينشئ الأشياء لا من شيء، والخالق هو الذي ينشئ الشيء من شيء ومن لا شيء،[7] والفاطر هو الذي ينشئ من شيء، أو نحوه من الكلام.

---

[1] سورة النساء، ٥٩/٤.

[2] ﴿والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم﴾ (الآية ١٦ من هذه السورة).

[3] ر م + هو.

[4] سورة فاطر، ١/٣٥.

[5] جميع النسخ: ﴿والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم﴾. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ٩٤و. سورة الأنعام، ١/٦.

[6] سورة الأنعام، ١٠١/٦.

[7] ن – ومن لا شيء.

وعندنا أن هذه الأسماء -وإن اختلفت ألفاظها وافترق اشتقاقها ومأخذها- فهي في المعاني واحدة. الإبداع هو الإنشاء بلا احتذاءٍ سبق، والخلق هو الإنشاء والتقدير. لكن غيرَه لا يجوز أن يسمى خالقا، لأنه لا يقدر على تقدير شيء إلا على مشاهدة تقدير[١] عاينه ورآه، والفاطر كأنه مأخوذ من الشَقِ، يَشُقُّ الشيء ويُخرِج منه أشياء. وكله[٢] خلق وفاعله خالق على الحقيقة، وهو الله تعالى. ***وبالله القوة والتوفيق.***

وقوله: **جعل لكم من أنفسكم أزواجا**. هذا يُحتَمل وجوه. أحدها **جعل لكم من أنفسكم أزواجا**،[٣] أي جعل من نفس آدم وحواء عليهما السلام أزواجا نَسَبَنا جميعا إليهما، لأنهما الأصل وإنا[٤] جميعا إنما كنا من ذلك الأصل، وهو كنسبته إيانا إلى التراب بقوله: هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ،[٥] وإنما خلق أصلنا من التراب لكنه نسبنا إليه لما منه كنّا جميعا. فعلى ذلك جائز أن يكون قوله: **جعل لكم من أنفسكم أزواجا**، أي من نفس آدم وحواء ونسبنا إليهما لما منهما كنا جميعا. ***والله أعلم***. والثاني يقول: جعل بعضكم من بعض أزواجا، أي حلائل، أي خلق الإناث من الرجال[٦] والرجال من الإناث، وهو ما ذكر في آية أخرى: وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا،[٧] الآية. والثالث أي جعل لكم من مثل خلقكم أزواجا، أي أصنافا وأشكالا، جعل الخلائق كلها[٨] ذوي أشكال وأمثال وذوي أزواج.[٩] وكذلك يخرج قوله: **ومن الأنعام أزواجا**، على وجهين. أحدهما يقول -والله أعلم-: إنه[١٠] جعل الأنعام أيضا ذات أزواج وأشكال.[١١] والثاني جعل منها الذكور والإناث أيضا كما جعل من البشر. ***والله أعلم***.[١٢]

---

[١] ر م - تقدير؛ ن ث: يقدر. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ٩٤و.
[٢] ر م: كله.
[٣] جميع النسخ - هذا يحتمل وجوها أحدها جعل لكم من أنفسكم أزواجا. والزيادة من نسخة جار الله، ورقة ١٨٠ظ.
[٤] ن: وآباء.
[٥] سورة المؤمن، ٦٧/٤٠.
[٦] ر م: من الرجل.
[٧] سورة الروم، ٢١/٣٠.
[٨] جميع النسخ: كله. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ٩٤و.
[٩] جميع النسخ: ذا أشكال وأمثال وذا أزواج. والتصحيح من *الشرح* نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ٩٤و (هكذا في نسخة جار الله، ورقة ١٧١و).
[١٠] م: إن.
[١١] ن + كالبشر.
[١٢] م - والله أعلم.

وقوله تعالى: **يذرؤكم فيه.** اختلف في تأويل قوله: **يذرؤكم**، وفي المراد[١] بقوله: **فيه،** أن الهاء كناية عن ماذا؟ قال بعضهم: **يذرؤكم**، أي يُكثِركم، وقيل: يُعَيِّشكم[٢] فيه، وقيل: يرزقكم فيه ويُعَمِّركم، وقيل: يخلقكم. وأما قوله: **فيه**، قال بعضهم: يجيء أن يكون[٣] قوله: **فيه،** أي فيها كنايةً عن الأنعام. وكذلك ذكر في حرف ابن مسعود رضي الله عنه: يذرؤكم فيها،[٤] أي في الأنعام، لما جعل للبشر فيها من أنواع المنافع. وأما من قرأ: **يذرؤكم فيه**، بغير ألف فهو يجعله كناية عن العالَم، كأنه يقول: يذرؤكم فيه، أي يخلقكم في العالم ويُكْثِركم فيه، ويُعيّشكم ويعمّركم. وقال بعضهم: **يذرؤكم**، أي يكثركم في هذا التزويج الذي جعل بينكم، أي يكثركم بسبب هذا التزويج، ولولا هذا التزويج[٥] لم يَكثُر الناس. وجائز أن يكون قوله: **فيه** كناية عن التدبير، يقول: **يذرؤكم فيه**، يخلقكم فيه نسلا بعد نسل، كقوله تعالى: [وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ،[٦] وهو قول القُتَبِي[٧] وأبو عَوْسَجَة.

وقوله عز وجل: **ليس كمثله شيء**، الآية. يستدل بعض أهل التشبيه بأن له مِثْلاً بقوله تعالى: **ليس كمثله شيء**، يقولون: لو لم يكن له مثل لم يذكر كاف التشبيه حيث قال: **ليس كمثله شيء**، لكن نفي مثلية الأشياء عن مثله، فيكون فيه إثباتُ مثل له لا يُشبِه سائرَ الأشياء سواه، أو كلام نحو هذا. وعندنا قوله تعالى: **ليس كمثله شيء**، أي ليس مثلَه شيء،[٨] والكاف قد يزاد في الكلام. وقال بعضهم: أي ليس كهو شيء، والعرب قد تقيم المثلَ مقامَ النفس. وأصله أن الخلق ذو أعداد، وكل ذي عدد له أشكال وأمثال من حيث العدد. والأصل في ذلك أن الخلق وإن كانوا ذا أمثال وأشكال وأشباه فليس يشبه بعضهم بعضا من جميع الوجوه وكل الجهات، ولكن إنما يشبه بعضهم بعضا[٩] بوجه أو بصفة أو بجهة أو بنفس، ثم صار بعضهم أمثالا لبعض وأشباها بتلك الجهة وبذلك الوصف. فدل أن الله تعالى ليس يشبه الخلق ولا له مثال منهم بوجه من الوجوه ولا له شبيه منهم،

---

[١] ر م: والمراد.
[٢] ر م: يغشيكم.
[٣] ر ث م – أن يكون.
[٤] لم أجده في المراجع.
[٥] ر م – ولولا هذا التزويج.
[٦] سورة المؤمنون، ٧٩/٢٣.
[٧] غريب *القرآن* لابن قتيبة، ٣٩١.
[٨] ن – شيء.
[٩] ر ث م + من جميع الوجوه أو.

لا ما يرجع إلى الصفة ولا ما يرجع[١] إلى النفس، وهو يتعالى عن جميع معاني الخلق وصفاتهم. ودل قوله تعالى: / **ليس كمثله شيء**، أنه شيء لأنه نفي عن نفسه المثلية ولم ينف الشيئية. [٦٩٥و] لكن يقال: شيء لا كالأشياء، يُنْفَى عنه شبه[٢] الأشياء. والشيء إثبات وفي الإثبات توحيد، ولو لم يكن يجوز أن يقال: إنه شيء لكان يجوز أن يقال:[٣] ليس هو شيئا،[٤] دل أنه ما ذكر. وقوله سبحانه: **وهو السميع البصير**، ذكر في غير موضع. ***والله الموفق.***

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[١٢]

وقوله عز وجل: **له مقاليد السماوات والأرض**، وقال في آية أخرى: وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ،[٥] وقوله: وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ،[٦] وقوله: بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ،[٧] ونحو ذلك من الآيات، فيها ذكر المفاتح والمقاليد والخزائن التي أضافها إلى نفسه.[٨] ثم لم يفهم الخلق من المفاتح[٩] المضافةِ والمقاليد والخزائن ما يُفهم لو أضيف إلى الخلق، بل فهموا من المفاتح المضافة إلى الخلق والمقاليد[١٠] المنسوبة إليهم معنى[١١] لم يفهموا ذلك المعنى من المفاتح[١٢] والمقاليد المضافة إلى الله تعالى. فما ينبغي أن يفهموا[١٣] من[١٤] قوله: بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ،[١٥] وقوله تعالى: بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ،[١٦] وقوله: لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ،[١٧]

---

[١] ر م - إلى الصفة ولا ما يرجع.
[٢] ن: شبه.
[٣] جميع النسخ: ولو لم يكن شيئا لكان يقول. والتصحيح من نسخة جار الله، ورقة ١٨١ظ.
[٤] جميع النسخ: شيء. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ٩٤ظ.
[٥] سورة الأنعام، ٥٩/٦.
[٦] سورة المنافقون، ٧/٦٣.
[٧] سورة المؤمنون، ٨٨/٢٣.
[٨] ن + بل فهموا من المفاتح المضافة إلى.
[٩] ر م: من المفاتيح.
[١٠] م: والمقالد.
[١١] ر: مغنى.
[١٢] م - من المفاتح.
[١٣] جميع النسخ: أن يفهموه. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ٩٤ظ.
[١٤] م + من.
[١٥] تقدمت قريبا.
[١٦] ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة غُلّت أيديهم ولُعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان يُنفق كيف يشاء﴾ (سورة المائدة، ٦٤/٥).
[١٧] ﴿قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين﴾ (سورة ص، ٧٥/٣٨).

ونحو ذلك ما يفهموه[1] من اليد المضافة إلى الخلق. لكنه ذكر المفاتح والمقاليد وأضافها إلى نفسه لأن كل محجوب ومستور عن الخلق[2] فيما بينهم إنما يوصلهم إلى ذلك المحجوب والمستور عنهم بالمفاتح والمقاليد التي ذَكَر. فعلى ذلك ما أضاف إلى نفسه من اليد وغيرها، لما باليد يُبسَط في الشاهد، وبها يُمنَع، وبها يكتسب ويُفعل ما يُفعَل، فأضاف إلى نفسه ما به يكون في الشاهد من الفعل والبسط والمنع كناية عن هذه الأفعال. *والله الموفق*.

وقوله عز وجل: **يَبسُط الرزقَ لمن يشاء ويقدر**، فيه دلالة نقض قول المعتزلة، لأن الرزق المذكور يحتمل وجوها. أحدها ما ذَكَر في قوله تعالى: وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ،[3] وهو المطر. والثاني الأملاك التي يكتسبون. والثالث المنافع التي جُعَل لهم. ثم لا شك[4] أن الأملاك التي تكون لهم[5] والمنافع التي ينتفعون بها وجعلت لهم إنما يكون بأسباب وأكساب[6] منهم، ثم أضاف ذلك إلى نفسه في البسط والتقتير حيث قال: **يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر**، دل أن الله[7] تعالى في ذلك صنعا وتدبيرا، وهو أن خلق أكسابهم وأسبابهم التي بها يصل[8] إليهم الرزق. *والله أعلم*.[9] وقوله: **إنه بكل شيء عليم**،[10] تقدم.

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾[١٣]

وقوله: **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا**. الدين يذكر ويراد به الجزاء، وهو قوله: مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ،[11] أي يوم الجزاء، أو يذكر ويراد به الحكم، كقوله تعالى خبرا عن يوسف عليه السلام:

---

١ ن ث: مما يفهموه.

٢ ن + لكنه ذكر المفاتح.

٣ سورة الذاريات، ٥١/٢٢.

٤ جميع النسخ: ثم الإشكال. والتصحيح من الشرح، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ٩٤ظ.

٥ جميع النسخ: يكون لهم. والتصحيح من المرجع السابق، ورقة ٩٤ظ.

٦ جميع النسخ: واكتساب. والتصحيح من المرجع السابق، ورقة ٩٤ظ.

٧ ر: أن الله.

٨ ر ث م: يوصل.

٩ ر م - والله أعلم.

١٠ ن ث + قد.

١١ سورة الفاتحة، ١/٤.

مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ،[١] أي في حكم الملك، ويذكر ويراد به المذهب والمعتقد، كقوله: لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ،[٢] وقوله تعالى: إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ.[٣] فكان المعنى من قوله: **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا**، هو المذهبَ وما يُعتقد. وقد ذَكَر الدين معرفا بالألف واللام وإنه للجنس، فيكون كأنه قال: شرع لكم من الأديان[٤] جملةً الدينَ الذي وصى به نوحا ومن ذَكَر من الأنبياء، وهو التوحيد لله تعالى والعبادة له. والأنبياء والرسل جميعا إنما بعثوا للدعاء إلى توحيد الله وجعْل العبادة له وإن اختلفت شرائعهم وأحكامهم، وذلك قوله: لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا.[٥] ***والله أعلم***.[٦] ومن الناس من يقول: **شرع لكم من الدين**، أي شرع لكم الدين، ويجعل **من** صلة زائدة فيه، أي شرع لكم الدين الذي وصى به نوحا ومن ذكر. والوجه فيه ما ذكرنا.

فإن قيل: ما معنى[٧] تخصيص نوح ومن ذكر من الأنبياء عليهم السلام والكُلُّ بُعثوا للدعاء إلى هذا الدين وقد وُصِّي الكلُّ بهذا الدين؟

فنقول: قال: بعضهم:[٨] إنما خص نوحا ومن ذكر بهذا لأن التحليل والتحريم لم يكن قبل زمن نوح وإنما جاء ذلك في زمن نوح عليه السلام، لذلك خص نوحا بما ذكر. ويحتمل أن يكون ذكر هؤلاء لا على تخصيصهم بذلك من بين غيرهم من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولكن ذكر بعضا هاهنا وترك ذكر البعض، ليس أنه شرع له ما وصى به نوحا ومن ذكر من الأنبياء ولم يَشرَع له ما وصى به غيرهم، بل شرع[٩] له ما وصى به هؤلاء وغيرَهم من الدين، كقوله تعالى: فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ؛[١٠] ذكر بعض هؤلاء وغيرهم، ثم أمره أن يقتدي بما هو عليه. دل أن ذكر البعض في موضع ليس للتخصيص، لما ذكر البعض في موضع آخر والكل في موضع آخر. ***والله أعلم***.

---

[١] سورة يوسف، ١٢/٧٦.
[٢] سورة الكافرون، ١٠٩/٦.
[٣] سورة آل عمران، ٣/١٩.
[٤] ث: من جملة الأديان.
[٥] سورة المائدة، ٥/٤٨.
[٦] ر م – والله أعلم.
[٧] ر م: معنى.
[٨] ث + إن نوحا.
[٩] ث + لهم.
[١٠] ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ (سورة الأنعام، ٦/٩٠).

ويحتمل تخصيص هؤلاء بالذكر لمعنى لم يُطْلِعنا الله على ذلك المعنى كما خص إبراهيم بالصلاة عليه على ما أمرنا به النبي صلى الله عليه وسلم بقوله:[1] «كما صلّيت على إبراهيم»،[2] لمعنى لم يطلعنا على ذلك. *والله أعلم*.

وقوله: **ولا تتفرقوا فيه**،[3] يحتمل وجهين. أحدهما **ولا تتفرقوا فيه**، أي في عبادة الله تعالى، [٦٩٥ظ] أي اعبدوه جميعا. والثاني / **ولا تتفرقوا فيه**، أي في الدين الذي ذكر، وهو التوحيد. ***والله أعلم***.

وقوله عز وجل: **كبر على المشركين ما تدعوهم إليه**، أي عَظُم عليهم دعاؤكم إلى التوحيد وعبادة الله وحده.

وقوله: **الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب**. هذا ينقض على المعتزلة، لأنه تعالى أخبر أنه يجتبي إليه من يشاء؛ ولو كان على ما يقوله المعتزلة: إنه قد أعطى الكافر جميع ما أعطى المؤمن، فالمؤمن حيث صار مجتبًى مصطفًى مختارًا إنما كان منه بفعله لا من الله تعالى،[4] وقد أخبر أنه هو يجتبى من يشاء وهو يهديه، فبطل قولهم. وقوله: **ويهدي إليه من ينيب**، أي هو يهدي من يطلب منه ما به يكون الهدى، وهو التوفيق، أي من[5] لم يطلب منه ذلك ولم يسأل فإنه لا يهديه[6] ولا يوفقه. وقال بعضهم: ويهدي إليه من يراجع نفسه عما هو عليه ويتوب. ***والله أعلم***.

وقيل: قوله:[7] **ويهدي إليه من ينيب** تفسير قوله تعالى: **الله يجتبي إليه من يشاء**، أي يجتبى للهداية من ينيب إليه؛ فأما من لم ينب إليه فلا يجتبيه للهداية. لكن المراد من الهداية هاهنا ليس هدى البيان، لأن هدى البيان قد كان عامًا لمن أناب إليه ومن لم ينب، ولكن الهدى هاهنا هو الرحمة أو هدى النعمة والمنة.[8] سمّى التوحيد والإيمان مرة رحمةً، كقوله تعالى: وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ،[9] وسماه نعمة، كقوله: صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ،[10]

---

[1] جميع النسخ: لقوله. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ٩٥و.

[2] انظر: *صحيح البخاري*، الأنبياء ١٣؛ *وصحيح مسلم*، الصلاة ٦٥.

[3] ر ث م + أي في عبادة الله تعالى أي اعبدوه جميعا.

[4] جميع النسخ: لأمر الله تعالى. والتصحيح من الشرح، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ٩٥و.

[5] جميع النسخ: ما.

[6] ر م: لا يهدي به.

[7] جميع النسخ – ويهدي إليه من يراجع نفسه عما هو عليه ويتوب والله أعلم وقيل قوله. والزيادة من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ٩٥و.

[8] ر ث م: والنعمة.

[9] الآية ٨ من هذه السورة.

[10] سورة الفاتحة، ٦/١.

وسماه منّة، كقوله تعالى: بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ،[١] وسماه نورا، كقوله تعالى: أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ.[٢] فلذلك قلنا: إن الهدى المذكور هاهنا ليس هو هدى البيان ولكن سواه. *والله أعلم.*

﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾[١٤]

وقوله: **وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم.** هذا يخرج على وجوه. أحدها أي إنهم تفرقوا في رسول الله محمد عليه أفضل الصلاة بعد[٣] ما جاءهم العلم في كتبهم أنه رسول، لما كانوا يجحدون نعته وصفته في كتبهم. لكنهم اختلفوا وتفرقوا؛ فآمن بعضهم به على ما وجده في كتبهم وكفر بعض وحرّفوا ما في كتبهم من نعته وصفته. *والله أعلم.* والثاني أي وما تفرقوا فيما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من الدين إلا من بعد ما جاءهم العلم أن الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم هو الذي وصّى به نوحا ومن ذكر من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ويحتمل أي وما تفرقوا في الإيمان بالرسل والكفر بهم إلا من بعد ما جاءهم العلم أنهم على الحق وأنهم رسل الله مبعوثون إليهم، فتفرقوا فآمنوا بالبعض وكفروا بالبعض بغيا بينهم. ويحتمل أي وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم أن الفُرْقة ضلالة وهلاك، أي عن علم بالفرقة أنها ضلال وهلاك تفرقوا.[٤] *والله أعلم.*

وقوله عز وجل: **بغيا بينهم،** يحتمل حسدا بينهم، لما قيل: إنهم كانوا مؤمنين به قبل أن يُبعث لما وجدوا نعته وصفته في كتبهم ظنا منهم أنه سيبعث[٥] منهم، فلما بعث من غيرهم حسدوه وكفروا به. *والله أعلم.* ويحتمل قوله: **بغيا بينهم،** أي عدوانا وظلما يكون فيما بينهم ذلك التفرق.

وقوله: **ولو لا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم،** أي لولا كلمة سبقت من ربك في تأخير العذاب عنهم إلى وقت وإلا كانت الكلمة منه في تعجيل العذاب بهم. *والله أعلم.*

---

[١] سورة الحجرات، ١٧/٤٩.
[٢] سورة الزمر، ٢٢/٣٩.
[٣] ر م: بعده.
[٤] ث - تفرقوا.
[٥] جميع النسخ: بعث.

وقوله عز وجل: **وإن الذين أُورِثُوا الكتابَ مِن بعدهم**، أي إن الذين أُعْطُوا الكتابَ من بعد الرسل الذين ذَكَر، **لفي شكّ منه مُريبٍ**، أخبر أنهم كانوا في شك مما جاء به الرسل، لكنهم لم يُعْذَروا في شكهم لما تركوا النظر والتفكر في ذلك، ولو نظروا في ذلك وتفكروا فيه لوقع ذلك لهم وبان الحق، فلم يعذروا في ذلك لأنه منهم كان ذلك الشك والريب، ولو تفكروا ونظروا لتَجَلَّى لهم.[1]

﴿فَلِذٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾[١٥]

وقوله عز وجل: **فلذلك فادع واستقم كما أمرت**، اختلف في قوله تعالى: **فادع واستقم.** عن ابن عباس رضي الله عنه، أي فبهذا القرآن الذي أنزل عليك[2] فادع؛ وكذا قال قتادة: فبهذا القرآن فادع.[3] وقيل: فلذلك وَعَد أن يُنزل عليك فادع. وقال بعضهم: أي وإلى ذلك الكتاب فادع. وقيل: فإلى التوحيد الذي بَعَث[4] الرسل إلى الدعاء إليه فادع أنت.[5] وقال بعضهم: فبذلك، أي فلأجل الذي بَعَث الرسل فادع، أي أدع إلى التوحيد الذي لأجله بعث الرسل.[6] ***والله أعلم.***

ثم في قوله:[7] **واستقم كما أمرت**، دليل على أنه كان قد سبق له الأمر بالاستقامة. ثم يحتمل ما ذكر من الاستقامة التي أمر بها هو تبليغ الرسالة إليهم، ويحتمل العبادة له والطاعة، ويحتمل الاستقامة في التوحيد له ودعاء الخلق إليه. ***والله أعلم.*** وقوله: وَمَنْ تَابَ مَعَكَ،[8] على هذين الوجهين الأخيرين يخرج الأمر بالاستقامة لمن تاب معه. ***والله أعلم.***

---

[1] ن: ليجلى لهم.
[2] ر ث م: إليك.
[3] ن: فاع. انظر: *تفسير الطبري*، ٢٠/٤٥٥.
[4] ن: بعثت.
[5] ر م - أنت.
[6] قال ابن الجوزي: وللمفسرين قولان [في هذه الآية]. أحدهما أنه القرآن، قاله ابن السائب. والثاني أنه التوحيد، قاله مقاتل. انظر: *زاد المسير*، ٧/٢٧٨-٢٧٩. وانظر أيضا: *تفسير مقاتل*، ٣/٧٦٦.
[7] ر م: ثم إن قوله.
[8] ﴿فاستقم كما أُمرتَ ومن تاب معك﴾ (سورة هود، ١١/١١٢).

وقوله: **ولا تتبع أهواءهم،** أي في ترك الدعاء إلى التوحيد، إذ هو هَوَى[١] الكفرةِ: أن يَترُك هو الدعاءَ إلى التوحيد. ويحتمل أنه نَهَى عن إجابته إياهم فيما دعوهم، إذ هَوَى[٢] الكفرةِ أن يجيبهم فيما دعوهم إليه من الشرك. ***والله أعلم.***

وقوله: **وقل آمنتُ بما أنزل الله من كتاب،** أمره بأن يخبر بأنه مؤمن بجميع الكتب التي أنزل الله تعالى / ليوافقوه في الإيمان بجميع الكتب، لأن[٣] أولئك الكفرة كانوا يؤمنون ببعض الكتب ويكفرون بالبعض.[٤] [٦٩٦و]

وقوله عز وجل: **وأُمرتُ لِأعدلَ بينكم،** يحتمل وجوها. أحدها أي أمرت لأعدل بينكم[٥] في الحكم، أي أَحكُم فيما بينكم بالعدل، كقوله تعالى: وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اِعْدِلُوا.[٦] ويحتمل قوله: **وأمرت لأعدل بينكم،** في الدعاء إلى توحيد الله ودينه. والعدل في الدعاء دعاؤهم[٧] إلى دينه الذي أمر أن يدعوهم إليه. وجائز أن يكون قوله: **وأمرت لأعدل بينكم،** أي أمرت أن أكون عدلا فيما بينكم، أي سواءً[٨] يسوِّي بينهم. ثم نَعَت الذي كان يدعوهم إلى توحيده وهو قوله: **اللهُ ربُّنا وربكم.** وقوله: **لنا أعمالنا ولكم أعمالكم.** هذا يخرج على وجهين. أحدهما على المنابذة، كقوله: لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ،[٩] وإنما يقال هذا بعد ما انتهت الحجج غايتها والحِجَاجُ نهايته فلم يَنْجَع[١٠] ذلك فيهم وأيسوا منهم. والثاني يقول: إنا لا نؤاخَذ[١١] بأعمالكم ولا أنتم تؤاخذون بأعمالنا، كقوله عز وجل:[١٢] فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ،[١٣] ونحوه.

---

[١] ر: هو.
[٢] ر: هو.
[٣] ر م - لأن.
[٤] ر م: ببعض.
[٥] م + يحتمل.
[٦] ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله شهداءَ بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾ (سورة المائدة، ٥/٨).
[٧] ر م: دعاهم؛ ن: أن دعاهم.
[٨] ر م: فيما يتكلم؛ ن ت: فيما يتكلم أي سواء. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ٩٥ظ.
[٩] سورة الكافرون، ١٠٩/٦.
[١٠] نجع فيه الدواء وأنجع إذا عمل، ويقال: أنجع إذا نفع. ونجع فيه القول والخطاب والوعظ: عمل فيه ودخل وأثر (*لسان العرب*، «نجع»).
[١١] ر م: لا نأخذ.
[١٢] جميع النسخ - كقوله عز وجل. والزيادة من نسخة جار الله، ورقة ١٨٣ظ.
[١٣] ﴿قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾ (سورة النور، ٢٤/٥٤).

وقوله: **لا حجةَ بيننا وبينكم**، يحتمل قوله: **لا حجة بيننا وبينكم**، أي لا حجة بقيت فيما ادعيتُ ودعوتُكم إليه إلا وقد أقمتها عليكم، أي لم تبق[1] حجة في ذلك[2] إلا وقد أقمتها. ويحتمل أن يقول: لا حجة بيننا، أي لا مُحاجّة[3] ولا خصومة بيننا بعد ما بلغ الأمر ما بلغ. ثم قال: **الله يجمع بيننا**، في الآخرة، **وإليه المصير**.

﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾[١٦]

وقوله: **والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له**، قال بعضهم: إن أهل الكفر قالوا للمؤمنين: إن دينكم الإسلامَ إنما كان مادام محمد بين أظهركم وما دام حيا، فإذا مات فتصيرون[4] أنتم ومن تبع الإسلام إلى ديننا، أو كلام نحوه، فنزل لقولهم ذا قولُه: **والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم**. وقال بعضهم: إن اليهود قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا للمؤمنين: إن ديننا أفضل من دينكم لأنه دين الأنبياء عليهم السلام فنزلت الآية فيهم بقولهم هذا: إن ديننا أفضل لأنه دين الأنبياء، فقال: **حجتهم داحضة**، أي هكذا إذا كانوا على دين الأنبياء وهو الإسلام، فأما إذا تركوا دين الإسلام وتمسكوا باليهودية واختاروها فليس بأفضل ولا شيءَ دونها. وقال بعضهم: إن قريشا قالوا: كيف نعبد من لم نره ولم نعاينه أنه من هو[5] وكيف هو،[6] أو كلام نحوه، فنزلت: **والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم**، لأن التوحيد ومعرفة الله تعالى إنما يكون بالدلائل والآيات في الدنيا عن غيب ليس بالمعاينة والمشاهدة فيزولَ[7] الامتحانُ. ثم احتمل أن يكون نزول الآية لقولٍ كان من أولئك على ما ذكر أهل التأويل، ويحتمل أن يكون على غير ذلك. ومعناه: والذين يحاجون في الله في دفع آيات الله وردها، ويحتمل أي في دفع توحيد الله وألوهيته **من بعد ما استجيب له**، أي من بعد ما استجيب له بحق الخلقة أنه واحد وأنه رب كل شيء.

---

[1] جميع النسخ: لم يبق.
[2] ر + حجة.
[3] ر م: لا حجة.
[4] ن: فتصرفن.
[5] ر ث م: مم هو؛ ن: ممن هو. والتصحيح من نسخة جار الله، ورقة ١٨٤و.
[6] ر م + كيف.
[7] ر م: فتزول.

ويحتمل قوله:[١] **من بعد ما استجيب له،** بما في كتبهم من الإيمان بها وبما فيها من نعوت رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفاته. ثم أخبر أن حجتهم داحضة عند ربهم، هذا يخرج على وجهين.[٢] يحتمل أي حجتهم داحضة يوم القيامة، أي باطلة غير مقبولة. ويحتمل أي حجتهم داحضة في الدنيا بما أقام الله تعالى من حجج التوحيد فأبطل حججهم. وقوله: **وعليهم غضب ولهم عذاب شديد،** بيان الجزاء لهم في الآخرة.

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾[١٧]

وقوله: **الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان،** يحتمل قوله: **بالحق،** أي بالحق[٣] الذي لله عليهم أو بالحق الذي لبعضهم على بعض. **والميزان،** أي بالعدل فيما بينهم، أعني الخلق. وجائز أن يكون قوله: **بالحق،** أي بالصدق بما فيه من الأنباء والأخبار، **والميزان،** أي بالعدل في الأحكام،[٤] جعل الميزان كناية عن العدل، أي هو طريق العدل وسببه، وهو كقوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ،[٥] وقوله تعالى: كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ،[٦] وقوله تعالى: وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا،[٧] وقوله: وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا،[٨] أي صدقا[٩] فيما فيه من النبأ والخبر، وعدلا في الحكم فيما بينهم.[١٠] *والله أعلم*. ثم قوله تعالى: **والميزان،**[١١] يحتمل أن يكون عطفا[١٢] على الكتاب وهو الظاهر، والمراد منه العدل، فيصير تقدير الآية -والله أعلم-: الله الذي أنزل الكتاب بالحق وأنزل العدل فيما بين الخلق، أو أنزل العدل في الأحكام. ويحتمل أن يكون عطفا على الحق، فيصير تقديره: أنزل الكتاب بالحق وبالعدل في الأحكام وفيما بينهم. ***والله أعلم***.

---

[١] ن - من بعد ما استجيب له بحق الخلقة أنه واحد وأنه رب كل شيء ويحتمل قوله.
[٢] ر ث م: على هذين.
[٣] جميع النسخ - أي بالحق. والتصحيح من *الشرح* نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ٩٦و.
[٤] ر ث م: في الأرحام.
[٥] سورة النحل، ٩٠/١٦.
[٦] سورة النساء، ١٣٥/٤.
[٧] سورة المائدة، ٨/٥.
[٨] سورة الأنعام، ١١٥/٦.
[٩] ن - أي صدقا.
[١٠] ر: فيما بينكم.
[١١] ر م - والميزان.
[١٢] ر م - عطفا.

وقوله عز وجل: **وما يدريك لعل الساعة قريب**، لم يُطلع الله جل وعلا أحدا العلمَ بوقت الساعة على ما ذكرنا في غير موضع.

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾[١٨]

وقوله: **يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها**، كان استعجالهم بها استهزاء منهم وتكذيبا لهم أنها كائنة، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يوعدهم بها ويخبر أنها كائنة، فكانوا يستعجلون استعجال تكذيب لها.

[٦٩٦ظ] وقوله: **والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق**، لأن لأهل الإيمان / والتوحيد زلاتٍ ومساوئَ لم يتبين لهم التجاوز عنها والعفوُ منها، فيكونون[١] أبدا خائفين مشفقين لذلك الزلات والمساوئ وما يكون فيها من الأهوال والأفزاع. فأما أهل الكفر فهم لا يؤمنون بها ولا يصدقون أنها كائنة فلا يخافونها وما فيها من الأهوال.

وقوله عز وجل: **ألا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد**، قوله: **يمارون**، يحتمل يجادلون ويخاصمون فيها أنها ليست بكائنة. ويحتمل **يمارون**، من المِرية وهي[٢] الريب والشك، أي يشكّون فيها. ودل قوله: **لفي ضلال بعيد**، أنهم لا يؤمنون أبدا.

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾[١٩]

وقوله عز وجل: **الله لطيف بعباده يرزق من يشاء**، من الناس من قال: إن الآية وإن جاءت مجيئا عاما فهي خاصة للمؤمنين؛ **الله لطيف**، أي بارّ بالمؤمنين.[٣] ومنهم من يقول: إن الآية للفريقين جميعا: للكافر[٤] والمؤمن، بارّ بهما لطيف بهما بما يرزقهم جميعا في الدنيا[٥] الكافر والمؤمن، فأما في الآخرة فهو رحيم بارّ بالمؤمنين خاصة. ويحتمل أن يكون رحيم بارّ بالفريقين؛ أما في حق المؤمنين لا شك أنه بارّ رحيم بهم، وأما الكفرة [فهو] بارّ في حقهم حيث أخر عنهم العذاب في الدنيا. ثم في حق المحنة يجوز أن يوصف بالرحمة في الفريقين جميعا عاما على ما ذكرنا.[٦]

[١] ر ث م: فيكون.
[٢] جميع النسخ: وهو. والتصحيح من *الشرح* نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ٩٦و.
[٣] ر م: للمؤمنين بها؛ ث: للمؤمنين.
[٤] ن: الكافر.
[٥] جميع النسخ – في الدنيا. والزيادة من نسخة جار الله، ورقة ١٨٤ظ.
[٦] ر م: عاما ذكرنا؛ ن: على ما ذكر.

فإن قيل: إنه وُصف بالحلم والرحمة وقد أخبر أنه يعذبهم في الآخرة؟ قيل: إنه وإن عذبهم فإن ذلك لا يخرجه عن الحلم والرحمة، لأنه لو ترك تعذيبهم يكون سفيها، لأنهم قد استحقوا بالكفر التعذيب[1] أبدا، وليس في التعذيب خروج عن الرحمة والحلم، بل في ترك التعذيب سفه وخروج عن الحكمة، لذلك كان ما ذكرنا. *والله الموفق*. وقوله عز وجل: **يرزق من يشاء**، قد ذكرنا في قوله تعالى: ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَآءُ وَيَقْدِرُ[2] تأويله ومعناه. *والله أعلم*.

وقوله عز وجل: **وهو القوي العزيز**. هذا يخرج على وجهين. أحدهما أنه لا يَقْوَى بشيء مما أمرهم به وامتحنهم ولا يَعِزّ بذلك لأنه قوى بذاته عزيز بنفسه. والثاني القوى في الانتقام والانتصار من أعدائه لأوليائه، العزيز الذي لا يُعجزه شيء ولا يلحقه الذل في ترك الطاعة له والائتمار.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾[٢٠]

وقوله عز وجل: **من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها**، جعل الله تعالى الدنيا مزارع لأهلها، ما زرعوا فيها حَصَدوا ذلك في الآخرة؛ إن زرعوا خيرا حسنا حصدوا خيرا ونعيما في الآخرة، وإن زرعوا شرا وسوءا حصدوا في الآخرة شرا وعذابا دائما. وكذلك صيرها[3] مُتَّجَرا يَتَجِرون فيها؛ فإن اتجروا خيرا وحَسَنا رَبِحوا في الآخرة، وإن اتَجروا شرا وسوءًا خَسِروا في الآخرة. وكذلك صيرها مسلكا إلى الآخرة والآخرةَ غايةً لها؛ فإن سلكوا سبيل الخير وما أمروا به أفضى بهم ذلك إلى الخير والنعيم الدائم والسرور، وإن سلكوا سبيل الشر وما نُهوا عنه أفضى بهم[4] إلى العذاب الدائم والحزن الدائم. وهو ما ذكر[5] في غير آي من القرآن من قوله: إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ،[6] الآية،

---

[1] ر م: والتعذيب.
[2] سورة الرعد، ١٣/٢٦.
[3] ر ث م: صير.
[4] م: لهم.
[5] ر ث م: وما ذكر.
[6] ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾ (سورة التوبة، ٩/١١١).

وقوله عز وجل: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ،[1] الآية، وقوله: أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى،[2] الآية، وقوله: [أُولَٰئِكَ الَّذِينَ] اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ،[3] وقوله تعالى: مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ،[4] الآية. ونحو ذلك كثير، على هذا بُنِيَ أمر الدنيا والآخرة. *والله أعلم*.

ثم قوله تعالى: **من كان يريد حرث الآخرة نَزِدْ له في حرثه**، يخرج[5] على وجهين. أحدهما أي من كان يريد بمحاسنه في الدنيا وخيراته ثواب الآخرة وخيراته نزد له في الدنيا والآخرة؛ أما في الدنيا هو التوفيق على الطاعات والزيادة له والنماء، وأما في الآخرة فالنعيم الدائم والسرور الدائم. والثاني أي[6] من كان عمل للآخرة[7] وسعى لها[8] نزد له ما ذكر من المحاسن. ويكون الإرادة هاهنا صفة لكل فاعل، كقوله: وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ،[9] وهي لا تكون[10] بدون الفعل، فكان ذكرها ذكرا للفعل ضرورة، فكان المراد منها الإرادة مع الفعل. فكذلك يخرج قوله: **ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها**، على وجهين. أحدهما من كان يريد محاسن الدنيا وسعتها نؤته منها ونوسّع عليه. والثاني من كان يريد، أي من عمل للدنيا وسعى لها نؤته منها وما عمل لها، **وما له في الآخرة من نصيب**.

|٦٩٧و س٧ *قال أبو عَوْسَجَة والقُتَبِي: **من كان يريد حرث الآخرة**، أي عمل للآخرة؛ يقال:[11] فلان يَحْرُث للدنيا، أي يعمل لها ويجمع المال. ومنه قول ابن عمرو[12] رضي الله عنهما: احرُثْ لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا. ومنه سمي الرجل حارثا.* ٦٩٧و س٩]

[1] سورة البقرة، ٢/٢٠٧.
[2] سورة البقرة، ٢/١٦.
[3] سورة البقرة، ٢/٨٦.
[4] سورة الإسراء، ١٧/١٨.
[5] ر: ويخرج.
[6] ن: أن.
[7] ر م: الآخرة.
[8] ن: وسعى له.
[9] سورة الإسراء، ١٧/١٩.
[10] جميع النسخ: لا يكون. والتصحيح من *الشرح* نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ٩٦ظ.
[11] ن: الآخرة فيقال.
[12] جميع النسخ: ابن عمر. والتصحيح من غريب *القرآن* لابن قتيبة، ٣٩٢؛ وغريب *الحديث* له أيضا، ٢/١٢٢.
* وقع ما بين النجمتين في جميع النسخ خلال تفسير الآية التالية، فقدمناه إلى هنا. انظر: ورقة ٦٩٧و/سطر ٧-٩.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٢١]

وقوله: **أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله**، قال بعض أهل التأويل: أم لهم آلهة دوني شرعوا لهم، أي سَنُّوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله، يَعْنون بالشركاء الأصنام التي عبدوها. لكن علموا أن الأصنام لم يَشْرَعوا لهم من الدين شيئا، إلا أن يقال بأنه أضاف ذلك إلى الأصنام لما هم شرعوا لأنفسهم عبادتها فأضيف إليها لذلك، وهو كقوله تعالى: رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ،[١] وإنهن / لم يُضللْن أحدا لكنه أضاف إليهن الإضلال لما بهن [٦٩٧و] ضلوا،[٢] فأضاف إليهن على التسبب، فعلى ذلك الأولُ يحتمل ذلك. ويشبه أن يكون غيره أولى بذلك، وهو أن القادة والرؤساء هم الذين سنوا للأتْباع وشرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله، أي ما لم يأمر به الله. وهم كذلك كانوا يفعلون: يَشْرعون للأتباع دينا من ذات أنفسهم بلا حجة ولا برهان فيتبعونه.[٣] والرسل عليهم الصلاة والسلام قد أتوهم بالدين بالحجج والبراهين من الله تعالى فلم يتبعوهم فيقولون: إنهم بشر، ثم[٤] يتبعون بشرا بلا حجة ولا برهان، يذكر سفههم فيما ذكر. فكان المراد من الشركاء هم الرؤساء والقادة. *والله أعلم*.* **شرعوا لهم**، أي ابتدعوا وسَنّوا، وكذلك في قوله: شَرَعَ لَكُمْ،[٦] أي ابتدع وسن.

وقوله عز وجل: **ولو لا كلمة الفصل لقضي بينهم وإن الظالمين لهم عذاب أليم**، يحتمل وجهين. أحدهما الحكم، كأنه يقول: لو لا أن الله تعالى حكم لهذا الأمة[٧] بتأخير العذاب إلى يوم القيامة، وهو ما ذكر أنه بعث رسوله صلى الله عليه وسلم رحمة لهم، بقوله: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ.[٨] والثاني الفصل البيان،[٩] تأويله: لو لا ما وعد في الدنيا أنه يفصل بينهم ويبيّن[١٠] في الآخرة بما ذكر:

---

[١] سورة إبراهيم، ٣٦/١٤.
[٢] م + فأضاف إليهن الإضلال لما بهن ضلوا.
[٣] ر ث م: فيتبعون به.
[٤] ر ث م: بم.
* وقعت هنا قطعة من تفسير الآية السابقة، فقدمناها إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٦٩٧و/سطر ٧-٩.
[٦] الآية ١٣ من هذه السورة.
[٧] جميع النسخ: في هذه الآية. والتصحيح من نسخة جار الله، ورقة ١٨٥ظ.
[٨] سورة الأنبياء، ١٠٧/٢١.
[٩] ر م: لبيان.
[١٠] ر ن م: بين.

هٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ،[1] ونحوه. وقيل: **ولولا كلمة الفصل**، أي القضاء السابق أن الجزاء يوم القيامة **لقضي بينهم** في الدنيا. *والله أعلم*.

﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾[٢٢]

وقوله عز وجل: **ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم**، ذكر إشفاق الكفرة والظلمة وخوفهم في الآخرة وإشفاق المؤمنين وخوفهم في الدنيا. فمن خاف عقوبته في الدنيا أَمِنه الله تعالى عن خوف الآخرة، ومن استهزأ بعذاب الله تعالى في الدنيا خوّفه الله تعالى في الآخرة. وعلى ذلك يخرج قوله عليه السلام: «لا يجعل الله على أحد خوفين خوف الدنيا وخوف الآخرة، من خافه في الدنيا أمن في الآخرة ومن لم يَخَفْ في الدنيا خاف في الآخرة».[2]

ثم أخبر ما للمؤمنين في الآخرة، وهو قوله: **والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم ما يشاءون عند ربهم**، ذكر ما لكل فريق بما كسبوا في الدنيا والآخرة. قال القُتَبي وأبو عَوْسَجَة: الروضة البستان. وقال الكسائي: الروضة العُشْب حول الغدير.[3] وقوله عز وجل: **ذلك هو الفضل الكبير**، أخبر أن ما يعطى لهم من الأجر فضل منه،[4] لا أنهم يستوجبون ذلك. وسماه كبيرا لأنه دائم لا ينقطع أبدا.

﴿ذٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[٢٣]

وقوله: **ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات**، قوله: **ذلك الذي يبشر الله**، أي الذي ذكر من الفضل الكبير ووعد أنه يعطيهم يبشر الله به من ذكر من عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات. *والله أعلم*.

---

[1] سورة المرسلات، ٣٨/٧٧.

[2] روي عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، يرويه عن ربه جل وعلا، قال: «وعزتي لا أجمع على عبدي خوفَيْن وأمنَيْن، إذا خافني في الدنيا أمّنته يوم القيامة، فإذا أمِنَني في الدنيا أخفتُه يوم القيامة» (صحيح *ابن حبان*، ٤٠٦/٢؛ وشعب *الإيمان* للبيهقي، ٢٢٣/٢).

[3] جميع النسخ: الغرور. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ٩٧و. الغدير: مستنقع الماء (*لسان العرب*، «غدر»). الروايات عن أبي عوسجة والقتبي وعن الكسائي لم أستطع أن أجدها في كتب التفاسير واللغة، لكن كثيرًا من اللغويين يذكرون أن في الروضة معنى البستان ومعنى العشب والماء. انظر مثلا: *تاج العروس* للزبيدي، «روض».

[4] ر م: من الآخرة والفضل منه؛ ث: والفضل منه.

وقوله: **قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى**. قال بعض أهل التأويل: قالت الأنصار: فعلنا وفعلنا كذا، فكأنهم افتخروا وقالوا: لنا الفضل عليكم. فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فأتاهم فقال: «يا معشر الأنصار! ألم تكونوا أذلة فأعزكم الله تعالى؟» قالوا: بلى يا رسول الله! قال: «ألم تكونوا فقراء فأغناكم الله تعالى؟» قالوا: بلى يا رسول الله! قال: «ألم تكونوا ضُلّالا فهداكم الله؟» قالوا: بلى يا رسول الله![١] قال: «أفلا تجيبوني؟» قالوا: ما نقول[٢] يا رسول الله؟[٣] قال: «ألا تقولون: ألم يخرجك قومك فآويناك؟ أوَ لم يكذبوك فصدقناك؟ أوَ لم يَخذُلوك[٤] فنصرناك؟» قال: فمازال[٥] يقول حتى جَثَوْا للرُّكَب[٦] بين يديه وقالوا: أموالنا وما في أيدينا لرسول الله والفضل لله ولرسوله،[٧] فنزلت قوله تعالى: **قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى**.[٨] لكن ذكر في الخبر ما لا يليق ذلك بالأنصار أن يظنوا ذلك برسول الله، وكذلك ما ذكر من فخرهم وقولهم: لنا الفضل عليكم، هذا لا يحتمل منهم. فدل أن الحديث غير صحيح أو الزيادةَ التي لا تحتمل[٩] منهم.[١٠] ***والله أعلم***. وفي بعض الأخبار أن الأنصار رضي الله عنهم قالوا: إن رسول الله[١١] صلى الله عليه وسلم تنوبه النوائب من القرابة وغيرهم فتعالوا[١٢] حتى نجمع له شيئا من أموالنا[١٣] فيستعين[١٤] به على ما ينوبه[١٥] من الحقوق، ففعلوا. ثم أتوا به فقالوا: إنك قد تنوبك نوائب وحقوق وليست عندك لها سعة،

[١] جميع النسخ – قال ألم تكونوا ضلالا فهداكم الله قالوا بلى يا رسول الله. والزيادة من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ٩٧و.
[٢] ر ث م: ما تقول. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ٩٧و.
[٣] ن – قالوا ما نقول يا رسول الله.
[٤] ث: أو لم يخذلون.
[٥] ر م: فماذا.
[٦] ن: للراكب.
[٧] ر م: والفضل لرسوله.
[٨] انظر: *تفسير الطبري*، ٤٩٩/٢٠؛ و*تفسير ابن أبي حاتم الرازي*، ٣٢٧٧/١٠.
[٩] جميع النسخ: لا يحتمل.
[١٠] ر ث م – منهم.
[١١] ن م: إن لرسول الله.
[١٢] ر: فقالوا.
[١٣] م + شيئا.
[١٤] ن: فنستعين.
[١٥] ر م: من ينوبه.

فأتيناك بشيء تستعين به على ما ينوبك من النفقة في أهلك والنازلين بك، فنزل قوله: **قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى**.[1]

ثم يخرج قوله: **قل لا أسألكم عليه أجرا**،[2] على وجوه. أحدها يقول: لا أسألكم على ما أبلّغكم من الرسالة وأدعوكم إلى الإيمان بالله تعالى وبي[3] أجرا إلا صِلَةَ أرحامكم وقراباتكم،[4] أي لا أسألكم على تبليغ الرسالة إليكم وما أدعوكم[5] إليه أجرا إلا أن تصلوا قراباتكم وأرحامكم، فتدل الآية على / وجوب صلة الأرحام. ويحتمل أن يكون ذكر هذا ردا لقول أولئك الكفرة [٦٩٧ظ] حيث قالوا: إن محمدا جاء بقطع الأرحام وتفريق القرابات حتى فرق بين من أجابه[6] إلى ما دعاه إليه وبين من لم يجبه من الوالد والولد والزوج والزوجة ونحو ذلك. فقال عند ذلك: **لا أسألكم عليه أجرا**، ولا أدعوكم إلى قطع الأرحام والقرابات، بل ما أطلب منكم إلا صلة الأرحام بما دعوتكم إليه. ويحتمل أن يقول: لا أسألكم على ما أدعوكم إليه أجرا أو لا أقبله منكم إن أعطيتموني إلا أن تصلوني بحق القرابة والرَّحِم التي بيني وبينكم فأقبله منكم، وقد كان بينه وبينهم قرابات ورحم. ويحتمل ما قال الحسن فقال: والله ما كان نبي الله تعالى يسأل على هذا القرآن أجرا ولكنه أَمَر أن يتقربوا إلى الله تعالى بطاعته وحبّ كتابه، فكان معنى الآية **إلا المودةَ في القربى**، أي إلا التقرب إلى الله تعالى والتودد بالعمل الصالح.[7] وقال بعضهم: **إلا المودةَ في القربى**، إلا أن تَوَدُّوني لأجل قرابتي كما تودون لقرابتكم وتواصلون بها؛ ليس هذا الذي جئت به يقطع[8] ذلك عني،[9] ولست أبتغى على الذي جئت به أجرا آخُذُه منكم على ذلك. وقال قتادة: إن الله تعالى أمر محمدا صلى الله عليه وسلم أن لا يسأل على هذا القرآن والتبليغ أجرا إلا المودة في القربى [أي] إلا أن يصلوا ما بينه وبينهم من القرابة،

---

[1] ذكر السيوطي رواية قريبة منها وزاد: أخرج الطبراني في *الأوسط* وابن مردويه بسند ضعيف من طريق سعيد بن جبير. انظر: *الدر المنثور*، ١٣/١٤٤-١٤٥. وانظر أيضا: *المعجم الأوسط* للطبراني، ٦/٣٥٤-٣٥٥.

[2] ر م – ثم يخرج قوله قل لا أسألكم عليه أجرا.

[3] ر م: ربي.

[4] ر م: وقرابتكم.

[5] ر م: وأدعوكم.

[6] ر م: إجابة.

[7] *تفسير الطبري*، ٢٠/٥٠٠-٥٠١.

[8] ر م: بقطع.

[9] ر: تمني.

وكل بطون قريش بينه وبينهم قرابة.[١] وقال بعضهم إلا أن تَوَدُّوا قرابتي. وقال بعضهم: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن لم تتبعوني على ما أدعوكم إليه وآمركم به فاحفظوني في قرابتي».[٢] وأصله ما ذكرنا. **والله أعلم**.

وقوله: **ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا**، هو كقوله تعالى: مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ.[٣] **والله أعلم**. قال أبو عَوْسَجَة: الاقتراف الاكتساب، والمقارفة المعاشرة، وقُرِف فلان فهو مقروف، أي اتُّهِم[٤] بشيء.[٥] وقوله عز وجل: **إن الله غفور شكور**، قوله: **غفور**، أي يغفر لهم وإن لم يحققوا التوبة والرجوع سرا وعلانية ولم يستوجبوا الغفران والعفو. وقوله: **شكور**، أي يشكر ويقبل منهم الشكر وإن لم يحققوا له الشكر ولم يستحقوا قبوله، فضلا منه ونعمة. **والله أعلم**. وقال أهل التأويل: **غفور** للذنوب، **شكور** للحسنات يضاعفها. **والله أعلم**.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُو اللهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[٢٤]

وقوله عز وجل: **أم يقولون افترى على الله كذبا**، أي بل يقولون: افترى محمد على الله كذبا. وقوله: **فإن يشأ الله يختم على قلبك**، اختلف فيه. قال بعضهم: فإن يشأ الله يختم على قلبك بالصبر حتى لا تجدَ مشقة استهزائهم بك ولا غُصَّة[٦] تكذيبهم إياك. وقال بعضهم: فإن يشأ الله أن يُنْسيك القرآن[٧] فلا تُبلِّغْه إليهم فلا يستهزءوا بك ولا يكذبوك، أو كلام نحوه.

---

[١] *تفسير الطبري*، ٤٩٧/٢٠. وآخر قول قتادة قول ابن عباس أخرجه كثير من المحدثين. ولفظ الترمذي هكذا: سئل ابن عباس عن هذه الآية: ﴿قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى﴾ فقال سعيد بن جبير: قربى آل محمد صلى الله عليه وسلم، فقال ابن عباس: أَعَلِمْتَ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة؟ فقال: إلا أن تَصِلُوا ما بيني وبينكم من القرابة. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، وقد رُوي من غير وجه عن ابن عباس. انظر: *سنن الترمذي*، التفسير ٤٣.

[٢] *تفسير الطبري*، ٤٩٥/٢٠؛ و*تفسير ابن أبي حاتم الرازي*، ٣٢٧٥/١٠.

[٣] الآية ٢٠ من هذه السورة.

[٤] م: اتهم.

[٥] يقال: هو يُقرَف بكذا، أي يرمى به ويتهم، فهو مقروف. وقَرَف الرجلَ بسوء: رماه. وقَرَف عليه قَرْفا كذب، وقَرَفه بالشيء، اتهمه (*لسان العرب*، «قرف»).

[٦] الغصة: الشجا، أي الهم والحزن (*الصحاح*، «غصص» و«شجو»).

[٧] جميع النسخ – القرآن. والزيادة من نسخة جار الله، ورقة ١٨٧و.

وعندنا أنه يخرج على وجهين. أحدهما ما ذكرنا بدءا: فإن يشأ الله يختمْ على قلبك بالصبر[١] حتى لا تجدَ مشقة الاستهزاء ولا غصة التكذيب. والثاني يحتمل فإن يشأ الله يختم على قبلك كما ختم قلوب أولئك الكفرة حتى لا تفهمَ ولا تعقلَ[٢] الحق من الباطل كما فعل بأولئك، يُذكِّره إحسانه إليه وفضله بما أكرمه بأنواع الكرامات التي أكرمه بها، ليَشكر ربه على ذلك ويَرحم على أولئك بما ختم على قلوبهم وما ينزل بهم من أنواع العذاب. وعلى ذلك بلغ أمرُه صلى الله عليه وسلم من الرحمة والشفقة عليهم ما ذكر: فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ،[٣] الآية، وقوله تعالى: فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ،[٤] كادت نفسه تَهْلِك[٥] إشفاقا عليهم ورحمة. ***والله أعلم***.

وقوله عز وجل: **ويَمْحُو الله الباطل ويُحق الحق بكلماته**، هذا يخرج على وجهين. أحدهما أي يُظهِر ويُظفِر أهل الحق على أهل الباطل ويَنصرهم حتى يصيرَ أهل الحق ظاهرين قاهرين على أهل الباطل، فذلك محو الباطل[٦] وإحقاق الحق. والثاني يحق الحق بالحجج والبراهين حتى يعرف كل أحد الحق من الباطل بالحجج التي أقامها إذا تأمل فيها حق التأمل،[٧] وهو كقوله تعالى: هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ.[٨] ***والله أعلم***. وقوله: **بكلماته**، أي بحججه وبراهينه. وقوله عز وجل: **إنه عليم بذات الصدور**، قال أهل التأويل: أي عليم بما في الصدور، ولكن قوله: **بذات الصدور**، عبارة عمن له الصدور عن الرأي والتدبير وهم البشر.[٩] ***والله أعلم***.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾[٢٥]

وقوله عز وجل: **وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات**، قد ذكرنا أنه لا أحد يحقق التوبة، لأن تحقيق[١٠] التوبة هو أن يَهرُب ويفِرّ عما استوجب به النار كهَرَبِه من النار

---

[١] ر: بالنصر.
[٢] ر ث م: حتى لا يفهم ولا يعقل.
[٣] سورة الكهف، ٦/١٨.
[٤] سورة فاطر، ٨/٣٥.
[٥] ن ث: يهلك.
[٦] جميع النسخ: محق الباطل. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ٩٧ظ.
[٧] م: حق التأويل؛ ن: حق الباطل.
[٨] سورة التوبة، ٣٣/٩.
[٩] انظر: *تفسير الطبري*، ٥٠٥/٢٠.
[١٠] ر م: تحقق.

لو كان فيها وفراره منها لو وجد مَهْرَبًا. ولا أحد يَهرُب من الذنب ويفر منه كهربه وفراره من النار لو كان فيها. لكن الله تعالى بفضله وكرمه يقبل ذلك منه وإن لم يكن التوبة منه على الحد الذي ذكرنا. ثم قوله تعالى: **يقبل التوبة عن عباده**، أي يقبل حسناتهم وخيراتهم؛ **ويعفو عن السيئات**، أي يكفر عن سيئاتهم، كقوله تعالى: [أُولَئِكَ الَّذِينَ] نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ.[1] ***والله أعلم***. وقوله: **ويعلم ما تفعلون**، هذا وعيد يُخبِر رسولَه عليه الصلاة والسلام أنه يَعلم ما تفعلون سرا وعلانية، وأنه عن علم بما يكون منهم امتحنهم وأمرهم / ونهاهم. ***والله أعلم***. [٦٩٨و]

﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾[٢٦]

وقوله عز وجل: **ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات**، أي يجيب الذين آمنوا بما يدعون ويسألون ربهم، وهو كقوله تعالى: وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ،[2] أي يجيبهم على الذي ذكر في الآية. ***والله أعلم***. وقوله عز وجل: **ويزيدهم من فضله**، أي يزيدهم من فضله مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب امْرِءٍ مسلمٍ،[3] وهي الجنة، وذلك زيادةٌ من فضله. ***والله أعلم***. وقال في حق الكفرة: **والكافرون لهم عذاب شديد**.

﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾[٢٧]

وقوله عز جل: **ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض**، قال أهل التأويل: إن الآية نزلت في أهل الصُّفَّة، تمنوا أن تكون لهم الدنيا؛ فإن كانت فيهم فكأنه يُطيِّب[4] عليهم الضيق والقَتْر. وقال بعضهم: **لبغوا في الأرض**، أي يتقلبون[5] من لباس إلى لباس ومن مركب إلى مركب،

---

[1] سورة الأحقاف، ١٦/٤٦.

[2] سورة البقرة، ١٨٦/٢.

[3] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى الحديث الذي أخرجه كثير من أصحاب الصحاح، انظر مثلا: صحيح *البخاري*، التوحيد ٣٥؛ وصحيح *مسلم*، الجنة ٣-٦.

[4] جميع النسخ: طيب. والتصحيح من نسخة جار الله، ورقة ١٨٨و.

[5] ر م: أن يتقلبون.

ولكن ليس في ذلك كثيرُ بغيٍ فلا يصح صرف التأويل إليه. ثم عندنا يخرج **ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض**، مخرج الامتنان والإفضال، وله أن يبسط عليهم وإن علم منهم البغي. ألا ترى أنه لو لم يوسّع على فرعون لكان[1] لا يدعى الألوهية، لكنه منّ على بعض المؤمنين فضَيَّق عليهم حتى لا يبغوا، فيُلزمهم بذلك القيامَ بشكر ما منّ عليهم، وأنعم بالتضييق حتى لا يبغوا. وكذلك يخرج ما روي: منعُ الله عطاءٌ.[2]

وفيما ذكرنا جواب عمن تعلق بظاهر الآية على أن الأصلح واجب حيث قال: **ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض**، بين أن الأصلح لهم أن لا يبسط. لأنا نقول: قد بسط كثيرا من الفراعنة والكفرة فبغوا، لكن ذكر هذا لبيان[3] المنة والإنعام بالتقتير والتضييق في حق البعض حتى لا يبغوا. ***والله أعلم***.

ثم البغي هو التعدى عن حد[4] الله الذي حد لهم والمجاوزةُ عنه، ولكن لا نفسر ما ذلك الحد[5] الذي سُمّي التعدى عنه بغيا لما لا يُعلم ما هو. ويحتمل أن يكون معنى قوله: **ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض**، أنه لو بسط عليهم ووَسَّع لزمهم الشكر؛ والبسط وكثرة المال يَشغلهم ويمنعهم عن القيام بشكره وما أوجب عليهم من الفرائض والأحكام، **ولكن ينزّل بقدرٍ ما يشاء**، ما لا يشغلهم ولا يمنعهم عن القيام بالذي يلزمهم. ***والله أعلم***.

وقوله: **إنه بعباده خبير بصير**، قد تقدم تأويله.

ثم حاصل تأويلها يرجع إلى وجوه ثلاثة. أحدها إلى أهل الكفر أنه لو وسع عليهم وبسط لبغوا في الأرض، أي صاروا كلهم أهل كفر وضلال، كقوله تعالى: وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ،[6] الآية.

والثاني يتوجه إلى خاص من المؤمنين لِمَا علم منهم أنه لو بسط عليهم ووَسّع لبغوا في الأرض، فضَيَّق عليهم وقَتَّر امتنانا منه وفضلا لئلا يبغوا. وهو كما ذكرنا في أحد تأويل قوله تعالى:

---

[1] ر ث م – لكان.

[2] ر م: عطا. روى أبو نعيم الإصفهاني هذا الكلام عن أبي حبيب البدوي. انظر: *حلية الأولياء*، ٢٨٨/٨.

[3] ر: البيان.

[4] ر م: من حد.

[5] جميع النسخ: ما الحد. والزيادة من نسخة جار الله، ورقة ١٨٨و.

[6] ﴿ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظْهرون﴾ (سورة الزخرف، ٣٣/٤٣).

وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ،[١] أنه إن كان[٢] على حقيقة العبادة[٣] له[٤] خلقهم فهو في الذين علم[٥] منهم أنه يعبدون لا محالة، خلقهم[٦] ليعبدوه على ما ذكر؛ فأما الذين يعلم أنهم لا يعبدونه لا يحتمل أن يخلقهم للعبادة ولكن يخلقهم لما علم أنه يكون منهم. *والله أعلم*. فعلى ذلك قوله: **ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض**، يرجع إلى قوم خاص يعلم الله تعالى منهم أنه لو بسط عليهم ووسّع لبغوا في الأرض فضيق عليهم فضلا منه ومنة، فيلزمهم القيام بشكر ذلك له. *والله أعلم*.

[والثالث] أو أن يرجع ذلك إلى جملة الخلق من مؤمن وكافر أنه لو وَسّع وبسط على الكل لصاروا جميعا ملوكا، ومن عادة الملوك وطباعهم البغي والغلبة على من نازعهم في ملكهم ومملكتهم،[٧] وفي ذلك التفاني والفساد، فوسّع على بعضهم وبسط، وضيّق على بعض لئلا يبغى بعض على بعض، إذ في ذلك[٨] تفانٍ وتفاسدٌ. *والله أعلم بذلك*.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾[٢٨]

وقوله عز وجل: **وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته**، يحتمل قوله: **من بعد ما قنطوا**، أي من رحمته، أو من بعد ما قنطوا من الأصنام التي عبدوها رجاء الغوث والشفاعة لهم والزلفى عند الله قنطوا ما رجوا منها، كقوله: وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ.[٩] ثم سمى المطر رحمة وغيثا، أي الغوث ليعلم أن له أن يمسك عنهم ويمسكهم على الحال الأولى في القحط والضيق، إذ لو كان عليه إرساله ولم يكن له إمساكه لم يسمه رحمة ولا غوثا، لأن من عليه فعل شيء لم يوصف بالفضل والرحمة. فهو على المعتزلة في الأصلح. *والله الموفق*.

[١] سورة الذاريات، ٥٦/٥١.
[٢] ن: أنه كان.
[٣] جميع النسخ – العبادة. والزيادة من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ٩٨ظ.
[٤] ر: لهم.
[٥] ر م – علم.
[٦] جميع النسخ – خلقهم. والزيادة من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ٩٨ظ.
[٧] ن ر م – ومملكتهم.
[٨] ن ث: أو في ذلك.
[٩] سورة الإسراء، ٦٧/١٧.

وقوله: **وهو الولي الحميد**، يحتمل **الولي**، أي هو الرب، **الحميد**، هو المستحق للحمد؛ أو **الولي**، هو الحافظ لهم وولي كل نعمة أعطاهم، **الحميد**، بما ذكر من التضييق عليهم لئلا يبغوا في الأرض.[1]

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾[٢٩]

وقوله: **ومن آياته خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة**، قوله تعالى: **ومن آياته**، يحتمل من آيات ربوبيته وتوحيده خلق السماوات والأرض وما ذكر، أو [من] آيات حكمته وعلمه وتدبيره خلق ما ذكر،[2] أو [من] آيات قدرته وسلطانه ما ذكر،[3] أو من آيات إحسانه ونعمه وأياديه ما ذكر. وقد بينا وجه كل ذلك ودلالته على قدر فهمنا منه فيما تقدم.[4]

[٦٩٨ظ] / ثم اختلفوا في قوله: **وما بث فيهما من دابة**. قال بعضهم: قوله تعالى: **وما بث فيهما**، أي في الأرض خاصة، ألا ترى أنه قال من دابة، وهي اسم لما يَدُبّ، وأهل السماء[5] ملائكة ولهم الطَّيَرَان دون الدبيب. وهو كقوله تعالى: يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ،[6] وإنما[7] يخرج من أحدهما. وقال بعضهم: **فيهما**، أي في السماء الملائكة وفي الأرض الدواب، لكنه سمى أهل السماء باسم ما في الأرض من الدواب، وذلك جائز في اللغة: ذكر شيئين باسم أحدهما، كقوله: وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ،[8] والكناية يرجع إلى الصلاة لفظا، والمراد ما[9] سبق من الصبر والصلاة، وكذا قوله: وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا،[10] كنى عن التجارة وأراد كليهما، ونحو ذلك. فعلى ذلك هذا. ثم قوله: **وما بث فيهما**، قالوا: أي نشر.[11]

---

[1] ر ث م – الحميد بما ذكر من التضيق عليهم لئلا يبغوا في الأرض.
[2] جميع النسخ: مما ذكر. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ٩٨ظ.
[3] ر ث م: مما ذكر.
[4] انظر: سورة الروم، ٢٢/٣٠.
[5] ن: أهل السماء.
[6] سورة الرحمن، ٢٢/٥٥.
[7] ر ث: وإنهما؛ ن: وإنه.
[8] سورة البقرة، ٤٥/٢.
[9] ن: مما.
[10] سورة الجمعة، ١١/٦٢.
[11] جميع النسخ: تنشر. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ٩٨ظ.

وقوله عز وجل: **وهو على جمعهم إذا يشاء قدير**، يحتمل ما ذكر من جمعهم بَعْثَهم وإحياءهم، قدير[١] على ذلك كما هو قدير[٢] على ما ذكر من خلق السماوات والأرض وما ذكر. ***والله أعلم.***

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾[٣٠]

وقوله عز وجل: **وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير**، يحتمل ما ذكر من المصيبة التي تصيبهم[٣] المصيبةَ التي تعمّ[٤] الخلق جميعا ممن كان منهم الزلةُ وما ذكر من كسب اليد، وممن لم يكن منهم كسب اليد من الزلة والمعصية: من نحو الجَدْب والقحط وغَلَبَة الأعداء وغير ذلك من الأشياء التي تعمّ[٥] الخلائق ممن كان منه الجناية وممن لم يكن من الصغار والدواب والأبرار والأخيار. فيكون ما أصاب ممن كان ذلك منه واستوجبه تنبيها لهم وموعظة، أو كفّارةً لما كان منهم من كسب اليد؛ وما أصاب ذلك ممن لم يكن منهم ذلك من الصغار والأخيار فذلك في الحكمة. وهو يخرج على وجهين. أحدهما يصيب ذلك لهم ابتلاءً بشيء سبق منهم ليُعلَم أن ما يعطيهم من السلامة والصحة والحسنات والخيرات كان فضلا منه، وهم عبيده وإماؤه وملكه، إن شاء أهلكهم وفعل بهم ما شاء،[٦] وإن شاء[٧] أبقاهم. أو أن يفعل بهم ما ذكر،[٨] وإن لم يَسبِق منهم ما ذكر من كسب اليد والزلة لعوض يعوّضهم[٩] في الآخرة. وكيف ما كان فهو غير خارج عن الحكمة. والإيلامُ للتعويض جائز ممكن، لكن ليس بواجب -لا محالةَ- التعويضُ، خلافا للمعتزلة فإن عندهم واجب. ***وبالله العصمة.***

وجائز أن يكون ما ذكر من المصيبة التي تصيبهم[١٠] بكسب اليد أن يريد كلا في نفسه، يصيبه بما سبق منه من شيء ارتكبه واكتسبه.[١١] فالسبيل فيه أن ينظر كلٌّ في نفسه[١٢] ما الذي سبق منه

---

[١] ن: قدر.
[٢] ن: قدر.
[٣] جميع النسخ: يصيبهم. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ٩٨ظ.
[٤] جميع النسخ: يعم. والتصحيح من المرجع السابق، ورقة ٩٨ظ.
[٥] جميع النسخ: يعم. والتصحيح من المرجع السابق، ورقة ٩٨ظ.
[٦] ر م - وفعل بهم ما شاء.
[٧] ن - إن شاء.
[٨] ن: ما ذكرن؛ ر: ما ذكروا.
[٩] ر م: يعوض.
[١٠] جميع النسخ: يصيبهم. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ٩٨ظ.
[١١] ن: والكسبة.
[١٢] ن: في هسه.

حتى أصابه ما أصاب، فيراجعَ نفسه عن ذلك ويتوب إلى الله تعالى. ثم يخرج ذلك لهم إما تنبيها وزجرا عن المعاودة إلى مثله، وإما تكفيرا وتمحيصا لما كان منهم فيلزمهم[1] الشكر على ذلك. وقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول: «لا يصيب ابنَ آدم خَدْشُ عُودٍ ولا عَثْرةُ قدمٍ ولا اختلاجُ عِرقٍ إلا بذنب وما يعفو الله [عنه] كثير».[2]

وعلى قول المعتزلة ليس لله تعالى أن يؤلم أحدا ولا يذيقه شيئا من الشدة إلا بعوض يعوّض له. ولو كان[3] على ما يقولون لم يكن الله تعالى[4] في إعطائهم الخيرات والحسناتِ والسعةَ محسنا مُفْضلا منعما، لأن من أخذ من آخر[5] شيئا بعوض لا يوصف بالإفضال والإنعام، وقد سمي نفسه بذلك محسنا منعما،[6] فيكون ما قالوا خلاف ذلك.

والثاني إن كان بعوض على ما يقولون يجب أن يعوّضهم عوضا يَرضَون بذلك العوض، ويكون ذلك العوض مثل ما أخذ منهم، وهم لا يشترطون ذلك، دل أن له أن يفعل لهم ما ذكرنا. وأصله ما ذكرنا أن الخلق كلهم عبيده وإماؤه، ولكل ذي مَلِك أن يفعل في ملكه ما شاء لا لائمةَ عليه، إذ كان له حقيقة الملك. فعلى ذلك اللهُ سبحانه وتعالى، إذ له حقيقة ملك الأشياء فله أن يفعل ما يشاء[7] بلا عوض ولا بدل. **والله أعلم**.

وقوله: **ويعفو عن كثير**، ليس أحد يصيبه شيء من الشدة والبلاء إلا ويكون في ذلك عفوٌ منه جل جلاله، لأنه ما من ألم إلا ويتوهَّم زيادة الألم في ذلك، فيكون منع تلك الزيادة عنه عفوا عنه[8] وفضلا. فكذلك[9] هذا في هلاك كل شيء من حقوقه ما يَقِلّ ويَكثُر. ويحتمل أن يكون قوله: **ويعفو عن كثير**، أي لا بكل زلة منهم يكون يؤاخذهم[10] بها، بل يؤاخذهم ببعض ويتجاوز عنهم في بعض. **والله أعلم**.

---

[1] ر ث م: ولزمهم.

[2] انظر: شعب *الإيمان* للبيهقي، ١٢/٢٥٣/٢٥٤؛ وانظر أيضا: *تفسير الطبري*، ٢٠/٥١٣-٥١٤.

[3] ن ث: وإن كان.

[4] ر م – أن يؤلم أحدا ولا يذيقه شيئا من الشدة إلا بعوض يعوض له ولو كان على ما يقولون لم يكن الله تعالى.

[5] ر م – من آخر.

[6] ث – لأن من أخذ من آخر شيئا بعوض لا يوصف بالإفضال والإنعام وقد سمي نفسه بذلك محسنا منعما.

[7] ن: وله أن يفعل ما شاء.

[8] ن: منه.

[9] جميع النسخ: ولذلك. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ٩٩و.

[10] ر م: بواحد؛ ث: بواحدهم.

﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[٣١]

وقوله: **وما أنتم بمعجزين في الأرض**، يقول: لا تقدرون[١] الهرب مما يريد أن يصيبكم بزلاتكم وما يريد أن يفعل بكم، ولا لكم ملجأ. وقوله عز وجل:[٢] **وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير**، أي ليس لكم ولي يحفظكم ويدفع عنكم ذلك العذاب، ولا نصير[٣] ينصركم ويمنعكم من عذاب الله. *والله أعلم*.[٤]

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾[٣٢]

وقوله عز وجل: **ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام**، يحتمل آياته ما ذكرنا من آيات وحدانيته وربوبيته، وآيات قدرته وسلطانه، وآيات علمه وتدبيره وحكمته، وآيات نعمه وإحسانه. وهو ما جعل الله جل وعز في سِرِّيَّة الخشب في السفن معنى لو اجتمع حكماء البشر لِيَعرفوا ذلك المعنى واللطفَ الذي جعل في الخشب ما قدروا على إدراكه، وذلك المعنى واللطف المجعول فيها هو[٥] ما جعل من طبعها السكونَ على وجه الماء والقرار عليه مع ثقلها / وغلظها، وإن كان بدون ذلك الثقل والعظم بكثير من غير جوهر الخشب مما [٦٩٩و] يتسرب في الأرض وينحدر. وكذلك مما يُحْمَل في السفن من الأحمال العظيمة الثقيلة مما طَبْع كلٍّ من ذلك الحِمْل أن يتسرب وينحدر في الماء لو لم يكن السفن وما ذكر من الخشب. *والله أعلم*. ثم قوله: **كالأعلام**، قال عامة أهل التأويل: أي كالجبال في البحار. وقال القُتَبِي وأبو عَوْسَجَة: الأعلام الجبال،[٦] واحدها عَلَم.[٧] ومعنى هذا الكلام هو ما ذكر من مَيْد[٨] الأرض بأهلها والتسرب في الماء، ثم أرساها وأثبتها بالجبال. وطَبْع الجبال التسرّب والانحدار في الماء، فيجيء أن يزيد في التسرب والانحدار في الماء لا أن يُثبتها ويُقِرّها على وجه الماء،

---

[١] ر ث م: لا يقدرون.

[٢] ر م - وقوله عز وجل.

[٣] ر م - أي ليس لكم ولي يحفظكم ويدفع عنكم ذلك العذاب ولا نصير.

[٤] - والله أعلم.

[٥] جميع النسخ - هو. والزيادة من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ٩٩و.

[٦] ن: والجبال.

[٧] غريب *القرآن* لابن قتيبة، ٣٩٤.

[٨] ماد الشيء يميد مَيْدا: تحرك ومال بشدة. وماد الشيء يميد ميدا: زاغ وزكا. وفي الحديث لما خلق الله الأرض جعلت تميد فأرساها بالجبال (*لسان العرب*، «ميد»).

لكن بلطفه ومَنّه أقرّ بها الأرض وأثبتها[1] ومنع بها عن التسرب والانحدار والميد بأهلها. فعلى ذلك السفن في البحار تستقر[2] على الماء ولا ينحدر كالجبال مع الأرض في القرار على الماء. **والله أعلم**. ويحتمل قوله: **كالأعلام**، معنى آخر، وهو الأعلام أنفسها، وهو أن جعل[3] السفن سببا وطريقا للوصول إلى منافع بعدت منهم وصعبت عليهم. فإذا حُمل فيها الأحمال من بلد إلى بلد آخر ومن مكان إلى مكان يُسَرّ أهل المحمول إليهم[4] بتلك الأحمال والسفن إذا رأوها في البحار يحمل إليهم لسعة يرجون بها ومنافع يتصل لهم. وكذلك يسرّ أهل البلد المحمول عنهم[5] إذا رأوها راجعة إليهم سالمة، لما يحصل لهم من الأثمان[6] والأعراض بها، فيكون السفن أعلاما وأدلة لهم على الوصول إلى الأغراض والمنافع. **والله أعلم**.

﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[٣٣]

وقوله: **إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره**، يذكر فضله ومنته بما أجرى هذه السفن في البحار التي ذكر، فأخبر أنه لو شاء لأمسكها ومنعها عن[7] الجريان. ثم صير الريح نوعين. إحداهما[8] طيبة بها تجري السفن والأخرى عاصفة شديدة تَهلِك بها السفن، وهو ما ذكر في آية أخرى، وهو قوله تعالى: حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ،[9] الآية. ثم في ذلك خلال ثلاث تدل[10] على أن الريح ليست تُجرى السفن وتَهُبُ[11] بطبعها وبنفسها ولكن بالله تعالى. أحدها أنه أخبر أنه جعل نوعا منها طيبة تُجرى السفن،

[1] ر ث م: ولا يثبتها.
[2] ن: يستقر.
[3] ن: وهو جعل.
[4] م – إليهم.
[5] ر م – عنهم.
[6] جميع النسخ: الايمان. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ٩٩ظ.
[7] ر م: على.
[8] ر ث م: أحدهما.
[9] ﴿هو الذي يُسيّركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين﴾ (سورة يونس، ٢٢/١٠).
[10] جميع النسخ: يدل. والتصحيح من المرجع السابق، ورقة ٩٩ظ.
[11] جميع النسخ: ويهب. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ٩٩ظ.

والأخرى عاصفة[١] تُهلك[٢] السفن وتَهيج[٣] الأمواج. والثاني ما ذكر في هذه الآية: **إن يشأ يسكن الريح**، أخبر أنه لو شاء[٤] لأسكن الريح فيبقَيْن[٥] رواكد على ظهر الماء، فدل أنه هو المُجري لها حيث كان هو المُسكنَ. والثالث أن الفعل[٦] الطبيعي على سَنَنٍ واحد كالحرارة في النار والبرودة في الثلج وأمثال ذلك. ولو كان جريان الريح وهبوبها بنفسها وطبعها لكانت لا تَسكن[٧] في حال ولا تكون[٨] مرة طيبة سالمة ومرة شديدة عاصفة مهلكة، دل أن ذلك كان بالله تعالى لا بالطبع. *والله الموفق*.

وقوله: **إن في ذلك لآياتٍ لكل صبار شكور**. هذا يحتمل وجهين. أحدهما سمى المؤمن صبورا شكورا. والثاني سَمّى من صبر على ما أصابه[٩] من الشدائد والمصائب التي ذكر صبورا، ومن شكر ما ذكر من النعم في السفن وغيرها شكورا. *والله أعلم*.

وقوله:[١٠] **رواكد على ظهره**، قال أبو عَوْسَجَة والقُتَبي:[١١] أي وقوفًا،[١٢] وصرفه رَكَد يَركُد رَكْدًا ورُكُودا.

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾[٣٤]

وقوله: **أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير**، جائز أن يكون هذا[١٣] صلة ما ذكر من السفن الجواري في البحر[١٤] حيث قال: إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ،[١٥]

---

[١] ر م: على صفة.
[٢] ن: يهلك.
[٣] جميع النسخ: ويهيج. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ٩٩ظ.
[٤] ث + لأمسك.
[٥] ر م: فيقين.
[٦] جميع النسخ: فعل. والتصحيح من المرجع السابق، ورقة ٩٩ظ.
[٧] ر ث م: لا يسكن.
[٨] جميع النسخ: ولا يكون. والتصحيح من المرجع السابق، ورقة ٩٩ظ.
[٩] ر م: على ما أصاب.
[١٠] ن: ثم قوله تعالى.
[١١] قال ابن قتيبة: أي سواكن على ظهر البحر. *تفسير غريب القرآن*، ٣٩٤.
[١٢] ر ن م: وقوف.
[١٣] ن – هذا.
[١٤] ن + التي بها يجرى بها السفن.
[١٥] الآية السابقة.

يقول إن يشأ أسكن الريح التي بها تجرى[1] السفن في البحار، فيبقَيْن[2] رواكد في الماء، وإن شاء أرسل ريحا عاصفة قاصفة[3] شديدة فيهلكُهن[4] يعني السفن، وأراد أهلَ السفن بما كان منهم. يخبر أن له أن يفعل ما ذكر من الإهلاك في البحر أو الإبقاء فيه لكنه بفضله يُنجي من أنجى وأخرج منه[5] سالما. *والله أعلم*. وكذا قال أبو عَوْسَجَة: يُوبِقْهُنّ، أي يهلك[6] أهل السفن. ويحتمل أن يكون ذلك صلة ما تقدم من قوله تعالى: وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ،[7] فيكون ما يصيبهم من المصيبة ما بلغت[8] النفسَ أو مما لم تبلغ[9] النفسَ، فيكون كل ذلك لهم من كسب أيديهم على ما ذكر. ثم أخبر أنه يعفو عن كثير مما كسبت أيديهم مما يستوجبون الإهلاك ويتجاوز عنهم. *والله أعلم*.

﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾[٣٥]

وقوله: **ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص**، المجادلة في آياته تخرج[10] على وجهين. أحدهما أن يجادلوه في تقدير أحكام الله تعالى وفهم ما ضُمّن فيها، وذلك ممدوح محمود، وهو كقوله تعالى: وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ،[11] وقوله عز وجل: فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا،[12] فهذه المجادلة والمراء المذكور في هذا محمود.[13] والمجادلة الثانية هي المجادلة في دفع أحكام آيات الله تعالى والحيلولة[14] عن فهم ما ضُمّن فيها،[15] وهي مذمومة.

---

[1] ن: يجرى.
[2] ر م: فبقين.
[3] ر م – قاصفة.
[4] ر ث م: فيهلكن.
[5] ر م – منه.
[6] ر م: ليهلك.
[7] الآية السابقة برقم ٣٠ من هذه السورة.
[8] ن: وما بلغت.
[9] جميع النسخ: لم يبلغ. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ٩٩ظ.
[10] جميع النسخ: يخرج. والتصحيح من المرجع السابق، ورقة ٩٩ظ.
[11] سورة العنكبوت، ٤٦/٢٩.
[12] سورة الكهف، ٢٢/١٨.
[13] م: لمحمود.
[14] ر ث م – والحيلولة.
[15] ر ث م – فيها.

وما ذُكر هاهنا من قوله: **ويعلم الذين يجادلون في آياتنا**، هي المجادلة في دفع[١] / أحكام آياته. [٦٩٩ظ]
ثم أخبر أنه لا محيص لهم ولا ملجأ من عذاب الله بمجادلتهم في دفع آياته والمنع عن فهم ما فيها.
والله أعلم.[٢]

﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[٣٦]

وقوله: **فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى**، هذا يخرج على وجهين. أحدهما أن الله تعالى أعطى من أعطى هذه النعم واللذات في هذه الدنيا ليكتسبوا بها نعمة دائمة ولذات[٣] باقية، وكذلك ما أعطاهم من السمع والبصر وغير ذلك من الحواس ليكتسبوا بها ما يدوم ويبقى. فمن استعمل ما أعطاه من الأموال واللذات مما ذكرنا في غير ما أُمِر به وجُعِل سُمّي خاسرا عابثا، وكذلك من استعمل ما أعطاه من الحواس في غير ما جُعلت وأُمِر باستعمالها سمي[٤] "أصمّ" "أبكَم" "أعمى". وكذلك النفس إذا لم[٥] يَكْتسب بها حياة دائمة سمّى مَيِّتا. *والله أعلم*. أو أن يقال: إنهم ما أُعطُوا في هذه الدنيا من اللذات والمتعة إلا ترغيبا فيما أبقى عنده ووعدهم في الآخرة، وكذلك ما امتُحِنوا من الشدائد والمصائب إلا تحذيرا وترهيبا عما أوعدهم وخوّفهم في الآخرة. ثم قوله: **فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا**، أي تتمتعون به فيفنى ويزول عن سريع وما أبقى، ولم يؤتكم هو الباقي الدائم.

ثم بين أن ما أبقى عنده لمن؟ بقوله:[٦] **للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون**، آمنوا بأن له الدنيا والآخرة، وأن له الخلقَ والأمرَ، وأنه بريء عن جميع معاني الخلق. **وعلى ربهم يتوكلون**، أي يَكِلون أمورهم إلى ربهم، هو مَفْزَعهم ومعتمدهم، لا يفزعون إلى أحد سواه ولا يعتمدون غيره في جميع أحوالهم.

---

[١] م + أحكام آيات الله تعالى عن فهم ما ضس وهي مذمومة وما ذكر هاهنا من قوله ويعلم الذين يجادلون في آياتنا هي المجادلة في دفع.
[٢] ر م – والله أعلم.
[٣] جميع النسخ: ولذة.
[٤] جميع النسخ: يسمى. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ١٠٠و.
[٥] ر ث م: إذ المرء.
[٦] ر ث: يقوله.

﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾[٣٧]

ثم نعتهم أيضا بما ذكر من الاجتناب عن الكبائر والفواحش فقال: **والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش**، جائز أن يكون ما ذكر من كبائر الإثم هي الفواحش والفواحش هي كبائرَ الإثم، كل واحد منهما في معنى الآخر. *والله أعلم*. وقال بعضهم: كبائر الإثم أنواعُ ما بها يصير المرء مشركا وهي كبائر الشرك، والفواحش هي التي توجب[١] الحدود في الدنيا. وقيل: الكبيرة ما يَكبُرُ ويَعظُم من الذنب، والفاحشة ما يَفحُش من العمل. وقد ذكرنا وجوها في ذلك فيما تقدم في سورة النساء.[٢] *والله أعلم*.

وقوله عز وجل: **وإذا ما غضبوا هم يغفرون**، أي إذا ما غضبوا هم مما يرجع إلى الأموال والأنفس وأمر الدنيا يغفرون ويتجاوزون عن ذلك، فأما ما يرجع ذلك الغضبُ إلى أمر الدين فإنه لا يسع المغفرةَ عن ذلك ولكن يجب الرجوع والتوبة إلى الله. *والله أعلم*.

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[٣٨]

وقوله عز وجل: **والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة**، أي أجابوا لربهم إلى ما دعاهم ربهم. وقد دعاهم إلى دار السلام بقوله:وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ،[٣] لكن جعل لإجابتهم شرائط وأعلاما، فمن وَفَى بها استوجب الموعود، وهو كقوله تعالى: أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ،[٤] الآية، وَقَالَ اللهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ، إلى آخر ما ذكر،[٥] فعلى ذلك عَلَمُ إجابتهم لربهم وشَرْطُها ما ذكر من قوله تعالى: **وأقاموا الصلاة**، إلى آخر ما ذكر. *والله أعلم*.

وقوله عز وجل: **وأمرهم شورى بينهم**. ذكر بعضهم أن الأنصار كانوا يتشاورون فيما بينهم، ورسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم غائب، فنزل هذا مدحا لهم على فعلهم.

---

[١] ر ن م: يوجب.

[٢] انظر: تفسير الآية ٣١ من سورة النساء.

[٣] سورة يونس، ٢٥/١٠.

[٤] ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبونِ﴾ (سورة البقرة، ٤٠/٢).

[٥] ﴿وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعَزَّرْتُموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا لأُكَفِّرَنَّ عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ (سورة المائدة، ١٢/٥).

وذكر عن الحسن أنه تلا هذه الآية، وهي[١] قوله: **وأمرهم شورى بينهم**، قال: والله ما شاور قوم قط إلا هداهم الله تعالى لأفضل ما بحضرتهم.[٢] وأصله أن الله تعالى أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يشاور صحابته حيث قال: وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ.[٣] وقول[٤] الحسن: ما شاور قوم في أمر قط إلا هداهم الله تعالى لأفضل ما بحضرتهم، لان المشاورة اجتماع العقول والأذهان، وإذا اجتمعت كانت إلى استدراك الحق والصواب أسرع وأبلغ مما[٥] انفرد كلُّ عقلٍ بنفسه. **والله *أعلم***. وقال القُتَبِي: **وأمرهم شورى بينهم**، أي يتشاورون فيه.[٦] وقوله: **ومما رزقناهم ينفقون**، ظاهر.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾[٣٩]

وقوله: **والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون**، صَيَّرَ المُنتصِرَ من الباغي والغافرَ لمظلمة من ظَلَمَه جميعا في الذين استجابوا لربهم إلى ما دعاهم إليه حيث قال: وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ،[٧] ثم نعتهم فقال: وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ،[٨] ثم قال: **والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون**، صيرهما جميعا المنتصر والغافر في الذين استجابوا لربهم إلى ما دعاهم إليه.[٩] والمنتصر مستوفٍ حقٍّ جُعل له، والغافر تارك الحق، لكن إذ جُعل له الاستيفاء دخل فيما ذكر من المستجيبين لله تعالى. لكن تارك الحق أفضل من مستوفي الحق. وعلى ذلك حث الله تعالى رسوله بالعفو عن المظلمة وترك الانتصار والمكافأة وأخبر أنه من عزم الأمور حيث قال: وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ.[١٠] ويحتمل أن يكون قوله تعالى: وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ،[١١]

---

[١] جميع النسخ – وهي. والزيادة من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ١٠٠و.

[٢] *الأدب المفرد* للبخاري، ١٣٧/٢.

[٣] سورة آل عمران، ١٥٩/٣.

[٤] ر م: وقال.

[٥] ر ن م: ما.

[٦] *غريب القرآن* لابن قتيبة، ٣٩٣.

[٧] الآية السابقة برقم ٣٧.

[٨] الآية السابقة.

[٩] جميع النسخ – حيث قال وإذا ما غضبوا هم يغفرون ... إلى ما دعاهم إليه. والزيادة من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ١٠٠و–ظ.

[١٠] الآية التالية برقم ٤٣.

[١١] الآية السابقة برقم ٣٧.

راجعا[1] إلى الأذى باللسان من نحو الشتيمة والسب والذي لا يؤثر في النفس أثرا. حثهم على المغفرة والعفو ومدحهم على ذلك. وقوله: **والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون،**
[٧٠٠و] راجع إلى ما يؤثر في الأنفس والأبدان تأثيرا من الجراحات / وغيرها.[2] حثهم على العفو فيما يرجع[3] إلى الأذى باللسان وأن لا يكافئوهم على ذلك؛ وفيما رجع إلى الأنفس والأبدان جعل لهم الاستيفاء والانتصار، وإن كان ترك الاستيفاء والعفو عن الكل أفضل على ما قال تعالى:[4] وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى.[5]

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[٤٠]

وقوله: **وجزاء سيئة سيئة مثلها**، سمي الثانية سيئة، وإن لم تكن[6] في الحقيقة سيئة، لأنها جزاء السيئة فسماها باسم الأولى. أو سماها سيئة لأنه لو لم يكن الأولى كانت الثانية سيئة أيضا،[7] فسماها على ما هو في نفسها من باب الإضرار، والضررُ سيئة في نفسه وإن كان يصير[8] حَسَنا لغيره. ***والله أعلم.*** ويشبه أن يكون سماها بما ذكر لاختلاف الأحوال: هي عند الذي يُقْتَصُّ[9] منه ويجازَى بها سيئة،[10] وتلك الحال عنده سيئة، وهو كقوله تعالى: وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ،[11] سَمى حالةَ الضيق والشدة سيئة لأنها عندهم سيئة، وحالَ السعة والرخاء حسنة لأنها عندهم حسنة، وإن لم يكن تلك الحال في الحقيقة سيئة لكنه سماها سيئة على ما عندهم. فعلى ذلك جائز أنه سمى الثانية سيئة لما هي عند المفعول به[12] سيئة. ***والله أعلم.***

---

[1] جميع النسخ: راجع. تصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ١٠٠ظ.
[2] ر م: وغيرهم.
[3] ن: رجع.
[4] جميع النسخ – تعالى. والزيادة من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ١٠٠ظ.
[5] سورة البقرة، ٢/٢٣٧.
[6] ر ن م: وإن لم يكن.
[7] ر م: كانت السيئة ثانية أيضا؛ ت: كانت السيئة ثابتة أيضا.
[8] ر م – يصير.
[9] جميع النسخ: يقبض. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ١٠٠ظ.
[10] ت: مسيئة.
[11] سورة الأعراف، ٧/١٦٨.
[12] ن – به.

وقوله: **فمن عفا وأصلح فأجره على الله**، هو ما ذكرنا أنه وإن جعل لهم حق الاستيفاء والانتصار فالعفو[١] عن ذلك أفضل. ثم فيه من الدلالة[٢] أن لا يجمع بين العفو وأخذ البدل إذا لم يكن من الآخر الرضا بذلك، لأنه قال: **فمن عفا وأصلح فأجره على الله**، أخبر أنه إذا عفا عنه يكون أجره على الله، وليس له[٣] أن يأخذ من المعفو عنه شيئا. ***والله أعلم***. فهو ينقض على من يقول بأخذ الدية من الجاني شاء أو أبى حيث قال: إن له أن يعفو عنه ويأخذ منه الدية.[٤] ***والله أعلم***.[٥]

وقوله: **إنه لا يحب الظالمين**، لأنه لا يحب الظلم؛ والظلم هو وضع الشيء في غير موضعه،[٦] فمن أخذ ما ليس له أخذُه فهو ظالم.

﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾[٤١]

وقوله عز وجل: **ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل**، أي أولئك ما عليهم من حجة، أو ما عليهم من تبعة.

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٤٢]

وقوله عز وجل: **إنما السبيل على الذين يظلمون الناس**، إنما الحجة أو التبعة[٧] على الذين يظلمون الناس ابتداء. وقوله عز وجل: **ويبغون في الأرض بغير الحق**، أي يأخذون من الناس ما ليس لهم أن يأخذوا، فالتبعة والحجة عليهم. فأما من يأخذ حقا وجب له واستوفاه فلا تبعة عليه ولا حجة. وفي حرف ابن مسعود رضي الله عنه: إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويُفسدون في الأرض.[٨]

---

[١] جميع النسخ: والعفو. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ١٠٠ظ.

[٢] جميع النسخ: ثم فيه دلالة. والتصحيح من نسخة جار الله، ورقة ١٩١ظ.

[٣] ن ث: فليس له.

[٤] جميع النسخ: فهو ينقض على من يقول بأنه يأخذ البدل من الجاني شاء أو أبى وأن يعفو عنه ويأخذ البدل. والتصحيح من نسخة جار الله، ورقة ١٩١ظ.

[٥] ر م – والله أعلم.

[٦] م: في موضعه.

[٧] جميع النسخ: والتبعة. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ١٠٠ظ.

[٨] لم أجده في المراجع.

﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[٤٣]

وقوله: **ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور**، أي من صبر على الأذى والمظلمة وعفى عنها وتجاوز فإن ذلك من عزم الأمور، أي ذلك من تحقيق الأمور وإحكامه. *والله أعلم*.[١]

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾[٤٤]

قوله عز وجل: **ومن يضلل الله فما له من ولي من بعده**، أي من أضله الله لما آثر ولاية الشيطان لا وليّ له سواه بعده يرشده، أو لا وليّ ينفعه من بعده. وهو كما قال: إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ [وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ]،[٢] أخبر أن سلطان الشيطان على من يتولاه.[٣]

وقوله[٤] عز وجل: **وترى الظالمين لمَا رَأَوُا العذاب يقولون هل إلى مَرَدّ من سبيل**، قال أهل التأويل: أي هل إلى رجوعٍ إلى[٥] الدنيا من سبيل، يقولون [و]يسألون ربهم الرجوع إلى الدنيا. والأشبه أن يكون سؤالهم الرجوع إلى المحنة[٦] التي امتُحِنوا في الدنيا قبل موتهم، أي سألوا أن يكلفهم ويمتحنهم في الآخرة ليُظهروا الطاعة لله تعالى في أوامره ونواهيه. *والله أعلم*.

﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ﴾[٤٥]

وقوله: **وتراهم يعرضون عليها**، قال أهل التأويل: يعرضون على النار قبل أن يدخلوها، كقوله تعالى: إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا،[٧] وكقوله تعالى: وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ،[٨] الآية. وقوله عز وجل: **خاشعين من الذل**، لأن الله تعالى أذلّهم في الآخرة بما اختاروا في الدنيا من سوء صنيعهم وأَعطَوْا أنفسهم شهواتهم ومُناهم.

[١] ر م – والله أعلم.
[٢] سورة النحل، ١٠٠/١٦.
[٣] ر م: على ما يتولاه.
[٤] ر م – وقوله.
[٥] جميع النسخ – إلى. والزيادة من الشرح، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ١٠٠ظ.
[٦] ر: الجنة.
[٧] سورة الفرقان، ١٢/٢٥.
[٨] وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى﴾ (سورة الفجر، ٢٣/٨٩).

وقوله عز وجل: **ينظرون من طَرْف خفيّ**، يحتمل ما ذكر من نظرهم من طرف خفي ما ذكر في آية أخرى: مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ،[١] لشدة هولهم وفزعهم في ذلك اليوم لا يرفعون رءوسهم ولا ينظرون إلى موضع. ***والله أعلم***.[٢] ويحتمل أن يكون قوله: **ينظرون إليه من طرف خفي**، أي لا ينظرون إلى الناس ولا يُقبلون بوجوههم إليهم إلا نظر التلصص والتغفل حياء منهم لسوء فِعالهم. وهكذا المعروف في الناس، لأن مَن صَنَع إلى الآخر سوءًا لا يتهيأ له رفع الطرف إليه ونظره إليه مقبلاً[٣] إلا على التلصص منه والتغفل،[٤] فعلى ذلك أولئك. ***والله أعلم***. وقال بعض أهل التأويل: إنهم يحشرون عُمْيًا فلا يرون بأعينهم، إنما يرون بقلوبهم، وهو الطرف الخفي. وقال القُتَبِي: **ينظرون من طرف خفي**، أي قد غضوا أبصارهم من الذلّ.[٥] وقال أبو عَوْسَجَة: أي ينظرون نظرا مستقيما. ***والله أعلم***.

وقوله: **وقال / الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة**، الآية، [٧٠٠ظ] يخرج ما ذكر من خسران أنفسهم وأهليهم على وجوه. أحدها ما ذكر بقوله تعالى: قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا،[٦] أمروا بأن يَقُوا[٧] أنفسهم وأهليهم النار؛ فَهُمْ حيث لم يَقُوا ما ذكر من الأنفس والأهل خسروا. ***والله أعلم***. والثاني قوله: **خسروا أنفسهم وأهليهم**، أي خسروا بسبب أنفسهم وسبب أهليهم، كقوله: إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ،[٨] لما يتعاطون[٩] أمورا بسبب الأموال والأولاد والأزواج هي فتنة لهم، وكقوله: إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ،[١٠] فقد يَخسَر الرجل ويصير مؤاخذا بسبب هؤلاء. والثالث يحتمل أن يكون خسرانهم أنفسهم وأهليهم ما قالوا: وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا،[١١] وقوله: وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى،[١٢]

---

[١] سورة إبراهيم، ٤٣/١٤.
[٢] ر م – والله أعلم.
[٣] ر م: متصلا.
[٤] والتغفل: تعمد الغفلة، تغافلت عنه وتغفلته: إذا اهتبلت غفلته (*تاج العروس*، «غفل»).
[٥] *غريب القرآن* لابن قتيبة، ٣٩٤.
[٦] ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا﴾ (سورة التحريم، ٦/٦٦).
[٧] ن: بأن يقول.
[٨] سورة التغابن: ١٥/٦٤.
[٩] ر ث م: لما يتعاملون.
[١٠] ﴿يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم﴾ (سورة التغابن، ١٤/٦٤).
[١١] سورة الكهف، ٣٦/١٨.
[١٢] سورة فصلت، ٥٠/٤١.

خسر ما كان رجا وطَمِعَ أن له عند ربه في الآخرة الحسنى. على هذه الوجوه الثلاثة يخرج تأويل الآية.

وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: ليس من أحد من كافر ومسلم إلا وله أهل ومنزل في الجنة؛ فإن أطاع الله تعالى أتى منزله وأهله، وإن عصاه خسر نفسه وأهله ومنزله في الجنة وورثه المؤمنون عنه.[1] لكن لا يحتمل أن يكون الله عز وجل مع علمه أنه يموت كافرا أن يجعل له الأهل والمنزل في الجنة، اللهم إلا أن يفعل ذلك ليكون لهم حسرة على ذلك وغيظا. ***والله أعلم***.[2]

﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾[٤٦]

وقوله: **وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله**، يخرج على وجهين. أحدهما أي ما كان للأصنام التي عبدوها دون الله تعالى وِلايةُ النصر لهم وقدرة رفع العذاب عنهم، لأنهم كانوا يعبدونها في الدنيا رجاء أن تشفع[3] لهم في الآخرة وأن تُزْلِفهم.[4] فأخبر الله تعالى أن ليس لها وِلاية النصر لهم على ما رَجَوْا وطَمِعُوا من عبادتها[5] الشفاعة لهم والدفع عنهم. ***والله أعلم***. والثاني **وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله**، أي ما كان للرؤساء الذين اتخذوهم في الدنيا أربابا وِلايةُ النصر لهم، لأنهم لا يملكون دفع ذلك من أنفسهم، فكيف يملكون دفع ما نزل بأتباعهم. يخبر أن ليس لهم ولاية دفع العذاب عنهم. ***والله أعلم***.

وقوله عز وجل: **ومن يضلل الله فما له من سبيل**. يحتمل قوله: **فما له من سبيل**، أي من حجة، أي من أضله الله فلا حجة[6] له أن يقول: إنك أضللتني، لأنه إنما يضله لما يختاره هو ويُؤْثِره، فيخلّي بينه وبين ما يختاره[7] ويُؤْثِره. والأصل في هذا أن ليس لأحد على الله حجة[8]

---

[1] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما منكم من أحد إلا له منزلان: منزل في الجنة ومنزلٌ في النار. فإذا مات فدخل النار وَرِثَ أهل الجنة منزله، فذلك قوله تعالى: ﴿أولئك هم الوارثون﴾» [سورة المؤمنون، ١٠/٢٣] (*سنن ابن ماجة*، الزهد ٣٩). وانظر أيضا: *تفسير ابن أبي حاتم الرازي*، ٣٢٨٦/١٠.

[2] ر م – والله أعلم.

[3] ر ن م: أن يشفع.

[4] جميع النسخ: وأن يزلفهم. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ١٠١و.

[5] ن: من عبادتهما.

[6] ر م: ولا حجة.

[7] ر م – هو ويؤثره فيخلي بينه وبين ما يختاره.

[8] ن: حجية.

فيما يفعله من المعاصي ويختاره بأنه قضاه ذلك وأراده وقدّره، لأنه[١] لا أحد يفعل ما يفعل من المعاصي وقت فعله لأن الله تعالى قضى له ذلك أو أراده أو قدّره أو لأنه أضله، فإذا كان[٢] وقتَ فعله لا يفعله لأن الله أراد ذلك وشاءه أو قدره[٣] وقضاه إنما يفعله لغرض له وهواه، لم يكن له الاحتجاج عليه بذلك. *وبالله العصمة*. والثاني إنه ليس له حجة عليه بذلك، لأنه يعلم أنه لو خُيّر بين ما يريد أن يختاره ويؤثره وبين ضد ذلك لكان يختار ذلك على ضده ويختار تحصيله[٤] ويؤثره على ترك ذلك، فكيف تكون[٥] له حجة بذلك. *والله الموفق*. ويحتمل قوله: **فما له من سبيل**، أي من أضله الله تعالى فما له إلى الهدى من سبيل،[٦] أي لا يملك أحد إرشاده. ويحتمل أي من أضله الله فما له من سبيل، أي ليس له سبيل ولكن عليه السبيل.

﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾[٤٧]

وقوله عز وجل: **استجيبوا لربكم**، أي أجيبوا له، وقد ذكرناه.[٧] وقوله عز وجل: **من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله**، الآية.[٨] هذا يخرج على وجهين.[٩] أحدهما أي أجيبوا له من قبل أن يأتي يوم لا يملك أحد رد ذلك اليوم إذا أتاهم، لأنه هو اليوم الذي يجزى فيه الخلائق، وفيه أهوال وأفزاع؛ يقول: لا أحد يملك رد ذلك اليوم ودفعه.[١٠] *والله أعلم*. والثاني أي أجيبوا من قبل أن يأتي يوم لا مرد لما ينزل فيه بهم من العذاب والعقاب. *والله أعلم*.

وقوله عز وجل: **ما لكم من ملجأ يومئذ**، هذا أيضا يخرج على وجهين. أحدهما أنهم إنما كانوا يعبدون الأصنام في الدنيا لتكون[١١] لهم شفعاءَ وملجأً يلجئون[١٢] إليها، يقول:

---

[١] ر م – في هذا أن ليس لأحد على الله حجة فيما يفعله من المعاصي ويختاره بأنه قضاه ذلك وأراده وقدره لأنه.
[٢] ن: وإذا كان.
[٣] ر م – أو لأنه أضله وإذا كان وقت فعله لا يفعله لأن الله أراد ذلك وشاءه أوقدره.
[٤] ن: تفصيله.
[٥] جميع النسخ: يكون.
[٦] ر ث م + أي ليس له سبيل ولكن عليه السبيل.
[٧] ث – وقد ذكرنا. انظر: سورة الأنفال، ٨/٢٤.
[٨] ن – الآية.
[٩] ر ث م: من وجهين.
[١٠] ر ث م – ودفعه.
[١١] جميع النسخ: ليكون. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ١٠١ظ.
[١٢] ر م: يلتجئون.

ما لكم [إلى] أولئك الأصنام ملجأُ تلجئون إليه[1] بل يكونون كما ذكر في آية أخرى: وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ،[2] وقوله تعالى: بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ،[3] الآية. *والله أعلم*. والثاني **ما لكم من ملجأ يومئذ**، أي ما لهم من حِيَل يحتالون بها دفع ما نزل بهم من العذاب على ما يكون في الدنيا من حِيَل يحتالون بها[4] دفع ما نزل بهم من البلايا والشدائد. *وبالله النجاة*.

وقوله عز وجل: **وما لكم من نكير**. هذا أيضا يخرج على وجهين. أحدهما أي لا يملكون أن ينكروا على الله تعالى ما يفعل بهم، لأنه إنما يفعل بهم ذلك بما كسبت أيديهم وما قدّمت أيديهم،[5] فلا يقدرون على إنكار ذلك على الله تعالى. والثاني **وما لكم من نكير**، أي ما لكم من تغيير، أي ما يملكون دفع ذلك عن أنفسهم ولا منعه وتغييره. وقيل لا يملكون أن يمنعوا[6] الله تعالى عما يريد أن يفعل بهم، وهو ما ذكرنا.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾[٤٨]

وقوله تعالى: **فإن أعرضوا**، أي إن تولوا عن إجابتك إلى ما تدعوهم إليه، **فما أرسلناك عليهم حفيظا**، هذا يخرج على وجهين. أحدهما يحتمل أي فما أرسلناك أن تحفظ[7] عليهم أفعالهم وأعمالهم. **إن عليك إلا البلاغ**، أي ما عليك إلا التبليغ، إنما حِفْظ / أعمالهم وأفعالهم على [٧٠١و] الملائكة الذين جُعلوا حُفّاظا عليهم، وهم الكرام الكاتبون. والثاني **فما أرسلناك عليهم حفيظا**، يحتمل فما أرسلناك أن تمنعهم[8] عما يفعلون حَسًّا،[9] إنما عليك البلاغ فحسب وبيان الحق، وأنت غير مؤاخذ بما يفعلون، وهو كقوله: فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ،[10] ونحو ذلك.

---

[1] ر م: يلتجئون إليها؛ ن ث: يلجئون إليها. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ١٠١ظ.
[2] ﴿هنالك تبلو كلُّ نفس ما أسلفت وردُّوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ (سورة يونس، ٣٠/١٠).
[3] ﴿فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة بل ضلوا عنهم وذلك إفكهم وما كانوا يفترون﴾ (سورة الأحقاف، ٢٨/٤٦).
[4] جميع النسخ – بها. والزيادة من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ١٠١ظ.
[5] ر م – وما قدّمت أيديهم.
[6] ر: عن يمنعوا.
[7] ر ن م: أن يحفظ.
[8] ر ث م: أن يمنعهم.
[9] أي بالعنف والجبر.
[10] ﴿قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم﴾ (سورة النور، ٥٤/٢٤).

وقوله: **وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها**، إن كان هذا في المسلم فيكون قوله: **فرح بها**، أي رضي بها وسُرَّ بها، وإن كان في الكافر فيكون قوله:[١] **فرح بها**، أي بَطِر بها وأَشِرَ.[٢] وقوله: **وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور**، وهذا أيضا إن كان في المسلم فإنه إذا أصابته[٣] شدة أو بلاء يَنْسَى ما كان إليه من الله تعالى من النعم،[٤] فجعل يشكوا عما أصابه، فهو كفور للنعم التي كانت له من قبل ذلك. وإن كان في الكافر فهو ظاهر أنه كفور لنعمه وإحسانه أجْمَع. *والله أعلم*.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾[٤٩]

وقوله: **لله ملك السماوات والأرض**، يخبر أنه بما يأمرهم وينهاهم وبما يمتحنهم بأنواع المحن ليس يأمر ولا ينهي ولا يمتحن لحاجة[٥] نفسه في جر منفعة أو استفادة[٦] خير أو دفع مضرة أو بلاء، إذ له ملك السماوات والأرض. ولكن إنما يأمرهم وينهاهم ويمتحنهم لحاجة أنفسهم في إصلاحها وفكاكها ونجاتها عن المهالك، وهو كقوله: وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ،[٧] يخبر بما ذكر أنه غني لا ينفعه إيمان مؤمن ولا يزيد في ملكه، ولا يضره كفر كافر ولا يَنقص من ملكه. ويحتمل أن يكون قوله: **لله ملك السماوات والأرض**، أي له ملك ملوك السماوات[٨] والأرض، كقوله: قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ،[٩] الآية. ويحتمل أن يقول: **له ملك السماوات والأرض**، أي هو يؤتى الملك من له الملك في الدنيا وهو ينزع عمن يشاء، على ما ذكر في آية أخرى: تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ،[١٠] الآية.

---

[١] ر م: فيكون له.
[٢] البَطَر: الأَشَر، وهو شدة المَرَح (*لسان العرب*، «بطر»).
[٣] جميع النسخ: إذا أصابه.
[٤] ر ن: من النعمى؛ ث: من النعماء؛ م: من البغي. والثابت في المتن من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ورقة ١٠١ظ.
[٥] ر م: بحاجة.
[٦] ر م: واستفادة.
[٧] سورة النمل، ٢٧/٤٠.
[٨] ر م: له ملك ملكوت السماوات؛ ث: له ملوك السماوات.
[٩] سورة آل عمران، ٣/٢٦.
[١٠] سورة آل عمران، ٣/٢٦.

وفيه نقض قول المعتزلة في خلق أفعال العباد منهم وإنكارهم أن يكون فعلَ الله تعالى مخافةَ وقوع الشرك في ذلك بينهم وبين الله تعالى، فيكون ذلك فعلَ الله تعالى وفعلَ العبد، إذ هو تفسير الشركة في الشاهد. فيقال لهم: إن الله تعالى قال: لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ،[1] وقال في آية أخرى: وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ،[2] أخبر أن ليس له شريك في الملك. وقد رأينا الملوك في الدنيا ثم لم يوجب ذلك الشركةَ في ملكه لاختلاف المعنى والجهات، إذ حقيقة الملك له، ولغيره ليست حقيقةَ الملك إنما له ملك الانتفاع لا على الإطلاق. فعلى ذلك أفعال العباد تكون[3] خلقًا لله تعالى وكسبا لهم، ولا يوجب ذلك شركا فيه على ما لم يوجب ما ذكرنا من الملك لهم شركا بينهم وبين الله تعالى. **والله الموفق**.

وقوله: **يخلق ما يشاء**، هذا أيضا على المعتزلة، لأنه أخبر أنه[4] يخلق ما يشاء، وهم يقولون: إن جميع الخيرات مما شاء الله تعالى. ثم لا يجعلون ما فعل العباد[5] من الخيرات خلقا لله تعالى، فيكون على[6] قولهم غير خالق لأكثر الأشياء مما شاء.[7] وهذا لأن قوله:[8] **يخلق ما يشاء**، إما أن كان[9] خرج على الوصف بالربوبية لله تعالى والألوهية، أو على وجه الوعد[10] والخبر بأنه يخلق ما يشاء. فإن كان على الوصف له بالربوبية فلا يكون ذلك وصفَ الربوبية، إذ لا يكون خالقا لجزء[11] من عشرة آلاف جزء[12] من الأشياء التي شاء[13] أن يخلقها؛ وإن كان[14] على الوعد والخبر فيخرج الخبر كذبا على قولهم. فنعوذ بالله تعالى من السَّرَف في القول. **والله الموفق**.

---

[1] سورة المائدة، ٥/٤٠.

[2] سورة الإسراء، ١٧/١١١.

[3] ن: يكون. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ١٠٢و.

[4] ن - أنه. والزيادة من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ١٠٢و.

[5] ر ث م - تكون خلقا لله تعالى وكسبا لهم ... ثم لا يجعلون ما فعل العباد.

[6] ث + غير.

[7] ن: مما يشاء.

[8] ن: لا قوله.

[9] جميع النسخ - كان. والزيادة من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ١٠٢و.

[10] ن: على وعد الوعد.

[11] ر م: لجزي.

[12] ر م - جزء.

[13] ن: وشاء.

[14] ن: فإن كان.

وقوله عز وجل: **يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور**. يخبر تعالى أن الأولاد جميعا من الذكور والإناث مواهب الله تعالى وهداياه، فيجب أن يقبلوها منه قبول الهدايا والهبات على الشكر له والمنة. ثم بدأ بذكر الإناث ثم بالذكور لأن من الناس من إذا وُلد له الإناثُ يَعُدّه[١] مصيبة ويَثقُل ذلك عليه. وعلى ذلك ما أخبر من الكفرة أنهم إذا بُشّروا بالأنثى ظلت وجوههم مسودة بقوله تعالى: وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ،[٢] يخبر عن ثقل ذلك عليهم وغيظهم على ذلك، فبدأ بذكر ذلك لئلا يَعُدّ أهل الإسلام أولاد الإناث مصيبة وبلاء على ما عدها الكفرة. ***والله أعلم***.

﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾[٥٠]

وقوله عز وجل: **أو يزوجهم ذكرانا وإناثا**، التزويج هو الجمع بين الشكلين والمتماثلين في الحقيقة. وقد يسمى التزويج بين المتضادّيْن مجازا، والحقيقة بين الشكلين والقرينين[٣] -والله أعلم- فيكون معنى قوله: **أو يزوجهم ذكرانا وإناثا**، أي يَقْرُن ويجمع بين الإناث والذكور فيهب له من النوعين جميعا في حالة واحدة.[٤] وقال القُتَبي: **أو يزوجهم ذكرانا وإناثا**، أي يجعل بعضهم بنين وبنات؛ تقول[٥] العرب: زوجتُ إبلي،[٦] إذا قَرَنْتُ[٧] بعضها ببعض، وزوجتُ الكبار بالصغار، إذا قَرَنْتُ[٨] كبيرا بصغير.[٩]

وقوله عز وجل: **ويجعل من يشاء عقيما**، والعقيم من النساء التي لا تلد، وهي لا توصف بالبركة، ويقال: إنها ليست بمباركة[١٠] لا تُرغب فيها. ***والله أعلم***. وقوله عز وجل: **إنه عليم قدير**، عليم بإنشاء الأولاد والإناث في الرحم، قدير على ذلك، أو عليم بمصالح الخلق، قدير لا يعجزه شيء.

---

[١] ر ث م: يعد؛ ن: بعد.

[٢] سورة النحل، ٥٨/١٦.

[٣] جميع النسخ - والحقيقة بين الشكلين والقرينين. والزيادة من نسخة جار الله، ورقة ١٩٥و.

[٤] ر م: جميعا حالة واحدة.

[٥] ن: يقول.

[٦] ر م: أهلي.

[٧] ر م: إذا قربت.

[٨] ر م: إذا قربت.

[٩] ن: بصغر. غريب *القرآن* لابن قتيبة، ٣٩٤. واللفظ هناك هكذا: ﴿أو يزوجهم ذكرانا وإناثا﴾، أي يجعل بعضهم بنين وبعضهم بنات. تقول العرب: زوجت إبلي إذا قرنت بعضها ببعض، وزوجت الكبار بالصغار، إذا قرنت كبيرا بصغير.

[١٠] ر م: مباركة.

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[٥١]

وقوله: **وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء**، كأن هذا إنما ذُكر وأخبر عن نازلة أو سؤال كان عن كيفية الرسالة؛ [٧٠١ظ] وهل الرسل عليهم الصلاة والسلام يرون ربهم ويشاهدونه / ويشافهونه؟ فأخبر أنه ليس من البشر من يكلمه إلا بالطرق الثلاثة التي ذكرها. والسؤال وقع عن الرؤية في الدنيا فيكون الجواب بناء على السؤال. *والله أعلم*. ثم قوله: **إلا وحيا**، قال بعضهم: يُلقِي في فهمه وقلبه فيعرف ذلك فيخبر الناس بذلك. وقال بعضهم:[1] **إلا وحيا** ما يُرى في المنام، ورؤيا الأنبياء عليهم السلام حقيقة. وقوله: **أو من وراء حجاب**، نحوَ ما كلم موسى عليه السلام: ألقى في مسامعه صوتا مخلوقا على ما شاء وكيف شاء[2] من غير أن كان[3] ثَمَّ ثالثٌ. وقوله: **أو يرسلَ رسولا فيوحيَ بإذنه ما يشاء**، أي يرسل ملكا يخبره عن الله تعالى. وطرق الرسل[4] إلى[5] معرفة ذلك في الدنيا [هي] الوجوهُ التي ذكرنا: إما الإلهام والإلقاء في الأوهام، وإما الإلقاء في المسامع، وإما رسول يرسل فيخبر عن أمره وكلامه. فأما أن يحتمل وُسْع أحد رؤيته أو يشافهه أو يعايِنَه في الدنيا فلا. *والله الموافق*.

ثم اختلف في قوله: **أو من وراء حجاب**، قال بعضهم: الحُجُب أنفسها[6] هي[7] حقيقة الحُجُب. وقال بعضهم: الحجاب هو عجزهم عن احتمال رؤيتهم، لأن الله تعالى أنشأهم على بِنْية وخِلْقة لا تقوم[8] أنفسهم القيام لذلك على ما أخبر عز وجل حيث قال لموسى عليه السلام: وَلَٰكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي،[9] أي فإن احتمل ذلك فاحتمل ما سألت. *والله أعلم*.

---

[1] جميع النسخ – يلقي في فهمه وقلبه فيعرف ذلك فيخبر الناس بذلك وقال بعضهم. والزيادة من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ١٠٢و.

[2] ر م – شاء.

[3] جميع النسخ: من غير كان. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ١٠٢و.

[4] ر م: وطرق الرسول؛ ن: وطريق الوصول؛ ث: وطرق الوصول. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ١٠٢ظ.

[5] ث + ما ذكر.

[6] ر م: نفسها.

[7] ر ث م: هو.

[8] جميع النسخ: لا يقوم. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ١٠٢ظ.

[9] سورة الأعراف، ١٤٣/٧.

وفي الآية أن الله تعالى يكون مُكلِّما للبشر بالرسول وإن لم يشافهه المرسِل، وكان ذلك تسميةً بطريق المجاز، إذ لم يكن في الحقيقة كلام الرسول كلامَ المرسِل. وكذلك في قوله: وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ،[1] لا يكون ما يسمع من الرسول كلام الله حقيقة؛ وكذا ما يقال: سمعت من فلان قول فلان أو حديث فلان، كله على المجاز ليس على التحقيق. ***والله أعلم.***

ويحتمل أن يكون سبب نزول قوله: **وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا**، الآية، قولَ أولئك الكفرة حيث أخبر الله تعالى عنهم[2] بقوله: وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ،[3] الآية، وقولهم: لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا،[4] سألوا أن يَرَوْا ربهم جهارا، فقد حُجِبوا عن رؤية الله تعالى في الدنيا والآخرة حيث قال: كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ.[5] وسألوا أن يكلمهم شفاها، فأخبر أنه لا يكلم أحدا شفاها ولكن يكلم[6] بما ذكر من الأوجه الثلاثة حيث قال: **وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا**، ردا عليهم، فأخبر الله تعالى أن طريق تكليمه الخلق في الدنيا هذه الوجوه التي ذكر.[7] وقد كلم البشر من هذه السبل[8] والطرق[9] التي ذكر حيث قال: اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ،[10] أخبر أنه أنزل إليهم ما ذكر كما أنزل على الرسل،[11] وحيث قال: وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ،[12] الآية، وغير ذلك من الآيات مما يكون كأنه قد كلَّمهم بما ذكر كما[13] كلَّم الرسل عليهم الصلاة والسلام من الوجوه التي ذكر. ***والله أعلم.***[14]

---

[1] سورة التوبة، ٦/٩.
[2] ر ث م – عنهم.
[3] سورة البقرة، ١١٨/٢.
[4] سورة الفرقان، ٢١/٢٥.
[5] سورة المطففين، ١٥/٨٣.
[6] ن: تكلم.
[7] ر م: ذكرنا.
[8] ر م: السبيل.
[9] جميع النسخ: والطريق. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ١٠٢ظ.
[10] سورة الأعراف، ٣/٧.
[11] ر م: على الرسول.
[12] سورة التوبة، ٦/٩.
[13] ن: كلما.
[14] ر م – والله أعلم.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[٥٢]

وقوله: **وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا**، كأنه يقول: هكذا أوحينا إلى الرسل الذين من قبلك بالوجوه والطرق التي ذكرنا[١] كما أوحينا إليك؛ أو يقول: مثل الذي أوحينا إليك فقد أوحينا[٢] إلى الذين من قبلك. وقوله: **روحا من أمرنا**، قال بعضهم: **روحا**، أي[٣] جبريلَ بأمرنا. وقال بعضهم: أي أوحينا إليك أمرا من أمرنا. وقال بعضهم: **روحا من أمرنا**، أي الكتاب الذي أنزله عليه وأوحاه[٤] إليه سماه روحا، لأنه يحيي به الدين ويكون به حياة الدين، ويحيي به الأبدان، وهو حياة الذكر والشرف، وهو كقوله: وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ [يُرْزَقُونَ]،[٥] حياة الذكر والشرف.[٦] *والله أعلم*.

وقوله: **ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان**، أما الكتاب فإنه لاشك أنه كان لا يدريه ولا يعلمه حتى أدراه وأعلمه.[٧] وأما الإيمان حيث أخبر أنه لا يَدريه فهو يحتمل وجوها. أحدها ما كنت تدري ما الإيمان في حق اللسان؛ أو ما كنت تدري ما الإيمان في حق فعل[٨] الإيمان؛ أو ما كنت تدري ما الإيمان في حق قدره ومحله ومنزلته عند الله تعالى. فإن كان المراد في حق اللسان فهو ظاهر أنه كان لا يَدريه[٩] في حق ابتداء الأمر أن الإيمان هو التصديق أو التوحيد أو ما هو؟ وهو معروف أنه كان لا يدريه في حق اللسان حتى أدراه الله[١٠] وأعلمه أنه ماذا. وكذلك جميع أهل اللسان لا علم لهم بذلك[١١] حتى علّمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنزل جبريل[١٢] وسأل النبيَّ صلى الله عليه وسلم: ما الإيمان وما الإسلام؟ على صورة أعرابي،

---

[١] ن: ذكر.
[٢] جميع النسخ – إليك أو يقول مثل الذي أوحينا إليك فقد أوحينا. والتصحيح من نسخة جار الله، ورقة ١٩٦و.
[٣] ر م – أي.
[٤] ر ث م: وأوجبه.
[٥] سورة آل عمران، ١٦٩/٣.
[٦] ن – وهو كقوله ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم حياة الذكر والشرف.
[٧] ن: أو أعلمه.
[٨] جميع النسخ – فعل. والزيادة من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ١٠٢ظ.
[٩] ر م: كما لا يدري.
[١٠] ر م – الله.
[١١] ر: لا لذلك؛ ن ث م: لا علم لذلك. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ١٠٢ظ.
[١٢] ر م – جبريل.

حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن هذا كان[1] جبريل نزل ليُعلِّمكم معالم دينكم».[2] **والله أعلم**. وإن كان في حق فعل الإيمان ومباشرة ركنه فهو إذا كان غيرَ قادر على فعله وإتيانه على حِدَةٍ[3] كان[4] لا يدري، لكنه وإن كان[5] لا يدريه فإنه لا يوصف بالجهل به. ألا ترى[6] أن الصغار لا يدرون ولا يقال: إنهم جهلة، وإنما يوصف بالجهل مَن مَلَكَ الفكرة والنظر وأسباب العلم ثم ترك ذلك فعند ذلك يوصف بالجهل،[7] فأما من لم يملك ذلك ولم يبلغ هذا المبلغ فإنه لا يوصف بالجهل. ألا ترى أنه يقال للأعراض / والأشياء:[8] إنها لا تَدْرِى[9] ولا توصف[10] [٢٠٧و] بالجهل.[11] فعلى ذلك يجوز أن يوصف ويقال:[12] إنه كان لا يدرى ولا يوصف ولا يقال: إنه كان جاهلا به. **والله أعلم**. ألا ترى أن الولد في البطن[13] لا يوصف بأن له سمعا وبصرا ونحوه، لأنه ليس بمحل للسماع والبصر، فإذا أُخرِج منه عند ذلك يُجعَل له، لِما مُكِّن من السماع والبصر، وهو ما ذكر بقوله: وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ،[14] عندما مُكّن لهم ذلك جُعل ذلك.[15] **والله أعلم**.[16] وإن كان المراد أنه لا يَدري في حق المحل والمنزلة والقدر فهو هكذا كان لا يدري ما محل الإيمان وقدره عند الله تعالى حتى أَدْرَاه وأعلمه محله ومنزلته. **والله أعلم**.

---

[1] ر م: إن كان هذا.
[2] هذا الحديث يعرف بحديث جبريل. انظر: صحيح *البخاري*، الإيمان ٣٨؛ وصحيح *مسلم*، الإيمان ١.
[3] ر م: على هذه؛ ث: على حده.
[4] جميع النسخ: وكان. والتصحيح من نسخة جار الله، ورقة ١٩٦و.
[5] ر م – وإن كان.
[6] ن: ألا يرى.
[7] ر – من ملك الفكرة والنظر وأسباب العلم ثم ترك ذلك فعند ذلك يوصف بالجهل.
[8] ر م: والاتسا.
[9] ر م: لا يدرى.
[10] جميع النسخ: ولا يوصف. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ١٠٢ظ.
[11] ث – ألا ترى أنه يقال للأعراض والأشياء أنها لا تدرى ولا توصف بالجهل.
[12] ن + له.
[13] ر ث م: في النظر.
[14] ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾ (سورة النحل، ٧٨/١٦).
[15] جميع النسخ – جعل ذلك. والزيادة من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ١٠٣و.
[16] ر م – والله أعلم.

وقوله: **ولكن جعلناه نورا**، فإن كان المراد هو الإيمان فهو نور بالحجج والبراهين،[1] وهو كما قال: أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ.[2] وإن كان المراد هو الكتاب فهو نور لما يرفع جميع حُجُب القلوب وسواترها [ع]منْ اتَّبَعه ونظر إليه بعين التعظيم. وقوله: **نهدي به من نشاء من عبادنا**، من عَلِم أنه يختاره شاء أن يهديه. ثم قوله: **نهدي به**، يحتمل القرآن، ويحتمل الإيمان نفسه، أي يجعله بالإيمان مهتديا. ***والله أعلم***. وقوله عز وجل: **وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم**، قوله: **لتهدي**، يحتمل لَتَدْعو، أو لَتُبَيِّن[3] لهم الصراط المستقيم. ثم فسره بقوله تعالى:

﴿صِرَاطِ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾[٥٣]

صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض، لم يُفهم من صراط الله ما يفهم من صراط الخلق أو صراط فلان، فكيف يفهم من مجيئه أو إتيانه ما يفهم من مجيء الخلق أو إتيانهم؟[4] فهذا يدل أنْ لا كلُّ ما أضيف إلى الله تعالى يفهم منه ما يفهم مما يكون من الخلق. ***والله أعلم***. وقوله: **ألا إلى الله تصير الأمور**، يحتمل ألا إلى الله يرجع[5] تدبير الأمور. ويحتمل **ألا إلى الله تصير الأمور** في الآخرة وهو البعث. ***والله أعلم***.[6]

---

[1] جميع النسخ: والبرهان. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ١٠٣و.
[2] سورة الزمر، ٣٩/٢٢.
[3] ر ث م: لتدين.
[4] جميع النسخ: إتيانه. والتصحيح من *الشرح*، نسخة ولي الدين ٤٢٦، ١٠٣و.
[5] ر م: ترجع.
[6] ر م – والله أعلم.

سورة الشورى

خمسون وثلاث آيات مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ① عٓسٓقٓ ② كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ③ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ④ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ⑤ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ⑥﴾

اعلم أن الكلام في أمثال هذه الفواتح معلوم، إلا أن في هذا الموضع سؤالين زائدين: الأول: أن يقال: إن هذه السور السبعة مصدرة بقوله: ﴿حمٓ﴾ فما السبب في اختصاص هذه السورة بمزيد ﴿عٓسٓقٓ﴾؟ الثاني: أنهم أجمعوا على أنه لا يفصل بين ﴿كٓهيعٓصٓ﴾[مريم: ١] وهاهنا يُفصل بين ﴿حمٓ﴾ وبين ﴿عٓسٓقٓ﴾ فما السبب فيه؟

واعلم أن الكلام في أمثال هذه الفواتح يضيق، وفَتْح باب المجازفات مما لا سبيل إليه، فالأَوْلى أن يفوض علمها إلى الله. وقرأ ابن عباس وابن مسعود: (حم، عسق).

أما قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ﴾ فالكاف معناه المثل وذا للإشارة إلى شيء سبق ذكره، فيكون المعنى: (مثل حم عسق كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك) وعند هذا حصل قولان:

الأول: نُقل عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: (لاَ نَبِيَّ صَاحِبَ كِتَابٍ إلاَّ وَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْهِ حم عسق) وهذا عندي بعيد.

الثاني: أن يكون المعنى: مثل الكتاب المسمى بحم عسق يوحي الله إليك وإلى الذين من قبلك. وهذه المماثلة المراد منها المماثلة في الدعوة إلى التوحيد والعدل والنبوة والمعاد، وتقبيح أحوال الدنيا والترغيب في التوجه إلى الآخرة، والذي يؤكد هذا أنا بينا في سورة ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ أن أولها في تقرير التوحيد، وأوسطها في تقرير النبوة، وآخرها في تقرير المعاد، ولما تمم الكلام في تقرير هذه المطالب الثلاثة قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ⑱ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨، ١٩] يعني أن المقصود من إنزال جميع الكتب الإلهية ليس إلا هذه المطالب الثلاثة،

فكذلك هاهنا يعني مثل الكتاب المسمى بحم عسق يوحي الله إليك وإلى كل من قبلك من الأنبياء. والمراد بهذه المماثلة الدعوة إلى هذه المطالب العالية والمباحث المقدسة الإلهية، قال صاحب (الكشاف): ولم يقل أوحي إليك، ولكن قال: ﴿يُوحِيٓ إِلَيۡكَ﴾ على لفظ المضارع ليدل على أن إيحاء مثله عادته. وقرأ ابن كثير: (كذلك يُوحَى) بفتح الحاء على ما لم يسم فاعله، وهي إحدى الروايتين عن أبي عمرو، وعن بعضهم (نوحي) بالنون، وقرأ الباقون ﴿يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ﴾ بكسر الحاء، فإن قيل: فعلى القراءة الأولى ما رافع اسم الله تعالى؟ قلنا: ما دل عليه يوحى، كأن قائلاً قال: من الموحي؟ فقيل: الله. ونظيره قراءة السلمي: (وكذلك زُيِّن لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم)[الأنعام: ١٣٧] على البناء للمفعول ورفع شركاؤهم، فإن قيل: فما رافعه فيمن قرأ (نوحي) بالنون؟ قلنا: يرفع بالابتداء، والعزيز وما بعده أخبار، أو ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ صفتان والظرف خبره. ولما ذكر أن هذا الكتاب حصل بالوحي بَيَّن أن الموحي من هو فقال: إنه هو العزيز الحكيم، وقد بينا في أول سورة حم المؤمن أن كونه عزيزًا يدل على كونه قادرًا على ما لا نهاية له، وكونه حكيمًا يدل على كونه عالمًا بجميع المعلومات، غنيًّا عن جميع الحاجات، فيحصل لنا من كونه عزيزًا حكيمًا كونه قادرًا على جميع المقدورات عالمًا بجميع المعلومات غنيًّا عن جميع الحاجات، ومن كان كذلك كانت أفعاله وأقواله حكمة وصوابًا، وكانت مبرأة عن العيب والعبث، قال مصنف الكتاب: قلت في قصيدة:

الْحَمْدُ لِلَّهِ ذِي الْآلَاءِ وَالنِّعَمِ ... وَالْفَضْلِ وَالْجُودِ وَالْإِحْسَانِ وَالْكَرَمِ
مُنَزَّهِ الْفِعْلِ عَنْ عَيْبٍ وَعَنْ عَبَثٍ ... مُقَدَّسِ الْمُلْكِ عَنْ عَزْلٍ وَعَنْ عَدَمِ

والصفة الثالثة: قوله: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ وهذا يدل على مطلوبين في غاية الجلال: أحدهما: كونه موصوفًا بقدرة كاملة نافذة في جميع أجزاء السموات والأرض على عظمتها وسعتها، بالإيجاد والإعدام والتكوين والإبطال. والثاني: أنه لما بيّن بقوله: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ أن كل ما في السموات وما في الأرض فهو مُلكه ومِلكه، وجب أن يكون منزّهًا عن كونه حاصلاً في السموات وفي الأرض، وإلا لزم كونه مِلكًا لنفسه، وإذا ثبت أنه ليس في شيء من السموات امتنع كونه أيضًا في العرش؛ لأن كل ما سماك فهو سماء، فإذا كان العرش موجودًا فوق السموات كان في الحقيقة سماء، فوجب أن يكون كل ما كان حاصلاً في العرش ملكًا لله ومِلكًا له، فوجب أن يكون منزّهًا عن كونه حاصلاً في العرش، وإن قالوا: إنه تعالى قال: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وكلمة (ما) لا تتناول من يعقل. قلنا: هذا مدفوع من وجهين: الأول: أن لفظة (ما) واردة في حق الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾[الشمس: ٥، ٦] وقال: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾[الكافرون: ٢، ٣] والثاني: أن صيغة (من) وردت في مثل هذه السورة، قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾[مريم: ٩٣] وكلمة (من) لا شك أنها واردة في حق الله تعالى، فدلّت هذه الآية على أن كل

من في السموات والأرض فهو عبد الله، فلو كان الله موجودًا في السموات والأرض وفي العرش، لكان هو من جملة من في السموات، فوجب أن يكون عبد الله، ولما ثبت بهذه الآية أن كل من كان موجودًا في السموات والعرش فهو عبد لله، وجب فيمن تقدست كبرياؤه عن تهمة العبودية أن يكون منزّهًا عن الكون في المكان والجهة والعرش والكرسي.

والصفة الرابعة والخامسة قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ ولا يجوز أن يكون المراد بكونه عليًّا العلو في الجهة والمكان لما ثبتت الدلالة على فساده، ولا يجوز أن يكون المراد من العظيم العظمة بالجثة وكبر الجسم؛ لأن ذلك يقتضي كونه مؤلفًا من الأجزاء والأبعاض، وذلك ضد قوله: ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] فوجب أن يكون المراد من العلي: المتعالي عن مشابهة الممكنات ومناسبة المحدثات، ومن العظيم: العظمة بالقدرة والقهر بالاستعلاء وكمال الإلهية.

ثم قال: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: قرأ أبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر: (تَكادُ) بالتاء (ينفطرن) بالياء والنون، وقرأ ابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم وحمزة (تَكادُ) بالتاء (يَتَفَطَّرْنَ) بالياء والتاء، وقرأ نافع والكسائي: (يَكَادُ) بالياء (تتفطرن) أيضًا بالتاء، قال صاحب (الكشاف): وروى يونس عن أبي عمرو قراءة غريبة (تَتَفَطَّرْنَ) بالتاءين مع النون، ونظيرها حرف نادر روي في نوادر ابن الإعرابي: الإبل تتشمسن.

المسألة الثانية: في فائدة قوله: ﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾ وجوه: الأول: روى عكرمة عن ابن عباس أنه قال: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ قال: والمعنى أنها تكاد تتفطر من ثقل الله عليها.

واعلم أن هذا القول سخيف، ويجب القطع ببراءة ابن عباس عنه، ويدل على فساده وجوه: الأول: أن قوله: ﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾ لا يُفهم منه ممن فوقهن. وثانيها: هب أنه يُحمل على ذلك، لكن لمَ قلتم: إن هذه الحالة إنما حصلت من ثقل الله عليها، ولمَ لا يجوز أن يقال: إن هذه الحالة إنما حصلت من ثقل الملائكة عليها، كما جاء في الحديث أنه ﷺ قال: «**أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ شِبْرٍ إِلاَّ وَفِيهِ مَلَكٌ قَائِمٌ أَوْ رَاكِعٌ أَوْ سَاجِدٌ**»(١) وثالثها: لمَ لا يجوز أن يكون المراد تكاد السموات تنشق وتنفطر من هيبة من هو فوقها فوقية بالإلهية والقهر والقدرة؟ فثبت

---

(١) إسناده صحيح: أخرجه الشيباني في (الآحاد والمثاني) (١/ ٤٢٢)، حديث رقم (٥٩٧).

قال: حدثنا محمد بن يحيى بن ميمون العتكي، أخبرنا عبد الوهاب بن عطاء عن سعيد... به. والبزار في (مسنده) (٨/ ١٧٧)، حديث رقم (٣٢٠٨) من طريق صفوان بن محرز عن حكيم بن حزام... به، والطبراني في (الكبير) (٣/ ٢٠١)، حديث رقم (٣١٢٢) من طريق عبد الوهاب بن عطاء... به، والأصبهاني في (العظمة) (٣/ ٩٨٦)، حديث رقم (٥٠٩) من طريق عبد الوهاب بن عطاء... به، والمروزي في (تعظيم قدر الصلاة) (١/ ٢٥٨)، حديث رقم (٢٥٠) من طريق عبد الوهاب بن عطاء... به، وأبو نعيم في (حلية الأولياء) (٢/ ٢١٧) من طريق محمد بن يزيد قال: حدثنا عبد الوهاب بن عطاء... به، وأورده الألباني في (السلسلة الصحيحة) (٣/ ١٣٤)، حديث رقم (١٠٦٠).

بهذه الوجوه أن القول الذي ذكروه في غاية الفساد والركاكة. والوجه الثاني في تأويل الآية: ما ذكره صاحب (الكشاف): وهو أن كلمة الكفر إنما جاءت من الذين تحت السموات، وكان القياس أن يقال: يتفطرن من تحتهن من الجهة التي جاءت منها الكلمة، ولكنه بولغ في ذلك فقُلب فجُعلت مؤثرة في جهة الفوق، كأنه قيل: يكدن يتفطرن من الجهة التي فوقهن، ودع الجهة التي تحتهن، ونظيره في المبالغة قوله تعالى: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ۝١٩ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾[الحج: ١٩، ٢٠] فجعل مؤثرًا في أجزائه الباطنة. الوجه الثالث في تأويل الآية: أنه يقال: ﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾ أي من فوق الأرضين؛ لأنه تعالى قال قبل هذه الآية: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ثم قال: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ أي من فوق الأرضين. والوجه الرابع في التأويل: أن يقال: معنى ﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾ أي من الجهة التي حصلت هذه السموات فيها، وتلك الجهة هي فوق، فقوله: ﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾ أي من الجهة الفوقانية التي هن فيها.

المسألة الثالثة: اختلفوا في أن هذه الهيئة لمَ حصلت؟ وفيه قولان: الأول: أنه تعالى لما بيّن أن الموحي لهذا الكتاب هو الله العزيز الحكيم، بيّن وصف جلاله وكبريائه، فقال: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ أي من هيبته وجلالته. والقول الثاني: أن السبب فيه إثباتهم الولد لله لقوله ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾[مريم: ٩٠]، وهاهنا السبب فيه إثباتهم الشركاء لله؛ لقوله بعد هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ والصحيح هو الأول. ثم قال: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

واعلم أن مخلوقات الله تعالى نوعان: عالم الجسمانيات وأعظمها السموات، وعالم الروحانيات وأعظمها الملائكة، والله تعالى يقرر كمال عظمته لأجل نفاذ قدرته وهيبته في الجسمانيات، ثم يردفه بنفاذ قدرته واستيلاء هيبته على الروحانيات، والدليل عليه أنه تعالى قال في سورة ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ لما أراد تقرير العظمة والكبرياء بدأ بذكر الجسمانيات، فقال: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾[النبأ: ٣٧] ثم انتقل إلى ذكر عالم الروحانيات، فقال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾[النبأ: ٣٨] فكذلك القول في هذه الآية بين كمال عظمته باستيلاء هيبته على الجسمانيات، فقال: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ ثم انتقل إلى ذكر الروحانيات، فقال: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ فهذا ترتيب شريف وبيان باهر.

واعلم أن الموجودات على ثلاثة أقسام: مؤثر لا يقبل الأثر، وهو الله سبحانه وتعالى وهو أشرف الأقسام، ومتأثر لا يؤثر، وهو القابل وهو الجسم وهو أخس الأقسام، وموجود يقبل الأثر من القسم الأول، ويؤثر في القسم الثاني وهو الجواهر الروحانيات المقدسة، وهو المرتبة المتوسطة، إذا عرفت هذا فنقول: الجواهر الروحانية لها تعلقان: تعلق بعالم الجلال والكبرياء، وهو تعلق القبول، فإن الجلايا القدسية والأضواء الصمدية، إذا أشرقت على الجواهر الروحانية

استضاءت جواهرها وأشرقت ماهياتها، ثم إن الجواهر الروحانية إذا استفادت تلك القوى الروحانية، قويت بها على الاستيلاء على عوالم الجسمانيات، وإذا كان كذلك فلها وجهان: وجه إلى جانب الكبرياء وحضرة الجلال، ووجه إلى عالم الأجسام، والوجه الأول أشرف من الثاني.

إذا عرفت هذا فنقول: قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ إشارة إلى الوجه الذي لهم إلى عالم الجلال والكبرياء، وقوله ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ إشارة إلى الوجه الذي لهم إلى عالم الأجسام، فما أحسن هذه اللطائف وما أشرفها، وما أشد تأثيرها في جذب الأرواح من حضيض الخلق إلى أوج معرفة الحق، إذا عرفت هذا فنقول: أما الجهة الأولى: وهي الجهة العلوية المقدسة، فقد اشتملت على أمرين: أحدهما: التسبيح، وثانيهما: التحميد؛ لأن قوله: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ يفيد هذين الأمرين، والتسبيح مقدم على التحميد؛ لأن التسبيح عبارة عن تنزيه الله تعالى عما لا ينبغي، والتحميد عبارة عن وصفه بكونه مفيضًا لكل الخيرات، وكونه منزّهًا في ذاته عما لا ينبغي مقدم بالرتبة على كونه فياضًا للخيرات والسعادات؛ لأن وجود الشيء مقدم على إيجاد غيره، وحصوله في نفسه مقدم على تأثيره في حصول غيره؛ فلهذا السبب كان التسبيح مقدمًا على التحميد، ولهذا قال: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾.

وأما الجهة الثانية: وهي الجهة التي لتلك الأرواح إلى عالم الجسمانيات، فالإشارة إليها بقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ والمراد منه تأثيراتها في نظم أحوال هذا العالم وحصول الطريق الأصوب الأصلح فيها. فهذه ملامح من المباحث العالية الإلهية مدرجة في هذه الآيات المقدسة، ولنرجع إلى ما يليق بعلم التفسير، فإن قيل: كيف يصح أن يستغفروا لمن في الأرض وفيهم الكفار؟ وقد قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ﴾ [البقرة: ١٦١] فكيف يكونون لاعنين ومستغفرين لهم؟، قلنا: الجواب عنه من وجوه:

الأول: أن قوله: ﴿لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ لا يفيد العموم؛ لأنه يصح أن يقال: إنهم استغفروا لكل من في الأرض وأن يقال: إنهم استغفروا لبعض من في الأرض دون البعض، ولو كان قوله: ﴿لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ صريحًا في العموم لما صح ذلك التقسيم.

الثاني: هب أن هذا النص يفيد العموم إلا أنه تعالى حكى عن الملائكة في سورة حام المؤمن فقال: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ [غافر: ٧].

الثالث: يجوز أن يكون المراد من الاستغفار أن لا يعاجلهم بالعقاب، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ إلى أن قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١]. الرابع: يجوز أن يقال: إنهم يستغفرون لكل من في الأرض، أما في حق الكفار فبواسطة طلب الإيمان لهم، وأما في حق المؤمنين فبالتجاوز عن سيئاتهم، فإنا نقول: اللّهم اهد الكافرين وزيّن قلوبهم بنور

الإيمان، وأزل عن خواطرهم وحشة الكفر. وهذا في الحقيقة استغفار.

واعلم أن قوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يدل على أنهم لا يستغفرون لأنفسهم، ولو كانوا مصرين على المعصية لكان استغفارهم لأنفسهم قبل استغفارهم لمن في الأرض، وحيث لم يذكر الله عنهم استغفارهم لأنفسهم، عَلِمنا أنهم مبرءون عن كل الذنوب، والأنبياء عليهم السلام لهم ذنوب والذي لا ذنب له ألبتة أفضل ممن له ذنب، وأيضًا فقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يدل على أنهم يستغفرون للأنبياء لأن الأنبياء في جملة من في الأرض، وإذا كانوا مستغفرين للأنبياء عليهم السلام كان الظاهر أنهم أفضل منهم.

ولما حكى الله تعالى عن الملائكة التسبيح والتحميد والاستغفار قال: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ والمقصود التنبيه على أن الملائكة وإن كانوا يستغفرون للبشر، إلا أن المغفرة المطلقة والرحمة المطلقة للحق سبحانه وتعالى، وبيانه من وجوه: الأول: أن إقدام الملائكة على طلب المغفرة للبشر من الله تعالى إنما كان لأن الله تعالى خَلَق في قلوبهم داعية لطلب تلك المغفرة، ولولا أن الله تعالى خلق في قلوبهم تلك الدواعي، وإلا لما أقدموا على ذلك الطلب، وإذا كان كذلك كان الغفور المطلق والرحيم المطلق هو الله سبحانه وتعالى. الثاني: أن الملائكة قالوا في أول الأمر: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠] ثم في آخر الأمر صاروا يستغفرون لمن في الأرض، وأما رحمة الحق وإحسانه فقد كان موجودًا في الأول والآخر، فثبت أن الغفور المطلق والرحيم المطلق هو الله تعالى. الثالث: أنه تعالى حكى عنهم أنهم يستغفرون لمن في الأرض، ولم يَحْكِ عنهم أنهم يطلبون الرحمة لمن في الأرض فقال: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ يعني أنه يعطي المغفرة التي طلبوها، ويضم إليها الرحمة الكاملة التامة.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ أي جعلوا له شركاء وأندادًا ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي رقيب على أحوالهم وأعمالهم، لا يفوته منها شيء، وهو محاسبهم عليها لا رقيب عليهم إلا هو وحده، وما أنت يا محمد بمفوض إليك أمرهم ولا قسرهم على الإيمان، إنما أنت منذر فحسب.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ
يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ۝٧ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً
وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝٨ أَمِ
ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٩
وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ

أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ
أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾

واعلم أن كلمة (ذلك) للإشارة إلى شيء سبق ذكره، فقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ يقتضي تشبيه وحي الله بالقرآن بشيء هاهنا قد سبق ذكره، وليس هاهنا شيء سبق ذكره يمكن تشبيه وحي القرآن به إلا قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾[الشورى: ٦] يعني كما أوحينا إليك أنك لست حفيظًا عليهم ولست وكيلاً عليهم، فكذلك أوحينا إليك قرآنًا عربيًّا لتكون نذيرًا لهم.

وقوله تعالى: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي لتنذر أهل أم القرى؛ لأن البلد لا تعقل، وهو كقوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾[يوسف: ٨٢] وأم القرى أصل القرى وهي مكة، وسميت بهذا الاسم إجلالاً لها؛ لأن فيها البيت ومقام إبراهيم، والعرب تسمي أصل كل شيء أمه حتى يقال: هذه القصيدة من أمهات قصائد فلان، ومَن حولها من أهل البدو والحضر وأهل المدر، والإنذار: التخويف، فإن قيل: فظاهر اللفظ يقتضي أن الله تعالى إنما أوحى إليه لينذر أهل مكة وأهل القرى المحيطة بمكة، وهذا يقتضي أن يكون رسولاً إليهم فقط وأن لا يكون رسولاً إلى كل العالمين. الجواب: أن التخصيص بالذكر لا يدل على نفي الحكم عما سواه، فهذه الآية تدل على كونه رسولاً إلى هؤلاء خاصة، وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾[سبأ: ٢٨] يدل على كونه رسولاً إلى كل العالمين، أيضًا لما ثبت كونه رسولاً إلى أهل مكة وجب كونه صادقًا، ثم إنه نُقل إلينا بالتواتر أنه كان يدعي أنه رسول إلى كل العالمين، والصادق إذا أخبر عن شيء وجب تصديقه فيه، فثبت أنه رسول إلى كل العالمين.

ثم قال تعالى: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ الأصل أن يقال: أنذرت فلانًا بكذا، فكان الواجب أن يقال: لتنذر أم القرى بيوم الجمع. وأيضًا فيه إضمار والتقدير: لتنذر أهل أم القرى بعذاب يوم الجمع. وفي تسميته بيوم الجمع وجوه: الأول: أن الخلائق يُجمعون فيه، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾[التغابن: ٩] فيجتمع فيه أهل السموات مع أهل الأرض. الثاني: أنه يُجمع بين الأرواح والأجساد. الثالث: يُجمع بين كل عامل وعمله. الرابع: يُجمع بين الظالم والمظلوم. وقوله ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ صفة ليوم الجمع الذي لا ريب فيه. وقوله: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ تقديره: ليوم الجمع الذي من صفته يكون القوم فيه فريقين: فريق في الجنة وفريق في السعير، فإن قيل: قوله: ﴿يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ يقتضي كون القوم مجتمعين، وقوله: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ يقتضي كونهم متفرقين، والجمع بين الصفتين محال، قلنا: إنهم يجتمعون أولاً ثم يصيرون فريقين.

ثم قال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ والمراد تقرير قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ

﴿حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الشورى: ٦] أي لا يكن في قدرتك أن تحملهم على الإيمان، فلو شاء الله ذلك لفعله لأنه أقدر منك، ولكنه جعل البعض مؤمنًا والبعض كافرًا، فقوله: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ يدل على أنه تعالى هو الذي أدخلهم في الإيمان والطاعة، وقوله: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ يعني أنه تعالى ما أدخلهم في رحمته، وهذا يدل على أن الأولين إنما دخلوا في رحمته؛ لأنه كان لهم ولي ونصير أدخلهم في تلك الرحمة، وهؤلاء ما كان لهم ولي ولا نصير يدخلهم في رحمته.

ثم قال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ والمعنى أنه تعالى حكى عنهم أولاً أنهم اتخذوا من دونه أولياء، ثم قال بعده لمحمد ﷺ: لست عليهم رقيبًا ولا حافظًا، ولا يجب عليك أن تحملهم على الإيمان شاءوا أم أبوا، فإن هذا المعنى لو كان واجبًا لفعله الله؛ لأنه أقدر منك، ثم إنه تعالى أعاد بعده ذلك الكلام على سبيل الاستنكار، فإن قوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ استفهام على سبيل الإنكار.

ثم قال تعالى: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ والفاء في قوله: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ جواب شرط مقدر، كأنه قال: إن أرادوا أولياء بحق، فالله هو الولي بالحق لا ولي سواه؛ لأنه يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير، فهو الحقيق بأن يُتخذ وليًا دون من لا يقدر على شيء.

ثم قال: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: وجه النظم أنه تعالى كما مَنَع الرسول ﷺ أن يحمل الكفار على الإيمان قهرًا، فكذلك مَنَع المؤمنين أن يشرعوا معهم في الخصومات والمنازعات فقال: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وهو إثابة المحقين فيه ومعاقبة المبطلين، وقيل: وما اختلفتم فيه من شيء وتنازعتم، فتحاكموا فيه إلى الرسول ﷺ، ولا تؤثر حكومة غيره على حكومته، وقيل: وما وقع بينكم فيه خلاف من الأمور التي لا تصل بتكليفكم، ولا طريق لكم إلى عمله كحقيقة الروح، فقولوا: الله أعلم به، قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥].

المسألة الثانية: تقدير الآية كأنه قال: قل يا محمد ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

المسألة الثالثة: احتج نفاة القياس بهذه الآية فقالوا: قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إما أن يكون المراد فحكمه مستفاد من نص الله عليه، أو المراد فحكمه مستفاد من القياس على ما نص الله عليه، والثاني باطل لأنه يقتضي كون كل الأحكام مثبتة بالقياس بأنه باطل فيعتبر الأول، فوجب كون كل الأحكام مثبتة بالنص، وذلك ينفي العمل بالقياس، ولقائل أن يقول: لمَ لا يجوز أن يكون المراد فحكمه يُعرف من بيان الله تعالى، سواء كان ذلك البيان بالنص أو بالقياس؟ أجيب عنه: بأن المقصود من التحاكم إلى الله قطع الاختلاف، والرجوع إلى القياس يقوي حكم الاختلاف ولا يوضحه، فوجب أن يكون الواجب هو الرجوع إلى نصوص الله تعالى.

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي﴾ أي ذلكم الحاكم بينكم هو ربي ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في دفع كيد الأعداء وفي طلب كل خير ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي وإليه أرجع في كل المهمات، وقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ يفيد الحصر، أي لا أتوكل إلا عليه، وهو إشارة إلى تزييف طريقة من اتخذ غير الله وليًا.

ثم قال: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قرئ بالرفع والجر، فالرفع على أنه خبر ذلكم، أو خبر مبتدأ محذوف، والجر على تقدير أن يكون الكلام هكذا: وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله فاطر السموات والأرض، وقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي﴾ اعتراض وقع بين الصفة والموصوف، ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ من جنسكم من الناس ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا﴾ أي خلق من الأنعام أزواجًا، ومعناه وخلق أيضًا للأنعام من أنفسها أزواجًا ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ أي يكثركم، يقال: ذرأ الله الخلق، أي كثرهم، وقوله: ﴿فِيهِ﴾ أي في هذا التدبير، وهو التزويج وهو أن جعل الناس والأنعام أزواجًا حتى كان بين ذكورهم وإناثهم التوالد والتناسل، والضمير في ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ يرجع إلى المخاطبين، إلا أنه غلَّب فيه جانب الناس من وجهين: الأول: أنه غلب فيه جانب العقلاء على غير العقلاء. الثاني: أنه غلَّب فيه جانب المخاطبين على الغائبين، فإن قيل: ما معنى يذرؤكم في هذا التدبير، ولِمَ لم يقل يذرؤكم به؟ قلنا: جعل هذا التدبير كالمنبع والمعدن لهذا التكثير، ألا ترى أنه يقال للحيوان في خلق الأزواج تكثير، كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩].

ثم قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ وهذه الآية فيها مسائل:

المسألة الأولى: احتج علماء التوحيد قديمًا وحديثًا بهذه الآية في نفي كونه تعالى جسمًا مركبًا من الأعضاء والأجزاء وحاصلاً في المكان والجهة، وقالوا: لو كان جسمًا لكان مثلاً لسائر الأجسام، فيلزم حصول الأمثال والأشباه له، وذلك باطل بصريح قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ويمكن إيراد هذه الحجة على وجه آخر، فيقال: إما أن يكون المراد ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ في ماهيات الذات، أو أن يكون المراد ليس كمثله في الصفات شيء، والثاني باطل، لأن العباد يوصفون بكونهم عالِمين قادرين، كما أن الله تعالى يوصف بذلك، وكذلك يوصفون بكونهم معلومين مذكورين، مع أن الله تعالى يوصف بذلك، فثبت أن المراد بالمماثلة المساواة في حقيقة الذات، فيكون المعنى أن شيئًا من الذوات لا يساوي الله تعالى في الذاتية، فلو كان الله تعالى جسمًا، لكان كونه جسمًا ذاتًا لا صفة، فإذا كان سائر الأجسام مساوية له في الجسمية، أعني في كونها متحيزة طويلة عريضة عميقة، فحينئذٍ تكون سائر الأجسام مماثلة لذات الله تعالى في كونه ذاتًا، والنص ينفي ذلك فوجب أن لا يكون جسمًا.

واعلم أن محمد بن إسحاق بن خزيمة أورد استدلال أصحابنا بهذه الآية في الكتاب الذي سماه بـ(التوحيد)، وهو في الحقيقة كتاب الشرك، واعترض عليها، وأنا أذكر حاصل كلامه بعد

حذف التطويلات؛ لأنه كان رجلاً مضطرب الكلام، قليل الفهم، ناقص العقل، فقال: «نَحْنُ نُثْبِتُ لِلَّهِ وَجْهًا وَنَقُولُ: إِنَّ لِوَجْهِ رَبِّنَا مِنَ النُّورِ وَالضِّيَاءِ وَالْبَهَاءِ، مَا لَوْ كُشِفَ حِجَابُهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ كُلَّ شَيْءٍ أَدْرَكَهُ بَصَرُهُ، وَوَجْهُ رَبِّنَا مَنْفِيٌّ عَنْهُ الْهَلاَكُ وَالْفَنَاءُ، وَنَقُولُ: إِنَّ لِبَنِي آدَمَ وُجُوهًا كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهَا الْهَلاَكَ وَالْفَنَاءَ، وَنَفَى عَنْهَا الْجَلاَلَ وَالإِكْرَامَ، غَيْرَ مَوْصُوفَةٍ بِالنُّورِ وَالضِّيَاءِ وَالْبَهَاءِ، وَلَوْ كَانَ مُجَرَّدُ إِثْبَاتِ الْوَجْهِ لِلَّهِ يَقْتَضِي التَّشْبِيهَ لَكَانَ مَنْ قَالَ: إِنَّ لِبَنِي آدَمَ وُجُوهًا وَلِلْخَنَازِيرِ وَالْقِرَدَةِ وَالْكِلاَبِ وُجُوهًا، لَكَانَ قَدْ شَبَّهَ وُجُوهَ بَنِي آدَمَ بِوُجُوهِ الْخَنَازِيرِ وَالْقِرَدَةِ وَالْكِلاَبِ. ثُمَّ قَالَ: وَلاَ شَكَّ أَنَّهُ اعْتِقَادُ الْجَهْمِيَّةِ لِأَنَّهُ لَوْ قِيلَ لَهُ: وَجْهُكَ يُشْبِهُ وَجْهَ الْخَنَازِيرِ وَالْقِرَدَةِ لَغَضِبَ وَلَشَافَهَهُ بِالسُّوءِ، فَعَلِمْنَا أَنَّهُ لاَ يَلْزَمُ مِنْ إِثْبَاتِ الْوَجْهِ وَالْيَدَيْنِ لِلَّهِ إِثْبَاتُ التَّشْبِيهِ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ خَلْقِهِ».

وذكر في فصل آخر من هذا الكتاب: «أَنَّ الْقُرْآنَ دَلَّ عَلَى وُقُوعِ التَّسْوِيَةِ بَيْنَ ذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى وَبَيْنَ خَلْقِهِ فِي صِفَاتٍ كَثِيرَةٍ، وَلَمْ يَلْزَمْ مِنْهَا أَنْ يكون القائل مشبهًا فكذا هاهنا». ونحن نعد الصور التي ذكرها على الاستقصاء: فالأول: أنه تعالى قال في هذه الآية: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ وقال في حق الإنسان ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]، الثاني: قال: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ١٠٥] وقال في حق المخلوقين ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ [النحل: ٧٩] الثالث: قال: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [هود: ٣٧] ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] وقال في حق المخلوقين: ﴿تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾ [المائدة: ٨٣] الرابع: قال لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥] وقال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] وقال في حق المخلوقين: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٢]، ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] الخامس: قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] وقال في الذين يركبون الدواب: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ [الزخرف: ١٣] وقال في سفينة نوح: ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾ [هود: ٤٤]، السادس: سمى نفسه عزيزًا فقال: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ﴾ [الحشر: ٢٣]، ثم ذكر هذا الاسم في حق المخلوقين بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ [يوسف: ٧٨]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ [يوسف: ٨٨]، السابع: سمى نفسه بالملك وسمى بعض عبيده أيضًا بالملك فقال: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ﴾ [يوسف: ٥٠] وسمى نفسه بالعظيم ثم أوقع هذا الاسم على المخلوق فقال: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩] وسمى نفسه بالجبار المتكبر، وأوقع هذا الاسم على المخلوق فقال: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥] ثم طوَّل في ضرب الأمثلة من هذا الجنس، وقال: ومن وقف على الأمثلة التي ذكرناها أمكنه الإكثار منها. فهذا ما أورده هذا الرجل في هذا الكتاب.

وأقول: هذا المسكين الجاهل إنما وقع في أمثال هذه الخرافات لأنه لم يعرف حقيقة المثلين، وعلماء التوحيد حققوا الكلام في المثلين ثم فرعوا عليه الاستدلال بهذه الآية، فنقول: المثلان

هما اللذان يقوم كل واحد منهما مقام الآخر في حقيقته وماهيته، وتحقيق الكلام فيه مسبوق بمقدمة أخرى فنقول: المعتبر في كل شيء، إما تمام ماهيته، وإما جزء من أجزاء ماهيته، وإما أمر خارج عن ماهيته، ولكنه من لوازم تلك الماهية، وإما أمر خارج عن ماهيته ولكنه ليس من لوازم تلك الماهية، وهذا التقسيم مبني على الفرق بين ذات الشيء وبين الصفات القائمة به، وذلك معلوم بالبديهة، فإنا نرى الحبة من الحصرم كانت في غاية الخضرة والحموضة، ثم صارت في غاية السواد والحلاوة، فالذات باقية والصفات مختلفة، والذات الباقية مغايرة للصفات المختلفة، وأيضًا نرى الشعر قد كان في غاية السواد ثم صار في غاية البياض، فالذات باقية والصفات متبدلة والباقي غير المتبدل، فظهر بما ذكرنا أن الذوات مغايرة للصفات. إذا عرفت هذا فنقول: اختلاف الصفات لا يوجب اختلاف الذوات البتة؛ لأنا نرى الجسم الواحد كان ساكنًا ثم يصير متحركًا، ثم يسكن بعد ذلك، فالذوات باقية في الأحوال كلها على نهج واحد ونسق واحد، والصفات متعاقبة متزايلة، فثبت بهذا أن اختلاف الصفات والأعراض لا يوجب اختلاف الذوات، إذا عرفت هذا فنقول: الأجسام التي منها تألف وجه الكلب والقرد مساوية للأجسام التي تألف منها وجه الإنسان والفرس، وإنما حصل الاختلاف بسبب الأعراض القائمة وهي الألوان والأشكال والخشونة والملاسة وحصول الشعور فيه وعدم حصولها، فالاختلاف إنما وقع بسبب الاختلاف في الصفات والأعراض، فأما ذوات الأجسام فهي متماثلة إلا أن العوام لا يعرفون الفرق بين الذوات وبين الصفات، فلا جرم يقولون: إن وجه الإنسان مخالف لوجه الحمار، ولقد صدقوا فإنه حصلت تلك بسبب الشكل واللون وسائر الصفات، فأما الأجسام من حيث إنها أجسام فهي متماثلة متساوية، فثبت أن الكلام الذي أورده إنما ذكره لأجل أنه كان من العوام، وما كان يعرف أن المعتبر في التماثل والاختلاف حقائق الأشياء وماهياتها لا الأعراض والصفات القائمة بها.

بقي هاهنا أن يقال فما الدليل على أن الأجسام كلها متماثلة؟

فنقول لنا هاهنا مقامان:

المقام الأول: أن نقول: هذه المقدمة إما أن تكون مُسلَّمة أو لا تكون مُسلَّمة، فإن كانت مُسلَّمة فقد حصل المقصود، وإن كانت ممنوعة، فنقول: فلمَ لا يجوز أن يقال: إله العالم هو الشمس أو القمر أو الفلك أو العرش أو الكرسي، ويكون ذلك الجسم مخالفًا لماهية سائر الأجسام فكان هو قديمًا أزليًا واجب الوجود، وسائر الأجسام محدثة مخلوقة، ولو أن الأولين والآخرين اجتمعوا على أن يسقطوا هذا الإلزام عن المجسمة لا يقدرون عليه؟ فإن قالوا: هذا باطل لأن القرآن دلّ على أن الشمس والقمر والأفلاك كلها محدثة مخلوقة. فيقال: هذا من باب الحماقة المفرطة لأن صحة القرآن وصحة نبوّة الأنبياء مفرعة على معرفة الإله، فإثبات معرفة الإله بالقرآن وقول النبي لا يقوله عاقل يفهم ما يتكلم به.

والمقام الثاني: أن علماء الأصول أقاموا البرهان القاطع على تماثل الأجسام في الذوات الحقيقة، وإذا ثبت هذا ظهر أنه لو كان إله العالم جسمًا لكانت ذاته مساوية لذوات الأجسام، إلا أن هذا باطل بالعقل والنقل: أما العقل فلأن ذاته إذا كانت مساوية لذوات سائر الأجسام وجب أن يصح عليه ما يصح على سائر الأجسام، فيلزم كونه محدثًا مخلوقًا قابلاً للعدم والفناء قابلاً للتفرق والتمزق. وأما النقل فقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فهذا تمام الكلام في تقرير هذا الدليل وعند هذا يظهر أنا لا نقول بأنه متى حصل الاستواء في الصفة لزم حصول الاستواء في تمام الحقيقة، إلا أنا نقول: لما ثبت أن الأجسام متماثلة في تمام الماهية، فلو كانت ذاته جسمًا لكان ذلك الجسم مساويًا لسائر الأجسام في تمام الماهية، وحينئذٍ يلزم أن يكون كل جسم مثلاً له، لما بينا أن المعتبر في حصول المماثلة اعتبار الحقائق من حيث هي هي، لا اعتبار الصفات القائمة بها. فظهر بالتقرير الذي ذكرناه أن حجة أهل التوحيد في غاية القوة، وأن هذه الكلمات التي أوردها هذا الإنسان إنما أوردها لأنه كان بعيدًا عن معرفة الحقائق، فجرى على منهج كلمات العوام فاغتر بتلك الكلمات التي ذكرها، ونسأل الله تعالى حسن الخاتمة.

المسألة الثانية: في ظاهر هذه الآية إشكال، فإنه يقال: المقصود منها نفي المثل عن الله تعالى وظاهرها يوجب إثبات المثل لله، فإنه يقتضي نفي المثل عن مثله لا عنه، وذلك يوجب إثبات المثل لله تعالى، وأجاب العلماء عنه بأن قالوا: إن العرب تقول: (مثلك لا يبخل) أي أنت لا تبخل. فنفوا البخل عن مثله، وهم يريدون نفيه عنه، ويقول الرجل: (هذا الكلام لا يقال لمثلي) أي لا يقال لي. قال الشاعر:

وَمِثْلِي كَمِثْلِ جُذُوعِ النَّخِيلِ(١)

والمراد منه المبالغة فإنه إذا كان ذلك الحكم منتفيًا عمن كان مشابهًا بسبب كونه مشابهًا له، فلأن يكون منتفيًا عنه كان ذلك أَوْلى، ونظيره قولهم: سلام على المجلس العالي، والمقصود أن سلام الله إذا كان واقعًا على مجلسه وموضعه، فلأن يكون واقعًا عليه كان ذلك أَوْلى، فكذا ههنا قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ والمعنى ليس كهو شيء على سبيل المبالغة من الوجه الذي ذكرناه، وعلى هذا التقدير فلم يكن هذا اللفظ ساقطًا عديم الأثر، بل كان مفيدًا للمبالغة من الوجه الذي ذكرناه، وزعم جهم بن صفوان أن المقصود من هذه الآية بيان أنه تعالى ليس مسمى باسم الشيء. قال: لأن كل شيء فإنه يكون مثلاً لمثل نفسه فقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ معناه ليس مثل مثله شيء، وذلك يقتضي أن لا يكون هو مسمى باسم الشيء. وعندي فيه طريقة أخرى، وهي أن المقصود من ذكر الجمع بين حرفي التشبيه الدليل الدال على كونه منزّهًا عن المثل، وتقريره أن يقال: لو كان له مثل لكان هو مثل نفسه، وهذا محال، فإثبات المثل له محال، أما بيان أنه لو كان له مثل لكان هو مثل نفسه فالأمر فيه ظاهر، وأما بيان أن هذا محال

---

(١) هذا شطر البيت الأول ضمن قصيدة من البحر المتقارب لأوس بن حجر، وتقدم ترجمته.

فلأنه لو كان مثل مثل نفسه لكان مساويًا لمثله في تلك الماهية ومباينًا له في نفسه، وما به المشاركة غير ما به المباينة، فتكون ذات كل واحد منهما مركبًا، وكل مركب ممكن، فثبت أنه لو حصل لواجب الوجود مِثل لَمَا كان هو في نفسه واجب الوجود، إذا عرفت هذا: فقوله (ليس مثله مثله شيء) إشارة إلى أنه لو صدق عليه أنه مثل مثل نفسه لما كان هو شيئًا بناءً على ما بينا أنه لو حصل لواجب الوجود مِثل لَمَا كان واجب الوجود، فهذا ما يحتمله اللفظ.

المسألة الثالثة: هذه الآية دالة على نفي المثل، وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الروم: ٢٧] يقتضي إثبات المثل فلا بد من الفرق بينهما، فنقول: المثل هو الذي يكون مساويًا للشيء في تمام الماهية، والمثل هو الذي يكون مساويًا له في بعض الصفات الخارجة عن الماهية وإن كان مخالفًا في تمام الماهية.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ يدل على كونه تعالى سامعًا للمسموعات مبصرًا للمرئيات، فإن قيل: يمتنع إجراء هذا اللفظ على ظاهره؛ وذلك لأنه إذا حصل قرع أو قلع انقلب الهواء من بين ذينك الجسمين انقلابًا يعنف فيتموج الهواء بسبب ذلك ويتأدى ذلك التموج إلى سطح الصماخ فهذا هو السماع، وأما الإبصار فهو عبارة عن تأثر الحدقة بصورة المرئي، فثبت أن السمع والبصر عبارة عن تأثر الحاسة، وذلك على الله محال، فثبت أن إطلاق السمع والبصر على علمه تعالى بالمسموعات والمبصرات غير جائز. والجواب: الدليل على أن السماع مغاير لتأثر الحاسة أنا إذا سمعنا الصوت علمنا أنه من أي الجوانب جاء، فعلمنا أنا أدركنا الصوت حيث وجد ذلك الصوت في نفسه، وهذا يدل على أن إدراك الصوت حالة مغايرة لتأثير الصماخ عن تموج ذلك الهواء. وأما الرؤية فالدليل على أنها حالة مغايرة لتأثر الحدقة، فذلك لأن نقطة الناظر جسم صغير فيستحيل انطباع الصورة العظيمة فيه، فنقول: الصورة المنطبعة صغيرة والصورة المرئية في نفس العالم عظيمة، وهذا يدل على أن الرؤية حالة مغايرة لنفس ذلك الانطباع، وإذا ثبت هذا فنقول: لا يلزم من امتناع التأثر في حق الله امتناع السمع والبصر في حقه، فإن قالوا: هب أن السمع والبصر حالتان مغايرتان لتأثر الحاسة إلا أن حصولهما مشروط بحصول ذلك التأثر، فلما كان حصول ذلك التأثر في حق الله تعالى ممتنعًا كان حصول السمع والبصر في حق الله ممتنعًا. فنقول: ظاهر قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ يدل على كونه سميعًا بصيرًا، فلم يجز لنا أن نعدل عن هذا الظاهر إلا إذا قام الدليل على أن الحاسة المسماة بالسمع والبصر مشروطة بحصول التأثر، والتأثر في حق الله تعالى ممتنع، فكان حصول الحاسة المسماة بالسمع والبصر ممتنعًا، وأنتم المدعون لهذا الاشتراط فعليكم الدلالة على حصوله، وإنما نحن متمسكون بظاهر اللفظ إلى أن تذكروا ما يوجب العدول عنه، فإن قال قائل: قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ يفيد الحصر، فما معنى هذا الحصر، مع أن العباد أيضًا موصوفون بكونهم سميعين بصيرين؟ فنقول: السميع والبصير لفظان مشعران بحصول هاتين الصفتين على

سبيل الكمال، والكمال في كل الصفات ليس إلا لله، فهذا هو المراد من هذا الحصر.

أما قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فاعلم أن المراد من الآية أنه تعالى فاطر السموات والأرض، والأصنام ليست كذلك، وأيضًا فهو خالق أنفسنا وأزواجنا وخالق أولادنا منا ومن أزواجنا، والأصنام ليست كذلك، وأيضًا فله مقاليد السموات والأرض، والأصنام ليست كذلك، والمقصود من الكل بيان القادر المنعم الكريم الرحيم، فكيف يجوز جعل الأصنام التي هي جمادات مساوية له في المعبودية؟ فقوله: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يريد مفاتيح الرزق من السموات والأرض، فمقاليد السموات الأمطار، ومقاليد الأرض النبات، وذكرنا تفسير المقاليد في سورة الزمر عند قوله: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الزمر: ٥٢] لأن مفاتيح الأرزاق بيده ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ﴾ من البسط والتقدير ﴿عَلِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما عظَّم وحيه إلى محمد ﷺ بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الشورى: ٣] ذكر في هذه الآية تفصيل ذلك فقال: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ والمعنى: شرع الله لكم يا أصحاب محمد من الدين ما وصى به نوحًا ومحمدًا وإبراهيم وموسى وعيسى، هذا هو المقصود من لفظ الآية، وإنما خص هؤلاء الأنبياء الخمسة بالذكر

لأنهم أكابر الأنبياء وأصحاب الشرائع العظيمة والأتباع الكثيرة، إلا أنه بقي في لفظ الآية إشكالات: أحدها: أنه قال في أول الآية: ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ وفي آخرها: ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وفي الوسط: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ فما الفائدة في هذا التفاوت؟ وثانيها: أنه ذكر نوحًا عليه السلام على سبيل الغيبة فقال: ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ والقسمين الباقيين على سبيل التكلم فقال: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وثالثها: أنه يصير تقدير الآية: شرع الله لكم من الدين الذي أوحينا إليك. فقوله: ﴿شَرَعَ لَكُم﴾ خطاب الغيبة، وقوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ خطاب الحضور، فهذا يقتضي الجمع بين خطاب الغيبة وخطاب الحضور في الكلام الواحد بالاعتبار الواحد، وهو مشكل، فهذه المضايق يجب البحث عنها والقوم ما داروا حولها، وبالجملة فالمقصود من الآية أنه يقال: شرع لكم من الدين دينًا تطابقت الأنبياء على صحته، وأقول: يجب أن يكون المراد من هذا الدين شيئًا مغايرًا للتكاليف والأحكام، وذلك لأنها مختلفة متفاوتة، قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] فيجب أن يكون المراد منه الأمور التي لا تختلف باختلاف الشرائع، وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والإيمان يوجب الإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة والسعي في مكارم الأخلاق والاحتراز عن رذائل الأحوال، ويجوز عندي أن يكون المراد من قوله: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟﴾ أي لا تتفرقوا بالآلهة الكثيرة، كما قال يوسف عليه السلام: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩] وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] واحتج بعضهم بقوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ على أن النبي ﷺ في أول الأمر كان مبعوثًا بشريعة نوح عليه السلام، والجواب ما ذكرناه أنه عطف عليه سائر الأنبياء، وذلك يدل على أن المراد هو الأخذ بالشريعة المتفق عليها بين الكل، ومحل ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾ إما نصب بدل من مفعول ﴿شَرَعَ﴾ والمعطوفين عليه، وإما رفع على الاستئناف، كأنه قيل: ما ذاك المشروع؟ فقيل: هو إقامة الدين ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ عظُم عليهم وشق عليهم ﴿مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ من إقامة دين الله تعالى على سبيل الاتفاق والإجماع، بدليل أن الكفار قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].

وهاهنا مسائل:

المسألة الأولى: احتج نفاة القياس بهذه الآية، قالوا: إنه تعالى أخبر أن أكابر الأنبياء أطبقوا على أنه يجب إقامة الدين بحيث لا يفضي إلى الاختلاف والتنازع، والله تعالى ذكر في معرض المنّة على عباده أنه أرشدهم إلى الدين الخالي عن التفرق والمخالفة، ومعلوم أن فتح باب القياس يفضي إلى أعظم أنواع التفرق والمنازعة، فإن الحس شاهد بأن هؤلاء الذين بنوا دينهم على الأخذ بالقياس تفرقوا تفرقًا لا رجاء في حصول الاتفاق بينهم إلى آخر القيامة، فوجب أن يكون ذلك محرمًا ممنوعًا عنه.

المسألة الثانية: هذه الآية تدل على أن هذه الشرائع على قسمين، منها ما يمتنع دخول النسخ والتغيير فيه، بل يكون واجب البقاء في جميع الشرائع والأديان، كالقول بحسن الصدق والعدل والإحسان، والقول بقبح الكذب والظلم والإيذاء، ومنها ما يختلف باختلاف الشرائع والأديان. ودلت هذه الآية على أن سعي الشرع في تقرير النوع الأول أقوى من سعيه في تقرير النوع الثاني؛ لأن المواظبة على القسم الأول مهمة في اكتساب الأحوال المفيدة لحصول السعادة في الدار الآخرة.

المسألة الثالثة: قوله تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ مُشعر بأن حصول الموافقة أمر مطلوب في الشرع والعقل، وبيان منفعته من وجوه: الأول: أن للنفوس تأثيرات، وإذا تطابقت النفوس وتوافقت على واحد، قويَ التأثير. الثاني: أنها إذا توافقت صار كل واحد منها مُعِينًا للآخر في ذلك المقصود المعين، وكثرة الأعوان توجب حصول المقصود، أما إذا تخالفت تنازعت وتجادلت فضعفت، فلا يحصل المقصود. الثالث: أن حصول التنازع ضد مصلحة العالم؛ لأن ذلك يفضي إلى الهرج والمرج والقتل والنهب؛ فلهذا السبب أَمَر الله تعالى في هذه الآية بإقامة الدين على وجه لا يفضي إلى التفرق، وقال في آية أخرى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا﴾ [الأنفال: ٤٦].

ثم قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ وفيه وجهان: الأول: أنه تعالى لما أرشد أمة محمد ﷺ إلى التمسك بالدين المتفق عليه، بيّن أنه تعالى إنما أرشدهم إلى هذا الخير؛ لأنه اجتباهم واصطفاهم وخصهم بمزيد الرحمة والكرامة. الثاني: أنه إنما كبُرَ عليهم هذا الدعاء من الرسل لما فيه من الانقياد لهم تكبرًا وأنفة، فبيّن تعالى أنه يخص من يشاء بالرسالة ويلزم الانقياد لهم، ولا يعتبر الحسب والنسب والغنى، بل الكل سواء في أنه يلزمهم اتباع الرسل الذين اجتباهم الله تعالى، واشتقاق لفظ الاجتباء يدل على الضم والجمع، فمنه جبى الخراج واجتباه وجبى الماء في الحوض، فقوله: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ﴾ أي يضمه إليه ويقربه منه تقريب الإكرام والرحمة، وقوله: ﴿مَن يَشَاءُ﴾ كقوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾ [العنكبوت: ٢١].

ثم قال: ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ وهو كما روي في الخبر «**مَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً**»(١) أي من أقبل إليّ بطاعته أقبلت إليه بهدايتي وإرشادي، بأن أشرح له صدره وأُسهل أمره.

واعلم أنه تعالى لما بيّن أنه أمَر كل الأنبياء والأمم بالأخذ بالدين المتفق عليه، كان لقائل أن

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في كتاب (الذكر والدعاء)، باب: (فضل الذكر والدعاء والقرب إلى الله تعالى) (٤/ ٢٠٦٨/ ٢٦٨٧). قال: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبي ذر... به. وابن ماجه في كتاب (الأدب)، باب: (فضل العمل) (٢/ ١٢٥٥)، حديث رقم (٣٨٢١)، من طريق وكيع عن الأعمش.. به، وأحمد في (مسنده) (٥/ ١٦٩)، حديث رقم (٢١٥٢٦)، قال: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش... به، والبزار في (مسنده) (٩/ ٤٠٣)، حديث رقم (٣٩٩٩) من طريق المعرور عن أبي ذر... به.

يقول: فلماذا نجدهم متفرقين؟ فأجاب الله تعالى عنهم بقوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ﴾ يعني أنهم ما تفرقوا إلا من بعد أن علموا أن الفرقة ضلالة، ولكنهم فعلوا ذلك للبغي وطلب الرياسة، فحملتهم الحمية النفسانية والأنفة الطبعية، على أن ذهب كل طائفة إلى مذهب ودعا الناس إليه وقبَّح ما سواه طلبًا للذكر والرياسة، فصار ذلك سببًا لوقوع الاختلاف، ثم أخبر تعالى أنهم استحقوا العذاب بسبب هذا الفعل، إلا أنه تعالى أخر عنهم ذلك العذاب؛ لأن لكل عذاب عنده أجلاً مسمى، أي وقتًا معلومًا، إما لمحض المشيئة كما هو قولنا، أو لأنه علم أن الصلاح تحقيقه به كما عند المعتزلة، وهو معنى قوله: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ والأجل المسمى قد يكون في الدنيا وقد يكون في القيامة. واختلفوا في الذين أريدوا بهذه الصفة من هم؟ فقال الأكثرون: هم اليهود والنصارى، والدليل قوله تعالى في آل عمران: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ﴾ [آل عمران: ١٩] وقال في سورة لم يكن: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ٤] ولأن قوله: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾ لائق بأهل الكتاب. وقال آخرون: إنهم هم العرب. وهذا باطل للوجوه المذكورة، لأن قوله تعالى بعد هذه الآية: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ لا يليق بالعرب؛ لأن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم هم أهل الكتاب الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ: ﴿لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ﴾ من كتابهم ﴿مُرِيبٖ﴾ لا يؤمنون به حق الإيمان.

ثم قال تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ﴾ يعني فلأجل ذلك التفرق ولأجل ما حدث من الاختلافات الكثيرة في الدين، فادع إلى الاتفاق على الملة الحنيفية، واستقم عليها وعلى الدعوة إليها، كما أمَرك الله، ولا تتبع أهواءهم المختلفة الباطلة ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ﴾ أي بأي كتاب صح أن الله أنزله، يعني الإيمان بجميع الكتب المنزلة؛ لأن المتفرقين آمنوا ببعض وكفروا ببعض، ونظيره قوله: ﴿نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١] ثم قال: ﴿وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ﴾ أي في الحكم إذا تخاصمتم فتحاكمتم إليَّ، قال القفال: معناه أن ربي أمرني أن لا أفرق بين نفسي وأنفسكم بأن آمركم بما لا أعمله، أو أخالفكم إلى ما نهيتكم عنه، لكني أسوي بينكم وبين نفسي، وكذلك أسوي بين أكابركم وأصاغركم فيما يتعلق بحكم الله.

ثم قال: ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ والمعنى أن إله الكل واحد، وكل واحد مخصوص بعمل نفسه، فوجب أن يشتغل كل واحد في الدنيا بنفسه، فإن الله يجمع بين الكل في يوم القيامة ويجازيه على عمله، والمقصود منه المتاركة واشتغال كل أحد بمهم نفسه، فإن قيل: كيف يليق بهذه المتاركة ما فعل بهم من القتل وتخريب البيوت وقطع النخيل والإجلاء؟ قلنا: هذه المتاركة كانت مشروطة بشرط أن يقبلوا الدين المتفق على صحته بين كل الأنبياء، ودَخَل فيه التوحيد، وترك عبادة الأصنام،

والإقرار بنبوة الأنبياء، وبصحة البعث والقيامة، فلما لم يقبلوا هذا الدين، فحينئذٍ فات الشرط، فلا جرم فات المشروط.

واعلم أنه ليس المراد من قوله: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ تحريم ما يجري مجرى محاجتهم، ويدل عليه وجوه: الأول: أن هذا الكلام مذكور في معرض المحاجة، فلو كان المقصود من هذه الآية تحريم المحاجة، لزم كونها محرمة لنفسها وهو متناقض. والثاني: أنه لولا الأدلة لما توجه التكليف. الثالث: أن الدليل يفيد العلم، وذلك لا يمكن تحريمه، بل المراد أن القوم عرفوا بالحجة صدق محمد ﷺ، وإنما تركوا تصديقه بغيًا وعنادًا، فبيّن تعالى أنه قد حصل الاستغناء عن محاجتهم لأنهم عرفوا بالحجة صدقه فلا حاجة معهم إلى المحاجة ألبتة، ومما يقوي قولنا أنه لا يجوز تحريم المحاجة - قوله: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]وقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النحل: ١٢٥]وقوله: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]وقوله: ﴿يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾ [هود: ٣٢]وقوله ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [الأنعام: ٨٣].

ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ﴾ أي يخاصمون في دينه ﴿مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ﴾ أي من بعد ما استجاب الناس لذلك الدين ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ﴾ أي باطلة. وتلك المخاصمة هي أن اليهود قالوا: ألستم تقولون: إن الأخذ بالمتفق أَوْلى من الأخذ بالمختلف؟ فنبوّة موسى وحقية التوراة معلومة بالاتفاق، ونبوة محمد ليست متفقًا عليها، فإذا بنيتم كلامكم في هذه الآية على أن الأخذ بالمتفق أَوْلى، وجب أن يكون الأخذ باليهودية أَوْلى، فبيّن تعالى أن هذه الحجة داحضة، أي باطلة فاسدة؛ وذلك لأن اليهود أطبقوا على أنه إنما وجب الإيمان بموسى عليه السلام لأجل ظهور المعجزات على وفق قوله، وههنا ظهرت المعجزات على وفق قول محمد عليه السلام، واليهود شاهدوا تلك المعجزات، فإن كان ظهور المعجزة يدل على الصدق، فههنا يجب الاعتراف بنبوة محمد ﷺ، وإن كان لا يدل على الصدق وجب في حق موسى أن لا يقروا بنبوته، وأما الإقرار بنبوة موسى والإصرار على إنكار نبوة محمد مع استوائهما في ظهور المعجزة - يكون متناقضًا. ولما قرر الله هذه الدلائل خَوَّف المنكرين بعذاب القيامة، فقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ والمعنى أنه تعالى أنزل الكتاب المشتمل على أنواع الدلائل والبينات، وأنزل الميزان وهو الفصل الذي هو القسطاس المستقيم، وأنهم لا يعلمون أن القيامة متى تفاجئهم، ومتى كان الأمر كذلك، وجب على العاقل أن يجد ويجتهد في النظر والاستدلال، ويترك طريقة أهل الجهل والتقليد، ولما كان الرسول يهددهم بنزول القيامة وأكثر في ذلك، وأنهم ما رأوا منه أثرًا، قالوا على سبيل السخرية: فمتى تقوم القيامة، وليتها قامت حتى يظهر لنا أن الحق ما نحن عليه أو الذي عليه محمد وأصحابه. فلدفع هذه الشبهة قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ والمعنى

ظاهر، وإنما يشفقون ويخافون لعلمهم أن عندها تمتنع التوبة، وأما منكر البعث فلأنه لا يحصل له هذا الخوف.

ثم قال: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ والمماراة الملاجة، قال الزجاج: الذين تدخلهم المرية والشك في وقوع الساعة، فيمارون فيها ويجحدون ﴿لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ لأن استيفاء حق المظلوم من الظالم واجب في العدل، فلو لم تحصل القيامة لزم إسناد الظلم إلى الله تعالى، وهذا من أمحل المحالات، فلا جرم كان إنكار القيامة ضلالاً بعيدًا.

ثم قال: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ أي كثير الإحسان بهم، وإنما حسن ذكر هذا الكلام ههنا لأنه أنزل عليهم الكتاب المشتمل على هذه الدلائل اللطيفة، فكان ذلك من لطف الله بعباده، وأيضًا المتفرقون استوجبوا العذاب الشديد، ثم إنه تعالى أخر عنهم ذلك العذاب فكان ذلك أيضًا من لطف الله تعالى، فلما سبق ذكر إيصال أعظم المنافع إليهم ودفع أعظم المضار عنهم، لا جرم حسن ذكره ههنا، ثم قال: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ يعني أن أصل الإحسان والبر عام في حق كل العباد، وذلك هو الإحسان بالحياة والعقل والفهم، وإعطاء ما لا بد منه من الرزق، ودفع أكثر الآفات والبليات عنهم، فأما مراتب العطية والبهجة فمتفاوتة مختلفة.

ثم قال: ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ﴾ أي القادر على كل ما يشاء ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُغالَب ولا يُدافَع.

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بيّن كونه لطيفًا بعباده كثير الإحسان إليهم، بيّن أنه لا بد لهم من أن يسعوا

في طلب الخيرات وفي الاحتراز عن القبائح فقال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ قال صاحب (الكشاف): إنه تعالى سمى ما يعمله العامل مما يطلب به الفائدة - حرثًا على سبيل المجاز.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: أنه تعالى أظهر الفرق في هذه الآية بين من أراد الآخرة وبين من أراد الدنيا من وجوه: الأول: أنه قَدَّم مريد حرث الآخرة في الذكر على مريد حرث الدنيا، وذلك يدل على التفضيل؛ لأنه وصفه بكونه آخرة ثم قدمه في الذكر تنبيهًا على قوله «**نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ**» الثاني: أنه قال في مريد حرث الآخرة: ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ وقال في مريد حرث الدنيا: ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ وكلمة (مِن) للتبعيض، فالمعنى أنه يعطيه بعض ما يطلبه ولا يؤتيه كله، وقال في سورة بني إسرائيل: ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨] وأقول: البرهان العقلي مساعد على البابين، وذلك لأن كل من عمل للآخرة وواظب على ذلك العمل، فكثرة الأعمال سبب لحصول الملكات، فكل من كانت مواظبته على تلك الأعمال أكثر، كان ميل قلبه إلى طلب الآخرة أكثر، وكلما كان الأمر كذلك كان الابتهاج أعظم والسعادات أكثر، وذلك هو المراد بقوله: ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ وأما طالب الدنيا فكلما كانت مواظبته على أعمال ذلك الطلب أكثر، كانت رغبته في الفوز بالدنيا أكثر وميله إليها أشد، وإذا كان الميل أبدًا في التزايد، وكان حصول المطلوب باقيًا على حالة واحدة، كان الحرمان لازمًا لا محالة. الثالث: أنه تعالى قال في طالب حرث الآخرة: ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ ولم يذكر أنه تعالى يعطيه الدنيا أم لا، بل بقي الكلام ساكتًا عنه نفيًا وإثباتًا، وأما طالب حرث الدنيا فإنه تعالى بيّن أنه لا يعطيه شيئًا من نصيب الآخرة على التنصيص، وهذا يدل على التفاوت العظيم، كأنه يقول: الآخرة أصل والدنيا تبع، فواجد الأصل يكون واجدًا للتبع بقدر الحاجة، إلا أنه لم يذكر ذلك تنبيهًا على أن الدنيا أخس من أن يُقرن ذكرها بذكر الآخرة. والرابع: أنه تعالى بيّن أن طالب الآخرة يزاد في مطلوبه، وبيّن أن طالب الدنيا يعطى بعض مطلوبه من الدنيا، وأما في الآخرة فإنه لا يحصل له نصيب ألبتة، فبيّن بالكلام الأول أن طالب الآخرة يكون حاله أبدًا في الترقي والتزايد، وبيّن بالكلام الثاني أن طالب الدنيا يكون حاله في المقام الأول في النقصان وفي المقام الثاني في البطلان التام. الخامس: أن الآخرة نسيئة والدنيا نقد، والنسيئة مرجوحة بالنسبة إلى النقد؛ لأن الناس يقولون: النقد خير من النسيئة. فبيّن تعالى أن هذه القضية انعكست بالنسبة إلى أحوال الآخرة والدنيا، فالآخرة وإن كانت نقدًا إلا أنها متوجهة للزيادة والدوام فكانت أفضل وأكمل، والدنيا وإن كانت نقدًا إلا أنها متوجهة إلى النقصان ثم إلى البطلان فكانت أخس وأرذل، فهذا يدل على أن حال الآخرة لا يناسب حال الدنيا ألبتة، وأنه ليس في الدنيا من أحوال الآخرة إلا مجرد الاسم كما هو مروي عن ابن عباس. السادس: الآية دالة على أن منافع الآخرة والدنيا ليست حاضرة، بل لا بد في البابين من

الحرث، والحرث لا يتأتى إلا بتحمل المشاق في البذر ثم التسقية والتنمية والحصد ثم التنقية، فلما سمى الله كلا القسمين حرثًا علمنا أن كل واحد منهما لا يحصل إلا بتحمل المتاعب والمشاق، ثم بيّن تعالى أن مصير الآخرة إلى الزيادة والكمال وأن مصير الدنيا إلى النقصان ثم الفناء، فكأنه قيل: إذا كان لا بد في القسمين جميعًا من تحمل متاعب الحراثة والتسقية والتنمية والحصد والتنقية، فلأن تُصرف هذه المتاعب إلى ما يكون في التزايد والبقاء أَوْلى من صرفها إلى ما يكون في النقصان والانقضاء والفناء.

المسألة الثانية: في تفسير قوله: ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ قولان: الأول: المعنى أنا نزيد في توفيقه وإعانته وتسهيل سبل الخيرات والطاعات عليه. وقال مقاتل: ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ بتضعيف الثواب، قال تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ [فاطر: ٣٠] وعن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ أَصْبَحَ وَهَمُّهُ الدُّنْيَا شَتَّتَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ هَمَّهُ وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَى مَا كُتِبَ لَهُ، وَمَنْ أَصْبَحَ هَمُّهُ الْآخِرَةَ جَمَعَ اللَّهُ هَمَّهُ وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ عَنْ أَنْفِهَا»(١) أو لفظ يقرب من أن يكون هذا معناه.

المسألة الثالثة: ظاهر اللفظ يدل على أن من صلّى لأجل طلب الثواب أو لأجل دفع العقاب فإنه تصح صلاته، وأجمعوا على أنها لا تصح. والجواب: أنه تعالى قال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ والحرث لا يتأتى إلا بإلقاء البذر الصحيح في الأرض، والبذر الصحيح لجميع الخيرات والسعادات ليس إلا عبودية الله تعالى.

المسألة الرابعة: قال أصحابنا: إذا توضأ بغير نية لم يصح. قالوا: لأن هذا الإنسان ما أراد حرث الآخرة؛ لأن الكلام فيما إذا كان غافلاً عن ذكر الله وعن الآخرة، فوجب أن لا يحصل له نصيب فيما يتعلق بالآخرة والخروج عن عهدة الصلاة من باب منافع الآخرة، فوجب أن لا يحصل في الوضوء العاري عن النية.

واعلم أن الله تعالى لما بيّن القانون الأعظم والقسطاس الأقوم في أعمال الآخرة والدنيا، أردفه بالتنبيه على ما هو الأصل في باب الضلالة والشقاوة فقال: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ ومعنى الهمزة في (أم) التقرير والتقريع و﴿شُرَكَآؤُهُمْ﴾ شياطينهم الذين زينوا الشرك وإنكار البعث والعمل للدنيا لأنهم لا يعلمون غيرها، وقيل: ﴿شُرَكَآؤُهُمْ﴾ أوثانهم، وإنما أضيفت إليهم لأنهم هم الذين اتخذوها شركاء لله، ولما كان سببًا لضلالتهم جُعلت شارعة لدين الضلالة كما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ

---

(١) ابن ماجه في (سننه) (٢/ ١٣٧٥)، حديث رقم (٤١٠٥)، وأحمد في (مسنده) (٥/ ١٨٣)، حديث رقم (٢١٦٣٠)، والطبراني في (الكبير) (٥/ ١٤٣)، حديث رقم (٤٨٩١)، جميعًا من طريق عبد الرحمن بن أبان بن عثمان بن عفان عن أبيه عن زيد بن ثابت . . . به، ورواه الترمذي في (سننه) (٤/ ٦٤٢)، حديث رقم (٢٤٦٥) من طريق الربيع بن صبيح، عن يزيد بن أبان وهو الرقاشي، عن أنس بن مالك . . . به.

﴿ٱلنَّاسِۚ﴾ [إبراهيم: ٣٦] وقوله: ﴿شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ يعني أن تلك الشرائع بأسرها على ضدين لله، ثم قال: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ أي القضاء السابق بتأخير الجزاء، أو يقال: ولولا الوعد بأن الفصل أن يكون يوم القيامة ﴿لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ﴾ أي بين الكافرين والمؤمنين أو بين المشركين وشركائهم ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ وقرأ بعضهم: (وأن) بفتح الهمزة في (أن) عطفًا له على كلمة الفصل، يعني ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ وأن تقريره تعذيب الظالمين في الآخرة ﴿لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾ في الدنيا. ثم إنه تعالى ذكر أحوال أهل العقاب وأحوال أهل الثواب، أما الأول: فهو قوله ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ﴾ خائفين خوفًا شديدًا ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾ يريد أن وباله واقع بهم سواء أشفقوا أو لم يشفقوا، أما الثاني: فهو أحوال أهل الثواب وهو قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ﴾ لأن روضة الجنة أطيب بقعة فيها، وفي الآية تنبيه على أن الفساق من أهل الصلاة كلهم في الجنة، إلا أنه خص الذين آمنوا وعملوا الصالحات بروضات الجنات، وهي البقاع الشريفة من الجنة، فالبقاع التي دون تلك الروضات لا بد وأن تكون مخصوصة بمن كان دون أولئك الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ثم قال: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ﴾ وهذا يدل على أن كل الأشياء حاضرة عنده مهيأة، ثم قال تعالى في تعظيم هذه الدرجة: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ وأصحابنا استدلوا بهذه الآية على أن الثواب غير واجب على الله، وإنما يحصل بطريق الفضل من الله تعالى لأنه تعالى قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ﴾ فهذا يدل على أن روضات الجنات ووجدان كل ما يريدونه - إنما كان جزاءً على الإيمان والأعمال الصالحات. ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ وهذا تصريح بأن الجزاء المرتب على العمل إنما حصل بطريق الفضل لا بطريق الاستحقاق.

ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ﴾ قال صاحب (الكشاف): قرئ (يبشِّر) من بشَّره (ويُبْشِر) من أبشره (ويَبْشُر) من بشره.

واعلم أن هذه الآيات دالة على تعظيم حال الثواب من وجوه: الأول: أن الله سبحانه رتب على الإيمان وعمل الصالحات روضات الجنات، والسلطان الذي هو أعظم الموجودات وأكرمهم إذا رتب على أعمال شاقة جزاء، دل ذلك على أن ذلك الجزاء قد بلغ إلى حيث لا يعلم كنهه إلا الله تعالى. الثاني: أنه تعالى قال: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ﴾ وقوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ﴾ يدخل في باب غير المتناهي لأنه لا درجة إلا والإنسان يريد ما هو أعلى منها. الثالث: أنه تعالى قال: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ والذي يحكم بكبره من له الكبرياء والعظمة على الإطلاق كان في غاية الكبر. الرابع: أنه تعالى أعاد البشارة على سبيل التعظيم فقال: ﴿ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ﴾ وذلك يدل أيضًا على غاية العظمة، نسأل الله الفوز بها والوصول إليها.

واعلم أنه تعالى لما أوحى إلى محمد ﷺ هذا الكتاب الشريف العالي وأودع فيه الثلاثة أقسام

الدلائل وأصناف التكاليف، ورتب على الطاعة الثواب، وعلى المعصية العقاب، بيَّن أني لا أطلب منكم بسبب هذا التبليغ نفعًا عاجلاً ومطلوبًا حاضرًا؛ لئلا يتخيل جاهل أن مقصود محمد ﷺ من هذا التبليغ المال والجاه فقال: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ذكر الناس في هذه الآية ثلاثة أقوال:

الأول: قال الشعبي: أكثرَ الناسُ علينا في هذه الآية، فكتبنا إلى ابن عباس نسأله عن ذلك فكتب ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان واسط النسب من قريش، ليس بطن من بطونهم إلا وقد ولده فقال الله: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ﴾ على ما أدعوكم إليه ﴿أَجْرًا إِلَّا﴾ أن تودوني لقرابتي منكم، والمعنى أنكم قومي وأحق من أجابني وأطاعني، فإذا قد أبيتم ذلك فاحفظوا حق القربى ولا تؤذوني ولا تهيجوا عليَّ.

والقول الثاني: روى الكلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن النبي ﷺ لما قدم المدينة كانت تعروه نوائب وحقوق وليس في يده سعة، فقال الأنصار: إن هذا الرجل قد هداكم الله على يده وهو ابن أختكم وجاركم في بلدكم، فاجمعوا له طائفة من أموالكم. ففعلوا ثم أتوه به فرده عليهم، فنزل قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي على الإيمان إلا أن تودوا أقاربي. فحثهم على مودة أقاربه.

القول الثالث: ما ذكره الحسن فقال: إلا أن تودوا إلى الله فيما يقربكم إليه من التودد إليه بالعمل الصالح. فالقربى على القول الأول القرابة التي هي بمعنى الرحم، وعلى الثاني القرابة التي هي بمعنى الأقارب، وعلى الثالث هي فُعْلى من القرب والتقريب. فإن قيل: الآية مشكلة، ذلك لأن طلب الأجر على تبليغ الوحي لايجوز، ويدل عليه وجوه:

الأول: أنه تعالى حكى عن أكثر الأنبياء عليهم السلام أنهم صرّحوا بنفي طلب الأجرة، فذكر في قصة نوح عليه السلام: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩] وكذا في قصة هود وصالح، وفي قصة لوط وشعيب عليهم السلام، ورسولنا أفضل من سائر الأنبياء عليهم السلام فكان بأن لا يطلب الأجر على النوبة والرسالة أولى. الثاني: أنه ﷺ صرح بنفي طلب الأجر في سائر الآيات فقال: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ﴾ [سبا: ٤٧] وقال: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦]. الثالث: العقل يدل عليه وذلك لأن ذلك التبليغ كان واجبًا عليه، قال تعالى: ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧] وطلب الأجر على أداء الواجب لا يليق بأقل الناس، فضلاً عن أعلم العلماء. الرابع: أن النبوة أفضل من الحكمة وقد قال تعالى في صفة الحكمة: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ﴾ [البقرة: ٢٦٩] وقال في صفة الدنيا: ﴿قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧] فكيف يحسن في العقل مقابلة أشرف الأشياء بأخس الأشياء؟! الخامس: أن طلب الأجر كان يوجب التهمة، وذلك ينافي القطع بصحة النبوة،

فثبت بهذه الوجوه أنه لا يجوز من النبي ﷺ أن يطلب أجرًا ألبتة على التبليغ والرسالة، وظاهر هذه الآية يقتضي أنه طلب أجرًا على التبليغ والرسالة، وهو المودة في القربى. هذا تقرير السؤال. والجواب عنه: أنه لا نزاع في أنه لا يجوز طلب الأجر على التبليغ والرسالة، بقي قوله ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ نقول: الجواب عنه من وجهين: الأول: أن هذا من باب قوله:

وَلاَ عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أن سيوفهم بها من قراع الدارعين فُلُولُ[1]

المعنى أنا لا أطلب منكم إلا هذا، وهذا في الحقيقة ليس أجرًا لأن حصول المودة بين المسلمين أمر واجب، قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١] وقال ﷺ: «الْمُؤْمِنُونَ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا»[2] والآيات والأخبار في هذا الباب كثيرة، وإذا كان حصول المودة بين جمهور المسلمين واجبًا فحصولها في حق أشرف المسلمين وأكابرهم أولى، وقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ تقديره: والمودة في القربى ليست أجرًا، فرجع الحاصل إلى أنه لا أجر ألبتة. الوجه الثاني في الجواب: أن هذا استثناء منقطع، وتم الكلام عند قوله: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾.

ثم قال: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي لكن أُذكركم قرابتي منكم. وكأنه في اللفظ أجر وليس بأجر.

المسألة الثالثة: نقل صاحب (الكشاف): عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ شَهِيدًا، أَلاَ وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ مَغْفُورًا لَهُ، أَلاَ وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ تَائِبًا، أَلاَ وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ مُؤْمِنًا مُسْتَكْمِلَ الْإِيمَانِ، أَلاَ وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ بَشَّرَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ بِالْجَنَّةِ ثُمَّ مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ، أَلاَ وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ يُزَفُّ إِلَى الْجَنَّةِ**

---

(١) هذا البيت ضمن قصيدة من البحر الطويل للشاعر العشاري، وهو حسين بن علي بن حسن بن محمد بن فارس العشاري البغدادي الشافعي نجم الدين أبو عبد الله. ١١٥٠ - ١١٩٥هـ/ ١٧٣٧ - ١٧٨٠م، يعود أصله إلى العشارة وهي بلدة تقع على ضفة نهر الخابور، وكانت تابعة في العهد العثماني إلى لواء دير الزور، وُلد وتعلم ببغداد، وفي تاريخ ولادته خلاف إذ وجد رسالة كتبها باسم والي بغداد إلى الشريف مسعود بن سعيد بن زيد المتوفى سنة ١١٦٥هـ وهي بالتالي تناقض التاريخ الذي ذكره المرادي أنه ولد سنة ١١٥٠ هـ.

وكان من أساتذته الشيخ جمال الدين عبد الله بن حسين السويدي البغدادي المتوفى سنة ١١٧٤ هـ وولده الشيخ عبد الرحمن السويدي المتوفى سنة ١٢٠٠هـ وكان خطه جميلاً نسخ به كثيرًا من الكتب.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (المساجد)، باب: (تشبيك الأصابع في المسجد وغيره) (١/ ١٨٢)، حديث رقم (٤٦٦). قال: حدثنا خلاد بن يحيى قال: حدثنا سفيان عن أبي بردة بن عبد الله... به، وفي كتاب (المظالم)، باب: (نصر المظلوم) (٢/ ٨٦٣)، حديث رقم (٢٣١٤). قال: حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا أبو أسامة عن بريد... به، وفي كتاب (الأدب)، باب: (تعاون المؤمنين بعضهم بعضًا) (٥/ ٢٢٤٢)، حديث رقم (٥٦٨٠). قال: حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا سفيان عن أبي بردة.. به، ومسلم في كتاب (البر والصلة)، باب: (تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم) (٤/ ١٩٩٩/ ٢٥٨٥). قال: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وأبو عامر الأشعري قالا: حدثنا عبد الله بن إدريس وأبو أسامة، (ح) وحدثنا محمد بن العلاء أبو كريب، حدثنا ابن المبارك وابن إدريس وأبو أسامة، كلهم عن بريد عن أبي بردة عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ.. الحديث بلفظ (المؤمن للمؤمن).

كَمَا تُزَفُّ الْعَرُوسُ إِلَى بَيْتِ زَوْجِهَا، أَلاَ وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ فُتِحَ لَهُ فِي قَبْرِهِ بَابَانِ إِلَى الْجَنَّةِ، أَلاَ وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ جَعَلَ اللَّهُ قَبْرَهُ مَزَارَ مَلاَئِكَةِ الرَّحْمَةِ، أَلاَ وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ عَلَى السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، أَلاَ وَمَنْ مَاتَ عَلَى بُغْضِ آلِ مُحَمَّدٍ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَكْتُوبًا بَيْنَ عَيْنَيْهِ آيِسٌ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، أَلاَ وَمَنْ مَاتَ عَلَى بُغْضِ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ كَافِرًا، أَلاَ وَمَنْ مَاتَ عَلَى بُغْضِ آلِ مُحَمَّدٍ لَمْ يَشُمَّ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ»[١]. هذا هو الذي رواه صاحب (الكشاف)، وأنا أقول: آل محمد ﷺ هم الذين يؤول أمرهم إليه، فكل من كان أمرهم إليه أشد وأكمل كانوا هم الآل، ولا شك أن فاطمة وعليًّا والحسن والحسين كان التعلق بينهم وبين رسول الله ﷺ أشد التعلقات وهذا كالمعلوم بالنقل المتواتر، فوجب أن يكونوا هم الآل، وأيضًا اختلف الناس في الآل: فقيل: هم الأقارب. وقيل: هم أمته. فإن حملناه على القرابة فهم الآل، وإن حملناه على الأمة الذين قبلوا دعوته فهم أيضًا آل، فثبت أن على جميع التقديرات هم الآل، وأما غيرهم فهل يدخلون تحت لفظ الآل؟ فمختلف فيه. وروى صاحب (الكشاف) أنه لما نزلت هذه الآية قيل: يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم؟ فقال: «علي وفاطمة وابناهما»[٢]، فثبت أن هؤلاء الأربعة أقارب النبي ﷺ وإذا ثبت هذا وجب أن يكونوا مخصوصين بمزيد التعظيم، ويدل عليه وجوه: الأول: قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ ووجه الاستدلال به ما سبق. الثاني: لا شك أن النبي ﷺ كان يحب فاطمة عليها السلام، قال ﷺ: «فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي، يُؤْذِينِي مَا يُؤْذِيهَا»[٣] وثبت بالنقل المتواتر عن رسول الله ﷺ أنه كان يحب عليًّا والحسن والحسين، وإذا ثبت ذلك وجب على كل الأمة مثله لقوله: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨] ولقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ [النور: ٦٣] ولقوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] ولقوله سبحانه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] الثالث: أن الدعاء للآل منصب عظيم ولذلك جعل هذا الدعاء خاتمة التشهد في الصلاة وهو قوله: اللّهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، وارحم محمدًا وآل

---

(١) **باطل موضوع**: رواه الثعلبي في (الكشف والبيان) (١٢/ ٥٦) من طريق يعقوب بن يوسف بن إسحاق، حدثنا محمد بن أسلم الطوسي، حدثنا يعلى بن عبيد، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن جرير بن عبد الله البجلي قال: قال رسول الله ﷺ... فذكره. وأورده ابن حجر الهيثمي في (الصواعق المحرقة) (٢/ ٦٦٤). وقال: قال الحافظ السخاوي: وآثار الوضع كما قال شيخنا أبي الحافظ ابن حجر لائحة عليه. وأورده الألباني في (الضعيفة) (٤٩٢٠). وقال: باطل موضوع.

(٢) أورده الزمخشري في (تغير الكشاف) (٦/ ١٩١)، ورواه الثعلبي في (الكشف والبيان) (١٢/ ٥٢) من طريق برهان بن علي الصوفي، حدثنا محمد بن عبد الله بن سليمان الحضرمي، حدثنا حرب بن الحسن الطحان، حدثنا حسين الأشقر، عن قيس، عن الأعمش، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس... فذكره.

(٣) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (النكاح)، باب: (ذب الرجل عن ابنته في الغيرة) (٥/ ٢٠٠٤)، حديث رقم (٤٩٣٢)، ومسلم في (صحيحه) (٤/ ١٩٠٢/ ٢٤٤٩)، كلاهما من طريق ابن أبي مليكة عن المسور بن مخرمة... به.

محمد. وهذا التعظيم لم يوجد في حق غير الآل، فكل ذلك يدل على أن حب آل محمد واجب، وقال الشافعي رضي الله عنه:

يَا رَاكِبًا قِفْ بِالْمُحَصَّبِ مِنْ مِنًى ... وَاهْتِفْ بِسَاكِنِ خَيْفِهَا وَالنَّاهِضِ
سَحَرًا إِذَا فَاضَ الْحَجِيجُ إِلَى مِنًى ... فَيْضًا كَمَا نَظْمِ الْفُرَاتِ الْفَائِضِ
إِنْ كَانَ رَفْضًا حُبُّ آلِ مُحَمَّدٍ ... فَلْيَشْهَدِ الثَّقَلَانِ أَنِّي رَافِضِي

المسألة الثانية: قوله: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ فيه منصب عظيم للصحابة لأنه تعالى قال: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلسَّـٰبِقُونَ ۝ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١٠، ١١] فكل من أطاع الله كان مقربًا عند الله تعالى فدخل تحت قوله: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ والحاصل أن هذه الآية تدل على وجوب حب آل رسول الله ﷺ وحب أصحابه، وهذا المنصب لا يسلم إلا على قول أصحابنا أهل السنّة والجماعة الذين جمعوا بين حب العترة والصحابة، وسمعت بعض المذكورين قال: إنه ﷺ قال: «مَثَلُ أَهْلِ بَيْتِي كَمَثَلِ سَفِينَةِ نُوحٍ، مَنْ رَكِبَ فِيهَا نَجَا»[(١)] وقال ﷺ: «أَصْحَابِي كَالنُّجُومِ بِأَيِّهِمُ اقْتَدَيْتُمُ اهْتَدَيْتُمْ»[(٢)]. ونحن الآن في بحر التكليف وتضربنا أمواج الشبهات والشهوات، وراكب البحر يحتاج إلى أمرين: أحدهما: السفينة الخالية عن العيوب والثقب. والثاني: الكواكب

---

(١) **إسناده ضعيف جدًا**: أخرجه الطبراني في (الكبير) (٣/ ٤٥)، حديث رقم (٢٦٣٦)، قال: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا الحسن بن أبي جعفر... به، والبزار في مسنده (٩/ ٣٤٣)، حديث رقم (٣٩٠٠) من طريق علي بن زيد عن سعيد بن المسيب عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله... فذكره. وأورده الهيثمي في (المجمع) (٩/ ١٦٨)، ورواه البزار والطبراني في الثلاثة، وفي إسناد البزار الحسن بن أبي جعفر الجفري وفي إسناد الطبراني عبد الله بن زاهر، وهما متروكان.

(٢) **ضعيف**: أورده ابن حجر في (تلخيص الحبير) (٤/ ١٩٠). وقال: عبد بن حميد في مسنده من طريق حمزة النصيبي عن نافع عن ابن عمر، وحمزة ضعيف جدًا ورواه الدارقطني في غرائب مالك من طريق جميل بن زيد عن مالك عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر، وجميل لا يُعرف، ولا أصل له في حديث مالك ولا من فوقه، وذكره البزار من رواية عبد الرحيم بن زيد العَمي عن أبيه عن سعيد بن المسيب عن عمر، وعبد الرحيم كذاب، ومن حديث أنس أيضًا، وإسناده واهٍ ورواه القضاعي في مسند الشهاب له من حديث الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة، وفي إسناده جعفر بن عبد الواحد الهاشمي وهو كذاب، ورواه أبو ذر الهروي في كتاب السنة من حديث مندل عن جويبر عن الضحاك بن مزاحم منقطعًا، وهو في غاية الضعف، قال أبو بكر البزار: هذا الكلام لم يصح عن النبي ﷺ وقال ابن حزم: هذا خبر مكذوب موضوع باطل. وقال البيهقي في الاعتقاد عقب حديث أبي موسى الأشعري الذي أخرجه مسلم بلفظ «النجوم أمنة أهل السماء، فإذا ذهبت النجوم أتى أهل السماء ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون» قال البيهقي: روي في حديث موصول قوي. يعني حديث عبد الرحيم العمى، وفي حديث منقطع. يعني حديث الضحاك ابن مزاحم «مثل أصحابي كمثل النجوم في السماء، من أخذ بنجم منها اهتدى» قال: والذي رويناه ههنا من الحديث الصحيح يؤدي بعض معناه. قلت: صدق البيهقي هو يؤدي صحة التشبيه للصحابة بالنجوم خاصة، أما في الاقتداء فلا يظهر في حديث أبي موسى، نعم يمكن أن يتلمح ذلك من معنى الاهتداء بالنجوم، وظاهر الحديث إنما هو إشارة إلى الفتن الحادثة بعد انقراض عصر الصحابة من طمس السنن، وظهور البدع، وفشو الفجور في أقطار الأرض، والله المستعان.

الظاهرة الطالعة النيرة، فإذا ركب تلك السفينة ووقع نظره على تلك الكواكب الظاهرة كان رجاء السلامة غالبًا، فكذلك ركب أصحابنا أهل السنة سفينة حب آل محمد ووضعوا أبصارهم على نجوم الصحابة، فرجُوا من الله تعالى أن يفوزوا بالسلامة والسعادة في الدنيا والآخرة.

ولنرجع إلى التفسير: أورد صاحب (الكشاف) على نفسه سؤالاً فقال: هلا قيل: إلا مودة القربى، أو إلا مودة للقربى، وما معنى قوله: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾؟ وأجاب عنه بأن قال: جعلوا مكانًا للمودة ومَقرًّا لها، كقوله (لي في آل فلان مودة) و(لي فيهم هوى وحب شديد)، تريد أحبهم وهم مكان حبى ومحله.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ قيل: نزلت هذه الآية في أبي بكر رضي الله عنه، والظاهر العموم في أي حسنة كانت، إلا أنها لما ذُكرت عقيب ذكر المودة في القربى دل ذلك على أن المقصود التأكيد في تلك المودة.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ والشكور في حق الله تعالى مجاز، والمعنى أنه تعالى يُحسن إلى المطيعين في إيصال الثواب إليهم، وفي أن يزيد عليه أنواعًا كثيرة من التفضيل.

وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ واعلم أن الكلام في أول السورة إنما ابتدئ في تقرير أن هذا الكتاب إنما حصل بوحي الله، وهو قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الشورى: ٣] واتصل الكلام في تقرير هذا المعنى وتعلق البعض بالبعض حتى وصل إلى ههنا، ثم حكى ههنا شبهة القوم وهي قولهم: إن هذا ليس وحيًا من الله تعالى. فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ قال صاحب (الكشاف): (أم) منقطعة، ومعنى الهمزة نفس التوبيخ كأنه قيل: أيقع في قلوبهم ويجري في ألسنتهم أن ينسبوا مثله إلى الافتراء على الله الذي هو أقبح أنواع الفرية وأفحشها؟ ثم أجاب عنه بأن قال: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ وفيه وجوه: الأول: قال مجاهد: يربط على قلبك بالصبر على أذاهم حتى لا يشق عليك قولهم: إنه مفتر كذاب. والثاني: يعني بهذا الكلام أنه إن يشأ الله يجعلك من المختوم على قلوبهم حتى يفتري عليه الكذب فإنه لا يجترئ على افتراء الكذب على الله إلا من كان في مثل هذه الحالة. والمقصود من ذكر هذا الكلام المبالغة في تقرير الاستبعاد، ومثاله أن ينسب رجل بعض الأمناء إلى الخيانة فيقول الأمين، لعلّ الله خذلني، لعلّ الله أعمى قلبي. وهو لا يريد إثبات الخذلان وعمى القلب لنفسه، وإنما يريد استبعاد صدور الخيانة عنه.

ثم قال تعالى: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ﴾ أي ومن عادة الله إبطال الباطل وتقرير الحق، فلو كان محمد مبطلاً كذابًا لفضحه الله ولكشف عن باطله ولما أيده بالقوة والنصرة، ولما لم يكن الأمر كذلك علمنا أنه ليس من الكاذبين المفترين على الله. ويجوز أن يكون هذا وعدًا من الله لرسوله بأنه يمحو الباطل الذي هم عليه من البهت والفرية والتكذيب، ويُثبت الحق الذي كان محمد ﷺ عليه.

ثم قال: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي إن الله عليم بما في صدرك وصدورهم، فيجري الأمر على حسب ذلك، وعن قتادة: يختم على قلبك: ينسيك القرآن ويقطع عنك الوحي، بمعنى لو افترى على الله الكذب لفعل الله به ذلك.

واعلم أنه تعالى لما قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ ثم برأ رسوله مما أضافوه إليه من هذا، وكان من المعلوم أنهم قد استحقوا بهذه الفرية عقابًا عظيمًا، لا جرم ندبهم الله إلى التوبة وعرّفهم أنه يقبلها من كل مسيء وإن عظمت إساءته، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾.

وفي هذه الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال صاحب (الكشاف): يقال: قبلت منه الشيء وقبلته عنه، فمعنى (قبلته منه) أخذته منه وجعلته مبدأ قبول ومنشأه، ومعنى (قبلته عنه) أخذته وأثبته عنه وقد سبق البحث المستقصى عن حقيقة التوبة في سورة البقرة، وأقل ما لا بد منه الندم على الماضي، والترك في الحال، والعزم على أن لا يعود إليه في المستقبل، وروى جابر أن أعرابيًّا دخل مسجد رسول الله ﷺ وقال: (اللّهم إني أستغفرك وأتوب إليك) وكبّر، فلما فرغ من صلاته قال له علي عليه السلام: يا هذا إن سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذابين، فتوبتك تحتاج إلى توبة. فقال: يا أمير المؤمنين وما التوبة؟ فقال: اسم يقع على ستة أشياء: على الماضي من الذنوب الندامة، ولتضييع الفرائض الإعادة، ورد المظالم، وإذابة النفس في الطاعة كما ربيتها في المعصية، وإذاقة النفس مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية، والبكاء بدل كل ضحك ضحكته.

المسألة الثانية: قالت المعتزلة: يجب على الله تعالى عقلاً قبول التوبة. وقال أصحابنا: لا يجب على الله شيء، وكل ما يفعله فإنما يفعله بالكرم والفضل. واحتجوا على صحة مذهبهم بهذه الآية فقالوا: إنه تعالى تمَدَّح بقبول التوبة، ولو كان ذلك القبول واجبًا لما حصل التمدح العظيم، ألا ترى أن من مدح نفسه بأن لا يضرب الناس ظلمًا ولا يقتلهم غضبًا، كان ذلك مدحًا قليلاً، أما إذا قال: إني أحسن إليهم مع أن ذلك لا يجب عليَّ. كان ذلك مدحًا وثناءً.

المسألة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ إما أن يكون المراد منه أن يعفو عن الكبائر بعد الإتيان بالتوبة، أو المراد منه أنه يعفو عن الصغائر، أو المراد منه أنه يعفو عن الكبائر قبل التوبة، والأول باطل، وإلا لصار قوله: ﴿وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ عين قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ﴾ والتكرار خلاف الأصل، والثاني أيضًا باطل لأن ذلك واجب وأداء الواجب لا يُتمدح به، فبقي القسم الثالث فيكون المعنى أنه تارة يعفو بواسطة قبول التوبة، وتارة يعفو ابتداء من غير توبة.

ثم قال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم بالتاء على المخاطبة، والباقون بالياء على المغايبة، والمعنى أنه تعالى يعلمه فيثيبه على حسناته ويعاقبه على سيئاته.

ثم قال: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ وفيه قولان: أحدهما: الذين

آمنوا وعملوا الصالحات رفع على أنه فاعل، تقديره: ويجيب المؤمنون الله فيما دعاهم إليه. والثاني: محله نصب والفاعل مضمر وهو الله، وتقديره: ويستجيب الله للمؤمنين. إلا أنه حذف اللام كما حذف في قوله: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾ [المطففين: ٣] وهذا الثاني أَوْلى لأن الخبر فيما قبل وبعد عن الله لأن ما قبل الآية قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ وما بعدها قوله: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ فيزيد عطف على (ويستجيب)، وعلى الأول: (ويجيب العبد ويزيد الله من فضله).

أما من قال: إن الفعل للذين آمنوا ففيه وجهان: أحدهما: ويجيب المؤمنون ربهم فيما دعاهم إليه. والثاني: يطيعونه فيما أمَرهم به، والاستجابة: الطاعة.

وأما من قال: إن الفعل لله. فقد اختلفوا: فقيل: يجيب الله دعاء المؤمنين ويزيدهم ما طلبوه من فضله، فإن قالوا: تخصيص المؤمنين بإجابة الدعاء هل يدل على أنه تعالى لا يجيب دعاء اكفار؟ قلنا: قال بعضهم: لا يجوز لأن إجابة الدعاء تعظيم، وذلك لا يليق بالكفار، وقيل: يجوز على بعض الوجوه، وفائدة التخصيص أن إجابة دعاء المؤمنين تكون على سبيل التشريف، وإجابة دعاء الكافرين تكون على سبيل الاستدراج. ثم قال: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أي يزيدهم على ما طلبوه بالدعاء ﴿وَٱلْكَـٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ والمقصود التهديد.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما قال في الآية الأولى: إنه يجيب دعاء المؤمنين. وَرَدَ عليه سؤال وهو أن المؤمن قد يكون في شدة وبلية وفقر، ثم يدعو فلا يشاهد أثر الإجابة، فكيف الحال فيه معَ ما تقدم من قوله: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؟ فأجاب تعالى عنه بقوله: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي ولأقدموا على المعاصي، ولما كان ذلك محذورًا وجب أن لا يعطيهم ما طلبوه. قال الجبائي: هذه الآية تدل على بطلان قول المجبرة من وجهين: الأول: أن حاصل الكلام أنه تعالى لو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض، والبغي في الأرض غير مراد فإرادة بسط الرزق غير حاصلة، فهذا الكلام إنما يتم إذا قلنا: إنه تعالى يريد البغي في الأرض،

وذلك يوجب فساد قول المجبرة. الثاني: أنه تعالى بيّن أنه إنما لم يُرد بسط الرزق لأنه يفضي إلى المفسدة، فلما بيّن تعالى أنه لا يريد ما يفضي إلى المفسدة فبأن لا يكون مريدًا للمفسدة كان أَوْلى، أجاب أصحابنا بأن الميل الشديد إلى البغي والقسوة والقهر صفة حدثت بعد أن لم تكن، فلا بد لها من فاعل، وفاعل هذه الأحوال إما العبد أو الله، والأول باطل لأنه إنما يفعل هذه الأشياء لو مال طبعه إليها، فيعود السؤال في أنه مَن المُحدِث لذلك الميل الثاني؟ ويلزم التسلسل، وأيضًا فالميل الشديد إلى الظلم والقسوة عيوب ونقصانات، والعاقل لا يرضى بتحصيل موجبات النقصان لنفسه، ولما بطل هذا ثبت أن محدث هذا الميل والرغبة هو الله تعالى، ثم أورد الجبائي في (تفسيره) على نفسه سؤالاً قال: فإن قيل: أليس قد بسط الله الرزق لبعض عباده مع أنه بغى؟ وأجاب عنه بأن الذي عنده الرزق وبغى كان المعلوم من حاله أنه يبغي على كل حال، سواء أعطي ذلك الرزق أو لم يعط. وأقول: هذا الجواب فاسد، ويدل عليه القرآن والعقل: أما القرآن فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧] حكم مطلقًا بأن حصول الغنى سبب لحصول الطغيان. وأما العقل فهو أن النفس إذا كانت مائلة إلى الشر لكنها كانت فاقدة للآلات والأدوات كان الشر أقل، وإذا كانت واجدة لها كان الشر أكثر، فثبت أن وجدان المال يوجب الطغيان.

المسألة الثانية: في بيان الوجه الذي لأجله كان التوسع موجبًا للطغيان، ذكروا فيه وجوهًا: الأول: أن الله تعالى لو سَوَّى في الرزق بين الكل لامتنع كون البعض خادمًا للبعض، ولو صار الأمر كذلك لخرب العالم وتعطلت المصالح. الثاني: أن هذه الآية مختصة بالعرب، فإنه كلما اتسع رزقهم ووجدوا من المطر ما يرويهم ومن الكلأ والعشب ما يشبعهم، أقدموا على النهب والغارة. الثالث: أن الإنسان متكبر بالطبع، فإذا وجد الغنى والقدرة عاد إلى مقتضى خلقته الأصلية وهو التكبر، وإذا وقع في شدة وبلية ومكروه انكسر، فعاد إلى الطاعة والتواضع.

المسألة الثالثة: قال خباب بن الأرت فينا نزلت هذه الآية، وذلك أنا نظرنا إلى أموال بني قريظة والنضير وبني قينقاع فتمنيناها. وقيل: نزلت في أهل الصُّفَّة تمنوا سعة الرزق والغنى.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو: (يُنْزِل) خفيفة والباقون بالتشديد، ثم نقول: (بقدر) بتقدير، يقال قدره قَدْرًا وقَدَرًا ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٌ﴾ يعني أنه عالم بأحوال الناس وبطباعهم وبعواقب أمورهم، فيقدر أرزاقهم على وفق مصالحهم. ولما بيّن تعالى أنه لا يعطيهم ما زاد على قدر حاجتهم لأجل أنه علم أن تلك الزيادة تضرهم في دينهم، بيَّن أنهم إذا احتاجوا إلى الرزق فإنه لا يمنعهم منه فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ قرأ نافع وابن عامر وعاصم ﴿يُنَزِّلَ﴾ مشددة والباقون مخففة، قال صاحب (الكشاف): قرئ: (قنطوا) بفتح النون وكسرها، وإنزال الغيث بعد القنوط أدعى إلى الشكر؛ لأن الفرح بحصول النعمة بعد البلية أتم، فكان إقدام صاحبه على الشكر أكثر ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ أي بركات الغيث ومنافعه وما

يحصل به من الخصب، وعن عمر رضي الله عنه أنه قيل له: اشتد القَحطُ وقنط الناس!! فقال: «إِذَنْ مُطِرُوا» أراد هذه الآية، ويجوز أن يريد رحمته الواسعة في كل شيء، كأنه قيل: ينزل الرحمة التي هي الغيث وينشر سائر أنواع الرحمة ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ ﴿ٱلْوَلِيُّ﴾ الذي يتولى عباده بإحسانه و﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ المحمود على ما يوصل للخلق من أقسام الرحمة.

ثم ذكر آية أخرى تدل على إلهيته فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ فنقول: أما دلالة خلق السموات والأرض على وجود الإله الحكيم، فقد ذكرناها، وكذلك دلالة وجود الحيوانات على وجود الإله الحكيم، فإن قيل: كيف يجوز إطلاق لفظ الدابة على الملائكة؟ قلنا: فيه وجوه: الأول: أنه قد يضاف الفعل إلى جماعة وإن كان فاعله واحدًا منهم، يقال: بنو فلان فعلوا كذا، وإنما فعله واحد منهم، ومنه قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] الثاني: أن الدبيب هو الحركة، والملائكة لهم حركة. الثالث: لا يبعد أن يقال: إنه تعالى خلق في السموات أنواعًا من الحيوانات يمشون مشي الأناسي على الأرض.

ثم قال تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ قال صاحب (الكشاف): (إذا) تدخل على المضارع كما تدخل على الماضي، قال تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل: ١] ومنه ﴿إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ والمقصود أنه تعالى خلقها متفرقة، لا لعجز ولكن لمصلحة؛ فلهذا قال: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ يعني الجمع للحشر والمحاسبة، وإنما قال: ﴿عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ ولم يقل على جمعها؛ لأجل أن المقصود من هذا الجمع المحاسبة، فكأنه تعالى قال: وهو على جمع العقلاء إذا يشاء قدير. واحتج الجبائي بقوله: ﴿إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ على أن مشيئته تعالى محدثة بأن قال: إن كلمة (إذا) تفيد ظرف الزمان، وكلمة ﴿يَشَآءُ﴾ صيغة المستقبل، فلو كانت مشيئته تعالى قديمة لم يكن لتخصيصها بذلك الوقت المعين من المستقبل فائدة، ولما دل قوله: ﴿إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ على هذا التخصيص، علمنا أن مشيئته تعالى محدثة. والجواب: أن هاتين الكلمتين كما دخلتا على المشيئة، أي مشيئة الله، فقد دخلتا أيضًا على لفظ القدير فلزم على هذا أن يكون كونه قادرًا صفة محدثة، ولما كان هذا باطلاً، فكذا القول فيما ذكره، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ **وفي الآية مسائل:**

المسألة الأولى: قرأ نافع وابن عامر (بما كسبت) بغير فاء، وكذلك هي في مصاحف الشام والمدينة، والباقون بالفاء وكذلك هي في مصاحفهم، وتقدير الأول أن (ما) مبتدأ بمعنى الذي، وبـ(ما) كسبت خبره، والمعنى: والذي أصابكم وقع بما كسبت أيديكم، وتقدير الثاني تضمين كلمة (ما) معنى الشرطية.

المسألة الثانية: المراد بهذه المصائب الأحوال المكروهة نحو الآلام والأسقام والقحط والغرق والصواعق وأشباهها. واختلفوا في نحو الآلام أنها هل هي عقوبات على ذنوب سلفت أم لا؟ منهم من أنكر ذلك لوجوه: الأول: قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [غافر: ١٧]

بيّن تعالى أن الجزاء إنما يحصل في يوم القيامة، وقال تعالى في سورة الفاتحة: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] أي يوم الجزاء، وأطبقوا على أن المراد منه يوم القيامة. والثاني: أن مصائب الدنيا يشترك فيها الزنديق والصِّديق، وما يكون كذلك امتنع جعله من باب العقوبة على الذنوب، بل الاستقراء يدل على أن حصول هذه المصائب للصالحين والمتقين أكثر منه للمذنبين، ولهذا قال ﷺ: «خُصَّ الْبَلاَءُ بِالأَنْبِيَاءِ، ثُمَّ الأَوْلِيَاءِ، ثُمَّ الأَمْثَلِ فَالأَمْثَلِ»[1] الثالث: أن الدنيا دار التكليف، فلو جعل الجزاء فيها لكانت الدنيا دار التكليف ودار الجزاء معًا، وهو محال.

وأما القائلون بأن هذه المصائب قد تكون أجزية على الذنوب المتقدمة، فقد تمسكوا أيضًا بما روي عن النبي ﷺ أن قال: «لاَ يُصِيبُ ابْنَ آدَمَ خَدْشُ عُودٍ وَلاَ غَيْرُهُ إِلاَّ بِذَنْبٍ»[2] أو لفظ هذا معناه، وتمسكوا أيضًا بهذه الآية، وتمسكوا أيضًا بقوله تعالى: ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ﴾ [النساء: ١٦٠] وتمسكوا أيضًا بقوله تعالى بعد هذه الآية: ﴿أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ﴾ [الشورى: ٣٤] وذلك تصريح بأن ذلك الإهلاك كان بسبب كسبهم. وأجاب الأولون عن التمسك بهذه الآية فقالوا إن حصول هذه المصائب يكون من باب الامتحان في التكليف، لا من باب العقوبة كما في حق الأنبياء والأولياء، ويُحمل قوله: ﴿فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ على أن الأصلح عند إتيانكم بذلك الكسب إنزال هذه المصائب عليكم. وكذا الجواب عن بقية الدلائل، والله أعلم.

المسألة الثالثة: احتج أهل التناسخ بهذه الآية، وكذلك الذين يقولون: إن الأطفال والبهائم لا تتألم، فقالوا: دلّت الآية على أن حصول المصائب لا يكون إلا لسابقة الجرم. ثم إن أهل التناسخ قالوا: لكن هذه المصائب حاصلة للأطفال والبهائم، فوجب أن يكون قد حصل لها ذنوب في الزمان السابق، وأما القائلون بأن الأطفال والبهائم ليس لها ألم قالوا: قد ثبت أن هذه الأطفال والبهائم ما كانت موجودة في بدن آخر لفساد القول بالتناسخ، فوجب القطع بأنها لا تتألم إذ الألم مصيبة.

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي في كتاب (الزهد)، باب: (في الصبر على البلاء) (٤/ ٥٢٠)، حديث رقم (٢٣٩٨) من طريق حماد بن زيد... به. وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وابن ماجه في كتاب (الفتن)، باب (الصبر على البلاء) (٢/ ١٣٣٤)، حديث رقم (٤٠٢٣) من طريق حماد بن زيد... به، وأحمد في (مسنده) (١/ ١٧٢)، حديث رقم (١٤٨١) من طريق سفيان... به، والدارمي في كتاب (الرقاق) باب: (في أشد الناس بلاء) (٢/ ٢٠٦)، حديث رقم (٢٧٨٣) من طريق سفيان عن عاصم... به، والحاكم في (المستدرك) (١/ ٤٠)، والبيهقي في (السنن) (٣/ ٣٧٢)، جميعًا من طريق عاصم عن مصعب بن سعد عن سعد قال: ثم سئل النبي ﷺ: أي الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه...» الحديث.

(٢) ضعيف: رواه عبد الرزاق في (تفسيره) (٦/ ١٩٩)، حديث رقم (٢٦٥٣) من طريق الثوري عن إسماعيل عن الحسن... به، والثعلبي في (الكشف والبيان) (١٢/ ٦٥)، من طريق أبي معاوية الضرير عن إسماعيل بن مسلم عن الحسن... به، ووكيع في (الزهد) (١/ ١٠٦/ ٩٠) من طريق رجل عن الحسن... به، وأورده الألباني في (الضعيفة) (١٧٩٦). وقال: ضعيف.

والجواب: أن قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ خطاب مع من يفهم ويعقل، فلا يدخل فيه البهائم والأطفال، ولم يقل تعالى: إن جميع ما يصيب الحيوان من المكاره فإنه بسبب ذنب سابق، والله أعلم.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ يقتضي إضافة الكسب إلى اليد، قال: والكسب لا يكون باليد، بل بالقدرة القائمة باليد، وإذا كان المراد من لفظ اليد هاهنا القدرة، وكان هذا المجاز مشهورًا مستعملاً، كان لفظ اليد الوارد في حق الله تعالى يجب حمله على القدرة تنزيهًا لله تعالى عن الأعضاء والأجزاء، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ ومعناه أنه تعالى قد يترك الكثير من هذه التشديدات بفضله ورحمته.

وعن الحسن قال: دخلنا على عمران بن حصين في الوجع الشديد، فقيل له: إنا لنغتم لك من بعض ما نرى! فقال: لا تفعلوا فوالله إن أحبه إلى الله أحبه إليَّ!! وقرأ ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ فهذا بما كسبت يداي، وسيأتيني عفو ربي!! وقد روى أبو سخلة عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية وقال: «**مَا عَفَا اللَّهُ عَنْهُ فَهُوَ أَعَزُّ وَأَكْرَمُ مِنْ أَنْ يَعُودَ إِلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ، وَمَا عَاقَبَ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا فَاللَّهُ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يُعِيدَ الْعَذَابَ عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ**»[1] رواه الواحدي في (البسيط)، وقال: إذا كان كذلك فهذه أرجى آية في كتاب الله لأن الله تعالى جعل ذنوب المؤمنين صنفين: صنف كَفَّره عنهم بالمصائب في الدنيا، وصنف عفا عنه في الدنيا، وهو كريم لا يرجع في عفوه، وهذه سنّة الله مع المؤمنين، وأما الكافر فلأنه لا يعجل عليه عقوبة ذنبه حتى يوافي ربه يوم القيامة.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ يقول: ما أنتم معشر المشركين بمعجزين في الأرض، أي لا تعجزونني حيثما كنتم، فلا تسبقونني بسبب هربكم في الأرض ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ والمراد بهم من يعبد الأصنام، بين أنه لا فائدة فيها ألبتة، والنصير هو الله تعالى، فلا جرم هو الذي تحسن عبادته.

قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ
رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ
وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٤﴾ وَيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن
شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾

(١) لم أجده.

﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قرأ نافع وأبو عمرو (الجواري) بياء في الوصل والوقف، فإثبات الياء في الأصل وحذفها للتخفيف.

المسألة الثانية: الجواري، يعني السفن الجواري، فحذف الموصوف لعدم الالتباس.

المسألة الثالثة: اعلم أنه تعالى ذكر من آياته أيضًا هذه السفن العظيمة التي تجري على وجه البحر عند هبوب الرياح، واعلم أن المقصود من ذكره أمران: أحدهما: أن يستدل به على وجود القادر الحكيم. والثاني: أن يعرف ما فيه من النعم العظيمة لله تعالى على العباد. أما الوجه الأول: فقد اتفقوا على أن المراد بالأعلام الجبال، قالت الخنساء في مرثية أخيها[(١)]:

وَإِنَّ صخرًا لتأتم الهداة بِهِ ... كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ

ونُقل أن النبي ﷺ استنشد قصيدتها هذه، فلما وصل الراوي إلى هذا البيت، قال: «قَاتَلَهَا اللَّهُ مَا رَضِيَتْ بِتَشْبِيهِهَا لَهُ بِالْجَبَلِ حَتَّى جَعَلَتْ عَلَى رَأْسِهِ نَارًا!». إذا عرفت هذا فنقول: هذه السفن العظيمة التي تكون كالجبال - تجري على وجه البحر عند هبوب الرياح على أسرع الوجوه، وعند سكون هذه الرياح تقف، وقد بينا بالدليل في سورة النحل أن محرك الرياح ومُسكنها هو الله تعالى، إذ لا يقدر أحد على تحريكها من البشر ولا على تسكينها، وذلك يدل على وجود الإله القادر، وأيضًا أن السفينة تكون في غاية الثقل، ثم إنها مع ثقلها بقيت على وجه الماء، وهو أيضًا دلالة أخرى. وأما الوجه الثاني: - وهو معرفة ما فيها من المنافع - فهو أنه تعالى خص كل جانب من جوانب الأرض بنوع آخر من الأمتعة، وإذا نقل متاع هذا الجانب إلى ذلك الجانب في السفن وبالعكس، حصلت المنافع العظيمة في التجارة؛ فلهذه الأسباب ذكر الله تعالى حال هذه السفينة.

ثم قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ قرأ أبو عمرو والجمهور بهمزة: ﴿إِن يَشَأْ﴾ لأن سكون الهمزة علامة للجزم، وعن ورش عن نافع بلا همزة، وقرأ نافع وحده: (يسكن الرياح) على الجمع، والباقون ﴿ٱلرِّيحَ﴾ على الواحد، قال صاحب (الكشاف): قرئ (يظللن) بفتح اللام وكسرها من ظل يظل ويظل، وقوله تعالى: ﴿رَوَاكِدَ﴾ أي رواتب، أي لا تجري على ظهره، أي على ظهر البحر ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على بلاء الله ﴿شَكُورٍ﴾

(١) تقدمت ترجمة الخنساء.

لنعمائه، والمقصود التنبيه على أن المؤمن يجب أن لا يكون غافلاً عن دلائل معرفة الله ألبتة؛ لأنه لا بد وأن يكون إما في البلاء وإما في الآلاء، فإن كان في البلاء كان من الصابرين، وإن كان من النعماء كان من الشاكرين، وعلى هذا التقدير فإنه لا يكون ألبتة من الغافلين.

ثم قال تعالى: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾ يعني أو يهلكهن، يقال أوبقه، أي أهلكه، ويقال للمجرم: أوبقته ذنوبه، أي أهلكته، والمعنى أنه تعالى إن شاء ابتلى المسافرين في البحر بإحدى بليتين: إما أن يسكن الريح فتركد الجواري على متن البحر وتقف، وإما أن يرسل الرياح عاصفة فيها فيهلكن بسبب الإغراق، وعلى هذا التقدير فقوله: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ معطوف على قوله ﴿يُسْكِنِ﴾ لأن التقدير إن يشأ يسكن الريح فيركدن، أو يعصفها فيغرقن بعصفها، وقوله: ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ معناه إن يشأ يهلك ناسًا ويُنج ناسًا عن طريق العفو عنهم، فإن قيل: فما معنى إدخال العفو في حكم الإيباق حيث جعل مجزومًا مثله، قلنا معناه إن يشأ يهلك ناسًا وينج ناسًا على طريق العفو عنهم، وأما من قرأ: (ويعفو) فقد استأنف الكلام.

ثم قال: ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ قرأ نافع وابن عامر: (يعلم) بالرفع على الاستئناف، وقرأ الباقون بالنصب، فالقراءة بالرفع على الاستئناف، وأما بالنصب فللعطف على تعليل محذوف تقديره: لينتقم منهم ويعلم الذين يجادلون في آياتنا. والعطف على التعليل المحذوف غير عزيز في القرآن، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١] وقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الجاثية: ٢٢] قال صاحب (الكشاف): ومن قرأ على جزم (ويعلم) فكأنه قال: أو إن يشأ يجمع بين ثلاثة أمور: هلاك قوم، ونجاة قوم، وتحذير آخرين. إذا عرفت هذا فنقول: معنى الآية ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾ أي ينازعون على وجه التكذيب، أن لا مخلص لهم إذا وقفت السفن، وإذا عصفت الرياح، فيصير ذلك سببًا لاعترافهم بأن الإله النافع الضار ليس إلا الله.

واعلم أنه تعالى لما ذكر دلائل التوحيد أردفها بالتنفير عن الدنيا وتحقير شأنها؛ لأن الذي يمنع من قبول الدليل إنما هو الرغبة في الدنيا بسبب الرياسة وطلب الجاه، فإذا صغرت الدنيا في عين الرجل لم يلتفت إليها، فحينئذٍ ينتفع بذكر الدلائل فقال: ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وسماه متاعًا تنبيهًا على قلته وحقارته، ولأن الحس شاهد بأن كل ما يتعلق بالدنيا فإنه يكون سريع الانقراض والانقضاء.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ والمعنى أن مطالب الدنيا خسيسة منقرضة، ونبه على خساستها بتسميتها بالمتاع، ونبّه على انقراضها بأن جعلها من الدنيا، وأما الآخرة فإنها خير وأبقى، وصريح العقل يقتضي ترجيح الخير الباقي على الخسيس الفاني. ثم بيّن أن هذه الخيرية إنما تحصل لمن كان موصوفًا بصفات:

الصفة الأولى: أن يكون من المؤمنين، بدليل قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾.

الصفة الثانية: أن يكون من المتوكلين على فضل الله، بدليل قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ فأما من زعم أن الطاعة توجب الثواب، فهو متكل على عمل نفسه لا على الله، فلا يدخل تحت الآية.

الصفة الثالثة: أن يكونوا مجتنبين لكبائر الإثم والفواحش، عن ابن عباس: كبير الإثم هو الشرك. نقله صاحب (الكشاف) وهو عندي بعيد؛ لأن شرط الإيمان مذكور أولاً وهو يغني عن عدم الشرك، وقيل: المراد بكبائر الإثم ما يتعلق بالبدع واستخراج الشبهات، وبالفواحش ما يتعلق بالقوة الشهوانية، وبقوله: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ ما يتعلق بالقوة الغضبية، وإنما خص الغضب بلفظ الغفران؛ لأن الغضب على طبع النار، واستيلاؤه شديد ومقاومته صعبة؛ فلهذا السبب خصّه بهذا اللفظ، والله أعلم.

الصفة الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ والمراد منه تمام الانقياد، فإن قالوا: أليس أنه لما جعل الإيمان شرطًا فيه فقد دخل في الإيمان إجابة الله؟ قلنا: الأقرب عندي أن يُحمل هذا على الرضاء بقضاء الله من صميم القلب، وأن لا يكون في قلبه منازعة في أمر من الأمور.

ولما ذكر هذا الشرط قال: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ﴾ والمراد منه إقامة الصلوات الواجبة، لأن هذا هو الشرط في حصول الثواب.

وأما قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ فقيل: كان إذا وقعت بينهم واقعة اجتمعوا وتشاوروا فأثنى الله عليهم، أي لا ينفردون برأي، بل ما لم يجتمعوا عليه لا يقدمون عليه، وعن الحسن: ما تشاور قوم إلا هدوا لأرشد أمرهم. والشورى مصدر كالفتيا بمعنى التشاور، ومعنى قوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أي ذو شورى.

الصفة الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ والمعنى أن يقتصروا في الانتصار على ما يجعله الله لهم ولا يتعدونه، وعن النخعي أنه كان إذا قرأها قال: كانوا يكرهون أن يُذلوا أنفسهم فيجترئ عليهم السفهاء. فإن قيل: هذه الآية مشكلة لوجهين: الأول: أنه لما ذكر قبله: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ فكيف يليق أن يذكر معه ما يجري مجرى الضد له وهو قوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾؟ الثاني: وهو أن جميع الآيات دالة على أن العفو أحسن، قال تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧] وقال: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢] وقال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وقال: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦] فهذه الآيات تناقض مدلول هذه الآية. والجواب: أن العفو على قسمين: أحدهما: أن يكون العفو سببًا لتسكين الفتنة وجناية الجاني ورجوعه عن جنايته. والثاني: أن يصير العفو سببًا لمزيد جراءة الجاني ولقوة غيظه وغضبه، والآيات في العفو محمولة على القسم الأول، وهذه الآية محمولة على القسم الثاني، وحينئذٍ يزول التناقض، والله أعلم، ألا ترى أن العفو عن المُصر يكون كالإغراء له

ولغيره؟ فلو أن رجلاً وجد عبده فجر بجاريته وهو مُصر، فلو عفا عنه كان مذمومًا، وروي أن زينب أقبلت على عائشة فشتمتها فنهاها النبي ﷺ عنها فلم تنته، فقال النبي ﷺ: «دُونَكِ فَانْتَصِرِي»(١) وأيضًا إنه تعالى لم يرغب في الانتصار بل بيّن أنه مشروع فقط، ثم بيّن بعده أن شرعه مشروط برعاية المماثلة، ثم بيّن أن العفو أولى بقوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ فزال السؤال، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَجَزَاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ ۗ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما قال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٩] أردفه بما يدل على أن ذلك الانتصار يجب أن يكون مقيدًا بالمثل، فإن النقصان حيف والزيادة ظلم، والتساوي هو العدل وبه قامت السموات والأرض؛ فلهذا السبب قال: ﴿وَجَزَاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: لقائل أن يقول: جزاء السيئة مشروع مأذون فيه، فكيف سمي بالسيئة؟ أجاب صاحب (الكشاف) عنه كلتا الفعلتين الأولى وجزاؤها سيئة لأنها تسوء من تنزل به، قال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ﴾ [النساء: ٧٨] يريد ما يسوءهم من المصائب والبلايا. وأجاب غيره بأنه لما جعل أحدهما في مقابلة الآخر على سبيل المجاز، أطلق اسم أحدهما على الآخر، والحق ما ذكره صاحب (الكشاف).

---

(١) إسناده صحيح: أخرجه ابن ماجه في (سننه) (١/ ٦٢٧)، حديث رقم (١٩٨١)، وأحمد في (مسنده) (٦/ ٩٣)، حديث رقم (٢٤٦٦٤)، والبخاري في (الأدب المفرد) (١/ ١٩٦)، حديث رقم (٥٥٨)، وابن راهويه في (مسنده) (٣/ ١٠٣٠)، حديث رقم (١٧٨١)، والنسائي في (سننه الكبرى) (٦/ ٤٥٣)، حديث رقم (١١٤٧٦)، جميعًا من طريق خالد بن سلمة عن البهي عن عروة بن الزبير قال: قالت عائشة... فذكره.

المسألة الثانية: هذه الآية أصل كبير في علم الفقه، فإن مقتضاها أن تقابل كل جناية بمثلها؛ وذلك لأن الإهدار يوجب فتح باب الشر والعدوان؛ لأن في طبع كل أحد الظلم والبغي والعدوان، فإذا لم يُزجر عنه أقدم عليه ولم يتركه، وأما الزيادة على قدر الذنب فهو ظلم، والشرع منزّه عنه، فلم يبق إلا أن يقابل بالمثل، ثم تأكد هذا النص بنصوص أُخر، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ [النحل: ١٢٦] وقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [غافر: ٤٠] وقوله عزّ وجلّ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ [البقرة: ١٧٨] والقصاص عبارة عن المساواة والمماثلة. وقوله تعالى: ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥] وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩] فهذه النصوص بأسرها تقتضي مقابلة الشيء بمثله. ثم هاهنا دقيقة: وهي أنه إذا لم يمكن استيفاء الحق إلا باستيفاء الزيادة، فههنا وقع التعارض بين إلحاق زيادة الضرر بالجاني وبين منع المجني عليه من استيفاء حقه، فأيهما أولى؟ فههنا محل اجتهاد المجتهدين، ويختلف ذلك باختلاف الصور، وتُفرع على هذا الأصل بعض المسائل تنبيهًا على الباقي:

المثال الأول: احتج الشافعي رضي الله عنه على أن المسلم لا يُقتل بالذمي وأن الحر لا يُقتل بالعبد، بأن قال: المماثلة شرط لجريان اللقصاص وهي مفقودة في هاتين المسألتين، فوجب أن لا يجري القصاص بينهما، أما بيان أن المماثلة شرط لجريان القصاص فهي النصوص المذكورة، وكيفية الاستدلال بها أن نقول: إما أن نحمل المماثلة المذكورة في هذه النصوص على المماثلة في كل الأمور إلا ما خصّه الدليل، أو نحملها على المماثلة في أمر معين، والثاني مرجوح لأن ذلك الأمر المعين غير مذكور في الآية، فلو حملنا الآية عليها لزم الإجمال، ولو حملنا النص على القسم الأول لزم تحمل التخصيص، ومعلوم أن دفع الإجمال أَوْلى من دفع التخصيص، فثبت أن الآية تقتضي رعاية المماثلة في كل الأمور إلا ما خصّه دليل العقل ودليل نقلي منفصل، وإذا ثبت هذا فنقول: رعاية المماثلة في قتل المسلم بالذمي وفي قتل الحر بالعبد - لا تمكن؛ لأن الإسلام اعتبره الشرع في إيجاب القتل لتحصيله عند عدمه كما في حق الكافر الأصلي، ولإبقائه عند وجوده كما في حق المرتد، وأيضًا الحرية صفة اعتبرها الشرع في حق القضاء والإمامة والشهادة، فثبت أن المماثلة شرط لجريان القصاص، وهي مفقودة ههنا فوجب المنع من القصاص.

المثال الثاني: احتج الشافعي رضي الله عنه في أن الأيدي تُقطع باليد الواحدة، فقال: لا شك أنه إذا صدر كل القطع أو بعضه عن كل أولئك القاطعين أو عن بعضهم، فوجب أن يشرع في حق أولئك القاطعين مثله لهذه النصوص، وكل من قال يشرع القطع إما كله أو بعضه في حق كلهم أو بعضهم، قال بإيجابه على الكل، بقي أن يقال: فيلزم منه استيفاء الزيادة من الجاني وهو ممنوع منه إلا أنا نقول: لما وقع التعارض بين جانب الجاني وبين جانب المجني عليه، كان جانب المجني عليه بالرعاية أَوْلى.

المثال الثالث: شريك الأب شرع في حقه القصاص، والدليل عليه أنه صدر عنه الجرح فوجب أن يقابل بمثله لقوله تعالى: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥] وإذا ثبت هذا ثبت تمام القصاص لأنه لا قائل بالفرق.

المثال الرابع: قال الشافعي رضي الله تعالى عنه: من حَرَّق حرقناه، ومَن غَرَّق غرقناه، والدليل عليه هذه النصوص الدالة على مقابلة كل شيء بمماثله.

المثال الخامس: شهود القصاص إذا رجعوا وقالوا: (تعمدنا الكذب) يلزمهم القصاص لأنهم بتلك الشهادة أهدروا دمه، فوجب أن يصير دمهم مهدرًا لقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾.

المثال السادس: قال الشافعي رضي الله عنه: المكره يجب عليه القود؛ لأنه صدر عنه القتل ظلمًا فوجب أن يجب عليه مثله، أما أنه صدر عنه القتل فالحس يدل عليه، وأما أنه قتل ظلمًا فلأن المسلمين أجمعوا على أنه مكلف من قِبل الله تعالى بأن لا يقتل، وأجمعوا على أنه يستحق به الإثم العظيم والعقاب الشديد، وإذا ثبت هذا فوجب أن يقابل بمثله لقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾.

المثال السابع: قال الشافعي رضي الله عنه: القتل بالمثقل يوجب القود، والدليل عليه أن الجاني أبطل حياته، فوجب أن يتمكن ولي المقتول من إبطال حياة القاتل لقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾.

المثال الثامن: الحر لا يُقتل بالعبد قصاصًا، ونحن وإن ذكرنا هذه المسألة في المثال الأول إلا أنا نذكر هاهنا وجهًا آخر من البيان، فنقول: إن القاتل أتلف على مالك العبد شيئًا يساوي عشرة دنانير مثلاً، فوجب عليه أداء عشرة دنانير لقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ وإذا وجب الضمان وجب أن لا يجب القصاص لأنه لا قائل بالفرق.

المثال التاسع: منافع الغصب مضمونة عند الشافعي رضي الله عنه، والدليل عليه أن الغاصب فَوَّت على المالك منافع تقابل في العرف بدينار، فوجب أن يفوت على الغاصب مثله من المال لقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ وكل من أوجب تفويت هذا القدر على الغاصب قال بأنه يجب أداؤه إلى المغصوب منه.

المثال العاشر: الحر لا يقتل بالعبد قصاصًا لأنه لو قُتل بالعبد لكان هو مساويًا للعبد في المعاني الموجبة للقصاص لقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [غافر: ٤٠] ولسائر النصوص التي تلوناها، ثم إن عبده يُقتل قصاصًا بعبد نفسه فيجب أن يكون عبد غيره مساويًا لعبد نفسه في المعاني الموجبة للقصاص لعين هذه النصوص التي ذكرناها، فعلى هذا التقدير يكون عبد نفسه مساويًا لعبد غيره في المعاني الموجبة للقصاص، فكان عبد نفسه مثلاً لمثل نفسه، ومثل المثل مثل، فوجب كون عبد نفسه مثلاً لنفسه في المعاني الموجبة للقصاص، ولو قُتل الحر بعبد غيره لقُتل بعبد نفسه بالبيان الذي ذكرناه ولا يُقتل بعبد نفسه، فوجب أن لا يُقتل بعبد غيره، فقد ذكرنا

هذه الأمثلة العشرة في التفريع على هذه الآية، ومن أخذت الفطانة بيده سهل عليه تفريع كثير من مسائل الشريعة على هذا الأصل، والله أعلم. ثم هاهنا بحث: وهو أن أبا حنيفة رضي الله عنه قال في قطع الأيدي: لا شك أنه صدر كل القطع أو بعضه عن كلهم أو عن بعضهم، إلا أنه لا يمكن استيفاء ذلك الحق إلا باستيفاء الزيادة لأن تفويت عشرة من الأيدي أزيد من تفويت يد واحدة، فوجب أن يبقى على أصل الحرمة. فقال الشافعي رضي الله عنه: لو كان تفويت عشرة من الأيدي في مقابلة يد واحدة حرامًا، لكان تفويت عشرة من النفوس في مقابلة نفس واحدة حرامًا؛ لأن تفويت النفس يشتمل على تفويت اليد، فتفويت عشرة من النفوس في مقابلة النفس الواحدة يوجب تفويت عشرة من الأيدي في مقابلة اليد الواحدة، فلو كان تفويت عشرة من الأيدي في مقابلة اليد الواحدة حرامًا، لكان تفويت عشرة من النفوس لأجل النفس الواحدة مشتملاً على الحرام، وكل ما اشتمل على الحرام فهو حرام، فكان يجب أن يحرم قتل النفوس العشرة في مقابلة النفس الواحدة، وحيث أجمعنا على أنه لا يحرم عَلِمنا أن ما ذكرتم من استيفاء الزيادة غير ممنوع منه شرعًا، والله أعلم.

المسألة الثالثة: قد بينا أن قوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ يقتضي وجوب رعاية المماثلة مطلقًا في كل الأحوال إلا فيما خصه الدليل، والفقهاء أدخلوا التخصيص فيه في صور كثيرة، فتارة بناء على نص آخر أخص منه، وأخرى بناء على القياس، ولا شك أن من ادعى التخصيص فعليه البيان، والمكلف يكفيه أن يتمسك بهذا النص في جميع المطالب، قال مُجاهد والسدي: إذا قال له: أخزاه الله، فليقل له: أخزاه الله، أما إذا قذفه قذفًا يوجب الحد فليس له ذلك بل الحد الذي أمَر الله به.

ثم قال تعالى: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ﴾ بينه وبين خصمه بالعفو والإغضاء، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ [فصلت: ٣٤]، ﴿فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ وهو وعد مبهم لا يقاس أمره في التعظيم.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وفيه قولان: الأول: أن المقصود منه التنبيه على أن المجني عليه لا يجوز له استيفاء الزيادة من الظالم؛ لأن الظالم فيما وراء ظلمه معصوم والانتصار لا يكاد يؤمن فيه تجاوز التسوية والتعدي، خصوصًا في حال الحرب والتهاب الحمية، فربما صار المظلوم عند الإقدام على استيفاء القصاص ظالمًا، وعن النبي ﷺ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَادَى مُنَادٍ: مَنْ كَانَ لَهُ عَلَى اللَّهِ أَجْرٌ فَلْيَقُمْ»، قَالَ: «فَيَقُومُ خُلُقٌ فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا أَجْرُكُمْ عَلَى اللَّهِ؟ فَيَقُولُونَ: نَحْنُ الَّذِينَ عَفَوْنَا عَمَّنْ ظَلَمَنَا. فَيُقَالُ لَهُمْ: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى»[1] الثاني: أنه

---

(١) رواه البيهقي في (شعب الإيمان) (٦/ ٣١٥)، حديث رقم (٨٣١٣)، وابن أبي عاصم في (الديات) (١/ ٢٦٧)، حديث رقم (١٨٥)، كلاهما من طريق أبي سلمة، وهو يحيى بن خلف، أخبرنا الفضل بن سنان عن غالب القطان عن الحسن عن أنس. . . بنحوه، وإسناده صحيح.

تعالى لما حثّ على العفو عن الظالم أخبر أنه مع ذلك لا يحبه تنبيهًا على أنه إذ كان لا يحبه ومع ذلك فإنه يندب إلى عفوه، فالمؤمن الذي هو حبيب الله بسبب إيمانه أَوْلى أن يعفو عنه.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ﴾ أي ظالم الظالم إياه، وهذا من باب إضافة المصدر إلى المفعول ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ يعني المنتصرين ﴿مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ كعقوبة ومؤاخذة لأنهم أتوا بما أبيح لهم من الانتصار، واحتج الشافعي رضي الله تعالى عنه بهذه الآية في بيان أن سراية القود مهدرة، فقال: الشرع إما أن يقال: إنه أذن له في القطع مطلقًا أو بشرط عدم السريان، وهذا الثاني باطل لأن الأصل في القطع الحرمة، فإذا كان تجويزه معلقًا بشرط أن لا يحصل منه السريان، وكان هذا الشرط مجهولاً، وجب أن يبقى ذلك القطع على أصل الحرمة؛ لأن الأصل فيها هو الحرمة، والحل إنما يحصل معلقًا على شرط مجهول، فوجب أن يبقى ذلك أصل الحرمة، وحيث لم يكن كذلك علمنا أن الشرع أذن له في القطع كيف كان، سواء سرى أو لم يسرِ، وإذا كان كذلك وجب أن لا يكون ذلك السريان مضمونًا لأنه قد انتصر من بعد ظلمه، فوجب أن لا يحصل لأحد عليه سبيل.

ثم قال: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ أي يبدأون بالظلم ﴿وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ والمعنى ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ بأن لا يقتص ﴿وَغَفَرَ﴾ وتجاوز ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الصبر والتجاوز ﴿لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ يعني أن عزمه على ترك الانتصار لمن عزم الأمور الجيدة. وحذف الراجع لأنه مفهوم كما حُذف من قولهم: (السمن منوان بدرهم) ويحكى أن رجلاً سب رجلاً في مجلس الحسن، فكان المسبوب يكظم ويعرق فيمسح العرق، ثم قام وتلا هذه الآية، فقال الحسن: عَقَلها والله وفَهِمها لمَّا ضيعها الجاهلون.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي فليس له من ناصر يتولاه من بعد خذلانه، أي من بعد إضلال الله إياه، وهذا صريح في جواز الإضلال من الله تعالى، وفي أن الهداية ليست في مقدور أحد سوى الله تعالى، قال القاضي: المراد من يضلل الله عن الجنة فما له من ولي من بعده ينصره. والجواب: أن تقييد الإضلال بهذه الصورة المعينة خلاف الدليل، وأيضًا فالله تعالى ما أضله عن الجنّة على قولكم، بل هو أضل نفسه عن الجنة.

ثم قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ والمراد أنهم يطلبون الرجوع إلى الدنيا لعظم ما يشاهدون من العذاب، ثم ذكر حالهم عند عرض النار عليهم فقال: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ أي حال كونهم خاشعين حقيرين مهانين بسبب ما لحقهم من الذل، ثم قال: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ﴾ أي يبتدئ نظرهم من تحريك لأجفانهم ضعيف خفي بمسارقة، كما ترى الذي يتيقن أن يُقتل فإنه ينظر إلى السيف كأنه لا يقدر على أن يفتح أجفانه عليه ويملأ عينيه منه، كما يفعل في نظره إلى المحبوبات، فإن قيل: أليس أنه تعالى

قال في صفة الكفار: إنهم يُحشرون عميًا، فكيف قال هاهنا: إنهم ينظرون من طرف خفي؟ قلنا: لعلّهم يكونون في الابتداء هكذا، ثم يُجعلون عميًا أو لعلّ هذا في قوم، وذلك في قوم آخرين. ولما وصف الله تعالى حال الكفار حكى ما يقوله المؤمنون فيهم فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ قال صاحب (الكشاف): ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ إما أن يتعلق بخسروا أو يكون قول المؤمنين واقعًا في الدنيا، وإما أن يتعلق بقال، أي يقولون يوم القيامة إذا رأوهم على تلك الصفة.

ثم قال: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ أي دائم، قال القاضي: وهذا يدل على أن الكافر والفاسق يدوم عذابهما. والجواب: أن لفظ الظالم المطلق في القرآن مخصوص بالكفر، قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤] والذي يؤكد هذا أنه تعالى قال بعد هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ والمعنى أن الأصنام التي كانوا يعبدونها لأجل أن تشفع لهم عند الله تعالى ما أتوا بتلك الشفاعة، ومعلوم أن هذا لا يليق إلا بالكفار. ثم قال: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ وذلك يدل على أن المضل والهادي هو الله تعالى، على ما هو قولنا ومذهبنا، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

اعلم أنه تعالى لما أطنب في الوعد والوعيد، ذكر بعده ما هو المقصود فقال: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ وقوله: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ يجوز أن يكون صلة لقوله: ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ يعني لا يرده الله بعد ما حكم به، ويجوز أن يكون صلة لقوله: ﴿يَأْتِىَ﴾ أي من قبل أن يأتي من الله يوم لا يقدر أحد على رده، واختلفوا في المراد بذلك اليوم: فقيل: يوم ورود الموت. وقيل: يوم القيامة لأنه وصف ذلك اليوم بأنه لا مرد له، وهذا الوصف موجود في كلا اليومين، ويحتمل أن يكون معنى قوله: ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ أنه لا يقبل التقديم والتأخير، أو أن يكون معناه أن لا مرد فيه إلى حال التكليف حتى يحصل فيه التلافي.

ثم قال تعالى في وصف ذلك اليوم: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ﴾ ينفع في التخلص من العذاب ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ ممن ينكر ذلك حتى يتغير حالكم بسبب ذلك المنكر، ويجوز أن يكون المراد

من النكير الإنكار، أي لا تقدرون أن تنكروا شيئًا مما افترفتموه من الأعمال ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ﴾ أي هؤلاء الذين أمرتهم بالاستجابة، أي لم يقبلوا هذا الأمر ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ بأن تحفظ أعمالهم وتحصيها ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ وذلك تسلية من الله تعالى، ثم إنه تعالى بيّن السبب في إصرارهم على مذاهبهم الباطلة، وذلك أنهم وجدوا في الدنيا سعادة وكرامة الفوز بمطالب الدنيا يفيد الغرور والفجور والتكبر وعدم الانقياد للحق فقال: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾ ونِعم الله في الدنيا وإن كانت عظيمة إلا أنها بالنسبة إلى السعادات المعدة في الآخرة كالقطرة بالنسبة إلى البحر؛ فلذلك سماها ذوقًا، فبيّن تعالى أن الإنسان إذا فاز بهذا القدر الحقير الذي حصل في الدنيا فإنه يفرح بها ويعظم غروره بسببها، ويقع في العجب والكبر، ويظن أنه فاز بكل المنى ووصل إلى أقاصي السعادات، وهذه طريقة مَن يَضعف اعتقاده في سعادات الآخرة، وهذه الطريقة مخالفة لطريقة المؤمن الذي لا يعد نعم الدنيا إلا كالوصلة إلى نعم الآخرة، ثم بيّن أنه متى أصابتهم سيئة، أي شيء يسوءهم في الحال كالمرض والفقر وغيرهما، فإنه يظهر منه الكفر وهو معنى قوله: ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ والكفور الذي يكون مبالغًا في الكفران ولم يقل: (فإنه كفور)، ليبين أن طبيعة الإنسان تقتضي هذه الحالة إلا إذا أدبها الرجل بالآداب التي أرشد الله إليها. ولما ذكر الله إذاقة الإنسان الرحمة وإصابته بضدها أتبع ذلك بقوله: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والمقصود منه أن لا يغتر الإنسان بما ملكه من المال والجاه، بل إذا علم أن الكل مِلك الله ومُلكه، وأنه إنما حصل ذلك القدر تحت يده لأن الله أنعم عليه به، فحينئذٍ يصير ذلك حاملاً له على مزيد الطاعة والخدمة، وأما إذا اعتقد أن تلك النعم إنما تحصل بسبب عقله وجده واجتهاده، بقي مغرورًا بنفسه معرضًا عن طاعة الله تعالى. ثم ذكر من أقسام تصرف الله في العالم أنه يخص البعض بالأولاد والإناث، والبعض بالذكور، والبعض بهما، والبعض بأن يجعله محرومًا من الكل، وهو المراد من قوله: ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾.

واعلم أن أهل الطبائع يقولون: السبب في حدوث الولد صلاح حال النطفة والرحم، وسبب الذكورة استيلاء الحرارة، وسبب الأنوثة استيلاء البرودة، وقد ذكرنا هذا الفصل بالاستقصاء التام في سورة النحل، وأبطلناه بالدلائل اليقينية، وظهر أن ذلك من الله تعالى لا أنه من الطبائع والأنجم والأفلاك.

وفي الآية سؤالات:

السؤال الأول: أنه قَدَّم الإناث في الذِّكر على الذكور فقال: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ ثم في الآية الثانية قَدَّم الذكور على الإناث فقال: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ فما السبب في هذا التقديم والتأخير؟

السؤال الثاني: أنه ذكر الإناث على سبيل التنكير فقال: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾ وذكر الذكور بلفظ التعريف فقال: ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ فما السبب في هذا الفرق؟

السؤال الثالث: لَمَ قال في إعطاء الإناث وحدهن، وفي إعطاء الذكور وحدهم بلفظ الهبة فقال: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ وقال في إعطاء الصنفين معًا: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾.

والسؤال الرابع: لما كان حصول الولد هبة من الله، فيكفي في عدم حصوله أن لا يهب، فأي حاجة في عدم حصوله إلى أن يقول: ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾؟

السؤال الخامس: هل المراد من هذا الحكم جَمْع معينون، أو المراد الحكم على الإنسان المطلق؟

والجواب عن السؤال الأول من وجوه: الأول: أن الكريم يسعى في أن يقع الختم على الخير والراحة والسرور والبهجة، فإذا وهب الولد الأنثى أولاً ثم أعطاه الذكر بعده، فكأنه نقله من الغم إلى الفرح، وهذا غاية الكرم، أما إذا أعطى الولد أولاً ثم أعطى الأنثى ثانيًا، فكأنه نقله من الفرح إلى الغم، فذكر تعالى هبة الولد الأنثى أولاً وثانيًا هبة الولد الذكر حتى يكون قد نقله من الغم إلى الفرح، فيكون ذلك أليق بالكرم. **الوجه الثاني:** أنه إذا أعطى الولد الأنثى أولاً، علم أنه لا اعتراض له على الله تعالى فيرضى بذلك، فإذا أعطاه الولد الذكر بعد ذلك علم أن هذه الزيادة فضل من الله تعالى وإحسان إليه، فيزداد شكره وطاعته، ويعلم أن ذلك إنما حصل بمحض الفضل والكرم. **والوجه الثالث:** قال بعض المذكرين الأنثى ضعيفة ناقصة عاجزة، فقدم ذكرها تنبيهًا على أنه كلما كان العجز والحاجة أتم كانت عناية الله به أكثر. **الوجه الرابع:** كأنه يقال: أيتها المرأة الضعيفة العاجزة إن أباك وأمك يكرهان وجودك، فإن كانا قد كرها وجودك فأنا قدمتك في الذكر لتعلمي أن المحسن المكرم هو الله تعالى. فإذا علمت المرأة ذلك زادت في الطاعة والخدمة والبعد عن موجبات الطعن والذم، فهذه المعاني هي التي لأجلها وقع ذكر الإناث مقدمًا على ذكر الذكور. وإنما قدم ذكر الذكور بعد ذلك على ذكر الإناث لأن الذكَر أكمل وأفضل من الأنثى، والأفضل الأكمل مقدم على الأخس الأرذل، والحاصل أن النظر إلى كونه ذكرًا أو أنثى يقتضي تقديم ذِكر الذكَر على ذِكر الأنثى، أما العوارض الخارجية التي ذكرناها فقد أوجبت تقديم ذكر الأنثى على ذكر الذكر، فلما حصل المقتضي للتقديم والتأخير في البابين لا جرم قدم هذا مرة وقدم ذلك مرة أخرى، والله أعلم.

وأما السؤال الثاني: - وهو قوله: لَمَ عَبَّر عن الإناث بلفظ التنكير، وعن الذكور بلفظ التعريف؟ فجوابه: أن المقصود منه التنبيه على كون الذكَر أفضل من الأنثى.

وأما السؤال الثالث: - وهو قوله: لَمَ قال تعالى في إعطاء الصنفين: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾؟ فجوابه: أن كل شيئين يُقرن أحدهما بالآخر فهما زوجان، وكل واحد منهما يقال له زوج، والكناية في ﴿يُزَوِّجُهُمْ﴾ عائدة على الإناث والذكور التي في الآية الأولى، والمعنى يقرن الإناث والذكور فيجعلهم أزواجًا.

وأما السؤال الرابع، فجوابه: أن العقيم هو الذي لا يولد له، يقال: رجل عقيم لا يلد، وامرأة عقيم لا تلد، وأصل العقم القطع، ومنه قيل: (المُلك عقيم) لأنه يُقطع فيه الأرحام بالقتل والعقوق.

وأما السؤال الخامس، فجوابه: قال ابن عباس: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا﴾ يريد لوطًا وشعيبًا عليهما السلام لم يكن لهما إلا البنات ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ يريد إبراهيم عليه السلام لم يكن له إلا الذكور ﴿أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ﴾ يريد محمدًا ﷺ كان له من البنين أربعة: القاسم والطاهر وعبد الله وإبراهيم، ومن البنات أربعة زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة ﴿وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ﴾ يريد عيسى ويحيى. وقال الأكثرون من المفسرين: هذا الحكم عام في حق كل الناس؛ لأن المقصود بيان قدرة الله في تكوين الأشياء كيف شاء وأراد، فلم يكن للتخصيص معنى، والله أعلم. ثم ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٞ قَدِيرٞ﴾ قال ابن عباس: عليم بما خلق، قدير على ما يشاء أن يخلقه. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بيّن كمال قدرته وعلمه وحكمته، أتبعه ببيان أنه كيف يخص أنبياءه بوحيه وكلامه.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ وما صح لأحد من البشر ﴿أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ﴾ إلا على أحد ثلاثة أوجه: إما على الوحي وهو الإلهام والقذف في القلب، أو المنام كما أوحى الله إلى أم موسى وإبراهيم عليه السلام في ذبح ولده، وعن مجاهد: أوحى الله تعالى الزبور إلى داود عليه السلام في صدره. وإما على أن يسمعه كلامه من غير واسطة مبلغ، وهذا أيضًا وحي بدليل أنه تعالى أسمع موسى كلامه من غير واسطة مع أنه سماه وحيًا، قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه: ١٣] وإما على أن يرسل إليه رسولاً من الملائكة فيبلغ ذلك المَلَك ذلك الوحي إلى الرسول البشري. فطريق الحصر أن يقال: وصول الوحي من الله إلى البشر إما أن يكون من غير واسطة مبلغ أو يكون بواسطة مبلغ، وإذا كان الأول هو أن يصل إليه وحي الله لا بواسطة شخص آخر فههنا إما أن يقال: إنه لم يسمع عين كلام الله أو يسمعه، أما الأول - وهو أنه وصل إليه الوحي لا بواسطة

شخص آخر وما سمع عين كلام الله - فهو المراد بقوله: ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ وأما الثاني - وهو أنه وصل إليه الوحي لا بواسطة شخص آخر ولكنه سمع عين كلام الله - فهو المراد من قوله: ﴿أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ وأما الثالث - وهو أنه وصل إليه الوحي بواسطة شخص آخر - فهو المراد بقوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾.

واعلم أن كل واحد من هذه الأقسام الثلاثة وحي، إلا أنه تعالى خصص القسم الأول باسم الوحي؛ لأن ما يقع في القلب على سبيل الإلهام فهو يقع دفعة، فكان تخصيص لفظ الوحي به أَوْلى، فهذا هو الكلام في تمييز هذه الأقسام بعضها عن بعض.

المسألة الثانية: القائلون بأن الله في مكان - احتجوا بقوله: ﴿أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ وذلك لأن التقدير: وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا على أحد ثلاثة أوجه: أحدها: أن يكون الله من وراء حجاب، وإنما يصح ذلك لو كان مختصًا بمكان معين وجهة معينة. والجواب: أن ظاهر اللفظ وإن أوهم ما ذكرتم، إلا أنه دلّت الدلائل العقلية والنقلية على أنه تعالى يمتنع حصوله في المكان والجهة، فوجب حمل هذا اللفظ على التأويل، والمعنى أن الرجل سمع كلامًا مع أنه لا يرى ذلك المتكلم، كان ذلك شبيهًا بما إذا تكلم من وراء حجاب، والمشابهة سبب لجواز المجاز.

المسألة الثالثة: قالت المعتزلة: هذه الآية تدل على أنه تعالى لا يُرى، وذلك لأنه تعالى حصر أقسام وحيه في هذه الثلاثة، ولو صحت رؤية الله تعالى لصح من الله تعالى أنه يتكلم مع العبد حال ما يراه العبد، فحينئذٍ يكون ذلك قسمًا رابعًا زائدًا على هذه الأقسام الثلاثة، والله تعالى نفى القسم الرابع بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ﴾ إلا على هذه الأوجه الثلاثة. والجواب: نزيد في اللفظ قيدًا فيكون التقدير: وما كان لبشر أن يكلمه الله (في الدنيا) إلا على أحد هذه الأقسام الثلاثة، وحينئذٍ لا يلزم ما ذكرتموه، وزيادة هذا القيد وإن كانت على خلاف الظاهر، لكنه يجب المصير إليها للتوفيق بين هذه الآيات وبين الآيات الدالة على حصول الرؤية في يوم القيامة، والله أعلم.

المسألة الرابعة: أجمعت الأمة على أن الله تعالى متكلم، ومَن سوى الأشعري وأتباعه أطبقوا على أن كلام الله هو هذه الحروف المسموعة والأصوات المؤلفة، وأما الأشعري وأتباعه فإنهم زعموا أن كلام الله تعالى صفة قديمة يعبر عنها بهذه الحروف والأصوات، أما الفريق الأول: - وهم الذين قالوا: كلام الله تعالى هو هذه الحروف والكلمات - فهم فريقان: أحدهما: الحنابلة الذين قالوا بقدم هذه الحروف، وهؤلاء أخس من أن يُذكروا في زمرة العقلاء، واتفق أني قلت يومًا لبعضهم: لو تكلم الله بهذه الحروف إما أن يتكلم بها دفعة واحدة أو على التعاقب والتوالي، والأول باطل لأن التكلم بجملة هذه الحروف دفعة واحدة لا يفيد هذا النظم المركب على هذا التعاقب والتوالي، فوجب أن لا يكون هذا النظم المركب من هذه الحروف المتوالية كلام الله تعالى، والثاني باطل لأنه تعالى لو تكلم بها على التوالي والتعاقب كانت محدثة، ولما سمع ذلك الرجل هذا الكلام قال: الواجب علينا أن نُقر ونُمر. يعني نقر بأن

القرآن قديم ونمر على هذا الكلام على وفق ما سمعناه! فتعجبت من سلامة قلب ذلك القائل، وأما العقلاء من الناس فقد أطبقوا على أن هذه الحروف والأصوات كائنة بعد أن لم تكن حاصلة بعد أن كانت معدومة، ثم اختلفت عباراتهم في أنها هل هي مخلوقة، أو لا يقال ذلك، بل يقال: إنها حادثة أو يعبر عنها بعبارة أخرى، واختلفوا أيضًا في أن هذه الحروف هل هي قائمة بذات الله تعالى أو يخلقها في جسم آخر، فالأول هو قول الكرامية، والثاني قول المعتزلة، وأما الأشعرية الذين زعموا أن كلام الله صفة قديمة تدل عليها هذه الألفاظ والعبارات، فقد اتفقوا على أن قوله: ﴿أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ هو أن المَلَك والرسول يسمع ذلك الكلام المنزّه عن الحرف والصوت من وراء حجاب. قالوا: وكما لا يبعد أن ترى ذات الله مع أنه ليس بجسم ولا في حيز، فأي بعد في أن يسمع كلام الله مع أنه لا يكون حرفًا ولا صوتًا؟ وزعم أبو منصور الماتريدي السمرقندي أن تلك الصفة القائمة يمتنع كونها مسموعة، وإنما المسموع حروف وأصوات يخلقها الله تعالى في الشجرة. وهذا القول قريب من قول المعتزلة، والله أعلم.

المسألة الخامسة: قال القاضي: هذه الآية تدل على حدوث كلام الله تعالى من وجوه: الأول: أن قوله تعالى: ﴿أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ﴾ يدل عليه لأن كلمة (أن) مع المضارع تفيد الاستقبال. الثاني: أنه وصف الكلام بأنه وحي لأن لفظ الوحي يفيد أنه وقع على أسرع الوجوه. الثالث: أن قوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ يقتضي أن يكون الكلام الذي يبلغه المَلَك إلى الرسول البشر مثل الكلام الذي سمعه من الله، والذي يبلغه إلى الرسول البشري حادث، فلما كان الكلام الذي سمعه من الله مماثلاً لهذا الذي بلغه إلى الرسول البشري، وهذا الذي بلغه إلى الرسول البشري حادث ومثل الحادث حادث، وجب أن يقال: إن الكلام الذي سمعه من الله حادث. الرابع: أن قوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ﴾ يقتضي كون الوحي حاصلاً بعد الإرسال، وما كان حصوله متأخرًا عن حصول غيره كان حادثًا. والجواب: أنا نصرف جملة هذه الوجوه التي ذكرتموها إلى الحروف والأصوات، ونعترف بأنها حادثة كائنة بعد أن لم تكن، وبديهة العقل شاهدة بأن الأمر كذلك، فأي حاجة إلى إثبات هذا المطلوب الذي علمت صحته ببديهة العقل وبظواهر القرآن؟ والله أعلم.

المسألة السادسة: ثبت أن الوحي من الله تعالى إما أن لا يكون بواسطة شخص آخر، ويمتنع أن يكون كل وحي حاصلاً بواسطة شخص آخر، وإلا لزم إما التسلسل وإما الدور، وهما محالان، فلا بد من الاعتراف بحصول وحي يحصل لا بواسطة شخص آخر. **ثم هاهنا أبحاث:**

البحث الأول: أن الشخص الأول الذي سمع وحي الله لا بواسطة شخص آخر، كيف يعرف أن الكلام الذي سمعه كلام الله؟ فإن قلنا: إنه سمع تلك الصفة القديمة المنزّهة عن كونها حرفًا وصوتًا، لم يبعد أنه إذا سمعها علم بالضرورة كونها كلام الله تعالى، ولم يبعد أن يقال: إنه يحتاج بعد ذلك إلى دليل زائد، أما إن قلنا: إن المسموع هو الحرف والصوت، امتنع أن يقطع

بكونه كلامًا لله تعالى، إلا إذا ظهرت دلالة على أن ذلك المسموع هو كلام الله تعالى.

البحث الثاني: أن الرسول إذا سمعه من المَلَك، كيف يعرف أن ذلك المبلغ ملك معصوم لا شيطان مضل؟ والحق أنه لا يمكنه القطع بذلك إلا بناء على معجزة تدل على أن ذلك المبلغ مَلَك معصوم لا شيطان خبيث. وعلى هذا التقدير، فالوحي من الله تعالى لا يتم إلا بثلاث مراتب في ظهور المعجزات:

المرتبة الأولى: أن المَلَك إذا سمع ذلك الكلام من الله تعالى، فلا بد له من معجزة تدل على أن ذلك الكلام كلام الله تعالى.

المرتبة الثانية: أن ذلك الملك إذا وصل إلى الرسول، لا بد له أيضًا من معجزة.

المرتبة الثالثة: أن ذلك الرسول إذا أوصله إلى الأمة، فلا بد له أيضًا من معجزة. فثبت أن التكليف لا يتوجه على الخلق إلا بعد وقوع ثلاث مراتب في المعجزات.

البحث الثالث: أنه لا شك أن مَلَكًا من الملائكة قد سمع الوحي من الله تعالى ابتداء، فذلك المَلَك هو جبريل، ويقال: لعل جبريل سمعه من ملك آخر، فالكل محتمل ولو بألف واسطة، ولم يوجد ما يدل على القطع بواحد من هذه الوجوه.

البحث الرابع: هل في البشر من سمع وحي الله تعالى من غير واسطة؟ المشهور أن موسى عليه السلام سمع كلام الله من غير واسطة، بدليل قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه: ١٣]وقيل: إن محمدًا ﷺسمعه أيضًا لقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠].

البحث الخامس: أن الملائكة يقدرون على أن يُظهروا أنفسهم على أشكال مختلفة، فبتقدير أن يراه الرسول ﷺفي كل مرة وجب أن يحتاج إلى المعجزة؛ ليعرف أن هذا الذي رآه في هذه المرة عين ما رآه في المرة الأولى، وإن كان لا يرى شخصه كانت الحاجة إلى المعجزة أقوى؛ لاحتمال أنه حصل الاشتباه في الصوت، إلا أن الإشكال في أن الحاجة إلى إظهار المعجزة في كل مرة لم يقل به أحد.

المسألة السابعة: دلّت المناظرات المذكورة في القرآن بين الله تعالى وبين إبليس – على أنه تعالى كان يتكلم مع إبليس من غير واسطة، فذلك هل يسمى وحيًا من الله تعالى إلى إبليس أم لا؟ الأظهر منعه، ولا بد في هذا الموضع من بحث غامض كامل.

المسألة الثامنة: قرأ نافع (أو يرسلُ رسولاً) برفع اللام، (فيوحي) بسكون الياء، ومحله رفع على تقدير: (وهو يرسل فيوحي)، والباقون بالنصب على تأويل المصدر، كأنه قيل: ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيًا أو إسماعًا لكلامه من وراء حجاب أو يرسل. لكن فيه إشكال لأن قوله وحيًا أو إسماعًا اسم وقوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ﴾ فِعل، وعطف الفعل على الاسم قبيح، فأجيب عنه بأن التقدير: وما كان لبشر أن يكلمه إلا أن يوحي إليه وحيًا أو يسمع إسماعًا من وراء حجاب أو يرسل رسولاً.

المسألة التاسعة: الصحيح عند أهل الحق أن عندما يُبلغ المَلَك الوحي إلى الرسول، لا يقدر الشيطان على إلقاء الباطل في أثناء ذلك الوحي، وقال بعضهم: يجوز ذلك لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢] وقالوا: الشيطان ألقى في أثناء سورة النجم: تلك الغرانيق العلى، منها الشفاعة ترتجى. وكان صديقنا الملك سام بن محمد رحمه الله، وكان أفضل من لقيته من أرباب السلطنة يقول: هذا الكلام بعد الدلائل القوية القاهرة، باطل من وجهين آخرين: الأول: أن النبي ﷺ قال: «مَنْ رَآنِي فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَآنِي، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لاَ يَتَمَثَّلُ بِصُورَتِي» (١) فإذا لم يقدر الشيطان على أن يتمثل في المنام بصورة الرسول، فكيف قدر على التشبه بجبريل حال اشتغال تبليغ وحي الله تعالى؟! والثاني: أن النبي ﷺ قال: «مَا سَلَكَ عُمَرُ فَجًا إِلاَّ وَسَلَكَ الشَّيْطَانُ فَجًا آخَرَ» (٢) فإذا لم يقدر الشيطان أن يحضر مع عمر في فج واحد، فكيف يقدر على أن يحضر مع جبريل في موقف تبليغ وحي الله تعالى؟!

المسألة العاشرة: قوله تعالى: ﴿فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ﴾ يعني فيوحي ذلك الملك بإذن الله ما يشاء الله، وهذا يقتضي أن الحَسَن لا يحسن لوجه عائد عليه، وأن القبيح لا يقبح لوجه عائد إليه، بل لله أن يأمر بما يشاء من غير تخصيص، وأن ينهى عما يشاء من غير تخصيص، إذ لو لم يكن الأمر كذلك لما صح قوله: ﴿مَا يَشَآءُۚ﴾ والله أعلم.

ثم قال تعالى في آخر الآية: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ﴾ يعني أنه عليّ عن صفات المخلوقين، حكيم يُجري أفعاله على موجب الحكمة، فيتكلم تارة بغير واسطة على سبيل الإلهام، وأخرى بإسماع الكلام، وثالثًا بتوسيط الملائكة الكرام. ولما بيّن الله تعالى كيفية أقسام الوحي إلى الأنبياء عليهم السلام، قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ والمراد به القرآن، وسماه روحًا لأنه يفيد الحياة من موت الجهل أو الكفر.

ثم قال تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ واختلف العلماء في هذه الآية مع الإجماع

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي في كتاب (الرؤيا)، باب: (في قول النبي ﷺ: من رآني في المنام فقد رآني) (٤/ ٤٦٣)، حديث رقم (٢٢٧٦)، وفي (الشمائل) (٢٤٢)، حديث رقم (٣٨٩) من طريق سفيان... به. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وابن ماجه في كتاب (تعبير الرؤيا)، باب: (رؤية النبي ﷺ) (٢/ ١٢٨٤)، حديث رقم (٣٩٠٠) من طريق سفيان... به، وأحمد في (مسنده) (١/ ٣٧٥)، حديث رقم (٣٥٥٩) من طريق سفيان... به، وكذلك في (١/ ٤٥٠)، حديث رقم (٤٣٠٤) من طريق زكريا... به. والدارمي في كتاب (الرؤيا)، باب: (في رؤية النبي ﷺ في المنام) (١/ ٦٠٣)، حديث رقم (٢١٣٩) من طريق سفيان... به. كلاهما (سفيان، زكريا) عن أبي إسحاق... به.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (فضائل الصحابة)، باب: (مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه) (٣/ ١٣٤٧)، حديث رقم (٣٤٨٠)، ومسلم في (صحيحه) (٤/ ١٨٦٣/ ٢٣٩٦)، جميعًا من طريق إبراهيم بن سعد، عن صالح، عن أبي شهاب، عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد، عن محمد بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه... به.

على أنه لا يجوز أن يقال: الرسل كانوا قبل الوحي على الكفر. وذكروا في الجواب وجوهًا: الأول: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ﴾ أي القرآن ﴿وَلَا الْإِيمَانُ﴾ أي الصلاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣] أي صلاتكم. الثاني: أن يُحمل هذا على حذف المضاف، أي ما كنت تدري ما الكتاب ومن أهل الإيمان، يعني من الذي يؤمن، ومن الذي لا يؤمن. الثالث: ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان حين كنت طفلاً في المهد. الرابع: الإيمان عبارة عن الإقرار بجميع ما كلف الله تعالى به، وإنه قبل النبوّة ما كان عارفًا بجميع تكاليف الله تعالى، بل إنه كان عارفًا بالله تعالى، وذلك لا ينافي ما ذكرناه. الخامس: صفات الله تعالى على قسمين: منها ما يمكن معرفته بمحض دلائل العقل، ومنها ما لا يمكن معرفته إلا بالدلائل السمعية، فهذا القسم الثاني لم تكن معرفته حاصلة قبل النبوّة.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ واختلفوا في الضمير في قوله: ﴿وَلَكِن جَعَلْنَاهُ﴾ منهم من قال: إنه راجع إلى القرآن دون الإيمان؛ لأنه هو الذي يُعرف به الأحكام، فلا جرم شُبه بالنور الذي يُهتدى به، ومنهم من قال: إنه راجع إليهما معًا، وحسن ذلك لأن معناهما واحد كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ [الجمعة: ١١].

ثم قال: ﴿نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهذا يدل على أنه تعالى بعد أن جعل القرآن نفسه في نفسه هدًى كما قال: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] فإنه قد يهدي به البعض دون البعض، وهذه الهداية ليست إلا عبارة عن الدعوة وإيضاح الأدلة؛ لأنه تعالى قال في صفة محمد ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو يفيد العموم بالنسبة إلى الكل، وقوله: ﴿نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ يفيد الخصوص، فثبت أن الهداية بمعنى الدعوة عامة والهداية في قوله: ﴿نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ خاصة، والهداية الخاصة غير الهداية العامة، فوجب أن يكون المراد من قوله: ﴿نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ أمرًا مغايرًا لإظهار الدلائل ولإزالة الأعذار، ولا يجوز أيضًا أن يكون عبارة عن الهداية إلى طريق الجنّة لأنه تعالى قال: ﴿وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ أي جعلنا القرآن نورًا نهدي به من نشاء، وهذا لا يليق إلا بالهداية التي تحصل في الدنيا، وأيضًا فالهداية إلى الجنّة عندكم في حق البعض واجب، وفي حق الآخرين محظور، وعلى التقديرين فلا يبقى لقوله: ﴿مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ فائدة، فثبت أن المراد أنه تعالى يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ولا اعتراض عليه فيه.

ثم قال تعالى لمحمد ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فبيّن تعالى أنه كما أن القرآن يهدي، فكذلك الرسول يهدي، وبيّن أنه يهدي إلى صراط مستقيم، وبيّن أن ذلك الصراط هو ﴿صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ نبّه بذلك على أن الذي تجوز عبادته هو الذي يملك السموات والأرض، والغرض منه إبطال قول من يعبد غير الله.

ثم قال: ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ وذلك كالوعيد والزجر، فبيّن أن أمر من لا يقبل هذه

التكاليف يرجع إلى الله تعالى، أي إلى حيث لا حاكم سواه، فيجازي كلاًّ منهم بما يستحقه من ثواب أو عقاب.

قال رضي الله عنه: تمّ تفسير هذه السورة آخر يوم الجمعة، الثامن من شهر ذي الحجة، سنة ثلاث وستمائة، يا مدبر الأمور، ويا مدهر الدهور، ويا معطي كل خير وسرور، ويا دافع البلايا والشرور، أوصِلنا إلى منازل النور، في ظلمات القبور، بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين.

﷽

سورة الشُّورَى

مكِّيَّةٌ في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر. وقال ابن عباس وقتادة: إلا أربعَ آيات منها أنزلت بالمدينة: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الآية:٢٣] إلى آخرها. وهي ثلاثٌ وخمسون آية[١].

قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿حمٓ . عٓسٓقٓ﴾ قال عبد المؤمن: سألت الحسين بن الفضل: لِمَ قطعَ «حم» من «عسق» ولم تقطع «كهيعص» و«المر» و«المص»؟ فقال: لأن «حم. عسق» بين سُوَرٍ أوّلها «حم» فجرت مَجرى نظائرها قبلَها وبعدَها؛ فكأنَّ «حم» مبتدأ و«عسق» خبره. ولأنها عُدَّت آيتين، وعُدَّت أخواتُها اللواتي كُتبت جملةً آيةً واحدة[٢].

وقيل: إن الحروف المعجمة كلَّها في المعنى واحد، من حيث إنها أُسُّ البيان وقاعدةُ الكلام؛ ذكره الجُرْجَاني.

وكتبت «حم. عسق» منفصلاً و«كهيعص» متصلاً لأنه قيل: حم؛ أي: حُمَّ ما هو كائن، ففصلوا بين ما يُقدَّر فيه فعل وبين ما لا يُقدَّر. ثم لو فُصل هذا ووُصِل ذا لجاز؛ حكاه القُشيري.

وفي قراءة ابن مسعود وابن عباس: «حم. سق»[٣]. قال ابن عباس: وكان

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١٩١ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١١٩ دون ذكر عبد المؤمن، ولم نعرفه.

(٣) القراءات الشاذة ص١٣٤ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٥ .

عليٌّ ﷺ يعرف الفِتَنَ بها[١].

وقال أرطاةُ بن المنذر: قال رجلٌ لابن عباس وعنده حذيفة بن اليمان: أَخْبِرني عن تفسير قوله تعالى: «حم. عسق»؟ فأعرض عنه حتى أعاد عليه ثلاثاً، فأعرضَ عنه. فقال حُذيفة بن اليمان: أنا أنبئك بها، قد عرفتُ لِم تركها؛ نزلت في رجل من أهل بيته يقال له: عبد الإله، أو عبد الله؛ ينزل على نهر من أنهار المشرق، يبني عليه مدينتين يشق النهر بينهما شقًّا، فإذا أراد اللهُ زوالَ مُلكهم وانقطاعَ دولتهم، بعث على إحداهما ناراً ليلاً فتصبح سوداءَ مُظْلِمةً، فتحترق كلُّها كأنها لم تكن مكانَها؛ فتصبح صاحبتُها متعجبةً كيف قُلبت، فما هو إلا بياضُ يومها حتى يجتمع فيها كلُّ جبار عَنيد، ثم يخسفُ الله بها وبهم جميعاً؛ فذلك قوله: «حم. عسق» أي: عَزْمةٌ من عَزَمات الله تعالى، وفتنةٌ وقضاء؛ «حم»: حُمَّ. «ع»: عدلاً منه، «س»: سيكون، «ق»: واقع في هاتين المدينتين[٢].

ونظير هذا التفسير ما روى جرير بن عبد الله البَجَليُّ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «تُبنى مدينةٌ بين دِجْلة ودُجيل وقُطْرَبُّل والصَّراة، يجتمع فيها جبابرةُ الأرض تُجبى إليها الخزائنُ يخسفُ بها ـ وفي رواية: بأهلها ـ فَلَهِيَ أسرعُ ذهاباً في الأرض من الوَتِد الجيِّد في الأرض الرِّخوة»[٣].

وقرأ ابن عباس: «حم. سق» بغير عين. وكذلك هو في مصحف عبد الله بن مسعود؛ حكاه الطبري[٤].

---

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ٤٦٥ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٥ .

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ٤٦٤ ، وذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره ٧/ ١٨٩ ، وقال: أثر غريب عجيب منكر.

(٣) أخرجه أبو عمرو الداني في السنن الواردة في الفتن (٣٥٠)، وهو حديث منكر جداً فيما ذكره الذهبي في الميزان ٣/ ١٦٥ ، وقد أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات ١/ ٣٦٥ ـ ٣٧٢ ، من طرق عديدة وأعلَّها كلَّها، ثم نقل عن الإمام أحمد قوله: ليس لهذا الحديث أصل. ودُجيل: اسم نهر مخرجه من أعلى بغداد، وقُطْرَبُّل: كلمة أعجمية، اسم قرية بين بغداد وعُكبَرا. والصَّراة. نهران ببغداد؛ الصراة الكبرى والصراة الصغرى. معجم البلدان ٢/ ٤٤٣ و٣/ ٣٩٩ و٤/ ٣٧١ .

(٤) في تفسيره ٢٠/ ٤٦٥ ، وسلف قريباً.

وروى نافع عن ابن عباس: «الحاء» حِلْمه[١]، و«الميم» مَجْده، و«العين» عِلْمه، و«السين» سَنَاه، و«القاف» قُدرته؛ أقسم الله بها[٢].

وعن محمد بن كعب: أقسم الله بحِلمه[٣] ومَجْده وعُلُوِّه وسَنَاه وقُدرته ألا يُعذِّب من عاذ بلا إله إلا الله مُخلصاً من قلبه[٤]. وقال جعفر بن محمد وسعيد بن جُبير: «الحاء» من الرحمن، و«الميم» من المجيد، و«العين» من العليم، و«السين» من القُدُّوس، و«القاف» من القاهر.

وقال مجاهد: فواتح السور. وقال عبد الله بن بُريدة: إنه اسمُ الجبل المحيط بالدنيا.

وذكر القشيريّ، واللفظ للثعلبيّ: أن النبيَّ ﷺ لما نزلَتْ هذه الآيةُ عُرفت الكآبةُ في وجهه؛ فقيل له: يا رسولَ الله، ما أحزنك؟ قال: «أُخبِرتُ ببلايا تنزلُ بأُمتي مِن خَسْف وقَذْف ونارٍ تحشرهم، وريحٍ تَقْذِفهم في البحر وآياتٍ متتابعات مُتَّصلات بنزول عيسى وخروج الدَّجال»[٥]. والله أعلم.

وقيل: هذا في شأن النبيِّ ﷺ؛ فـ«الحاء» حوضه المورود، و«الميم» مُلكه الممدود، و«العين» عِزُّه الموجود، و«السين» سناه المشهود، و«القاف» قيامه في المقام المحمود، وقُربه في الكرامة من المَلِك المعبود.

وقال ابن عباس: ليس من نبيّ صاحب كتاب إلا وقد أُوحي إليه: «حم. عسق»؛ فلذلك قال: «يُوحِي إِلَيْكَ وإِلى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ»[٦].

المهدويّ: وقد جاء في الخبر أن «حم. عسق» معناه: أَوْحيتُ إلى الأنبياء المتقدِّمين.

---

(١) في (د) و(ظ): حكمه.

(٢) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ١١٩ عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) في (د) و(ظ): بحكمه.

(٤) تفسير أبي الليث ٣/ ١٨٩ عن ابن عباس رضي الله عنهما بنحوه.

(٥) لم نقف عليه.

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ١٩٠، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٥.

وقرأ ابن مُحَيْصِن وابن كثير ومجاهد: «يُوحَى» بفتح الحاء على ما لم يُسَمَّ فاعلُه[١]؛ ورُوي عن ابن عمر. فيكون الجار والمجرور في موضع رفع لقيامه مقام الفاعل، ويجوز أن يكون اسم ما لم يُسَمَّ فاعلُه مضمراً؛ أي: يُوحَى إليك القرآن الذي تضمَّنته هذه السورة، ويكون اسمُ الله مرفوعاً بإضمار فعل، التقدير: يُوحيه اللهُ إليك[٢]؛ كقراءة ابن عامر وأبي بكر: ﴿يُسَبَّحُ له فيها بالغُدُوِّ والآصَالِ رِجالٌ﴾[٣] [النور: ٣٦] أي: يُسبِّحه رجال. وأنشد سيبويه:

لِيُبْكَ يزيدُ ضارعٌ لخصومة[٤] ... وأشعثُ ممن طوَّحته الطوائح

فقال: لِيُبْكَ يزيدُ، ثم بيَّن من ينبغي أن يَبْكيَه، فالمعنى: يَبكيه ضارعٌ[٥].

ويجوز أن يكون مبتدأ والخبر محذوف؛ كأنه قال: اللهُ يُوحيه. أو على تقدير إضمار مبتدأ، أي: المُوحي الله. أو يكون مبتدأ والخبر «العزيزُ الحكيمُ». وقرأ الباقون: «يُوحِي إِلَيْكَ» بكسر الحاء، ورفع الاسم على أنه الفاعل[٦].

﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ تقدّم في غير موضع[٧].

قوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ⑤﴾

قوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ قراءة العامة بالتاء. وقرأ نافع وابن وثّاب والكسائيّ

---

(١) قراءة ابن كثير في السبعة ص ٥٨٠، والتيسير ص ١٩٤. وقراءة مجاهد في المحرر الوجيز ٥/ ٢٦.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧١ بنحوه.

(٣) السبعة ص ٤٥٦، والتيسير ص ١٦٢، وسلفت ١٥/ ٢٨٦.

(٤) في (د) و(م): بخصومه، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لكتاب سيبويه ١/ ٢٨٨، وقد نسبه للحارث ابن نهيك. قال البغدادي في الخزانة ١/ ٣١٣: الصواب أنه لنهشل بن حَرِّيّ.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٩٣.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧١ بنحوه. وينظر السبعة ص٥٨٠، والتيسير ص١٩٤.

(٧) ٢/ ٣١١ و٤/ ٢٧١.

بالياء. ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ قرأ نافع وغيره بالياء والتاء والتشديد في الطاء، وهي قراءة العامة. وقرأ أبو عمرو وأبو بكر والمفضّل وأبو عُبيد: «يَنْفَطِرْنَ» من الانفطار[١]؛ كقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١] وقد مضى في سورة «مريم» بيانُ هذا[٢].

وقال ابن عباس: «تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ» أي: تكاد كلُّ واحدة منها تنفطر فوقَ التي تليها؛ من قول المشركين: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾[٣] [البقرة: ١١٦]. وقال الضحاك والسدي: «يَتَفَطَّرْنَ» أي: يتشقَّقْنَ من عَظَمةِ الله وجلاله فوقَهنَّ[٤]. وقيل: «فوقهنَّ»: فوق الأَرَضين من خشية الله لو كُنَّ مما يعقل.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: يُنزِّهونه عما لا يجوز في وَصْفه، وما لا يَليق بجلاله. وقيل: يتعجَّبون من جُرأة المشركين؛ فيذكر التسبيح في موضع التعجّب.

وعن عليّ ﷺ: أن تسبيحَهم تعجُّب مما يرون من تعرُّضهم لِسخط الله. وقال ابن عباس: تسبيحهم خضوع لما يرون من عظمة الله تعالى. ومعنى «بِحَمْدِ رَبِّهِمْ»: بأمر ربهم؛ قاله السُّدِّي. ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قال الضحاك: لمن في الأرض من المؤمنين؛ وقاله السدي. بيانه في سورة المؤمن: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الآية: ٧]. وعلى هذا تكون الملائكةُ هنا حَمَلَةَ العرش. وقيل: جميع ملائكة السماء؛ وهو الظاهر من قول الكلبيّ[٥].

وقال وهب بن مُنَبِّه: هو منسوخ بقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[٦]. وقال المهدويّ: والصحيح أنه ليس بمنسوخ؛ لأنه خبر، وهو خاصٌّ للمؤمنين.

---

(١) السبعة ص ٤١٣ و٥٨٠، والتسير ص ١٥٠ و١٩٤.

(٢) ١٣/ ٥٢١.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٢٠ دون نسبة.

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٩٢.

(٥) النكت والعيون ٥/ ١٩٢ ـ ١٩٣.

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ١٩١.

وقال أبو الحسن الماوَرْدِيّ[1] عن الكلبيّ: إن الملائكة لما رأت المَلَكين اللَّذين اخْتُبروا وبُعِثا إلى الأرض لِيحكما بينهم، فافتتنا بالزُّهَرَة وهربا إلى إدريس ـ وهو جَدّ أبي نوح عليهما السلام ـ وسألاه أن يدعُوَ لهما؛ سبَّحت الملائكةُ بحمد ربهم واستغفرت لبني آدم[2].

قال أبو الحسن بن الحصَّار: وقد ظنَّ بعضُ مَن جهل أن هذه الآيةَ نزلت بسبب هاروت وماروت، وأنها منسوخةٌ بالآية التي في المؤمن، وما علموا أن حَمَلَةَ العرش مخصوصون بالاستغفار للمؤمنين خاصة، ولله ملائكة أُخر يستغفرون لمن في الأرض.

الماورديّ[3]: وفي استغفارهم لهم قولان: أحدهما: من الذنوب والخطايا؛ وهو ظاهرُ قول مقاتل. الثاني: أنه طلب الرزق لهم والسَّعة عليهم؛ قاله الكلبيّ.

قلت: وهو أظهرُ، لأن الأرضَ تعمُّ الكافرَ وغيره، وعلى قول مقاتل لا يدخل فيه الكافر. وقد رُوي في هذا الباب خبرٌ رواه عاصمٌ الأحولُ عن أبي عثمان عن سَلْمان قال: إنَّ العبدَ إذا كان يذكر اللهَ في السَّرَّاء فنزلت به الضَّرَّاء قالت الملائكة: صوتٌ معروفٌ من آدميٍّ ضعيف، كان يذكر الله تعالى في السَّرَّاء فنزلت به الضَّرَّاء؛ فيستغفرون له. فإذا كان لا يذكر الله في السراء فنزلت به الضرَّاء قالت الملائكة: صوتٌ منكرٌ من آدميٍّ لا يذكر الله في السَّراء، فنزلت به الضَّرَّاء، فلا يستغفرون اللهَ له[4].

وهذا يدلُّ على أن الآية في الذاكر لِله تعالى في السرَّاء والضرَّاء، فهي خاصَّة ببعض مَن في الأرض من المؤمنين. والله أعلم.

ويَحتمِل أن يقصِدوا بالاستغفار طلبَ الحِلْم والغُفران في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ

---

(١) في النكت والعيون ٥/ ١٩٣.

(٢) هذه قصة باطلة، وسلفت ٢/ ٢٨٤، وينظر الكلام عليها ثمة.

(٣) النكت والعيون ٥/ ١٩٣.

(٤) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١١٤٠).

يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ﴾ إلى أن قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦]. والمراد الحِلْم عنهم وألا يُعاجلهم بالانتقام؛ فيكون عامًّا؛ قاله الزمخشري[1].

وقال مُطَرِّف: وجدنا أنصحَ عبادِ الله لعباد الله الملائكةَ، ووجدنا أغشَّ عباد الله لعباد الله الشياطين. وقد تقدَّم[2].

﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ قال بعضُ العلماء: هَيَّب وعَظَّم جلَّ وعزَّ في الابتداء، وألطفَ وبشَّرَ في الانتهاء.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ يعني أصناماً يعبدونها. ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يحفظ أعمالَهم لِيُجازيَهم بها. ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ وهذه منسوخةٌ بآية السيف[3]. وفي الخبر: «أَطَّتِ السماءُ وحُقَّ لها أن تَئِطَّ»[4] أي: صوَّتَتْ من ثِقَل سُكَّانها لِكَثْرتهم، فهم مع كَثْرتهم لا يفتُرُون عن عبادة الله؛ وهؤلاء الكفار يُشركون به.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي: وكما أوحينا إليك وإلى مَن قبلك هذه المعاني فكذلك أوحينا إليك قرآناً عربيًّا بيَّناه بلغة العرب. وقيل: أي: أنزلنا

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٦٠.

(٢) ١٨/ ٣٣٢.

(٣) زاد المسير ٧/ ٢٧٣، وقال: لا يصح.

(٤) أخرجه أحمد (٢١٥١٦)، وسلف ٥/ ٤٢٨.

عليك قرآناً عربيًّا بلسان قومك؛ كما أرسلنا كلَّ رسول بلسان قومه. والمعنى واحد. ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ يعني مكة. وقيل لمكة: أُمُّ القُرَى؛ لأن الأرضَ دُحيت من تحتها[١]. ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من سائر الخلق. ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ أي: بيوم الجمع، وهو يومُ القيامة. ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا شكَّ فيه.

﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ ابتداء وخبر. وأجاز الكسائي النصب[٢] على تقدير: لِتنذر فريقاً في الجنة وفريقاً في السعير[٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ قال الضحاك: أهلَ دين واحد؛ أهل ضلالة أو أهل هُدًى. ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ قال أنس بن مالك: في الإسلام[٤]. ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ﴾ رفع على الابتداء، والخبر ﴿مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ﴾، ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ عطف على اللفظ. ويجوز: ولا نَصِيرٌ، بالرفع على الموضع[٥] و«مِنْ» زائدة.

قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟﴾ أي: بل اتَّخذوا. ﴿مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ يعني أصناماً. ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ أي: وَلِيُّك يا محمد ووليُّ من اتَّبعك[٦]، ولا وَلِيَّ سواه. ﴿وَهُوَ يُحْىِ

---

(١) سلف هذا الكلام ١/ ١٧٣ .

(٢) قرأ بها زيد بن علي كما في البحر المحيط ٧/ ٥٠٩ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧٢ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٩٤ .

(٥) يعني في اللغة لا في التلاوة.

(٦) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ١٢١ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ يُريد عند البعث. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ وغيره من الأولياء لا يقدر على شيء.

قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ١٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ﴾ حكايةُ قول رسول الله ﷺ للمؤمنين؛ أي: وما خالفكم فيه الكفارُ من أهل الكتاب والمشركين من أمر الدين، فقولوا لهم: حُكمه إلى الله لا إليكم[١]. وقد حكم أن الدِّين هو الإسلام لا غيره. وأمور الشرائع إنما تُتَلَقّى من بيان الله.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي﴾ أي: الموصوف بهذه الصِّفات هو ربي وحدَه؛ وفيه إضمار: أي: قل لهم يا محمد: ذلكم اللهُ يُحيي الموتى ويحكم بين المختلفين هو ربّي. ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ اعتمدتُ. ﴿وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ أرْجِعُ.

قوله تعالى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾

قوله تعالى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ بالرفع على النعت لاسم الله، أو على تقدير هو فاطر. ويجوز النصب على النداء، والجرّ على البدل من الهاء في «عليه»[٢]. والفاطر: المُبدع والخالق. وقد تقدَّم.

﴿جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ قيل: معناه: إناثًا. وإنما قال: «مِنْ أَنْفُسِكُمْ» لأنه خَلَقَ حوَّاء من ضِلَع آدم[٣]. وقال مجاهد: نَسْلًا بعد نَسْل[٤]. ﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا﴾ يعني الثمانية التي ذكرها في «الأنعام»[٥] ذكور الإبل والبقر والضأن والمَعْز وإناثها.

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٦١-٤٦٢ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧٣ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٢١ .

(٤) تفسير مجاهد ٢/ ٥٧٣ ، وأخرجه الطبري ٢٠/ ٤٧٥ لكن في تفسير قوله تعالى: ﴿يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ﴾ التالي.

(٥) ٩/ ١٧٦ .

﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِۚ﴾ أي: يخلقكم ويُنشئكم «فِيهِ» أي: في الرحم. وقيل: في البطن. وقال الفرّاء[١] وابن كيسان: «فيه» بمعنى به. وكذلك قال الزجاج[٢]: معنى «يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ» يُكثركم به؛ أي: يُكثركم بجعلكم[٣] أزواجًا، أي: حلائلَ؛ لأنهن سبب النسل. وقيل: إن الهاء في «فِيهِ» للجعل، ودلّ عليه «جَعَلَ»؛ فكأنه قال: يخلقكم ويكثركم في الجعل. ابن قُتيبة[٤]: «يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ» أي: في الزوج؛ أي: يخلقكم في بطون الإناث. وقال: ويكون «فِيهِ» في الرحم، وفيه بُعْدٌ؛ لأن الرحم مؤنثة ولم يتقدَّم لها ذِكْر.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ قيل: إن الكاف زائدةٌ للتوكيد؛ أي: ليس مثله شيء[٥]. قال:

وصـاليـاتٍ كَكُـمـا يُـؤَثْـفَـيْـن[٦]

فأدخل على الكاف كافاً تأكيداً للتشبيه. وقيل: المثل زائدة للتوكيد؛ وهو قول ثعلب[٧]: ليس كهو شيء؛ نحو قوله تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾[٨] [البقرة: ١٣٧]. وفي حرف ابن مسعود «فَإِنْ آمَنُوا بِمَا آمَنْتُمْ به فقد اهتَدَوْا»[٩] قال أَوْسُ بن حَجَر:

وقَـتْـلَـى كـمـثـل جـذوع الـنـخـيـ ـل يَـغْـشـاهـم مَـطَـرٌ مُـنـهـمِـرْ[١٠]

(١) في معاني القرآن ٣/ ٢٢ .
(٢) في معاني القرآن ٤/ ٣٩٥ .
(٣) في (م): يجعلكم. وعبارة الزجاج: أي: يُكثركم بجعله منكم ومن الأنعام أزواجاً.
(٤) غريب القرآن ص ٣٩١ .
(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧٤ .
(٦) نسبه سيبويه في كتابه ١/ ٣٢ ، والبغدادي في خزانته ٢/ ٣١٣ لخطام المجاشعي. والصَّاليات: الأثافيّ، وهي الأحجار التي يُنصب عليها القدر. قاله البغدادي.
(٧) النكت والعيون ٥/ ١٩٥ .
(٨) قال السمين الحلبي في الدر المصون ٩/ ٥٤٥ : وهذا ليس بجيد؛ لأن زيادة الأسماء ليست بجائزة، وأيضاً يصير التقدير: ليس كهو شيء، ودخول الكاف على الضمائر لا يجوز إلا في شعر.
(٩) المحتسب ١/ ١١٣ .
(١٠) ديوان أوس بن حجر ص ٣٠ ، وفيه: تغشَّاهم، بدل: يغشاهم. ومُسبل، بدل: مطر، وكلاهما بمعنى واحد.

أي: كجذوع. والذي يُعتقد في هذا الباب أن الله جلّ اسمه في عَظَمته وكبريائه ومَلَكوته وحُسنى أسمائه وعَلِيّ صفاته لا يُشبه شيئاً من مخلوقاته ولا يُشبَّه به، وإنما جاء مما أطلقه الشرعُ على الخالق والمخلوق، فلا تشابُهَ بينهما في المعنى الحقيقي؛ إذ صفاتُ القديم جلّ وعزّ بخلاف صفاتِ المخلوق؛ إذ صفاتهم لا تنفكُّ عن الأغراض والأعراض، وهو تعالى منزَّهٌ عن ذلك؛ بل لم يزلْ بأسمائه وبصفاته على ما بيَّناه في «الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحُسنى»، وكفى في هذا قولُه الحقّ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

وقد قال بعضُ العلماء المحقِّقين: التوحيد إثباتُ ذاتٍ غيرِ مُشبهة للذوات ولا معطَّلة من الصِّفات. وزاد الواسطيّ رحمه الله تعالى بياناً فقال: ليس كذاته ذات، ولا كاسمه اسم، ولا كفعله فعل، ولا كصفته صفة إلا من جهة موافقة اللَّفظ؛ وجلَّت الذات القديمة أن يكون لها صفةٌ حديثة؛ كما استحال أن يكون للذات المُحدثة صفةٌ قديمة. وهذا كلُّه مذهبُ أهل الحقّ والسنة والجماعة ﷺ.

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تقدَّم في «الزُّمَر» بيانه[١]. النحاس[٢]: والذي يملك المفاتيحَ يملك الخزائن؛ يقال للمفتاح: إقليد، وجمعه على غير قياس؛ كمحاسن والواحد حُسن.

﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ تقدَّم أيضًا في غير موضع[٣].

---

(١) ١٨/ ٣٠٤ .

(٢) معاني القرآن ٦/ ٢٩٨ .

(٣) ١٢/ ٦٤ و١٦/ ٣٨٦ .

قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ﴾ أي: الذي له مقاليدُ السماوات والأرض شرعَ لكم من الدين ما شرعَ لقوم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، ثم بيَّن ذلك بقوله تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ وهو توحيدُ الله وطاعته، والإيمان برسله وكُتبه وبيوم الجزاء، وبسائرِ ما يكون الرجل بإقامته مسلماً. ولم يُرِد الشرائعَ التي هي مصالح الأُمم على حَسَب[1] أحوالها، فإنها مختلفةٌ متفاوتةٌ؛ قال الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨] وقد تقدم القولُ فيه.

ومعنى «شَرَعَ» أي: نهج وأوضح وبيَّن المسالك. وقد شَرَعَ لهم يَشْرَع شَرْعًا، أي: سنَّ. والشارع: الطريق الأعظم. وقد شَرَع المنزِلُ إذا كان على طريق نافذ. وَشَرَعْتُ الإبلَ إذا أمكنتها من الشريعة. وشرعتُ الأديمَ إذا سلختَه. وقال يعقوب[2]: إذا شَقَقْتَ ما بين الرِّجلين، قال: وسمعته من أم الحُمَارِس البَكْرِيّة. وشرعتُ في هذا الأمر شُروعاً، أي: خضت.

﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ «أنْ» في محل رفع، على تقدير: والذي وصَّى به نوحًا أن أقيموا الدِّين، ويُوقف على هذا الوجه على «عيسى». وقيل: هو نصب، أي: شرعَ لكم إقامةَ الدين. وقيل: هو جرّ بدلاً من الهاء في «به»؛ كأنه قال: به أقيموا الدين. ولا يوقف

---

(١) في (م): حسن.

(٢) في إصلاح المنطق ص ٤٩ ، ونقله المصنف عنه بواسطة الجوهري في الصحاح (شرع)، وما قبله منه.

على «عيسى» على هذين الوجهين. ويجوز أن تكون «أن» مفسِّرة؛ مثل: أن امشوا، فلا يكون لها محلٌ من الإعراب[١].

الثانية: قال القاضي أبو بكر بن العربيّ[٢]: ثبت في الحديث الصحيح أن النبيَّ ﷺ قال في حديث الشفاعة الكبير المشهور: «ولكن ائتوا نوحًا فإنه أوّلُ رسول بعثه اللهُ إلى أهل الأرض، فيأتون نوحًا فيقولون له: أنت أوّلُ رسول بعثه اللهُ إلى أهل الأرض»[٣] وهذا صحيحٌ لا إشكالَ فيه، كما أن آدمَ أوّلُ نبيٍّ[٤] بغير إشكال؛ إلا أن[٥] آدم لم يكن معه إلا بَنوه[٦]، ولم تُفرَض له الفرائض ولا شُرعت له المحارم، وإنما كان تنبيهاً على بعض الأمور واقتصاراً على ضرورات المعاش، وأخذًا بوظائف الحياة والبقاء؛ واستقرَّ المَدَى إلى نوح فبعثه الله بتحريم الأُمَّهات والبنات والأخوات، ووظَّف عليه الواجبات وأوضحَ له الآدابَ في الديانات، ولم يزل ذلك يتأكَّد بالرُّسل ويتناصر بالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم واحداً بعد واحد وشريعةً إثر شريعة، حتى ختمها الله بخير المِلل مِلَّتِنا، على لسان أكرم الرُّسل نبينا محمد ﷺ؛ فكان المعنى: أوصيناك يا محمد ونوحًا ديناً واحداً؛ يعني في الأصول التي لا تختلف فيه الشريعة، وهي التوحيد والصلاة والزكاة والصيام والحج، والتقرّب إلى الله بصالح الأعمال، والزّلَف إليه بما يردُّ القلب والجارحة إليه، والصدق والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة وصِلة الرحم، وتحريم الكفر والقتل والزنى والأذيَّة[٧] للخلق

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢٩ بنحوه، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧٤.

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٥٤ ـ ١٦٥٥.

(٣) أخرجه أحمد (٩٦٢٣)، والبخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤) مطولاً من حديث أبي هريرة ﷺ، وفي الباب عن عدد من الصحابة رضوان الله عليهم تنظر في مسند أحمد. وقد سلف قطعة من الحديث ٣/ ٤٠٦.

(٤) في (د) و(ز) و(ي): أول رسول نبي، والمثبت من (ظ)، وهو موافق لأحكام القرآن لابن العربي.

(٥) في (م) وأحكام القرآن: لأن، والمثبت من النسخ الخطية.

(٦) في (م): نبوّة.

(٧) في النسخ الخطية: الاذاية،والمثبت من (م).

كيفما تصرفت، والاعتداء على الحيوان كيفا دار، واقتحام الدناءات وما يعود بخرم المروءات؛ فهذا كلُّه مشروعٌ دِينًا واحدًا ومِلَّةً متَّحدة، لم تختلف على ألسنة الأنبياء وإن اختلفت أعدادُهم؛ وذلك قوله تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ أي: اجعلوه قائمًا؛ يريد دائماً مستمراً محفوظًا مستقرًّا من غير خلاف فيه ولا اضطراب؛ فمن الخَلْق مَن وفّى بذلك ومنهم من نكث؛ ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [الفتح: ١٠]. واختلفت الشرائعُ وراءَ هذا في معانٍ حَسبَما أراده اللهُ مما اقتضت المصلحةُ وأوجبت الحِكمةَ وَضْعَه في الأزمنة على الأُمم. والله أعلم.

قال مجاهد: لم يبعث اللهُ نبيًّا قطُّ إلا وصَّاه بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإقرار لله بالطاعة، فذلك دِينُه الذي شَرع لهم[(١)]؛ وقاله الوالِبيّ عن ابن عباس، وهو قول الكلبيّ.

وقال قتادة: يعني تحليل الحلال وتحريم الحرام. وقال الحكم: تحريم الأمهات والأخوات والبنات[(٢)]. وما ذكره القاضي يجمع هذه الأقوالَ ويزيد عليها. وخصَّ نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى بالذِّكر لأنهم أربابُ الشرائع.

قوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: عَظُم عليهم ﴿مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ من التوحيد ورفض الأوثان. قال قتادة: كَبُرَ على المشركين فاشتدَّ عليهم شهادة أن لا إله إلا الله، وضاق بها إبليسُ وجنوده، فأبى الله عزّ وجلّ إلا أن ينصرها ويُعليها ويُظهرها على من ناوأها[(٣)]. ثم قال: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾ أي: يختار. والاجتباء الاختيار؛ أي: يختار للتوحيد من يشاء. ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ أي: يستخلص لدينه مَن رَجَع إليه.

﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟﴾ قال ابن عباس: يعني قريشًا ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٢٢ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ١٩٦ ـ ١٩٧ .

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢٩ بنحوه.

محمدٌ ﷺ(١)؛ وكانوا يتمنَّون أن يُبعَثَ إليهم نبيّ؛ دليله قوله تعالى في سورة فاطر: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ [الآية: ٤٢] يريد نبيًّا. وقال في سورة البقرة: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِۦ﴾ [الآية: ٨٩] على ما تقدَّم بيانُه هناك.

وقيل: أُمَم الأنبياء المُتقدِّمين؛ فإنهم فيما بينهم اختلفوا لما طال بهم المَدى، فآمن قومٌ وكفر قومٌ. وقال ابن عباس أيضًا: يعني أهلَ الكتاب؛ دليلُه في سورة المُنفكِّين: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَبَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾(٢) [الآية: ٤]. فالمشركون قالوا: لِمَ خُصّ بالنبوَّة؟! واليهود حسدوه لمَّا بُعث؛ وكذا النصارى.

﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ أي: بغيًا من بعضهم على بعض طلبًا للرِّياسة، فليس تفرُّقُهم لِقصور في البيان والحُجج، ولكن للبغي والظلم والاشتغال بالدنيا.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ في تأخير العقاب عن هؤلاء. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قيل: القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ [القمر: ٤٦]. وقيل: إلى الأجل الذي قضى فيه بعذابهم. ﴿لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين مَن آمن وبين مَن كَفَرَ بنزول العذاب.

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَبَ﴾ يريد اليهود والنصارى. ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: من بعد المختلفين في الحق ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ من الذي أوصى به الأنبياء. والكتابُ هنا التوراة والإنجيل. وقيل: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَبَ﴾ قريش.

«مِنْ بَعْدِهِمْ» من بعد اليهود النصارى. «لَفِي شَكٍّ» من القرآن أو من محمد. وقال مجاهد: معنى «مِنْ بَعْدِهِمْ» من قَبْلهم؛ يعني: من قَبْلِ مُشركي مكة، وهم اليهود والنصارى(٣).

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ١٩٣ دون ذكر ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٢٢ .

(٣) المصدر السابق، ونسب قول مجاهد لقتادة.

قوله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ﴾ لما جاز أن يكون الشكُّ لليهود والنصارى، أو لقريش قيل له: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ﴾ أي: فتبينت شكَّهم فادعُ إلى الله؛ أي: إلى ذلك الدين الذي شرعه اللهُ للأنبياء ووصَّاهم به. فاللام بمعنى إلى؛ كقوله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥] أي: إليها. و«ذلك» بمعنى هذا. وقد تقدَّم أولَ «البقرة»[(١)]. والمعنى: فإلى هذا[(٢)] القرآن فادعُ. وقيل: في الكلام تقديم وتأخير؛ والمعنى: كبر على المشركين ما تدعوهم إليه فلذلك فادع[(٣)]. وقيل: إن اللام على بابها؛ والمعنى: فمن أجل ذلك الذي تقدم ذكره فادع واستقم[(٤)]. قال ابن عباس: أي: إلى القرآن فادعُ الخَلْقَ.

﴿وَٱسْتَقِمْ﴾ خطابٌ له عليه الصلاة والسلام. قال قتادة: أي: استَقِمْ على أمر الله. وقال سفيان: أي: استَقِمْ على القرآن. وقال الضحاك: استَقِمْ على تبليغ الرسالة[(٥)].

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي: لا تنظر إلى خلاف مَن خالفك. ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ أي: أنْ أَعدِلَ؛ كقوله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٦]. وقيل: هي لام كي، أي: أَعدِلَ[(٦)]؛ قال ابن عباس وأبو العالية: لأُسوِّيَ بينكم في الدِّين، فأُؤمن بكلِّ كتاب وبكلِّ رسول. وقال غيرُهما:

---

(١) ١/ ٢٤٢.

(٢) في النسخ: فلهذا، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧٥ ـ ٧٦ والكلام فيه بنحوه.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٣٠٢.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٦/ ٧٦.

(٥) النكت والعيون ٥/ ١٩٩.

(٦) زاد المسير ٧/ ٢٧٩.

لِأَعدِلَ في جميع الأحوال. وقيل: هذا العدل هو العدل في الأحكام. وقيل: في التبليغ(١).

﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: الخِطاب لليهود؛ أي: لنا ديننا ولكم دينُكم. قال: ثم نُسخت بقوله: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ الآية [التوبة:١٢٩] قال مجاهد: ومعنى ﴿لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ﴾ لا خصومةَ بيننا وبينكم. وقيل: ليس بمنسوخ، لأن البراهينَ قد ظهرت، والحُجَجَ قد قامت، فلم يبقَ إلا العِناد، وبعد العناد لا حُجَّةَ ولا جدال.

قال النحاس(٢): ويجوز أن يكون معنى ﴿لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ﴾ على ذلك القول: لم يؤمر أن يحتجَّ عليكم ويُقاتلكم(٣)؛ ثم نسخ هذا. كما أن قائلاً لو قال من قبل أن تُحوَّلَ القبلة: لا تُصَلِّ إلى الكعبة، ثم حوّل الناس بعد؛ لجاز أن يقال: نسخ ذلك.

﴿ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ﴾ يريد يومَ القيامة. ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي: فهو يحكم بيننا إذا صِرْنا إليه، ويُجازي كُلًّا بما كان عليه.

وقيل: إنَّ هذه الآيةَ نَزلت في الوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة، وقد سألا رسولَ الله ﷺ أن يرجع عن دعوته ودينه إلى دين قريش، على أن يُعطيَه الوليدُ نصفَ ماله ويُزوِّجه شيبةُ بابنته(٤).

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ١٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ﴾ رَجع إلى المشركين ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ

---

(١) النكت والعيون ٥/١٩٩ .

(٢) في الناسخ والمنسوخ ٢/٦١٤ ، وما قبله منه.

(٣) عبارة (ظ): لن نؤمن أن نحتجَّ عليكم ونقاتلكم.

(٤) النكت والعيون ٥/١٩٩ .

لَهُۥ﴾ قال مجاهد: من بعد ما أسلم الناس. قال: وهؤلاء قد توهَّموا أن الجاهلية تعود[١]. وقال قتادة: الذين يُحاجُّون في الله اليهودُ والنصارى، ومُحَاجَّتهم قولُهم: نبيُّنا قبل نبيِّكم، وكتابُنا قبل كتابكم؛ وكانوا يرون لأنفسهم الفضيلةَ بأنهم أهلُ كتاب وأنهم أولادُ الأنبياء[٢]. وكان المشركون يقولون: ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣] فقال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: لا ثَباتَ لها، كالشيء الذي يَزِلُّ عن موضعه.

والهاء في «لَهُ» يجوز أن يكون لِله عز وجل؛ أي: من بعد ما وحَّدوا الله وشَهِدُوا له بالوحدانية. ويجوز أن يكون للنبيِّ ﷺ؛ أي: من بعد ما استُجيب لمحمد[٣] ﷺ في دعوته على[٤] أهل بدر ونَصْر الله المؤمنين.

يقال: دَحَضت حُجَّته دُحوضًا بطلت. وأَدْحضها اللهُ. والإدحاض: الإزلاق. ومكان دَحْضٌ وَدَحَضٌ أيضًا ـ بالتحريك ـ أي: زَلِق. ودَحَضت رجلُه تَدْحَض دَحْضًا زَلِقت. ودَحَضت الشمس عن كبد السماء زالت[٥].

﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ يريد في الدنيا. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ يريد في الآخرة عذاب دائم.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني القرآنَ وسائرَ الكتب المُنزلة.

---

(١) زاد المسير ٧/ ٢٧٩.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٠٠، وتفسير البغوي ٤/ ١٢٣.

(٣) في (م): محمد.

(٤) في النسخ: من، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧٦ - ٧٧، والكلام فيه بنحوه.

(٥) الصحاح (دحض).

﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: بالصدق. ﴿وَٱلۡمِيزَانَ﴾ أي: العَدْل؛ قاله ابن عباس وأكثر المفسرين. والعدل يُسمَّى ميزانًا؛ لأن الميزانَ آلةُ الإنصاف والعدل[1]. وقيل: الميزان ما بُيِّن في الكُتب مما يجب على الإنسان أن يعملَ به.

وقال قتادة: الميزان العَدْل فيما أمر به ونهى عنه. وهذه الأقوالُ متقاربةُ المعنى. وقيل: هو الجزاءُ على الطاعة بالثواب وعلى المعصية بالعقاب. وقيل: إنه الميزانُ نفسُه الذي يُوزَن به؛ أنزله من السماء وعلَّم العبادَ الوزنَ به؛ لئلا يكون بينهم تَظالمٌ وتباخُس[2]؛ قال الله تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ [الحديد: ٢٥].

قال مجاهد: هو الذي يُوزَن به. ومعنى إنزال[3] الميزان هو إلهامُه للخلق أن يعملوه ويعملوا [به][4]. وقيل: الميزان محمد ﷺ، يقضي بينكم بكتاب الله[5].

﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ﴾ فلم يُخبره بها. يحضُّه على العمل بالكتاب والعَدْل والسَّويَّة، والعمل بالشرائع قبل أن يُفاجئ اليوم الذي يكون فيه المُحاسبة ووزن الأعمال، فَيُوفَّى لمن أوفى ويُطفَّف لمن طفَّف.

فـ «لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ» أي: منك وأنت لا تدري. وقال: «قَرِيبٌ» ولم يقل: قريبة؛ لأن تأنيثَها غيرُ حقيقي؛ لأنها كالوقت؛ قاله الزجاج[6]. والمعنى: لعلَّ البعثَ، أو لعلَّ مجيء الساعة قريب. وقال الكسائي: «قَرِيبٌ» نعت يُنعت به المُذكَّر والمُؤنَّث والجمع بمعنًى ولفظٍ واحد؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٢٣، وزاد المسير ٧/ ٢٨٠.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٠٠.

(٣) في (د) و(م): أنزل، والمثبت من (ظ).

(٤) زاد المسير ٧/ ٢٨٠، وما بين حاصرتين منه.

(٥) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ٢٥/ ٤٦ عن علقمة.

(٦) في معاني القرآن ٤/ ٣٩٧، وينظر الكلام في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧٧.

﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] قال الشاعر:

وكنا قريباً والديار بعيدةٌ … فلما وصلنا نُصْب أعينهم غِبنا(١)

قوله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ﴾ يعني على طريق الاستهزاء، ظنًّا منهم أنها غيرُ آتية، أو إيهاماً للضَّعَفة أنها لا تكون. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ أي: خائفون وَجِلون لاستقصارهم أنفسَهم مع الجهد في الطاعة؛ كما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ﴾ أي: التي لا شكَّ فيها. ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: يشكُّون ويُخاصمون في قيام الساعة. ﴿لَفِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: عن الحق وطريق الاعتبار؛ إذ لو تذكَّروا لعلموا أن الذي أنشأهم من تراب ثم من نطفة إلى أن بلغوا ما بلغوا قادرٌ على أن يبعثهم.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ قال ابن عباس: حَفِيٌّ بهم. وقال عكرمة: بارٌّ بهم. وقال السُّديّ: رفيقٌ بهم. وقال مقاتل: لطيفٌ بالبَرِّ والفاجر؛ حيث لم يقتلهم جوعاً بمعاصيهم(٢). وقال القُرظِيّ: لطيفٌ بهم في العرض والمُحاسبة. قال:

غدًا عند مَوْلَى الخَلْق للخلق موقفٌ … يُسائلهم فيه الجليل ويَلْطُفُ(٣)

وقال جعفر بن محمد بن عليّ بن الحسين: يَلطُفُ بهم في الرزق من وجهين: أحدهما: أنه جعل رزقَك من الطَّيِّبات. والثاني: أنه لم يَدْفَعْه إليك مرةً واحدة

(١) ذكره القزويني في تاريخ قزوين ٣/ ٢٦٧ ونسبه لأبي طاهر عبد العزيز الاسترابادي.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٢٣.

(٣) لم نقف عليه.

فتبذِّرَه[١].

وقال الحسين بن الفضل: لطيفٌ بهم في القرآن وتفصيله وتفسيره.

وقال الجنيد: لطيف بأوليائه حتى عَرَفوه، ولو لَطَفَ بأعدائه لما جَحَدوه[٢]. وقال محمد بن عليّ الكتّاني[٣]: اللطيف بمن لجأ إليه من عباده إذا يئس من الخلق وتوكَّل عليه، ورَجَع إليه، فحينئذ يقبلُه ويُقبِلُ عليه. وجاء في حديث النبيّ ﷺ: «إنَّ الله تعالى يطَّلعُ على القبور الدوارس فيقول جلّ وعز: إمَّحتْ آثارُهم، واضمحلَّتْ صُوَرُهم، وبقي عليهم العذابُ، وأنا اللطيفُ وأنا أرحمُ الراحمين، خفِّفوا عنهم العذابَ، فيُخفَّف عنهم العذاب»[٤]. قال أبو عليّ الثقفِيّ ﷺ:

أمــرُّ بــأفــنــاءِ الــقــبــور كــأنــنــي أخــو فِطْــنــة والــثــوبُ فــيــه نــحــيــفُ
ومَــنْ شَــقَّ فــاه الــلــهُ قــدَّر رِزْقَــه وربِّــي بــمــن يــلــجــأ إلــيــه لــطــيــفُ[٥]

وقيل: اللطيفُ الذي ينشر من عباده المناقبَ ويستر عليهم المثالب؛ وعلى هذا قال النبيُّ ﷺ: «يا مَنْ أظهرَ الجميلَ وسَتَرَ القبيح»[٦]. وقيل: هو الذي يقبل القليلَ ويبذل الجَزيل. وقيل: هو الذي يجبر الكَسير ويُيسِّر العسير. وقيل: هو الذي لا يُخاف إلا عَدْلُه ولا يُرجَى إلا فَضْلُه[٧]. وقيل: هو الذي يبذُل لعبده النعمة فوق الهمَّة، ويُكلِّفه الطاعة فوق الطاقة؛ قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]، وقال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٢٣ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٣٢ .

(٣) لعله أبو بكر محمد بن علي بن جعفر البغدادي، شيخ الصوفية. توفي سنة (٣٢٢هـ). السير ١٤/ ٥٣٣ .

(٤) لم نقف عليه.

(٥) لم نقف عليهما، وأبو علي الثقفي: هو محمد بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن، النيسابوري، الشافعي، من ولد الحجاج، المحدث، شيخ خراسان. توفي سنة (٣٢٨هـ). السير ١٥/ ٢٨٠ .

(٦) قطعة من حديث أخرجه الحاكم في المستدرك ١/ ٥٤٥ .

(٧) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٢ .

فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ [النساء: ٢٨]. وقيل: هو الذي يُعين على الخدمة ويُكثر المِدْحة. وقيل: هو الذي لا يُعاجل مَن عصاه، ولا يُخيِّب مَن رجاه. وقيل: هو الذي لا يردُّ سائِلَه ولا يُؤيِّس آمِلَه. وقيل: هو الذي يعفو عمن يهفو. وقيل: هو الذي يرحم مَن لا يرحم نَفْسَه. وقيل: هو الذي أوقد في أسرار العارفين من المُشاهدة سِراجًا، وجعل الصراط المستقيمَ لهم مِنْهاجًا، وأجزل لهم من سحائب بِرِّه ماء ثَجَّاجًا. وقد مضى في «الأنعام» قولُ أبي العالية والجُنَيد أيضًا[١]. وقد ذكرنا جميع هذا في «الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» عند اسمه اللطيف[٢]، والحمد لله.

﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ ويَحْرِم من يشاء. وفي تفضيل قوم بالمال حِكمةٌ؛ لِيحتاج البعض إلى البعض؛ كما قال: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢]، فكان هذا لُطْفًا بالعباد. وأيضًا ليمتحن الغنيّ بالفقير والفقير بالغنيّ؛ كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ [الفرقان: ٢٠] على ما تقدَّم بيانُه. ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ الحَرْثُ العمل والكسب. ومنه قول عبد الله بن عمرو[٣]: واحْرُثْ لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمَلْ لآخرتك كأنك تموتُ غدًا[٤]. ومنه سُمِّي الرجل حارثًا[٥]. والمعنى: أي: مَن طلبَ بما رزقناه حَرْثًا لآخرته، فأدَّى حقوقَ الله، وأنفق في إعزاز الدِّين؛ فإنما نُعطيه ثوابَ

---

(١) ٨/ ٤٨٥ - ٤٨٦.

(٢) وهو ليس في المطبوع منه.

(٣) في (د) و(ز) و(م): عمر، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق للمصادر.

(٤) سلف ٣/ ٣٨٦.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٣٠٥ - ٣٠٦.

ذلك للواحد عشراً إلى سبع مئة فأكثر.

﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: طَلَبَ بالمال الذي آتاه اللهُ رِياسةَ الدنيا والتوصُّلَ إلى المحظورات، فإنا لا نَحرِمه الرِّزق أصلاً، ولكن لا حظَّ له في الآخرة من ماله؛ قال الله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨-١٩].

وقيل: «نَزِدْ له في حَرْثِه» نوفِّقه للعبادة ونُسهِّلها عليه. وقيل: حرث الآخرة الطاعة؛ أي: مَن أطاع فله الثواب. وقيل: «نَزِد لَهُ في حَرْثِهِ» أي: نُعطه الدنيا مع الآخرة. وقيل: الآية في الغَزْو؛ أي: من أراد بِغَزْوِه الآخرةَ أُوتي الثواب، ومن أراد بغزوه الغنيمةَ أُوتي منها[1].

قال القُشيريّ: والظاهر أن الآيةَ في الكافر؛ يُوسَّع له في الدنيا؛ أي: لا ينبغي له أن يَغْتَرَّ بذلك؛ لأن الدنيا لا تبقى.

وقال قتادة: إن الله يُعطي على نية الآخرة ما شاء من أمر الدنيا، ولا يعطي على نية الدنيا إلا الدنيا[2]. وقال أيضاً: يقول الله تعالى: مَن عَمِلَ لآخرته زِدْناه في عمله، وأعطيناه من الدنيا ما كَتبنا له، ومن آثرَ دنياه على آخرته لم نَجْعَلْ له نصيبًا في الآخرة إلا النارَ، ولم يُصِبْ من الدنيا إلا رزقًا قد قسمناه له لا بُدَّ أن كان يُؤتاه مع إيثار أو غير إيثار. قلت: قول قتادة حسن[3].

وروى جُوَيبِرُ عن الضحاك عن ابن عباس قال: وقوله عز وجل: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾: مَن كان من الأبرار يُريد بعمله الصالح ثوابَ الآخرة «نَزِدْ له في حَرْثِهِ» أي: في حسناته. ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: من كان من الفُجّار يُريد

(١) مجمع البيان ٢٥/ ٤٧ بنحوه.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٠١.

(٣) قوله: قلت: قول قتادة حسن، من (ظ).

بعمله الحَسَن الدنيا «نُؤْتِه منها»، ثم نُسخ ذلك في «سبحان»: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾[1] [الآية:١٨]. والصواب أن هذا ليس بنسخ؛ لأن هذا خبر، والأشياء كلُّها بإرادة الله عز وجل. ألا ترى أنه قد صحَّ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «لا يَقُلْ أحدُكم: اللهم اغفِرْ لي، إن شئتَ، اللهم ارحمني إنْ شئتَ»[2]. وقد قال قتادة ما تقدَّم ذِكْره، وهو يُبيِّن لك أن لا نسخ. وقد ذكرنا في «هود» أن هذا من باب المطلق والمقيَّد، وأن النسخَ لا يدخل في الأخبار[3]. والله المستعان.

مسألة: هذه الآيةُ تُبطِلُ مذهبَ أبي حنيفة في قوله: إنه من توضَّأ تَبرُّدًا أنه يَجزيه عن فريضة الوضوء الموظَّف عليه؛ فإن فريضةَ الوضوء من حرث الآخرة والتبرُّد من حرث الدنيا، فلا يدخل أحدُهما على الآخر، ولا تَجزي نِيَّته عنه بظاهر هذه الآية؛ قاله ابن العربي[4].

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟﴾ أي: ألهم؟ والميم صِلة، والهمزة للتقريع. وهذا مُتَّصلٌ بقوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾، وقولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ﴾ كانوا لا يؤمنون به، فهل لهم آلهة شَرَعوا لهم الشِّرك الذي لم يأذن به الله؟ وإذا استحال هذا فالله لم يشرع الشِّرك، فمن أين يدينون به؟!

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ﴾ يوم القيامة حيث قال: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ [القمر:٤٦]. ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ في الدنيا، فعاجلَ الظالم بالعقوبة وأثابَ الطائع. ﴿وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي: المشركين. ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدنيا: القتلُ والأَسْر والقهر، وفي

---

(١) أخرجه النحاس في الناسخ والمنسوخ (٧٨١)، وما بعده منه.

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٣٩)، ومسلم (٢٦٧٩) من حديث أبي هريرة ﷺ، وسلف ٣/ ١٨٤ .

(٣) ١١/ ٨٥ - ٨٦ .

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٥٥ .

الآخرة عذابُ الدنيا.

وقرأ ابن هُرْمُز: «وأنّ» بفتح الهمزة[١]، على العطف على «ولولا كلمةٌ»، والفَصْلُ بين المعطوف والمعطوف عليه بجواب «لولا» جائزٌ. ويجوز أن يكون موضع «أنّ» رفعاً على تقدير: وجب أنَّ الظالمين لهم عذابٌ أليم؛ فيكون منقطعاً مما قبلَه كقراءة الكسر؛ فاعْلَمه.

قوله تعالى: ﴿تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾ أي: خائفين ﴿مِمَّا كَسَبُوا۟﴾ أي: من جزاء ما كسبوا. والظالمون هاهنا الكافرون؛ بدليل التقسيم بين المؤمن والكافر. ﴿وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ أي: نازلٌ بهم. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ﴾ الروضة: الموضع النَّزِه الكثير الخُضرة. وقد مضى في «الروم»[٢]. ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: من النعيم والثواب الجَزيل. ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ أي: لا يُوصَفُ ولا تهتدي العقولُ إلى كُنْهِ صِفته؛ لأن الحقَّ إذا قال: كبير، فمن ذا الذي يقدر قَدْره؟.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ قُرئ: «يُبشِّر» مِن بَشَّره[٣]،

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٣٤، والمحتسب ٢/ ٢٥٠.

(٢) ١٤/ ١١ - ١٢.

(٣) قرأ بها نافع وعاصم وابن عامر. السبعة ص ٢٠٥ - ٢٠٦، والتيسير ص ١٩٥.

وَ«يُبْشِر» من أبشره[١]، وَ«يَبْشُر» مِن بَشَره[٢]، وفيه حذف؛ أي: يُبَشِّر اللهُ به عبادَه المؤمنين لِيتعجَّلوا السرور ويزدادوا منه وَجْدًا في الطاعة.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾ أي: قُلْ يا محمد: لا أسألكم على تبليغ الرسالة جُعْلاً. ﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ قال الزجاج[٣]: «إِلَّا الْمَوَدَّةَ» استثناء ليس من الأول؛ أي: إلا أن تَوَدُّوني لقرابتي فتحفظوني. والخِطاب لقريش خاصَّةً؛ قاله ابن عباس وعكرمة ومجاهد وأبو مالك والشعبيّ وغيرهم[٤]. قال الشعبيّ: أَكْثَر الناسُ علينا في هذه الآية فكتبنا إلى ابن عباس نسأله عنها؛ فكتب أن رسولَ الله ﷺ كان أوسطَ الناس في قريش، فليس بَطْنٌ من بطونهم إلا وقد وَلَده؛ فقال الله له: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ إلا أن تَوَدُّوني في قرابتي منكم؛ أي: تُراعوا ما بيني وبينكم فتصدِّقوني[٥]. فـ «الْقُرْبَى» هاهنا قرابة الرَّحِم؛ كأنه قال: اتَّبعوني للقرابة إن لم تتَّبعوني للنبوَّة.

قال عكرمة: وكانت قريش تَصِلُ أرحامَها، فلما بُعث النبيّ ﷺ قَطَعَتْهُ؛ فقال: صِلُوني كما كنتم تفعلون. فالمعنى على هذا: قُلْ: لا أسألكم عليه أجراً، لكن أُذكِّركم قرابتي؛ على أنه[٦] استثناءٌ ليس من الأوّل؛ ذكره النحاس[٧].

وفي البخاريّ[٨]: عن طاوس عن ابن عباس أنه سُئل عن قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ

---

(١) قرأ بها مجاهد وحُميد بن قيس. المحتسب ٢/ ٢٥١ .

(٢) قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي. السبعة ص ٢٠٥ - ٢٠٦ ، والتيسير ص ١٩٥ .

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٣٩٨ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٣٠٨ ، وأخرج أقوالهم الطبري ٢٠/ ٤٩٥ - ٤٩٦ .

(٥) أخرجه سعيد بن منصور كما في فتح الباري ٨/ ٥٦٥ ، وأخرجه بنحوه الطبري ٢٠/ ٤٩٥ .

(٦) قوله: أنه، ليس في (م).

(٧) في معاني القرآن ٦/ ٣٠٨ .

(٨) الحديث (٤٨١٨).

﴿فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ فقال سعيد بن جُبير: قُربى آل محمد؛ فقال ابن عباس: عَجِلت، إن النبيَّ ﷺ لم يكن بطنٌ من قريش إلا كان له فيهم قرابة، فقال: إلا أن تَصِلوا ما بيني وبينكم[١] من القرابة. فهذا قول.

وقيل: القُربى قرابةُ الرسول ﷺ، أي: لا أَسألُكم أجرًا إلا أن تودُّوا قرابتي وأهل بيتي، كما أمر بإعظامهم ذوي القُربى. وهذا قولُ علي بن حسين وعمرو بن شُعيب والسُّدِّي[٢]. وفي رواية سعيد بن جُبير عن ابن عباس: لما أنزل اللهُ عز وجل: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ قالوا: يا رسولَ الله، من هؤلاء الذين نَوَدُّهم؟ قال: «عليٌّ وفاطمةُ وأبناؤهما»[٣]. ويدلُّ عليه أيضًا ما رُوي عن عليٍّ ﷺ قال: شكوتُ إلى النبيِّ ﷺ حَسَدَ الناس لي. فقال: «أما ترضى أن تكونَ رابعَ أربعة أوّل من يدخلُ الجنةَ: أنا وأنت والحسن والحسين وأزواجُنا عن أيماننا وشمائلنا وذُرِّيتنا خلفَ أزواجنا»[٤]. وعن النبي ﷺ: «حُرِّمتِ الجنةُ على من ظلَمَ أهلَ بيتي وآذاني في عِتْرتي، ومن اصطنع صنيعةً إلى أحدٍ من ولد عبد المطلب ولم يُجازه عليها، فأنا أُجازيه عليها غدًا إذا لَقِيني يومَ القيامة»[٥].

وقال الحسن وقتادة: المعنى: إلا أن يتودَّدوا إلى الله عز وجل ويتقرَّبوا إليه بطاعته[٦]. فـ«الْقُرْبَى» على هذا بمعنى القربة. يقال: قُرْبَة وقُرْبى بمعنًى؛ كالزُّلفة والزُّلْفى.

---

(١) في (د) و(ز) و(ف) و(م): إلا أن تصلوا ما بينكم، والمثبت من (ظ)، وهو موافق لصحيح البخاري.

(٢) أخرجه عنهم الطبري ٢٠/ ٤٩٩ - ٥٠٠ .

(٣) أخرجه الطبراني (١٢٢٥٩)، وفي إسناده حسين الأشقر، قال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص ١٤٥ : ضعيف ساقط، وقد عارضه ما هو أولى منه.. وذكر حديث طاوس عن ابن عباس رضي الله عنهما الذي أخرجه البخاري، وقد ذكره المصنف قريباً.

(٤) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٦٧ ، قال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص ١٤٥ : سنده واهٍ.

(٥) نسبه الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص ١٤٥ إلى الثعلبي من حديث علي ﷺ، ثم قال: فيه عبد الله بن أحمد بن عامر الطائي، عن أبيه، وهو كذاب.

(٦) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥٠٠ - ٥٠١ .

وروى قَزَعةُ بن سُويد عن ابن أبي نَجيح عن مجاهد عن ابن عباس عن النبي ﷺ «قل: لا أسألُكم على ما آتيتكم به أجرًا إلا أن تَوادُّوا وتقرَّبوا إليه بالطاعة»[١]. وروى منصور وعوف عن الحسن ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ قال: يتودَّدون إلى الله عز وجل ويتقرَّبون منه بطاعته[٢].

وقال قوم: الآيةُ منسوخةٌ وإنما نزلت بمكة؛ وكان المشركون يُؤذون رسولَ الله ﷺ فنزلت هذه الآية، وأمرهم الله بمودَّة نبيِّه ﷺ وصِلة رَحِمِه، فلما هاجر آوته الأنصارُ ونصروه، وأراد الله أن يُلحقه بإخوانه من الأنبياء حيث قالوا: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩]، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [سبأ: ٤٧] فنسخت بهذه الآية وبقوله: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦]، وقوله: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ [المؤمنون: ٧٢]، وقوله: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ [الطور: ٤٠]؛ قاله الضحاك والحسين بن الفضل[٣]. ورواه جُوَيبر عن الضحاك عن ابن عباس. قال الثَّعْلبيّ: وليس بالقويّ، وكفى قُبْحًا بقول من يقول: إن التقرُّبَ إلى الله بطاعته ومودَّة نبيه ﷺ وأهلِ بيته منسوخٌ؛ وقد قال النبيّ ﷺ: «مَن ماتَ على حُبِّ آل محمد ماتَ شهيداً. ومَن مات على حُبِّ آل محمد جعل الله زُوَّار قبره ملائكةَ الرحمة[٤]، ومن مات على حُبِّ آل محمد مات على السُّنة والجماعة[٥]. ومَن مات على بُغْض آل

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤١٥)، والطبري ٢٠/ ٥٠٠، والنحاس في الناسخ والمنسوخ (٧٨٨)، وقَزَعَةُ بن سُويد ضعيف، كما في تهذيب التهذيب ٣/ ٤٣٩.

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥٠٠.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٢٥. وقال: وهذا قول غير مرضي؛ لأن مودة النبي ﷺ وكفَّ الأذى عنه ومودّة أقاربه، والتقرب إلى الله بالطاعة والعمل الصالح من فرائض الدين.

(٤) في (د) و(ز) و(ف) و(م): الملائكة والرحمة، وفي (ظ): الملائكة، والمثبت من الكشاف ٣/ ٤٦٧ - والكلام منه كما سيذكر المصنف - وسيأتي الحديث مطولاً عند المصنف بهذا اللفظ.

(٥) قوله: ومن مات على حب آل محمد مات على السنة والجماعة، زيادة من (ظ)، وهي قطعة من الحديث. وسيذكره المصنف بتمامه.

محمد جاء يومَ القيامة مكتوباً بين عينيه: آيسٌ اليومَ من رحمة الله. ومَن ماتَ على بُغض آل محمد لم يَرَحْ رائحة الجنة. ومَن مات على بُغض آل بيتي فلا نصيبَ له في شفاعتي»[١].

قلت: وذكر هذا الخبر الزمخشريُّ في «تفسيره» بأطولَ مِن هذا فقال: وقال رسولُ الله ﷺ: «مَن ماتَ على حُبِّ آلِ محمد ماتَ شهيداً، ألاَ ومن مات على حُبِّ آل محمد مات مؤمناً مُستكمِلَ الإيمان، ألَا ومن ماتَ على حُبِّ آل محمد بَشَّره ملكُ الموت بالجنة ثم مُنْكر ونكير، ألا ومَن مَات على حُبِّ آل محمد يُزَفُّ إلى الجنة كما تُزَفُّ العروس إلى بيت زوجها، ألا ومَن مات على حُبِّ آلِ محمد فُتح له في قبره بابان إلى الجنة، ألا ومَن ماتَ على حُبِّ آل محمد جَعَلَ اللهُ قبرَه مزارَ ملائكةِ الرحمة، ألا ومَن ماتَ على حُبِّ آل محمد مات على السُّنة والجماعة، ألا ومَن ماتَ على بُغض آل محمد جاء يومَ القيامة مكتوباً بين عينيه: آيسٌ من رحمة الله، ألَا ومَن ماتَ على بُغض آلِ محمد مات كافراً، ألَا ومَن مَات على بُغض آل محمد لم يَشَمَّ رائحةَ الجنة»[٢].

قال النحاس: ومذهبُ عِكرمة ليست بمنسوخة؛ قال: كانوا يَصِلون أرحامَهم، فلما بُعِثَ النبيُّ ﷺ قطعوه فقال: قل: لا أسألُكم عليه أجراً إلا أن تَوَدُّوني وتحفظوني لِقرابتي، ولا تُكذِّبوني[٣].

قلت: وهذا هو معنى قول ابن عباس في البخارِيُّ والشعبيّ عنه بعينه؛ وعليه لا نسخ.

قال النحاس[٤]: وقول الحسن حسن، ويدلُّ على صحته الحديثُ المُسنَدُ عن

(١) ينظر التعليق التالي.

(٢) الكشاف ٣/ ٤٦٧، ونسبه الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص ١٤٥ إلى الثعلبي وقال: آثار الوضع عليه واضحة.

(٣) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٦١٩، وسلف قول عكرمة أول هذه المسألة.

(٤) في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٦٢٠.

رسول الله ﷺ كما حدَّثنا أحمدُ بن محمد الأزدي قال: أخبرنا الربيعُ بن سليمان المُرادي قال: أخبرنا أسدُ بن موسى قال: حدثنا قَزَعةُ ـ وهو ابن سُويد[١] البصري ـ قال: حدثنا عبد الله بن أبي نَجيح عن مجاهد عن ابن عباس أن رسولَ الله ﷺ قال: «لا أسألُكم على ما أُنبئكم به من البيِّنات والهُدَى أجرًا إلا أن توادُّوا الله عزّ وجلّ وأن تتقرَّبوا إليه بطاعته». فهذا المُبيِّن عن الله عز وجل قد قال هذا، وكذا قالت الأنبياء صلى الله عليهم قبلَه: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [يونس: ٧٢].

الثانية: واختلفوا في سبب نزولها؛ فقال ابن عباس: لما قَدِمَ النبيُّ ﷺ المدينةَ كانت تنوبه نوائبُ وحقوق لا يسعها ما في يديه؛ فقالت الأنصار: إنَّ هذا الرجل هداكم اللهُ به، وهو ابن أُختكم[٢]، وتنوبه نوائبُ وحقوقٌ لا يسعها ما في يديه، فنجمع له؛ ففعلوا، ثم أتَوْه به فنزلت[٣].

وقال الحسن: نزلت حين تفاخرت الأنصارُ والمهاجرون، فقالت الأنصار: نحن فعلنا، وفَخَرت المهاجرون بقرابتهم من رسول الله ﷺ. روى مِقْسَم عن ابن عباس قال: سمع رسولُ الله ﷺ شيئًا، فخطب فقال للأنصار: «ألم تكونوا أَذِلَّاءَ فأعزَّكم الله بي. ألم تكونوا ضُلَّالاً فهداكم الله بي. ألم تكونوا خائفين فأمَّنكم الله بي، ألا تردُّون عليَّ»؟ فقالوا: بِمَ نُجيبكَ؟ قال: «تقولون: ألم يَطْرُدْكَ قومُك فآويناك. ألم يُكَذِّبك قومُك فصدَّقناك» فعدَّد عليهم. قال: فَجَثَوْا على رُكَبهم فقالوا: أَنْفُسنا وأموالنا لك؛ فنزلت: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[٤].

---

(١) في النسخ: يزيد، وهو خطأ، والمثبت من المصادر، وسلف الحديث قريباً، وذكرنا أنه ضعيف.

(٢) في (د) و(ز) و(ف) و(م): أخيكم، والمثبت من (ظ).

(٣) أسباب النزول للواحدي ص ٣٩٣.

(٤) أخرجه بهذا اللفظ الطبراني في الأوسط (٣٨٧٦). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٢ : رواه الطبراني عن شيخه علي بن سعيد، وفيه لين. قلنا: وفيه يزيد بن أبي زياد، قال الحافظ ابن كثير في تفسيره ٧/ ٢٠١ : هو ضعيف. والحديث أخرجه - دون ذكر نزول الآية - أحمد (١٢٠٢١) من حديث أنس ﷺ، وأخرجه البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١) من حديث عبد الله بن زيد ﷺ بنحوه. قال =

وقال قتادة: قال المشركون: لعلّ محمدًا فيما يتعاطاه يطلب أجرًا؛ فنزلت هذه الآية، لِيحُثَّهم على مودَّته ومودَّة أقربائه[(١)]. قال الثعلبي: وهذا أشبهُ بالآية، لأن السورةَ مكيةٌ.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾ أي: يكتسب. وأصلُ القَرْف الكسب، يقال: فلان يَقْرِف لِعياله، أي: يَكسِبُ. والاقتراف الاكتساب[(٢)]، وهو مأخوذٌ من قولهم: رجلٌ قُرَفَة، إذا كان مُحتالاً[(٣)]. وقد مضى في «الأنعام» القول فيه[(٤)].

وقال ابن عباس: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾ قال: المودّة لِآل محمد ﷺ[(٥)]. ﴿نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ أي: نُضاعف له الحسنة بعشرٍ فصاعدًا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ قال قتادة: «غَفُورٌ» للذنوب، «شَكُورٌ» للحسنات. وقال السّدي: «غَفُورٌ» لذنوب آل محمد عليه الصلاة والسلام، «شَكُورٌ» لحسناتهم[(٦)].

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ الميم صلة، والتقدير: أيقولون: افترى. واتَّصل الكلام بما قبلُ؛ لأن الله تعالى لما قال: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ [الشورى: ١٥]، وقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الشورى: ١٧] قال إتماماً للبيان: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ يعني: كفار قريش قالوا: إنّ محمدًا

= الحافظ ابن كثير: وذِكْرُ نزولها في المدينة فيه نَظَرٌ، لأن السورة مكية، وليس يظهر بين هذه الآية الكريمة وبين السياق مناسبة.

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص ٣٩٥ بنحوه.

(٢) الصحاح (قرف).

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٣١٠.

(٤) ٨/ ٥٠٥.

(٥) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ٢٥/ ٥١ عن السدي.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٠٢.

اختلق الكذب على الله.

﴿فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ﴾ شرطٌ وجوابُه. ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ قال قتادة: يطبع على قلبك فينسيك القرآن؛ فأَخبرهم اللهُ أنه لو افترى عليه لَفعل بمحمد ما أخبرهم به في هذه الآية. وقال مجاهد ومقاتل: «إنْ يشأ اللهُ» يربِطْ على قلبك بالصبر على أذاهم حتى لا يدخل قلبَك مشقَّةٌ من قولهم. وقيل: المعنى: إنْ يشأ يُزِلْ تمييزك. وقيل: المعنى: لو حدَّثت نَفْسَك أن تفتريَ على الله كذبًا لَطبع على قلبك؛ قاله ابن عيسى[(١)].

وقيل: فإن يشأ الله يَخْتِمْ على قلوب الكفار وعلى ألسنتهم، ويعاجلهم[(٢)] بالعقاب. فالخِطاب له والمرادُ الكفار؛ ذكره القشيري.

ثم ابتدأ فقال: ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ قال ابن الأنباري[(٣)]: «يَخْتِمْ على قَلْبِكَ» تامٌّ.

وقال الكسائي: فيه تقديمٌ وتأخيرٌ؛ مجازه: واللهُ يمحو الباطل؛ فحذف منه الواو في المصحف، وهو في موضع رفع. كما حُذِفت من قوله: ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨]، ﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ﴾[(٤)] [الإسراء: ١١] ولأنه عطفٌ[(٥)] على قوله: ﴿يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾.

وقال الزجاج: قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ تمام؛ وقوله: ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ احتجاجٌ على مَن أنكر ما أتى به النبيّ ﷺ؛ أي: لو كان ما أتى به باطلًا لَمحاه كما جرت به عادته في المُفترين[(٦)].

---

(١) هذه الأقوال في النكت والعيون ٥/ ٢٠٢ - ٢٠٣، وتفسير البغوي ٤/ ١٢٦.

(٢) في النسخ: وعاجلهم، والمثبت من فتح القدير ٤/ ٥٣٥، وروح المعاني ٢٥/ ٣٥، والقول فيهما.

(٣) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٨١.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٢٦.

(٥) كذا في النسخ، والمفسرون على أنه مرفوع ـ كما ذكر المصنف آنفاً ـ وليس معطوفاً على «يختم». ينظر الكشاف ٣/ ٤٦٨، ومجمع البيان ٢٥/ ٤٨، وروح المعاني ٢٥/ ٣٤.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٨١.

﴿وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ﴾ أي: الإسلام فيُبيِّنه[١] ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ أي: بما أنزله من القرآن. ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ عامٌّ، أي: بما في قلوب العباد. وقيل: خاصٌّ. والمعنى: إنك لو حدَّثت نفسَك أن تفتريَ على الله كذباً لَعلمه وطَبَعَ على قلبك.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ قال ابن عباس: لما نزل قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣] قال قومٌ في نفوسهم: ما يريد إلا أن يَحُثَّنا على أقاربه من بعده؛ فأخبر جبريلُ النبيَّ ﷺ، وأنهم قد اتَّهموه، فأنزل: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ الآية؛ فقال القوم: يا رسولَ الله، فإنا نشهدُ أنك صادقٌ ونتوب. فنزلت: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾. قال ابن عباس: أي: عن أوليائه وأهل طاعته[٢].

والآية عامة. وقد مضى الكلامُ في معنى التّوبة وأحكامِها[٣]؛ ومضى هذا اللفظ في «براءة»[٤].

﴿وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: عن الشِّرك قبلَ الإسلام. ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أي: من الخير والشرّ.

وقرأ حمزة والكسائي وحفص وخلف بالتاء على الخطاب[٥]، وهي قراءة ابن مسعود وأصحابه[٦]. الباقون بالياء على الخبر، واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم؛ لأنه بين

---

(١) في (م): فيثبته.

(٢) ذكر قولي ابن عباس رضي الله عنهما البغوي في تفسيره ٤/ ١٢٦.

(٣) ٦/ ١٤٩ وما بعدها.

(٤) ١٠/ ٣٦٦.

(٥) السبعة ص ٥٨١، والتيسير ص ١٩٥، والنشر ٢/ ٣٦٧.

(٦) ذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٥.

خبرين: الأوّل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ والثاني: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾

«الَّذِينَ» في موضع نصب؛ أي: ويستجيبُ اللهُ الذين آمنوا[١]، أي: يقبل عبادةَ من أخلص له بقلبه وأطاع ببدنه. وقيل: يُعطيهم مسألتَهم إذا دَعَوْه. وقيل: ويُجيب دعاء المؤمنين بعضهم لبعض؛ يقال: أجاب واستجاب بمعنًى، وقد مضى في «البقرة»[٢].

وقال ابن عباس: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يُشَفِّعهم في إخوانهم. ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ قال: يُشفِّعهم في إخوان إخوانهم[٣].

وقال المُبرِّد: معنى ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾: وَلِيستدعِ[٤] الذين آمنوا الإجابة؛ هكذا حقيقةُ معنى استفعل. فـ«الَّذِينَ» في موضع رفع[٥]. ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: في نزولها؛ قيل: إنها نزلت في قوم من أهل الصُّفَّة تمنَّوْا سَعةَ الرزق. وقال خَبَّاب بن الأَرَتّ: فينا نزلت؛ نظرنا إلى أموال بني النَّضير وقُريظة وبني قَيْنُقَاع فتمنَّيناها فنزلت[٦].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٨٢ .

(٢) ٣/ ١٧٧ وما بعدها.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٢٧ .

(٤) في (ظ): ويستدع.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٣١٣ .

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٣٦ .

﴿وَلَوْ بَسَطَ﴾ معناه: وَسَّع. وبسط الشيء نشره. وبالصاد أيضًا. ﴿لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ طغَوْا وعصَوْا. وقال ابن عباس: بَغْيهم طَلَبهم منزلةً بعد منزلة، ودابَّةً بعد دابَّة، ومركباً بعد مركب، ومَلْبساً بعد مَلْبس[١].

وقيل: أراد: لو أعطاهم الكثيرَ لَطلبوا ما هو أكثرُ منه، لقوله: «لو كان لابن آدمَ واديان من ذهب لابتغى إليهما ثالثًا»[٢] وهذا هو البَغْيُ، وهو معنى قول ابن عباس. وقيل: لو جعلناهم سواءً في المال لما انقاد بعضُهم لبعض، ولتعطَّلت الصنائع. وقيل: أراد بالرزق المطر الذي هو سببُ الرزق؛ أي: لو أدام المطرَ لَتشاغلوا به عن الدعاء، فيقبِض تارةً لِيتضرَّعوا وَيَبْسُط أُخرى لِيشكروا. وقيل: كانوا إذا أخصبوا أغار بعضُهم على بعض؛ فلا يبعد حملُ البغي على هذا.

الزَّمخشرِيّ[٣]: «لَبَغَوْا» من البغي وهو الظُّلم؛ أي: لَبغى هذا على ذاك وذاك على هذا؛ لأن الغِنَى مَبْطَرة مَأْشرة، وكفى بقارون عبرة. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «أَخْوَفُ ما أخاف على أمتي زَهْرةُ الدنيا وكَثْرتُها»[٤]. ولبعض العرب:

وقد جعل الوَسْمِيُّ يُنبت بيننا ... وبين بني رُومان نَبْعًا وشَوْحَطا[٥]

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٢٧.

(٢) أخرجه أحمد (٢١١١١) من حديث أُبَيّ ﷺ بهذا اللفظ، وأخرجه البخاري (٦٤٣٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ومسلم (١٠٤٨) من حديث أنس ﷺ وفيهما: «من مال» بدل: «من ذهب»، وفي الباب عن عدد من الصحابة رضوان الله عليهم، تنظر في مسند أحمد.

(٣) الكشاف ٣/ ٤٦٩.

(٤) أخرجه البخاري (٦٤٢٧)، ومسلم (١٠٥٢) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ بنحوه، وسلف ١٣/ ٢٠٨.

(٥) أورده أبو العلاء في رسالة الصاهل والشاحج ص ٥٤٠، وابن قتيبة في المعاني الكبير ٢/ ٨٩٥، وابن منظور في اللسان (شحط). وفيه وفي (م): دودان، بدل: رومان.

وبنو رومان: رَهْط من طيِّئ، كما في الاشتقاق ص ٣٨٠، والوسميّ: مطر الربيع الأول. القاموس (وسم)، والنَّبع والشَّوْحط ضربان من الشجر، وهي هاهنا القِسيّ. قاله ابن قتيبة.

يعني: أنهم أُحْيُوا فحدَّثوا أنفسهم بالبغي والتفاتن[1]. أو من البَغْي، وهو البَذَخ والكِبْر؛ أي: لَتَكَبَّروا في الأرض وفعلوا ما يتبع الكِبْرَ من العُلوّ فيها والفساد.

﴿وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ أي: يُنزِّل أرزاقَهم بقدر ما يشاء لِكفايتهم. وقال مقاتل: «يُنَزِّلُ بِقَدَر ما يشاءُ» يجعل من يشاء غَنيًّا ومن يشاء فقيرًا.

الثانية: قال علماؤنا: أفعالُ الربِّ سبحانه لا تخلو عن مصالح وإن لم يَجِبْ على الله الاستصلاح؛ فقد يعلم من حال عبدٍ أنه لو بَسَطَ عليه قادَه ذلك إلى الفساد فَيَزْوِي عنه الدنيا؛ مصلحةً له. فليس ضيقُ الرزق هوانًا ولا سعةُ الرزق فضيلةً؛ وقد أعطى أقواماً مع علمه بأنهم يستعملونه في الفساد، ولو فعل بهم خلافَ ما فعل لكانوا أقربَ إلى الصلاح. والأمرُ على الجُملة مفوَّضٌ إلى مشيئته، ولا يمكن التزام مذهب الاستصلاح في كل فعل من أفعال الله تعالى. وروى أنسٌ عن النبيّ ﷺ فيما يرويه عن ربّه تبارك وتعالى قال: «مَنْ أهان لي وليًّا فقد بارزني بالمُحاربة، وإني لأسرعُ شيء إلى نُصْرة أوليائي، وإني لأغضبُ لهم كما يغضب الليث الحَرِد، وما تردَّدت في شيء أنا فاعلُه تردُّدي في قبض روح عبدي المؤمن يكره الموتَ وأنا أكره إساءتَه ولا بدَّ له منه. وما تقرَّب إليَّ عبدي المؤمنُ بمثل أداءِ ما افترضتُ عليه. وما يزال عبدي المؤمن يتقرَّبُ إليَّ بالنوافل حتى أُحِبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ له سمعًا وبصرًا ولسانًا ويدًا ومُؤَيِّدًا، فإن سألني أعطيته وإن دعاني أجبتُه. وإنَّ من عبادي المؤمنين من يسألني الباب من العبادة وإني عليمٌ أنْ لو أعطيتُه إيَّاه لَدخله العُجْب فأفسده. وإن من عبادي المؤمنين من لا يُصلحه إلا الغِنى، ولو أفقرتُه لأفسده الفَقْر. وإنَّ من عبادي المؤمنين من لا يُصلحه إلا الفقر، ولو أغنيتُه لأفسده الغِنى. وإني لَأُدَبِّر عبادي لِعلمي بقلوبهم، فإني عليمٌ خبير». ثم قال أنس: اللهم إني من عبادك المؤمنين الذين لا يُصلحهم إلا الغِنى، فلا تُفقرني برحمتك[2].

---

(١) في (د) و(م) و(ي): التغابن، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق للكشاف.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ البغوي في تفسيره ٤/ ١٢٧ . دون قول أنس ﷺ وضعَّفه الحافظ ابن حجر في الفتح =

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾

قرأ ابن كثير وابن مُحيْصن وحُميد ومجاهد وأبو عمرو ويعقوب وابن وَثّاب والأعمش وغيرهما والكسائي: «يُنزِل» مُخفَّفًا. الباقون بالتشديد[(١)]. وقرأ ابن وَثّاب أيضًا والأعمش وغيرهما: «قنِطوا» بكسر النون[(٢)]؛ وقد تقدَّم جميعُ هذا[(٣)]. والغيث المطر؛ وسُمِّي الغيثُ غيثاً لأنه يَغيثُ الخلق. وقد غاث الغيثُ الأرضَ، أي: أصابها. وغاث اللهُ البلاد يَغيثها غَيْثًا. وغِيثت الأرضُ تُغاث غَيْثًا، فهي أرضٌ مَغيثة ومَغْيُوثة. وعن الأصمعيّ قال: مررتُ ببعض قبائل العرب وقد مُطِروا، فسألتُ عجوزاً منهم: أتاكم المطر؟ فقالت: غِثنا ما شئنا غَيْثًا؛ أي: مُطِرنا. وقال ذو الرُّمة: قاتل اللهُ أَمَةَ بني فلان ما أفصحَها! قلتُ لها: كيف كان المطرُ عندكم؟ فقالت: غِثْنا ما شئنا. ذكر الأوّل الثعلبي والثاني الجوهري[(٤)]. وربما سُمِّي السحاب والنبات غَيْثًا.

والقنوط الإياس؛ قاله قتادة[(٥)]. ذُكِر أنّ رجلًا قال لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، قَحط المطرُ، وَقَلَّ الغيثُ، وقَنَط الناس؟ فقال: مُطِرتُم إنْ شاء الله؛ ثم قرأ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾[(٦)]. والغيث ما كان نافعاً في وقته، والمطر قد يكون نافعاً وضارًّا في وقته وغير وقته؛ قاله الماوردِيّ.

﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ قيل: المطر؛ وهو قول السُّدي. وقيل: ظهور الشمس بعد

= ١١/ ٣٤٣، وأخرج بعض ألفاظه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة ﷺ، وسلف ٧/ ٤١١، وقول أنس ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٦.

(١) قراءة ابن كثير وأبي عمرو والكسائي ويعقوب - وقرأ بها حمزة - في السبعة ص ١٦٥، والتيسير ص٧٥، والنشر ٢/ ٢١٨.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٣٦.

(٣) ٢/ ٢٥١ و١٢/ ٢٢٣.

(٤) في الصحاح (غيث).

(٥) بعدها في (م) و(ي): وغيره، قال قتادة. والمثبت موافق للنكت والعيون (والكلام منه) ٥/ ٢٠٣.

(٦) وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٦، والزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٦٩.

المطر؛ ذكره المَهدَوي. وقال مقاتل: نزلت في حبس المطر عن أهل مكةَ سبعَ سنين حتى قَنطوا، ثم أنزل الله المطر[1]. وقيل: نزلت في الأعرابي الذي سأل رسولَ الله ﷺ عن المطر يومَ الجمعة في خبر الاستسقاء[2]؛ ذكره القشيري، والله أعلم. ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ «الوَلِيُّ» الذي ينصر أولياءه. «الحَمِيدُ» المحمود بكل لسان.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: علاماته الدَّالة على قُدرته. ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ﴾ قال مجاهد: يدخل في هذا الملائكةُ والناس[3]، وقد قال تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٨]. وقال الفرَّاء: أراد: ما بثَّ في الأرض دون السماء؛ كقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن:٢٢] وإنما يخرج من الملح دون العَذْب[4]. وقال أبو عليّ: تقديره: وما بثَّ في أحدهما؛ فحذف المضاف. وقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾ أي: من أحدهما. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ أي: يوم القيامة. ﴿إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ قرأ نافع وابن عامر:

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٢٨ .

(٢) أخرجه أحمد (٣٦٩٣)، والبخاري (١٠٣٣)، ومسلم (٨٩٧) من حديث أنس ﷺ وأوله: بينا رسول الله ﷺ يخطب على المنبر يوم الجمعة قام أعرابيٌّ فقال: يا رسول الله، هلك المال وجاع العيال، فادع الله لنا أن يسقينا...

(٣) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥١٢ .

(٤) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٤ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٨٢ .

«بِمَا كَسَبَتْ» بغير فاء. الباقون «فَبِمَا» بالفاء[١]، واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم للزيادة في الحرف والأجر.

قال المهدَوِيّ: إنْ قدَّرت أن «ما» الموصولة جاز حذفُ الفاء وإثباتُها، والإثباتُ أحسنُ. وإن قدَّرتها التي للشرط لم يَجُزِ الحذفُ عند سيبويه، وأجازه الأخفش واحتجَّ بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[٢] [الأنعام: ١٢١].

والمصيبة هنا الحدود على المعاصي؛ قاله الحسن[٣]. وقال الضحاك: ما تعلَّم رجلٌ القرآنَ ثم نَسِيه إلا بذنب؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ ثم قال: وأيّ مُصيبة أعظمُ من نسيان القرآن؛ ذكره ابن المبارك[٤] عن عبد العزيز بن أبي روَّاد. قال أبو عبيد[٥]: إنما هذا على الترك، فأما الذي هو دائبٌ في تلاوته، حريصٌ على حِفْظه إلا أن النِّسيان يغلِبه فليس من ذلك في شيء. ومما يُحقِّق ذلك أن النبيّ ﷺ كان ينسى الشيء من القرآن حتى يذكره؛ من ذلك حديث عائشة أنَّ[٦] النبي ﷺ سمع قراءةَ رجل في المسجد فقال: «ماله ـ رَحِمه الله ـ لقد أذْكرني آياتٍ كنت أُنسيتها من سورة كذا وكذا»[٧].

وقيل: «ما» بمعنى الذي، والمعنى: الذي أصابكم فيما مضى بما كسبت أيديكم[٨]. وقال عليّ ﷺ: هذه الآيةُ أرجى آية في كتاب الله عز وجل. وإذا كان يُكفَّر عني بالمصائب، ويعفو عن كثير فيما يبقى بعدَ كفارته وعفوِه؟! وقد رُوي هذا المعنى

(١) السبعة ص ٥٨١ ، والتيسير ص ١٩٥ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٣٧ بنحوه.

(٣) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥١٤ .

(٤) في الزهد (٨٥).

(٥) في غريب الحديث ٣/ ١٤٩ - ١٥٠ .

(٦) في (د) و(م): عن.

(٧) أخرجه أحمد (٢٤٣٣٥)، والبخاري (٥٠٣٨) ومسلم (٧٨٨). والرجل الذي سمع النبي ﷺ صوته هو عبّاد بن بشر ﷺ. كما في صحيح البخاري (٢٦٥٥) وفتح الباري ٥/ ٢٦٥ .

(٨) ذكره النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٨٣ واستبعده.

مرفوعًا عنه ﷺ، قال عليّ بن أبي طالب ﷺ: ألَا أُخبركم بأفضلِ آية في كتاب الله حدّثنا بها النبيُّ ﷺ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ الآية: «يا عليّ، ما أصابَكم من مرضٍ أو عقوبةٍ أو بلاءٍ في الدنيا فبما كسبت أيديكم. واللهُ أكرمُ من أن يُثنّيَ عليكم العقوبة في الآخرة، وما عفا عنه في الدنيا فالله أحلمُ من أن يُعاقب به بعد عَفْوه»(١). وقال الحسن: لما نزلت هذه الآيةُ قال النبيّ ﷺ: «ما مِن اختلاج عِرْق ولا خَدْشِ عُود ولا نَكْبةِ حَجَر إلّا بذنب، ولما يعفو اللهُ عنه أكثر»(٢).

وقال الحسن: دخلنا على عمران بن حُصين فقال رجل: لا بدَّ أن أسألك عما أرى بك من الوَجَع؛ فقال عمران: يا أخي لا تفعل، فوالله، إني لأُحِبُّ الوَجَع، ومَنْ أحبَّه كان أحبَّ الناس إلى الله، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ فهذا مما كسبت يدي، وعَفْوُ ربي عما بقي أكثرُ. وقال مُرَّة الهَمْداني: رأيتُ على ظهر كفِّ شُريح قرحةً فقلت: يا أبا أُميَّة، ما هذا؟ قال: هذا بما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير(٣).

وقال ابن عَون: إن محمد بن سِيرين لما رَكِبه الدَّين اغتمَّ لذلك فقال: إني لأعرفُ هذا الغمَّ، هذا بذنب أصبته منذ أربعين سنة(٤). وقال أحمد بن أبي الحَوَارِي: قيل لأبي سليمان الدّاراني: ما بال العقلاء أزالوا اللَّوْمَ عمن أساء إليهم؟ فقال: لأنهم علموا أن الله تعالى إنما ابتلاهم بذنوبهم، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾(٥). وقال عِكرمة: ما من نكبةٍ أصابت عبدًا فما فوقها إلا بذنب لم يكن الله لِيغفره له إلا بها أو لِينال درجةً لم يكن

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ أحمد (٦٤٩)، والبغوي في تفسيره ٤/ ١٢٨ . وفي إسناده الأزهر بن راشد الكاهلي، وهو ضعيف، والخضر بن القواس وأبو سُخيلةَ، وهما مجهولان، فيما قاله الحافظ ابن حجر في التقريب. وقد أخرجه بنحوه ودون ذكر الآية أحمد (٧٧٥). والترمذي (٢٦٢٦) وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح.

(٢) أخرجه سعيد بن منصور وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٦/ ٩ ، وهو هكذا مرسل.

(٣) ذكر هذا الخبر والذي قبله ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٧ .

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ٢٧١ .

(٥) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٧ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٢٨٨ .

يُوصله إليها إلا بها(١).

ورُوي أن رجلاً قال لموسى: يا موسى، سَلِ اللهَ لي في حاجة يقضيها لي هو أعلمُ بها؛ ففعل موسى؛ فلما نزل إذا هو بالرجل قد مزَّق السَّبع لحمه وقَتَله؛ فقال موسى: ما بال هذا يا رب؟ فقال اللهُ تبارك وتعالى له: يا موسى، إنه سألني درجةً عَلِمتُ أنه لم يبلُغْها بعمله فأصبتُه بما ترى لأجعلها وسيلةً له في نَيْل تلك الدرجة. فكان أبو سليمان الدَّارَاني إذا ذكر هذا الحديث يقول: سبحان من كان قادراً على أن يُنيلَه تلك الدرجة بلا بلوى! ولكنه يفعل ما يشاء(٢).

قلت: ونظيرُ هذه الآية في المعنى قولُه تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء:١٢٣] وقد مضَى القولُ فيه.

قال علماؤنا: وهذا في حقِّ المؤمنين، فأما الكافر فعقوبته مؤخَّرةٌ إلى الآخرة. وقيل: هذا خطابٌ للكفار، وكان إذا أصابهم شرٌّ قالوا: هذا بشؤم محمد؛ فردَّ عليهم وقال: بل ذلك بشؤم كُفركم. والأوّل أكثرُ وأظهرُ وأشهر.

وقال ثابت البُنانِيّ: إنه كان يقال: ساعات الأذى يُذهبن ساعاتِ الخطايا. ثم فيها قولان: أحدهما: أنها خاصة في البالغين أن تكون عقوبةً لهم، وفي الأطفال أن تكون مَثُوبة لهم. الثاني: أنها عقوبةٌ عامة للبالغين في أنفسهم والأطفال في غيرهم من والد ووالدة.

﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ أي: عن كثير من المعاصي ألا يكون عليها حدود؛ وهو مقتضى قول الحسن. وقيل: أي: يعفو عن كثير من العُصاة ألّا يعجل عليهم بالعقوبة(٣). ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: بفائتين الله؛ أي: لن تُعجزوه ولن تفوتوه ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ تقدَّم في غير موضع(٤).

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٢٨ .

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٩٨٥٣) بنحوه دون قول أبي سليمان.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٠٤ .

(٤) ٢/ ٣١١ .

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ أي: ومن علاماته الدالَّة على قُدرته السفنُ الجارية في البحر كأنها من عِظَمها أعلامٌ. والأعلام: الجبال، وواحد الجواري جارية، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١]. سُمِّيت جارية لأنها تجري في الماء. والجارية: هي المرأة الشابَّة؛ سُمِّيت بذلك لأنها يجري فيها ماء الشباب. وقال مجاهد: الأعلام القصور، واحدها علم؛ ذكره الثعلبي[١]. وذكر الماوَرْدي[٢] عنه أنها الجبال. وقال الخليل: كل شيء مرتفع عند العرب فهو علم[٣]. قالت الخنساء ترثي أخاها صخراً:

وإنّ صخراً لتأتَمُّ الهُداة به كأنه علَمٌ في رأسه نار[٤]

﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ كذا قراءة العامة، وقراءة أهل المدينة: «الرِّيَاح» بالجمع[٥]. ﴿فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ أي: فتبقى السفنُ سواكنَ على ظهر البحر لا تجري. رَكَد الماء ركودًا سكن. وكذلك الريح والسفينة، والشمس إذا قام قائم الظَّهيرة. وكلّ ثابتٍ في مكان فهو راكد. وركد الميزان استوى. ورَكد القوم هَدَؤوا. والمراكد: المواضع التي يَرْكُد فيها الإنسان وغيره[٦].

وقرأ قتادة: «فَيَظْلِلْنَ» بكسر اللام الأولى[٧] على أن يكون لغة، مثلُ ضَلِلت أَضِل[٨]. وفتح اللام هي اللغة المشهورة.

---

(١) وذكره البغوي في تفسيره ٤/١٢٨ .

(٢) في النكت والعيون ٥/ ٢٠٥ .

(٣) تفسير البغوي ٤/١٢٨ .

(٤) ديوان الخنساء ص ٤٩ .

(٥) السبعة ص١٧٣ ، والتيسير ص٧٨ ، والنشر ٢/ ٢٢٣ .

(٦) الصحاح (ركد).

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ٣٨ .

(٨) في النسخ: ظللت أظل، والمثبت من الكشاف ٣/ ٤٧١ ، وينظر ما قاله أبو حيان في البحر ٧/ ٥٢٠ .

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ﴾ أي: دلالات وعلامات ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: صبَّار على البَلْوَى شكور على النعماء. قال قُطْرُب: نِعْمَ العبد الصبَّار الشَّكور، الذي إذا أُعطِي شكر وإذا ابتُلي صبر. قال عَوْن بن عبد الله: فكم من مُنْعَم عليه غير شاكر، وكم من مبتلًى غير صابر[١].

قوله تعالى: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾ أي: وإن يشأ يجعل الرياحَ عواصفَ فَيُوبق السفن؛ أي: يُغرقهن بذنوب أهلها. وقيل: يُوبق أهل السفن[٢]. ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ من أهلها فلا يُغرقهم معها؛ حكاه الماوردي[٣]. وقيل: «وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ» أي: ويتجاوز عن كثير من الذنوب فَيُنجيهم اللهُ من الهلاك.

قال القُشَيرِيّ: والقراءة الفاشية: «وَيَعْفُ» بالجزم، وفيها إشكال؛ لأن المعنى: إن يشأ يُسكن الريح فتبقى تلك السفن رواكدَ ويُهلكها بذنوب أهلها، فلا يحسن عطف «يَعْفُ» على هذا لأنه يصير المعنى: إنْ يشأ يعفُ، وليس المعنى ذلك بل المعنى الإخبار عن العفو من غير شرط المشيئة، فهو إذًا عطف على المجزوم من حيث اللفظ لا من حيث المعنى. وقد قرأ قوم: «ويعفو» بالرفع، وهي جيدة في المعنى[٤].

﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ يعني الكفار؛ أي: إذا توسَّطوا البحر وغَشِيتهم الرياح من كل مكان، أو بقيت السفن رواكدَ علموا أنه لا مَلْجأ لهم سوى الله، ولا دافع لهم إنْ أراد اللهُ إهلاكهم، فَيُخلصون له العبادة. وقد مضى هذا

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٠٥ .

(٢) زاد المسير ٧/ ٢٨٩ .

(٣) في النكت والعيون ٥/ ٢٠٥ .

(٤) ذكر قول القشيري أبو حيان في البحر ٧/ ٥٢٠ - ٥٢١ ، ثم قال: ما قاله ليس بجيد، إذ لم يَفْهم مدلول التركيب، والمعنى: أنه تعالى إن يشأ أهلك ناساً وأنجى ناساً على طريق العفو عنهم.

المعنى في غير موضع[١]، ومضى القولُ في ركوب البحر في «البقرة» وغيرها بما يُغني عن إعادته.[٢]

وقرأ نافع وابن عامر: «وَيَعْلَمُ» بالرفع، الباقون بالنصب[٣]. فالرفع على الاستئناف بعد الشرط والجزاء؛ كقوله في سورة التوبة: ﴿وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ ثم قال: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [التوبة: ١٤-١٥] رفعًا. ونظيره في الكلام: إن تأتني آتِكَ وينطلقُ عبد الله. أو على أنه خبرُ ابتداء محذوف. والنصب على الصرف؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢] صرف من حال الجزم إلى النصب استخفافاً كراهيةً لتوالي الجزم[٤]؛ كقول النابغة:

فإن يَهْلِك أبو قابوسَ يَهْلِكْ ... ربيعُ الناس والشهرُ الحرامُ
ونُمْسِكَ[٥] بعده بذِناب عَيْشٍ ... أَجَبِّ الظَّهْرِ ليس له سَنام[٦]

وهذا معنى قول الفرّاء[٧]، قال: ولو جزم «ويعلم» جاز. وقال الزّجاج[٨]: نصب على إضمار «أن» لأن قبلها جزمًا؛ تقول: ما تصنعْ أصنعْ مثلَه وأُكرمَك. وإنْ شئتَ قلت: وأُكرمْك، بالجزم.

وفي بعض المصاحف: «ولِيعلمَ». وهذا يدلُّ على أن النصب بمعنى: وليعلم، أو لأنْ يعلم.

---

(١) ١٠/ ٤٧٥ و١٦/ ١٩٣ .

(٢) ٢/ ٤٩٥ .

(٣) السبعة ص ٥٨١ ، والتيسير ص ١٩٥ .

(٤) الحجة للفارسي ٦/ ١٣٠ بنحوه.

(٥) في النسخ: ويمسك، والمثبت من المصادر.

(٦) ديوان النابغة ص ١١٠ . وأبو قابوس: هو النعمان بن المنذر، وسلف البيتان ١٠/ ١٢٩ . وينظر ضبط قوله: أجبّ الظهر في خزانة الأدب الشاهد (٧٥٦).

(٧) في معاني القرآن ٣/ ٢٤ - ٢٥ .

(٨) في معاني القرآن ٤/ ٣٩٩ .

وقال أبو عليّ والمبرّد: النصب بإضمار «أن» على أن يجعل الأوّل في تقدير المصدر؛ أي: ويكون منه عَفْوٌ وأن يعلم فلما حَمَله على الاسم أضمرَ أن، كما تقول: إنْ تَأْتِني وتُعطيَني أُكرمك، فتنصب تُعطيني، أي: إن يكن منك إتيانٌ وأنْ تُعطيني[(١)].

ومعنى ﴿مِن مَّحِيصٍ﴾ أي: من فِرار ومَهْرب؛ قاله قُطْرُب. السدي: مِن مَلْجأ. وهو مأخوذٌ من قولهم: حاص به البعير حيصةً إذا رمى به. ومنه قولهم: فلان يحيص عن الحق، أي: يميلُ عنه[(٢)].

قوله تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ﴾ يريد من الغِنى والسَّعة في الدنيا. ﴿فَمَتَٰعُ﴾ أي: فإنما هو متاعٌ في أيام قليلة تنقضي وتذهب؛ فلا ينبغي أن يتفاخرَ به. والخِطاب للمشركين. ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ يريد من الثواب على الطاعة ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ صدَّقوا ووحَّدوا ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ نزلت في أبي بكر الصدِّيق حين أنفق جميعَ ماله في طاعة الله فلامَه الناسُ[(٣)]. وجاء في الحديث أنه: أنفق ثمانين ألفاً.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ﴾ الذين في موضع جرّ معطوفٌ على قوله: ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[(٤)] أي: وهو للذين يجتنبون ﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ وقد مضى القولُ

---

(١) الحجة للفارسي ٦/ ١٣٠ بنحوه.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٠٥ .

(٣) الكشاف ٣/ ٤٧٢ ، وحديث إنفاق أبي بكر ﷺ ماله كلّه وإنفاق عمر ﷺ نصف ماله أخرجه أبو داود (١٦٧٨)، والترمذي (٣٦٧٥) من حديث عمر ﷺ.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٨٦ .

في الكبائر في «النساء»[١].

وقرأ حمزة والكسائي: «كَبيرَ الإثْم»[٢] والواحد قد يُراد به الجمع عند الإضافة؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وكما جاء في الحديث: «مَنَعتِ العراقُ دِرْهمها وَقَفِيزَها»[٣]. الباقون بالجمع هنا وفي «النجم» [الآية: ٣٢].

﴿وَالْفَوَاحِشَ﴾ قال السُّدِّي: يعني الزنى[٤]. وقاله ابن عباس، وقال: كبير الإثم الشِّرك[٥].

وقال قوم: كبائرُ الإثم ما تقع على الصغائر مغفورة عند اجتنابها. والفواحش داخلة في الكبائر، ولكنها تكون أفحشَ وأشنعَ، كالقتل بالنسبة إلى الجرح، والزنى بالنسبة إلى المراودة. وقيل: الفواحشُ والكبائرُ بمعنًى واحد، فكرَّر لِتعدُّد اللَّفظ؛ أي: يجتنبون المعاصي لأنها كبائرُ وفواحشُ.

وقال مقاتل: الفواحشُ مُوجِباتُ الحدود[٦].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ أي: يتجاوزون ويَحلُمون عمن ظَلَمهم. قيل: نزلت في عمر حين شُتِم بمكة. وقيل: في أبي بكر حين لامَه الناس على إنفاق ماله كله وحين شُتم فَحلُم. وعن علي ﷺ قال: اجتمع لأبي بكر مال مرة، فتصدّق به كلّه في سبيل الخير؛ فلامه المسلمون وخطّأه الكافرون فنزلت: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ إلى قوله

(١) ٦/ ٢٦١ وما بعدها.

(٢) السبعة ص ٥٨١، والتيسير ص ١٩٥.

(٣) أخرجه أحمد (٧٥٦٥)، ومسلم (٢٨٩٦) من حديث أبي هريرة ﷺ. والقفيز: اثنا عشر صاعاً. حاشية السندي على مسند أحمد.

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥٢٢.

(٥) الكشاف ٣/ ٤٧٢.

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٣٩.

﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾[١]. وقال ابن عباس: شَتَم رجل من المشركين أبا بكر فلم يردَّ عليه شيئًا؛ فنزلت الآية[٢]. وهذا من محاسن الأخلاق، يُشفقون على ظالمهم ويَصْفَحون لمن جَهِل عليهم؛ يطلبون بذلك ثواب الله تعالى وعفوه؛ لقوله تعالى في آل عمران: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤]. وهو أن يتناولك الرجلُ فتكظِم غيظَك عنه. وأنشد بعضهم:

إني عفوتُ لظالمي ظلمي ... ووهبتُ ذاك له على عِلْمي
ما زال يَظْلِمُني وأرحمُه ... حتى بَكيتُ له من الظُّلم[٣]

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ قال عبد الرحمن بن زيد: هم الأنصار بالمدينة؛ استجابوا إلى الإيمان بالرسول حين أنفذ إليهم اثني عشر نقيباً منهم قبل الهجرة. ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أدّوها لمواقيتها بشروطها وهيئاتها[٤].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يتشاورون في الأمور. والشُّورَى مصدر شاورته، مثل البُشرى والذِّكرى ونحوه.

فكانت الأنصارُ قبل قدوم النبيّ ﷺ إليهم إذا أرادوا أمرًا تشاوروا فيه، ثم عملوا عليه؛ فَمدَحَهُم الله تعالى به؛ قاله النقّاش. وقال الحسن: أي: إنهم لانقيادهم إلى الرأي في أمورهم متّفقون لا يختلفون؛ فَمُدِحوا باتّفاق كلمتهم. قال الحسن: ما تشاور قوم قطُّ إلا هُدُوا لأرشدِ أمورهم. وقال الضحاك: هو تشاورُهم حين سمعوا

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٧٢ ، وسلف الخبر في تفسير الآية السابقة.

(٢) أخرجه أحمد (٩٦٢٤)، وأبو داود (٤٨٩٦) مطولاً دون ذكر الآية.

(٣) ذكرهما ابن عبد البر في بهجة المجالس ١/ ٣٦٦ ونسبهما لمحمود الوراق.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٠٦ .

بظهور رسول الله ﷺ، وورد النُّقباء إليهم حتى اجتمع رأيُهم في دار أبي أيوب على الإيمان به والنُّصرة له. وقيل: تشاورُهم فيما يعرِض لهم؛ فلا يستأثر بعضُهم بخبر[١] دون بعض.

وقال ابن العربي[٢]: الشُّورَى أُلفةٌ للجماعة ومِسْبارٌ للعقول وسببٌ إلى الصواب، وما تشاور قومٌ قطُّ إلا هُدُوا. وقد قال الحكيم:

إذا بلغ الرأيُ المشورة فاستعِنْ ... برأي لبيبٍ أو مشورةِ حازم

ولا تجعل الشُّورى عليك غَضاضة ... فإنَّ الخَوافي نافعٌ للقوادم[٣]

فمدح اللهُ المشاورةَ في الأمور بمدح القوم الذين كانوا يتمثَّلون ذلك. وقد كان النبيُّ ﷺ يُشاور أصحابَه في الآراء المتعلقة بمصالح الحروب؛ وذلك في الآثار[٤] كثيرٌ. ولم يكن يُشاورهم في الأحكام؛ لأنها مُنزلةٌ من عند الله على جميع الأقسام من الفرض والندب والمكروه والمباح والحرام. فأما الصحابة بعد استئثار الله تعالى به علينا فكانوا يَتشَاورون في الأحكام ويستنبطونها من الكتاب والسنة. وأوّل ما تشاور فيه الصحابة الخلافةُ؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ لم يَنُصَّ عليها حتى كان فيها بين أبي بكر والأنصار ما سبق بيانه[٥].

وقال عمر ﷺ: نرضى لِدُنيانا مَنْ رَضِيَهُ رسولُ الله ﷺ لديننا[٦]. وتشاوروا في أهل الرِّدَّة فاستقرَّ رأيُ أبي بكر على القتال. وتشاوروا في الجَدّ وميراثه، وفي حدّ الخمر

(١) في النكت والعيون ٥/ ٢٠٦ (والأقوال السالفة كلها منه): بخير.

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٥٦ . والكلام منه إلى آخر المسألة.

(٣) البيتان لبشار بن برد، وهما في ديوانه ٢/ ٥٠٣ ، وعجز البيت الأول فيه: برأي نصيح أو نصيحة حازم. وعجز البيت الثاني: مكان الخوافي قوة للقوادم. والخوافي: ريشاتٌ إذا ضمَّ الطائرُ جناحيه خَفِيَتْ، والقوادم: أربع أو عشر ريشات في مُقدَّم الجناح. القاموس المحيط (خفي) و(قدم).

(٤) في النسخ: الآراء، والمثبت من أحكام القرآن لابن العربي.

(٥) ١/ ٣٩٥ وما بعدها.

(٦) سلف ١/ ٤٠٦ - ٤٠٧ و٩/ ١٦٧ من قول علي ﷺ.

وعدده. وتشاوروا بعد رسول الله ﷺ في الحروب؛ حتى شاور عمرُ الهُرْمُزان حين وَفَدَ عليه مسلماً في المغازي، فقال له الهُرْمُزان: مَثَلُها وَمَثَلُ من فيها من الناس من عدوٍّ المسلمين مَثَلُ طائرٍ له رأس[1] وله جناحان ورجلان، فإن كُسِرَ أحدُ الجناحين نَهَضَتِ الرِّجلان بجناح والرأس، وإنْ كُسِرَ الجناحُ الآخر نَهَضتِ الرِّجلان والرأس وإن شُدِخ الرأسُ ذهب الرِّجلان والجناحان. والرأسُ كسْرى والجناح الواحد قيصر والآخر فارس؛ فَمُرِ المسلمين فَلْينفِروا إلى كِسْرى. وذكر الحديث[2].

وقال بعض العقلاء: ما أخطأت قطُّ! إذا حَزَبَني أمرٌ شاورتُ قومي ففعلت الذي يَرَوْن؛ فإن أصبتُ فهم المُصيبون، وإن أخطأتُ فهم المُخطئون[3].

الثالثة: قد مضى في «آل عمران» ما تضمَّنته الشُّورى من الأحكام عند قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [الآية: ١٥٩]. والمَشُورة بركة. والمَشْوَرة: الشُّورَى، وكذلك المَشُورة بضم الشين؛ تقول منه: شاوَرْته في الأمر واستشرته بمعنًى[4].

وروى الترمذي[5] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان أمراؤكم خيارَكم وأغنياؤكم سُمَحاءَكم وأَمْرُكم شُورَى بينكم فظَهْرُ الأرض خيرٌ لكم من بطنها، وإذا كان أمراؤكم شِرارَكم وأغنياؤكم بُخَلاءَكم وأمورُكم إلى نسائكم فبطنُ الأرض خيرٌ لكم من ظَهْرها». قال حديث غريب[6]. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي: ومما أعطيناهم يتصدَّقون. وقد تقدّم في «البقرة»[7].

---

(١) في النسخ: ريش، وهو تصحيف، والمثبت من المصادر.

(٢) أخرجه البخاري (٣١٥٩).

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٥٦ - ١٦٥٧ .

(٤) الصحاح (شور).

(٥) في سننه (٢٢٦٦).

(٦) وقال أيضاً: لا نعرفه إلا من حديث صالح المُرِّي، وصالح المُرِّيُّ في حديثه غرائب ينفرد بها لا يتابع عليها، وهو رجل صالح.

(٧) ١/ ٢٧٣ وما بعدها .

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾

فيه إحدى عشرة مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ﴾ أي: أصابهم بَغيُ المشركين. قال ابن عباس: وذلك أن المشركين بَغَوْا على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه وآذَوْهم وأخرجوهم من مكة، فأَذِنَ اللهُ لهم بالخروج، ومَكَّنَ لهم في الأرض، ونَصَرهم على من بَغَى عليهم[١]؛ وذلك قوله في سورة الحج: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا﴾ الآيات [٣٩-٤١] كلها. وقيل: هو عامٌّ في بَغْي كل باغ من كافر وغيره[٢]، أي: إذا نالهم ظُلم لم يستسلموا لِظُلمه. وهذه إشارةٌ إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الحدود.

قال ابن العربي[٣]: ذَكَر اللهُ الانتصار في البغي في مَعْرِض المَدْح، وذكر العفو عن الجُرم في موضع آخرَ في مَعْرِض المدح؛ فاحتمل أن يكون أحدُهما رافعاً للآخر، واحتمل أن يكون ذلك راجعًا إلى حالتين:

إحداهما: أن يكون الباغي مُعلناً بالفجور، وَقِحًا في الجمهور، مُؤذِيًا للصغير والكبير؛ فيكون الانتقام منه أفضلَ. وفي مثله قال إبراهيم النَّخَعِيّ: كانوا يكرهون أن يُذِلُّوا أنفسهم فتجترئ عليهم الفُسَّاق.

الثانية: أن تكون الفَلْتة، أو يقع ذلك ممن يعترف بالزَّلَّة ويسأل المغفرة؛ فالعفو

---

(١) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٢٩١ بنحوه عن عطاء.

(٢) زاد المسير ٤/ ٢٩٢.

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٥٧.

هاهنا أفضلُ، وفي مثله نزلت: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:٢٣٧]. وقوله: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ [المائدة:٤٨]. وقوله: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور:٢٢].

قلت: هذا حسن، وهكذا ذكر الكِيا الطبري في «أحكامه»[١] قال: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ يدل ظاهرُه على أن الانتصار في هذا الموضع أفضل؛ ألا ترى أنه قرنه إلى ذكر الاستجابة لله سبحانه وتعالى وإقام الصلاة؛ وهو محمولٌ على ما ذكر إبراهيم النَّخَعِيّ أنهم كانوا يكرهون للمؤمنين أن يُذِلُّوا أنفسهم فتجترئ عليهم الفُسَّاق؛ فهذا فيمن تعدّى وأصرَّ على ذلك. والموضع المأمور فيه بالعفو إذا كان الجاني نادماً مُقْلِعاً. وقد قال عَقِيب هذه الآية: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾. ويقتضي ذلك إباحةَ الانتصار لا الأمر به؛ وقد عقَّبه بقوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾. وهو محمولٌ على الغفران عن غير المُصِرّ، فأما المُصِرّ على البغي والظلم فالأفضل الانتصار منه بدلالة الآية التي قبلَها.

وقيل: أي: إذا أصابهم البغي تناصروا عليه حتى يُزيلوه عنهم ويدفعوه؛ قاله ابن بحر[٢]. وهو راجعٌ إلى العموم على ما ذكرنا.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ قال العلماء: جعل الله المؤمنين صِنفين: صنف يعفُون عن الظالم فبدأ بذكرهم في قوله: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾. وصنف ينتصرون من ظالمهم[٣]. ثم بين حدّ الانتصار بقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ فينتصر ممن ظَلَمه من غير أن يعتدي. قال مقاتل وهشام بن حُجَير: هذا في المجروح ينتقم من الجارح بالقصاص دون غيره من سبٍّ أو شَتْم. وقاله الشافعي وأبو حنيفة وسفيان[٤]. قال سفيان: وكان ابن شُبْرُمَة يقول: ليس بمكة مثل هشام[٥].

---

(١) ٤/٣٦٦ - ٣٦٧.

(٢) النكت والعيون ٥/٢٠٦.

(٣) زاد المسير ٧/٢٩١ بنحوه.

(٤) النكت والعيون ٥/٢٠٧.

(٥) ذكره الحافظ ابن حجر في تهذيب التهذيب ٤/٢٦٧.

وتأوّل الشافعي في هذه الآية أنَّ للإنسان أن يأخُذَ من مال مَن خانَه مثلَ ما خانه من غير عِلْمه؛ واستشهد في ذلك بقول النبي ﷺ لهند زوجِ أبي سفيان: «خُذي من مالهِ ما يَكفيكِ وولدَكِ»[١] فأجاز لها أخذَ ذلك بغير إِذْنه. وقد مضى الكلام في هذا مستوفى في «البقرة»[٢].

وقال ابن أبي نَجيح: إنه محمولٌ على المُقابلة في الجراح. وإذا قال: أخزاه اللهُ، أو لعنه الله أن يقول مثلَه. ولا يُقابلِ القذفَ بقذف، ولا الكذب بكذب[٣].

وقال السُّدِّي: إنما مدح اللهُ من انتصر ممن بغى عليه من غير اعتداء بالزيادة على مقدار ما فعل به؛ يعني كما كانت العرب تفعله[٤].

وسُمِّي الجزاء سيئةً لأنه في مُقابلتها؛ فالأوّل ساء هذا في مال أو بدن، وهذا الاقتصاص يسوءه بمثل ذلك أيضاً؛ وقد مضى هذا كلُّه في «البقرة» مستوفى[٥].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾ قال ابن عباس: من ترك القصاص وأصلح بينه وبين الظالم بالعفو ﴿فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: إن اللهَ يأجُره على ذلك. قال مقاتل: فكان العفو من الأعمال الصالحة. وقد مضى في «آل عمران» في هذا ما فيه كفاية[٦]، والحمد لله.

وذكر أبو نعيم الحافظ[٧] عن علي بن الحسين ﷺ قال: إذا كان يوم القيامة نادى مُنادٍ: أيكم أهل الفضل، فيقوم ناسٌ من الناس، فيقال: انطلقوا إلى الجنة، فتتلقَّاهم

---

(١) أخرجه البخاري (٥٣٦٤)، ومسلم (١٧١٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) ٣/ ٢٤٩، وسلف ثمة حديث هند زوجة أبي سفيان رضي الله عنهما.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٠٧.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٥٧.

(٥) ٣/ ٢٤٨ - ٢٤٩.

(٦) ٥/ ٣١٩ وما بعدها.

(٧) في حلية الأولياء ٣/ ١٣٩.

الملائكةُ، فيقولون: إلى أين؟ فيقولون: إلى الجنة، قالوا: قبل الحساب؟! قالوا: نعم، قالوا: من أنتم؟ قالوا: أهلُ الفَضْل؛ قالوا: وما كان فَضْلكم؟ قالوا: كنا إذا جُهل علينا حَلُمنا وإذا ظُلِمنا صَبَرْنَا وإذا سِيء إلينا عَفَوْنا؛ قالوا: ادخلوا الجنة، فنعم أجرُ العاملين. وذكر الحديث.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: مَن بدأ بالظلم؛ قاله سعيد بن جبير. وقيل: لا يحب مَن يتعدَّى في الاقتصاص ويُجاوز الحد؛ قاله ابن عيسى[١].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ﴾ أي: المسلم إذا انتصر من الكافر فلا سبيلَ إلى لَوْمه، بل يُحمَدُ على ذلك مع الكافر. ولا لومَ إن انتصر الظالم من المسلم؛ فالانتصار من الكافر حتم، ومن المسلم مباح، والعفو مندوب.

الخامسة: في قوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ دليلٌ على أن له أن يستوفيَ ذلك بنفسه. وهذا ينقسم ثلاثة أقسام:

أحدها: أن يكون قصاصاً في بدن يستحقُّه آدميٌّ، فلا حرجَ عليه إن استوفاه من غير عُدوان وثبت حقُّه عند الحُكَّام، لكن يزجره الإمام في تفرُّده[٢] بالقصاص لما فيه من الجُرأة على سفك الدم. وإن كان حقُّه غيرَ ثابت عند الحاكم فليس عليه فيما بينه وبين الله حرج، وهو في الظاهر مُطالَبٌ وبفعله مُؤاخَذٌ ومُعاقَب.

القسم الثاني: أن يكون حدًّا لله تعالى لا حقَّ لآدمي فيه، كحدّ الزنى وقطع السرقة؛ فإن لم يَثْبُتْ ذلك عند حاكم أُخِذَ به وعُوقب عليه، وإن ثبت عند حاكم نُظر، فإن كان قطعاً في سرقة سقط به الحدّ لزوال العضو المستحق قطعه، ولم يجب عليه في ذلك حقٌّ إلا التعزير أدباً[٣]، وإن كان جَلْداً لم يسقط به الحَدُّ لِتعدّيه مع بقاء محلِّه، فكان مأخوذاً بحكمه.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٠٧ - ٢٠٨ .

(٢) في (د): تقويه، وفي (ف) و(م): تفوته، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق للنكت والعيون ٥/ ٢٠٨ والكلام منه إلى آخر المسألة.

(٣) في النسخ: لأن التعزير أدب، والمثبت من النكت والعيون.

القسم الثالث: أن يكون حقًّا في مال؛ فيجوز لصاحبه أن يُغالب على حقِّه حتى يصل إليه إن كان هو ممن هو عالمٌ به[١]، وإن كان غيرَ عالم نُظر، فإنْ أمكنه الوصول إليه عند المطالبة لم يكن له الاستسرارُ بأخذه. وإن كان لا يصل إليه بالمُطالبة لِجُحود من هو عليه من عدم بيّنةٍ تشهد له ففي جواز استسراره بأخذه مذهبان: أحدهما: جوازه؛ وهو قول مالك والشافعي. الثاني: المنع؛ وهو قول أبي حنيفة.

السادسة: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: بعدوانهم عليهم؛ في قول أكثر العلماء. وقال ابن جُريح: أي: يظلمونهم بالشِّرك المُخالف لدينهم. ﴿وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ﴾ أي: في النفوس والأموال؛ في قول الأكثرين. وقال مقاتل: بَغْيُهم عَمَلُهم بالمعاصي. وقال أبو مالك: هو ما يرجوه كفارُ قريش أن يكون بمكة غير الإسلام ديناً[٢]. وعلى هذا الحدّ قال ابن زيد: إنَّ هذا كلَّه منسوخٌ بالجهاد، وإنَّ هذا للمشركين خاصة. وقول قتادة: إنه عامٌّ؛ وكذا يدل ظاهر الكلام[٣]. وقد بيَّنَّاه والحمد لله.

السابعة: قال ابن العربي[٤]: هذه الآيةُ في مقابلة الآية المتقدّمة في «براءة» وهي قوله: ﴿مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ﴾ [الآية: ٩٢]؛ فكما نفى اللهُ السبيل عمن أحسن فكذلك أثبتها[٥] على من ظلم؛ واستوفى بيان القسمين.

الثامنة: واختلف علماؤنا في السلطان يضع على أهل بلد مالًا معلوماً يأخذهم به ويؤدّونه على قدر أموالهم؛ هل لمن قدر على الخلاص من ذلك أن يفعل، وهو إذا تخلص أخذ سائر أهل البلد بتمام ما جعل عليهم. فقيل: لا؛ وهو قول سُحنون من علمائنا. وقيل: نعم، له ذلك إنْ قدر على الخلاص؛ وإليه ذهب أبو جعفر أحمد بن

---

(١) في النكت والعيون: إن كان من هو عليه عالماً به، وكلاهما بمعنى.

(٢) النكت والعيون ٥/٢٠٨ - ٢٠٩ .

(٣) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٦٢٣ .

(٤) في أحكام القرآن ٤/١٦٥٨ .

(٥) في النسخ: نفاها، والمثبت من أحكام القرآن.

نصر الداودي ثم المالكي. قال: ويدلُّ عليه قول مالك في الساعي يأخذ من غنم أحد الخُلطاء شاةً وليس في جميعها نصاب: إنها مظلمة على من أُخذت له لا يرجِع على أصحابه بشيء. قال: ولست آخذ بما روِي عن سحنون؛ لأن الظُّلم لا أُسوةَ فيه، ولا يلزم أحدٌ أن يُولج نفسَه في ظُلم مخافةَ أن يُضاعَفَ الظُّلمُ على غيره، والله سبحانه يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾.

التاسعة: واختلف العلماء في التحليل؛ فكان ابن المُسَيَّب لا يُحلل أحدًا من عِرض ولا مال. وكان سليمان بن يَسار ومحمد بن سِيرين يُحلِّلان من العِرض والمال. ورأى مالك التحليل من المال دون العرض. روى ابن القاسم وابن وهب عن مالك وسئل عن قول سعيد بن المسيب: لا أُحلِّل أحدًا، فقال: ذلك يختلف؛ فقلت له: يا أبا عبد الله، الرجلُ يُسلف الرجلَ فَيَهْلِكُ ولا وفاء له؟ قال: أرى أن يُحلله وهو أفضل عندي؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٨]. فقيل له: الرجل يظلم الرجل؟ فقال: لا أرى ذلك، هو عندي مُخالفٌ للأوّل؛ يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ ويقول تعالى: ﴿مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ﴾ [التوبة: ٩٢] فلا أرى أن يجعله من ظُلمه في حِلّ.

قال ابن العربي[1]: فصار في المسألة ثلاثة أقوال: أحدها: لا يُحلِّله بحالٍ؛ قاله سعيد ابن المسيّب. الثاني: يُحلّله؛ قاله محمد بن سيرين. الثالث: إن كان مالاً حلَّله وإن كان ظُلماً لم يُحلِّله؛ وهو قول مالك.

وجه الأوّل ألّا يُحلِّل ما حرّم الله؛ فيكون كالتبديل لحكم الله. ووجه الثاني أنه حقُّه فله أن يُسقطَه كما يُسقط دمَه وعِرْضه. ووجه الثالث الذي اختاره مالك هو أن الرجل إذا غلب على أداء حقك فمن الرفق به أن تُحلِّله[2]، وإن كان ظالماً فمن الحق ألا تتركَه لئلا تغترَّ الظَّلَمةُ ويسترسلوا[3] في أفعالهم القبيحة.

---

(١) في أحكام القرآن ٤/١٦٥٨، وما قبله منه.

(٢) في (د): يحلله، وفي (م): يتحلله، والمثبت من (ظ).

(٣) في النسخ الخطية: يستشرون، والمثبت من أحكام القرآن.

وفي «صحيح» مسلم حديثُ أبي اليَسَر الطويل وفيه أنه قال لِغريمه: أُخرج إليّ، فقد علمتُ أين أنت؛ فخرج؛ فقال: ما حملك على أن اختبأتَ مني؟ قال: أنا والله أُحَدِّثُكَ ثم لا أَكذِبُك، خَشيتُ ـ والله ـ أن أُحدِّثَك فأكذِبَك، وأن أَعِدَكَ فأُخْلِفك، وكنتَ صاحبَ رسول الله ﷺ، وكنتُ والله مُعْسِرًا. قال: قلت: آللهِ؟ قال اللهِ[١]؛ قال: فأتى بصحيفة فمحاها فقال: إن وجدتَ قضاءً فاقضِ، وإلا فأنت في حِلّ. وذكر الحديث[٢].

قال ابن العربي[٣]: وهذا في الحي الذي يُرجى له الأداء لسلامة الذِّمَّة ورجاء التَّحَلُّل[٤]، فكيف بالميت الذي لا مُحاللة له ولا ذِمّة معه.

العاشرة: قال بعض العلماء: إن مَن ظُلم وأُخِذ له مالٌ فإنما له ثوابٌ ما احتُبِس عنه إلى موته، ثم يرجع الثواب إلى ورثته، ثم كذلك إلى آخرهم؛ لأن المال يصير بعده للوارث. قال أبو جعفر الداودي المالكي: هذا صحيحٌ في النظر؛ وعلى هذا القول إن مات الظالمُ قبل مَن ظَلَمه ولم يترك شيئاً، أو ترك ما لم يعلم وارثُه فيه بظلم لم تنتقل تِباعةُ المظلوم إلى ورثة الظالم؛ لأنه لم يبقَ للظالم ما يستوجبه ورثة المظلوم.

الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ أي: صبر على الأذى و«غفر» أي: ترك الانتصار لوجه الله تعالى؛ وهذا فيمن ظَلَمه مسلم. ويُحكى أن رجلاً سبَّ رجلاً في مجلس الحسن رحمه الله فكان المسبوب يكظِم ويعرق فيمسح العرق، ثم قام فتلا هذه الآية؛ فقال الحسن: عَقَلها والله، وفهمها إذ ضيَّعها الجاهلون[٥].

---

(١) قال الإمام النووي في شرح مسلم ١٨/ ١٣٥ : الأول بهمزة ممدودة على الاستفهام، والثاني بلا مدّ، والهاء فيهما مكسورة، هذا هو المشهور. قال القاضي: رويناه بكسرها وفتحها معاً، قال: وأكثر أهل العربية لا يُجيزون غير كسرها.

(٢) صحيح مسلم (٣٠٠٦).

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٥٩ .

(٤) في النسخ: التمحل، وجاء في هامش (ي): يقال: تمحل، أي: احتال، فهو مُتَمحِّل. قاله الجوهري [الصحاح (محل)]. والمثبت من أحكام القرآن.

(٥) الكشاف ٣/ ٤٧٣ ، وما بعده منه.

وبالجملة العفو مندوب إليه، ثم قد ينعكس الأمر في بعض الأحوال فيرجع تركُ العفو مندوباً إليه كما تقدّم؛ وذلك إذا احتيج إلى كفّ زيادة البغي وقطع مادّة الأذى، وعن النبي ﷺ ما يدل عليه، وهو أن زينب أسمعت عائشةَ رضي الله عنهما بحضرته فكان ينهاها فلا تنتهي، فقال لعائشة: «دونَكِ فانتصري» خرجه مسلم في «صحيحه» بمعناه(١).

وقيل: «صَبَرَ» عن المعاصي وستر على المساوئ. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي من عزائم الله التي أمر بها. وقيل من عزائم الصواب التي وفق لها. وذكر الكلبي والفراء(٢) أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق ﷺ مع ثلاث آيات قبلها، وقد شَتَمه بعضُ الأنصار فردّ عليه ثم أمسك. وهي المَدَنِيَّات من هذه السورة.

وقيل: هذه الآيات في المشركين، وكان هذا في ابتداء الإسلام قبل الأمر بالقتال ثم نسختها آيةُ القتال؛ وهو قول ابن زيد، وقد تقدم(٣).

وفي تفسير ابن عباس: «وَلَمَنْ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ» يريد حمزة بن عبد المطلب وعُبيدة(٤) وعليًّا وجميع المهاجرين رضوان الله عليهم. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ يريد حمزة بن عبد المطلب وعُبيدة وعليًّا رضوان الله عليهم أجمعين. ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ يريد عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأبا جهل والأسود، وكل من قاتل من المشركين يوم بدر. ﴿وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يريد بالظلم والكفر. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يريد وجيع. ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ يريد أبا بكر وعمر وأبا عبيدة بن

---

(١) صحيح مسلم (٢٤٤٢)، وأخرجه أحمد (٢٤٥٧٥)، والبخاري (٢٥٨١) بنحوه أيضاً، وأخرجه بلفظ المصنف أحمد (٢٤٦٢٠).

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢٥ ، ونقله المصنف عنه بواسطة الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٠٩ وما قبله وما بعده منه.

(٣) تقدم آخر المسألة السادسة.

(٤) هو عُبيدة بن الحارث بن المطلب، القرشي، أسلم قديماً، وشهد بدراً، وبارز فيها مع حمزة وعلي رضوان الله عليهم عُتبةَ وشيبة ابني ربيعة والوليدَ بن عتبة، وأصل قصتهم في صحيح البخاري (٣٩٦٥)، وينظر الإصابة ٦/ ٣٦٩ .

الجراح ومُصعب بن عُمير وجميع أهل بدر رضوان الله عليهم أجمعين. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ حيث قَبِلوا الفِداء وصبروا على الأذى.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ أي: يَخْذُله ﴿فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ هذا فيمن أعرض عن النبيِّ ﷺ فيما دعاه إليه من الإيمان بالله والمودّة في القُربى، ولم يُصدِّقه في البعث وأن متاعَ الدنيا قليل. أي: من أضلَّه اللهُ عن هذه الأشياء فلَا يهديه هادٍ.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي الكافرين. ﴿لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ يعني جهنم. وقيل: رَأَوُا العذابَ عند الموت. ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ يطلبون أن يُرَدُّوا إلى الدنيا لِيعملوا بطاعة الله، فلا يُجابون إلى ذلك[١].

قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أي: على النار لأنها عذابهم؛ فكنى عن العذاب المذكور بحرف التأنيث؛ لأن ذلك العذابَ هو النار، وإن شئت جهنم، ولو راعى اللفظ لقال: عليه.

ثم قيل: هم المشركون جميعاً يُعرَضون على جهنم عند انطلاقهم إليها؛ قاله الأكثرون. وقيل: آل فرعون خصوصًا، تُحبس أرواحُهم في أجواف طير سود تغدو على جهنم وتروح؛ فهو عَرْضُهم عليها؛ قاله ابن مسعود. وقيل: إنهم عامة المشركين، تعرض عليه ذنوبهم في قبورهم، ويُعرضون على العذاب في قبورهم؛

(١) تفسير الطبري ٢٠/٥٢٩ بنحوه.

وهذا معنى قول أبي الحجاج[١].

﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ ذهب بعض القُرَّاء إلى الوقف على «خَاشِعينَ». وقوله: «مِنَ الذُّلِّ» ومُتعلِّقٌ بـ «يَنْظُرُونَ». وقيل: متعلق بـ «خَاشِعِينَ»[٢]. والخشوع الانكسار والتواضع.

ومعنى ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ أي: لا يرفعون أبصارهم للنظر رفعًا تامًّا؛ لأنهم ناكسو الرؤوس. والعرب تصف الذليل بغَضِّ الطرف، كما يستعملون في ضدّه حديد النظر إذا لم يُتَّهم بريبة فيكون عليه منها غَضاضة. وقال مجاهد: «مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ» أي: ذليل، قال: وإنما ينظرون بقلوبهم لأنهم يُحشرون عُمياً[٣]، وعين القلب طرفٌ خفِيّ[٤]. وقال قتادة والسدّي والقُرَظِيّ وسعيد بن جبير: يسارقون النظر من شدّة الخوف[٥]. وقيل: المعنى ينظرون من عين ضعيفة النظر. وقال يونس: «مِن» بمعنى الباء؛ أي: ينظرون بطرف خفي، أي: ضعيف من الذُّل والخوف، ونحوه عن الأخفش[٦]. وقال ابن عباس: بطرف ذابل ذليل[٧]. وقيل: أي: يفزعون أن ينظروا إليها بجميع أبصارهم لِمَا يرون من أصناف العذاب.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: يقول المؤمنون في الجنة لما عاينوا ما حلَّ بالكفار: إن الخُسران في الحقيقة ما صار إليه هؤلاء، فإنهم خسروا أنفسهم لأنهم في العذاب المُخلّد، وخسروا أهليهم لأن

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٠٩ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٤١ ، والكشاف ٣/ ٤٧٤ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٣٢٣ .

(٤) قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤١ : في هذا التأويل تكلُّف، وقال الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٧٤ : فيه تعسُّف.

(٥) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥٣٣ عن قتادة والسدي.

(٦) ذكر الأخفش في معاني القرآن ٢/ ٦٨٧ قول يونس.

(٧) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥٣٢ .

الأهل إن كانوا في النار فلا انتفاع بهم، وإن كانوا في الجنة فقد حيل بينه وبينهم. وقيل: خسران الأهل أنهم لو آمنوا لكان لهم أهلٌ في الجنة من الحور العِين(١).

وفي «سنن» ابن ماجه: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحدٍ إلا له مَنْزلان: منزلٌ في الجنة ومنزلٌ في النار، فإذا ماتَ فدخلَ النارَ وَرِثَ أهلُ الجنة منزلَه فذلك قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾». وقد تقدم(٢).

وفي «مسند» الدّارِمِيّ: عن أبي أُمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِنْ أحدٍ يُدخله الله الجنةَ إلا زوَّجه اثنين وسبعين زوجةً من الحور العين وسبعين من ميراثه من أهل النار، وما منهنَّ واحدةٌ إلا ولها قُبُلٌ شهِيّ وله ذَكَر لا يَنْثني». قال هشام بن خالد: «مِن ميراثه من أهل النار» يعني رجالاً أُدخلوا النار فورث أهلُ الجنة نساءهم كما ورثت امرأة فرعون(٣).

﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ أي: دائم لا ينقطع. ثم يجوز أن يكون هذا من قول المؤمنين، ويجوز أن يكون ابتداء من الله تعالى(٤).

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: أعواناً ونُصراء ﴿يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: من عذابه ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ أي: طريق يَصِلُ به إلى الحقّ

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٤١ بنحوه.

(٢) سنن ابن ماجه (٤٣٤١)، وصحَّح إسناده الحافظ ابن حجر في الفتح ١١/ ٤٤٢ ، وسلف ١٥/ ١٦ .

(٣) لم نقف عليه في مسند الدارمي، وأخرجه ابن ماجه (٤٣٣٧)، وفي إسناده خالد بن يزيد بن أبي مالك. وهّاه ابن معين، وقال أحمد: ليس بشيء. ميزان الاعتدال ١/ ٦٤٥ . وهشام بن خالد هو شيخ ابن ماجه الذي روى عنه هذا الحديث.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٤٢ .

في الدنيا والجنة في الآخرة؛ لأنه قد سدَّت عليه طريق النجاة.

قوله تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم﴾ أي: أجيبوه إلى ما دعاكم إليه من الإيمان به والطاعة. استجاب وأجاب بمعنًى؛ وقد تقدّم. ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ يريد يومَ القيامة؛ أي: لا يردُّه أحدٌ بعد ما حكم اللهُ به وجعله أجلاً ووقتاً. ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ﴾ أي: من ملجأ يُنجيكم من العذاب.

﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ أي: من ناصر ينصركم؛ قاله مجاهد. وقيل: النكير بمعنى المُنكر؛ كالأليم بمعنى المُؤلِم؛ أي: لا تجدون يومئذ مُنكِراً لما ينزل بكم من العذاب؛ حكاه ابن أبي حاتم؛ وقاله الكلبي[(١)]. الزجاج[(٢)]: معناه: أنهم لا يقدرون أن يُنكروا الذنوبَ التي يُوقَفون عليها. وقيل: «مِنْ نَكِيرٍ» أي: إنكار ما ينزل بكم من العذاب، والنكير والإنكار تغييرُ المنكر.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟﴾ أي: عن الإيمان ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أي: حافظاً لأعمالهم حتى تُحاسبَهم عليها. وقيل: مُوَكَّلاً بهم لا تُفارقهم دون أن يؤمنوا؛ أي: ليس لك إكراهُهم على الإيمان. ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ وقيل: نسخ هذا بآية القتال[(٣)]. ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ الكافر ﴿مِنَّا رَحْمَةً﴾ رخاءً وصحة. ﴿فَرِحَ بِهَا﴾

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢١٠.

(٢) في معاني القرآن ٤/ ٤٠٢.

(٣) زاد المسير ٧/ ٢٩٥.

بَطِرَ بها. ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ بلاءٌ وشدَّةٌ. ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ﴾ أي: لما تقدَّم من النعمة، فيعدّد المصائب وينسى النعم.

قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ **فيه أربع مسائل:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ابتداء وخبر. ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ من الخلق. ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ قال عَبيدة[(١)] وأبو مالك ومجاهد والحسن والضحاك: يهب لمن يشاء إناثاً لا ذكور معهنّ، ويهب لمن يشاء ذكورًا لا إناثَ معهم؛ وأدخل الألف واللام على الذكور دون الإناث لأنهم أشرف، فميَّزهم بسمة التعريف[(٢)]. وقال واثلة بن الأسقع: إنَّ مِن يُمْن المرأة تبكيرَها بالأنثى قبل الذكر، وذلك أن الله تعالى قال: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ فبدأ بالإناث[(٣)].

﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾ قال مجاهد: هو أن تَلِدَ المرأة غلاماً ثم تلد جاريةً، ثم تلد غلاماً ثم تلد جارية[(٤)]. وقال محمد بن الحنفية: هو أن تَلِدَ تَوْءَمًا، غلاماً وجارية، أو يزوّجهم ذكراناً وإناثاً[(٥)]. قال القُتبيّ[(٦)]: التزويج هاهنا هو الجمع بين

---

(١) في النسخ: أبو عبيدة: والمثبت من المصادر، وهو عَبيدة السلماني.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢١١، وينظر معاني القرآن للنحاس ٦/ ٣٢٧، وأخرج أقوال عَبيدة السلماني والحسن والضحاك الطبري ٢٠/ ٥٣٧ - ٥٣٩.

(٣) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٣.

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥٣٨.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢١١.

(٦) في غريب القرآن ص ٣٩٤.

البنين والبنات؛ تقول العرب: زوَّجتُ إبلي، إذا جمعت بين الكبار والصغار.

﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ﴾ أي: لا يُولَد له؛ يقال: رجل عقيم، وامرأة عقيم. وعَقِمَت المرأة تَعْقَم عَقْمًا؛ مثل حَمِد يَحْمَدُ. وعَقُمت تَعْقُم، مثل عَظُم يَعْظُم. وأصله القطع، ومنه المُلْك العقيم، أي: تقطع فيه الأرحام بالقتل والعقوق خوفاً على الملك. وريح عقيم؛ أي: لا تلقح سحاباً ولا شجراً. ويوم القيامة يوم عقيم؛ لأنه لا يوم بعده. ويقال: نساء عُقُم وعُقْم؛ قال الشاعر:

عُقِم النساء فما يَلِدْنَ شبيهه إنَّ النساءَ بمثله عُقْمُ[1]

وحكى النقاش أن هذه الآية نزلت في الأنبياء خصوصًا وإن عمَّ حُكمها؛ وَهَبَ لِلُوطٍ الإناث ليس معهنّ ذكَر، ووهب لإبراهيم الذكور ليس معهم أنثى، ووهب لإسماعيل وإسحاق الذكور والإناث، وجعل عيسى ويحيى عقيمين[2]؛ ونحوه عن ابن عباس وإسحاق بن بشر. قال إسحاق: نزلت في الأنبياء، ثم عمَّت. ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾ يعني لوطاً عليه السلام، لم يُولد له ذَكَر، وإنما ولد له ابنتان. ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ يعني إبراهيم عليه السلام لم يُولَد له أنثى، بل وُلِدَ له ثمانية ذكور. ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًاۖ﴾ يعني رسول الله ﷺ، ولد له أربعة بنين وأربع بنات. ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ﴾ يعني يحيى بن زكريا عليهما السلام[3]؛ لم يذكر عيسى.

ابن العربي[4]: قال علماؤنا: «يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا» يعني لوطاً، كان له بنات ولم يكن له ابن. ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ يعني إبراهيم، كان له بنون ولم يكن له بنت. وقوله: «أَوْ يُزَوّجَهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا» يعني آدم، كانت حوّاء تلد له في كل بطن توأمين؛ ذكراً وأنثى، ويزوّج الذكر من هذا البطن من الأنثى من البطن الآخر، حتى أحكم الله

---

(١) البيت لأبي دَهْبل الجُمحي كما في شرح الحماسة البصرية للمرزوقي ٤/ ١٦٠٥ . والكلام السالف من الصحاح (عقم).

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢١١ .

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٤٣ .

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٦٠ .

التحريم في شرع نوح ﷺ. وكذلك محمد ﷺ كان له ذكور وإناث من الأولاد: القاسم والطيب والطاهر وعبد الله وزينب وأم كلثوم ورقية وفاطمة؛ وكلهم من خديجة رضي الله عنها، وإبراهيم وهو من مارية القِبطية. وكذلك قسم الله الخلق من لدن آدم إلى زماننا هذا، إلى أن تقوم الساعة، على هذا التقدير المحدود بحكمته البالغة ومشيئته النافذة؛ ليبقى النسل، ويتمادى الخَلْق، وينفذ الوعد، ويحق الأمر، وتعمر الدنيا، وتأخذ الجنة وجهنم كل واحد ما يملؤها ويبقى. ففي الحديث: «إنَّ النارَ لن تمتلئ حتى يَضَعَ الجَبَّارُ فيها قَدَمَه، فتقول: قَطْ قَطْ. وأما الجنة فيبقى منها، فينشئ اللهُ لها خَلْقاً آخر»[(١)].

الثانية: قال ابن العربي[(٢)]: إنَّ الله تعالى لِعموم قُدرته وشديد قوّته يخلق الخلق ابتداء من غير شيء، وبعظيم لطفه وبالغ حكمته يخلق شيئًا من شيء لا عن حاجة؛ فإنه قُدُّوس عن الحاجات سلام عن الآفات، كما قال: ﴿ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ﴾ [الحشر: ٢٣] فخلق آدم من الأرض وخلق حوّاء من آدم، وخلق النشأة من بينهما منهما مرتبًا على الوطء، كائناً على الحمل، موجوداً في الجنين بالوضع؛ كما قال النبي ﷺ: «إذا سبق ماءُ الرجل ماءَ المرأة أذْكَرا، وإذا سبق ماءُ المرأة ماءَ الرجل آنثا»[(٣)]. وكذلك في الصحيح أيضاً «إذا علا ماءُ الرجل ماءَ المرأة أَشبهَ الولدُ أعمامَه، وإذا علا ماءُ المرأة ماءَ الرجل أشبهَ الولدُ أخواله»[(٤)].

قلت: هذا معنى حديث عائشة لا لفظه، خرّجه مسلم من حديث عروة بن الزبير عنها أن امرأة قالت لرسول الله ﷺ: هل تغتسل المرأة إذا احتلمت وأبصرت الماء؟

---

(١) أخرجه أحمد (٧٧١٨)، والبخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦) مطولاً من حديث أبي هريرة ﷺ. وفي الباب عن أنس ﷺ أخرجه أحمد (١٢٤٤٠)، والبخاري (٧٣٨٤)، ومسلم (٢٨٤٨).

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٦٠ .

(٣) هذا حديث ثوبان ﷺ بنحوه، وسيذكره المصنف قريباً.

(٤) هو حديث عائشة رضي الله عنها بنحوه كما سيذكر المصنف بعده.

فقال: «نعم» فقالت لها عائشة: تَرِبَتْ يداك وأُلَّت؛ فقال رسول الله ﷺ: «دَعِيها، وهل يكون الشَّبه إلا مِن قِبَل ذلك. إذا علا ماؤها ماءَ الرجل أشبهَ الولد أخوالَه، وإذا علا ماء الرجل ماءها أشبهَ أعمامَه»[(١)].

قال علماؤنا[(٢)]: فعلى مقتضى هذا الحديث أن العلو يقتضي الشبه؛ وقد جاء في حديث ثَوْبان ـ خرجه مسلم أيضاً ـ أن النبي ﷺ قال لليهودي: «ماءُ الرجل أبيضُ، وماءُ المرأة أصفرُ، فإذا اجتمعا فعلا مَنِيُّ الرجل مَنِيَّ المرأة أذْكَرا بإذن الله، وإذا علا مَنِيُّ المرأة مَنِيَّ الرجل آنثا بإذن الله» الحديث[(٣)]. فجعل في هذا الحديث أيضاً العلوَّ يقتضي الذكورة والأنوثة؛ فعلى مقتضى الحديثين يلزم اقتران الشَّبه للأعمام والذكورة إن علا مَنِيّ الرجل، وكذلك يلزم إن علا مَنِيّ المرأة اقتران الشبه للأخوال والأنوثة؛ لأنهما معلولَا عِلّةٍ واحدة، وليس الأمر كذلك بل الوجود بخلاف ذلك؛ لأنا نجد الشَّبه للأخوال والذكورةَ والشّبه للأعمام والأنوثة، فتعيَّن تأويل أحد الحديثين.

والذي يتعين تأويله [العلو] الذي في حديث ثَوْبان فيقال: إن ذلك العلو معناه سبق الماء إلى الرحم، ووجهه أنَّ العلوَّ لما كان معناه الغَلَبَةَ من قولهم: سابقني فلان فسبقته، أي: غلبته؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [الواقعة: ٦٠] أي: بمغلوبين، قيل عليه: علا. ويُؤيِّد هذا التأويل قولُه في الحديث: «إذا سبق ماءُ الرجل ماءَ المرأة أذكرا، وإذا سبق ماءُ المرأة ماءَ الرجل آنثا».

وقد بنى القاضي أبو بكر بن العربي[(٤)] على هذه الأحاديث بناءً فقال: إن للماءين

(١) صحيح مسلم (٣١٤)، وأخرجه أحمد (٢٤٦١٠)، وهو عند البخاري (١٣٠) من حديث أم سلمة رضي الله عنها بنحوه ودون قوله: «إذا علا ماؤها ماء الرجل...» وقوله: وأُلَّت: أي: أُصيبت بالألَّة، وهي الحربة. المفهم ١/ ٥٧٢.

(٢) هو قول أبي العباس القرطبي في المفهم١/ ٥٧١ - ٥٧٢. وما بين حاصرتين الآتي منه.

(٣) صحيح مسلم (٣١٥).

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٦٠ - ١٦٦١، ونقله المصنف عنه بواسطة أبو العباس القرطبي في المفهم ١/ ٥٧٢ والكلام منه إلى آخر المسألة.

أربعةَ أحوال: الأوّل: أن يخرج ماءُ الرجل أولاً، الثاني: أن يخرج ماء المرأة أوّلاً، الثالث: أن يخرج ماء الرجل أوّلاً ويكون أكثر، الرابع: أن يخرج ماءُ المرأة أوّلاً ويكون أكثر. ويتم التقسيم بأن يخرج ماءُ الرجل أوّلاً، ثم يخرج ماءُ المرأة بعده ويكون أكثر، أو بالعكس؛ فإذا خرج ماء الرجل أوّلاً وكان أكثرَ جاء الولد ذكراً بحكم السَّبق، وأشبه الولدُ أعمامَه بحكم الكَثْرة.

وإن خرج ماء المرأة أوّلاً وكان أكثر جاء الولد أُنثى بحكم السَّبق، وأشبه أخواله بحكم الغَلَبة. وإن خرج ماء الرجل أوّلاً لكن لمَّا خرج ماء المرأة بعدهاكان أكثر، كان الولد ذكراً بحكم السَّبق، وأشبه أخوالَه بحكم غَلَبة ماء المرأة، وإن سبق ماء المرأة لكن لما خرج ماء الرجل كان أعلى من ماء المرأة كان الولد أنثى بحكم سبق ماء المرأة وأشبه أعمامَه بحكم غَلَبة ماء الرجل. قال: وبانتظام هذه الأقسامِ يستتبُّ الكلام ويرتفع التعارضُ عن الأحاديث، فسبحان الخالق العليم.

الثالثة: قال علماؤنا[1]: كانت الخِلْقة مستمرةً ذكراً وأُنثى إلى أن وقع في الجاهلية الأولى الخُنثى، فأُتِي به فرِيضَ العرب ومُعمَّرها عامرَ بن الظَّرِب فلم يدرِ ما يقول فيه، وأرجأهم عنه؛ فلما جنّ عليه الليل تنكّر موضعه، وأَقَضَّ عليه مضجعه، وجعل يتقلّى ويتقلّب، وتجيء به الأفكارُ وتذهب، إلى أن أنكرت خادمُه حالَه، فقالت: ما بك؟ قال لها: سهِرت لأمر قُصدت به، فلم أدرِ ما أقول فيه؟ فقالت: ماهو؟ قال لها: رجلٌ له ذَكَر وفَرْج، كيف يكون حاله في الميراث؟ قالت له الأمَة: ورِّثه من حيث يبول؛ فعَقَلها وأصبح، فعرضها عليهم وانقلبوا بها راضين.

وجاء الإسلام على ذلك فلم تنزل إلا في عهد عليّ ﷺ فقضي فيها[2].

وقد روى الفَرَضيُّونَ عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس عن النبيّ ﷺ أنه سُئل عن مولود له قُبُل وذَكَرٌ من أين يُورَّث؟ قال: «من حيث يبول». وروي أنه أُتي

(١) هو قول ابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٦٦١ - ١٦٦٢ ، والكلام منه إلى آخر المسألة.

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٦/ ٢٦١ .

بخنثى من الأنصار فقال: «ورّثوه من أول ما يبول»[(١)]. وكذا روى محمد ابن الحنفية عن عليّ، ونحوه عن ابن عباس، وبه قال ابن المسيّب وأبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد، وحكاه المُزني عن الشافعي. وقال قوم: لا دلالة في البول؛ فإن خرج البولُ منهما جميعاً؛ قال أبو يوسف: يحكم بالأكثر. وأنكره أبو حنيفة وقال: أتكيله! ولم يجعل أصحاب الشافعي للكثرة حكماً. وحُكي عن عليّ والحسن أنهما قالا: تُعَدُّ أضلاعه، فإن المرأة تزيد على الرجل بِضِلَعٍ واحد[(٢)]. وقد مضى ما للعلماء في هذا الحديث في آية المواريث في «النساء» مجوّداً[(٣)]، والحمد لله.

الرابعة: قال القاضي أبو بكر بن العربي[(٤)]: وقد أنكر قوم من رؤوس العوامّ وجودَ الخُنثى، لأن الله تعالى قسم الخَلْق إلى ذكر وأنثى. قلنا: هذا جهل باللغة، وغباوة عن مقطع الفصاحة، وقصور عن معرفة سَعة القُدرة. أما قدرة الله سبحانه فإنه واسعٌ عليم، وأما ظاهر القرآن فلا ينفي وجودَ الخُنثى؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾. فهذا عموم مدح فلا يجوز تخصيصه؛ لأن القُدرة تقتضيه. وأما قوله: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ . أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ فهذا إخبارٌ عن الغالب في الموجودات، وسكت عن ذكر النادر؛ لدخوله تحت عموم الكلام الأوّل، والوجود يشهد له والعِيان يُكذِّب مُنكرَه، وقد كان يقرأ معنا برِباط أبي سعيد علي الإمام الشهيد من بلاد المغرب خُنثى ليس له لحية وله ثديان، وعنده جارية؛ فربُّك أعلم به، ومع طول الصُّحبة عقلني الحياء عن سؤاله، وبودّي اليوم لو كاشفته عن حاله.

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٦/ ٢٦١ باللفظ الأول، ومحمد بن السائب الكلبي متهم بالكذب كما في تقريب التهذيب.

(٢) قال أبو عبد الله الشقاق شيخ ابن العربي فيما نقله عنه في أحكام القرآن ٤/ ١٦٦٢ : ولو صح هذا لما أشكل حاله.

(٣) ٦/ ١٠٩ وما بعدها.

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٦٣ .

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٥١﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ سبب ذلك أن اليهود قالوا للنبيّ ﷺ: ألّا تُكلِّم الله وتنظر إليه إن كنتَ نبيًّا كما كلّمه موسى ونظر إليه؛ فإنا لن نُؤمن لك حتى تفعل ذلك. فقال النبي ﷺ: «إنَّ موسى لن ينظر إليه» فنزل قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾؛ ذكره النقاش والواحدي[١] والثعلبي.

﴿وَحْيًا﴾ قال مجاهد: نَفْثٌ يُنْفَث في قلبه فيكون إلهاما[٢]؛ ومنه قوله ﷺ: «إن روح القُدُس نَفَث في رُوعِي أنّ نَفْساً لن تموت حتى تستكملَ رزقَها وأجلها، فاتقوا اللهَ وأجْمِلوا في الطلب. خُذوا ما حلّ ودَعُوا ما حَرُم»[٣].

﴿أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ كما كلم موسى .﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ كإرساله جبريل عليه السلام. وقيل: «إِلَّا وَحْيًا» رؤيا يراها في منامه؛ قاله زهير بن محمد[٤]. «أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ» كما كلم موسى. «أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا» قال زهير: هو جبريل عليه السلام. ﴿فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ وهذا الوحي من الرسل خطابٌ منهم للأنبياء يسمعونه نُطقاً ويَرَونه عِياناً. وهكذا كانت حال جبريل عليه السلام إذا نزل بالوحي على النبي ﷺ. قال ابن عباس: نزل جبريل عليه السلام على كل نبيّ فلم يَرَهُ منهم إلا محمدٌ وعيسى وموسى وزكريا عليهم السلام. فأما غيرهم فكان وحياً إلهاماً في المنام[٥].

---

(١) في أسباب النزول ص ٣٩٦، وذكره عن النقاش الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢١٢.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢١٢.

(٣) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١١٥١)، والبغوي في شرح السنة (٤١١١) و(٤١١٢) و(٤١١٣) من حديث ابن مسعود ﷺ.

(٤) في النسخ: محمد بن زهير، وهو خطأ، والمثبت من النكت والعيون ٥/ ٢١٢، والمصادر، وسلفت ترجمته ٢/ ٣٩٩.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢١٢.

وقيل: «إِلَّا وَحْيًا» بإرسال جبريل «أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ» كما كلم موسى «أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا» إلى الناس كافة.

وقرأ الزهري وشيبة ونافع: «أَوْ يرسلُ رسولاً فَيُوحِي» برفع الفعلين[١]. الباقون بنصبهما. فالرفع على الاستئناف؛ أي: وهو يُرسل. وقيل: «يُرسلُ» بالرفع في موضع الحال؛ والتقدير: إلا مُوحياً أو مُرسلاً. ومن نصب عطفوه على محل الوحي؛ لأن معناه: وما كان لِبشر أن يُكلِّمه اللهُ إلا أن يُوحي أو يُرسلَ. ويجوز أن يكون النصب على تقدير حذف الجار من أن المضمرة. ويكون في موضع الحال؛ التقدير: أو بأن يُرسلَ رسولاً. ولا يجوز أن يعطف «أَوْ يُرْسِلَ» بالنصب على «أَنْ يُكَلِّمَهُ» لفساد المعنى؛ لأنه يصير: ما كان لِبشر أن يُرسِلَه أو أن يُرسِلَ إليه رسولاً، وهو قد أرسل الرُّسلَ من البشر وأرسلَ إليهم[٢].

الثانية: احتجَّ بهذه الآية من رأى فيمن حلف ألا يُكلّم رجلاً فأرسل إليه رسولاً أنه حانث؛ لأن المُرسِلَ قد سُميّ فيها مُكلِّماً للمرسَل إليه، إلا أن ينوي الحالف المواجهة بالخطاب.

قال ابن المنذر[٣]: واختلفوا في الرجل يحلف ألا يُكلِّم فلاناً فكتب إليه كتاباً، أو أرسل إليه رسولاً؛ فقال الثَّوْري: الرسول ليس بكلام. وقال الشافعي: لا يبين أن يحنثَ. وقال النَّخَعي: والحكم في الكتاب يحنث. وقال مالك: يَحنَثُ في الكتاب والرسول. وقال مَرَّة: الرسول أسهلُ من الكتاب.وقال أبو عُبيد: الكلام سوى الخط والإشارة. وقال أبو ثور: لا يحنث من الكتاب. قال ابن المنذر: لا يَحْنَثُ في الكتاب والرسول.

قلت: وهو قول مالك[٤]. قال أبو عمر[٥]: ومن حلف ألّا يكلّم رجلاً فسلّم عليه

---

(١) قراءة نافع في السبعة ص ٥٨٢ ، والتيسير ص ١٩٥ .

(٢) الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ٢٥٣ - ٢٥٤ بنحوه.

(٣) في الإشراف ١/ ٤٧٤ .

(٤) كذا قال المصنف، وسلف أن مالكاً قال: يحنث في الكتاب والرسول. وينظر المدونة ٢/ ١٣١ .

(٥) في الكافي ١/ ٤٥٠ .

عامداً أو ساهياً، أو سلّم على جماعة هو فيهم فقد حنث في ذلك كلّه عند مالك. وإن أرسل إليه رسولاً، أو سلّم عليه في الصلاة لم يحنث.

قلت: يحنث في الرسول إلا أن ينويَ المُشافهة؛ للآية، وهو قول مالك وابن الماجشُون. وقد مضى في أول «سورة مريم» هذا المعنى عن علمائنا مستوفًى[١]، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: وكالذي أوحينا إلى الأنبياء من قبلك أوحينا إليك ﴿رُوحًا﴾ أي: نبوة؛ قاله ابن عباس. الحسن وقتادة: رحمة من عندنا. السُّدّي: وحيًا. الكلبي: كتاباً. الربيع: هو جبريل. الضحاك: هو القرآن. وهو قول مالك بن دينار[٢]. وسمَّاه روحًا لأن فيه حياةً من موت الجهل. وجعله من أمره بمعنى: أنزله كما شاء على من يشاء من النَّظم المُعجز والتأليف المُعجب.

ويمكن أن يُحمَلَ قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ [الإسراء: ٨٥] على القرآن أيضًا ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ أي: يسألونك من أين لك هذا القرآن؟ قل: إنه من أمر الله أنزله عليّ مُعجزاً؛ ذكره القُشَيْري. وكان مالك بن دينار يقول: يا أهل القرآن، ماذا زرع القرآنُ في قلوبكم؟ فإن القرآنَ ربيعُ القلوب كما أن الغيثَ ربيعُ الأرض[٣].

الثانية: قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ أي: لم تكن تعرف

---

(١) ١١/ ٨٦.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٣٢، ما عدا قول الضحاك فهو في النكت والعيون ٥/ ٢١٢.

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ٣٥٨.

الطريق إلى الإيمان. وظاهرُ هذا يدلُّ على أنه ما كان قبل الإيحاء مُتَّصفًا بالإيمان. قال القُشَيري: وهو من مجوّزات العقول، والذي صار إليه المُعظم أن الله ما بعث نبياً إلا كان مؤمناً به قبل البِعثة. وفيه تحكّم، إلا أن يثبت ذلك بتوقيف مقطوع به.

قال القاضي أبو الفضل عياض[١]: وأما عصمتهم من هذا الفن قبل النبوّة فللناس فيه خلاف؛ والصواب أنهم معصومون قبل النبوة من الجهل بالله وصفاته والتشكك في شيء من ذلك. وقد تعاضدت الأخبار والآثار عن الأنبياء بتنزيههم عن هذه النقيصة منذ وُلدوا؛ ونشأتهم على التوحيد والإيمان، بل على إشراق أنوار المعارف ونفحات ألطاف السعادة، ومن طالَعَ سِيَرَهم منذ صباهم إلى مبعثهم حقَّق ذلك؛ كما عُرف من حال موسى وعيسى ويحيى وسليمان وغيرهم عليهم السلام.

قال الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢] قال المفسرون: أعطى يحيى العلم بكتاب الله في حال صباه. قال معمر: كان ابن سنتين أو ثلاث؛ فقال له الصبيان: لم لا تلعب! فقال: أَلِلَّعب خُلقت[٢]؟! وقيل في قوله ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٩]: صدَّق يحيى بعيسى وهو ابن ثلاث سنين، فشهد له أنه كلمة الله وروحه. وقيل: صدقه وهو في بطن أمه؛ فكانت أمّ يحيى تقول لمريم: إني أجد ما في بطني يسجد لما في بطنك تحية له[٣].

وقد نص الله على كلام عيسى لأمه عند ولادتها إياه بقوله: ﴿أَلَّا تَحْزَنِى﴾ على قراءة من قرأ: «مَنْ تَحْتَهَا»[٤] وعلى قول من قال: إن المُنادي عيسى، ونصّ على كلامه في مهده فقال: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠]. وقال: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩] وقد ذكر من حُكم سليمان وهو صبي يلعب في قصة المرجومة وفي قصة الصبيّ[٥] ما اقتدى به أبوه داود. وحكى الطبري

---

(١) في الشفا ٢/ ٢٥٧ .

(٢) سلف ١١/ ٨٧ .

(٣) سلف ٥/ ١١٦ و١١/ ٩٣ .

(٤) قرأ بها ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو شعبة. السبعة ص٤٠٨ ، والتيسير ص١٤٨ . وسلفت ١١/ ٩٣ .

(٥) سلفت ١٤/ ٢٤١ - ٢٤٢ .

أن عمره كان حين أوتي الملك اثني عشر عاماً. وكذلك قصة موسى عليه السلام مع فرعون وأخذه بلحيته وهو طفل. وقال المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [الأنبياء: ٥١]: أي: هديناه صغيراً؛ قاله مجاهد وغيره[١]. وقال ابن عطاء: اصطَفيناه قبل إبداء خلقه. وقال بعضهم: لما وُلِدَ إبراهيم بعث الله إليه مَلَكًا يأمره عن الله تعالى أن يعرِفه بقلبه ويذكره بلسانه فقال: قد فعلتُ؛ ولم يقل: أفعل؛ فذلك رُشده. وقيل: إن إلقاء إبراهيم في النار ومِحنته كانت وهو ابن ست عشرة سنة[٢]. وإن ابتلاء إسحاق بالذبح وهو ابن سبع سنين[٣]. وإن استدلال إبراهيم بالكوكب والقمر والشمس كان وهو ابن خمس عشرة سنة[٤]. وقيل: أُوحِي إلى يوسف وهو صبي عندما همّ إخوته بإلقائه في الجُبّ بقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾ الآية؛ إلى غير ذلك من أخبارهم.

وقد حكى أهل السِّيَر أن آمنة بنت وهب أخبرتْ أن نبينا محمداً ﷺ وُلِدَ حين وُلِدَ باسطاً يديه إلى الأرض رافعاً رأسه إلى السماء[٥]، وقال في حديثه ﷺ: «لما نشأت بُغِّضت إليّ الأوثان وبُغِّض إلي الشعر ولم أهمّ بشيء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين فعصمني الله منهما ثم لم أعد»[٦]. ثم يتمكّن الأمر لهم، وتترادف نفحاتُ الله تعالى عليهم، وتشرق أنوار المعارف في قلوبهم حتى يصلوا الغاية، ويبلغوا باصطفاء الله تعالى لهم بالنبوّة في تحصيل الخصال الشريفة النهايةَ دون ممارسة ولا رياضة. قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

---

(١) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٩٠ .

(٢) ١٤/ ٢٢٨ .

(٣) سلفت قصة الذبيح في الصافات [١٠٣ - ١١٣] وذكرنا ثمة أن الصحيح المقطوع به أنه إسماعيل عليه السلام.

(٤) في النسخ: خمسة عشر شهراً، وسلف هذا القول ٨/ ٤٣٨ .

(٥) طبقات ابن سعد: ١/ ١٠٢ ، والبداية والنهاية ٣/ ٣٨٥ .

(٦) ذكره القاضي عياض في الشفا ١/ ٢١٣ .

قال القاضي[١]: ولم ينقل أحد من أهل الأخبار أن أحداً نُبِّئ واصْطُفِي ممن عُرِف بكفر وإشراك قبل ذلك. ومستند هذا الباب النقل. وقد استدلَّ بعضهم بأن القلوب تنفر عمن كانت هذه سبيله. قال القاضي: وأنا أقول: إن قريشاً قد رمت نبينا عليه الصلاة والسلام بكل ما افترته، وعيّر كفار الأمم أنبياءها بكل ما أمكنها واختلقته، مما نص الله عليه، أو نقلته إلينا الرواة، ولم نجد في شيء من ذلك تعييرًا لواحد منهم برفضه آلهته[٢] وتقريعه بذَمِّه بترك ما كان قد جامعهم عليه. ولو كان هذا لكانوا بذلك مبادرين، وبتلوُّنه في معبوده مُحتجِّين، ولكان توبيخهم له بنهيهم عما كان يعبد قبلُ أفظعَ وأقطعَ في الحُجَّة من توبيخه بنهيهم عن تركهم[٣] آلهتهم وما كان يعبد آباؤهم من قبل؛ ففي إطباقهم على الإعراض عنه دليلٌ على أنهم لم يجدوا سبيلاً إليه، إذ لو كان لنُقل وما سكتوا عنه كما لم يسكتوا عن تحويل القبلة، وقالوا: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ كما حكاه الله عنهم.

الثالثة[٤]: وتكلم العلماءُ في نبينا ﷺ؛ هل كان مُتَعَبِّدًا بدين قبل الوَحْي أم لا؟ فمنهم من منع ذلك مطلقاً وأحاله عقلاً. قالوا: لأنه يبعد أن يكون متبوعاً من عُرف تابعاً، وبَنَوْا هذا على التحسين والتقبيح. وقالت فرقة أخرى بالوقف في أمره عليه الصلاة والسلام، وتركِ قطع الحكم عليه بشيء في ذلك، إذ لم يُحِلِ الوجهين منهما العقل، ولا استبان عندها في أحدهما طريق النقل، وهذا مذهب أبي المعالي. وقالت فرقة ثالثة: إنه كان متعبداً بشرع من قبله وعاملاً به؛ ثم اختلف هؤلاء في التعيين، فذهبت طائفة إلى أنه كان على دين عيسى، فإنه ناسخ لجميع الأديان والملل قبلها؛ فلا يجوز أن يكون النبي على دين منسوخ. وذهبت طائفة إلى أنه كان على دين إبراهيم؛

(١) هو القاضي عياض في الشفا ٢/ ٢٥٧ - ٢٥٨ ، والكلام منه إلى آخر المسألة.

(٢) في (د) و(م): ألهتهم، والمثبت من (ظ) و(ي)، وهو الموافق للشفا.

(٣) في (د) و(ي) و(م): تركه، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق للشفا.

(٤) هذه المسألة في الشفا ٢/ ٢٦٧ - ٢٦٨ و٣٣٥ - ٣٣٧ ، وينظر الإبهاج للسبكي ٢/ ٢٧٥ وما بعدها.

لأنه من ولده وهو أبو الأنبياء. وذهبت طائفة إلى أنه كان على دين موسى؛ لأنه أقدم الأديان. وذهبت المعتزلة إلى أنه لا بد أن يكون على دينٍ، ولكن عين الدين غير معلومة عندنا. وقد أبطل هذه الأقوال كلها أئمتُنا؛ إذ هي أقوال متعارضة وليس فيها دلالة قاطعة، وإن كان العقل يجوّز ذلك كلّه. والذي يُقطع به أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن منسوبًا إلى واحد من الأنبياء نسبةً تقتضي إلى أن يكون واحدًا من أمته ومخاطَبًا بكل شريعته؛ بل شريعتُه مستقِلَّة بنفسها مفتتحة من عند الله الحاكم جلَّ وعز، وأنه ﷺ كان مؤمناً بالله عز وجل، ولا سجد لصنم، ولا أشرك بالله، ولا زنى ولا شرب الخمر، ولا شهد السامر[١]، ولا حضر حلف المطر[٢]، ولا حلْفَ المُطَيِّبين[٣]؛ بل نزهه الله وصانه عن ذلك.

فإن قيل: فقد روى عثمان بن أبي شيبة حديثاً بسنده عن جابر أن النبي ﷺ قد كان يشهد مع المشركين مشاهدهم، فسمع مَلَكين خلفه أحدهما يقول لصاحبه: اذهب حتى تقوم خلفه، فقال الآخر: كيف أقوم خلفه وعهده باستلام الأصنام فلم يشهدهم بعد[٤]؟ فالجواب أن هذا حديثٌ أنكره الإمام أحمد بن حنبل جدًا وقال: هذا موضوع أو شبيهٌ بالموضوع[٥]. وقال الدَّارَقُطْني: إن عثمان وَهِمَ في إسناده، والحديث بالجملة منكر غير متفق على إسناده فلا يُلتفَت إليه، والمعروف عن النبي ﷺ خلافه عند أهل العلم من قوله: «بُغِّضت إليّ الأصنام»[٦] وقوله في قصة بحِيرا حين

(١) السامر: مجلس السُّمَّار. القاموس (سمر).

(٢) كذا في النسخ، ولم نعرفه. والأحلاف المشهورة قبل البعثة هي حلف الأحلاف وحلف المُطيّبين وحلف الفضول. ينظر السيرة النبوية ١/ ١٣٠ - ١٣٣ .

(٣) لم يشهد النبي ﷺ حلف المطيبين لأنه كان قبل مولده ﷺ. كما في صحيح ابن حبان بعد الحديث (٤٣٧٤)، وسنن البيهقي ٦/ ٣٦٧ .

(٤) أخرجه أبو يعلى في مسنده (١٨٧٧).

(٥) نقله المصنف عنه بواسطة القاضي في الشفا ٢/ ٢٦٧ وما بعده منه.

(٦) سلف في المسألة السابقة.

استحلف النبيّ ﷺ باللّات والعزّى إذ لَقِيَه بالشام في سَفْرَتِه مع عمه أبي طالب وهو صبي، ورأى فيه علاماتِ النبوّة فاختبره بذلك؛ فقال له النبي ﷺ: «لا تسألني بهما، فواللهِ ما أبغضت شيئاً قطُّ بُغْضَهُمَا» فقال له بَحيرا: فبالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه، فقال: «سل عما بدا لك». وكذلك المعروف من سيرته عليه الصلاة والسلام وتوفيقِ الله إياه له أنه كان قبل نبوّته يخالف المشركين في وقوفهم بمزدلِفة في الحج، وكان يقف هو بعرفة، لأنه كان موقف إبراهيم عليه السلام.

فإن قيل: فقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [البقرة: ١٣٥] وقال: ﴿أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [النمل: ١٢٣] وقال: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ﴾ الآية [الشورى: ١٣]. وهذا يقتضي أن يكون مُتعبِّدًا بشرع. فالجواب أن ذلك فيما لا تختلف فيه الشرائع من التوحيد وإقامة الدّين؛ على ما تقدَّم بيانُه في غير موضع وفي هذه السورة عند قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ﴾ والحمد لله.

الرابعة: إذا تقرّر هذا فاعلم أن العلماء اختلفوا في تأويل قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾. فقال جماعة: معنى الإيمان في هذه الآية شرائع الإيمان ومعالمه؛ ذكره الثعلبي. وقيل: تفاصيل هذا الشرع؛ أي: كنتَ غافلاً عن هذه التفاصيل. ويجوز إطلاق لفظ الإيمان على تفاصيل الشرع؛ ذكره القشيري.

وقيل: ما كنت تدري قبل الوحي أن تقرأ القرآن، ولا كيف تدعو الخلق إلى الإيمان؛ ونحوه عن أبي العالية. وقال بكر القاضي[1]: ولا الإيمان الذي هو الفرائض والأحكام. قال: وكان قبل مؤمناً بتوحيده، ثم نزلت الفرائض التي لم يكن يدريها قبل؛ فزاد بالتكليف إيماناً. وهذه الأقوال الأربعة متقاربة. وقال ابن خزيمة: عنى بالإيمان الصلاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣][2] أي: صلاتكم إلى بيت المقدس؛ فيكون اللفظ عاماً والمراد الخصوص.

---

(١) لعله بكر بن العلاء القشيري. وفي الشفا ٢/ ٢٦٦ (والكلام منه): أبو بكر القاضي.

(٢) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ١٣٢ .

وقال الحسين بن الفضل: أي: ما كنت تدري ما الكتاب ولا أهل الإيمان. وهو من باب حذف المضاف؛ أي: مَن الذي يؤمن؟ أبو طالب أو العباس أو غيرهما. وقيل: ما كنت تدري شيئاً إذ كنتَ في المهد وقبل البلوغ. وحكى الماوردي نحوه عن عليّ بن عيسى قال: ما كنت تدري ما الكتاب لولا الرسالة، ولا الإيمان لولا البلوغ. وقيل: ما كنت تدري ما الكتاب لولا إنعامُنا عليك، ولا الإيمان لولا هدايتنا لك، وهو مُحتَمِل. وفي هذا الإيمان وجهان: أحدهما: أنه الإيمان بالله، وهذا يعرِفه بعد بلوغه وقبل نبوته. والثاني: أنه دين الإسلام، وهذا لا يعرفه إلا بعد النبوّة[1].

قلت: الصحيح أنه ﷺ كان مؤمناً بالله عز وجل من حين نشأ إلى حين بلوغه؛ على ما تقدّم. وقيل: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ أي: كنتَ من قوم أُمِّيين لايعرفون الكتابَ ولا الإيمان، حتى تكونَ قد أخذتَ ما جئتهم به عمن كان يعلم ذلك منهم؛ وهو كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت:٤٨] روي معناه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ﴾ قال ابن عباس والضحاك: يعني الإيمان. السدي: القرآن[2]. وقيل: الوحي؛ أي: جعلنا هذا الوحي ﴿نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ﴾ أي: من نختاره للنبوّة؛ كقوله تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:١٠٥]. ووحَّد الكنايةَ لأن الفعل في كَثْرة أسمائه بمنزله الفعل في الاسم الواحد؛ ألا ترى أنك تقول: إقبالك وإدبارك يعجبني؛ فتوحّد، وهما اثنان[3].

﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ﴾ أي: تدعو وتُرشد ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ دين قويم لا اعوجاج فيه. وقال عليّ: إلى كتاب مستقيم[4].

(١) النكت والعيون ٥/ ٢١٢ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢١٢ - ٢١٣ ، وتفسير البغوي ٤/ ١٣٢ .

(٣) تفسير الطبري ٢٠/ ٥٤٣ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢١٣ .

وقرأ عاصم الجحدري وحَوْشب: «وَإِنَّكَ لَتُهْدى» غير مسمَّى الفاعل[١]؛ أي: لَتُدْعَى. الباقون: «لَتَهدي» مسمى الفاعل. وفي قراءة أُبَيّ: «وَإِنَّكَ لَتَدْعُو»[٢].

قال النحاس[٣]: وهذا لا يُقرأ به؛ لأنه مخالف للسواد، وإنما يُحمل ما كان مثله على أنه من قائله على جهة التفسير؛ كما قال سفيان في قوله عز وجل[٤]: «وَإِنَّكَ لَتَهْدِي» أي: لتدعو. وروى مَعْمَر عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ قال: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧].

﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ بدل من الأوّل بدل المعرفة من النكرة. قال عليّ: هو القرآن. وقيل الإسلام. ورواه النوّاس بن سمعان عن النبيّ ﷺ[٥].

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مُلكًا وعبداً وخَلْقًا. ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ وعيدٌ بالبعث والجزاء. قال سهل بن أبي الجَعْد: احترق مصحفٌ فلم يبقَ إلا قوله: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾[٦] وغَرِقَ مصحفٌ فامَّحَى كلُّه إلا قولَه: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾. والحمد لله وحدَه.

[تم الجزء الثامن عشر من تفسير القرطبي
ويليه الجزء التاسع عشر، ويبدأ بتفسير سورة الزخرف]

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٣٤ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٩٥ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٤ ، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٣٤ لابن مسعود ﷺ.

(٣) في معاني القرآن ٦/ ٣٢٩ .

(٤) قوله: سفيان في قوله عز وجل، ليس في (م)، و(ظ) و(ي)، وأثبتناه من (د) ومعاني القرآن.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢١٣ ، وحديث النواس بن سمعان ﷺ أخرجه أحمد (١٧٦٣٤) مطولاً، وسلف ١٠/ ٤٨١ .

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٤٤ .

سورةُ حم عسق

مكيَّةٌ، وتُسمَّى سورةَ الشُّورى، وهي ثلاثٌ وخمسونَ آيةً[1]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١ ـ ٢) ـ ﴿حمٓ ١ عٓسٓقٓ﴾ لعلَّه اسمانِ للسُّورةِ، ولذلك فُصِلَ بينَهُما وعُدَّا آيتينِ، وإنْ كانَ اسمًا واحدًا فالفَصلُ لتُطابِقَ سائرَ الحَواميمِ، وقُرِئَ: (حم سق)[2].

(٣ ـ ٤) ـ ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ أي: مثلَ ما في هذهِ السُّورةِ مِن المَعاني، أو إيحاءً مثلَ إيحائِها أوحى اللهُ إليك وإلى الرُّسُلِ قبلَكَ، وإنَّما ذُكِرَ بلفظِ المضارعِ على حكايةِ الحالِ الماضيةِ؛ للدَّلالَةِ على استمرارِ الوَحيِ، وأنَّ إيحاءَ مثلِه عادَتُه.

وقرأَ ابنُ كثيرٍ: ﴿يُوحَى﴾ بالفَتحِ[3] على أنَّ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مُبتدأٌ و﴿يوحَى﴾ خبرُهُ المسنَدُ إلى ضَميرِه، أو مَصدرٌ، و﴿يوحَى﴾ مُسنَدٌ إلى ﴿إِلَيۡكَ﴾، و﴿ٱللَّهُ﴾ مُرتَفِعٌ بما دلَّ عليه ﴿يوحَى﴾.

---

(١) في نسخة الفاروقي: «وآيها ثلاث وخمسون».

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٤)، و«المحتسب» (٢/ ٢٤٩)، عن ابن مسعود، ونسبها الزمخشري في «الكشاف»: (٨/ ٥٥) إليه وإلى ابن عباسٍ رضي الله عنهما.

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٥٨٠)، و«التيسير» (ص: ١٩٤).

و﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ صِفَتانِ له مُقرِّرتانِ لعُلُوِّ شَأنِ الموحى بِهِ كما مرَّ في السُّورةِ السَّابقةِ، أو بالابتداءِ كما في قراءةِ (نُوحي) بالنُّونِ[1]، و﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ وما بعدَهُ أخبارٌ، أو ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ صِفَتانِ، وقوله: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ خبرانِ له، وعلى الوُجوهِ الأُخَرِ استئنافٌ مُقرِّرٌ لعِزَّتِه وحكمتِه.

(٥) ـ ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ وقرأ نافِعٌ والكِسائيُّ بالياءِ[2] ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ يَتشقَّقْنَ مِن عَظمةِ اللهِ، وقيل: مِن دُعاءِ الولدِ له، وقرأ البَصريَّانِ وأبو بكرٍ: ﴿يَنْفَطِرْنَ﴾[3]، والأوَّلُ أبلَغُ لأنَّه مُطاوِعُ فطَّرَ وهذا مُطاوِعُ فَطَرَ، وقُرِئَ: (تَتَفطَّرْنَ)[4] بالتَّاءِ لتأكيدِ التَّأنيثِ، وهو نادرٌ.

﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾ أي: يبتدئُ الانفطارُ مِن جِهَتهنَّ الفوقانيَّةِ وتخصيصُها على الأوَّلِ لأنَّ أعظمَ الآياتِ وأدلَّها على علوِّ شأنِه من تلكَ الجِهَةِ، وعلى الثَّاني ليدلَّ على الانفطارِ مِن تَحتهنَّ بالطَّريقِ الأولى.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٣٩٣)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٤/ ٤٩)، و«الكشاف» (٨/ ٥٦) دون نسبة، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٥) عن أبي حيوة والأعشى عن أبي بكر عن عاصم.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ١٥٠)، و«التيسير» (ص: ١٩٤).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ١٥٠)، و«التيسير» (ص: ١٩٤)، و«النشر» (٢/ ٣١٩).

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٥)، و«الكشاف» (٨/ ٥٦ ـ ٥٧)، وقال أبو حيان في «البحر» (١٩/ ٧) متعقباً: والظاهرُ أنَّ هذا وهمٌ منه ـ يعني الزمخشري ـ؛ لأنَّ ابن خالويه قال في «شاذِّ القراءاتِ» ما نَصُّه: (تَنْفَطِرْنَ) بالتاء والنون، يونس عن أبي عمرٍو، وهذا حرفٌ نادرٌ لأنَّ العربَ لا تجمعُ بين علامَتَي التأنيثِ. لا يقال: النساءُ تَقُمْنَ، ولكن: يَقُمْنَ، ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ﴾ [البقرة: ٢٣٣] ولا يقال: تُرْضَعْنَ. وقد كان أبو عُمَرَ الزاهدُ رَوَى في «نوادرِ ابن الأعرابي»: «الإبِلُ تَشْمَمْنَ» فأنكَرْنَاه، فقد قَوَّاه الآن هذا. قال أبو حيان: فإنْ كانَتْ نُسَخُ الزمخشريِّ متفقةً على قوله: «بتاءَيْن مع النون» فهو وهمٌ، وإنْ كان في بعضها «بتاءٍ مع النونِ» كان موافقاً لقولِ ابن خالويه، وكان «بتاءَيْن» تحريفاً من النُّساخ.

وقيل: الضَّميرُ للأرضِ؛ فإنَّ المرادَ بها الجنسُ.

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالسَّعيِ فيما يستدعِي مَغفِرَتَهُم مِن الشَّفاعةِ والإلهامِ وإعدادِ الأسبابِ المُقرِّبَةِ إلى الطَّاعةِ، وذلك في الجُملَةِ يَعُمُّ المُؤمِنَ والكافِرَ، بل لو فُسِّرَ الاستغفارُ بالسَّعيِ فيما يدفَعُ الخلَلَ المُتوقَّعَ عمَّ الحيوانَ بل الجمادَ، وحيثُ خصَّ بالمؤمنينَ فالمرادُ به الشَّفاعةُ.

﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ إذ ما مِن مَخلوقٍ إلَّا وهو ذُو حَظٍّ مِن رحمَتِه، والآيةُ على الأوَّلِ زيادةُ تَقريرٍ لعَظَمتِهِ، وعلى الثَّاني دلالةٌ على تَقدُّسِه عمَّا نُسِبَ إليه، وإنَّ عدمَ مُعاجلَتِهم بالعقابِ على تلك الكلمةِ الشَّنعاءِ = باستغفارِ الملائكةِ وفرطِ غُفرانِهِ ورحمتِهِ.

(٦) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ شُركاءَ وأندادًا.

﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ رقيبٌ على أحوالِهم وأعمالهم فمُجازيهم[1] بها ﴿وَمَآ أَنتَ﴾ يا محمَّدُ ﴿عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ بمُوَكَّلٍ بهم، أو بموكولٍ إليك[2] أمرُهُم.

(٧) ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ الإشارةُ إلى مَصدَرِ يوحي، أو إلى مَعنى الآيةِ المُتقدِّمَةِ؛ فإنَّه مُكرَّرٌ في القرآنِ في مَواضِعَ جَمَّةٍ، فيكونُ الكافُ مَفعولًا به و﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ حالًا منه.

﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ أهلَ أُمِّ القُرى وهي مكَّةُ، ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ مِن العربِ، ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ يومَ القيامةِ، يُجمَعُ فيه الخلائقُ، أو الأرواحُ والأشباحُ، أو العُمَّالُ والأعمالُ، وحُذِفَ ثاني مَفْعُولَي الأوَّلِ، وأوَّلُ مَفعولَي الثَّاني للتَّهويلِ وإيهامِ التَّعميمِ.

---

(١) في النسخ عدا نسخة الفاروقي: «فيجازيهم».

(٢) في نسخة الفاروقي: «إليه».

وقُرِئَ: (لِيُنْذِرَ) بالياءِ[١] والفِعلُ للقرآنِ.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ اعتراضٌ لا محلَّ له[٢].

﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ أي: بعدَ جَمعِهِم في الموقفِ، يُجمَعونَ أوَّلًا ثمَّ يُفرَّقونَ، والتَّقديرُ: مِنهُم فريقٌ، والضَّميرُ للمَجموعَيْنِ لدَلالةِ الجمعِ عليه، وقُرِئَا مَنْصُوبَيْنِ على الحالِ مِنْهُم؛ أي: وتُنذِرَ يومَ جَمعِهِم مُتفرِّقينَ، بمعنى: مُشارفينَ للتَّفرُّقِ، أو مُتفرِّقينَ[٣] في دارَيِ الثَّوابِ والعِقابِ.

(٨) ـ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ مُهتَدِينَ أو ضالِّينَ، ﴿وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ بالهدايةِ والحملِ على الطَّاعةِ.

﴿وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي: ويَدَعُهم[٤] بغيرِ وَلِيٍّ ولا نَصيرٍ في عذابِهِ، ولعلَّ العدولَ به عن[٥] المقابلةِ للمُبالغةِ في الوَعيدِ، إذ الكلامُ في الإنذارِ.

(٩) ـ ﴿أَمِ اتَّخَذُوا﴾ بل اتَّخذُوا ﴿مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ كالأصنامِ ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ جوابُ شرطٍ مَحذوفٍ مثل: إن أرادُوا أولياءَ[٦] بحقٍّ فاللهُ هو الوليُّ بالحقِّ ﴿وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ كالتَّقريرِ لِكونِهِ حَقيقًا بالولايةِ.

---

(١) انظر: «الكشاف» (٨/ ٦٠)، و«البحر» (١٩/ ١٠) دون نسبة.

(٢) قال أبو حيان في «البحر المحيط» (١٩/ ١٠): لا يظهر أنه اعتراض؛ لأنه لم يقع بين طالب ومطلوب.

(٣) في نسخة الفاروقي: «مفترقين».

(٤) في نسخة الفاروقي: «وندعهم».

(٥) في النسخ عدا نسخة الفاروقي: «ولعل تغيير» بدل: «العدول به عن».

(٦) في نسخة الفاروقي: «وليًّا».

(١٠) ـ ﴿ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ ﴾ أنتُـمْ والكُفَّـارُ ﴿فِيهِ مِن شَيۡءٖ ﴾ مِـن أمـرِ مِـن أُمـورِ الدِّيـنِ أو الدُّنيـا ﴿فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ مُفـوَّضٌ إليـه يميزُ المُحِـقَّ مِن المبطـلِ بالنَّصرِ، أو بالإثابـةِ والمُعاقبَـةِ، وقيـل: وما اختَلَفْتُـم فيه مِن تَأويلِ مُتشـابِهٍ فارجِعُـوا فيه إلى المحكـمِ مِن كتـابِ اللهِ.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ ﴾ فـي مَجامعِ الأمورِ ﴿وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾ أَرجِعُ في المُعضِلاتِ.

(١١) ـ ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ خبـرٌ آخرُ لـ﴿ذَٰلِكُمُ ﴾، أو مُبتـدأٌ خبـرُهُ: ﴿جَعَلَ لَكُم ﴾، وقُرِئَ بالجرِّ[١] على البدلِ مِن الضَّميرِ أو الوصفِ لـ﴿إِلَى ٱللَّهِ ﴾.

﴿مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ ﴾ مِـن جنسِـكُم، ﴿أَزۡوَٰجٗا ﴾ نساءً، ﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا ﴾ أي: وخلقَ للأنعامِ مِن جنسِها أزواجًا، أو خلقَ لَكُم مِن الأنعامِ أصنافًا أو ذكورًا وإناثًا.

﴿يَذۡرَؤُكُمۡ ﴾ يُكثِّرُكُمْ، مِن الذَّرْءِ وهو البثُّ، وفي مَعناه الذَّرُّ والذَّرْوُ، والضَّميرُ على الأوَّلِ للنَّاسِ والأنعامِ على تغليبِ المخاطبينَ العُقَلاءِ[٢].

﴿فِيهِ ﴾ في هذا التَّدبيرِ، وهو جعلُ النَّاسِ والأنعامِ أزواجًا يكونُ بينَهُم توالدٌ؛ فإنَّه كالمنبعِ للبَثِّ والتَّكثيرِ[٣].

﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ ﴾ أي: ليسَ مثلَهُ شيءٌ يُزاوِجُهُ ويُناسِبُهُ.

والمرادُ مِن (مِثلِهِ): ذاتُه، كمَا في قولِهم: مثلُكَ لا يفعلُ كذا، على قصدِ المُبالغَةِ في نفيِهِ عنه؛ فإنَّهُ إذا نَفَى عمَّنْ يُناسِبُه ويَسُدُّ مَسدَّهُ كانَ نَفيُه عنه أَوْلَى.

---

(١) هي قراءة زيد بن علي كما في «البحر» (١٩/ ١٢).

(٢) «والضمير على الأول للناس والأنعام على تغليب المخاطبين العقلاء» من نسخة الفاروقي والطبلاوي.

(٣) في نسخة التفتازاني: «والنشر».

ونظيرُهُ قولُ رُقَيْقَةَ بنتِ [أبي] صَيْفيٍّ في سُقْيَا عبدِ المُطَّلبِ: «أَلَا وفيهِم الطَّيِّبُ الطَّاهِرُ لِدَاتُه»[1].

ومن قال: الكافُ فيه زائدةٌ، لعلَّهُ عَنَى أنَّه يُعطي مَعنى: ليسَ مِثلَهُ، غيرَ أنَّه آكَدُ لِمَا ذَكَرْناه.

وقيل: (مثلهُ): صِفَتُه، أي: ليسَ كصِفَتِه صِفَةٌ.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ لكلِّ ما يُسمَعُ ويُبصَرُ.

(١٢) ـ ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خزائنُها، ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ يوسعُ ويضيقُ على وَفْقِ مَشيئَتِه ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيفعلُهُ على ما يَنبَغي.

(١٣) ـ ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ أي: شرَعَ لكُم مِن الدِّينِ دينَ نوحٍ ومحمَّدٍ ومَن بينَهُما مِن أربابِ الشَّرائعِ، وهو الأصلُ المشترَكُ فيما بينَهُم المُفسَّرُ بقوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾، وهو الإيمانُ بما يَجِبُ تَصديقُهُ، والطَّاعةُ في أحكامِ الله، ومَحلُّهُ: النَّصبُ على البدلِ

---

(١) قطعة من خبر طويل مروي عن رقيقة بنت أبي صيفي بن هاشم بن عبد مناف، وكانت لِدَةَ عبد المطلب جدِّ النبي ﷺ، في قصة إجابة الله سبحانه دعاء عبد المطلب وقد طلبت منه قريش أن يستسقي لها لـمَّا أصابها القحط، وكان معه النبي ﷺ وهو غلام قد أَيْفَعَ. رواه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ٩٠)، وابن أبي الدنيا في «مجابو الدعوة» (١٩)، وابن الأعرابي في «معجمه» (١٥٢٧)، والخطابي في «غريب الحديث» (١/ ٤٣٦)، والطبراني في «الكبير» (٢٤/ ٢٦٠)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ١٥ ـ ١٩)، وابن الجوزي في «المنتظم» (٢/ ٢٧٥). ووقع في نسخة الطبلاوي: «رقية بنت صفي»، وفي باقي النسخ «رقيقة بنت صيفي» والصواب: «رقيقة بنت أبي صيفي»، وقد نبه عليه الخفاجي في «حاشيته»، وأن الصواب: بنت أبي صيفي، وأن المصنف سها عنه تبعًا للزمخشري.

قال صاحب «النهاية» (مادة: لدا): «الطَّاهِرُ لِدَاتُه»؛ أي: أترابُه، وقيل: وِلاداتُه، وذِكْر الأتراب أسلوبٌ من أساليبهم في تَثْبيت الصِّفة وتمكينها، لأنه إذا كان مِن أقرانٍ ذوي طهارةٍ كان أثبتَ لطهارته وطِيبه.

مِن مفعولِ ﴿شَرَعَ﴾، أو الرَّفعُ على الاستئنافِ كأنَّه جوابُ: وما ذلك المشروعُ؟ أو الجرُّ على البدلِ مِن هاءِ ﴿بِهِۦ﴾.

﴿وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ ولا تختلِفُوا في هذا الأصلِ، أمَّا فروعُ الشَّرائعِ فمُختَلِفَةٌ[1]، كما قال: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾.

﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ عَظُمَ عليهم ﴿مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ مِن التَّوحيدِ.

﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾ يجتلبُ إليه، والضَّميرُ لِمَا تدعُوهم أو للدِّينِ ﴿ويهدي إليه﴾ بالإرشاد والتَّوفيق ﴿مَن يُنِيبُ﴾ يقبلُ إليه.

(١٤) - ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ﴾ يَعْنِي الأُمَمَ السَّالفةَ، وقيل: أهلَ الكتابِ؛ لقوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [البينة: ٤].

﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ العِلمُ بأنَّ التَّفرُّقَ ضَلالٌ مُتوعَّدٌ عليه، أو العلمُ بمَبعَثِ الرَّسُولِ، أو أسبابُ العلمِ مِن الرُّسُلِ والكُتبِ وغيرِهما = فلَمْ يَلتَفِتُوا إليها ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ عداوةً أو طَلبًا للدُّنيا.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بالإمهالِ ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو يومُ القِيامَةِ، أو آخرُ أعمارِهم المقدرةِ ﴿لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ باستئصالِ المبطلينِ حينَ افترَقُوا لعِظَمِ ما اقترَفُوا.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ يعني: أهلَ الكتابِ الذين كانوا في عَهدِ الرَّسولِ عليهِ السَّلامُ، أو المشركينَ الذين أُورثوا القرآنَ مِن بعدِ أهلِ الكتابِ، وقُرِئَ: (وُرِّثُوا) و(وَرِثُوا)[2].

---

(١) في نسخة التفتازاني: «فتختلف» وفي نسخة الفاروقي: «فمختلف».

(٢) القراءتان في «الكشاف» (٨/ ٦٩) بلا نسبة، والأولى قراءة زيد بن علي كما في «البحر» (١٩/ ١٨).

﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ مِن كِتابِهِم لا يعلَمُونَهُ كما هوَ، أو لا يؤمنونَ به حقَّ الإيمانِ، أو مِن القرآنِ، ﴿مُرِيبٍ﴾ مُقلِقٍ أو مُدْخِلٍ في الرِّيبَةِ.

(١٥) ـ ﴿فَلِذَٰلِكَ﴾ فلأجلِ ذلك التَّفرُّقِ، أو الكتابِ، أو العلمِ الذي أوتيتَهُ ﴿فَٱدْعُ﴾ إلى الاتِّفاقِ على المِلَّةِ الحنيفيَّةِ، أو الاتباعِ لِمَا أوتيتَ، وعلى هذا يجوزُ أنْ تكونَ اللامُ في مَوضعِ (إلى) لإفادَةِ الصِّلَةِ والتَّعليلِ ﴿وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ واستَقِم على الدَّعوةِ كما أمركَ اللهُ ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ الباطلَةَ.

﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ يعني: جميعَ الكُتُبِ المنزلَةِ، لا كالكُفَّارِ[1] الذين آمَنُوا ببعضٍ وكَفَرُوا ببَعْضٍ ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ في تبليغِ الشَّرائعِ والحُكوماتِ، والأوَّلُ إشارةٌ إلى كمالِ القُوَّةِ النَّظريَّةِ، وهذا إشارةٌ إلى كمالِ القُوَّةِ العَمَليَّةِ.

﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ خالقُ الكلِّ[2] ومُتولِّي أَمرِه.

﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ فكلٌّ[3] مُجازَى بعَمَلِه.

﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ لا حِجَاجَ بمَعنى: لا خُصومةَ إذ الحقُّ قد ظهرَ ولم يبقَ للمَحاجَّةِ مجالٌ ولا للخِلافِ مَبدأٌ سِوَى العِنادِ.

﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ يومَ القِيامَةِ ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ مَرجِعُ الكُلِّ لفَصلِ القضاءِ، وليسَ في الآيةِ ما يَدُلُّ على مُتاركَةِ الكُفَّارِ رأسًا حتى تكونَ مَنسوخَةً بآيةِ القتالِ.

---

(١) في نسخة الفاروقي: «خلاف» بدل «لا كالكفار».

(٢) في نسخة الخيالي: «كل شيء».

(٣) في النسخ عدا نسخة الفاروقي: «وكل».

(١٦) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ﴾ في دينِه ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ﴾ من بعدِ ما استجابَ له النَّاسُ ودخَلُوا فيه، أو مِن بعد ما استجابَ اللهُ لرَسُولِه فأظهرَ دينَهُ بنَصرِهِ يومَ بدرٍ، أو مِن بعدِ ما استجابَ لَهُ أهلُ الكِتابِ بأَنْ أَقرُّوا بنُبوَّتِه واستَفتَحُوا به ﴿حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ زائلةٌ باطِلَةٌ ﴿وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ﴾ لِمُعاندَتِهم، ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ﴾ على كُفرِهِم.

(١٧) ـ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ جنسَ الكِتابِ ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ مُلتبسًا به بعيدًا مِن الباطلِ، أو بما يحقُّ إنزالُهُ مِن العقائدِ والأحكامِ ﴿وَٱلۡمِيزَانَ﴾ والشَّرعَ الذي يُوازَنُ به الحقوقُ ويُسوَّى بين النَّاسِ، أو العدلَ بأَنْ أنزلَ الأمرَ بـه، أو آلةَ الوزنِ أَوْحَى بإعدادِها.

﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ﴾ إتيانُها، فاتَّبع الكِتابَ واعمَلْ بالشَّرعِ وواظِبْ على العدلِ قبلَ أنْ يُفاجِئَكَ اليَومُ الذي يُوزَنُ فيه أعمالُكَ ويُوفَّى جزاؤُكَ.

وقيل: تذكيرُ القَريبِ لأنَّه بمعنى: ذاتُ قربٍ، أو لأنَّ السَّاعةَ بمعنى البعثِ.

(١٨) ـ ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَا﴾ استهزاءً ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا﴾ خائفونَ مِنْها مع اعتناءٍ بها لتَوقُّعِ الثَّوابِ ﴿وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّ﴾ الكائنُ لا مَحالةَ.

﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ﴾ يجادلونَ فيها، مِن المِريَةِ، أو مِن مَرَيْتُ النَّاقَةَ: إذا مسحتَ ضَرْعَها بشِدَّةٍ للحَلْبِ؛ لأنَّ كُلًّا مِن المتجادِلَيْنِ يستخرِجُ ما عِندَ صاحِبِهِ بكلامٍ فيه شِدَّةٌ ﴿لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ﴾ عَن الحقِّ؛ فإنَّ البعثَ أشبَهُ الغائباتِ إلى المَحسوساتِ[1]؛ فمَنْ لَمْ يَهتَدِ لتَجويزِهَا فهو أبعَدُ عَن الاهتداءِ إلى ما وراءَهُ.

(١) وقوله: «أشبه الغائبات إلى المحسوسات»، أي: أقرب من كل شيء، وعدَّاه بـ(إلى) لتضمينه معنى =

(١٩) ـ ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ بَرٌّ بِهِمْ بصُنوفٍ مِن البرِّ لا تبلُغُها الأفهامُ[1].

﴿يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ أي: يَرْزُقُه كما يشاءُ فيخصُّ كُلًّا مِن عبادِهِ بنوعٍ من البرِّ على ما اقتضَتْهُ حِكمَتُه ﴿وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ﴾ الباهرُ القُدرةِ ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ المنيعُ الذي لا يُغلَبُ.

(٢٠) ـ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ ثوابَها، شبَّهَه بالزَّرعِ مِن حيثُ إنَّه فائدةٌ تَحصلُ بعملِ الدُّنيا، ولذلك قيل: الدُّنيا مَزرَعَةُ الآخرةِ، والحرثُ في الأصلِ: إلقاءُ البذرِ في الأرضِ، ويقالُ للزَّرعِ الحاصلِ منه.

﴿نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦ﴾ فنُعطِه بالوَاحدِ عَشْرًا إلى سبعِ مئةٍ فما فوقَها.

﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا﴾ شيئًا منها على ما قَسَمْنَا له[2] ﴿وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ إذ الأعمالُ بالنيَّاتِ ولكُلِّ امرئٍ ما نوى.

(٢١) ـ ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ﴾ بَلْ أَلَهُم شُركاءُ، والهمزةُ للتَّقريرِ والتَّقريعِ، وشُرَكاؤُهُم شَياطينُهُم ﴿شَرَعُواْ لَهُم﴾ بالتَّزيينِ ﴿مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ كالشِّركِ وإنكارِ البَعثِ والعملِ للدُّنيا.

وقيل: شركاؤُهم أوثانُهم، وإضافَتُها إليهم لأنَّهم مُتَّخِذُوها شُركاءَ، وإسنادُ الشَّرعِ إليها لأنَّها سَببُ ضَلالَتِهم وافتِتانِهم بما تديَّنُوا بهِ، أو صُوَرُ مَنْ سَنَّهُ[3] لهم.

= القرب، فلا يقابل الظاهر بالمحسوسات، وقربه إليها لأنه يعلم من بدء الخلقة لمشاهد إعادتها ومما يتكون من الفصول من النباتات ثم عودها مورقة مزهرة مثمرة بعدما تعرت من ذلك، على ما مرَّ مرارًا، انظر: «حاشية الخفاجي».

(١) في نسخة الخيالي: «الأوهام»، وأشار إليها الخفاجي في «حاشيته».

(٢) في نسخة التفتازاني: «قسمناه».

(٣) في نسخة التفتازاني والخيالي: «شبه».

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ﴾ أي: القضاءُ السَّابقُ بتأجيلِ الجزاءِ، أو العِدَةُ بأنَّ الفصلَ يكونُ يومَ القيامَةِ ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ بينَ الكافرينَ والمؤمنينَ، أو المشركينَ وشُركائِهم.

﴿وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وقُرِئَ: (أَنَّ) بالفتحِ[1] عطفًا على ﴿كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ﴾، أي: ولولا كلمَةُ الفصلِ وتقديرُ عذابِ الظَّالِمينَ في الآخرةِ لقُضِيَ بينَهُم في الدُّنيا؛ فإنَّ العَذابَ الأليمَ غالِبٌ في عذابِ الآخرةِ.

(٢٢) - ﴿تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ في القيامَةِ ﴿مُشْفِقِينَ﴾ خائفينَ ﴿مِمَّا كَسَبُوا۟﴾ مِن السَّيِّئاتِ ﴿وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ أي: وَبالُهُ لاحِقٌ بهم أَشْفَقُوا أو لم يُشفِقُوا.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ﴾ في أطيَبِ بِقاعِها وأنزَهِها ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: ما يَشتَهُونَه ثابتٌ لهم عندَ رَبِّهِم.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما للمُؤمنينَ ﴿هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ الذي يصغُرُ دونَهُ ما لغيرِهِم في الدُّنيا.

(٢٣) - ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ ذلك الثَّوابُ الذي يُبَشِّرُهم اللهُ به، فحُذِفَ الجارُّ ثمَّ العائِدُ[2]، أو ذلك التَّبشيرَ الذي يُبَشِّرُه اللهُ عِبادَه.

وقرأَ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو وحمزةُ والكِسائيُّ: ﴿يَبْشُرُ﴾ مِنْ بَشَرَه[3]، وقُرِئَ: (يُبْشِرُ) من أَبْشَرَهُ[4].

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٥)، و«المحتسب» (٢/ ٢٥٠)، و«الكشاف» (٨/ ٧٤)، و«البحر» (١٩/ ٢٤).

(٢) على هامش نسخة الفاروقي: «إنما حذف الجار لإيهام أنه مبشَّر به، وليس كذلك لأنه مبشَّرٌ لا مبشَّرٌ به، ثم حذف الهاء لكونه فضلة ومغايراً للمفعول الثاني في الوجود».

(٣) انظر: «السبعة»: (ص: ٢٠٥)، و«التيسير»: (ص: ١٩٥).

(٤) قوله: «يبشر من بشره وقُرِئَ» ليس في نسخة التفتازاني، والقراءة الثانية ليست في نسخة الفاروقي، =

﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ على ما أَتعاطَاهُ مِن التَّبليغِ والبِشارَةِ ﴿أَجۡرًا﴾ نفعًا مِنكم ﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ أَنْ تَوَدُّوني لِقَرابَتِي منكم، أو تَوَدُّوا قرابَتِي.

وقيل: الاستثناءُ مُنقَطِعٌ، والمعنى: لا أسأَلُكُم أجرًا قطُّ، ولكن أسأَلُكُم المودَّةَ[1]، و﴿فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ حالٌ منها، أي: إلَّا المودَّةَ ثابتةً في ذَوِي القُربى مُتمكِّنَةً في أهلِها، أو في حقِّ القرابةِ ومن أجلِها، كمَا جاءَ في الحديثِ: «الحبُّ في اللهِ والبُغْضُ في اللهِ»[2].

رُوِيَ أنَّها لَمَّا نزلَتْ قيل: يا رسولَ اللهِ! مَن قرابَتُك هؤلاءِ؟ قال: «عَلِيٌّ وفاطِمَةُ وابناهُما»[3].

= والمثبت من نسخة الخيالي، وهي قراءة مجاهد وحميد كما في «المحتسب» (٢/ ٢٥٠)، و«البحر» (١٩/ ٢٥).

(١) بعدها في نسخة الخيالي: «في القربى».

(٢) رواه أبو داود (٤٥٩٩) من حديث أبي ذر رضي الله عنه بلفظ: «أفضل الأعمال: الحب في الله، والبغض في الله»، وفي سنده مقال، وللحديث شواهد منها حديث البراء بن عازب رواه الإمام أحمد في «مسنده» (١٨٥٢٤) بلفظ: «أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله»، وحديث عبد الله بن مسعود رواه أبو داود الطيالسي في «مسنده» (٣٧٦)، وابن أبي شيبة في «مسنده» (٣٢١)، وحديث عبد الله بن عباس رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١١٥٣٧).

(٣) رواه الإمام أحمد في «فضائل الصحابة» (١١٤١)، والطبراني في «الكبير» (٢٦٤١) و(١٢٢٥٩)، والثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ٣٤٨)، وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٧/ ٣٤٨)، وضعف السيوطي إسناده، وقال عنه ابن تيمية في «منهاج السنة» (٤/ ٥٦٣): هذا كذب باتفاق أهل المعرفة بالحديث، وممَّا يُبيِّنُ ذلك أنَّ هذه الآيةَ نزلت بمكةَ باتِّفاق أهل العلم؛ فإن سورةَ الشُّورى جميعَها مكيةٌ، بل جميعُ آلِ حم كلُّهنَّ مكِّيَّاتٌ، وعليٌّ لم يَتزوج فاطمةَ إلَّا بالمدينة كما تقدَّم، ولمْ يُولدْ له الحسنُ والحسينُ إلَّا في السَّنة الثالثة والرابعة من الهجرة، فكيف يُمكِنُ أنها لمَّا نزلت بمكةَ قالوا: يا رسولَ اللهِ مَن هؤلاء؟ قال: «عليٌّ وفاطمةُ وابناهما».

قال الحافظُ عبدُ الغنيِّ المقدسيُّ: وُلد الحسنُ سنةَ ثلاثٍ من الهجرة في النصف من شهر رمضانَ. هذا =

وقيل: القُرْبَى التَّقرُّبُ إلى اللهِ، أي: إلَّا أَنْ تَوَدُّوا اللهَ ورَسُولَه في تَقرُّبِكُم إليه بالطَّاعةِ والعملِ الصَّالحِ، وقُرِئَ: (إلَّا مَودَّةً في القُرْبى)[١].

﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾ ومَن يكتَسِب طاعةً سِيَّما حبَّ آلِ الرَّسولِ عليهِ السَّلامُ.

وقيل: نزلَتْ في أبي بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنهُ ومودَّتِه لهم[٢].

﴿نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا﴾ في الحسنةِ[٣] ﴿حُسْنًا﴾ بمُضاعفةِ الثَّوابِ.

وقُرِئَ (يَزِدْ)[٤] أي: يَزِدِ اللهُ، و: (حُسْنَى)؛ مصدرٌ كالبُشْرَى[٥].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لِمَن أذنبَ ﴿شَكُورٌ﴾ لِمَن أطاعَ بتوفيةِ الثَّوابِ والتَّفضُّلِ عليهِ بالزِّيادَةِ.

= أصحُّ ما قيل فيه. ووُلد الحسين لخَمْسٍ خَلَوْن من شعبانَ سنةَ أربعٍ من الهجرة. قال: وقيل سنة ثلاثٍ.
وفي إسناده حسين الأشقر، قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص: ١٤٥): وحسين ضعيف ساقط، وقد عارضه ما هو أولى منه، ففي البخاري (٤٨١٨) من رواية طاوس عن ابن عباس: أنه سئل عن هذه الآية، فقال سعيد بن جبير: قربى آل محمد ﷺ، فقال ابن عباس: عجلت، إن النبي ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة..، الحديث.
قلت (القائل ابن حجر): وأخرج سعيد بن منصور من طريق الشعبي قال: أكثروا علينا في هذه الآية، فكتبنا إلى ابن عباس فكتب... فذكر نحوه.

(١) هي قراءة زيد بن علي كما في «البحر» (١٩/ ٢٨).

(٢) لم أقف عليه مسنداً، ونقله المصنف عن «الكشاف» (٨/ ٨٠).

(٣) في نسخة التفتازاني والخيالي: «في الجنة».

(٤) هي قراءة ابن السميفع وابن يعمر والجحدري كما في «زاد المسير» (٤/ ٦٥)، وبها قرأ زيد بن علي، وعبد الوارث عن أبي عمرو، وأحمد بن جبير عن الكسائي كما في «البحر» (١٩/ ٢٩).

(٥) «مصدر كالبشرى» من نسخة الخيالي، وهي قراءة عبد الوارث عن أبي عمرو كما في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٥).

(٢٤) ـ ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ بَلْ أيقولونَ ﴿افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ افترى محمَّدٌ بدَعْوى النبوَّةِ أو القُرآنِ ﴿فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ استبعادٌ للافتراءِ عَن مثلِهِ بالإشعارِ على أنَّه إنَّما يَجترِئُ عليه مَن كانَ مختومًا على قلبِهِ جاهلًا بربِّهِ، فأمَّا مَن كانَ ذا بصيرةٍ ومَعرفَةٍ فلا، وكأنَّه قال: إنْ يَشأِ اللهُ خِذلانَكَ يختِمْ على قلبِكَ لتَجْتَرِئ بالافتراءِ عليه.

وقيل: ﴿يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾: يُمْسِكِ القرآنَ والوَحْيَ عنهُ، أو يَربِطْ عليه بالصَّبرِ فلا يَشُقَّ عليكَ أذاهُم.

﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ استئنافٌ لنَفْيِ الافتراءِ عمَّا يقولُه بأنَّه لو كانَ مُفترًى لَمَحَقَهُ؛ إذ مِن عادتِه تعالى مَحوُ الباطلِ وإثباتُ الحقِّ بوَحْيِه أو بقَضائِه أو بوعدِهِ[١] بمحقِ[٢] باطلِهم وإثباتِ حَقِّهِ بالقرآنِ أو بقضائِهِ الذي لا مَردَّ له.

وسقوطُ الواوِ مِن ﴿يمح﴾ في بعضِ المَصاحفِ لاتِّباعِ اللفظِ كما في قولِه: ﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ﴾ [الإسراء: ١١].

(٢٥) ـ ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ بالتَّجاوزِ عمَّا تابوا عنه، والقَبولُ يُعدَّى[٣] إلى مفعولٍ ثانٍ بـ(من) و(عن)؛ لتَضمُّنِه مَعنى الأخذِ والإبانةِ.

وقد عرفْتَ حقيقةَ التَّوبةِ.

---

(١) في نسخة الفاروقي: «لوعده». وقوله: «أو بوعده» معطوف على قوله: «بوحيه»، وقيل إنه معطوفٌ على قوله: «لنفي الافتراء»، أو على قوله: «بأنه لو كان مفترى... إلخ» فالصيغة على هذا للاستقبال، واللام للعهد، والمعنى على الثاني: باطلهم، فيظهر عدم الافتراء، ويجوز كونها للجنس، فيكون إثباتًا لعدم افترائه بالبرهان والوعد ضمني وفيه نظر، انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) في نسخة التفتازاني: «بمحو».

(٣) في نسخة الخيالي: «يتعدى».

وعَـنْ عليٍّ رضـيَ اللهُ عنهُ: هـي اسمٌ يقعُ على سِتَّةِ معانٍ: على الماضي مِن الذُّنوبِ النَّدامةُ، ولتَضييعِ الفرائضِ الإعادةُ، وردُّ المظالمِ، وإذابةُ النَّفسِ في الطَّاعةِ كما ربَّيتَها في المعصيَةِ، وإذاقتُها مرارةَ الطَّاعةِ كما أذقْتَها حلاوةَ المعصيَةِ، والبكاءُ بدلَ كلِّ ضَحِكٍ ضَحِكْتَه[1].

﴿وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ صـغيرِها وكَبيرِها لِمَـن يَشـاءُ[2] ﴿ويَعْلَمُ مـا يَفْعلونَ﴾ فيُجـازِي ويتجاوزُ عَـن إتقـانٍ[3] وحِكمَةٍ، وقـرأَ الكوفيُّـونَ: ﴿مَا تَفْعَلُونَ﴾ بالتَّاءِ غيرَ أبي بكـرٍ[4].

(٢٦) ـ ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: يستجيبُ اللهُ لَهُم، فحُذِفَ اللَّامُ كما حُذِفَ في: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾ [المطففين: ٣]، والمرادُ: إجابَةُ الدُّعاءِ[5] أو الإثابةُ على الطَّاعةِ؛ فإنَّها كدُعاءٍ وطَلَبٍ لِمَا يترتَّبُ عليه، ومنه قولُه عليهِ السَّلامُ: «أفضَلُ الدُّعاءِ الحمدُ للهِ»[6].

---

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ٣٦٣ ـ ٣٦٤). وفيه شيخ الثعلبي الحسن بن مُحَمَّد بن حبيب أبو القاسم المُفَسِّر صاحب الأصم، وهَّاه الحاكم في رقعة بخَطِّه. انظر: «المغني في الضعفاء» (١/ ١٦٦).

(٢) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «شاء».

(٣) في نسخة التفتازاني: «إيقان». قال الخفاجي في «حاشيته»: وقوله: «عن إيقان» بالياء التحتية: (إفعال) من اليقين كما صحح في النسخ، أي: علمٌ جازمٌ، وفي بعضها بالتاءِ الفوقية، والأول أنسبُ بالعلمِ، لكن الثاني هو الأصحُّ هنا فالمرادُ بإتقانه كونه على مقتضى الحكمة، والله لا يوصف عمله بالإيقانِ؛ فتأمَّلْ.

(٤) في نسخة التفتازاني والخيالي: «وقرأ حمزة وحفص والكسائي». ولم تذكر القراءة في نسخة الفاروقي، وقراءةُ الباقينَ بالياءِ، انظر: «السبعة» (ص: ٥٨٠)، و«التيسير» (ص: ١٩٥)، و«النشر» (٢/ ٣٦٧).

(٥) في نسخة الخيالي: «دعائهم».

(٦) رواه الترمذي (٣٣٨٣) وقال: هـذا حديث حسن غريب، والنسائي في «الكبرى» (١٠٥٩٩)، =

أو يَستجيبونَ[١] للهِ بالطَّاعةِ إذا دعاهُم إليها.

﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ على ما سألُوا أو استَحَقُّوا أو استَوْجَبُوا[٢] له بالاستجابةِ.

﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ بدلَ ما للمؤمنينَ مِن الثَّوابِ والتَّفضُّلِ.

(٢٧) ـ ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لتكبَّروا وأفسَدُوا فيها بَطَرًا، أو لبَغَى بَعضُهُم على بعضٍ استيلاءً واستِعلاءً، وهذا على الغالبِ.

وأصلُ البَغْيِ: طلبُ تَجاوُزِ الاقتصادِ فيما يُتَحرَّى كميَّةً أو كيفيَّةً[٣].

﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ﴾ بتقديرٍ ﴿مَّا يَشَآءُ﴾ ما اقتضَتْهُ مَشيئَتُه ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ يعلَمُ خَفايا أمرِهِم وجلايا حَالِهِم، فيقدرُ لهم ما يناسِبُ شأنَهُم.

رُوِيَ أنَّ أهلَ الصُّفَّةِ تَمنَّوا الغِنَى، فنزلَت[٤].

وقيل: في العربِ كانوا إذا أخصَبُوا تحارَبُوا، وإذا أجدَبُوا انتجَعُوا[٥].

= وابن ماجه (٣٨٠٠)، وابن حبان في «صحيحه» (٨٤٦)، من حديث جابر رضي الله عنه.

(١) في نسخة التفتازاني والخيالي: «يستجيبوا».

(٢) في النسخ عدا نسخة الفاروقي: «واستحقوا واستوجبوا»، وقوله: «على ما سألوا» هو وما عطف عليه بـ(أو) الفاصلة ناظرٌ للوجوه السابقة على الترتيب، وفي بعض النسخ: «واستوجبوا» بالواو، وفي بعضها: «واستحقوا واستوجبوا»، انظر: «حاشية الخفاجي»، وقد فصَّل في بيان توجيه هذه الفروق.

(٣) في نسخة الخيالي: «كمية وكيفية».

(٤) رواه ابن المبارك في «الزهد» (٥٥٤)، والطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٥٠٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٨٤٩)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٩٠)، وابن المنذر وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٧/ ٣٥٢)، عن عمرو بن حريث بسند صحيح كما قال السيوطي.

(٥) انتجعوا بمعنى ارتحلوا للنجعة، وهي طلب الكلأ في غير بلادهم لعدم ما تتعيش به دوابهم فإذا تفرقوا اشتغلوا عن القتال. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢٨) ـ ﴿وهوَ الذي يُنْزِلُ الغيثَ﴾ المطرَ الذي يُغيثُهُم مِن الجدبِ، ولذلك خُصَّ بالنَّافعِ.

وقرأَ نافعٌ وابنُ عامرٍ وعاصِمٌ: ﴿يُنَزِّلُ﴾ بالتَّشديدِ(١).

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ﴾ أَيِسُوا منه، وقُرِئَ بكسرِ النُّونِ(٢).

﴿وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥ﴾ في كلِّ شيءٍ مِن السَّهلِ والجبلِ والنَّباتِ والحيوانِ.

﴿وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ﴾ الذي يَتولَّى عبادَهُ بإحسانِهِ ونشرِ رحمَتِه ﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾ المستحقُّ للحمدِ على ذلكَ.

(٢٩) ـ ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ فإنَّها بذاتِها وصِفاتِها تدلُّ على وُجودِ صانعٍ قادرٍ حكيمٍ ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا﴾ عطفٌ على السَّماواتِ أو الخلقِ ﴿مِن دَآبَّةٖ﴾ مِن حيٍّ، على إطلاقِ اسمِ السَّبَبِ للمسبَّبِ أو ممَّا يَدُبُّ على الأرضِ، وما يكونُ في أحدِ الشَّيئينِ يصدُقُ أنَّهُ فيهِمَا في الجُملَةِ.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ﴾ في أيِّ وقتٍ يَشاءُ ﴿قَدِيرٞ﴾ مُتمكِّنٌ منه، و(إذا) كما تدخلُ الماضيَ تدخلُ المضارعَ(٣).

---

(١) وقرأ الباقون بالتخفيف، انظر: «التيسير»: (ص: ١٧٧)، «النشر»: (٢/ ٢١٨).

(٢) بالفتح قراءة الجمهور، وبالكسر قرأ الأعمش وابن وثاب كما في «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٦)، و«البحر» (١٩/ ٣٤). وجاء نسخة الخيالي: «بفتح النون»؛ قال الخفاجي: قوله: «وقرئ بكسر النون»: كذا في النسخ، ووقعَ في بعضها: «بفتح النون» فيكونُ إشارة إلى قراءة السبعة لا إلى القراءة الشاذة وإن كان مخالفًا لما هو المعتاد من التعبير بمثله في الشواذ، فلا حاجة إلى القول بأنه سهو، انظر: «حاشية الخفاجي».

(٣) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «على المضارع».

(٣٠) ـ ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ فبسببِ مَعاصيكُم، والفاءُ لأنَّ (ما) شرطيَّةٌ، أو مُتضمِّنةٌ مَعناه، ولم يَذكُرْها نافعٌ وابنُ عامرٍ[١] استغناءً بما في الباءِ مِن مَعنى السَّببيَّةِ.

﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ مِن الذُّنوبِ فلا يعاقبُ عليها، والآيةُ مَخصوصَةٌ بالمُجرمينَ؛ فإنَّ ما أصابَ غيرَهُم فلأسبابٍ أُخَر؛ منها تعريضُهُ[٢] للأجرِ العَظيمِ بالصَّبرِ عليهِ.

(٣١) ـ ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فائتينَ ما قضى عليكُمْ مِن المصائبِ ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ﴾ يحرسُكُم عنها ﴿وَلَا نَصِيرٖ﴾ يدفعُها عَنْكُم.

(٣٢) ـ ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ﴾ السُّفُنُ الجاريةُ ﴿فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ﴾ كالجبالِ، قالت الخَنساءُ:

وَإِنَّ صَخْرًا لَتَأْتَمُّ الهُدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ[٣]

(٣٣) ـ ﴿إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ وقُرِئَ: ﴿الرِّيَاحَ﴾[٤] ﴿فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓ﴾ فيبقينَ ثَوابتَ على ظَهرِ البَحرِ.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ﴾ لكلِّ مَن وكَّلَ هِمَّتَه وحبسَ نفسَهُ على النَّظرِ في آياتِ اللهِ والتَّفكُّرِ في آلائهِ، أو لكُلِّ مُؤمنٍ كاملِ الإيمانِ؛ فإنَّ الإيمانَ نِصفانِ: نِصفٌ صَبرٌ ونِصْفٌ شُكْرٌ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٨١)، و«التيسير» (ص: ١٩٥).

(٢) في نسخة الفاروقي: «فلأسباب أخر منها المكلف وتعريضه».

(٣) انظر: «ديوان الخنساء» (ص: ٤٦)، و«البخلاء» للجاحظ (ص: ٣٠٨)، و«طبقات فحول الشعراء» لابن سلام الجمحي (١/ ٢١)، و«بلاغات النساء» لابن طيفور (ص: ١٦٨)، و«التعازي» للمبرد (ص: ٦١).

(٤) هي قراءة نافع، انظر: «السبعة» (ص: ١٧٣)، و«التيسير» (ص: ٧٨). وفي نسخة التفتازاني: «وقرأ نافع وحده» بدل «وقرئ».

(٣٤) ـ ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ أو يُهْلِكْهُنَّ بإرسالِ الرِّيحِ العاصِفَةِ المغرِقَةِ، والمرادُ: إهلاكُ[١] أهلِها؛ لقولِه: ﴿بِمَا كَسَبُوا۟﴾ وأصلُه: أوْ يُرسِلْها فيُوبِقْهنَّ؛ لأنَّه قَسِيمُ ﴿يُسْكِنِ﴾، فاقتصرَ فيهِ على المقصودِ، كمَا في قولِه: ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ إذْ المعنى: أو يُرسِلْها عاصفةً فيوبِقْ ناسًا بذُنوبِهِم ويُنَجِّي ناسًا على العَفوِ مِنْهُم.

وقُرِئَ: (ويَعفُو)[٢] على الاستئنافِ.

(٣٥) ـ ﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا﴾ عطفٌ على عِلَّةٍ مُقدَّرةٍ مثل: لينتقمَ مِنْهُم ويعلمَ، أو على الجزاءِ، ونُصِبَ نصبَ الواقعِ جوابًا للأشياءِ السِّتَّةِ لأنَّه أيضًا غيرُ واجبٍ.

وقرأَ نافِعٌ وابنُ عامرٍ بالرَّفعِ[٣] على الاستئنافِ، وقُرِئَ بالجزمِ[٤] عطفًا على ﴿يَعْفُ﴾، فيكونُ المعنى: أو يجمَعُ بينَ إهلاكِ قَومٍ وإنجاءِ قومٍ وتحذيرِ آخرينَ.

﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ محيدٍ مِن العَذابِ، والجملةُ مُعلَّقٌ عنها الفِعلُ.

(٣٦) ـ ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ تُمتَّعونَ به مُدَّةَ حياتِكُم ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ مِن ثَوابِ الآخرةِ ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ لخلوصِ نفعِهِ ودوامِه، و(ما) الأُولى مَوصولَةٌ[٥] تضمَّنَتْ مَعنى الشَّرطِ مِن حيثُ إنَّ إيتاءَ ما أُوتوا سَببٌ للتَّمتُّعِ بها في الحياةِ الدُّنيا، فجاءَتِ الفاءُ في جوابِها بخلافِ الثَّانِيَةِ.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «إغراق».

(٢) وهي قراءة الأعمش كما في «البحر» (١٩/ ٣٨).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٥٨١)، و«التيسير» (ص: ١٩٥).

(٤) انظر: «الكشاف» (٨/ ٩١)، ونقلها عنه أبو حيان في «البحر» (١٩/ ٤١).

(٥) «موصولة»: ليس في نسخة الفاروقي والخيالي.

وعن عليٍّ رَضِيَ اللهُ عنهُ: تَصدَّقَ أبو بكرٍ رضي الله عنه بمالِهِ كُلِّهِ، فلامَهُ جَمعٌ، فنزَلَتْ ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[١].

(٣٧) ـ ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ بما بعدَهُ عطفٌ على ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، أو مدحٌ مَنصوبٌ، أو مَرفوعٌ، وبناءُ ﴿يَغْفِرُونَ﴾ على ضميرِ ﴿هُمْ﴾ خبرًا للدَّلالةِ على أنَّهمُ الأَخِصَّاءُ بالمغفرةِ حالَ الغَضبِ، وقرأ حَمزَةُ والكِسائيُّ: ﴿كبيرَ الإثمِ﴾[٢].

(٣٨) ـ ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ﴾ نزلَتْ في الأنصارِ[٣]، دَعاهُم رَسولُ اللهِ ﷺ إلى الإيمانِ فاستجابُوا له.

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أي[٤]: ذو شورى، لا يَنفَرِدُونَ برَأْيٍ حتَّى يَتشاوَرُوا ويجتَمِعُوا عليه، وذلك مِن فَرطِ تَدبُّرِهم وتَيقُّظِهِم في الأمورِ، وهي مَصدَرٌ ـ كالفُتْيَا ـ بمَعْنى التَّشاوُرِ ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ في سُبُلِ[٥] الخيرِ.

(٣٩) ـ ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ على ما جعلَهُ اللهُ لهم كراهةَ التَّذلُّلِ، وهو وصفُهُم بالشَّجاعَةِ بعدَ وَصفِهِم بسائرِ أُمَّهاتِ الفضائلِ، وهو لا يُخالِفُ وَصفَهُم بالغُفرانِ؛ فإنَّه يُنبِئُ عَنْ عَجزِ المغفورِ والانتصارِ عَن مقاومَةِ الخصمِ، والحِلْمُ عَن

---

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ٣٨٧).

(٢) والباقون بالجمع، انظر: «السبعة» (ص: ٥٨١)، و«التيسير» (ص: ١٩٥). وقوله: «قرأ حمزة...» ليس في نسخة الفاروقي.

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٧٧٢)، ورواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٥٢٣) عن ابن زيد.

(٤) «أي» من نسخة الخيالي.

(٥) في نسخة الخيالي: «سبيل».

العاجزِ مَحمودٌ، وعَن المُتغلِّبِ مَذمومٌ؛ لأنَّه إجراءٌ وإغراءٌ على البَغْيِ. ثـمَّ عقَّبَ[١] وصفَهُم بالانتصارِ للمَنعِ عَن التَّعدِّي، فقال[٢]:

(٤٠) ـ ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا ﴾ وسمَّى الثَّانيةَ سَيِّئَةً للازدواجِ، أو لأنَّها تسوءُ مَن تَنزِلُ به ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ﴾ بينَهُ وبينَ عدوِّه ﴿فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ عِدَةٌ مبهمةٌ تدلُّ على عِظَمِ المَوعودِ.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ المبتدئينَ بالسَّيئَةِ والمتجاوزينَ في الانتقامِ.

(٤١) ـ ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ﴾ بعدَما ظلمَ، وقد قُرِئَ به[٣]، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ بالمُعاتبةِ والمُعاقبةِ.

(٤٢) ـ ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ ﴾ يبتَدِئونَهُـم بالإضـرارِ، أو يطلبـونَ[٤] ما لا يَسـتَحِقُّونَه تجبُّرًا عليهِـم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ علـى ظُلْمِهِـم وبَغيِهِم.

(٤٣) ـ ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ علـى الأذى ﴿وَغَفَرَ﴾ ولـم يَنْتَصِـر، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ أي: إنَّ ذلـك منـه، فحُـذِفَ (منه)[٥] كمـا حُذِفَ فـي قولهم: السَّـمْنُ مَنَوانِ بدِرْهَـمٍ؛ للعلـمِ بهِ.

---

(١) في نسخة الطبلاوي: «عقيب»، وفي نسخة الفاروقي: «عقب» بدل «ثم عقب».

(٢) «فقال» من نسخة التفتازاني.

(٣) انظر: «الكشاف» (٨/ ٩٦)، و«البحر» (١٩/ ٤٧) من غير نسبة.

(٤) في نسخة الفاروقي والخيالي: «ويطلبون».

(٥) «منه» من نسخة الخيالي. وقوله: «أي: إن ذلك منه.. إلخ» لأن الجملة خبرٌ؛ فلا بد من تقدير العائدِ، وذلك إشارة إلى الصبر والمغفرة، وكونه مغنيًا عن العائد لأن المراد صبره، أو ﴿ذَٰلِكَ﴾ رابطٌ والإشارة ﴿لَمِنۡ﴾ بتقدير: من ذوي عزم الأمور= تكلف. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٤٤) ـ ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ مِن ناصرٍ يتولَّاهُ مِن بعدِ خِذلانِ اللهِ إيَّاه.

﴿وَتَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ حينَ يرَوْنَه، فذكرَ بلفظِ المُضيِّ[1] تحقيقًا ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ أي: إلى رَجْعةٍ إلى الدُّنيا.

(٤٥) ـ ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ على النَّارِ، ويدلُّ عليها ﴿ٱلْعَذَابَ﴾.

﴿خَـٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ مُتذلِّلين مُتقاصِرينَ مما يلحقُهُم مِن الذُّلِّ ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ أي: يبتدِئُ نظرُهُم إلى النَّارِ مِن تحريكٍ لأَجْفانِهم ضعيفٍ، كالمَصْبورِ يَنظُرُ إلى السَّيفِ.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ﴾ بالتَّعريضِ للعذابِ المخلَّدِ ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ ظرفٌ لـ﴿خَسِرُوٓا۟﴾ والقولُ في الدُّنيا[2]، أو لـ(قال)، أي: يقولونَ إذا رَأَوْهُم على تلكَ الحالِ.

﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ تمامُ كَلامِهم، أو تصديقٌ مِن اللهِ لَهُم.

(٤٦) ـ ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ إلى الهُدَى أو النَّجاةِ.

(٤٧) ـ ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي[3]: لا يردُّهُ اللهُ بعدَما حكمَ بهِ، و(مِن) صِلةٌ لـ﴿مَرَدَّ﴾، وقيل: صِلةُ ﴿يَأْتِىَ﴾، أي: مِن قبلِ أَنْ يَأتِيَ يومٌ مِن اللهِ لا يُمكِنُ رَدُّه.

---

(١) في نسخة الخيالي: «الماضي».

(٢) أي: ويكون القول المأخوذ من (قال) واقعاً في الدنيا. انظر: «حاشية الأنصاري» (٥/ ١٠٥).

(٣) «أي» من نسخة التفتازاني.

﴿مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ﴾ مفرٍّ ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ﴾ إنكارٍ لِمَا اقترفتُموه؛ لأنَّه مدوَّنٌ في صَحائفِ أعمالِكُم يشهَدُ عليه ألسنتُكُم وجوارِحُكُم.

(٤٨) ـ ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ﴾ رقيبًا أو محاسبًا ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ وقد بلَّغْتَ.

﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ﴾ أرادَ بالإنسانِ الجنسَ؛ لقولِه: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ﴾ بليغُ الكُفرانِ يَنْسَى النِّعمَةَ[1] رأسًا، ويذكرُ البَلِيَّةَ ويُعظِّمُها، ولَا[2] يَتأمَّلُ سببَها، وهذا وإن اختصَّ بالمجرمينَ؛ جازَ إسنادُهُ إلى الجنسِ لغَلَبتِهم واندراجِهم فيه.

وتَصديرُ الشَّرطيَّةِ الأولى بـ(إذا) والثَّانيةِ بـ(إن)؛ لأنَّ إذاقةَ النِّعمةِ مُحقَّقةٌ مِن حيثُ إنَّها عادةٌ مقضِيَّةٌ بالذَّاتِ، بخلافِ إصابةِ البَلِيَّةِ، وإقامةُ عِلَّةِ الجزاءِ مقامَه ووضعُ الظَّاهرِ مَوضِعَ المُضمَرِ في الثَّانيةِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ هذا الجنسَ مَوسومٌ بكفرانِ النِّعمةِ.

(٤٩ ـ ٥٠) ـ ﴿لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ فلهُ أن يقسمَ النِّعمةَ والبليَّةَ كيفَ شاءَ.

﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ مِن غيرِ لُزومٍ ومجالِ اعتراضٍ.

﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ﴾ بدلٌ مِن ﴿يَخۡلُقُ﴾ بدلَ البَعضِ، والمعنى: يجعَلُ أحوالَ العبادِ في الأولادِ مُختَلِفَةً على مُقتضَى المَشيئَةِ؛ فيهبُ لِبَعضٍ إمَّا صِنفًا واحِدًا مِن ذَكَرٍ أو أنثى، أو الصِّنفينِ جَمِيعًا، ويُعقِمُ آخرين.

ولعلَّ تقديمَ الإناثِ لأنَّها أكثرُ؛ لتكثيرِ النَّسلِ، أو لأنَّ مساقَ الآيةِ للدَّلالةِ على

---

(١) في نسخة الفاروقي والطبلاوي: «الرحمة».

(٢) في نسخة التفتازاني والخيالي: «ولم».

أنَّ الواقعَ ما يتعلَّقُ به مشيئةُ اللهِ لا مَشيئَةُ الإنسانِ، والإناثُ كذلكَ، أو لأنَّ الكلامَ في البلاءِ ـ والعَرَبُ تَعدُّهُنَّ بلاءً ـ، أو لتطييبِ قُلوبِ آبائِهِنَّ، أو للمُحافظةِ على الفواصلِ، ولذلك عرَّفَ الذُّكورَ، أو لجبرِ التَّأخيرِ، وتغييرُ العاطفِ في الثَّالث[1] لأنَّه قسيمُ المشتركِ بين القسمينِ، ولم يَحتجْ إليه الرَّابعُ لإفصاحِهِ بأنَّه قسيمُ المشتركِ بين الأقسامِ المتقدمةِ.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ فيفعلُ ما يفعلُ بحكمةٍ واختيارٍ.

(٥١) ـ ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ وما صحَّ له ﴿أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ كلامًا خَفِيًّا يُدرَكُ بسرعةٍ؛ لأنَّه تمثيلٌ ليس في ذاتِه مُركَّبًا مِن حُروفٍ مُقطَّعةٍ تتوقَّفُ على تموُّجاتٍ مُتعاقبَةٍ، وهو ما يعمُّ المُشافَهَ بِهِ؛ كما رُوِيَ في حَديثِ المعراجِ، وما وُعِدَ به في حديثِ الرُّؤيةِ، والمُهْتَفُ بِهِ كما اتَّفقَ لِمُوسى عليه السَّلامُ في طُوَى والطُّورِ، ولكنَّ عَطْفَ قولِه: ﴿أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ عليه يخصُّهُ بالأوَّلِ، والآيةُ دليلٌ على جَوازِ الرُّؤيةِ لا على امتناعِها.

وقيلَ: المرادُ به الإلهامُ والإلقاءُ في الرُّوعِ، أو الوحيُ المُنزَّلُ به الملكُ إلى الرُّسلِ، فيكونُ المرادُ بقولِه: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾: أو يرسلَ إليهِ نَبِيًّا فيُبلِّغُ وحيَهُ كما أمرَهُ، وعلى الأوَّلِ المرادُ بالرَّسولِ: الملكُ المُوحِي إلى الرَّسولِ، و﴿وَحْيًا﴾ بما عُطِفَ عليه مُنتَصِبٌ بالمصدرِ؛ لأنَّ ﴿مِن

---

(١) في النسخ عدا نسخة الفاروقي: «الثاني». قال الخفاجي: وقوله: «وتغيير العاطف.. إلخ» إذ عطف بـ(أو) دون غيره، والمشترك بين القسمين الأولين هو الانفراد بأحد الصنفين سواءٌ تعدد أو لا، وهذا مقابله لأنه الجمع بينهما، فلو عطف بالواو توهم أنه قسمٌ لكل من القسمين دون المشترك بينهما، وفي بعض النسخ: «الثاني» بدل «الثالث» والمراد: العطف الثاني أو القسم الثاني، والأولى أَوْلى. انظر: «حاشية الخفاجي».

﴿وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ صِفَةُ كلامٍ مَحذوفٍ، والإرسالُ نوعٌ مِن الكلامِ، ويجوزُ أَنْ يكونَ ﴿وَحْيًا﴾ و﴿يُرْسِلَ﴾ مصدرَينِ، و﴿مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ ظرفًا وقعَتْ أحوالًا، وقرأَ نافعٌ: ﴿أو يرسلُ﴾ برفعِ اللامِ[1].

﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ﴾ عن صفاتِ المخلوقينَ ﴿حَكِيمٌ﴾ يفعلُ ما تقتضيهِ حِكمَتُه، فيُكلِّمُ تارةً بوَسَطٍ وتارةً بغيرِ وَسَطٍ[2]، إمَّا عِيانًا وإمَّا مِن وَراءِ حِجابٍ.

(٥٢) - ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ يعني ما أُوحِيَ إليه، وسمَّاهُ روحًا لأنَّ القلوبَ تحيا بهِ، وقيلَ: جبريلُ، والمعنى: أرسلناهُ إليكَ بالوَحيِ[3].

﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ أي: قبلَ الوَحيِ، وهو دليلٌ على أنَّه لم يَكُن متعبِّدًا قبلَ النبوَّةِ بشرعٍ. وقيلَ: المرادُ هو الإيمانُ بما لا طريقَ إليه إلَّا السَّمعُ.

﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ﴾ أي: الرُّوحَ، أو الكتابَ، أو الإيمانَ ﴿نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ بالتَّوفيقِ للقَبُولِ والنَّظَرِ فيه.

﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هو الإسلامُ، وقُرِئَ: (لَتُهْدَى)[4] أي: ليهديك اللهُ.

(٥٣) - ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ بدلٌ مِن الأوَّلِ ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خَلقًا ومُلْكًا.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٨٢)، و«التيسير» (ص: ١٩٥)، و«النشر» (٢/ ٣٦٨)، وذكر في «السبعة» خلافاً عن ابن عامر. وقوله: «وقرأ نافع...» ليس في نسخة الفاروقي.

(٢) في نسخة الخيالي: «واسطة» في الموضعين.

(٣) انظر: «لباب التفاسير» (٨/ ٢١٤).

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٥) عن الجحدري وحوشب.

﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ بارتفاعِ الوَسائطِ والتَّعلُّقاتِ، وفيه وَعدٌ ووَعيدٌ للمُطيعينَ والمُجرمينَ.

عَن النَّبيِّ ﷺ: «مَن قرأ ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾ كان ممَّنْ يُصلِّي عليه الملائكةُ ويَستغفرونَ له ويستَرحِمونَ له»[1].

***

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ٣٢٢)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٤٢)، من حديث أبي رضي الله عنه، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور، وقد تقدم الكلام عليه مراراً. انظر: «الفتح السماوي» للمناوي (٣/ ٩٧٩).

سورة الشورى(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ
ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ
يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي
ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ
حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ
ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾
وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن
وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ
كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ
تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا
وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ
ٱلۡبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ
بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٢﴾﴾.

﴿حمٓ عٓسٓقٓ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ الآية، قال ابن عباس: هذه السورة مكية إلا أربع آيات من قوله ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ ﴿٢٣﴾﴾ إلى آخر

(١) مكية وهي ثلاث وخمسون آية.

الأربع الآيات. ومناسبتها لآخر ما قبلها أنه قال [٤٩٥/ب] ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ [فصلت] وكان في ذلك الحكم عليهم بالضلال لما كفروا به قال هنا «كذلك» أي: مثل الإيحاء السابق في القرآن الذي كفر به هؤلاء يوحي إليك. أي: أن وحيه تعالى إليك متصل غير منقطع، يتعهدك به وقتاً بعد وقت.

وقرىء: يوحي، مبنيًّا للفاعل والجلالة فاعل. [وقرىء: يُوحى، مبنيًّا للمفعول والجار والمجرور في موضع المفعول الذي لم يُسَمَّ فاعله، والجلالة فاعل] بفعل محذوف تقديره: يوحي الله.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: أصناماً وأوثاناً. ﴿اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ أعمالهم ومجازيهم عليها.

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ أي: بمفوض إليك أمرهم ولا قائم. وما في هذا من الموادعة منسوخ بآية السيف[١].

«وكذلك» أي: مثل هذا الإيحاء والقضاء أنك لست بوكيل عليهم، أوحينا إليك قرآنا عربياً. [والظاهر أن «قرآناً» مفعول «أوحينا».

وقال الزمخشري[٢]: الكاف مفعول به لـ«أوحينا»، و«قرآنا عربيًّا»] حال من المعفول به أي: أوحيناه إليك، وهو قرآن عربي، لا لبس فيه عليك إذ نزل بلسانك انتهى.

فاستعمل الكاف اسماً في الكلام وهو مذهب الأخفش.

﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ أي: سبب إيحائنا إليك وهو الإنذار، ولا تُكلَّف غيره.

(١) الآية ٥ من التوبة.

(٢) الكشاف ٣: ٤٦١.

و«أُمَّ القرى» مكة، أي: أهل أم القرى، ولذلك[١] عطف [عليها] «ومن حولها»، والمفعول الثاني محذوف. «ومن حولها» هم العرب. «وتنذر يوم الجمع» والمفعول الأول[٢] محذوف، والثاني هو «يوم الجمع» أي: اجتماع الخلائق. والمنذَر [به] هو ما يقع في يوم الجمع من الجزاء، وانقسام الجمع إلى الفريقين، واجتماع الأرواح بالأجساد، وأهل الأرض بأهل السماء، والناس بأعمالهم.

﴿يَذۡرَؤُكُمۡ﴾ يقال: ذرأ الله الخلق، أي: بثّهم وكثّرهم. وقال ابن عباس: يجعل لكم فيه معيشة تعيشون بها. والضمير في «فيه» عائد على الجعل، أي: يخلقكم ويكثركم في الجعل.

﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ تقول العرب: مثلك لا يفعل هذا، بمعنى أنت لا تفعل هذا[٣]، فيكون المعنى في الآية: ليس كهو، أي: كالله شيء. وخرّج على أن الكاف زائدة فكأنه قيل: ليس مثله شيء أي: ليس شيء يماثل الله تعالى. ويجوز أن يكون «مثل» بمعنى الصفة فتكون الكاف باقية على تشبيهها، أي: ليس كصفته شيء من الصفات.

﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا
بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا
تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ١٣ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ
إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ
مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ

(١) ق: وكذلك.

(٢) ق: الثاني.

(٣) ق: يفعل شيئاً.. تفعل ذلك.

مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ
أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ
أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَٱلَّذِينَ
يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ
وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ
ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ
مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾
ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ
حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى
ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ الآية، لمّا كان أول الرسل نوحاً عليه السلام وآخرهم محمداً[(١)] ﷺ قال ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾، ثم أتبع ذلك ما وصّى به إبراهيم إذ كان أبا العرب، وفي ذلك هزٌّ لهم وبعث على اتّباع طريقته وموسى[(٢)] وعيسى صلوات الله عليهم، لأنهما هما اللذان كان أتباعهما موجودين في زمان بعثة رسول الله ﷺ.

والشرائع متفقة في العقائد وفي كثير من الأحكام كتحريم الزنى[(٣)] والقتل بغير حق، والشرائع مشتملة [٤٩٦/ أ] على عقائد وأحكام.

ويقال إن نوحاً عليه السلام أول من أتى بتحريم البنات والأمّهات وذوات

(١) ق: محمد.
(٢) ق: طريقة موسى.
(٣) ق: الربا.

المحارم. ومعنى «شرع»: اختار. ويحتمل أن تكون [«أن»] مفسّرة، لأنّ ما قبلها هو بمعنى القول، فلا موضع لها من الإعراب. و«أن» تكون مصدرية فتكون في موضع نصب على البدل من «ما» وما عطف عليها. ثم نهى عن التفرق فيه، لأن التفرق سبب للهلاك، والاجتماع والألفة سبب للنجاة.

﴿ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: عَظُمَ وشَقَّ. و«ما» فاعل بـ«كبر».

﴿ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ﴾ قال ابن عباس: يعني قريشاً. و«العلم» محمد ﷺ، وكانوا يتمنون أن يبعث إليهم نبيّ، كما قال ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ ﴿٤٢﴾ ﴾ [فاطر] يريدون نبيًّا. وقيل: الضمير يعود على أمم الأنبياء؛ جاءهم العلم فطال عليهم الأمد، فآمن قوم وكفر قوم.

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ ﴾ أي: عِدَةُ التأخير إلى يوم القيامة، فحينئذ يقع الجزاء. ﴿لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: لَجُوزُوا بأعمالهم في الدنيا.

﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ هم بقية أهل الكتاب الذين عاصروا رسول الله ﷺ.

﴿ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي: من بعد أسلافهم، أو هم المشركون أُورثوا القرآن من بعد ما أُورث أهل الكتاب التوراة والإنجيل.

﴿ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ في إيصال ما أُمرت به إليكم لا أخصّ شخصاً بشيء دون شخص، الشريعة واحدة والأحكام مشترك فيها.

﴿ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴾ أي: قد وضحت الحججُ وقامت البراهينُ وأنتم مَحْجُوجونَ فلا حاجة إلى إظهار حجة بعد ذلك. ﴿ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ﴾ أي: يوم القيامة فيفصل بيننا.

وما يظهر في هذه الآية من الموادعة منسوخ بآية السيف[١].

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ﴾ أي: يخاصمون في دينه. قال ابن عباس ومجاهد: نزلت في طائفة من بني إسرائيل، همّت بردّ الناس عن الإسلام وإضلالهم ومحاجّتهم بأن قالوا: كتابنا قبل كتابكم، ونبيّنا قبل نبيّكم فديننا أفضل، فنزلت[٢] الآية في ذلك.

﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ﴾ أي: باطلة لا ثبوت لها.

ولما ذكر تعالى الرزق، ذكر حديث الكسب. ولمّا كان الحرث في الأرض أصلاً من أصول المكاسب، استعير لكل مكسب أريد به النّماء والفائدة [في قوله ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ﴾] أي: من كان يريد عمل الآخرة ويسعى لها سعيها. ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ أي: في جزاء حرثه من تضعيف الحسنات. ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ لأنه لم يعمل للآخرة شيئاً. فالجملة الأولى وعد مُنْجَز، والثانية مقيّدة بمشيئته تعالى لمن يشاء ما شاء. وجاء فعل الشرط ماضياً والجواب مجزوماً[٣] كقوله تعالى [٤٩٦/ب] ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٥﴾﴾ [هود]. ولا نعلم خلافاً في جواز الجزم، وأنه فصيح مختار إلا ما ذكره صاحب كتاب الإعراب وهو أبو الحكم بن عذرة عن بعض النحويين، أنه لا يجيء في الكلام الفصيح، وإنما يجيء مع كان، لأنها أصل الأفعال، ولا يجيء مع غيرها من الأفعال. ونصّ كلام سيبويه[٤] والجماعة أنه لا يختصّ ذلك بكان، بل سائر الأفعال في

---

(١) الآية ٥ من التوبة.

(٢) انظر القرطبي ١٦: ١٤.

(٣) ق: مجزوم.

(٤) انظر الكتاب ٣: ٦٨.

ذلك مثلها. وأنشد سيبويه كلام الفرزدق[١]: [من البسيط]

دسّت رسولاً بأن القوم إن قَدَروا   عليك يَشْفُوا صدوراً ذاتَ توغيرِ

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوْلَا
كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى
ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ
ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ
أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾
أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ
بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ
ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم
مِّن فَضْلِهِۦۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ﴾ الآية، «أم لهم» استفهام تقرير وتوبيخ. لمّا ذكر تعالى أنه شرع للناس ما وصّى به نوحاً، أخذ ينكر ما شرع غيره تعالى. والضمير في «شرعوا» عائد على [الشركاء، وفي «لهم» عائد على] الكفّار المعاصرين للرسول عليه السلام.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ﴾ أي: العِدَة بأن الفصل يكون في الآخرة. «لقضي بينهم» في الدنيا.

«ذلك» إشارة إلى ما أعدّ لهم من الكرامة، وهو مبتدأ خبره الموصول،

(١) الكتاب ٣: ٦٩، والبيت في ديوانه ١: ٢١٣.

والعائد عليه محذوف، أي: يبشر الله به عباده، حذف حرف الجر فانتصب الضمير ثم حذفه.

قال الزمخشري[1]: أو ذلك التبشير الذي يبشّر الله عباده انتهى.

لا يظهر هذا الوجه، إذ لم[2] يتقدم في هذه السورة لفظ البشرى ولا ما يدل عليه من بشير أو شبهه. ومن النحويين من جعل «الذي» مصدرية، حكاه ابن مالك عن يونس وتأوّل عليه هذه الآية، أي: ذلك تبشير الله عباده. وليس بشيء، لأنه إثبات للاشتراك بين مختلفي الحدّ بغير دليل. وقد ثبت اسمية «الذي» فلا يعدل عن ذلك بشيء لا يقوم به دليل بل ولا شبهه.

﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ روي أن الأنصار أتوا رسول الله ﷺ بمالٍ جمعوه وقالوا: يا رسول الله، قد هدانا الله تعالى بك، وأنت ابن أخينا وتعروك حقوق ومالك سعة، فاستعن بهذا على ما ينوبك. فنزلت[3] الآية فردّه إليهم.

والظاهر أن قوله «إلا المودة» استثناء منقطع، لأن المودّة ليست أجراً. [فالمعنى: لا أسألكم مالاً ولا رئاسة ولكن أسألكم] أن تَرْعَوْا حق قرابتي، وتصدّقوني فيما جئتكم به، وتمسكوا عن أذيّتي وأذيّة من اتّبعني.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۖ ﴾ أضرب عن الكلام المتقدم من غير إبطال، واستفهم استفهام إنكار وتوبيخ على هذه المقالة، أي: مثله لا يُنسب إليه الكذب على الله مع اعترافكم له قبلُ بالصدق والأمانة.

---

(١) الكشاف ٣: ٤٦٦.

(٢) ق: لا.

(٣) انظر أسباب النزول ص٢٥١، ولباب النقول ص١٨٨.

﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ﴾ بالصبر على أذاهم حتى لا يشقَّ عليكَ قولُهم إنك مُفْتَرٍ(١).

﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ استئناف إخبار.

﴿۞ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ
بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ
وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٖۚ
وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ
أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ
مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٣١﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ
فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ
وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٤﴾ وَيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿۞ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ﴾ قال عمرو بن حريث: طلب قوم من أهل الصفّة من الرسول عليه السلام [٤٩٧/أ] أن يغنيهم الله، ويبسط لهم الأموال والأرزاق، فنزلت(٢). أعلم تعالى أن الرزق لو جاء على اقتراح البشر لكان سبب بغيهم وإفسادهم، ولكنه تعالى أعلم بالمصلحة، فربَّ إنسان لا يصلح ويكتفي شرّه إلا بالفقر وآخر بالغنى.

﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ﴾ أي: يقدّر لهم ما هو أصلح لهم.

﴿وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ﴾ وهو ما يظهر من آثار الغيث من المنافع والخصب وغير ذلك.

---

(١) ق: مقترح.

(٢) انظر أسباب النزول ص٢٥١.

وقرىء: بما كسبت، بغير فاء. «فما» موصولة بمعنى الذي مبتدأة، والخبر محذوف تقديره: كائن بما كسبت، والباء للسببية و«ما» مصدرية تقديره: بكسب أيديكم. ويجوز أن تكون موصولة بمعنى الذي، و«كسبت» صلته، والضمير محذوف تقديره: كسبته.

وقرىء: فبما، بالفاء. فالأحسن أن تكون «ما» شرطية والفاء جواب الشرط، وبعد الفاء محذوف تقديره: فهو، أي: فإصابتها بما كسبت أيديكم. وفي الحديث[١]: «لا يصيب ابن آدم خدش عود أو عثرة قدم ولا اختلاج عِرْقٍ إلا بذنب[٢]، وما يعفو عند أكثر».

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ الآية، «الجواري» هي السفن جمع جارية وهي صفة جرت مجرى الأسماء، فوليت[٣] العوامل. والأعلام هي الجبال واحدها علم، وقالت الخنساء ترثي أخاها[٤]: **[من البسيط]**

وإنّ صخراً لتأتمّ الهداة به ... كأنه علم في رأسه نار

﴿فَيَظْلَلْنَ﴾ أي: يقمن، قال الزمخشري[٥]: من ظل يظَلُّ ويَظِلُّ نحو ضل يضَلُّ ويَضِلُّ انتهى.

ليس كما ذكر؛ لأن يَضَلّ بفتح العين من ضلِلْت بكسرها في الماضي،

---

(١) أخرجه الترمذي ٩: ٥ من حديث أبي موسى بألفاظ مقاربة، وانظر صحيح الجامع الصغير ٦: ٢٤٠.

(٢) ق: ذنب.

(٣) ق: فلويت.

(٤) ديوانها ص٨٠.

(٥) الكشاف ٣: ٤٧١.

ويضِل بكسرها من ضَلَلْت بفتحها في الماضي، وكلاهما مقيس.

﴿رَوَاكِدَ﴾ أي: ثوابت. ﴿عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ أي: ظهر البحر. ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على بلائه ﴿شَكُورٍ﴾ لنعمائه.

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ يهلكهنّ أي: الجواري، وهو عطف على «يسكن».

قال الزمخشري[1]: فإن قلت: علام عطف «يوبقهن»؟. قلت: على «يُسكن»، لأن المعنى: إن يشأ يسكن الريح، فيركدن أو يعصفها، فيغرقن بعصفها انتهى.

لا يتعيّن أن يكون التقدير: أو يعصفها فيغرقن لأن إهلاك السفن لا يتعين أن يكون بعصف الريح، بل قد يهلكها الله تعالى بسبب غير الريح كنزول سطحها بكثرة الثقل، أو انكسار لوح يكون سبباً لإهلاكها، أو يعرض [لها] عدوّ يهلك أهلها.

والضمير في «كسبوا» عائد على ركاب السفن، أي: بذنوبهم. أخبره تعالى أنه يعفو عن كثير، أي: لا يؤاخذ بجميع ما اكتسب الإنسان.

وقرأ نافع وجماعة: ويعلمُ، بالرفع عطفاً على «ويعف».

وقرأ الجمهور بالنصب، فقال الكوفيون: هو منصوب بالواو التي تسمّى[2] واو الصرف، وهو أن تصرف الواو عطفه على ما قبله [٤٩٧/ب] من المرفوع.

---

(١) الكشاف ٣: ٤٧١.

(٢) ق: الذي يسمّى.

وقال ابن عطية في قراءة النصب: وهذه الواو ونحوها، التي يسميها الكوفيون واو الصرف، لأن حقيقة واو الصرف التي يريدونها عطف فعل [على] اسم مقدر بتقدير أنْ، لتكون مع الفعل بتأويل المصدر، فيحسن عطفه على الاسم انتهى.

وليس قوله «لأنّ» تعليلاً لقولهم واو الصّرف؛ إنما هو تقرير لمذهب البصريين. وأما الكوفيون فإن واو الصرف ناصبة بنفسها لا بإضمار أنْ بعدها.

وخرّج الزمخشري النصب على أنه معطوف على تعليل محذوف، قال[1]: تقديره لينتقم منهم ويعلم الذين يجادلون. ونحوه في العطف على التعليل المحذوف غير عزيز في القرآن، ومنه قوله تعالى ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴿٢١﴾﴾ [مريم] وقوله ﴿وَخَلَقَ[2] ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ [الجاثية] انتهى.

ويبعد تقديره: لينتقم منهم؛ لأنه ترتّب على الشرط إهلاك قوم ونجاة قوم، فلا يحسن: لينتقم منهم. وأما الآيتان فيمكن أن تكون اللام متعلقة بفعل محذوف أي: ولنجعله آية للناس فَعَلْنا ذلك، ولتجزى كل نفس بما كسبت [فَعَلْنا ذلك]. وهو كثير أن يقدَّر هذا الفعل محذوفاً قبل لام العلّة، إذا لم يكن فعل ظاهر يتعلّق به.

ومذهب البصريين في قراءة النصب أنه بإضمار أنْ فينسبك منها والفعل بعدها مصدر معطوف على مصدر متوهَّم وتقديره: فإظلالهن أو إيباقهنّ

---

(١) الكشاف ٣: ٤٧٢.

(٢) ق: خلق.

وعِلْم الذين يجادلون. ونظيره قراءة من قرأ ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة] بالنصب، ينسبك منه مصدر معطوف على مصدر متوهَّم تقديره في تلك الآية: يكن حساب فمغفرة.

﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ جملة منفية في موضع نصب عُلّق عنها قوله «ويعلم». و«من محيص» «من» زائدة، و«محيص» مبتدأ خبره في الذي قبله.

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾.

وعن علي رضي الله عنه: اجتمع لأبي بكر الصديق رضي الله عنه مال،

فتصدّق به كله في سبيل الله والخير، فلامه المسلمون وخطّأه الكافرون فنزلت[1] ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ﴾. والظاهر أنه خطاب للناس وقيل للمشركين. و«ما» شرطية مفعول ثانٍ لـ«أُوتيتم». و«من شيء» تبيين لـ«ما» والمعنى: من شيء من رياش الدنيا ومالها[2] والسّعة فيها. والفاء جواب الشرط، أي: فهو متاع أي: يُستمتع به في الحياة. ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: من ثوابه وما أعدّ لأوليائه. ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ ممّا أوتيتم لأنه لا انقطاع له.

والعامل في «إذا» «يغفرون» وهي جملة من مبتدأ وخبر، معطوفة على «يجتنبون». ويجوز أن يكون «هم» توكيداً للفاعل في «غضبوا»، فيكون «يغفرون» جواب إذا. وقال أبو البقاء[3]: «هم» مبتدأ، و«يغفرون» الخبر، والجملة جواب إذا انتهى.

وهذا لا يجوز [٤٩٨/أ] لأن الجملة لو كانت جواب إذا لكانت بالفاء تقول: إذا جاء زيد فعمرٌ منطلق. ولا يجوز حذف الفاء إلا إن ورد في شعر.

والشورى مصدر كالفتيا بمعنى التشاور، وهو على حذف مضاف أي: وأمرهم ذو شورى بينهم.

«والذين» صلته «هم ينتصرون». و«إذا» معمولة لقوله «ينتصرون».

«إن ذلك» الإشارة بـ«ذلك» إلى ما يفهم من مصدر «صبر وغفر». والعائد على الموصول المبتدأ، من الخبر محذوف؛ أي: إن ذلك منه، لدلالة

---

(١) انظر القرطبي ١٦: ٣٥.

(٢) ق: وإمالها.

(٣) إملاء ٢: ٢٢٥.

المعنى عليه. «لمن عزم الأمور» إن كان «ذلك» إشارة إلى المصدر المفهوم من قوله «ولمن صبر وغفر» لم يكن في «عزم الأمور» حذف. وإن كان «ذلك» إشارة إلى المبتدأ كان هو الرابط، ولا يُحتاج إلى تقدير «منه»؛ وكان في «عزم الأمور» حذف، أي: أنه لمن ذوي عزم الأمور.

﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أي: على النار، دلّ عليها ذكر العذاب. ﴿خَٰشِعِينَ﴾ متضائلين صاغرين بما يلحقهم من الذلّ والصغار. ﴿مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ قال ابن عباس: ذليل.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ الظاهر أنّ «وقال» ماضٍ لفظاً ومعنى، أي: وقال الذين آمنوا في الحياة الدنيا. ويكون «يوم القيامة» معمولاً لـ«خسروا».

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾.

وقدّم تعالى هبة الإناث تأنيساً بهنّ[1] وتشريفاً لهنّ ليُهتمّ بصونهنّ والإحسان إليهن. وفي الحديث[2] «من ابتلي بشيء من هذه البنات، فأحسن

(١) ق: لهن.

(٢) أخرجه الترمذي ٦: ١٦٧ عن عائشة بألفاظ مقاربة، وانظر صحيح الجامع الصغير ٥: ٢٢١.

إليهن كنّ له ستراً من النار».

ولمّا كان العقم ليس بمحمود قال ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ﴾ وهو قسيم لمن يولد له. ولما كان[1] الخنثى يُحزن بوجوده، لم يذكره تعالى. قالوا: وكانت الخلقة مستمرة ذكراً وأنثى إلى أن وقع في الجاهلية الأولى الخنثى. فسئل فارض العرب ومعمّرها[2] عامر بن الظَّرِب عن ميراثه، فلم[3] يَدْرِ ما يقول فيه، وأرجأهم. فلمّا جن عليه الليل جعل يتقلب وتذهب به الأفكار، وأنكرت خادمه عليه الحالة التي هو فيها فسألتْه فقال: سهرتُ لأمرٍ لا أدري ما أقول فيه. فقالت له: ما هو؟ فقال: شخص له ذكر وفرج كيف يكون حاله في الميراث؟. قالت له الأمة: ورِّثه من حيث يبول. فعَقَلها، وأصبح فعرضها عليهم فرضُوا[4] بها. وجاء الإسلام على ذلك وقضى بذلك علي كرّم الله وجهه.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ﴾ أي: بمصالح العباد. ﴿قَدِيرٌ﴾ على تكوين ما يشاء.

﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ﴾ بياناً لصورة تكليم الله تعالى عباده، أي: ما ينبغي ولا يمكن إلا [بأن] يوحي إليه أحد وجوه الوحي من الإلهام، قال مجاهد: أو النَّفث في القلب. قال النقاش: أو وحي في المنام.

وقال النخعي: كان في الأنبياء من يخطّ له في الأرض، أو بأن يسمعه

---

(١) ق: كانت.

(٢) فارض العرب: مسنّها. ومعمّرها: لأنه عاش ثلاث مئة سنة فيما يقال. ويمكن أن تُقرأ: فريض العرب، وهو العالم بتقسيم المواريث نسبة إلى الفريضة.

(٣) ق: فلا.

(٤) ق: فصرحوا، ولعلها محرفة عن: ففرحوا.

كلامه دون أن يعرف هو للمتكلم جهة ولا حيّزاً كموسى عليه [٤٩٨/ب] السلام وهذا معنى ﴿مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ أي: من خفاء عن المتكلم لا[1] يحده، ولا يتصوره بذهنه وليس كالحجاب في المشاهَد[2]، أو بأن يرسل إليه [ملكاً] يشافهه بوحي الله تعالى.

«إنه [عَلِيٌّ]» عن صفات المخلوقين. ﴿حَكِيمٌ﴾ تجري أفعاله على ما تقتضيه الحكمة، يكلّم بواسطة وبغير واسطة.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ﴾ أي: مثل ذلك الإيحاء المفصّل أوحينا إليك؛ إذ كان عليه السلام اجتمعت [له] الطرق الثلاث: النّفث في الرّوع والمنام، وتكليم الله له حقيقة ليلة الإسراء، وإرسال رسول إليه وهو جبريل عليه السلام.

﴿مَا كُنتَ تَدْرِى﴾ قبل الوحي أن تقرأ القرآن ولا كيف تدعو الخلق إلى الإيمان.

﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا﴾ يحتمل أن يعود إلى قوله «روحاً» وإلى «الكتاب» وإلى «الإيمان» وهو أقرب مذكور.

﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ أخبر بالمضارع والمراد به الديمومة كقولك: زيد يعطي ويمنع، أي: من شأنه ذلك، ولا يراد به حقيقة المستقبل؛ إذ جميع الأمور صائرة إليه على الدوام.

---

(١) ق: ولا.

(٢) ق: الشاهد.

مفردات سورة الشورى*

رَكَدَ الشَّيءُ: ثَبتَ مكانَهُ وقَرَّ، قال الشاعرُ:

وقد رَكَدَتْ وَسْطَ السَّماءِ نُجُومُها　　رُكُودَ نوادي(1) الرَّبْرَبِ المُتَفَرِّقِ

* * *

﴿حمٓ ① عٓسٓقٓ ② كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ③ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ④ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ⑤ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ⑥ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ⑦ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ⑧ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ⑨ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ⑩ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗاۖ يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ⑪ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ⑫﴾.

التفسير

هذه السُّورة مكِّيَّة في قولِ الحسن وعطاء وعكرمة وجابر، وقال ابنُ عباس: مكِّيَّة إلَّا أربعَ آيات مِن قوله: «قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودَّةَ في القُرْبى»[الآية: ٢٣] إلى آخِرِ أربع الآيات، فإنَّها نزلت بالمدينة(2).

---

* تفسير السُّور من «الشورى» إلى «الجاثية من تحقيق محمد معتز كريم الدين، ومن سورة «الأحقاف» إلى آخر سورة «الذاريات» من تحقيق محمد أنس الخنّ.

(1) في النسخ الخطية عدا (د٣) و(يه): بوادي، وفي مطبوع البحر: يواري. والمثبت من (د٣) و(يه) وديوانِ امرئ القيس ص ١٧١ والبيت له، وسلف عند تفسير الآية (١٤٦) من سورة الأنعام.

(2) تفسير القرطبي ١٨/ ٤٤٠، وينظر النكت والعيون ٥/ ١٩١، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٥، وزاد

وقال مقاتل: فيها مدنيٌّ قولُه: «ذلك الذي يُبشِّر اللهُ عبادَه» [الآية: ٢٣] إلى «الصُّدُور»[(١)] [الآية: ٢٤].

ومناسبة أوَّل السورةِ لآخِرِ ما قَبْلَها أنَّه قال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ الآية [٥٢ من سورة فصلت]، وكان في ذلك الحُكْم عليهم بالضَّلال لمَّا كَفَروا به، قال هنا: «كذلك» أي: مِثْل الإيحاءِ السَّابِق في القرآن الذي كَفَر به هؤلاء «يوحي إليكَ» أي: إنَّ وَحْيَه تعالى إليكَ متَّصلٌ غيرُ منقطع يتعهَّدُك به وقتاً بعد وقتٍ، وذَكَر المفسِّرون في «حم* عسق» أقوالاً مُضْطَرِبةً لا يصحُّ منها شيء، كعادتهم في هذه الفواتح ضَرَبْنا عن ذِكْرها صَفْحاً[(٢)].

وقرأ الجمهور: «يُوحِي» مبنيًّا للفاعل، وأبو حيوة والأعشى عن أبي بكر وأبان: «نُوحي» بنون العَظَمة[(٣)]، ومجاهد وابنُ كثير، وعبَّاس ومحبوب كلاهما عن أبي عمرو: «يُوحَى» مبنيًّا للمفعول[(٤)]، «واللهُ» مرفوع بمُضمَر، تقديره: أَوحَى، أو بالابتداء، التقدير: «اللهُ العزيزُ الحكيمُ» المُوحِي، وعلى قراءة: «نُوحِي» بالنُّون، يكون «الله العزيز الحكيم» مبتدأً وخبراً، و«نُوحِي» إمَّا في معنى: أوحى، حتى ينتظمَ قوله «وإلى الذينَ مِن قَبْلك» أو يُقَرُّ على موضوعه، ويُضمَر عاملٌ يتعلَّق به «إلى الذين»، تقديره: وأوحي إلى الذين مِن قَبْلك.

وتقدَّم الكلامُ على «تَكادُ السماواتُ يَنْفَطِرنَ» في سورة «مريم»[(٥)] قراءةً

= المسير ٧/ ٢٧٠، وينظر أيضاً خبر مجاهد عند الحاكم ٢/ ٤٤٥، والإتقان للسيوطي ١/ ٤٩-٥٠.

(١) لم نقف على قول مقاتل فيما بين أيدينا من مصادر، وأورده ابنُ عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٢٥ لكن عن قتادة لا عن مقاتل، وزاد قولَه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ﴾ [الآية: ٣٩] إلى قوله: ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾ [الآية: ٤١] فلَّعله المراد، والله تعالى أعلم.

(٢) تنظر هذه الأقوال في تفسير الثعلبي ٥/ ٣٧٩-٣٨٠، والنكت والعيون ٥/ ١٩١-١٩٢، وتفسير القرطبي ١٨/ ٤٤٢-٤٤٣ وغيرها من مصادر.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢٥ دون ذِكْر: أبان، وذكرها عنه عن عاصم ابنُ الجوزي في زاد المسير ٧/ ٢٧٢، وينظر الكشاف ٣/ ٤٥٩، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧١.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٢٦، وتفسير الثعلبي ٥/ ٣٨٠، والقرطبي ١٨/ ٤٤٣، وقراءةُ ابنِ كثير في السبعة ص ٥٨٠، والتيسير ص ١٩٤، والنشر ٢/ ٣٦٧.

(٥) عند تفسير الآية (٩٠) منها، وقراءة: «ينفطرن» بالنون هنا، هي قراءة أبي عمرو وأبي بكر والمفضل وأبي عبيد. تفسير القرطبي ١٨/ ٤٤٤، وقراءة أبي عمرو وأبي بكر عن عاصم في

وتفسيراً، وقال الزمخشريُّ: وروى يونس عن أبي عمرو قراءةً غَرِيبة: «تتنفطرن»[١] بتاءَين مع النُّون، ونظيرُها حرفٌ نادِرٌ رُويَ في «نوادر ابنِ الأعرابي»: الإبل تَتَشَمَّمْنَ[٢]. انتهى.

والظاهر أنَّ هذا وَهْمٌ مِن الزمخشريِّ في النَّقْل؛ لأنَّ ابنَ خالويه ذَكَر في كتاب «شواذِّ القراءات»[٣] له ما نصُّه: «تَنْفَطِرن» بالتاء والنون، يونس عن أبي عمرٍو، قال ابنُ خالويه: هذا حرفٌ نادِر، لأنَّ العربَ لا تَجْمَع بين علامَتي التأنيثِ، لا يقال: النِّساءُ تقُمْنَ، ولكن: يَقُمْنَ، ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، ولا يقال: تُرْضِعْنَ، وقد كان أبو عُمر الزَّاهد رَوَى في «نوادرِ ابنِ الأعرابيّ»: الإبل تَشَمَّمْن[٤]، فأنكرناه، فقد قوَّاه الآن هذا. انتهى. كلامُ ابنِ خالويه.

فإن كانت نُسَخُ الزمخشريِّ متفقةً على قوله: بتاءين مع النُّون، فهو وَهْمٌ، وإنْ كان في بعضِها: بتاء مع النُّون، كان موافقاً لقولِ ابنِ خالويه، وكان: بتاءَين، تحريفاً مِن النُّسَاخ، وكذلك كَتْبُهُم: تتنفطرن[٥] وتتشممن، بتاءَين[٦].

والظاهر عودُ الضمير في «مِن فوقهنَّ» على «السماوات»، قال ابنُ عطيَّة: مِن أعْلَاهُنَّ، وقال الزمخشريُّ: «ينفطرن»[٧] مِن عُلُوِّ شأنِ اللهِ تعالى وعَظَمته، ويدلُّ

= السبعة ص ٤١٢ و٥٨٠، والتيسير ص ١٥٠ و١٩٤، وهي أيضاً قراءة يعقوب، ينظر النشر ٢/ ٣١٩.

(١) كذا في النسخ الخطيَّة، وفي مطبوع البحر المحيط والكشاف ٣/ ٤٥٩ ومخطوطه الورقة (٢٦٥): «تتفطرن». ينظر ما سيأتي من كلام حول هذه القراءة.

(٢) كذا في النسخ، والذي في مطبوع الكشاف ٣/ ٤٥٩ ومخطوطه الورقة (٢٦٥): تَشَممنَ.

(٣) القراءات الشاذة ص ١٣٤.

(٤) في مطبوع البحر: تتشممن. وفي مطبوع القراءات الشاذة ص ١٣٤: تَسْمَنّ. وفي مطبوع تفسير الرازي ٢٧/ ١٤٣ نقلاً عن الكشاف: تتشمسن.

(٥) ينظر ما ورد من اختلافٍ في هذه اللفظة قريباً.

(٦) ينظر ما قاله السمينُ الحلبيُّ في الدر المصون ٩/ ٥٣٩-٥٤٠ حول هذا الكلام، وتَبِعه عليه الشهابُ الخفاجيُّ في حاشيته على تفسير البيضاوي ٧/ ٤٠٩، ولينظر ثمَّة.

(٧) كذا في النُّسَخ، ومطبوع الكشاف ٣/ ٤٥٩-٤٦٠ ومخطوطه الورقة (٢٦٩)، وهي قراءة أبي عمرو وأبي بكر عن عاصم، وسلفت الإشارة إليها قريباً.

عليه مَجِيئُه بَعْدَ «العليّ العظيم»، وقيل: مِن دُعائهم له وَلَداً، كقوله: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ [مريم: ٩٠].

فإن قلت: لِمَ قال: «من فوقهنَّ»؟

قلت: لأنَّ أعظمَ الآياتِ وأدلَّها على الجَلَال والعَظَمة فوقَ السماوات وهي العَرْش والكُرسيُّ وصُفُوف الملائكة المُرْتَجَّةِ بالتَّسبيحِ والتَّقديس حولَ العرش، وما لا يعْلَم كُنْهَه إلَّا الله مِن آثارِ مَلَكوته العُظْمى، فلذلكَ قال: «يَنْفَطِرنَ مِن فوقهنَّ» أي: يَبْتَدِئُ الانفطارُ من جهتهنَّ الفَوقانيَّة[١].

وقال جماعة منهم الحوفيُّ، قال: «مِن فوقهنَّ» الهاء والنون كنايةٌ عن الأَرَضين. انتهى.

و«مِن فوقهنَّ» متعلِّق بـ «ينفطرن»، ويدلُّ على هذا القول ذِكْرُ الأرض قَبْلُ، وقال عليُّ بنُ سليمان الأخفش: الضمير للكفار، والمعنى مِن فوقِ الفِرَقِ والجماعات المُلحِدَة، أي: مِن أَجْلِ أقوالها[٢]. انتهى.

فهذه الآيةُ كالذي في سورة «مريم»، واستبعد مكِّيّ هذا القولَ، قال: لا يَجوز في الذُّكور مِن بني آدم[٣]، يعني ضميرَ المؤنَّثات، ولاسْتِشْعَارِ ما ذَكَره مكِّيّ قال عليُّ بنُ سليمان: مِن فوقِ الفِرَق والجماعات.

وظاهر الملائكةِ العمومُ، وقال مقاتل: حَمَلَة العرشِ، والتسبيح، قيل: قولهم: سبحانَ الله، وقيل: يُصَلُّون[٤].

والظاهر في «يستغفرون»: طَلَب الغُفْران، ولأهلِ الأرض عامٌّ مخصوصٌ بقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٧] قاله السُّدِّيُّ[٥]، وقيل: عامٌّ، ومعنى

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٥٩-٤٦٠.
(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٦، ولم نقف على قول الأخفش في كتابه معاني القرآن، ونَقَله عنه أيضاً مكّيّ في الهداية ١٠/ ٦٥٥٦ كما سيرد قريباً.
(٣) الهداية لمكّيّ ١٠/ ٦٥٥٦.
(٤) النكت والعيون ٥/ ١٩٣.
(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٢٦ وما بعده منه أيضاً، مع الإشارة إلى أنَّ ابنَ عطية ذَكَر أوّلاً عن =

الاستغفارِ طَلَبُ الهداية المُؤدِّية إلى المغفرة، كأنَّهم يقولون: اللَّهمَّ اهْدِ أهلَ الأرض واغْفِر لهم، ويدلُّ عليه وَصْفُه بالغفران والرَّحْمة بالاستفتاح.

وقال الزمخشريُّ: ويحتمل أنْ يقصدوا بالاستغفار لهم طَلَبَ الحِلْم والغفران في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر:٤١] إلى أنْ قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد:٦] والمراد الحِلْم عنهم، وأنْ لا يُعاجِلهم بالانتقام، فيكون عامًّا[١]. انتهى.

وتكلَّم أبو عبد الله الرازيُّ في قوله: «تكادَ السماواتُ» كلاماً خارجاً عن مناحي مفهوماتِ العرب مُنتَزعاً مِن كلامِ الفلاسفة ومَن جرى مجراهم، يُوقَف على ذلك في كتابه[٢].

«والذين اتَّخذَوا مِن دُونه أولياءَ» أي: أصناماً وأوثاناً «اللهُ حفيظٌ عليهم» أعمالَهم ومُجازِيهم عليها «وما أنتَ عليهم بوكيل» أي: بمُفَوَّضٍ إليكَ أمْرُهم ولا قائمٍ، وما في هذا مِن الموادَعة منسوخٌ بآية السَّيْف[٣].

«وكذلك» أي: ومِثْلُ هذا الإيحاء والقَضَاء أنَّكَ لستَ بوكيلٍ عليهم، «أوحينا إليكَ قرآناً عربيًّا»، والظاهر أنَّ «قرآناً» مفعول «أوحينا»، وقال الزمخشريُّ: الكاف مفعولٌ به لـ «أوحينا»، و«قرآناً عربيًّا» حال من المفعول به، أي: أوحيناهُ إليكَ وهو قرآنٌ عربيٌّ لا لُبْسَ فيه عليك؛ إذ نَزَلَ بلسانك[٤]. انتهى. فاستعمل الكافَ اسماً في الكلام، وهو مذهب الأخفش.

«لتُنْذِرَ أُمَّ القُرَى» أي: سبب إيحاءِناهُ إليكَ هو الإنذارُ، ولا تُكلَّف غيرَه، و«أُمّ القُرَى» مكَّة، أي: أهلَ أمِّ القُرَى، ولذلك عطف «ومَن حولها»، والمفعول الثاني محذوف، «ومَن حولها» هم العرب، «وتنذر يوم الجمع» والمفعول الأوَّل محذوف،

= بعضهم أنَّ الاستغفار لمن في الأرض منسوخٌ بآية أخرى وهي: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر:٧]، ثم ذَكَر كلام السديّ بأنَّ الاستغفار مخصوص بمن في الأرض من المؤمنين.

(١) الكشاف ٣/ ٤٦٠.

(٢) تفسير الرازي ٢٧/ ١٤٤-١٤٦.

(٣) تفسير القرطبي ١٨/ ٤٤٦، وزاد المسير ٧/ ٢٧٣ وقال بعده: لا يصحّ.

(٤) الكشاف ٣/ ٤٦١.

والمفعول الثاني هو «يوم الجمع»[١] أي: اجتماع الخلائق، والمُنْذَر به هو ما يَقَعُ في «يوم الجَمْع» مِن الجزاء وانْقِسَام الجَمْع إلى الفريقين، أو اجتماع الأرواح بالأجساد، أو أهلِ الأرضِ بأهلِ السماء، أو الناس بأعمالِهم، أقوالٌ أربعة.

وقرئ: «لِيُنْذِرَ» بياء الغيبة[٢]، أي: لِيُنْذِر القرآنُ، «لا ريبَ فيه» أي: لا شَكَّ في وقوعه، وقال الزمخشريُّ: «لا ريبَ فيه» اعتراضٌ لا محلَّ له[٣]. انتهى.

ولا يَظهر أنَّه اعتراضٌ، أعني: صناعيًّا؛ لأنَّه لم يَقَع بين طالبٍ ومطلوب.

وقرأ الجمهور: «فريق» بالرَّفع فيهما، أي: هم فريق، أو: منهم فريق، وقرأ زيد بنُ عليٍّ: بنصبهما[٤]، أي: افترقوا فريقاً في كذا وفريقاً في كذا، ويدلُّ على الافتراقِ الاجتماعُ المفهومُ مِن يَوْم الجَمْع.

«ولو شاءَ اللهُ لجَعَلهم أُمَّةً واحدةً» يعني: مِن إيمانٍ أو كفرٍ، قال معناه الضَّحَّاك[٥]، وهو قولُ أهلِ السُّنَّة، وذلك تسليةٌ للرَّسول عمَّا كان يُقاسِيه مِن كُفْرِ قومِه، وتوقيفٌ على أنَّ ذلك راجعٌ إلى مشيئته، ولكن مَن سَبَقَت له السعادةُ أدخله في رحمته.

وقال الزمخشريُّ: «لجَعَلَهم أمَّةً واحدةً» أي: مؤمنين كلَّهم على القَسْر والإكراه، كقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة:١٣] وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس:٩٩] والدليلُ على أنَّ المعنى هو الإلجاءُ إلى الإيمان قولُه: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾[٦] [يونس:٩٩] وذَكَر ما ظنَّه استدلالاً على ذلك، وهو على طريق المعتزلة.

---

(١) قال السمين في الدر المصون ٩/ ٥٤١: فحذف المفعول الأول من الإنذار الثاني، كما حذف المفعول الثاني من الإنذار الأول.

(٢) الكشاف ٣/ ٤٦١.

(٣) المصدر السابق.

(٤) الكشاف ٣/ ٤٦١ دون عزو، وينظر أيضاً معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٢، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧٢، وتفسير القرطبي ١٨/ ٤٤٧.

(٥) النكت والعيون ٥/ ١٩٤.

(٦) الكشاف ٣/ ٤٦١.

وقال أنس بنُ مالك: «في رحمته» في دينِ الإسلام[1].

«أم اتَّخَذوا مِن دُونهِ أولياءَ»: «أم» بمعنى «بل» للانتقال مِن كلام إلى كلام، والهمزةَ للإنكار عليهم اتِّخاذَ أولياءَ مِن دُونِ الله، وقيل: «أم» بمعنى الهمزة فقطْ، وتقدَّم الكلامُ على مِثْل هذا حيث جاءَت «أم» المنقطعة، والمعنى: اتَّحذوا أولياءَ دونَ الله، وليسوا بأولياءَ حقيقةً «فاللهُ هو الوليُّ» والذي يَجب أن يُتَولَّى وَحْدَهُ لا ما لا يَضُرّ ولا يَنفع مِن أوليائهم.

ولمَّا أَخبر أنَّه الوليُّ، عطف عليه هذا الفعلَ الغريبَ الذي لا يَقْدِرُ عليه غيرُه، وهو إحياء الموتى، ولمَّا ذَكَر هذا الوصفَ ذَكَر قُدْرَته على كلِّ شيءٍ تَتَعلَّقُ إرادتُه به.

وقال الزمخشريُّ في قوله: «فاللهُ هو الوليُّ»: والفاء في قوله: «فاللهُ هو الوليُّ» جوابُ شَرْط مُقدَّر، كأنَّه قيل بَعْدَ إنكارِ كلِّ وَليٍّ سواه: إنْ أرادوا وليًّا بحقٍّ «فاللهُ هو الوليُّ» بالحقِّ، لا وليَّ سِواهُ[2]. انتهى، ولا حاجةَ إلى اعتقاد شَرْطٍ محذوفٍ، والكلامُ يتمُّ بدونه.

«وما اختلفتم فيه مِن شيء» هذا حكايةٌ لقولِ الرسول، أي: «ما اختلفتم فيه» أيُّها الناسُ مِن تكذيبٍ أو تصديقٍ، وإيمانٍ وكُفْر، وغيرِ ذلك، فالحكم فيه والمجازاةُ عليه ليس ذلك إلَّا إلى الله لا إليَّ.

ولفظةُ «مِن شيء» تدلُّ على العموم، وقيل: «مِن شيء» مِن الخصوماتِ، فتَحاكَموا فيه إلى رسولِ الله ﷺ ولا تُؤْثِرُوا على حكومتِه حكومةَ غيرِه، كقوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

وقيل: «مِن شيء» مِن تأويلِ آيةٍ واشْتَبَهَ عليكم، فارجعوا في بيانه إلى آيِ المُحْكَم مِن كتاب الله، والظاهرِ مِن سُنَّة رسولِ الله ﷺ.

وقيل: ما وَقَعَ منكم الخلافُ فيه مِن العلوم التي لا تَتَّصل بتكليفكم ولا طريقَ لكم إلى عِلْمِه، فقولوا: اللهُ أَعْلَمُ، كمعرفة الروح.

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٢١ دون عزوه لأنس ﷺ.
(٢) الكشاف ٣/ ٤٦١.

وقال الزمخشريُّ: أي: ما خالَفَكم فيه الكفَّارُ مِن أهل الكتاب والمشركين، فاختلفتم أنتم وهم فيه مِن أمورِ الدِّين، فحكم ذلك المُختَلَف فيه مفوَّض إلى الله، وهو إثابةُ المُحقِّين فيه مِن المؤمنين، ومعاقَبَة المبطلين، «ذلكم» الحاكمُ بينكم هو «ربِّي عليه توكلتُ» في رَدِّ كيدِ أعداءِ الدِّيْن، وإليه أرجعُ في كفاية شَرِّهم[١]. انتهى.

وقرأ الجمهور: «فاطِرُ» بالرفع، أي: هو فاطر، أو خبرٌ بَعْدَ خبرٍ لقوله: «ذلكم»، وقرأ زيد بنُ عليٍّ: «فاطِرِ» بالجرِّ[٢]، صفة لقوله: «إلى الله»، والجملة بَعْدَها اعتراضٌ بين الصِفَة والموصوف.

«خَلَق لكم مِن أنفسكم» أي: من جنسِ أنفسِكم، أي: آدَمِيَّات «أزواجاً» إناثاً، أو جَعَل الخَلْقَ لأبينا آدَم مِن ضِلْعِه حوَّاء زوجاً له خَلْقاً لنا، و«مِن الأنعام أزواجاً» أي: أنواعاً كثيرةً ذكوراً وإناثاً، أو: أزواجاً إناثاً.

«يَذْرَؤكم فيه» قال ابنُ عباس: أي: يَجعل لكم فيه معيشةً تعيشونَ بها[٣]، وقال ابنُ زيد: يَرزقكم فيه، وهو قريبٌ مِن القول قَبْلَه. وقال مجاهد: يخلقكم نسلاً بَعْدَ نَسْلٍ، و: قَرْناً بَعْدَ قَرْنٍ، وقال القتبيُّ: يخلقكم في بُطُونِ الإناث، وقال ابنُ زيد أيضاً: «يَذْرَؤكم» فيما خَلَقَ مِن السماوات والأرض، وقال الزجَّاجُ: يُكَثِّركم به، أي: فيه، أي: يُكثِّركم في خَلْقِكم أزواجاً. وقال عليُّ بن سليمان: يَنقُلكم مِن حالٍ إلى حالٍ[٤].

وقال ابنُ عطيَّة: الضمير في «فيه» للجَعْل، أي: يَخلقكم ويُكثِّركم في الجَعْل، كما تقول: كلَّمت زيداً كلاماً ما أكرمته فيه، قال: ولفظة: ذَرَأ، تزيد على لفظةِ: خَلَق، معنًى آخَرَ ليس في: خَلَق، وهو تَوالي الطَّبَقات على مرِّ الزمان[٥].

---

(١) المصدر السابق ٣/ ٤٦١-٤٦٢.

(٢) الكشاف ٣/ ٤٦٢ دون عزوٍ، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧٣، وتفسير القرطبي ١٨/ ٤٤٨.

(٣) أخرجه عنه الطبريُّ ٢٠/ ٤٧٦.

(٤) تنظر هذه الأقوال في تفسير الثعلبي ٥/ ٣٨٣، والطبري ٢٠/ ٤٧٥-٤٧٦، والنكت والعيون ٥/ ١٩٤، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٨، وزاد المسير ٧/ ٢٧٥، وتفسير القرطبي ١٨/ ٤٤٩، وقول الزجاج في كتابه معاني القرآن ٤/ ٣٩٥، وقول القتبي في كتابه غريب القرآن ص٣٩١، وينظر أيضاً معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٢.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٢٨.

وقال الزمخشريُّ: «يَذْرَؤكم»: يُكثِّركم، يقال: ذَرَأَ اللهُ الخَلْقَ: بَثَّهم وكَثَّرهم، والذَّرُّ والذَّرْءُ والذَّرْوُ أخوات في هذا التدبير، وهو أَنْ جَعَلَ للناس والأنعام أزواجاً حتى كان بينَ ذُكورهم وإناثِهم التَّوالُد والتَّناسُل، والضمير في «يَذْرَؤكم» يَرجع إلى المخاطبين والأنعام، مُغلّباً فيه المخاطَبون العُقَلاء على الغُيَّب ممَّا لا يَعقل، وهي مِن الأحكام ذات العلَّتين[1]. انتهى.

وقوله: وهي مِن الأحكام ذات العِلَّتين. اصطلاحٌ غريبٌ، ويعني أنَّ الخطابَ يُغلّب على الغَيْبة إذا اجتمعا، فتقول: أنتَ وزيدٌ تقومانِ، والعاقل يُغلَّب على غيرِ العاقل إذا اجتمعا، فتقول: الناسُ والحيوانُ غيرُهم يُسبِّحون[2] خالقَهم.

وقال الزمخشريُّ: فإنْ قلت: ما معنى «يَذْرَؤكم» في هذا التدبير، وهَلَّا قيل: يَذْرَؤكم به؟

قلت: جعلَ هذا التدبير كالمَنْبَع والمَعْدِن للبَثِّ والتكثير، أَلَا تَرَاكَ تقول للحيوان في خَلْق الأزواج تكثير، كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾[3] [البقرة:١٧٩]. انتهى.

«ليس كمثله شيء» تقول العربُ: مِثْلُكَ لا يَفعل كذا، يريدون به المخاطَب، كأنَّهم إذا نَفَوا الوصفَ عن مِثْلِ الشخص، كان نَفْياً عن الشخص، وهو مِن باب المبالغة، ومِثْلُ الآيةِ قولُ أَوْس بنِ حَجَر:

لَيسَ كَمِثْلِ الفَتى زُهَيْرٍ ... خَلْقٌ يُوازِيه في الفَضائلْ[4]

وقول الآخَر:

وقَتْلَى كمِثْل جُذُوعِ النَّخِيْلِ ... تغشَّاهُمُ مُسْبِلٌ مُنْهَمِرْ[5]

(١) الكشاف ٣/ ٤٦٢.

(٢) في (يه): يستحون.

(٣) الكشاف ٣/ ٤٦٢.

(٤) البيت في تفسير الثعلبي ٥/ ٣٨٣ ولم ينسبه، بل نَسَبَ البيتَ الآتيَ لأوس بنِ حجر، فلعلَّه وقع سَبْق نَظَرٍ للمصنِّف، والله تعالى أعلم، والسمينُ الحلبيُّ في الدر المصون ٩/ ٥٤٥ تابَعَ المصنِّف في عَزْوه لأوس بن حجر، ولم نقف عليه في ديوانه ولا عند غيره.

(٥) القائل: أوس بن حجر، كما أشرنا إليه آنفاً، والبيت في تفسير الثعلبي ٥/ ٣٨٣، والمحرر

وقول الآخَر:

سـعـدُ بـنُ زيـدٍ إذا أَبْـصَـرْتَ فَـضْـلَـهُـمُ ما إنْ كَمثلِهِمُ في الناس مِن أَحَدِ[1]

فَجَرت الآيةُ في ذلك على مَنْهَج كلامِ العرب مِن إطلاق المِثْلِ على نفسِ الشيء.

وما ذهب إليه الطبريُّ[2] وغيرُه مِن أنَّ: مِثْلاً، زائدةٌ للتوكيد، كالكاف في قوله:

فـصُـيِّـروا مِـثْـلَ كـعَـصْـفٍ مَـأْكُـولْ[3]

وقوله:

وصـالـيـاتٍ كَـكَـمـا يُـؤَثْـفَـيْـنْ[4]

ليس بجيِّد؛ لأنَّ مِثْلاً اسمٌ، والأسماءُ لا تزاد، بخلاف الكافِ فإنَّها حرفٌ، فتَصلُح للزيادة، ونظيرُ نِسْبَة المِثْل إلى مَن لا مِثْلَ له قولُك: فلانٌ يَدُه مبسوطةٌ، تريد أنَّه جوادٌ، ولا نظيرَ له في الحقيقة إلى اليَدِ حتى تقولَ ذلك لمن لا يَدَ له، كقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] فكما جعلت ذلك كنايةً عن الجُود فيمَن لا يَدَ له، فكذلك جعلت المِثْل كناية عن الذات في مَن لا مِثْل له أيضاً.

= الوجيز ٥/ ٢٨، وتفسير القرطبي ١٨/ ٤٤٩، وديوان أوس بن حجر ص ٣٠، وورد عند بعضهم: مطر، وعند آخرين: سيل، بدل: مُسْبِلٌ.

(١) البيت في تفسير الطبري ٢٠/ ٤٧٧، والثعلبي ٥/ ٣٨٣، والنكت والعيون ٥/ ١٩٥، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٨، ولم ينسبوه.

(٢) ينظر تفيسر الطبري ٢٠/ ٤٧٦-٤٧٧ و١٣/ ٥٥٣-٥٥٤، والكلام من المحرر الوجيز ٥/ ٢٨.

(٣) البيت لرؤبة بن العجاج، وهو في ملحق ديوانه ص ١٨١، وقبله: وَلَعِبَت طيرٌ بهم أبابيلْ، وسلف عند تفسير الآية (١٧) من سورة البقرة.

(٤) البيت لخِطام المجاشعي، وصدره: غير خطامٍ ورمادٍ كِنْفين، وهو في الكتاب ١/ ٢٢، والخصائص لابن جنِّيّ ٢/ ٣٦٨، والاقتضاب ص٤٣٠، واللسان (غرا)، وخزانة الأدب ٢/ ٣١٣، والصاليات: الأثافي التي توضع عليها القِدْر، جعلها صاليات، لأنها صليت بالنَّار حتى اسودَّت، واختلف النحويُّون في وزن: يؤثفين، فقيل: يُؤَفْعَلن، وقيل: يُفَعلين. ينظر تتمة هذا الخلاف والكلام حوله في خزانة الأدب، ومعنى البيت: مِثْل ما نُصِبْن أثافيَ لم يَزَلْنَ.

ويحتمل أيضاً أَنْ يراد بالمِثْل الصِّفَة، وذلك سائغٌ يُطلَق المِثْل بمعنى المَثَل وهو الصفة، فيكون المعنى: ليس مِثْلُ صفته تعالى شيءٌ مِن الصفات التي لغيرِه، وهذا مَحْملٌ سَهل، والوجه الأوَّل أغوص.

قال ابنُ قتيبة: العَرَبُ تُقيم المِثْلَ مُقامَ النَّفْسِ، فتقول: مِثْلي لا يُقال له هذا، أي: أَنَا لا يُقال لي هذا[١]. انتهى. فقد صارَ ذلك كنايةً عن الذات، فلا فرقَ بين قولك: ليسَ كاللهِ شيءٌ، أو: ليس كمِثْلِ اللهِ شيءٌ، وقد أَجمعَ المفسِّرونَ على أنَّ الكافَ والمِثْلَ يُراد بهما مَوضُوعهما الحقيقيّ مِن أنَّ كُلًّا منهما يُراد به التَّشْبِيه، وذلك محالٌ؛ لأنَّ فيه إثباتَ مِثْلٍ للهِ تعالى، وهو محالٌ، «وهو السميع» لأقوال الخَلْق «البَصِيرُ» لأعمالهم، وتقدَّم تفسير ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ في سورة «الزمر»[٢].

وقُرِئَ: «ويُقَدِّر»[٣] أي: ويُضيِّق.

«إنَّه بكلِّ شيء عليم» أي: فيَبسُط لمَن يشاء، ويُضيِّق على مَن يشاء، وقال الزمخشريُّ: فإذا عَلِمَ أنَّ الغِنَى خيرٌ للعبد أَغْنَاهُ، وإلَّا أَفْقَرهُ[٤]. انتهى. وفيه دسيسةُ الاعتزال.

❁ ❁ ❁

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ

(١) تفسير غريب القرآن ص ٣٩١، والكلام من زاد المسير ٧/ ٢٧٦.
(٢) عند تفسير الآية (٦٣) منها.
(٣) الكشاف ٣/ ٤٦٣.
(٤) المصدر السابق.

أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾.

لمَّا عَدَّدَ تعالى نِعَمَه عليهم الخاصَّة، أَتْبَعَهُ بذِكْر نِعَمه العامَّة، وهو ما شَرَعَ لهم مِن العقائد المتَّفق عليها؛ مِن توحيدِ اللهِ وطاعته والإيمانِ بُرسُله وبكُتُبه وباليوم الآخِر والجزاء فيه، ولمَّا كان أَوَّلُ الرُّسُل نوحاً عليه السلام وآخِرُهم محمداً ﷺ، قال: «ما وصَّى به نوحاً والذي أوحينا إليك»، ثمَّ أَتبع ذلك ما وصَّى به إبراهيم، إذ كان أبا العَرَب، ففي ذلك هَزٌّ لهم وبَعْثٌ على اتِّباع طريقته موسى وعيسى صلواتُ اللهِ عليهم، لأنَّهما هما اللَّذانِ كان أَتباعهما موجودين زمانَ بعثةِ رسولِ الله ﷺ، والشَّرائع متَّفقةٌ فيما ذكرنا مِن العقائد، وفي كثيرٍ مِن الأحكام كتحريم الزِّنَى والقَتْل بغير حقٍّ، والشرائع مُشْتَمِلة على عقائد وأحكام، ويقال: إنَّ نوحاً أوَّل مَن أَتَى بتحريم البناتِ والأمَّهاتِ وذواتِ المحارم[1]، وقال ابنُ عبَّاس: «شَرَعَ» اختار.

ويحتمل أَنْ تكونَ «أَنْ» مفسِّرة؛ لأنَّ قَبْلَها ما هو بمعنى القولِ، فلا موضعَ لها مِن الإعراب، وأَنْ تكون «أَنْ» المصدريَّة، فتكون في موضع نَصْبٍ على البَدَل مِن «ما» وما عُطِفَ عليها، أو في موضع رَفْع، أي: ذلك، أو هو إقامةُ الدِّين، وهو توحيدُ اللهِ وما يَتبعه ممَّا لا بُدَّ مِن اعتقاده، ثمَّ نَهَى عن التَّفْرِقة فيه؛ لأنَّ التَّفَرُّقَ سببٌ للهلاك، والاجتماعَ والأُلْفَةَ سببٌ للنجاة[2].

«كَبُرَ على المشركين» أي: عَظُمَ وشَقَّ ما تَدْعُوهم إليه مِن توحيدِ الله وتَرْكِ عبادةِ الأصنام وإقامةِ الدِّيْن.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢٩، وأورد الخبر الماورديُّ في النكت والعيون ٥/ ١٩٦ وعزاه للحكم.
(٢) أخرجه عنه الطبريُّ ٢٠/ ٤٨١ بنحوه.

«اللهُ يَجْتَبِي» يَجتَلِب ويَجمع «إليه مَن يشاءُ» هدايته، وهذا تسليةٌ للرَّسول، وقيل: «يَجتبي» فيَجْعَله رسولاً إلى عبادِه «ويَهدي إليه مَن ينيب» يَرجع إلى طاعته عن كُفْره.

وقال الزمخشريُّ: «مَن يشاءُ» مَن يَنفَعُ فيهم توفيقُه، ويَجْرِي عليهم لُطْفُه(١). انتهى. وفيه دسيسةُ الاعتزال.

وقال الحافظ أبو بكر بنُ العربيّ: لم يَكن مع آدَمَ عليه السلام إلَّا بَنُوه، ولم تُفرَض له الفرائضُ، ولا شُرِعت له المَحارِم، وإنَّما كان مُنَبَّهاً على بعضِ الأمور مُقتصراً على ضروراتِ المعاش، واستمرَّ الهَدْيُ(٢) إلى نوحٍ، فبَعَثه اللهُ بتحريم الأمَّهاتِ والبناتِ، ووظَّف عليه الواجباتِ، وأوضح له الأدبَ في الدِّيانات، ولم يَزَل ذلك يتأكَّد بالرُّسُل ويَتناصر بالأنبياء واحداً بَعْدَ واحدٍ، وشريعةً إِثْرَ شريعةٍ، حتى خَتَمه اللهُ بخير المِلَل على لسانِ أكرم الرُّسُل، فكان المعنى: أوصيناكَ يا محمَّد ونوحاً ديناً واحداً في الأصول التي لا تَختلف فيها الشرائعُ؛ وهي التوحيدُ والصلاةُ والزكاة والصيام والحجّ والتقرُّب بصالح الأعمال والصِّدْق، والوفاء بالعَهْد، وأداء الأمانة وصِلَة الرَّحِم، وتحريم الكِبْر(٣) والزِّنى والأذِيَّة للخَلْق كيفما تصرَّفت، والاعتداء على الحيوانِ، واقتحام الدَّناءات وما يَعود بخَرْم المُروءات، فهذا كلُّه مشروعاً دِيْناً واحداً ومِلَّةً متَّحِدةً، لم يختلف على ألسنةِ الأنبياء وإنِ اختلفت أعدادُهم، وذلك قوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ أي: اجْعَلُوه قائماً، يريد دائماً مستمرًّا محفوظاً مُستقِرًّا مِن غيرِ خلافٍ فيه ولا اضْطِراب. انتهى.

وقال مجاهد: لم يُبعَث نبيٌّ إلَّا أَمَرَ بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإقرارِ بالله وطاعته، فهو إقامةُ الدين(٤).

وقال أبو العالية: إقامةُ الدِّين: الإخلاصُ لله وعبادته، «ولا تتفرَّقوا فيه» قال

(١) الكشاف ٣/ ٤٦٤.
(٢) في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٥٤، ونَقَله عنه القرطبيُّ ١٨/ ٤٥٢: واستقرَّ المَدَى.
(٣) في المصدرين السابقين: وتحريم الكفر.
(٤) تفسير الثعلبي ٥/ ٣٨٤، والبغوي ٤/ ١٢٢، والقرطبي ١٨/ ٤٥٣، وهو رواية للوالبي عن ابن عباس، وقاله الكلبيُّ أيضاً.

أبو العالية: لا تَتَعادَوا فيه[١]، وقال مقاتل: معناه: لا تَخْتَلفوا، فإنَّ كلَّ نبيٍّ مُصدِّقٌ[٢]، وقيل: «لا تتفرَّقوا فيه» فتؤمنوا ببعضِ الرُّسُل وتكْفروا ببعضٍ.

«وما تفرَّقوا» قال ابنُ عباس: يعني: قريشاً، و«العِلْمُ» محمَّدٌ عليه الصلاة والسلام، وكانوا يَتَّمنَون أنْ يُبعَث إليهم نبيٌّ، كما قال: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٤٢] يريدون نبيًّا، وقيل: الضمير يَعود على أُمَمِ الأنبياءِ جاءَهم العِلْم فطالَ عليهم الأَمَدُ، فآمَنَ قومٌ، وكَفَرَ قومٌ. وقال ابنُ عباس أيضاً: عائدٌ على أهلِ الكتاب والمشركين، دليله: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [البيِّنة:٤] قال المشركون: لِمَ خُصَّ بالنبوَّة، واليهود والنصارى حَسَدوه[٣].

«ولولا كلمةٌ» أي: عِدَةُ التأخُّر إلى يوم القيامة، فحينئذٍ يقع الجزاءُ «لقضيَ بينهم» لجُوزُوا بأعمالهم في الدُّنيا، لكنَّه قَضَى أنَّ ذلك لا يكون إلَّا في الآخِرَة.

وقال الزجَّاج: الكلمة قولُه: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾[٤] [القمر:٤٦].

«وإنَّ الذينَ أُورثوا الكتابَ مِن بَعْدِهم» هم بَقِيَّة أهلِ الكتاب الذين عاصَرُوا رسول الله ﷺ «مِن بَعْدِهم» أي: مِن بَعْدِ أسلافِهم، أو هم المشركون أُورثوا القرآنَ مِن بَعْد ما أُورث أهلُ الكتابِ التوراةَ والإنجيل[٥].

وقرأ زيد بنُ عليٍّ: «وُرِّثُوا» مبنيًّا للمفعول، مشدَّد الرَّاء.

«لفي شَكٍّ منه» أي: مِن كتابهم، أو مِن القرآن، أو ممَّا جاء به محمَّد ﷺ، أو مِن الدِّين الذي وصَّى اللهُ به نوحاً.

ولمَّا تقدَّم شيئان؛ الأَمْرُ بإقامة الدِّين، وتفرُّق الذين جاءَهم العِلْم واختلافهم، وكونهم في شَكٍّ، احتملَ قولُه: «فلذلكَ» أنْ يكون إشارةً إلى إقامة الدِّيْن ـ أي:

(١) تفسير السمرقندي ٣/ ١٩٢.
(٢) بعدها في النكت والعيون ٥/ ١٩٧ ـ والكلام منه ـ: لمَن قبْلَه.
(٣) تفسير القرطبي ١٨/ ٤٥٣-٤٥٤، وينظر تفسير السمرقندي ٣/ ١٩٢-١٩٣، والثعلبي ٥/ ٣٨٤.
(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٣٩٦.
(٥) الكشاف ٣/ ٤٦٤.

فادْعُ لدِيْنِ اللهِ وإقامتِه ـ ولا تَحتاج إلى تقديرِ اللام بمعنى: «إلى»؛ لأنَّ دعا يتعدَّى باللَّام، قال الشاعر:

دعوتُ لِمَا نابَني مِسْوراً فلبَّيْ فلبّي يَدَي مِسْور[١]

واحتمل أَنْ تكون اللّامُ للعِلَّة، أي: لأَجْلِ ذلك التفرُّق ولِمَا حَدَث بسببه مِن تشعُّب الكُفْر شُعباً «فادْعُ» إلى الاتِّفاق والائتِلاف على الملَّة الحنيفيَّة «واستقم» أي: دُمْ على الاستقامة، وتقدَّم الكلامُ على ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ وكيفيَّة هذا التَّشْبيه في أواخِر«هود»[٢].

«ولا تتَّبع أهواءَهم» المُختلِفة الباطِلة، وأَمَرَهُ بأَنْ يُصرِّح أنَّه آمَنَ بكلِّ كتابٍ أنزله اللهُ؛ لأنَّ الذين تفرَّقوا آمنوا ببعضٍ وكفروا ببعض.

«وأُمِرْت لأَعْدِل بينَكم» قيل: إنَّ المعنى: وأُمِرتُ أَنْ أعدلَ بينكم، «وأُمرت» بما أُمرت به «لأعدلَ بينكم» في إيصالِ ما أُمرت به إليكم لا أَخُصُّ شخصاً بشيء دونَ شخصٍ، الشريعةُ واحدةٌ والأحكام مشتركٌ فيها.

وقيل: «لأَعدلَ بينكم» في الحُكْم إذا تخاصمتم فتَحَاكمتم إليَّ «لا حُجَّةَ بيننَا وبينَكم» أي: قد وَضحت الحُجَج وقامَت البراهينُ، وأَنتم مَحجُوجونَ، فلا حاجةَ إلى إظهار حُجَّة بَعْدَ ذلك.

«اللهُ يَجمَعُ بيننا وبينكم» أي: يومَ القيامة، فيَفْصِل بيننا، وما يَظهر في هذه الآية مِن الموادعةِ منسوخٌ بآية السَّيف[٣].

«والذين يُحاجُّون في الله» أي: يُخاصِمون في دينه، قال ابنُ عباس ومجاهد: نَزَلت في طائفة مِن بني إسرائيل همَّت بردِّ الناس عن الإسلامِ وإضلالِهم ومحاجَّتهم؛ بأَنْ قالوا: كتابُنا قَبْلَ كتابِكم، ونَبيُّنا قَبْلَ نبيِّكم، فدِيْننا أفضلُ. فنَزَلت

---

(١) سلف عند تفسير الآية (٢٢١) من سورة البقرة.

(٢) عند تفسير الآية (١١٢) منها.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٣٠، عند قوله تعالى: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ إلى آخر الآية، وينظر زاد المسير ٧/ ٢٧٩.

الآيةُ في ذلك، وقيل: نزلت في قريش كانوا يُجادِلونَ في هذا المعنى ويَطْمعُون في رَدِّ المؤمنين إلى الجاهليَّة[(١)].

و«استُجيبَ» مبنيٌّ للمفعول، فقيل: المعنى: «مِنْ بَعْدِ» ما استجابَ الناسُ لله، أي: لدِيْنه، ودَخَلوا فيه، وقيل: «مِنْ بَعْدِ» ما استجابَ الله «له»، أي: لرسوله ودينِه، بأنْ نَصَره يومَ بدرٍ وأظهر دينَه.

وقال مكّيّ: أي: «من بَعْدِ ما استُجيبَ» دعاءُ النبيِّ ﷺ؛ لأنَه دَعَا على أهلِ بدر فاستجيب له، ودَعَا على أهل مكة بالقَحْط فاستجيب له، ودَعَا للمستضعفين أنْ يُنجيهم اللهُ من قريش فاستجيب له، في أشياء[(٢)].

«حُجَّتهم داحضة» أي: باطلة، لا ثبوتَ لها.

ولـمَّا ذَكَر مَن يُحاجُّ في دينِ الإسلام، صرَّح بأنَّه تعالى هو «الذي أنزل الكتابَ»، و«الكتاب» جِنْس يُراد به الكُتُب الإلهيَّة.

«والميزان» قال ابنُ عباس ومجاهد وقتادة وغيرُهم: هو العَدْل، وعن مجاهد[(٣)]: هو هنا الميزانُ الذي بأيدي الناس، وهذا مندرجٌ في العَدْل.

«وما يُدريكَ» أيُّها المُخَاطَب «لعلَّ الساعةَ قريبٌ» ذكَّرَ على معنى البَعْث، أو على حَذْف مضافٍ، أي: «لعلَّ» مَجِيْءَ «الساعة»، و«لعلَّ الساعةَ» في موضع معمول «وما يُدرِيك»، وتقدَّم الكلامُ على مِثْل هذا في قوله في آخِرِ سورةِ «الأنبياء» ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ﴾ [الآية: ١١١] وتَوافُقُ هذه الجملة مع قوله: «اللهُ الذي أنزل الكتابَ بالحقِّ والميزانَ» أنَّ السَّاعةَ يومُ الحساب ووَضْعُ الموازين القِسْط، فكأنَّه

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٣١، وتفسير القرطبي ١٨/ ٤٥٦، وينظر تفسير السمرقندي ٣/ ١٩٣، والثعلبي ٥/ ٣٨٥، وخبر مجاهد عند الطبري ٢٠/ ٤٨٨-٤٨٩، والخبر الأول أُوردَ أيضاً عن قتادة، وهو في تفسير السمرقندي ٣/ ١٩٣، والنكت والعيون ٥/ ٢٠٠، وتفسير البغوي ٤/ ١٢٣، وأخرجه عنه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ١٩٠-١٩١.

(٢) في الهداية إلى بلوغ النهاية لمكّيّ ١٠/ ٦٥٧٦: في أشباهٍ لهذا. مع الإشارة إلى أن قول مكي بكامله زيادة من (د٣) و(يه)، ولم يرد في باقي النُّسَخ.

(٣) في النُّسَخ: ابن مجاهد، والمثبت من المحرر الوجيز ٥/ ٣١ ـ والكلام منه ـ، وتفسير الثعلبي ٥/ ٣٨٥، وزاد المسير ٧/ ٢٨٠، والقرطبيّ ١٨/ ٤٥٨، وهو الصواب.

قيل: أَمَرَكم اللهُ بالعَدْل والسَّوِيَّة قَبْلَ أَنْ يُفاجِئَكم اليوم الذي يُحاسِبكم فيه ويَزِن أعمالَكم.

«يَستعجلُ بها الذين لا يُؤمنون بها» بطَلَب وُقوعها عاجلةً؛ لأنَّهم ليسوا مُوقِنين بوقوعها؛ ليُبيِّن عَجْزَ مَن يُؤمِن بها عندَهم، أي: هي ممَّا لا يَقَعُ عندهم.

«أَلَا إنَّ الذينَ يُمارُونَ» يَلجُّون «في» أَمْرِ «الساعَةِ لفي ضلالٍ بعيد» عن الحقِّ؛ لأنَّ البعثَ غيرُ مُسْتَبْعَدٍ مِن قدرةِ الله، ودلَّ عليه الكتابُ المُعجِز فوجبَ الإيمانُ به.

«اللهُ لطيفٌ بعباده» أي: بَرٌّ بعبادِه المؤمنين ومَن سَبَقَ له الخلودُ في الجنَّة[1]، وما يُرَى مِن النِّعم على الكافر، فليس بلُطْفٍ، إنَّما هو إملاءٌ، ولا لطفَ إلَّا ما آلَ إلى الرَّحْمَة والوفاةِ على الإسلام.

وقال مقاتل: «لطيفٌ» بالبَرِّ والفاجر؛ حيث لم يَقْتُلهم جُوعاً[2].

وقال الزمخشريُّ[3]: يُوصِل بِرَّهُ إلى جميعهم «يَرزقُ مَن يشاء» أي: مَن يشاء يَرزقه شيئاً خاصًّا، ويَحرم مَن يشاء مِن ذلك الشيء الخاصّ، وكلٌّ منهم مرزوقٌ وإنِ اختلف الرِّزْقُ، «وهو القويُّ» أي: البالغُ القوَّةِ، وهي القُدْرة «العزيز» الغالِبُ الذي لا يُغلَب.

ولمَّا ذَكَر تعالى الرِّزْقَ ذَكَر حديثَ الكَسْب، ولمَّا كان الحَرْثُ في الأرض أَصلاً مِن أصولِ المكاسب، استعير لكلِّ مَكْسَبٍ أُريدَ به النَّماء والفائدة، أي: «مَن كان يريد» عملَ «الآخِرَة» ويَسعى لها سعيها «نَزِدْ له في حَرْثه» أي: في جزاءِ حَرْثِه؛ مِن تضعيفِ الحَسَنات، «ومَن كان يُريد حرثَ الدنيا نؤته منها» أي: العملَ لها لا لآخِرَته «نُؤْتِه منها» أي: نُعْطِه شيئاً منها «وما لَهُ في الآخِرَةِ مِن نصيب» لأنَّه لم يَعمل شيئاً للآخِرَة.

والجملة الأولى وَعْدٌ مُنجَزٌ، والثانية مُقيَّدة بمشيئته تعالى، فلا يَناله إلَّا رِزْقه الذي فَرَغَ منه، لا كلّ ما يُريده هو، واقْتَصَر في عامل الآخِرَة على ذِكْرِ حظِّه فيها،

(١) في النسخ: في الدنيا. والمثبت من المحرر الوجيز ٥/ ٣٢ - والكلام منه - وهو الصواب.
(٢) تفسير الثعلبي ٥/ ٣٨٥، والبغوي ٤/ ١٢٣، والقرطبي ١٨/ ٤٥٩.
(٣) الكشاف ٣/ ٤٦٥.

مع أنَّه في الدُّنيا لا بُدَّ له مِن رِزْقه الذي قُدِّر له؛ لأنَّ ما نالَهُ في الدُّنيا بالنسبة إلى حظِّه في الآخِرَة كأنَّه غيرُ مُعتَبر، فلا يُناسِب ذِكْره مع ما أَعدَّ اللهُ له في الآخِرَة لمَن يَشاءُ ما يَشاء[١].

وجاء فِعْلُ الشَّرْط ماضياً، والجواب مجزومٌ، كقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾ [هود: ١٥] ولا نَعْلَم خلافاً في جواز الجَزْم وأنَّه فصيح مختارٌ إلَّا ما ذَكَره صاحبُ كتاب «الإعراب» وهو أبو الحَكَم بنُ عذرة عن بعضِ النَّحْوِيِّين أنَّه لا يَجيءُ في الكلام الفصيح، وإنَّما يَجِيْءُ مع «كان»؛ لأنَّها أَصْلُ الأفعال، ولا يَجيءُ مع غيرها مِن الأفعال، ونصّ كلام سيبويه والجماعة أنَّه لا يَختصّ ذلك بـ «كان»، بل سائر الأفعال في ذلك مِثْلها، وأنشد سيبويه للفرزدق:

دَسَّتْ رَسولاً بأنَّ القومَ إنْ قَدِرُوا ... عليكَ يَشْفُوا صُدُوراً ذاتَ تَوْغيرِ[٢]

وقال أيضاً:

تَعَالَ فإنْ عاهَدْتَني لا تَخُونني ... نَكُنْ مِثْلَ مَنْ يا ذئبُ يَصْطَحبانْ[٣]

وقرأ الجمهور: «نَزِد» و«نُؤْتِه» بالنُّون فيهما، وابنُ مقسم والزعفرانيُّ ومحبوب والمنقريّ كلاهما عن أبي عمرو: بالياء فيهما[٤]، وقرأ سلَّام: «نؤتهُ منها» برفع الهاء، وهي لغة الحجاز[٥].

❋ ❋ ❋

(١) سلف الكلام عنه عند تفسير الآية (١٨٥) من سورة البقرة.
(٢) الكتاب ٣/ ٦٩، وديوان الفرزدق ١/ ٢١٣، والبيت سلف عند تفسير الآية (٣٠) من سورة آل عمران.
(٣) ديوان الفرزدق ١/ ٣٢٩، وسلف في الموضع المشار إليه آنفاً.
(٤) لم نقف عليها عند غيره، وأوردها عنه السمين في الدر ٩/ ٥٤٨، والآلوسي في روح المعاني ٢٤/ ٢٦٢، مع الإشارة إلى أنَّه ورد في مطبوع القراءات الشاذة ص ١٣٤: «نزد له في حرثه» عبد الوارث عن أبي عمرو. انتهى. فلعلَّ لفظة: «نزد» هنا هي بالياء لا بالنون، لأنَّ قراءة النون هي قراءة الجمهور، فلا داعي لذِكْرها في القراءات الشاذة، وعليه تكون هذه القراءة ـ أي: بالياء ـ رواية عن أبي عمرو، والله تعالى أعلم.
(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٣٢، والقراءة في المحتسب ٢/ ٢٤٩.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾.

«أم لهم شركاءُ» استفهامُ تقرير وتَوبيخ، لمَّا ذَكَر تعالى أنَّه شَرَع للناس «ما وصَّى به نوحاً» الآية، أَخذَ يُنكِر ما شَرَع غَيْرُه تعالى، والشُّركاء هنا يَحتمل أنْ يُراد به شركاؤهم في الكفر كالشياطين والمُغْوِين مِن الناس، والضمير في «شرعوا» عائدٌ على الشركاء، والضمير في «لهم» عائدٌ على الكفار المعاصِرين للرَّسول، ويحتمل أنْ يُراد به الأصنام والأوثان، وكلّ مَن جَعَلوه شريكاً لله، وأُضيفَ الشُّركاءُ إليهم؛ لأنَّهم مُتَّخذوها شركاءَ لله، فتارةً تُضاف إليهم بهذه الملابسة، وتارةً إلى الله.

والضمير في«شرعوا» يحتمل أنْ يَعود على الشركاء، و«لهم» عائدٌ على الكفَّار، لمَّا كانت سبباً لضَلالهم وافْتِتانهم جُعِلَت شارعةً لدِيْن الكفر، كما قال إبراهيمُ عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم:٣٦] واحتمل أنْ يعود على الكفار، و«لهم» عائد على الشُّركاء، أي: شَرَع الكُفَّارُ لأصنامِهم ومعبوداتِهم، أي: رَسَموا لهم غوايةً وأحكاماً في المعتقدات، كقولهم: إنَّهم آلهةٌ، وإنَّ عبادتَهم تُقرِّبهم

إلى الله، ومِن الأحكام: البَحِيرة والوَصِيْلَة والحامي[١] وغير ذلك.

«ولولا كلمةُ الفَصْلِ» أي: العِدَة بأنَّ الفَصْل يكون في الآخِرَة، أو: لولا القضاءُ بذلك؛ لقضيَ بين المؤمن والكافر، أو بينَ المشركين وشركائهم.

وقرأ الجمهور: «وإنَّ الظالمين» بكسر الهمزة على الاستئناف والإخبار بما يَنالهم في الدنيا مِن القَتْل والأسْر والنَّهْب، وفي الآخِرَة النَّار.

وقرأ الأعرج ومسلم بنُ جندب: «وأنَّ» بفتح الهمزة[٢]، عطفاً على «كلمة الفَصْل» فهو في موضع رَفْع، أي: ولولا كلمةُ الفَصْل وكونُ الظالمينَ لهم عذابٌ أليم، لقُضِيَ بينهم في الدُّنيا، وفصلَ بين المتعاطفين بجواب «لولا» كما فُصِلَ في قوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [طه: ١٢٩].

«تَرَى الظالمين» أي: تُبصِر الكافرينَ ـ لمقابلتِه بالمؤمنين ـ «مُشْفِقينَ» خائفينَ الخوفَ الشديدَ «ممَّا كسبوا» مِن السَّيئات، «وهو» أي: العذابُ ـ أو يَعود على ما كسبوا على حَذْفٍ، أي: وَبَال ما كسبوا ـ أو: جزاؤه، حالٌ بهم «وهو واقعٌ بهم» فإشفاقُهم هو في هذه الحال، فليسوا كالمؤمنين الذين هم في الدنيا مُشفِقون مِن السَّاعة.

ولمَّا كانت الروضاتُ أحسنَ ما في الجنَّات وأنْزَهَها وفي أعلاها، ذَكَر أنَّ المؤمنينَ فيها.

واللغة الكثيرةُ تَسكينُ الواوِ في: «روضات»، ولغةُ هُذَيل بنِ مُدْرِكة: فتح الواو؛ إجراءً للمُعتلِّ مُجرى الصحيح، نحو: جَفَنَات، ولم يَقْرَأ أحَد ممَّن عَلِمْناه بلغتهم[٣].

---

(١) سبق التعريف بهذه عند تفسير الآية (١٠٣) من سورة المائدة.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٣٣ عن مسلم بن جندب، وتفسير القرطبي ١٨/ ٤٦٤ عن عبد الرحمن بن هرمز (الأعرج) والقراءة عنهما في القراءات الشاذة ص ١٣٤، وعن ابن جندب في المحتسب ٢/ ٢٥٠.

(٣) ينظر ما قاله السمين الحلبيُّ في الدر المصون ٩/ ٥٤٩ حول هذا الكلام، وينظر ما سلف من الكلام عند تفسير الآية (٣١) من سورة النور.

و«عند» ظَرْف، قال الحوفيُّ: معمول لـ «يشاؤون»، وقال الزمخشريُّ: منصوبٌ بالظَّرْف لا بـ: «يشاؤون». انتهى. وهو الصواب، ويعني بالظَّرْف الجارَّ والمجرور وهو «لهم»، وفي الحقيقة «عند» معمول للعامل في «لهم»، والمعنى: «ما يشاؤون» مِن النعيم والثواب مُستَقِرٌّ لهم «عند ربِّهم»، والعِنْدِيَّة عِنْديَّة المَكَانة والتشريف، لا عنديَّة المَكَان.

وقرأ الجمهور: «يُبَشِّر» بشَدِّ الشين[1]، مِن: بَشَّر، وعبد الله وابن يَعْمَر وابنُ أبي إسحاق والجَحْدَريُّ والأعمش وطلحة ـ في رواية ـ والكسائيُّ وحمزة: «يَبْشُر»[2] مِن: بَشَر، ثلاثيًا، ومجاهد وحميد بنُ قيس: بضمِّ الياء، وتخفيف الشين[3]، مِن[4]: أَبْشَر، وهو معدًّى بالهمزة مِن بَشِرَ اللازم المكسور الشين، وأمَّا: بَشَرَ ـ بفتحها ـ فمتعدٍّ، وبَشَّر ـ بالتشديد ـ للتكثيرِ لا للتعدية؛ لأنَّ المتعدِّي إلى واحد، ـ وهو مخفَّف ـ لا يُعدَّى بالتضعيف إليه، فالتضعيفُ فيه للتكثيرِ لا للتعدِية[5].

«ذلك» إشارة إلى ما أعدَّ لهم مِن الكرامة، وهو مبتدأٌ، خبرُه الموصول، والعائد عليه محذوف، أي: يُبشِّرُ اللهُ به عبادَه، بحذف حرف الجَرِّ، فانتصب الضمير ثمَّ حَذَفه[6].

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٣٣، وهي قراءة نافع وعاصم وابن عامر. السبعة ص ٢٠٥-٢٠٦، والتيسير ص ١٩٥، وهي أيضاً قراءة أبي جعفر ويعقوب وخلف. النشر ٢/ ٢٣٩-٢٤٠.

(٢) وهي أيضاً قراءة أبي عمرو وابن كثير. تنظر المصادر الآنفة الذِّكْر والدر المصون ٩/ ٥٤٩، مع الإشارة إلى أنَّه ورد في النُّسَخ ـ عدا (د٣) و(يه) ـ: وعبد الله بن يعمر، والمثبت منهما ومن المحرر الوجيز ٥/ ٣٣، حيث صرَّح بأنَّ عبد الله هو ابن مسعود. وابن يعمر هو: يحيى بن يعمر، لا: عبد الله.

(٣) أي: «يُبْشِر» المحرر الوجيز ٥/ ٣٣، وينظر تفسير القرطبي ١٨/ ٤٦٥، والقراءة عنهما في المحتسب ٢/ ٢٥١.

(٤) من قوله: بَشَّر، وعبد الله... إلى هنا، ليست في (ز٢).

(٥) من قوله: لا للتعدية؛ لأنَّ المتعدي... إلى هنا، ليست في (ت) و(ز٢).

(٦) قوله: بحذف حرف الجرّ، فانتصب الضمير ثم حذفه. زيادة من (د٣) ولم ترد في باقي النسخ.

وقال الزمخشريُّ: أو ذلك التبشيرَ الذي يُبَشِّره اللهُ عبادَه[١]. انتهى. ولا يَظهر هذا الوجه؛ إذ لم يتقدَّم في هذه السورة لفظُ البُشْرى، ولا ما يدلُّ عليها مِن بشر أو شِبْهِه.

ومِن النَّحوِيِّين مَن جَعَلَ «الذي» مصدريَّةً، حكاه ابنُ مالك عن يونس، وتأوَّل عليه هذه الآية، أي: ذلك تبشيرُ اللهِ عبادَه. وليس بشيءٍ؛ لأنَّه إثباتٌ للاشتراك بين مختلفي الحدِّ بغيرِ دليلٍ، وقد ثَبَتت اسميَّة «الذي» فلا يُعدَل عن ذلك بشيء لا يَقوم به دليلٌ، بل ولا شُبْهةٌ[٢].

«قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المَوَدَّةَ في القُرْبى» روي أنَّه اجتمعَ المشركونَ في مجمعٍ لهم، فقال بعضُهم لبعضٍ: أَتَرونَ محمَّداً يَسأل أجراً على ما يُتعاطاه. فنزلت[٣].

ورويَ أنَّ الأنصارَ أَتَوا رسولَ الله ﷺ بمالٍ جَمعوه، وقالوا: يا رسولَ الله، قد هَدَانا اللهُ بكَ، وأنتَ ابنُ أختِنا وتَعْرُوكَ حقوقٌ، وما لَكَ سَعَةٌ، فاسْتَعِنْ بهذا على ما يَنُوبُكَ. فنزلت الآية، فرَدَّه[٤].

وقيل: الخطاب مُتوجِّه إلى قريش حين جَمعوا له مالاً وأَرادوا أَنْ يرشُوه عليهم على أَنْ يُمسِكَ عن سَبِّ آلهتهم، فلم يفعل ونَزَلت.

فالمعنى: لا أَسألكم مالاً ولا رياسةً، ولكِن أَسألكم أَنْ تُراعوا حقَّ قَرابتي

(١) الكشاف ٣/ ٤٦٦.

(٢) ينظر قولُ ابنِ مالك في كتابه التسهيل ص ٣٣ وشرحِه ـ له أيضاً ـ ١/ ٢٠٦، وينظر أيضاً ارتشاف الضَّرَب للمصنِّف ٢/ ٩٩٦ حيث نقلَ القول فيه عن يونس والفراء، وتبعهما عليه ابنُ مالك.

(٣) الكشاف ٣/ ٤٦٦، والخبر عند الثعلبيّ ٥/ ٣٨٧ والواحديّ في أسباب النزول ص ٣٩٥، ونسباه لقتادة، وكذا نَقَله ابنُ الجوزي في زاد المسير ٧/ ٢٨٣، والقرطبيُّ ١٨/ ٤٧٠، وقال الثعلبيُّ إثره: وهذا التأويل أشبه بظاهر الآية والتنزيل؛ لأن هذه السورة مكِّيَة. انتهى. وكذا نَقَل عنه القرطبيُّ.

(٤) الكشاف ٣/ ٤٦٨، والخبر عند الثعلبيّ ٥/ ٣٨٧، والواحديّ في أسباب النزول ص ٣٩٥، وابنِ الجوزي في زاد المسير ٢٧/ ١٦٤ وعزاه للكلبي، والقرطبي ١٨/ ٤٦٩.

وتُصدِّقوني فيما جِئتُكم به، وتُمسِكوا عن أذِيَّتي وأَذِيَّةِ مَن تَبِعني، قاله ابنُ عباس وعكرمة ومجاهد وأبو مالك والشعبيُّ وغيرهم[١].

قال الشعبيُّ: أَكْثَرَ الناسُ علينا في هذه الآية، فكَتَبنا إلى ابنِ عباس نَسْأَله عنها، فكتبَ أنَّ رسول الله ﷺ كان أوسطَ الناسِ في قُريش، ليس بَطْنٌ مِن بُطونهم إلا قد وَلَدَهُ، فقال الله تعالى له: «قل لا أسألكم عليه أجراً إلَّا» أنْ تَوَدُّوني في قرابتي منكم، فَارْعوا ما بيني وبينكم فتصدِّقوني[٢].

وقال عكرمة: وكانت قريش تَصِلُ أرحامها[٣].

وقال الحسن: المعنى: إلَّا أَنْ تَتَودَّدوا إلى الله بالتَّقرُّب إليه[٤].

وقال عبد الله بنُ القاسم: إلَّا أَنْ يَتودَّدَ بعضُكم إلى بعضٍ، وتَصِلُوا قراباتكم[٥].

ورُويَ أنَّ شباباً مِن الأنصار فاخَروا المهاجرينَ وصَالُوا بالقول[٦]، فنزلت، على معنى: أَنْ لا تُؤْذوني[٧] في قَرَابتي وتَحفظوني فيهم. وقال بهذا المعنى عليّ بنُ الحسين بنِ عليِّ بنِ أبي طالب، واستشهد بالآية حين سِيقَ إلى الشام أسيراً، وهو

(١) ينظر تفسير الثعلبي ٥/٣٨٧-٣٨٨، والنكت والعيون ٥/٢٠١-٢٠٢، والمحرر الوجيز ٥/٣٣-٣٤، وتفسير القرطبي ١٨/٤٦٥، ومعاني القرآن للنحاس ٦/٣٠٨، وتنظر الآثار عند الطبري ٢٠/٤٩٥-٤٩٨، وأثَر ابنِ عباس أيضاً عند الطبراني في المعجم الكبير (١٣٠٢٦)، وينظر خبره عند البخاري (٤٨١٨)، وأحمد (٢٠٢٤).

(٢) تفسير القرطبي ١٨/٤٦٥، وينظر تفسير الرازي ٢٧/١٦٤، والخبر أخرجه سعيد بن منصور كما في فتح الباري ٨/٥٦٥، وهو عند الطبري ٢٠/٤٩٥، والحاكم في المستدرك ٢/٤٤٤، والبيهقي في دلائل النبوة ١/١٨٥.

(٣) تفسير القرطبي ١٨/٤٦٥، وينظر معاني القرآن للنحاس ٦/٣٠٨، وتتمَّة الخبر عندهما: فلمَّا بُعثَ النبيُّ ﷺ قَطَعَتْه، فقال: «صِلُوني كما كنتم تفعلون». ولم نقف عليه مسنداً.

(٤) تفسير القرطبي ١٨/٤٦٦، وأخرجه عنه الطبريُّ ٢٠/٥٠٠-٥٠١.

(٥) المحرر الوجيز ٥/٣٤، وينظر النكت والعيون ٥/٢٠٢، وأخرجه عنه الطبريُّ ٢٠/٥٠١.

(٦) في مطبوع المحرر الوجيز ٥/٣٤ والكلام منه: ومالوا بالقول. وصال عليه: استطال. مختار الصحاح (صول).

(٧) في مطبوع المحرر الوجيز ٥/٣٤: إلا أن تودُّوني فتراعوني.

قولُ ابنِ جبير والسُّدِّيّ وعمرو بنِ شعيب، وعلى هذا التأويل قال ابنُ عباس: قيل: يا رسولَ الله، مَن قَرَابتك الذين أُمِرْنا بمودَّتهم؟ قال: «عليٌّ وفاطمة وابناهما»، وقيل: هم وَلَدُ عبد المطلب[١].

والظاهر أنَّ قولَه: «إلَّا المودَّة» استثناءٌ منقطع؛ لأنَّ المَودَّة ليست أجراً، وقال الزمخشريُّ: يجوز أن يكون استثناءً متَّصلاً، أي: لا أسألكم عليه أجراً إلَّا هذا، وهو أنْ تودُّوا أهلَ قرابتي، ولم يَكن هذا أجراً في الحقيقة؛ لأنَّ قرابتَه قرابتُهم، فكانت صِلَتهم لازمةً لهم في المُرُوءَة[٢].

وقال: فإن قلت: هلَّا قيل: إلَّا مَوَدَّة القُربى، أو: إلَّا المَودَّة للقُربى؟

قلت: جُعلوا مكاناً للمودَّة ومَقَرًّا لها، كقولك: لي في آلِ فلانٍ مودَّةٌ، ولي فيهم هوًى وحبٌّ شديد، تريد: أُحبُّهم وهم مكان حُبِّي ومحلّه، وليس «في» صلةً للمودَّة، كاللام إذا قلت: إلَّا المودَّة للقُرْبى، إنَّما هي متعلِّقة بمحذوفٍ تعلُّقَ الظَّرْف به في قولك: المال في الكيس، وتقديره: إلَّا المودَّة ثابتةً في القُرْبى ومتمكِّنةً فيها[٣]. انتهى. وهو حَسَن، وفيه تكثيرٌ.

وقرأ زيد بن عليٍّ: «إلَّا مَوَدَّة»[٤]، والجمهور: «إلَّا المَوَدَّة».

و«مَن يَقترف حسنةً» أي: يَكتسب، والظاهر عمومُ الحَسَنة عموم البَدَل، فيَندرجُ

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٣٤، وينظر تفسير الثعلبي ٥/ ٣٨٨، والنكت والعيون ٥/ ٢٠١-٢٠٢، وزاد المسير ٧/ ٢٨٤-٢٨٥، وتفسير القرطبي ١٨/ ٤٦٦، وتنظر الآثار عند الطبري ٢٠/ ٤٩٩-٥٠٠، والخبر المرفوع أخرجه الطبراني في الكبير (٢٦٤١)، (١٢٢٥٩)، وعزاه ابنُ حجر في الكافي الشاف ص ١٤٥ أيضاً لابن أبي حاتم [وهو في التفسير ١٠/ ٣٢٧٧] وللحاكم في مناقب الشافعي، وهو من رواية: حسين الأشقر، قال عنه ابنُ حجر: ضعيف ساقط، وقد عارضه ما هو أولى منه، . . . ثم ساق حديث ابنِ عباس عند البخاريِّ (٤٨١٨)، وسلف قريباً.

(٢) الكشاف ٣/ ٤٦٦.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق أيضاً، ولم نقف عليها عند غيره ممَّن سبقه، ونَقَلها عنه السمين في الدر ٩/ ٥٥١، والآلوسيُّ في روح المعاني ٢٤/ ٢٧٤.

فيها «المودَّة في القُرْبى» وغيرُها، وعن ابنِ عباس والسُّدِّيّ أنَّها المودَّة في آلِ رسولِ الله ﷺ[١].

وقرأ الجمهور: «نزد» بالنون، وزيد بن عليٍّ وعبدُ الوارث عن أبي عمرو، وأحمد بنُ جبير عن الكسائيِّ: «يزد» بالياء[٢]، أي: يَزِد الله.

والجمهور: «حُسْناً» بالتنوين، وعبد الوارث عن أبي عمرو: «حُسْنَى» بغيرِ تنوينٍ على وزن: رُجْعَى[٣]، وزيادةُ حُسْنها مضاعفةُ أَجْرِها.

«إنَّ الله غفورٌ» ساتِرٌ عيوبَ عبادِه «شكورٌ» مُجازٍ على الدَّقِيقة، لا يَضيعُ عندَه عَمَلُ العاملِ، وقال السُّدِّيُّ: «غفورٌ» لذنوبِ آلِ محمد عليه الصلاة والسلام «شكورٌ» لحسناتهم[٤].

«أم يقولونَ افترى على الله كذباً» أَضربَ عن الكلام المتقدِّم مِن غير إبطالٍ، واستفهمَ استفهامَ إنكارٍ وتوبيخ على هذه المقالة، أي: مِثْله لا يُنسَب إليه الكذب على الله مع اعترافِكم له قَبْلُ بالصِّدْق والأمانة.

«فإن يَشَأ اللهُ يَخْتِم على قلبك» قال مجاهد: يَربِط على قلبك بالصَّبْر على أَذَاهم حتى لا يشقَّ عليكَ قولهم: إنَّكَ مُفْتَرٍ، وقال قتادة وجماعة: «يَختِم على قلبكَ» يُنْسِيكَ القرآنَ، والمراد الرَّدُّ على مقالة الكفار وبيانُ إبْطالها، وذلك كأنَّه يقول: وكيف يصحُّ أَنْ تكون مُفْترياً وأنتَ مِن الله بمَرْأى ومَسْمَع، وهو قادرٌ ـ لو شَاءَ ـ أَنْ يَختمَ على قلبك، فلا تَعقل ولا تَنطِق ولا يَستمرّ افتراؤك، فمقصد اللفظ هذا المعنى، وحُذفَ ما يدلُّ عليه الظاهرُ اختصاراً واقتصاراً[٥]. انتهى.

---

(١) تفسير الثعلبي ٥/ ٣٩١ من طريق السُّدِّيّ، عن أبي مالك، عن ابن عباس، ونَقَله عنه القرطبيُّ ١٨/ ٤٧٠، وأورده عن السُّدِّيّ الزمخشريُّ في الكشاف ٣/ ٤٦٨، والطبرسيُّ في مجمع البيان ٢٥/ ٥١.

(٢) زاد المسير ٧/ ٢٨٥ عن ابنِ السميفع وابنِ يعمر والجحدري، وهي في المحرر الوجيز ٥/ ٣٤، والكشاف ٣/ ٤٦٨ دون نسبة، وفي الدر المصون ٩/ ٥٥١ عن زيد بن علي وعبد الوارث عن أبي عمرو، وعنهم جميعاً في روح المعاني ٢٤/ ٢٧٥.

(٣) القراءات الشاذة ص ١٣٤، وهي في الكشاف ٣/ ٤٦٨ دون نسبة.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٠٢، وتفسير القرطبي ١٨/ ٤٧٠.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٣٥-٣٦، وينظر تفسير الثعلبي ٥/ ٣٩٢، والنكت والعيون ٥/ ٢٠٢- =

هكذا أَوردَ هذا التأويلَ عن قتادة ابنُ عطيَّة، وفي ألفاظه فَظَاظةٌ لا تَليقُ أنْ تُنسَب للأنبياء.

وقال الزمخشريُّ: عن قتادة: يُنْسِكَ القرآنَ ويَقطع عنكَ الوحي، يعني: لو افْتَرَى على اللهِ الكذبَ لفَعَل به ذلك[1]. انتهى.

وقال الزمخشريُّ أيضاً: «فإنْ يَشَأ اللهُ» يَجْعَلْك مِن المختومِ على قلوبهم حتى تفتريَ عليه الكذبَ، فإنَّه لا يَجترئُ على افتراءِ الكذب على اللهِ إلَّا مَن كان في مِثْلِ حالهم، وهذا الأسلوب مُؤَدَّاهُ استبعادُ الافتراءِ مِن مِثْلِه، وأنَّه في البُعْدِ مِثْلُ الشِّرْك بالله والدُّخول في جملة المختومِ على قلوبهم، ومثالُ هذا أنْ يُخوِّنَ بعضَ الأُمناء، فيقول: لعلَّ اللهَ خَذَلني، لعلَّ اللهَ أَعمى قلبي، وهو لا يُريد إثباتَ الخذلانِ وعَمَى القلب، وإنَّما يُريد استبعادَ أَنْ يُخوَّن مِثْلُه، والتنبيهَ على أنَّه رُكِّبَ مِن تخوينِه أَمْرٌ عظيم، ثمَّ قال: ومِن عادةِ اللهِ أَنْ يَمحوَ الباطل ويُثبِتَ الحقَّ[2] بوَحْيه أو بقضائه، كقوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ﴾ [الأنبياء:١٨] يعني: لو كان مفترياً كما يَزعمون، لكَشَفَ اللهُ افتراءَه ومَحَقَه وقَذَفَ بالحقِّ على باطله، فدَمَغَهُ[3]. انتهى.

وقيل: المعنى: لوِ افتريتَ على اللهِ لطَبَع على قلبك حتى لا تَقْدِرَ على حِفْظِ القرآن، وقيل: لخَتَم على قلبك بالصِّدْق واليقين، وقد فَعَلَ ذلك.

وذَكَر القشيريُّ أنَّ المعنى: يَختم على قلوبِ الكفار، وعلى أَلسنتهم، ويُعاجِلهم بالعذاب[4]. انتهى. فيكون التفاتاً مِن الغَيبة إلى الخطاب، ومِن الجَمْع إلى الإفراد، أي: يَختم على قلبك أيُّها القائل: إنَّه افترى على الله كذباً.

«ويَمْحُ اللهُ الباطلَ» استئنافُ إخبارٍ، أي: يَمحوهُ إمَّا في الدنيا وإمَّا في الآخِرَة، بحسب نازلةٍ نازلةٍ، وكُتِبَ: «ويَمْحُ» بغير واوٍ، كما كَتَبوا: ﴿سَنَدْعُ﴾ [العلق:١٨] بغيرِ

= ٢٠٣، وتفسير البغوي ٤/ ١٢٦، والقرطبي ١٨/ ٤٧١، وقول قتادة عند الطبريّ ٢٠/ ٥٠٤.
(١) الكشاف ٣/ ٤٦٨.
(٢) بعدها في مطبوع الكشاف ٣/ ٤٦٨ ومخطوطِه الورقة (٢٦٩): «بكلماته».
(٣) الكشاف ٣/ ٤٦٨.
(٤) تفسير القرطبي ١٨/ ٤٧١.

واو؛ اعتباراً بعَدَم ظهورها، لأنَّها لا يُوقَف عليها وَقفَ اختيارٍ، فلمَّا سَقَطت مِن اللفظِ سَقَطت مِن الخَطِّ[١].

وقال الزمخشريُّ: ويَجوز أَنْ تكون عِدَةً لرسولِ الله ﷺ بأنَّه يَمحُو الباطلَ الذي هم عليه؛ مِن البُهْت والتكذيب، ويُثْبِت الحقَّ الذي أنتَ عليه بالقرآن وبقضائِه الذي لا مَرَدَّ له مِن نُصْرَتكَ عليهم، إنَّ اللهَ عليمٌ بما في صَدْرِك وصُدُورهم، فيُجري الأَمْرَ على حسَب ذلك[٢]. انتهى.

وقيل: «ويُحِقّ» الإسلامَ «بكلماته» أي: بما أُنزل مِن القرآن.

وتقدَّم الكلام في شرائطِ التَّوبة، يقال: قَبِلْتُ منه الشيءَ، بمعنى: أَخذتُه منه، كقوله ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ﴾ [التوبة: ٥٤] أي: تُؤخَذ، أي: جَعَلْتُه مَبْدَأَ قَبولي ومَنْشَأَهُ، و: قَبِلْتُهُ عنه: عَزَلْتُه عنه وأَبَنْتُه، فمعنى: «عن عبادِه» أي: يُزيل الرجوعَ عن المعاصي.

«ويَعفو عن السَّيِّئات» قال الزمخشريُّ: «عن السَّيِّئات» إذا تِيْبَ عنها، وعن الصغائر إذا اجْتُنِبَت الكبائر[٣]. انتهى. وهو على طريقة الاعتزال أنَّ الكبائرَ لا يُعفَى عنها إلَّا بالتوبة.

«ويَعلم ما يفعلون»[٤] فيُثِيْبُ ويُعاقِب.

وقرأ الجمهور: «ما يفعلون» بياء الغيبة، وعبد الله وعلقمة والأَخَوان وحفص: بتاء الخطاب[٥].

والظاهر أنَّ «الذين» فاعل «ويستجيب» أي: ويُجيب الذين آمنوا لربِّهم، كما قال ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] فيكون

---

(١) ينظر تفسير الثعلبي ٥/ ٣٩٢، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٥.
(٢) الكشاف ٣/ ٤٦٨.
(٣) المصدر السابق ٧/ ٤٦٩.
(٤) كذا في النسخ الخطية، وهي قراءة الجمهور، وستأتي قريباً.
(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٣٥، وقراءة الأخوين ـ حمزة والكسائي ـ وحفصٍ في السبعة ص ٥٨١، والتيسير ص ١٩٥، وهي أيضاً قراءة خَلَف، النشر ٢/ ٣٦٧.

«يستجيب» بمعنى: يجيب، أو يَبقى على بابه مِن الطَّلَب، أي: يَسْتدعي الذين آمنوا الإجابةَ مِن ربِّهم بالأعمال الصالحة.

وقال سعيد بن جبير: هذا مِن فِعْلهم إذا دَعَاهم. وعن إبراهيم بنِ أدْهَم: أنَّه قيل له: ما بالُنَا نَدْعُو فلا نُجَابُ؟ قال: لأنَّه دَعاكم فلم تُجيبوه، ثم قرأ: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾[1] [يونس:٢٥].

«ويَستجيب الذين آمنوا» قال الزجَّاج: «الذين» مفعول، وأجاب واستجاب بمعنًى واحد، فالمعنى: ويُجيب اللهُ الذين آمنوا[2]، أي: للذين، كما قال:

فلم يَستَجِبْه عند ذاكَ مُجِيبُ[3]

أي: لم يُجبْهُ، ورُويَ هذا المعنى عن معاذ بن جبل وابنِ عباس[4].

«ويَزيدُهم مِن فَضْلِه» أي: على الثواب تَفَضُّلاً، وفي الحديث: «قَبول الشفاعات في المؤمنين والرِّضوان»[5].

وقال خباب بنُ الأرتّ: نَظَرنا إلى أموال بني قُرَيظة والنَّضِير وبني قَيْنُقاع فتمنَّيناها، فنزلت: «ولو بَسَط اللهُ الرِّزْقَ لعبادِه لبَغَوا في الأرض».

وقال عَمرو بنُ حريث: طَلَبَ قومٌ مِن أهلِ الصُّفَّة مِن الرَّسول عليه الصلاة والسلام أنْ يُغْنِيَهم اللهُ ويَبسُطَ لهم الأموالَ والأرزاق، فنزلت، اعْلَم أنَّ الرزقَ لو

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٦٩.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٣٥، وكلام الزجاج في كتابه معاني القرآن ٤/ ٣٩٩.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٣٥، وعجز البيت لكعب بن سعد الغنوي، وهو في الأصمعيَّات ص٩٦، وصدره: وداعٍ دعا يا من يُجيب إلى النَّدى، وسلف عند تفسير الآية (٥٠) من سورة القصص.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٣٥، وأخرجه عن معاذ الطبريُّ ٢٠/ ٥٠٧، والثعلبيُّ ٥/ ٣٩٤.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٣٦، ولم نقف على الحديث بهذا اللفظ مسنداً، بل أخرج الثعلبيُّ في الكشف والبيان ٥/ ٣٩٤ عن ابن عباس أنه قال في قول الله تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، قال: تشفِّعهم في إخوانهم، ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾، قال: في إخوان إخوانهم. اهـ. ولم يرفعه، وكذا رُويَ نحوه عن أبي إبراهيم اللخمي كما في تفسير الطبري ٢٠/ ٥٠٧، وزاد المسير ٧/ ٢٨٧.

جاءَ على اقتراحِ البَشَر لكان سببَ بَغْيهم وإفسادهم، ولكنَّه تعالى أعلم بالمصلحة، فرُبَّ إنسانٍ لا يَصْلُح ويُكْتَفى شَرُّه إلَّا بالفَقْر، وآخَر بالغِنى.

وفي هذا المعنى والتقسيم حديثٌ رواه أنسٌ، وقال: اللَّهمَّ إنِّي مِن عبادِكَ الذين لا يُصلحهم إلَّا الغنى فلا تُفْقِرني(١).

و«لبَغَوا» إمَّا مِن البَذْخ والكِبْر، أي: لَتَكَبَّروا في الأرض ففَعَلُوا ما يَتْبَعُ الكِبْر من العلوِّ والفساد، وإمَّا مِن الظُّلْم، أي: لظَلَم هذا ذاك، وذاك هذا، لأنَّ الأَشَرَ والبَطَرَ مع الغِنى، أَلَا ترى إلى حالِ قارون، وفي الحديث: «أَخوفُ ما أخاف على أمَّتي زهرةُ الدُّنيا»، وقال الشاعر:

وقد جَعَلَ الوسْمِيُّ يُنبتُ بيننا وبين بني رُومان نَبْعاً وشَوْحَطا(٢)

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٣٦، وقول خبّاب عند الواحدي في أسباب النزول ص ٣٩٦، والثعلبيّ ٥/ ٣٩٥، والزمخشريّ في الكشاف ٣/ ٤٦٩، وابنِ الجوزي في زاد المسير ٧/ ٢٨٧، والقرطبي ١٨/ ٤٧٣.
وقول عمرو بن حريث عند الواحديّ في أسباب النزول ص ٣٩٦، والطبريّ ٢٠/ ٥٠٩، وأبي نعيم في حلية الأولياء ١/ ٣٣٨، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٣٣٢).
وأمَّا حديثُ أنسٍ فهو ما رواه عن النبيّ ﷺ، عن جبريل، عن الله عز وجل قال: «يقول الله عز وجل: من أهان لي ولياً، . . .» وفيه: «وإنَّ من عبادي المؤمنين من لا يصلح إيمانه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسده ذلك، وإنَّ مِن عبادي المؤمنين من لا يصلح إيمانه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسده ذلك. . .» إلى آخر الحديث، وهو عند الثعلبيّ ٥/ ٣٩٥-٣٩٦، والبغويّ في تفسيره ٤/ ١٢٧ بإسنادهما إلى أنس ﷺ، وأورده عنه القرطبيُّ ١٨/ ٤٧٥، وزاد عنده وعند الثعلبيّ قول أنسٍ أخيراً، ونَقَلَ الحافظُ في فتح الباري ١١/ ٣٤٢ تضعيفه عن ابن حبان، وأخرج بعض ألفاظه البخاريُّ (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٢) الكشاف ٣/ ٤٦٩، ونَقَله عنه القرطبيُّ ١٨/ ٤٧٤-٤٧٥، والحديث المرفوع أورده الثعلبيُّ ٥/ ٣٩٥ عن قتادة، وأخرجه عنه الطبريُّ ٢٠/ ٥١٠، وهو عند البخاريّ (٦٤٢٧)، ومسلم (١٠٥٢)، وأحمد (١١١٥٧) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ بنحوه.
والبيت أورده ابنُ قتيبة في المعاني الكبير ٢/ ٨٩٥، وأبو العلاء المعريُّ في رسالة الصاهل والشاحج ص ٥٤٠، والعسكريُّ في الصناعتين ص ٣٨٢، والبكريّ في سمط اللآلي ١/ ٢٤، وابنُ منظور في لسان العرب (شحط) ولم ينسبوه، وورد عند بعضهم: دُودان، بدل: رُومان.
وبنو رومان: رَهْطٌ مِن طيِّئ، كما في الاشتقاق ص ٣٨٠، والوسميّ: مطر الربيع الأول. القاموس (وسم)، والنَّبع والشَّوحط: ضربٌ من الشجر، وهي هنا: القِسِيُّ. قاله ابنُ قتيبة.

يعني: أنَّهم أُحْيُوا فحدَّثوا أنفسَهم بالبَغْي والفِتَن.

«ولكِن يُنَزِّلُ بقَدَرٍ ما يَشاءُ» يقال: قَدر، بالسكون وبالفتح، أي: يُقَدِّر لهم ما هو أَصلحُ لهم.

وقرأ الجمهور: «قَنَطُوا» بفتح النون، والأعمش وابنُ وثَّاب: بكسرها[١]، «ويَنشُر رحمته»: ما يظهر مِن آثارِ الغَيْث؛ مِن المنافع والخِصْب.

والظاهر أنَّ «رحمتَه» نَشْرها أعمّ ممَّا في الغيث، وقال السُّدِّيُّ: «رحمته»: الغيث، وعَدَّدَ النِّعمةَ بعينها بلفظَيْن، وقيل: الرَّحْمَة هنا: ظهورُ الشمس؛ لأنَّه إذا دامَ المطرُ سُئِمَ، فتَجِيءُ الشمسُ بَعْدَه عظيمة الموقع، ذكره المهدويُّ[٢].

«وهو الوليُّ» الذي يتولَّى عبادَه «الحميد» المَحْمُود على ما أسدى مِن نعمائه.

«وما بثَّ» الظاهر أنَّه مجرور عطفاً على «السماوات والأرض»، ويَجوز أَنْ يكون مرفوعاً، عَطْفاً على «خَلْق» على حذفِ مضاف، أي: و«خَلْقُ» ما «بثَّ»[٣].

و«فيهما» يجوز أَنْ يكونَ ممَّا نُسبَ فيه «دابَّة» إلى المجموع الذُّكُور وإنْ كان ملتبساً ببعضه، كما يقال: بنو فلانٍ صَنَعوا كذا، وإنَّما صَنَعه واحدٌ منهم، ومنه: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾ [الرحمن:٢٢] وإنَّما يَخرج مِن المِلْح[٤]، أو يكون مِن الملائكة بعضٌ يَمشي مع الطيرانِ، فيُوصَف بالدَّبيب، كما يُوصَفُ الأناسيُّ، أو يكون قد خَلَق في السماوات حيواناً يَمشي مَشْيَ الأناسيّ على الأض، أو يُريد الحيوان الذي يكون في السَّحَاب، وقد يقع أحياناً، كالضَّفادِع، والسَّحَابُ داخلٌ في اسْمِ السماء، وقال مجاهد: «وما بثَّ فيهما مِن دابَّة» هم الناس والملائكة[٥].

وقال أبو عليّ: هو على حَذْفِ مضاف، أي: وما بَثَّ في أحدهما[٦].

---

(١) المحرر الوجيز ٥/٣٦، وتفسير القرطبي ١٨/٤٧٦.

(٢) ينظر المصدران السابقان.

(٣) ينظر ما قاله السمينُ الحلبيُّ حول هذا الكلام في الدر المصون ٩/٥٥٣.

(٤) أي: من الماءِ المِلْح دون العَذْب. تفسير القرطبي ١٨/٤٧٧، وينظر معاني القرآن للفراء ٣/٢٤، وإعراب القرآن للنحاس ٤/٨٢.

(٥) المحرر الوجيز ٥/٣٧، وقولُ مجاهد عند الطبريّ ٢٠/٥١٢.

(٦) تفسير القرطبي ١٨/٤٧٧.

وقرأ الجمهور: «فبما» بالفاء وكذا هي في معظم المصاحف، واحتمل «ما» أنْ تكونَ شرطيَّةً ـ وهو الأظهر ـ وأَنْ تكون موصولةً، والفاء تَدخُل في خبرِ الموصول إذا أُجري مجرى الشَّرْط، بشرائطَ ذُكِرت في النَّحْو وهي هنا موجودة.

وقرأ نافع وابنُ عامر وأبو جعفر في رواية ـ وشيبة «بما» بغير فاء[١]، فـ «ما» موصولة، ولا يَجوز أنْ تكون شرطيَّة وحُذفت الفاء[٢]؛ لأنَّ ذلك ممَّا يَخُصّه سيبويه بالشِّعْر، وأجاز ذلك الأخفشُ وبعضُ نحاةِ بغداد[٣]، وذلك على إرادة الفاء وترتّب ما أصاب مِن المصائب على كَسْب الأيدي موجودٌ مع الفاء ودُونَها هنا.

والمصيبة: الرَّزَايا والمصائب في الدنيا، وهي مجازاةٌ على ذنوبِ المَرْءِ، وتَمحيصٌ لخطاياهُ، وأنَّه تعالى يَعفو عن كثيرٍ فلا يُجازي عليه بمصيبة.

وفي الحديث: «لا يُصيب ابنَ آدم خَدْشُ عودٍ أو عَثْرَةُ قَدَم ولا اختلاجُ عِرْق إلَّا بذنبٍ، وما يَعفو عنه أكثر»[٤].

وسُئِلَ عمران بنُ حصين عن مَرَضه، فقال: إنَّ أَحَبَّه إليَّ أَحَبُّه إلى الله، وهذا ممَّا كَسبَتْ يَدَايَ. ورُئيَ على كفِّ شُرَيح قَرْحَةٌ، فقيل: بِمَ هذا؟ فقال: بما كَسَبت يدي[٥].

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٣٧، وقراءة نافع وابنِ عامر في السبعة ص ٥٨١، والتيسير ص ١٩٥، وقراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٦٦.

(٢) القائل بذلك أبو البقاء، وكلامه في كتابه الإملاء ٢/ ٢٢٥.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٣٧، وتفسير القرطبيّ ١٨/ ٤٧٨، وينظر كتاب سيبويه ٣/ ٦٥.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٠٤، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٧، والخبر أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ١٩٢، ووكيع في الزهد (٩٣)، وهناد في الزهد (٤٣١)، والثعلبيُّ في التفسير ٥/ ٣٩٧، عن الحسن مرسلاً، وأخرجه أيضاً سعيد بن منصور وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٦/ ٩.
وأخرجه أيضاً الطبريُّ في التفسير ٢٠/ ٥١٣-٥١٤، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٣٥٧) عن قتادة مرسلاً. الكافي الشاف لابن حجر ص١٤٦.

(٥) ينظر تفسير الثعلبي ٥/ ٣٩٧ ـ والخبران عنده بإسناده عنهما ـ والمحرر الوجيز ٥/ ٣٧، وتفسير القرطبي ١٨/ ٤٧٩، وخبر شريح عند هناد في الزهد (٣٨٧)، وأبي نعيم في الحلية ٤/ ١٣٣ بنحوه.

وقال الزمخشريُّ: الآيةُ مخصوصةٌ بالمُجْرِمين، ولا يَمتنع أنْ يستوفي اللهُ عقابَ المُجرم ويَعفو عن بعضٍ، فأمَّا مَن لا جرمَ له كالأنبياء والأطفال والمجانين، فهؤلاء إذا أصابهم شيءٌ مِن أَلَمٍ أو غيرِه، فللعِوَض المُوفى والمصلحة، وعن عليٍّ: هذه أرجى آيةٍ للمؤمنين[1]. انتهى.

وقال الحسن: «مِن مصيبة» أي: حَدّ مِن حدودِ الله، وتلك مصائبُ تَنْزِل بشخصِ الإنسان ونفسِه، فإنَّما هيَ بكَسْب أيديكم «ويعفو» اللهُ «عن كثيرٍ» فيَستُره على العَبْد حتى لا يُحَدَّ عليه[2].

«وما أَنتم بمعجزين» أي: فائتين، أي: أنتم في قَبْضَة القدرة، وقيل: ليست المصائب مِن الأَسْقام والقَحْط والغَرَق وغير ذلك بعقوباتٍ على الذُّنوب؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [غافر:١٧] ولاشتراكِ الصَّالح والطَّالح فيها، بل أكثر ما يُبتلى به الصَّالحون المتَّقون، وفي الحديث: «خُصَّ بالبلاءِ الأنبياءُ، ثُمَّ الأَمْثَل فالأَمْثَل»[3] ولأنَّ الدُّنيا دارُ التكليف، فلو حَصَلَ الجزاءُ فيها لكانت دارَ الجزاء، وليس الأَمْرُ كذلك، وهذا القول تَردُّه نصوصُ القرآن، كقوله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ الآية [العنكبوت: ٤٠].

* * *

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ

(١) الكشاف ٣/ ٤٧٠-٤٧١.
(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٣٧، وينظر تفسير الرازي ٢٧/ ١٧٣، والقرطبي ١٨/ ٤٧٨.
(٣) لم نقف على الحديث بهذا اللفظ، بل الوارد ما رواه سعد بن أبي وقاص أنه سَأل رسولَ الله ﷺ عن أيِّ الناس أشدّ بلاءً؟ فقال ﷺ: «الأنبياء، ثمَّ الأمثل فالأمثل، يُبتلى الرجل على حسب دينه، . . .» الحديث، وهو عند الترمذي (٢٥٦١)، وابن ماجه (٤٠٢٣)، وأحمد (١٤٨١)، وابن حبان (٢٩٠١).

﴿٣٨ وَالَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ٣٩ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ
عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّٰلِمِينَ ٤٠ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ٤١ إِنَّمَا
السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٤٢ وَلَمَن
صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ٤٣ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِ وَتَرَى
الظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ٤٤ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا
خَٰشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾.

لـمَّا ذَكَر تعالى مِن دلائل وحدانيَّته أنواعاً، ذَكَر بَعْدَها العالَم الأكبرَ وهو السماوات والأرض، ثم العالَم الأصغرَ وهو الحيوان، ثم أَتْبَعَه بذِكْر المَعَاد = أَتْبَعَهُ بذِكْر السُّفُنِ الجارية في البَحْر؛ لِمَا فيها مِن عظيم دلائلِ القُدرة؛ مِن جهة أنَّ الماءَ جسمٌ لطيفٌ شَفَّافٌ يَغوصُ فيه الثقيلُ، والسُّفُنُ تُشْحَنُ بالأجسام الثقيلة الكَثيفة، ومع ذلك جَعَلَ تعالى للماء قوَّةً تَحملُها بها وتُمنَعُ مِن الغَوص، ثم جَعَلَ الرِّياح سبباً لسَيْرِها، فإذا أَراد أَنْ تَرْسُوَ أَسْكَنَ الرِّيحَ، فلا تَبْرَح عن مكانها[١].

والجواري: جمع: جارِيَة، وأصله: السُّفُن الجَوَاري، حذف الموصوف وقامَت الصفة مقامَه، وحسَّن ذلك قوله: «في البحر» فدلَّ ذلك على أنَّها صفةٌ للسفن، وإلَّا فهي صفة غيرُ مختصَّة، فكان القياس أَنْ لا يحذفَ الموصوفَ وتَقومَ مقامه، ويمكن أَنْ يُقال: إنَّها صفةٌ غالبة كالأَبْطَح[٢]، فجاز أَنْ تَليَ العواملَ بغير ذِكْرِ الموصوف.

وقرئ: «الجواري» بالياء ودونها[٣]، وسُمعَ مِن العرب الإعرابُ في الرَّاء[٤]، و«في البحر» متعلِّق بالجواري، و«كالأعلام» في موضع الحالِ، والأعلام: الجبالُ، ومنه قولُ الخَنْساء أُخْتِ صَخْرٍ ومعاوية:

---

(١) هو تفسيرٌ لقوله تعالى: ﴿فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ﴾ الآية. تفسير القرطبي ١٨/ ٤٨١.

(٢) الأبطح: مَسِيْلٌ واسع فيه دقاق الحصى، والجمع: الأباطح والبطاح. مختار الصحاح (بطح).

(٣) قرأ بالياء وصلاً نافع وأبو عمرو وأبو جعفر، وفي الحالين - يعني: وصلاً ووقفاً - ابنُ كثير ويعقوب، وقرأ الباقون بحذف الياء وصلاً ووقفاً. السبعة ص ٥٨١، والتيسير ص ١٩٥، والنشر ٢/ ٣٦٨.

(٤) قال السمين الحلبيُّ في الدر المصون ٩/ ٥٥٥: وسُمعَ: هذه الجوارُ، وركبتُ الجوارَ، وفي الجوارِ، بالإعراب على الراء؛ تناسياً للمحذوف.

وإنَّ صَخْراً لَتَأْتَمُّ الهداةُ به كأنَّه عَلَمٌ في رأسِهِ نارُ[1]

ومنه:

إذا قَطَعْنَ عَلَماً بَدَا عَلَم[2]

وقرأ جمهور السَّبْعَة: «الرِّيح» إفراداً، ونافع: جمعاً[3]، وقرأ الجمهور: «فيَظْلَلْنَ» بفتح اللام، وقرأ قتادة بكسرِها[4]، والقياس الفتحُ؛ لأنَّ الماضيَ بكسر العين، فالكسر في المضارع شَاذٌّ.

وقال الزمخشريُّ: مِن: ظَلَّ يَظَلُّ ويَظِلُّ، نحو: ضَلَّ يَضَلُّ ويَضِلُّ[5]. انتهى.

وليس كما ذَكَر، لأنَّ: يَضَلّ بفتح العين، مِن: ضَلِلْت بكسرها في الماضي، ويَضِلّ بكسرها، مِن: ضَلَلْت بفتحها في الماضي، وكلاهما مَقِيسٌ.

«لكلِّ صَبَّارٍ» على بلائه «شَكُورٍ» لنعمائه.

«أو يُوبِقْهُنَّ» يُهْلِكهُنَّ، أي: الجواري، وهو عطف على «يُسكِن»، والضمير في «كسبوا» عائدٌ على ركَّاب السُّفُن، أي: بذنوبهم.

وقرأ الأعمش: «ويَعْفُوْ» بالواو[6]، وعن أهلِ المدينة بنصبِ الواوِ[7]، والجمهورُ: «ويَعْفُ» مجزوماً؛ عطفاً على «يُوبِقْهنَّ».

فأمَّا قراءةُ الأعمش؛ فإنَّه أَخبر تعالى أنَّه يَعفو عن كثيرٍ، أي: لا يُؤاخِذ بجميعِ ما اكتسبَ الإنسانُ، وأمَّا النصب؛ فبإضمار «أنْ» بعد الواو، كالنَّصْبِ بعد الفاء في

---

(١) ديوان الخنساء ص ٤٩.

(٢) الراجز جرير، والرجز في ديوانه ١/ ٥١٢، وبعده:

فهنَّ بَخْثاً كمضِلَّات الخَدَم

(٣) السبعة ص ١٧٣، والتيسير ص ٧٨، وهي أيضاً قراءة أبي جعفر. النشر ٢/ ٢٢٣.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٣٨، وتفسير القرطبي ١٨/ ٤٨١، والقراءة في المحتسب ٢/ ٢٥٢.

(٥) الكشاف ٣/ ٤٧١.

(٦) الكشاف ٣/ ٤٧١ دون نسبة، والقرطبي ١٨/ ٤٨٢ وعزاها لقومٍ، وقال: وهي جيِّدة في المعنى.

(٧) يعني: «ويَعْفُوَ». ولم نقف على القراءة عند غيره، ونَقَلها عنه السمين في الدر المصون ٩/ ٥٥٧، والآلوسي في روح المعاني ٢٤/ ٢٩٨.

قراءة مَن قرأ: «يُحاسِبْكُم به اللهُ فيَغْفِرَ»[(١)] وبَعْدَ الواوِ في قول الشاعر:

فإنْ يَهْلِكْ أبو قابُوسَ يَهْلِكْ ربيعُ النَّاسِ والشَّهْرُ الحَرَامُ
ونَأْخُذَ بَعْدَهُ بِذِنابِ عيشٍ أَجَبِّ الظَّهْرِ ليس له سَنامُ[(٢)]

رُوِيَ بنصب: ونَأْخُذ، ورَفْعِه وجَزْمِه، وفي هذه القراءة يكون العطفُ على مصدر متوهَّم، أي: يقع إيباقٌ وعَفْوٌ عن كثير، وأمَّا الجَزْم فإنَّه داخلٌ في حُكم جوابِ الشَّرْط، إذ هو معطوفٌ عليه، وهو راجعٌ في المعنى إلى قراءةِ النَّصْب، لكن هذا عطف فِعْلٍ على فِعْلٍ، وفي النَّصْب عطف مصدرٍ مقدَّر على مصدرٍ متوهَّم.

وقال القشيريُّ: وقُرِئَ: «ويَعْفُ» بالجَزْم، وفيها إشكالٌ؛ لأنَّ المعنى: إنْ يَشَأ يُسْكِنِ الريحَ فتَبقى تلك السُّفُن رواكد، أو: يُهلكها بذنوبِ أهلها، فلا يَحسُن عطف: «ويَعْفُ» على هذا؛ لأنَّ المعنى يصير: إنْ يَشَأْ يَعْفُ، وليس المعنى ذلك، بل المعنى الإخبار عنِ العفو مِن غيرِ شَرْطِ المشيئة، فهو إذن عطفٌ على المجزوم مِن حيث اللفظُ لا مِن حيث المعنى، وقد قَرَأَ قومٌ: «ويعفو» بالرفع، وهي جيِّدة في المعنى[(٣)]. انتهى.

وما قاله ليس بجيِّد، إذ لم يَفهم مدلولَ التركيب، والمعنى: أنَّه تعالى إنْ يَشَأ أَهْلَكَ ناساً وأنجى ناساً، على طريق العَفْوِ عنهم.

وقال الزمخشريُّ: فإنْ قلت: علامَ عطف «يُوبِقْهنّ»؟

قلت: على «يُسْكِن»، لأنَّ المعنى: إنْ يَشَأ يُسكِن الريحَ فيَرْكُدْنَ، أو يَعْصِفها فيَغْرَقْنَ بعَصْفها[(٤)]. انتهى.

ولا يتعيَّن أَنْ يكونَ التقدير: أو يَعْصِفها فيغرقن؛ لأنَّ إهلاكَ السُّفُن لا يتعيَّن أَنْ يكون بعَصْفِ الرِّيح، بل قد يُهلكها تعالى بسببِ غيرِ الرِّيح، كنزول سَطْحِها بكثرةِ

(١) سلفت عند تفسير الآية (٢٨٤) من سورة البقرة.
(٢) البيتان للنابغة الذبياني، وهما في ديوانه ص ١١٠، وسلف عند الموضع المشار إليه آنفاً، ووقع في الديوان: ونمسك، بدل: ونأخذ.
(٣) تفسير القرطبي ١٨/ ٤٨٢.
(٤) الكشاف ٣/ ٤٧١.

الثِّقَل، أو انكسارِ لوحٍ يكون سبباً لإهلاكها، أو يَعْرِض عدوٌّ يُهلِك أهلَها.

وقرأ الأعرج وأبو جعفر وشيبة ونافع وابنُ عامر وزيد بنُ عليٍّ: «ويَعْلَمُ» بالرَّفع على القَطْع[١]، وقرأ الجمهور: «ويَعْلَمَ» بالنصب، قال أبو عليٍّ: وحَسُنَ النَّصْبُ إذا كان قَبْلَه شَرْطٌ وجزاء، وكلٌّ واحدٍ منهما غيرُ واجبٍ[٢].

وقال الزجَّاج: على إضمار «أنْ» لأنَّ قَبْلَها جزاء، تقول: ما تَصْنَعْ أَصْنَعْ مِثْلَه، وأُكْرِمَكَ، وإن شئتَ: أُكْرِمُك، على: وأَنَا أُكْرِمُكَ، وإنْ شئتَ: وأُكْرِمْكَ، جَزْماً[٣].

قال الزمخشريُّ: فيه نَظَرٌ؛ لِمَا أوردهُ سيبويه في كتابه، قال: واعْلَم أنَّ النصبَ بالفاءِ والواوِ في قوله: إنْ تَأْتِني آتِكَ وأعطيَك، ضعيفٌ، وهو نحوٌ مِن قوله:

وأَلْحَقَ بالحجازِ فأَسْتَرِيحا[٤]

فهذا لا يجوز، وليس بحدِّ الكلام ولا وَجْهِه، إلَّا أنَّه في الجزاءِ صارَ أقوى قليلاً؛ لأنَّه ليس بواجبٍ أنَّه يفعلُ، إلَّا أن يكون مِن الأوَّل فِعْلٌ، فلمَّا ضارَعَ الذي لا يُوجِبُهُ كالاستفهام ونحوِه، أجازوا فيه هذا على ضَعْفه[٥].

قال الزمخشريُّ: ولا يَجوز أنْ تُحْمَل القراءة المستفيضةُ على وَجْهٍ ضعيف، ليس بحدِّ الكلامِ ولا وَجْهِه، ولو كانت مِن هذا الباب لَمَا أَخْلَى سيبويه منها كتابَه، وقد ذَكَرَ نظائرَها مِن الآيات المُشْكِلة[٦]. انتهى.

وخرَّج الزمخشريُّ على أنَّه معطوف على تعليلٍ محذوف، قال: تقديره: لِيَنْتَقِمَ منهم ويَعلمَ الذين يجادلون، ونَحوُه في العطف على التعليلِ المحذوف غيرُ عزيزٍ في

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٣٨، وقراءة نافع وابنِ عامر في السبعة ص ٥٨١، والتيسير ص ١٩٥، وقراءة أبي جعفر في النشر ٢/ ٣٦٧.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٣٨.

(٣) تفسير القرطبي ١٨/ ٤٨٣، وكلام الزجاج في كتابه معاني القرآن ٤/ ٣٩٩.

(٤) الكشاف ٣/ ٤٧٢، والكتاب ٣/ ٩٢، وصدر البيت المذكور: سأتركُ منزلي لبني تميمٍ، وسلف عند تفسير الآية (٧١) من سورة آلِ عمران.

(٥) الكتاب ٣/ ٩٢.

(٦) الكشاف ٣/ ٤٧٢.

القرآن، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١] وقوله: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الجاثية: ٢٢]. انتهى.

ويَبْعُد تقديره: ليَنتقِم منهم؛ لأنَّه ترتَّب على الشَّرْط إهلاكُ قوم، فلا يَحسُن: لينتقم منهم، وأمَّا الآيتان فيمكن أنْ تكونَ اللامُ متعلِّقةً بفِعْلٍ محذوف، أي: «ولِنَجْعَله آيةً للناس» فَعَلْنا ذلك، «ولتُجزَى كلُّ نفسٍ بما كسبت» فَعَلْنا ذلك، وهو كثيراً يُقَدَّر هذا الفعلَ محذوفاً قَبْلَ لام العلَّة إذا لم يكن فِعْلٌ ظاهرٌ يَتعلَّق به[1].

وذَكَرَ الزمخشريُّ أنَّ قولَه تعالى: «ويَعْلم» قُرِئَ بالجَزْم، قال: فإنْ قلت: فكيف يصحُّ المعنى على جَزْمِ «ويَعْلَم»؟ قلت: كأنَّه قال: أو إنْ يَشَأ يَجمع بين ثلاثةِ أمورٍ؛ هلاكِ قوم، ونجاةِ قومٍ، وتحذيرِ آخَرِين[2]. انتهى. لأنَّ قولَه: «ويَعْلَم الذين يجادلونَ في آياتِنا ما لهم مِن محيص» يتضَّمن تحذيرَهم مِن عقابِ الله، و«ما لهم مِن محيصٍ» في موضع نصبٍ لـ «أنْ»، و«يَعْلَم» معلَّقة، كقولك: علمتُ ما زيدٌ قائم.

وقال ابنُ عطيَّة في قراءة النَّصْبِ: وهذه الواو ونحوها التي يُسمِّيها الكوفيُّون واوَ الصَّرْف؛ لأنَّ حقيقةَ واوِ الصَّرف التي يُريدونها عَطْفُ فِعْلٍ على اسمٍ مقدَّرٍ، فيقدّر «أنْ» لتكونَ مع الفِعْل بتأويل المصدر، فيَحسُن عَطْفُه على الاسم[3]. انتهى.

وليس قولُه تعليلاً لقولِهم واو الصَّرْف، إنَّما هو تقريرٌ لمذهب البَصْريِّين، وأمَّا الكوفيُّون؛ فإنَّ واوَ الصَّرْفِ ناصبةٌ بنفسِها لا بإضمار «أنْ» بَعْدَها[4].

وقال أبو عبيد: على الصَّرْف، كالذي في «آلِ عمران»: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الآية: ١٤٢]، ومعنى الصَّرْفِ أنَّه كان على جهةٍ فصُرف

---

(١) قال السمين الحلبيُّ في الدر المصون ٩/ ٥٦٠: بل يَحسُن تقدير: لينتقم، لأنه يعود في المعنى على إهلاك قوم المترتِّب على الشرط.

(٢) الكشاف ٣/ ٤٧٢، وتنظر القراءة في التبيان لأبي البقاء ص ١١٣٤، والفصول المفيدة في الواو المزيدة للعلائي ص ٢٢٥.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٣٨.

(٤) ينظر الإنصاف لابن الأنباري ٢/ ٥٥٥ وما بعدها، ومغني اللبيب ص ٤٧٢، والفصول المفيدة في الواو المزيدة للعلائي ص ٢١٨.

إلى غيرِها فتغيَّرَ الإعراب لأَجْلِ الصَّرْفِ، والعطف لا يُعيّن الاقترانَ في الوجود، كالعطف في الاسم، نحو: جاءَ زيدٌ وعَمرٌو، ولو نصب: وعَمرو، اقتضى الاقترانَ[١]، وكذلك واوُ الصَّرْفِ تفيدُ معنى الاقترانِ وتعيّن معنى الاجتماع، ولذلك أُجمعَ على النصب في قوله: «ويَعْلَم الصابرين» أي: ويَعلَم المجاهدينَ والصابرينَ معاً.

عن عليٍّ ﷺ: اجتمعَ لأبي بكرٍ ﷺ مالٌ فتَصَّدق به كلّه في سبيلِ اللهِ والخيرِ، فلامَهُ المسلمونَ وخَطَّأَهُ الكافرون، فنزلت: «فما أُوتيتم مِن شيء»[٢].

والظاهر أنَّه خطابٌ للناس، وقيل: للمشركين.

و«ما» شرطيَّة مفعولٌ ثانٍ لـ «أوتيتم» و«مِن شيء» تبيين لـ «ما»، والمعنى: مِن شيء مِن رياشِ الدنيا ومالِها والسَّعَة فيها، والفاءُ فيها جوابُ الشَّرْط، أي: فهو متاع، أي: يَسْتَمتع به في الحياة.

«وما عندَ الله» أي: مِن ثوابه، وما أَعَدَّ لأوليائِهِ «خيرٌ وأَبقى» ممَّا أُوتيتم؛ لأنَّه لا انقطاعَ له.

وتقدَّم الكلامُ في الكبائر في قوله: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ في «النساء»[٣].

وقرأ الجمهور: «كبائر» جَمْعاً هنا وفي «النَّجْم»، وحمزة والكسائيُّ بالإفراد[٤].

«والذين يجتنبون» عطف على «للذين آمنوا» وكذلك ما بَعْدَهُ، ووَقَعَ لأبي البقاء وَهْمٌ في التلاوة اعتَقَدَ أنَّها «الذين يجتنبون» بغيرِ واوٍ، فبَنَى عليه الإعراب، فقال:

---

(١) الفصول المفيدة في الواو المزيدة ص ٢٢٥-٢٢٦، وينظر ما قاله العلائي حول هذا الكلام.

(٢) الكشاف ٣/ ٤٧٢، والخبر بتمامه أخرجه الثعلبيُّ في الكشف والبيان ٥/ ٤٠٠، وخبر إنفاقِ أبي بكر مالَه كلَّه عند أبي داود (١٦٧٨)، والترمذي (٣٦٧٥) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ.

(٣) عند تفسير الآية (٣١) منها.

(٤) تفسير القرطبي ١٨/ ٤٨٥، وأورد القراءة ابنُ عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٩ وزاد: عاصماً، ولعلَّه: في رواية، إذ رواية عاصم المشهورة كقراءة الجمهور، وقراءة حمزة والكسائي في السبعة ص ٥٨١، والتيسير ص ١٩٥، وهي أيضاً قراءة خَلَف. النشر ٢/ ٣٦٧.

«الذين» في موضع جرٍّ بَدَلاً مِن «للذين آمَنُوا»[1]، ويجوز أَنْ يكون في موضع نَصْبٍ بإضمار: أَعني، وفي موضع رَفْعٍ على تقدير: «هم». انتهى.

والعامل في «إذا»: «يَغفرون»، وهي جملةٌ مِن مبتدأ وخبر، معطوفة على «يجتنبون»، ويجوز أن يكون «هم» توكيداً للفاعل في «غضبوا»، وقال أبو البقاء: «هم» مبتدأ، و«يغفرون» الخبر، والجملة جوابُ «إذا»[2]. انتهى.

وهذا لا يَجوز؛ لأنَّ الجملة لو كانت جوابَ «إذا» لكانت بالفاء، تقول: إذا جاءَ زيدٌ فعَمرو مُنطلقٌ، ولا يجوز حَذْفُ الفاء إلَّا إنْ وَرَدَ في شِعْرٍ.

وقيل: «هم» مرفوع بفِعْل محذوف يُفسِّره «يغفرون»، ولمَّا حُذِفَ انْفَصَلَ الضميرُ.

وهذا القولُ فيه نَظَر، وهو أَنَّ جوابَ «إذا» يُفَسَّر كما يُفَسَّر فِعْلُ الشَّرْط بَعْدَها، نحو: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١] ولا يَبْعُد جوازُ ذلك على مذهب سيبويه[3]؛ إذ أجازَ ذلك في أداة الشَّرْط الجازمة، نحو: إنْ تَنْطلق، زيدٌ يَنْطَلق، فزيدٌ عندَه فاعلٌ بفِعْلٍ محذوفٍ يُفسِّره الجوابُ، أي: يَنْطَلِق زيدٌ، وقد مَنَعَ ذلك الكسائيُّ والفَرَّاء.

قال الزمخشريُّ: «هم يغفرون» أي: هم الأَخصَّاء بالغُفْران في حال الغَضَب لا يَغُول الغَضَبُ أحلامَهم[4]، كما يَغُولُ حُلُومَ الناس، والمَجِيْء بـ «هم» وإيقاعُه مبتدأً، وإسنادُ «يَغفرون» إليه، لهذه الفائدة[5]. انتهى.

وفيه حَضٌّ على كَسْرِ الغَضَب، وفي الحديث: أَوْصِني. قال: «لا تغضب»،

---

(١) الذي في مطبوع الإملاء ٢/ ٢٢٥: «والذين يجتنبون» معطوف على قوله تعالى: «للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكَّلون».. ولعلَّ نسخة المصنِّف ـ وكذا نسخة صاحب الدر المصون ٩/ ٥٦١ ـ غير النسخة المعتمدة في المطبوع.

(٢) الإملاء ٢/ ٢٢٥.

(٣) ينظر الكتاب ٣/ ١١٢-١١٣.

(٤) الغَضَب غُولُ الحِلْم، لأنَّه يغتاله ويذهب به، يقال: أَيَّةُ غُولٍ أَغْوَلُ من الغضب. مختار الصحاح (غول).

(٥) الكشاف ٣/ ٤٧٢.

قال: زِدْني. قال: «لا تغضب»، قال: زِدْني. قال: «لا تغضب»[(١)].

«والذين استجابوا لربِّهم» قيل: نزلت في الأنصار؛ دَعَاهم اللهُ للإيمان به وطاعتِه، فاستجابوا له، وكانوا قَبْلَ الإسلام ـ وقَبْلَ مَقْدَم رسولِ الله ﷺ المدينةَ ـ إذا نابَهُم أَمْرٌ تشاوروا، فأثنى اللهُ عليهم أي: لا يَنفردون بأَمْرٍ حتى يَجتمعوا عليه. وعن الحسن: ما تَشَاور قومٌ إلَّا هُدُوا لأرشدِ أَمْرِهم[(٢)]. انتهى.

وفي الشورى اجتماعُ الكلمة والتحابُّ والتعاضُدُ على الخير، وقد شاورَ الرَّسولُ عليه السلام فيما يتعلَّق بمصالحِ الحروب والصحابةُ بَعْدَه في ذلك، كمشاورة عُمر للهُرْمُزان، وفي الأحكام كقتالِ أهلِ الرِّدَّة وميراثِ الجَدِّ وعَدَدِ حَدِّ الخمر، وغير ذلك[(٣)].

والشُّورَى مصدرٌ كالفُتيا بمعنى التَّشَاور، على حَذْفِ مضاف، أي: وأَمْرُهم ذو شُورى بينهم.

و«هم يَنتصرون» صِلَة «للذين»، و«إذا» معمولةٌ لـ «ينتصرون»، ولا يَجوز أَنْ يكون «هم ينتصرون» جواباً لـ «إذا»، والجملة الشرطيَّة وجوابُها صِلَة؛ لِمَا ذكرناهُ مِن لزومِ الفاء، ويَجوز هنا أَنْ يكون «هم» فاعلاً بفِعْلٍ محذوف على ذلك القول الذي قيل في «هم يَغفرون».

وقال الحوفيُّ: وإنْ شئتَ جعلت «هم» توكيداً للهاءِ والميم، يعني في «أَصابهم»، وهو ضميرُ رفعٍ، وفي هذا نَظَر، إذ فيه الفَصْلُ بين المؤكّد والتوكيد بالفاعل، وهو فَصْلٌ الظاهرُ أَنَّه يَمتنع.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٣٩، والخبر أخرجه البخاري (٦١١٦) من حديث أبي هريرة ﷺ، وهو عند أحمد (١٠٠١١).

(٢) الكشاف ٣/ ٤٧٢، وينظر النكت والعيون ٥/ ٢٠٦، وقول الحسن عند ابن المنتدر في الأوسط ١١/ ٣٠٧، وأخرجه عنه ابنُ أبي شيبة (٢٦٨٠٠)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٥٨).

(٣) ينظر تفسير القرطبي ١٨/ ٤٨٧-٤٨٨، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٥٦، وخبرُ عمر مع الهرمزان ـ وهو: اسمٌ لبعض أكابر الفرس. تهذيب الأسماء واللغات للنووي ١/ ١٣٥-١٣٦ ـ عند البخاري (٣١٥٩) من حديث جُبير بن حيَّة.

والانتصار: أَنْ يَقتصِرَ على ما حَدَّهُ اللهُ له، ولا يَعْتدِي، وقال النَّخَعيُّ: كانوا يَكرهون أَنْ يُذِلُّوا أنفسَهم فتَجترِئ عليهم الفُسَّاق، ومَن انتصَرَ غيرَ متعدٍّ، فهو مطيعٌ محمود[١].

وقال مقاتل وهشام بنُ عروة[٢]: الآية في المجروح يَنتصفُ مِن الجارح بالقِصَاص، دون غيره مِن سَبٍّ أو شَتْمٍ، وقيل: نزلت في بغي المشرك على المؤمن فأباح الله له الانتصار[٣].

وقال ابنُ عبَّاس: بَغَى المشركونَ على رسولِ الله ﷺ وعلى أصحابِه وأَخرجوهم مِن مكَّة، فأَذِنَ اللهُ لهم بالخروج فمكَّن لهم في الأرض ونَصَرهم على مَن بَغَى عليهم[٤].

وقال الكِيا الطبريُّ: ظاهره أنَّ الانتصارَ في هذا الموضع أفضلُ، أَلَا ترى أنَّه قَرَنه إلى ذِكْر الاستجابة للهِ ولرسوله وإقامة الصلاة، فهذا على ما ذَكَره النخعيُّ، وهذا فيمَن تعدَّى وأَصَرَّ، والمأمور فيه بالعفو إذا كان الجاني نادِماً مُقْلِعاً، وقد قال عقيبَ هذه الآية: «ولَمَن انتصرَ بَعْدَ ظُلْمه» الآية، فيقتضي إباحةَ الانتصار، وقد عقَّبه بقوله: «ولَمَن صَبَرَ وغَفَرَ» وهذا محمول على الغفران عند غيرِ المُصِرِّ، فأمَّا المُصِرُّ على البَغْي، فالأفضلُ الانتصارُ منه بدليلِ الآية قبْلَها[٥].

وقال ابنُ بحر: المعنى: تَنَاصَرُوا عليه، فأَزالوه عنهم[٦].

وقال أبو بكر بنُ العربيّ نحواً مِن قول الكِيا[٧].

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٧٢-٤٧٣، وينظر النكت والعيون ٥/ ٢٠٦، وزاد المسير ٧/ ٢٩٣، وتفسير القرطبي ١٨/ ٤٨٩، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ٢٥.

(٢) كذا في النسخ، والذي في تفسير الثعلبي ٥/ ٤٠٠-٤٠١، وتفسير القرطبي ١٨/ ٤٩٠: وهشام بن حُجَير. وكلام مقاتل عند ابنِ عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٩.

(٣) من قوله: دون غيره من سبّ وشتم...، إلى هنا، زيادة من (د٣) و(يه)، والكلام من المحرر الوجيز ٥/ ٣٩.

(٤) تفسير القرطبي ١٨/ ٤٨٩، والخبر في زاد المسير ٧/ ٢٩١ عن عطاء بنحوه.

(٥) تفسير القرطبي ١٨/ ٤٩٠، وكلام الكيا الطبري في كتابه أحكام القرآن ٤/ ٣٦٦.

(٦) تفسير القرطبي ١٨/ ٤٩٠، والنكت والعيون ٥/ ٢٠٧.

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٥٧، وينظر تفسير القرطبي ١٨/ ٤٨٩.

قال الجمهور: إذا بَغَى مؤمنٌ على مؤمنٍ، فلا يَجوز له أَنْ ينتصرَ منه بنفسِه، بل يَرفَعُ ذلك إلى الإمام أو نائبه، وقالت فرقة: له ذلك.

«وجزاء سَيِّئةٍ سيئةٌ مِثْلُها» هذا بيانٌ للانتصار، أي: لا يتعدَّى فيما يُجازِي به مَن بَغَى عليه.

قال ابنُ أبي نَجيح والسُّدِّيُّ: إذا شُتِمَ فله أَنْ يَرُدَّ مِثْل ما شُتِمَ به دونَ أَنْ يتعدَّى[1].

وسُمِّيَ القصاصُ سيِّئةً؛ على سبيل المقابلة، أو لأنَّها تَسوءُ مَن اقتُصَّ منه كما ساءَت المقتصّ.

وظاهر قوله: «مِثْلها» المماثلةُ مطلقاً في كلِّ الأحوال إلَّا فيما خصَّه الدليلُ، والفقهاء أَدخلوا التخصيصَ في صُوَرٍ كثيرةٍ بناءً على القياس.

قال مجاهد والسُّدِّيُّ: إذا قال له: أَخزاكَ اللهُ. فليقل له: أَخزاكَ اللهُ، وإذا قَذَفه قذفاً يُوجبُ الحَدَّ [فليس له ذلك][2] بل الحدُّ الذي أَمَرَهُ اللهُ.

«فمن عَفَا وأَصلح» أي: بينَه وبينَ خَصْمِه بالعَفْو «فأَجْرُه على الله» عِدَةٌ مُبهَمَة لا يُقاسُ عِظَمها، إذ هي على الله.

«إنَّه لا يُحبُّ الظالمين» أي: الجانِين، وإذا كان لا يحبّه وقد نَدَبَ إلى العَفْوِ عنه، فالمؤمن الذي يُحبُّه اللهُ أَولى أَنْ يُعفَى عنه، أو: «لا يحبُّ الظالمين» مَن تَجاوَزَ واعْتَدى مِن المجنيِّ عليهم إذا اقتصُّوا وخصوصاً في حالة الحَرَدِ[3] والتهابِ الحميَّة، فربَّما يَظلم وهو لا يَشعر، وفي الحديث: «إذا كان يومُ القيامة نادَى منادٍ:

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٤٠، وينظر النكت والعيون ٥/ ٢٠٧، وتفسير الثعلبي ٥/ ٤٠٠، وقولهما عند الطبري ٢٠/ ٥٢٥، وقول ابن أبي نجيح أيضاً عند النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٦٢٣.

(٢) ما بين حاصرتين لم يرد في النسخ، واستدرك من تفسير الرازيّ ٢٧/ ١٨١ ـ والكلام منه ـ وينظر روح المعاني ٢٤/ ٣١١، ونَقَل الماورديُّ في النكت والعيون ٥/ ٢٠٧ عن ابنِ أبي نجيح والسُّدّيّ قولهما: إذا قال: أخزاهُ اللهُ، أو: لَعَنَهُ اللهُ، أنْ يقول مِثْلَه، ولا يقابل القذف بقذف، ولا الكذب بكذب.

(٣) هو: الغَضَب. الصحاح (حرد).

مَن كان له على الله أَجْرٌ فليَقُم. قال: فيَقوم خَلْقٌ، فيُقال لهم: ما أَجرُكم على الله؟ فيقولون: نحن عَفَونا عمَّن ظَلَمنا. فيُقال لهم: ادْخُلُوا الجنّة بإذن الله»[1].

واللام في «ولَمَن انتَصَر» لامُ توكيد، قال الحوفيُّ: وفيها معنى القَسَم، وقال ابنُ عطيَّة: لامُ التقاءِ القَسَم. يَعْنِيان أنَّها اللامُ التي يُتَلقَّى بها القَسَم، فالقَسَم قَبْلَها محذوفٌ، و«مَن» شرطيّة، وحُمل «انتَصَر بَعْدَ ظُلْمه» على لفظ «مَن»، و«فأولئك» على معنى «مَن»، والفاء جواب الشَّرْط، و«ظلمه» مصدرٌ مضاف إلى المفعول، قال الزمخشريُّ: ويُفسِّره قراءةُ مَن قرأ: «بَعْدَ ما ظُلِمَ»[2].

«ما عليهم مِن سبيل» قيل: أي: مِن طريقٍ إلى الحَرَج، وقيل: «مِن سبيلٍ» للمعاقب ولا المعاتب والعاتب، وهذه مبالغةٌ في إباحة الانتصار.

«إنَّما السبيلُ» أي: سبيل الإِثْم والحَرَج «على الذين يَظلمون» أي: يبتدئون بالظُّلْم «ويَبغون في الأرض» أي: يتكبَّرون فيها ويَعْلُون ويُفسِدون، وقيل: «يظلمون الناسَ» أي: يَضَعون الأشياءَ غيرَ مواضعها؛ مِن القَتْل وأَخْذِ المال والأَذَى باليد واللسان والبَغْي بغيرِ الحقِّ، فهو نوعٌ مِن أنواعِ الظُّلم خصَّه بالذِّكْر؛ تنبيهاً على شدَّته وسُوء حالِ صاحبه[3]. انتهى.

«ولَمَن صَبَر» أي: على الظُّلْم والأذى «وغَفَر» ولم يَنتصِر، واللام في «ولَمَن» يَجوز أَنْ تكون اللامَ الموطِّئة للقَسَم المحذوف، و«مَن» شرطيَّة، وجواب القَسَم قوله: «إنَّ ذلك»، وجواب الشَّرْط محذوفٌ؛ لدلالة جوابِ القَسَم عليه، ويجوز أَنْ تكون اللامُ لامَ الابتداء، و«مَن» موصولة مبتدأ، والجملة المؤكّدة بـ«إنَّ» في موضع الخبر.

---

(١) تفسير الرازي ٢٧/ ١٨١، والخبر في تفسير الثعلبي ٥/ ٤٠١ بإسناده إلى ابنِ عباس ﷺ مرفوعاً، وأخرجه أيضاً ابنُ مردويه كما في الدر المنثور ١٣/ ١١٧.
وأخرجه أيضاً ابنُ أبي عاصم في الجهاد (٢٠٨)، والطبراني في الأوسط (١٩٩٨)، والعقيلي في الضعفاء (٣٥٤)، وأبو نعيم في الحلية ٦/ ١٨٧ عن أنس بنحوه، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/ ٢٩٥: رواه الطبراني في الأوسط.. وفي إسناده: الفضل بن يسار، قال العقيلي: لا يتابع على حديثه. اهـ.

(٢) الكشاف ٣/ ٤٧٣، ولم نقف على القراءة عند غيره، وأوردها عنه السمين في الدر ٩/ ٥٦٣، والآلوسيّ في روح المعاني ٢٤/ ٣٠٨.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٤٠.

وقال الحوفيّ: «مَن» رفع بالابتداء وأضمرَ الخبر، وجواب الشَّرْط «إنَّ» وما تعلَّقت به، على حَذْفِ الفاء، كما قال الشاعر:

مَنْ يَفْعَلِ الحَسَناتِ اللهُ يَشْكُرها[١]

أي: فالله يَشْكُرها. انتهى. وهذا ليس بجيِّد؛ لأنَّ حذفَ الفاء مخصوصٌ بالشعر عند سيبويه، والإشارة بـ «ذلك» إلى ما يُفهم مِن مَصْدر: «صَبَر وغَفَر»، والعائد على الموصول المبتدأ مِن الخبر محذوف، أي: «إنَّ ذلك» منه ـ لدلالة المعنى عليه ـ «لمن عَزْم الأمور» إن كان «ذلك» إشارةً إلى المصدر المفهوم مِن قوله: «ولَمَن صَبَر وغفَر» لم يكن في «عَزْم الأمور» حذف، وإن كان «ذلك» إشارةً إلى المبتدأ، كان هو الرابطَ، ولا يَحتاج إلى تقدير: منه، وكان في «عزم الأمور» حَذْفٌ، أي: إنَّه لمن ذَوي عَزْمِ الأمور.

وسَبَّ رجلٌ آخَرَ في مجلسِ الحَسَن، فكان المسبوبُ يَكظم ويَعْرَق فيمسح العَرَق، ثم قام فتَلا هذه الآية، فقال الحسن: عَقَلها واللهِ، وفَهِمَها لمَّا ضَيَّعَها الجاهلون[٢].

والجملة مِن قوله: «إنَّما السبيل» اعتراضٌ بينَ قوله: «ولَمَن انتصر» وقوله: «ولَمَن صَبَر».

«ومَن يُضلل اللهُ فما له مِن وليٍّ مِن بَعْدِه» أي: مِن ناصرٍ يتولَّاه مِن بَعْدِه، أي: مِن بَعْدِ إضلاله، وهذا تحقيرٌ لأَمْرِ الكفرة.

«وتَرَى الظالمينَ» الخطاب للرَّسول، والمعنى: وتَرَى حالَهم وما هم فيه مِن الحَيْرَة «لمَّا رَأَوُا العذابَ يقولون هل إلى مَرَدٍّ مِن سبيل» أي: هل سبيل إلى الرَّدِّ للدنيا؛ وذلك مِن فظيعِ ما اطَّلعوا عليه وسُوءِ ما يحلُّ بهم.

«وتراهم يُعرَضُون عليها» أي: على النار، دلَّ عليها ذِكْرُ العذاب «خاشعينَ» متضائلينَ صاغرينَ ممَّا يَلحقهم «مِن الذُّلِّ».

---

(١) سلف عند تفسير الآية (١٨٠) من سورة البقرة.

(٢) الكشاف ٣/ ٤٧٣، ونَقَله عنه الرازيُّ ٢٧/ ١٨٢، والقرطبيُّ ١٨/ ٤٩٥، وأخرجه عنه ابن أبي الدنيا في الصبر والثواب عليه (١٢٥).

وقرأ طلحة: «مِن الذِّلِّ» بكسر الذال[١]، والجمهور بالضَّمِّ.

والخشوع: الاستكانةُ، وهو محمودٌ، وإنَّما أخرجه إلى الذَّمِّ اقترانُه بالذّلّ، وقيل: «مِن الذّلّ» متعلِّق بـ «ينظرون مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ» قال ابنُ عباس: ذليل[٢]. انتهى.

قيل: ووصفَ بالخَفَاء، لأنَّ نَظَرهم ضعيفٌ ولَحْظهم بمهابة، قال الشاعر:

فَغُضَّ الطَّرْفَ إنَّكَ مِن نُمَيْرٍ[٣]

وقيل: يُحشَرون عُمْياً، ولمَّا كان نَظَرهم بعيونِ قُلوبهم، جَعَله طَرْفاً خفيًّا، أي: لا يَبدو نَظَرهم، وهذا التأويلُ فيه تكلُّف. وقال السُّدِّيُّ وقتادة: المعنى: يُسارِقون النَّظَر؛ لِمَا كانوا فيه مِن الهَمِّ وسُوء الحال لا يَستطيعون النظرَ بجميعِ العين، وإنَّما يَنظرون مِن بعضها، فيَجوز على هذا التأويل أنْ يكون الطَّرْف مصدراً، أي: «مِن» نَظَر «خَفِيٍّ»[٤].

وقال الزمخشريُّ: «مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ» أي: يَبْتَدِئُ نَظَرُهم مِن تحريكٍ لأجفانهم ضعيفٍ خَفِيّ بمسارقة، كما ترى المصبورَ[٥] يَنظر إلى السيف، وهكذا نَظَرُ الناظرِ إلى المكارِه لا يَقْدِرُ أنْ يَفتحَ أجفانَه عليها ويَملأ عينَيْه منها، كما يَفعل في نَظَره إلى المَحَابِّ[٦].

❁ ❁ ❁

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٤١.

(٢) المصدر السابق، وينظر تفسير الثعلبي ٥/ ٤٠١، والنكت والعيون ٥/ ٢١٠، وزاد المسير ٧/ ٢٩٤، وأخرجه عنه ـ وعن مجاهدٍ أيضاً ـ الطبريُّ ٢٠/ ٥٣٢.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٤١، وينظر تفسير الثعلبي ٥/ ٤٠١، والنكت والعيون ٥/ ٢١٠، وعجز البيت:

فلا كعباً بلغت ولا كلابا

وهو لجرير، ديوانه ١/ ٨٢١.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٤١، وقول قتادة والسدي عند الطبري ٢٠/ ٥٣٣.

(٥) هو مَن يُقتَل في غير حرب، فيُقدَّم للقتل موثقاً، فهو يَنظُر لسيفِ مَن يضرب عنقه نظراً يسارقه. حاشية الشهاب الخفاجي ٧/ ٤٢٦.

(٦) الكشاف ٣/ ٤٧٤.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ ﴿٤٧﴾ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ﴿٥٠﴾ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾.

الظاهر أنَّ «وقال» ماضٍ لفظاً ومعنًى، أي: وقال الذين آمنوا في الحياة الدنيا، ويكون «يوم القيامة» معمولاً لـ «خَسِروا»، ويَحتمل أنْ يكون معنى «وقال»: ويقول، و«يوم القيامة» معمولٌ لـ: ويقول، أي: ويقولوا في ذلك اليوم لمَّا عايَنوا ما حلَّ بالكفَّار.

«وأَهْلِيهم» الظاهر أنَّهم الذين كانوا أهليهم في الدنيا، فإن كانوا معهم في النَّار فقد خَسِروهم؛ إذ لا يَنتفعون بهم، وإنْ كانوا في الجنَّة لِكونهم كانوا مؤمنين كآسِيَة امرأةِ فرعون ـ فهم لا يَنتفعون بهم أيضاً ـ وقيل: أهلوهم ما كان أُعدَّ لهم مِن الحُور لو كانوا آمَنُوا.

والظاهر أنَّ قوله: «أَلَا إنَّ الظالمينَ في عذاب مقيم» مِن كلام المؤمنين، وقيل: استئنافُ إخبارٍ مِن الله تعالى.

«مِن قَبْلِ أَنْ يأتيَ يومٌ» قيل: هو يوم وُرودِ الموت، والظاهر أنَّه يومُ القيامة، و«مِن الله» متعلِّق بمحذوف يدلُّ عليه «لا مَرَدَّ» أي: لا يَرُدُّ ذلك اليومَ ممَّا حَكَمَ الله به فيه.

وقال الزمخشريُّ: «مِن الله»: «مِن» صلَةٌ لـ «لا مَرَدَّ»[(١)]. انتهى. وليس بجيِّد؛ إذ لو كان «مِن» صلتَه، لكان معمولاً له، فكان يكونُ اسم «لا» من قبيل المطوَّل، فكان يكون مُعْرَباً منوَّناً.

وقيل: «مِن الله» يتعلَّق بقوله: «يأتي»، أي: «مِن قَبْلِ أَنْ يأتيَ» مِن الله «يومٌ» لا يَقْدِر أحدٌ على ردِّه.

«ما لكم مِن مَلْجَأٍ» تلجؤون إليه فتخلصونَ مِن العذاب «وما لكم مِن» إنكارِ شيءٍ مِن أعمالكم التي تُوردكم النارَ، والنَّكِير مصدر: أَنْكَر، على غيرِ قياس، قيل: ويَحتمل أَنْ يكون اسمَ فاعلٍ للمبالغة، وفيه بُعْدٌ؛ لأنَّ نكِرَ، معناه: لم يُميِّز.

«فإن أَعْرَضُوا» الآية، تسليةٌ للرَّسول، وتأنيسٌ له، وإزالةٌ لهمِّه بهم، والإنسان يُراد به الجنسُ، ولذلك جاءَ: «وإنْ تُصِبْهم سيِّئةٌ»، وجاء جوابُ الشَّرْط: «فإنَّ الإنسانَ»، ولم يَأْتِ: فإنَّه، ولا: فإنَّهم؛ ليدلَّ على أنَّ هذا الجنس مَوسومٌ بكفران النِّعَم، كما قال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤] ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦].

ولمَّا ذَكَر أنَّه يَكفُر النِّعَم أَتبع ذلك بأنَّ له مُلْك العالَم العُلْويّ والسُّفْليّ، وانَّه يفعل ما يُريد.

ونبَّه على عظيم قدرته وأنَّ الكائناتِ ناشئةٌ عن إرادته، فذَكَر أنَّه يَهَبُ لبعضٍ إناثاً، ولبعضٍ ذكوراً، ولبعضِ الصِّنْفَين، ويُعقِم بعضاً فلا يُولد له.

وقال إسحاق بنُ بِشْر: نزلت هذه الآية في الأنبياء، ثم عَمَّت؛ فـ: لوط أبو بناتٍ، لم يُولَد له ذَكَر، وإبراهيم ضِدّه، ومحمَّد ﷺ وعليهما وُلِدَ له الصِّنفان، ويَحيى عقيم[(٢)]. انتهى.

وذكرَ أيضاً مع لوطٍ شُعَيب، ومع يحيى عيسى[(٣)].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٤٣، وينظر تفسير الثعلبي ٥/ ٤٠٢ ـ وفيه قول إسحاق بإسناده إليه ـ والنكت والعيون ٥/ ٢١١، وتفسير القرطبي ١٨/ ٥٠٢.

(٣) الكشاف ٣/ ٤٧٥، وينظر أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٦٠، وتفسير القرطبي ١٨/ ٥٠٢- =

وقَدَّم تعالى هبةَ البناتِ؛ تأنيساً لهنَّ وتشريفاً لهنَّ ليُهْتَمَّ بصونهنَّ والإحسان إليهنَّ، وفي الحديث: «مَنِ ابتُلِيَ بشيءٍ مِن هذه البنات، فأَحْسَنَ إليهنَّ، كُنَّ له ستراً مِن النار»[(١)].

وقال واثلة بنُ الأسقع: مِن يُمن المرأة تبكيرُها بالأُنثى قَبْلَ الذَّكَر؛ لأنَّ الله تعالى بَدَأَ بالإناث[(٢)].

وقال الزمخشريُّ: فإن قلت: لِمَ قدَّم الإناث على الذُّكور مع تقدُّمِهم عليهنَّ، ثم رَجَع فقدَّمهم؟ ولِمَ عَرَّف الذُّكورَ بَعْدَما نَكَّر الإناثَ؟

قلت: لأنَّه ذَكَر البلاءَ في آخِرِ الآيةِ الأُولى وكفرانَ الإنسانِ بنسيانِهِ الرحمةَ السابقةَ عنده، ثم ذَكَّره بذِكْر مُلْكِه ومشيئتِه، وذِكْرِ قسمةِ الأولاد، فقدَّم الإناثَ؛ لأنَّ سياقَ الكلام أنَّه فاعِلٌ ما يَشاؤه لا ما يَشاءُ الإنسان، فكان ذِكْرُ الإناثِ ـ اللآئي مِن جملة ما لا يَشاؤه الإنسانُ ـ أَهَمَّ، والأهمُّ واجبُ التقديم، ولِيَلِيَ الجنسَ الذي كانت العرب تَعَدُّه بلاءً، ذَكَر البَلَاءَ، وأَخَّر الذكور، فلمَّا أخَّرهم لذلك تَدَارَكَ تأخيرُهم ـ وهم أحقَّاءُ بالتقديم ـ بتعريفهم؛ لأنَّ التعريفَ تنويهٌ وتشهيرٌ، كأنَّه قال: ويَهبُ لمَن يشاءُ الفُرْسانَ الأعلامَ المذكورين الذين لا يَخْفَون عليكم، ثم أَعطى بَعْدَ ذلك كِلَا الجنسين حظَّه مِن التقديم والتأخير، وعرَّف أنَّ تقديمهنَّ لم يَكن لتقدُّمِهنَّ، ولكن لمقتضى آخَر، فقال: «ذكراناً وإناثاً»، كما قال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ [الحجرات: ١٣] ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾[(٣)] [القيامة: ٣٩]. انتهى.

= ٥٠٣، وتنظر أخبارهم في التعريف والإعلام للسهيلي والبداية والنهاية لابن كثير، وغيرهما من الكتب.

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٤٣، والخبر أخرجه البخاريُّ (١٤١٨)، ومسلم (٢٦٢٩)، وأحمد (٢٤٠٥٥) من حديث عائشة ﵂.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٤٣ نقلاً عن الثعلبي ـ وهو عنده في كتابه الكشف والبيان ٥/ ٤٠٢ بإسناده إليه مرفوعاً ـ وتفسير القرطبي ١٨/ ٥٠١.
قال الذهبي في ميزان الاعتدال ٢/ ١٠٣ (ترجمة ٢٩٠٤ سالم بن إبراهيم): روى سالم، عن حكيم بن خذام ـ متروك ـ عن العلاء بن كثير ـ تالف ـ عن مكحول، عن واثلة مرفوعاً: «من يُمْنِ المرأة تبكيرها بأنثى». اهـ. وينظر أيضاً المقاصد الحسنة للسخاوي (١٢٠٥).

(٣) الكشاف ٣/ ٤٧٥.

وقيل: بَدَأَ بالأنثى ثم ثنَّى بالذَّكر؛ لتنقُّله مِن الغَمِّ إلى الفَرَح، وقيل: ليعلمَ أنَّه لا اعتراضَ على اللهِ فيَرضى، فإذا وَهَبَ له الذَّكَرَ عَلِمَ أنَّه زيادةٌ وفَضْلٌ مِن الله وإحسانٌ إليه. وقيل: قدَّمها؛ تنبيهاً على أنَّه إذا كان العَجْزُ والحاجة أتمّ، كانت عنايةُ الله أكثرَ[(١)].

وقال مجاهد والضحاك والحسن وأبو مالك وعبيدة[(٢)]: إناثاً لا ذكورَ معهنَّ، وذكوراً لا إناثَ معهنَّ.

وقال القتيبيُّ: التزويج: الجَمْع بين البنين والبنات.

وقال مجاهد: هو أَنْ تَلِدَ المرأةُ غلاماً، ثم تلِدُ جاريةً.

وقال محمد بن الحنفية أَنْ تلِدَ توأماً غلاماً وجاريةً[(٣)].

وقال أبو بكر بنُ العربي: «أو يُزوِّجهم ذكراناً وإناثاً» قال علماؤنا: يعني آدم، كانت حوَّاء تَلِدُ له في كلِّ بطنٍ تَوأَمين ذَكَراً وأنثى، تزوّج ذَكَر هذا البطن أُنثى البطنِ الآخَر[(٤)]. انتهى.

ولمَّا ذَكَر الهبةَ في الإناث والهبةَ في الذكور، اكتفى عن ذِكْرها في قوله: «أو يُزوِّجهم ذكراناً وإناثاً»، ولمَّا كان العُقْم ليس بمحمودٍ، قال: «ويَجعلُ مَن يشاء عقيماً» وهو قسيمٌ لمن يُولَد له.

ولمَّا كانت الخنثى ممَا يُحزَن بوجوده، لم يَذْكُره تعالى، قالوا: وكانت الخِلْقةُ مستمرَّةً ذكراً وأنثى إلى أَنْ وَقَعَ في الجاهليَّة الأُولى الخنثى، فسُئِلَ فارضُ العَرَب ومُعمَّرها عامر بنُ الظَّرِب عن ميراثه، فلم يَدْرِ ما يقول وأَرْجَأهم، فلمَّا جنَّ عليه الليلُ، جَعَل يتقلَّب وتَذهبُ به الأفكار، وأنكرت خادِمُه حالَه، فسألته فقال: سَهِرتُ

---

(١) تفسير الرازي ٢٧/ ١٨٤-١٨٥.

(٢) في النسخ: وأبو عبيدة، وكذا وقع في النسخ الخطية لتفسير القرطبي ١٨/ ٥٠١ بهامشه، والمثبت أعلاه منه ومن معاني القرآن للنحاس ٦/ ٣٢٥، وهو الصواب، وهو عَبِيْدَة السلماني. وينظر قول أبي عبيدة في مجاز القرآن له ٢/ ٢٠١.

(٣) ينظر النكت والعيون ٥/ ٢١١، وتفسير القرطبي ١٨/ ٥٠١-٥٠٢، وتنظر الآثار عند الطبريّ ٢٠/ ٥٣٧-٥٣٩، وقول القتيبي ـ وهو ابن قتيبة ـ في كتابه غريب القرآن ص ٣٩٤.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٦٠، وعنه القرطبي ١٨/ ٥٠٢-٥٠٣.

لأَمْرٍ لا أدري ما أقول فيه! فقالت له: ما هو؟ فقال: شخصٌ له ذَكَرٌ وفَرْج، كيف يكون حاله في الميراث؟ قالت له الأَمَة: ورِّثه مِن حيث يَبول، فعَقَلها، وأصبحَ فَعَرَضها عليهم فَرضُوا بها، وجاء الإسلامُ على ذلك، وقضى بذلك عليٌّ كرَّم اللهُ وجهه[١].

«إنَّه عليم» بمصالح العباد «قديرٌ» على تكوين ما يَشاء.

كان مِن الكفَّار خَوضٌ في معنى تكليم اللهِ موسى، فذهبت قريش واليهود في ذلك إلى التَّجسيم، فنزلت[٢].

وقيل: كانت قريش تقول: أَلَا تكلِّم اللهَ وتَنْظر إليه ـ إنْ كنتَ نبيّاً صادقاً ـ كما كلَّمه موسى ونَظَر إليه؟ فقال لهم الرَّسول عليه الصلاة والسلام: «لم يَنظُر موسى إلى الله»، فنزلت: «وما كان لبشرٍ أَنْ يُكلِّمه اللهُ»[٣] بياناً لصورةِ تكليم الله عبادَه، أي: ما ينبغي ولا يُمكِن إلَّا يُوحَى إليه أَحَد وجوهِ الوَحْي؛ مِن الإلهام، قال مجاهد: أو النَّفْث في القَلْب، قال النقاش: أو: وَحْي في المنام، وقال النَّخَعيُّ: كان في الأنبياء مَن يُخَط له في الأرض، أو بأَنْ يُسْمِعَه كلامَه دونَ أَنْ يَعرفَ هو للمتكلِّم جهةً ولا حَيِّزاً، كموسى عليه السلام، وهذا معنى «مِن وراء حجاب» أي: مِن خفاءٍ عن المتكلِّم لا يَحدّه ولا يتصوَّر بذِهْنه عليه، وليس كالحجاب في الشاهد، أو: بأَنْ يُرسلَ إليه مَلَكاً يُشافِهه بوحي اللهِ تعالى، قاله ابنُ عطيَّة[٤].

وقال الزمخشريُّ: وما صحَّ لأحدٍ مِن البشر «أَنْ يُكلِّمه اللهُ» إلَّا على ثلاثة أوجه: إمَّا على طريق الوَحْي وهو الإلهامُ والقَذْف في القلب، أو المَنَامِ كما أوحى إلى أمِّ موسى وإلى إبراهيم ـ عليهما السلام ـ في ذَبْحِ ولدِه، وعن مجاهد:

(١) المصدران السابقان، وقضاء عليٍّ عند البيهقي في السنن الكبرى ٦/ ٢٦١.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٤٣.

(٣) تفسير القرطبي ١٨/ ٥٠٧ وعزاه للنقاش والواحدي والثعلبي، وهو عند الواحديّ في أسباب النزول ص ٣٩٦، وعند الثعلبيّ في الكشف والبيان ٥/ ٤٠٣، وعزاه للنقاش أيضاً الماورديُّ في النكت والعيون ٥/ ٢١٢.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٤٣، وينظر تفسير الثعلبيّ ٥/ ٤٠٣، والنكت والعيون ٥/ ٢١٢، والكشاف ٣/ ٤٧٥.

أَوحى اللهُ الزَّبُورَ إلى داودَ عليه السلام في صَدْرِه، قال عَبيد بنُ الأَبْرَص:

وأَوحـى إلـيَّ اللهُ أَنْ قَـدْ تـآمـروا بإِبْلِ أبي أَوفى فَقُمْتُ على رِجْلي[(١)]

أي: أَلهمني وقَذَف في قلبي، وإمَّا على أَنْ يُسْمِعَه كلامَه الذي يَخْلُقه في بعضِ الأجرام مِن غير أَنْ يُبصِر السامعُ مَن يُكلِّمه؛ لأَنَّه في ذاته غير مَرْئيّ.

وقوله: «مِن وراءِ حجاب» مَثَلٌ، أي: كما يُكلِّم المَلِك المُحتَجِب بعضَ خواصِّه وهو مِن وراءِ الحجاب، فيَسمعُ صوتَه ولا يَرَى شخصَه، وذلك كما كلَّمَ موسى ويُكلِّم الملائكة، وإمَّا على أَنْ يُرسِل إليه رسولاً مِن الملائكة فيُوحِي المَلَك إليه، كما كلَّم الأنبياءَ غيرَ موسى. انتهى. وهو على طريق المعتزلة في استحالةِ رؤية الله تعالى ونفي الكلام الحقيقيّ عن اللهِ تعالى.

وكلُّ هذه الأقسام الثلاثة يَصْدُق عليها أَنَّها وحيٌ، وخصّ الأُولى باسم الوحي هنا؛ لأنَّ ما يقع في القلب على سبيل الإلهام يَقَعَ دفعةً واحدةً، فكان تخصيصُ لفظ الوحي به أَولى، وقيل: وحياً كما أَوحى إلى الرُّسُل بواسطة الملائكة، «أو يرسل رسولاً» أي: نبيًّا، كما كلَّم أُمَمَ الأنبياء على ألسنتهم. حكاه الزمخشريُّ[(٢)].

وترك تفسير «أو مِن وراءِ حجاب»، ومعناه في هذا القول: كما كلَّم محمَّداً وموسى صلى الله عليهما وسلم.

وقرأ الجمهور: «حجاب» مفرداً، وابنُ أبي عبلة: «حُجُب» جمعاً[(٣)]، والجمهور: «أو يُرسِلَ رسولاً فيُوحيَ» بنصب الفِعْلَين؛ عطف، «أو يرسل» على المُضمَر الذي يتعلَّق به «مِن وراءِ حجاب»، تقديره: أو يكلّمه مِن وراءِ حجاب، وهذا المُضمَر معطوفٌ على «وَحْياً»، والمعنى: إلَّا بوحيٍ أو إسماعٍ مِن وراء حجاب، أو إرسالِ رسولٍ، فيُوحِي ذلك الرَّسولُ إلى النبيِّ الذي أُرسلَ عنه بإذنِ الله ما يَشاءُ، ولا يَجوز أَنْ يعطفَ «أو يرسل» على «أَنْ يُكلِّمه اللهُ»؛ لفساد المعنى.

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٧٥، ولم نقف على بيت عبيد في ديوانه المطبوع ولا في المصادر الأدبية التي بين أيدينا، ونَقَله عن المصنِّف الآلوسيّ في روح المعاني ٢٤/ ٣٢١.

(٢) الكشاف ٣/ ٤٧٥.

(٣) لم نقف على القراءة عند غيره، وأوردها عنه السمين في الدر ٩/ ٥٦٨، والآلوسيّ في روح المعاني ٢٤/ ٣٢٦.

وقال الزمخشريُّ: و«وحياً» و«أَنْ يُرسِل» مصدرانِ واقعانِ موقعَ الحال؛ لأنَّ «أَنْ يُرسِل» في معنى: إرسالاً، و«مِن وراء حجاب» ظرفٌ واقعٌ موقعَ الحالِ أيضاً، كقوله: ﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١]، والتقدير: وما صحَّ أَنْ يُكلِّم أحداً إلَّا مُوحياً أو مُسمِعاً مِن وراءِ حجاب، أو مُرسِلاً[1]. انتهى.

أمَّا وقوعُ المصدر موقعَ الحال فلا يَنقاس، وإنَّما يُقال منه ما قالته العرب، ولذلك لا يَجوز: جاءَ زيدٌ بكاءً، تريد: باكياً، وقاسَ منه المُبَرِّد ما كان نوعاً للفِعْل، نحو: جاء زيدٌ مشياً، أو سرعةً، ومَنَعَ سيبويه أن يَقَع «أَنْ» والفعل المقدَّر بالمصدر موقعَ الحالِ، فلا يجوز: جاء زيدٌ أَنْ يَضْحَكَ، في معنى: ضَحِكاً، الواقع موقعَ: ضاحكاً، فجعله «وحياً» مصدراً في موضع الحال ممَّا لا يَنقاس، و«أَنْ يرسل» في معنى إرسالاً الواقع موقع: مرسلاً، ممنوعٌ بنصِّ سيبويه[2].

وقرأ نافع وأهلُ المدينة: «أو يُرسِلُ رسولاً فيُوحي» بالرَّفْع فيهما[3]، فخرجَ على إضمار «هو» أي: أو هو يرسل، أو على ما يتعلَّق به «مِن وراء»، إذ تقديره: أو يُسمِع مِن وراء حجاب.

و«وَحْياً» مصدرٌ في موضع الحال، عطف عليه ذلك المقدَّر المعطوف عليه «أو يرسل»، والتقدير: إلَّا موحياً أو مسمعاً مِن وراء حجاب، أو مرسلاً،

وإسنادُ التكلّم إلى اللهِ بكونه أَرسل رسولاً ـ مجازٌ، كما تقول: نادَى المَلِكُ في الناس بكذا، وإنَّما نادى البريح[4] الدَّائر في الأسواق، نُزِّلَ ما كان بواسطةٍ منزلةَ ما كان بغيرِ واسطة.

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٧٥.

(٢) ينظر المقتضب ٣/ ٢٤٣ و٢٦٩ و٤/ ٣١٢، والكتاب ١/ ٣٩٠.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٤٣، وزاد: ابنَ عامر. وهي في رواية ابنِ ذكوان عنه، كما في النشر ٢/ ٣٦٨، ولأنَّ قراءته المشهورة عنه كقراءة الجمهور، وقراءة نافع في السبعة ص ٥٨٢، والتيسير ص ١٩٥، والنشر ٢/ ٣٦٨.

(٤) لم تُنقَط هذه اللفظة في معظم النسخ الخطية، ووقع في (ت): البريح، وفي مطبوع البحر: الريح. والمثبت هو الصواب، يقال: بَرَّح: نادى وأعلن أمراً من السلطان، و: بَرَّاح: منادٍ عامّ. تكملة المعاجم العربية لدوزي ١/ ٢٧٥-٢٧٦ (برح)، وينظر نفح الطيب ٥/ ٨٩ حيث أوردَ ضمن خبرٍ: . . . فقعد السلطانُ بقبة العرض من جنَّة المصارة، وبرز الناس وقد أسمعهم البريح، الخبر.

قال ابنُ عطيَّة: وفي هذه الآية دليلٌ على أنَّ الرسالةَ مِن أنواعِ التكليم، وأنَّ الحالفَ المُرْسِلَ حانِثٌ إذا حَلَفَ أنْ لا يُكلِّم إنساناً فأرسل إليه، وهو لم يَنْوِ المشافهَة وقتَ يمينه[١]. انتهى. «إنَّه عَلِيٌّ» عن صفاتِ المخلوقين «حكيمٌ» تَجري أفعالُه على ما تَقتضيه الحكمة، يُكلِّم بواسطة وبغيرِ واسطة.

«وكذلك أَوحينا» أي: مِثْل ذلك الإيحاء الفَصْل «أوحينا إليك» إذ كان عليه الصلاة والسلام اجتمعت له الطُّرُق الثلاث: النَّفْث في الرُّوع، والمنام، وتكليمُ اللهِ له حقيقةً ليلةَ الإسراء، وإرسال رسولٍ إليه ـ وهو جبريل ـ وقيل: كما أَوحينا إلى الأنبياء قَبْلَك «أوحينا إليكَ روحاً مِن أمرنا».

قال ابنُ عباس: النبوَّة، وقال السُّدِّيُّ: الوحي، وقال قتادة: رحمة، وقال الكلبيُّ: كتاباً، وقال الربيع: جِبريل، وقيل: القرآن، وسمّى ما أوحى إليه رُوحاً؛ لأنَّ به الحياة مِن الجهل. وقال مالك بنُ دينار: يا أَهلَ القرآن ماذا زَرَعَ القرآن في قلوبكم، فإنَّ القرآنَ ربيعُ القلوب، كما أنَّ الغيثَ ربيعُ الأرض[٢].

«ما كنت تدري ما الكتابُ ولا الإيمانُ» توقيفٌ على عِظَم المنَّة، وهو ﷺ أعلمُ الناسِ بها، وعطف «ولا الإيمان» على «ما الكتاب» وإنَّما معناه الإيمانُ الذي يُدْرِكه السمعُ؛ لأنَّ لنا أشياءَ مِن الإيمان لا تُعلَم إلَّا بالوحي، أمَّا توحيدُ الله تعالى وبَرَاءته من النقائصِ ومعرفةُ صفاته العُلَا، فجميع الأنبياءِ عليهم الصلاة والسلام عالمونَ ذلك معصومونَ أنْ يَقعَ منهم زَلَلٌ في شيء مِن ذلك، سابقٌ لهم عِلْم ذلك قَبْلَ أن يُوحى إليهم، وقد أطلق «الإيمان» على الصلاة في قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ﴾ [البقرة:١٤٣] إذ هي بعضُ ما يتناوله الإيمان، ومَن طالَعَ سِيَرَ الأنبياء مِن نَشْأَتهم إلى مَبْعَثِهم تحقَّق عنده أنَّهم معصومونَ مِن كلِّ نقيصةٍ مُوحِّدون لله منذ نَشَؤوا، قال اللهُ تعالى في حقِّ يحيى عليه السلام: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٤٤، وينظر تفسير القرطبي ١٨/ ٥٠٨، والإشراف لابن المنذر ١/ ٤٧٤.

(٢) ينظر تفسير الثعلبي ٥/ ٤٠٤، والنكت والعيون ٥/ ٢١٠، وتفسير البغوي ٤/ ١٣٢، وزاد المسير ٧/ ٢٩٨، وتفسير القرطبي ١٨/ ٥٠٩، وقول قتادة والسديّ عند الطبري ٢٠/ ٥٤٢، وقول مالك بن دينار عند أحمد في الزهد ص ٣٨٦، وأبي نعيم في حلية الأولياء ٢/ ٣٥٨.

﴿صَبِيًّا﴾ [مريم:١٢]، قال معمر: كان ابنَ سنتين أو ثلاثٍ[١]، وعن أبي العالية: «ما كنت تدري» قَبْلَ الوحي أنْ تَقْرَأَ القرآن، ولا كيفَ تدعو الخَلْقَ إلى الإيمان[٢].

وقال القاضي[٣]: «ولا الإيمان»: الفرائض والأحكام، قال: وكان قَبْلُ مؤمناً بتوحيدِ الله، ثم نزلت الفرائضُ التي لم يَكن يَدْريها قَبْلُ، فزاد بالتكليف إيماناً.

وقال القشيريُّ: يجوز إطلاقُ «الإيمان» على تفاصيلِ الشَّرْع، وقال الحسين بنُ الفَضْلِ: هو على حذفِ مضاف، أي: ولا أَهْلَ الإيمان أي: مَن الذي يُؤمِن: أبو طالب، أو العبَّاس أو غيرهما؟ وقال علي بنُ عيسى: إذ كنتَ في المهد، وقيل: «ما الكتاب» لولا إنعامنا عليك، «ولا الإيمان»: لولا هدايتنا لك[٤].

وقيل: أي: كنتَ مِن قوم أُمِّيِّينَ لا يَعرفون الإيمانَ ولا الكتابَ، فتكون أخذتَ ما جئتَهم به عمَّن كان يَعلم ذلك منهم.

«ما الكتاب» جملةٌ استفهاميَّة، مبتدأ وخبر، وهي في موضع نصب بـ«تدري»، وهي معلّقة. «ولكن جَعلناهُ نُوراً» يَحتمل أنْ يعودَ إلى قوله: «روحاً» وإلى «الكتاب» وإلى «الإيمان»، وهو أقربُ مذكور، وقال ابنُ عطيَّة: عائدٌ على «الكتاب»[٥]. انتهى.

---

(١) تفسير القرطبي ١٨/ ٥١٠، وأخرجه عنه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٤، والطبريُّ ١٥/ ٤٧٤، وأورده أيضاً القرطبيُّ ١٣/ ٤٢٣ عن قتادة، وأورد عن مقاتل أنَّه كان ابنَ ثلاث سنين، وينظر النكت والعيون ٣/ ٣٦٠، وزاد المسير ٥/ ٢١٣.

(٢) تفسير القرطبي ١٨/ ٥١٤، وينظر تفسير الثعلبي ٥/ ٤٠٤، وزاد المسير ٧/ ٢٩٨، وأورد الكلام السمرقنديُّ في تفسيره ٣/ ٢٠١ ولم ينسبه.

(٣) أي: بكر بن العلاء القشيري، من قضاة المالكية، والكلام من تفسير القرطبي ١٨/ ٥١٤ نقلاً عن القاضي عياض في كتابه الشفا ٢/ ٢٦٦، وينظر أيضاً شرحه للملا عليّ القاري ٢/ ١٧٧ و٢٠٧.

(٤) تفسير القرطبي ١٨/ ٥١٤-٥١٥، وينظر تفسير الثعلبي ٥/ ٤٠٤، والنكت والعيون ٥/ ٢١٢، وشرح الشفا ٢/ ٢٠٥، ويعني بالقشيري: الأستاذ عبد الكريم بن هوازن، أو: ولده عبد الرحيم. كما في شرح الشفا، والكلام في لطائف الإشارات لعبد الكريم بن هوازن ٣/ ٣٦٠ بنحوه.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٤٤.

وقيل: يعود إلى «الكتاب» و«الإيمان» معاً؛ لأنَّ مقصدهما واحد، فهو نظير: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢].

وقرأ الجمهور: «لَتهْدِي» مضارع: هَدَى، مبنيًّا للفاعل، وحوشب: مبنيًّا للمفعول[١]، فهو إجابةُ سؤالِه عليه الصلاة والسلام: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، وقرأ ابنُ السَّمَيْفَع: «لتُهْدِي» بضمِّ التاء وكسر الدالِ، وعن الجحدريِّ مِثْلها، ومِثْل قراءةِ حوشب[٢].

«صراط مستقيم» قال عليٌّ: هو القرآنُ، وقيل: الإسلام[٣].

«أَلَا إلى اللهِ تَصيرُ الأمور» أَخبر بالمضارع والمرادُ به الديمومة، كقولك: زَيدٌ يُعطِي ويَمنَع، أي: مِن شأنه ذلك، ولا يُراد به حقيقة المستقبل؛ إذ جميع الأمور صائرة على الدوام إليه، وقيل: المراد به المستقبل، أي: تَرِدُ جميعُ أمورِ الخَلْقِ إليه تعالى يومَ القيامة، فيقضي بينهم بالعَدْل، وخصّ ذلك بيوم القيامة؛ لأنَّه لا يُمكِن لأحدٍ أَنْ يَدَّعي فيه لنفسه شيئاً.

---

(١) أي: «لتُهْدَى». المصدر السابق، وتفسير القرطبي ١٨/ ٥١٦، وزادَ نسبتها لعاصم الجحدري في رواية، وهي عنه في النكت والعيون ٥/ ٢١٣، وعنهما في القراءات الشاذة ص ١٣٤، ورُسمت في مطبوعه هكذا: «لتُهْدى» دون الإشارة إلى الحرف الأخير، هل هو ياء، فتكون: «لتُهْدِي»، أم ألف مقصورة، فتكون: «لتُهْدَى»؟ وينظر الكشاف ٣/ ٤٧٦، والقراءة الآتية والتي بعدها، مع الإشارة إلى أنَّ القراءة وردت في الدر المصون ٩/ ٥٦٨، واللباب ١٧/ ٢٢٤ عن ابنِ حوشب، وليس عن: حوشب. وابن حوشب هو: شَهْر.
وأمَّا حوشب: فلعلَّه: ابن عقيل الجَرْمي أبو دحية البصري، روى عن الحسن البصري وابن جريج وغيرهما، وعنه: زيد بن الحُباب وسليمان بن حرب وسليمان الطيالسي وغيرهم، ولعلَّه: ابن مسلم الثقفي مولى الحجَّاج، روى عن الحسن البصري، وعنه: جعفر بن سليمان الضبعي وشعبة بن الحجاج وغيرهما. تهذيب الكمال. والله تعالى أعلم بالمراد.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٤٤، وينظر التعليق السابق.

(٣) تفسير القرطبي ١٨/ ٥١٦، وينظر النكت والعيون ٥/ ٢١٣، وفيه أن القول الثاني رواه النواس بن سمعان، عن النبيّ ﷺ، وهو عند أحمد (١٧٦٣٤)، وينظر خبر علي المرفوع عند الترمذي (٢٩٠٦)، وأحمد (٧٠٤).

(٤٢) سورة الشورى مكية
وآياتها ثلاث وخمسون

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴿٦﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة، وقوله عزّ وجلّ: ﴿ كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم﴾ أي كما أنزل إليك هذا القرآن كذلك أنزل على الأنبياء قبلك، وقوله تعالى: ﴿ الله العزيز﴾ أي في انتقامه، ﴿ الحكيم﴾ في أقواله وأفعاله، عن عائشة رضي الله عنها قالت: إن (الحارث بن هشام) سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت ما قال، وأحياناً يأتيني الملَك رجلاً، فيكلمني فأعي ما يقول». قالت عائشة رضي الله عنها: فلقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه، وإن جبينه ﷺ ليتفصد عرقاً»[١] وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: سألت رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله هل تحس بالوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أسمع صلاصل، ثم أسكت عند ذلك، فما من مرة يوحى إليَّ إلا ظننت أن نفسي تقبض»[٢]. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ له ما في السماوات وما في الأرض﴾ أي الجميع عبيد له وملك له تحت قهره وتصريفه ﴿وهو العلي العظيم﴾ كقوله تعالى: ﴿ وهو الكبير المتعال﴾، ﴿ وهو العلي الكبير﴾، والآيات في هذا كثيرة. وقوله عزّ وجلّ: ﴿ تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن﴾ قال ابن عباس والسدي: أي فَرَقاً من العظمة، ﴿ والملائكة يسبِّحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض﴾ كقوله عزّ وجلّ: ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم

---

(١) أخرجاه في الصحيحين واللفظ للبخاري. ومعنى يتفصد: أي يتصبب عرقاً. (٢) أخرجه الإمام أحمد.

ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً﴾، وقوله جلّ جلاله: ﴿ألا إن الله هو الغفور الرحيم﴾ إعلام بذلك وتنويه به، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء﴾ يعني المشركين ﴿الله حفيظ عليهم﴾ أي شهيد على أعمالهم يحصيها ويعدها عداً، وسيجزيهم بها أوفر الجزاء، ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾ أي إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾﴾

يقول تعالى: وكما أوحينا إلى الأنبياء قبلك ﴿أوحينا إليك قرآناً عربياً﴾ أي واضحاً جلياً بيّناً ﴿لتنذر أم القرى﴾ وهي مكة، ﴿ومن حولها﴾ أي من سائر البلاد شرقاً وغرباً؛ وسميت مكة (أم القرى) لأنها أشرف من سائر البلاد لأدلة كثيرة منها قول رسول الله ﷺ: «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت»[١]. وقوله عزّ وجلّ: ﴿وتنذر يوم الجمع﴾ وهو يوم القيامة يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، وقوله تعالى: ﴿لا ريب فيه﴾ أي لا شك في وقوعه وأنه كائن لا محالة، ﴿فريق في الجنة وفريق في السعير﴾، كقوله تعالى: ﴿يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن﴾ أي يغبن أهل الجنة أهل النار، وكقوله عزّ وجل: ﴿يوم يأتي لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد﴾. روى الإمام أحمد، عن عبد الله ابن عمرو رضي الله عنهما قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان، فقال: «أتدرون ما هذان الكتابان؟» قلنا: لا، إلا أن تخبرنا يا رسول الله، قال ﷺ للذي في يمينه: «هذا كتاب من رب العالمين بأسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً، ثم قال ﷺ للذي في يساره: «هذا كتاب أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم»، ثم أجمل على آخرهم لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فلأي شيء نعمل إن كان هذا أمر قد فرغ منه؟ قال رسول الله ﷺ: «سدّدوا وقاربوا، فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة وإن عمل أي عمل، وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار وإن عمل أي عمل»، ثم قال ﷺ بيده فقبضها، ثم قال: «فرغ ربكم عزّ وجل من العباد، ثم قال باليمنى فنبذ بها فقال: فريق في الجنة، ونبذ باليسرى وقال: فريق في السعير»[٢]

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة﴾ أي إما على الهداية أو على الضلالة، ولكنه تعالى فاوت بينهم، فهدى من يشاء إلى الحق، وأضل من يشاء عنه، وله الحكمة والحجة البالغة، ولهذا قال عزّ وجلّ: ﴿ولكن يدخل من يشاء في رحمته والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير﴾ وقال ابن جرير: إن موسى عليه الصلاة

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجة، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) أخرجه أحمد والترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حسن صحيح غريب.

والسلام قال: يا رب خلقك الذين خلقتهم، جعلت منهم فريقاً في الجنة وفريقاً في النار، لو ما أدخلتهم كلهم الجنة؟ فقال: يا موسى ارفع درعك، فرفع، قال: قد رفعت، قال: ارفع، فرفع، فلم يترك شيئاً، قال: يا رب قد رفعت، قال: ارفع، قال: قد رفعت، إلا ما لا خير فيه، قال: كذلك أدخل خلقي كلهم الجنة إلا ما لا خير فيه(١).

أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾

يقول تعالى منكراً على المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله، ومخبراً أنه الولي الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده، فإنه هو القادر على إحياء الموتى، وهو على كل شيء قدير، ثم قال عزّ وجل: ﴿وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله﴾ أي مهما اختلفتم فيه من الأمور، وهذا عام في جميع الأشياء ﴿فحكمه إلى الله﴾ أي هو الحاكم فيه بكتابه وسنة نبيّه ﷺ، كقوله جلّ وعلا: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾، ﴿ذلكم الله ربي﴾ أي الحاكم في كل شيء، ﴿عليه توكلت وإليه أنيب﴾ أي أرجع في جميع الأمور. وقوله جل جلاله: ﴿فاطر السماوات والأرض﴾ أي خالقهما وما بينهما ﴿جعل لكم من أنفسكم أزواجاً﴾ أي من جنسكم وشكلكم، منّة عليكم وتفضلاً، جعل من جنسكم ذكراً وأنثى، ﴿ومن الأنعام أزواجاً﴾ أي وخلق لكم من الأنعام ثمانية أزواج، وقوله تبارك وتعالى ﴿يذرؤكم فيه﴾ أي يخلقكم فيه على هذه الصفة، لا يزال يذرؤكم فيه ذكوراً وإناثاً خلقاً من بعد خلق، وجيلاً بعد جيل، وقال البغوي ﴿يذرؤكم﴾ أي في الرحم، وقيل: في هذا الوجه من الخلقة، قال مجاهد: نسلاً بعد نسل من الناس والأنعام. وقيل: «في» بمعنى الباء، أي يذرؤكم به، ﴿ليس كمثله شيء﴾ أي ليس كخالق الأزواج كلها شيء، لأنه الفرد الصمد الذي لا نظير له ﴿وهو السميع البصير﴾، وقوله تعالى: ﴿له مقاليد السماوات والأرض﴾ تقدم تفسيره في سورة الزمر، وحاصل ذلك أنه المتصرف الحاكم فيهما، ﴿يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ أي يوسع على من يشاء ويضيّق على من يشاء، وله الحكمة والعدل التام. ﴿إنه بكل شيء عليم﴾.

* شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ

(١) أخرجه ابن جرير من حديث عمرو بن أبي سويد.

مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾

يقول تعالى لهذه الأمة : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى بـه نوحاً والذي أوحينا إليك ﴾ ، فذكر أول الرسل بعد آدم وهو (نوح) عليه السلام ، وآخرهم وهو (محمد) ﷺ ، ثم ذكر من بـين ذلك من أولي العزم ، وهو : إبراهيم وموسى وعيسى بن مريم ، وهـذه الآية انتظمت ذكر الخمسة ، كما اشتملت آية الأحزاب عليهم في قوله تبارك وتعالى : ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم ﴾ الآية ، والدين الذي جاءت بـه الرسل كلهم ، هو عبادة الله وحده لا شريك له ، كما قال عزّ وجلّ : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إلٰه إلا أنا فاعبدون ﴾ ، وفي الحديث : « نحن معشر الأنبياء أولاد علّات ، ديننا واحد » أي القدر المشترك بينهم هو عبادة الله وحـده لا شريك له ، وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم ، كقوله جلّ جلاله : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾ ، ولهـذا قال تعالى ههنا : ﴿ أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ أي أوصى الله تعالى جميع الأنبياء عليهم السلام بالائتلاف والجماعة ، ونهاهم عن الافتراق والاختلاف . وقوله عزّ وجلّ : ﴿ كبر على المشركين مـا تدعوهم إليه ﴾ أي شق عليهم ، وأنكروا ما تدعوهم إليه يا محمد من التوحيد ، ثم قـال جلّ جلاله : ﴿ الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب ﴾ أي هو الذي يقدر الهـداية لمن يستحقها ، ويكتب الضلالة على من آثرهـا على طريق الرشد ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم ﴾ أي إنمـا كان مخالفتهم للحق بعد بلوغه إليهم ، وقيـام الحجة عليهم ، وما حملهم على ذلك إلا البغي والعناد ، ثم قال عزّ وجلّ : ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى ﴾ أي لولا الكلمة السالفة من الله تعالى بإنظار العباد إلى يوم المعاد ، لعجّل عليهم العقوبة في الدنيا سريعاً ، وقوله جلت عظمته : ﴿ وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم ﴾ يعني الجيل المتأخر بعد القرن الأول المكذب للحق ﴿ لفي شك منه مريب ﴾ أي ليسوا على يقين من أمرهم وإيمانهم ، وإنما هم مقلدون لآبائهم وأسلافهم ، بلا دليل ولا برهان ، وهم في حيرة من أمرهم ، وشك مريب وشقاق بعيد .

۞ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستقلات ، كل منها منفصلة عن التي قبلها ، حكم برأسها ، قالوا : ولا نظير لهـا سوى آية الكرسي ، فإنهـا أيضاً عشرة فصول كهذه ، وقوله ﴿ فلذلك فادع ﴾ أي فللذي أوحينا إليك من الدين الذي وصينا بـه جميع المرسلين قبلك ، أصحاب الشرائع المتبعة ، فادع الناس إليه . وقولـه عزّ وجلّ : ﴿ واستقم كما أمرت ﴾ أي واستقم أنت ومن اتبعك على عبادة الله تعالى ، كما أمركم الله عزّ وجل . وقوله تعالى : ﴿ ولا تتبع أهواءهم ﴾ يعني المشركين فيما اختلفوه فيه وكذبوه وافتروا من عبـادة الأوثان . وقولـه

جلّ وعلا: ﴿وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب﴾ أي صدقت بجميع الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء لا نفرق بين أحد منهم. وقوله: ﴿وأمرت لأعدل بينكم﴾ أي في الحكم كما أمرني الله. وقوله جلّت عظمته ﴿الله ربنا وربكم﴾ أي هو المعبود لا إلّه غيره فنحن نقر بذلك اختياراً، وأنتم وإن لم تفعلوه اختياراً فله يسجد من في العالمين طوعاً وإجباراً. وقوله تبارك وتعالى: ﴿لنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾ أي نحن برآء منكم. قال سبحانه وتعالى: ﴿وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون﴾، وقوله تعالى: ﴿لا حجة بيننا وبينكم﴾ قال مجاهد: أي لا خصومة. قال السدي: وذلك قبل نزول آية السيف، وهذا متجه، لأن هذه الآية مكية وآية السيف بعد الهجرة، وقوله عزّ وجلّ: ﴿الله يجمع بيننا﴾ أي يوم القيامة كقوله: ﴿قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم﴾. وقوله جلّ وعلا: ﴿وإليه المصير﴾ أي المرجع والمآب يوم الحساب.

وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾

يقول تعالى متوعداً الذين يصدون عن سبيل الله من آمن به ﴿والذين يحاجون في الله من بعدما استجيب له﴾ أي يجادلون المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله، ليصدوهم عما سلكوه من طريق الهدى ﴿حجتهم داحضة عند ربهم﴾ أي باطلة عند الله ﴿وعليهم غضب﴾ أي منه ﴿ولهم عذاب شديد﴾ أي يوم القيامة، قال ابن عباس ومجاهد: جادلوا المؤمنين بعد ما استجابوا لله ولرسوله، ليصدوهم عن الهدى، وطمعوا أن تعود الجاهلية، وقال قتادة: هم اليهود والنصارى قالوا لهم: ديننا خير من دينكم، ونبينا قبل نبيكم، ونحن خير منكم وأولى بالله منكم، وقد كذبوا في ذلك. ثم قال تعالى: ﴿الله الذي أنزل الكتاب بالحق﴾ يعني الكتب المنزلة من عنده على أنبيائه، ﴿والميزان﴾ وهو العدل والإنصاف، وهذه كقوله تعالى: ﴿وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾، وقوله: ﴿ألا تطغوا في الميزان ٭ وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان﴾. وقوله تعالى: ﴿وما يدريك لعل الساعة قريب﴾ فيه ترهيب منها. وتزهيد في الدنيا، وقوله عزّ وجلّ: ﴿يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها﴾ أي يقولون متى هذا الوعد؟ وإنما يقولون ذلك تكذيباً واستبعاداً وكفراً وعناداً، ﴿والذين آمنوا مشفقون منها﴾ أي خائفون وجلون من وقوعها ﴿ويعلمون أنها الحق﴾ أي كائنة لا محالة، فهم مستعدون لها عاملون من أجلها، وقد روي أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ بصوت جهوري، وهو في بعض أسفاره، فناداه، فقال يا محمد، فقال له رسول الله ﷺ، نحواً من صوته: «هاؤم»، فقال له: متى الساعة؟ فقال رسول الله ﷺ: «ويحك إنها كائنة فما أعددت لها؟» فقال: حب الله ورسوله، فقال ﷺ: «أنت مع من أحببت»[1]، فقوله في الحديث: «المرء مع

(١) أخرجه أصحاب السنن والمسانيد وله طرق تبلغ درجة التواتر كما قال ابن كثير.

من أحب » هذا متواتر ، والغرض أنه لم يجبه عن وقت الساعة بل أمره بالاستعداد لها ، وقوله تعالى: ﴿ ألا إن الذين يمارون في الساعة ﴾ أي يجادلون في وجودها. ويدفعون وقوعها ﴿ لفي ضلال بعيد ﴾ أي في جهل بيّن، لأن الذي خلق السماوات والأرض، قادر على إحياء الموتى بطريق الأولى والأحرى، كما قال تعالى: ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ .

ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن لطفه بخلقه في رزقه إياهم سواء منهم البر والفاجر ، كقوله عزّ وجلّ: ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴾ الآية، وقوله جل وعلا: ﴿ يرزق من يشاء ﴾ أي يوسع على من يشاء ﴿ وهو القوي العزيز ﴾ أي لا يعجزه شيء، ثم قال تعالى: ﴿ من كان يريد حرث الآخرة ﴾ أي عمل الآخرة ﴿ نزد له في حرثه ﴾ أي نقويه ونعينه على ما هو بصدده، ونجزيه بالحسنة عشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى ما يشاء الله، ﴿ ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب ﴾ أي ومن كان سعيه ليحصل له شيء من الدنيا. وليس له إلى الآخرة هم بالكلية، حرمه الله الآخرة وفاز بالصفقة الخاسرة في الدنيا والآخرة، كقوله تبارك وتعالى: ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً ﴾، وفي الحديث : « بشر هـذه الأمة بالسناء والرفعة والنصر ، والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب »[1] وقوله جل وعلا: ﴿ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ﴾ أي هم لا يتبعون ما شرع الله لك من الدين القويم، بل يتبعون ما شرع لهم شياطينهم من الجن والإنس، من تحريم ما حرموا عليهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وتحليل أكل الميتة والدم والقمار ، إلى نحو ذلك من الضلالات والجهالات الباطلة، وقـد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: « رأيت عمرو بن لحي يجر قصبه[2] في النار »، لأنه أول من سيّب السوائب، وكان هذا الرجل أحد ملوك خزاعة، وهو أول من فعل هذه الأشياء ، وهو الذي حمل قريشاً على عبادة الأصنام لعنه الله وقبحه، ولهـذا قال تعالى: ﴿ ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم ﴾ أي لعوجلوا بالعقوبة لولا ما تقـدم من الإنظار إلى يوم المعاد، ﴿ وإن الظـالمين لهم عذاب أليم ﴾ أي شديد موجع في جهنم وبئس المصير ، ثم قال تعالى: ﴿ ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا ﴾ أي في عرصات القيامة ﴿ وهو واقع بهم ﴾

(١) رواه الثوري عن أبي العالية عن أبي بن كعب مرفوعاً .

(٢) قصبه : أي أمعاءه .

أي الذي يخافون منه واقع بهم لا محالة، هذا حالهم يوم معادهم ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم ما يشاؤون عند ربهم﴾ فأين هذا من هذا؟ أين من هو في الذل والهوان، ممن هو في روضات الجنان، فيما يشاء من مآكل ومشارب وملاذ، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر؟ ولهذا قال تعالى: ﴿ذلك هو الفضل الكبير﴾ أي الفوز العظيم والنعمة التامة، الشاملة العامة.

ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾

يقول تعالى لما ذكر روضات الجنات، لعباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي هذا حاصل لهم كائن لا محاله، ببشارة الله تعالى لهم به، وقوله عزّ وجلّ: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين من كفار قريش، لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح مالاً، وإنما أطلب أن تذروني أبلغ رسالات ربي، فلا تؤذوني بما بيني وبينكم من القرابة، روى البخاري، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل عن قوله تعالى ﴿إلا المودة في القربى﴾ فقال سعيد بن جبير: قربى آل محمد، فقال ابن عباس: عَجِلْتَ إن النبي ﷺ: لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة، فقال: إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة»[1]. وروى الحافظ الطبراني، عن ابن عباس قال، قال لهم رسول الله ﷺ: «لا أسألكم عليه أجراً إلا أن تودوني في نفسي لقرابتي منكم، وتحفظوا القرابة بيني وبينكم»[2]. وروى الإمام أحمد، عن مجاهد، عن ابن عباس: «لا أسألكم على ما آتيتكم من البينات والهدى أجراً إلا أن توادوا الله تعالى، وأن تقربوا إليه بطاعته»، وهذا كأنه تفسير بقول ثان، كأنه يقول: إلا المودة في القربى، أي إلا أن تعملوا بالطاعة التي تقربكم عند الله زلفى، وقول ثالث وهو ما حكاه البخاري عن سعيد بن جبير أنه قال: معنى ذلك أن تودوني في قرابتي، أي تحسنوا إليهم وتبروهم، قال السدي: لما جيء بعلي بن الحسين رضي الله عنه أسيراً، فأقيم على درج دمشق، قام رجل من أهل الشام فقال: الحمد لله الذي قتلكم، واستأصلكم، وقطع قرن الفتنة، فقال له علي بن الحسين رضي الله عنه: أقرأت القرآن؟ قال: نعم، قال: أقرأت آل حم؟ قال: قرأت القرآن ولم أقرأ آل حم، قال: ما قرأت: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾؟ قال: وإنكم لأنتم هم؟ قال: نعم»[3]. والحق تفسير هذه الآية بما فسرها به حبر الأمة وترجمان القرآن، عبد الله بن عباس رضي

(١) أخرجه البخاري، وبقول ابن عباس قال مجاهد وعكرمة وقتادة والسدي.

(٢) أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس.

(٣) ذكره ابن جرير وعلى هذا القول المراد بالقربى قرابة النبي ﷺ.

الله عنهما، كما رواه عنه البخاري، ولا ننكر الوصية بأهل البيت، والأمر بالإحسان إليهم، واحترامهم وإكرامهم، فإنهم من ذرية طاهرة، من أشرف بيت وجد على وجه الأرض، فخراً وحسباً ونسباً.

وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال في خطبته بغدير خم: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي، وإنهما لم يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض»، وفي الصحيح أن الصديق رضي الله عنه قال لعلي رضي الله عنه: والله لقرابة رسول الله ﷺ أحب إليّ أن أصل من قرابتي، وقال عمر بن الخطاب للعباس رضي الله عنهما: والله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إليّ من إسلام الخطاب لو أسلم، لأن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطّاب. وروى الإمام أحمد، عن يزيد بن حيان قال: انطلقت أنا والحصين بن ميسرة وعمر بن مسلم إلى زيد بن أرقم رضي الله عنه، فلما جلسنا إليه قال حصين: لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً: رأيت رسول الله ﷺ وسمعت حديثه وغزوت معه وصلّيت معه. لقد رأيت يا زيد خيراً كثيراً، حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي لقد كبر سني، وقدم عهدي، ونسيت بعض الذي كنت أعي من رسول الله ﷺ. فما حدثتكم فاقبلوه، وما لا فلا تكلفونيه، ثم قال رضي الله عنه: قام رسول الله ﷺ يوماً خطيباً فينا بماء يدعى خماً بين مكة والمدينة، فحمد الله تعالى وأثنى عليه، وذكّر ووعظ، ثم قال ﷺ: «أما بعد أيها الناس إنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب، وإني تارك فيكم الثقلين، أولهما كتاب الله تعالى فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به» فحث على كتاب الله ورغب فيه. وقال ﷺ: «وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي»، فقال له حصين: ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: إن نساءه لسن من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرم عليه الصدقة بعده، قال: ومن هم؟ قال: هم آل علي، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل العباس رضي الله عنهم، قال: كل هؤلاء حرم الله عليه الصدقة؟ قال: نعم»[1]. وروى الترمذي، عن زيد ابن أبي أرقم رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي. أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، والآخر عترتي أهل بيتي ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما»[2]. وروى الترمذي أيضاً. عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: رأيت رسول الله ﷺ في حجته يوم عرفة وهو على ناقته القصواء يخطب فسمعته يقول: «يا أيها الناس إني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا كتاب الله وعترتي أهل بيتي»[3]

وقوله عزّ وجلّ: ﴿ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً﴾ أي ومن يعمل حسنة ﴿نزد له فيها حسناً﴾ أي أجراً وثواباً، كقوله تعالى: ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾، وقوله تعالى: ﴿إن الله غفور شكور﴾، أي يغفر الكثير من السيئات، ويكثر القليل من الحسنات، فيستر ويغفر ويضاعف فيشكر، وقوله جل وعلا: ﴿أم يقولون افترى على الله كذباً فإن يشأ يختم على قلبك﴾ أي لو افتريت

---

(١) أخرجه أحمد ومسلم والنسائي.

(٢) أخرجه الترمذي وقال: حسن غريب.

(٣) أخرجه الترمذي أيضاً وقال: حسن غريب.

عليه كذباً كما يزعم هؤلاء الجاهلون ﴿ يختم على قلبك ﴾ ويسلبك ما كان آتاك من القرآن، كقوله جلّ جلاله: ﴿ ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا عنه الوتين * فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾، أي لانتقمنا منه أشد الانتقام، وما قدر أحد من الناس أن يحجز عنه . وقوله جلّت عظمته: ﴿ ويمح الله الباطل ﴾ مرفوع على الابتداء وحذفت من كتابته الواو في رسم مصحف الإمام كما حذفت في قوله : ﴿ سندع الزبانية ﴾، وقوله عزّ وجلّ ﴿ ويحق الحق بكلماته ﴾ أي يحققه ويثبته ويبينه ويوضحه ﴿ بكلماته ﴾ أي بحججه وبراهينه، ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ أي بما تكنه الضمائر ، وتنطوي عليه السرائر .

* وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ * وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾

يقول تعالى ممتناً على عباده بقبول توبتهم إذا تابوا ورجعوا إليه، أنه من كرمه وحلمه يعفو ويصفح ، ويستر ويغفر ، كقوله عزّ وجلّ: ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾ ، وقد ثبت في صحيح مسلم، عن أنس بن مالك قال، قال رسول الله ﷺ : « للهُ تعالى أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كانت راحلته بأرض فلاة ، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها وقد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح » ، وقوله عزّ وجلّ: ﴿ ويعفو عن السيئات ﴾ أي يقبل التوبة في المستقبل ويعفو عن السيئات في الماضي، ﴿ ويعلم ما تفعلون ﴾ أي هو عالم بجميع ما فعلتم وصنعتم وقلتم، ومع هذا يتوب على من تاب إليه، وقوله تعالى: ﴿ ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ قال السدي : يعني يستجيب لهم ، أي الدعاء لأنفسهم ولأصحابهم وإخوانهم، ﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ أي يستجيب دعاءهم ويزيدهم فوق ذلك، حدثنا محمد بن المصفى، حدثنا بقية، حدثنا إسماعيل بن عبدالله الكِنْدي، حدثنا الأعمش عن شقيق عن عبدالله رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ « في قوله تعالى: ﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ قيل : الشفاعة لمن وجبت له النار ممن صنع إليهم معروفاً في الدنيا » وقال إبراهيم النخعي في قوله عزّ وجلّ: ﴿ ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ قال: يشفعون في إخوانهم، ﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ قال: يشفعون في إخوان إخوانهم ، وقوله عزّ وجل: ﴿ والكافرون لهم عذاب شديد ﴾ لما ذكر المؤمنين وما لهم من الثواب الجزيل ذكر الكافرين وما لهم عنده يوم القيامة من العذاب الشديد الموجع المؤلم يوم معادهم وحسابهم .

وقوله تعالى : ﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ﴾ أي لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق لحملهم ذلك على البغي والطغيان، من بعضهم على بعض أشراً وبطراً، وقال قتادة: وكان يقال خير العيش ما لا يلهيك ولا يطغيك ، وذكر قتادة حديث: « إنما أخاف عليكم ما يخرج الله تعالى من زهرة الحياة الدنيا » ،

وقوله عزّ وجل: ﴿ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير﴾ أي ولكن يرزقهم من الرزق ما يختاره، مما فيه صلاحهم وهو أعلم بذلك، فيغني من يستحق الغنى، ويفقر من يستحق الفقر، كما جاء في الحديث المروي[1]: «إن من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه». وقوله تعالى: ﴿وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا﴾، أي من بعد يأس الناس من نزول المطر، ينزله عليهم في وقت حاجتهم وفقرهم إليه، كقوله عزّ وجلّ: ﴿وإن كانوا من قبل أن ينزّل عليهم من قبله لمبلسين﴾، وقوله جلّ جلاله: ﴿وينشر رحمته﴾ أي يعم بها الوجود على أهل ذلك القطر وتلك الناحية. قال قتادة: ذكر لنا أن رجلاً قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين قحط المطر، وقنط الناس، فقال عمر رضي الله عنه: مطرتم، ثم قرأ: ﴿وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد﴾ أي هو المتصرف لخلقه بما ينفعهم في دنياهم وأخراهم، وهو المحمود العاقبة في جميع ما يقدره ويفعله.

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾

يقول تعالى: ﴿ومن آياته﴾ الدالة على عظمته وقدرته العظيمة وسلطانه القاهر ﴿خلق السماوات والأرض وما بث فيهما﴾، أي ذرأ فيهما، أي في السماوات والأرض ﴿من دابة﴾، وهذا يشمل الملائكة والإنس والجن وسائر الحيوانات، على اختلاف أشكالهم وألوانهم ولغاتهم وطباعهم وأجناسهم وأنواعهم، وقد فرقهم في أرجاء أقطار السماوات والأرض، ﴿وهو﴾ مع هذا كله ﴿على جمعهم إذا يشاء قدير﴾ أي يوم القيامة يجمع الأولين والآخرين وسائر الخلائق في صعيد واحد، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، فيحكم فيهم بحكمه العدل الحق، وقوله عزّ وجلّ: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾ أي مهما أصابكم أيها الناس من المصائب، فإنما هي عن سيئات تقدمت لكم ﴿ويعفو عن كثير﴾ أي من السيئات فلا يجازيكم عليها بل يعفو عنها، ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة﴾. وفي الحديث الصحيح: «والذي نفسي بيده ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن إلا كفر الله عنه بها من خطاياه حتى الشوكة يشاكها». وعن أبي جحيفة قال: دخلت على (علي بن أبي طالب) رضي الله عنه فقال: ألا أحدثكم بحديث ينبغي لكل مؤمن أن يعيه؟ قال، فسألناه، فتلا هذه الآية: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾ قال: ما عاقب الله تعالى به في الدنيا، فالله أحلم من أن يثني عليه العقوبة يوم القيامة، وما عفا الله عنه في الدنيا، فالله أكرم من أن يعود في عفوه يوم القيامة»[2]. وروى الإمام أحمد، عن عائشة رضي الله عنها قالت، قال رسول الله ﷺ: «إذا

(١) المراد بالحديث المروي أي المحكي عن الله عزّ وجلّ وهو المشهور بالحديث القدسي.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم موقوفاً، ورواه مرفوعاً من وجه آخر.

كثرت ذنوب العبد ولم يكن له ما يكفرها ابتلاه الله تعالى بالحزن ليكفرها »[١] . وقال الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ قال: لما نزلت قال: رسول الله ﷺ : « والذي نفس محمد بيده ما من خدش عود، ولا اختلاج عرق، ولا عثرة قدم، إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر »[٢] . وعن الضحّاك قال: ما نعلم أحداً حفظ القرآن ثم نسيه إلا بذنب، ثم قرأ: ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ ، ثم قال الضحّاك: وأي مصيبة أعظم من نسيان القرآن ؟

۞ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾

يقول تعالى : ومن آياته الدالة على قدرته الباهرة وسلطانه، تسخيره البحر لتجري فيه الفلك بأمره ﴿ كالأعلام ﴾ أي كالجبال، أي هذه في البحر كالجبال في البر، ﴿ إن يشأ يسكن الريح ﴾ أي التي تسير في البحر بالسفن، لو شاء لسكنها حتى لا تتحرك السفن بل تبقى راكدة لا تجيء ولا تذهب، بل واقفة ﴿ على ظهره ﴾ أي على وجه الماء، ﴿ إن في ذلك لآيات لكل صبار ﴾ أي في الشدائد ﴿ شكور ﴾ أي في الرخاء . وقوله عزّ وجلّ ﴿ أو يوبقهن بما كسبوا ﴾ أي ولو شاء لأهلك السفن وغرقها، بذنوب أهلها الذين هم راكبون فيها، ﴿ ويعف عن كثير ﴾ أي من ذنوبهم، ولو آخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك كل من ركب البحر، وقال بعض علماء التفسير ﴿ أو يوبقهن بما كسبوا ﴾ أي لو شاء لأرسل الريح قوية عاتية، فأخذت السفن وأحالتها عن سيرها المستقيم، فصرفتها ذات اليمين أو ذات الشمال، آبقة لا تسير على طريق ولا إلى جهة مقصد، وهذا القول يتضمن هلاكها وهو مناسب للأول، وهو أنه تعالى لو شاء لسكن الريح فوقفت، أو لقوّاه فشردت وأبقت وهلكت، ولكن من لطفه ورحمته أنه يرسله بحسب الحاجة كما يرسل المطر بقدر الكفاية، ولو أنزله كثيراً جداً لهدم البنيان، أو قليلاً لما أنبت الزرع والثمار. حتى إنه يرسل إلى مثل (بلاد مصر) سيحاً من أرض أخرى غيرها. لأنهم لا يحتاجون إلى مطر، ولو أنزل عليهم لهدم بنيانهم وأسقط جدرانهم، وقوله تعالى: ﴿ ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص ﴾ أي لا محيد لهم عن بأسنا ونقمتنا، فإنهم مقهورون بقدرتنا

فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾

يقول تعالى محقراً لشأن الحياة الدنيا وزينتها، وما فيها من الزهرة والنعيم الفاني بقوله تعالى: ﴿ فما أوتيتم من

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند . (٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن الحسن البصري مرسلاً .

شيء فمتاع الحياة الدنيا﴾ أي مهما حصلتم وجمعتم فلا تغتروا بـه، فإنما هو متاع الحياة الدنيا، وهي دار دنيئة فانية زائلة لا محـالة، ﴿وما عند الله خير وأبقى﴾ أي وثواب الله تعالى خير من الدنيا وهو باق سرمدي، فلا تقدموا الفاني على الباقي، ولهـذا قال تعالى ﴿للذين آمنوا﴾ أي للذين صبروا على ترك الملاذ في الدنيا ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ أي ليعينهم على الصبر في أداء الواجبات وترك المحرمات. ثم قال تعالى: ﴿والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش﴾ وقد قدمنا الكلام على الاثم والفواحش في سورة الأعراف، ﴿وإذا ما غضبوا هم يغفرون﴾ أي سجيتهم تقتضي الصفح والعفو عن الناس، وقد ثبت في الصحيح: «أن رسول الله ﷺ ما انتقم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمات الله». وفي حديث آخر كان يقول لأحدنا عند المعتبة: «ما له تربت يمينه»، وقوله عزّ وجلّ: ﴿والذين استجابوا لربهم﴾ أي اتبعوا رسله وأطاعوا أمره واجتنبوا زجره، ﴿وأقاموا الصلاة﴾ وهي أعظم العبادات لله عزّ وجلّ، ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾ أي لا يبرمون أمراً حتى يتشاوروا فيه، ليتساعدوا بآرائهم في مثل الحروب وما جرى مجراها، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وشاورهم في الأمر﴾ الآية، ولهذا كان ﷺ يشاورهم في الحروب ونحوها ليطيب بذلك قلوبهم، ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ وذلك بالإحسان إلى خلق الله الأقرب إليهم منهم فالأقرب، وقوله عزّ وجلّ: ﴿والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون﴾ أي فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم واعتدى عليهم، ليسوا بالعاجزين ولا الأذلين، بل يقدرون على الانتقام ممن بغى عليهم، وإن كانوا مع هذا إذا قدروا عفوا، كما عفا رسول الله ﷺ عن أولئك النفر الثمانين الذين قصدوه عـام الحديبية، وكذلك عفوه ﷺ عن (غورث بن الحارث) الذي أراد الفتك بـه حين اخترط سيفه وهو نائم، وكذلك عفا ﷺ عن (لبيد بن الأعصم) الذي سحره عليه السلام، ومع هذا لم يعرض له ولا عاتبه مع قدرته عليه؛ والأحاديث والآثار في هذا كثيرة جداً والله سبحانه وتعالى أعلم.

۞ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤٣﴾

قوله تبارك وتعالى: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ كقوله تعالى: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾، وكقوله ﴿وإن عـاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾ الآية فشرع العدل وهو (القصاص) ونـدب إلى الفضل وهو ﴿العفو﴾ كقوله جلّ وعلا: ﴿والجروح قصاص فمن تصدق بـه فهو كفارة له﴾، ولهذا قال ههنا: ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾ أي لا يضيع ذلك عند الله كما صح ذلك في الحديث: «وما زاد الله تعالى عبداً بعفو إلا عزاً» وقوله تعالى: ﴿إنه لا يحب الظالمين﴾ أي المعتدين وهو المبتدئ بالسيئة، ثم قال جلّ وعلا: ﴿ولمن انتصر بعـد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل﴾ أي ليس عليهم جناح في الانتصار ممن ظلمهم، روى النسائي، عن عروة قال، قالت عائشة رضي الله عنها: ما علمت حتى دخلت عليَّ زينب بغير إذن وهي غضبى، ثم قالت لرسول الله ﷺ: حسبك إذا قلبت لك ابنة أبي بكر درعها، ثم أقبلت عليَّ، فأعرضت عنها حتى قال النبي ﷺ: «دونك فانتصري»، فأقبلت عليها حتى رأيت ريقها قـد يبس في فمها ما ترد علي شيئاً فرأيت النبي ﷺ يتهلل

وجهه »[1] وروى البزار عن عائشة رضي الله عنها قالت، قال رسول الله ﷺ: « من دعا على من ظلمه فقد انتصر »[2] . وقوله عزّ وجلّ: ﴿ إنما السبيل ﴾ أي إنما الحرج والعنت ﴿ على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق ﴾ أي يبدأون الناس بالظلم، كما جاء في الحديث الصحيح: « المستبّان ما قالا، فعلى البادئ ما لم يعتد المظلوم » ﴿ أولئك لهم عذاب أليم ﴾ أي شديد موجع، ثم إن الله تعالى لما ذم الظلم وأهله وشرع القصاص قال نادباً إلى العفو والصفح: ﴿ ولمن صبر وغفر ﴾ أي صبر على الأذى وستر السيئة ﴿ إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾ أي لمن الأمور المشكورة والأفعال الحميدة، التي عليها ثواب جزيل وثناء جميل . وقال الفضيل بن عياض: « إذا أتاك رجل يشكو إليك رجلاً فقل: يا أخي اعف عنه، فإن العفو أقرب للتقوى، فإن قال: لا يحتمل قلبي العفو، ولكن انتصر كما أمرني الله عزّ وجلّ، فقل له: إن كنت تحسن أن تنتصر، وإلا فارجع إلى باب العفو، فإنه باب واسع، فإنه ﴿ من عفا وأصلح فأجره على الله ﴾، وصاحب العفو ينام على فراشه بالليل، وصاحب الانتصار يقلب الأمور »[3] . وروى الإمام أحمد، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إن رجلاً شتم أبا بكر رضي الله عنه والنبي ﷺ جالس، فجعل النبي ﷺ يعجب ويبتسم، فلما أكثر رد عليه بعض قوله، فغضب النبي ﷺ، وقام فلحقه أبو بكر رضي الله عنه فقال: يا رسول الله إنه كان يشتمني وأنت جالس، فلما رددت عليه بعض قوله غضبت، وقمت، قال: « إنه كان معك ملك يرد عنك فلما رددت عليه بعض قوله حضر الشيطان فلم أكن لأقعد مع الشيطان » ! ثم قال: « يا أبا بكر، ثلاث كلهن حق: ما من عبد ظلم بمظلمة فيغضي عنها لله إلا أعزه الله تعالى بها ونصره، وما فتح رجل باب عطية يريد بها صلة إلا زاده الله بها كثرة، وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاده الله عزّ وجلّ بها قلة »[4] ، وهذا الحديث في غاية الحسن في المعنى وهو مناسب للصديق رضي الله عنه .

وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة، أنه من هداه فلا مضل له، ومن يضلل الله فلا هادي له، كما قال عزّ وجلّ: ﴿ ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ﴾، ثم قال عزّ وجلّ مخبراً عن الظالمين وهم المشركون بالله ﴿ لما رأوا العذاب ﴾ أي يوم القيامة تمنوا الرجعة إلى الدنيا، ﴿ يقولون هل إلى مرد من سبيل ﴾، كما قال جلّ

(١) أخرجه النسائي وابن ماجة واللفظ للنسائي .

(٢) أخرجه البزار والترمذي .

(٣) رواه ابن أبي حاتم من كلام الفضيل رضي الله عنه .

(٤) أخرجه أحمد وأبو داود .

وعلا: ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين﴾، وقوله عزّ وجلّ ﴿وتراهم يعرضون عليها﴾ أي على النار، ﴿خاشعين من الذل﴾ أي الذي قد اعتراهم بما أسلفوا من عصيان الله تعالى ﴿ينظرون من طرف خفي﴾ قال مجاهد: يعني ذليل، أي ينظرون إليها مسارقة خوفاً منها، والذي يحذرون منه واقع بهم لا محالة، ﴿وقال الذين آمنوا﴾ أي يقولون يوم القيامة ﴿إن الخاسرين﴾ أي الخسار الأكبر، ﴿الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة﴾ أي ذهب بهم إلى النار فعدموا لذتهم في دار الأبد، وفرق بينهم وبين أحبابهم وأصحابهم فخسروهم، ﴿ألا إن الظالمين في عذاب مقيم﴾ أي دائم سرمدي أبدي، لا خروج لهم منها ولا محيد لهم عنها. وقوله تعالى: ﴿وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله﴾ أي ينقذونهم مما هم فيه من العذاب والنكال، ﴿ومن يضلل الله فما له من سبيل﴾ أي ليس له خلاص.

اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ۗ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾

لما ذكر تعالى ما يكون في يوم القيامة من الأهوال والأمور العظام الهائلة حذر منه وأمر بالاستعداد له، فقال: ﴿استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله﴾ أي إذا أمر بكونه، فإنه كلمح البصر يكون، وليس له دافع ولا مانع، وقوله عزّ وجلّ: ﴿مالكم من ملجأ يومئذ ومالكم من نكير﴾ أي ليس لكم حصن تتحصنون فيه، ولا مكان يستركم وتتنكرون فيه، فتغيبون عن بصره تبارك وتعالى، بل هو محيط بكم بعلمه وبصره وقدرته، فلا ملجأ منه إلا إليه ﴿يقول الإنسان يومئذ أين المفر * كلا لا وزر * إلى ربك يومئذ المستقر﴾، وقوله تعالى: ﴿فإن أعرضوا﴾ يعني المشركين ﴿فما أرسلناك عليهم حفيظاً﴾ أي لست عليهم بمصيطر، وقال تعالى: ﴿فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾. وقال جلّ وعلا ههنا: ﴿إن عليك إلا البلاغ﴾ أي إنما كلفناك أن تبلغهم رسالة الله إليهم، ثم قال تعالى: ﴿وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها﴾ أي إذا أصابه رخاء ونعمة فرح بذلك ﴿وإن تصبهم سيئة﴾ يعني الناس ﴿سيئة﴾ أي جدب ونقمة وبلاء وشدة، ﴿فإن الإنسان كفور﴾ أي يجحد ما تقدم من النعم، ولا يعرف إلا الساعة الراهنة، فإن أصابته نعمة أشر وبطر، وإن أصابته محنة يئس وقنط، فالمؤمن كما قال ﷺ: «إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن».

لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

يخبر تعالى أنه خالق السماوات والأرض، ومالكهما والمتصرف فيهما، وأنه يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، ولا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، وأنه يخلق ما يشاء ﴿يهب لمن يشاء إناثاً﴾ أي يرزقه البنات فقط ﴿ويهب

لمن يشاء الذكور ﴾ أي يرزقه البنين فقط ، ﴿ أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ﴾ أي ويعطي لمن يشاء الزوجين (الذكر والأنثى) أي من هذا وهذا، ﴿ ويجعل من يشاء عقيماً ﴾ أي لا يولد له، فجعل الناس أربعة أقسام: منهم من يعطيه البنات، ومنهم من يعطيه البنين، ومنهم من يعطيه من النوعين ذكوراً وإناثاً، ومنهم من يمنعه هذا وهذا، فيجعله عقيماً لا نسل له ولا ولد له، ﴿ إنه عليم ﴾ أي بمن يستحق كل قسم من هذه الأقسام، ﴿ قدير ﴾ أي على من يشاء من تفاوت الناس في ذلك، فسبحان العليم القدير .

* وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

هذه مقامات الوحي بالنسبة إلى جناب الرب جل وعلا، فتارة يقذف في روع النبي ﷺ وحياً لا يتمارى فيه أنه من الله عزّوجلّ ، كما جاء في صحيح ابن حبان عن رسول الله ﷺ أنه قال: « إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب »، وقوله تعالى: ﴿ أو من وراء حجاب ﴾ أي كما كلّم موسى عليه الصلاة والسلام، فإنه سأل الرؤية بعد التكليم فحجب عنها . وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لجابر بن عبدالله رضي الله عنهما : « ما كلّم الله أحداً إلا من وراء حجاب وإنه كلّم أباك كفاحاً » كذا جاء في الحديث . وكان قد قتل يوم أُحُد ولكن هذا في عالم البرزخ ، والآية إنما هي في الدار الدنيا . وقوله عزّ وجلّ : ﴿ أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء ﴾ كما ينزل جبريل عليه الصلاة والسلام وغيره من الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ﴿ إنه علي حكيم ﴾ فهو علي عليم، خبير حكيم . وقوله عزّ وجلّ: ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ﴾ يعني القرآن، ﴿ ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ﴾ أي على التفصيل الذي شرع لك في القرآن ، ﴿ ولكن جعلناه ﴾ أي القرآن ﴿ نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى ﴾ الآية ، وقوله تعالى: ﴿ وإنك ﴾ أي يا محمد ﴿ لتهدي إلى صراط مستقيم ﴾ وهو الخلق القويم، ثم فسره بقوله تعالى: ﴿ صراط الله ﴾ أي شرعه الذي أمر به الله ، ﴿ الذي له ما في السماوات وما في الأرض ﴾ أي ربهما ومالكهما والمتصرف فيهما والحاكم الذي لا معقب لحكمه، ﴿ ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ أي ترجع الأمور فيفصلها ويحكم فيها، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً .

[آخر تفسير سورة الشورى ، ولله الحمد والمنة]

* * *

تفسير سورة الشورى

وهى مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ (١) عٓسٓقٓ (٢) كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) لَهُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٤) تَكَادُ السَّمَٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥) وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (٦) ﴾.

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة. وقد روى ابن جرير هاهنا أثرا غريبا عجيبا منكرا، فقال:

حدثنا أحمد بن زُهَير، حدثنا عبد الوهاب بن نَجْدَةَ الحَوْطى، حدثنا أبو المغيرة عبد القدوس بن الحجاج، عن أرطاة بن المنذر [1] قال: جاء رجل إلى ابن عباس فقال له ـ وعنده حُذيفة بن اليمان ـ: أخبرنى عن تفسير قول الله: ﴿ حمٓ . عٓسٓقٓ ﴾، قال: فأطرق ثم أعرض عنه، ثم كرر مقالته فأعرض عنه، فلم يجبه بشىء وكره مقالته، ثم كررها الثالثة فلم يُحرْ إليه شيئا. فقال حذيفة[2] : أنا أنبئك بها، قد عرفت لم كرهها؟ نزلت فى رجل من أهل بيته يقال له«عبد الإله» ـ أو: عبد الله ـ ينزل على نهر من أنهار المشرق تُبْنى عليه مدينتان[3]، يشق النهر بينهما شقا، فإذا أذن الله فى زوال ملكهم وانقطاع دولتهم ومدتهم، بعث الله على إحداهما ناراً ليلاً، فتصبح سوداء مظلمة قد احترقت، كأنها لم تكن مكانها، وتصبح صاحبتها متعجبة: كيف أفلتت؟ فما هو إلا بياض يومها ذلك، حتى يجتمع فيها كل جبار عنيد منهم، ثم يخسف الله بها وبهم جميعا، فذلك قوله: ﴿ حمٓ . عٓسٓقٓ ﴾، يعنى: عزيمة من الله تعالى وفتنة وقضاء حُمّ: ﴿ حمٓ ﴾، عين: يعنى عدلا منه، سين: يعنى سيكون، ق: يعنى واقع بهاتين المدينتين[4].

وأغرب منه ما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلى فى الجزء الثانى من مسند ابن عباس، وعن أبى ذر، عن النبى ﷺ فى ذلك، ولكن إسناده ضعيف جدا ومنقطع، فإنه قال:

حدثنا أبو طالب عبد الجبار بن عاصم، حدثنا أبو عبد الملك الحسن بن يحيى الخُشَنى الدمشقى، عن أبى معاوية قال: صعد عمر بن الخطاب المنبر فقال: أيها الناس، هل سمع منكم أحد رسول الله ﷺ يفسر ﴿ حمٓ . عٓسٓقٓ ﴾؟ فوثب ابن عباس فقال، أنا: قال:«﴿ حمٓ ﴾ اسم من أسماء الله تعالى»، قال: فعين؟ قال: «عاين المولون عذاب يوم بدر»، قال: فسين؟ قال: «سيعلم الذين ظلموا أى منقلب

---

(١) فى ت:«وقد روى ابن جرير هاهنا أثرا غريبا عجيبا بسنده». (٢) فى أ: «فقال له حذيفة».

(٣) فى ت، م،أ:«مدينتين».

(٤) تفسير الطبرى (٢٥/٥)، ورواه نعيم بن حماد فى الفتن برقم (٥٦٨) من طريق أبى المغيرة عن أرطاة بن المنذر عمن حدثه عن ابن عباس فذكره.

ينقلبون» قال: فقاف؟ فسكت، فقام أبو ذر ففسر كما قال ابن عباس، رضى الله عنهما، وقال: قاف: قارعة من السماء تغشى الناس[١].

وقوله: ﴿ كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أى: كما أنزل إليك هذا القرآن، كذلك أنزل الكتب والصحف على الأنبياء قبلك. وقوله: ﴿ اللَّهُ الْعَزِيزُ ﴾ أى: فى انتقامه، ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فى أقواله وأفعاله.

قال الإمام مالك ـ رحمه الله ـ عن هشام بن عُرْوَة، عن أبيه، عن عائشة: أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله، كيف يأتيك الوحى؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحياناً يأتينى مثل صَلْصَلَة الجرَس، وهو أشده علَىّ فيفصم عنّى قد وَعَيت ما قال. وأحيانا يأتينى الملك رجُلا فيكلمنى، فأعى ما يقول». قالت عائشة[٢]: فلقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد، فَيفصِم عنه، وإن جبينه ليتفصّد عرقا.

أخرجاه فى الصحيحين، ولفظه للبخارى[٣].

وقد [٤] رواه الطبرانى عن عبد الله ابن الإمام أحمد، عن أبيه، عن عامر بن صالح، عن هشام ابن عُرْوَة، عن أبيه، عن عائشة، عن الحارث بن هشام؛ أنه سأل رسول الله ﷺ: كيف ينزل عليك الوحى؟ فقال: « مثل[٥] صلصلة الجرس، فيفصمُ عنى وقد وعَيتُ ما قاله» قال: «وهو أشده على » قال: «وأحياناً يأتينى الملك فيتمثل لى فيكلمنى، فأعى ما يقول»[٦].

وقال الإمام [٧] أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا ابن لَهيعة، عن يزيد بن أبى حبيب، عن عمرو بن الوليد، عن عبد الله بن عمرو[٨]، رضى الله عنهما، قال: سألت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، هل تحس بالوحى؟ فقال رسول الله ﷺ: «أسمع صلاصل ثم أسكت عند ذلك، فما من مرة يوحى إلىّ إلا ظننت أن نفسى تُقبَض». تفرد به أحمد[٩].

وقد ذكرنا كيفية إتيان الوحى إلى رسول الله ﷺ فى أول شرح البخارى، بما أغنى عن إعادته هاهنا، ولله الحمد والمنة.

وقوله تعالى: ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ أى: الجميع عبيد له وملك له، تحت قهره وتصريفه، ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾، كقوله تعالى: ﴿ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾ [الرعد:٩]، ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ [سبأ:٢٣] ،والآيات فى هذا كثيرة.

وقوله: ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ﴾ قال ابن عباس،والضحاك، وقتادة، والسدى، وكعب الأحبار: أى فَرَقاً، من العظمة ﴿ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ ﴾ كقوله : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ

(١) ورواه ابن عساكر فى تاريخه كما فى الدر المنثور (٧/ ٣٣٦).
(٢) فى ت: «عائشة رضى الله عنها».
(٣) الموطأ (١/ ٢٠٢)، وصحيح البخارى برقم (٢) ،وصحيح مسلم برقم (٢٣٣٣).
(٤) فى أ: «ولقد».
(٥) فى أ: «فقال: فى مثل».
(٦) المعجم الكبير (٣/ ٢٥٩).
(٧) فى ت: «وروى».
(٨) فى ت: «عمر».
(٩) المسند (٢/ ٢٢٢).

﴿شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

وقوله: ﴿أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾: إعلام بذلك وتنويه به.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يعنى: المشركين، ﴿اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ أى: شهيد على أعمالهم، يحصيها ويعدها عداً، وسيجزيهم بها أوفر الجزاء. ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ أى: إنما أنت نذير، والله على كل شىء وكيل.

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (٧) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٨)﴾.

يقول تعالى: وكما أوحينا إلى الأنبياء قبلك، ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أى: واضحا جليا بينا، ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى﴾ وهى مكة، ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أى: من سائر البلاد شرقا وغربا، وسميت مكة «أم القرى»؛ لأنها أشرف من سائر البلاد، لأدلة كثيرة مذكورة فى مواضعها. ومن أوجز ذلك وأدله ما قال[1] الإمام أحمد:

حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب، عن الزُّهْرِى، أخبرنا أبو سلمة بن عبد الرحمن أن عبد الله بن عَدِى بن الحمراء الزهرى أخبره: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول[2] ـ وهو واقف بالحَزْوَرَة فى سوق مكة ـ: «والله، إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أنى أُخْرِجْتُ منك ما خرجت»[3].

وهكذا رواية الترمذى، والنسائى، وابن ماجه، من حديث الزهرى، به[4]. وقال الترمذى: حسن صحيح.

وقوله: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾، وهو يوم القيامة، يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد.

وقوله: ﴿لا رَيْبَ فِيهِ﴾ أى: لا شك فى وقوعه، وأنه كائن لا محالة.

وقوله: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾، كقوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩] أى: يَغْبَن أهل الجنة أهل النار، وكقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ[5] يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ. وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ. يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٣ـ ١٠٥].

قال[6] الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا لَيْث، حدثنى أبو قبيل المعافرى، عن شُفَىّ[7]

---

(١) فى ت: «ما رواه». (٢) فى ت: «قال».
(٣) المسند (٤/ ٣٠٥).
(٤) سنن الترمذى برقم (٣٩٢٥)، والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٤٢٥٢)، وسنن ابن ماجه برقم (٣١٠٨).
(٥) قبلها فى ت، م، أ: «﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ﴾». (٦) فى ت: «روى». (٧) فى أ: «شقيق».

الأصبحى، عن عبد الله بن عمرو ـ رضى الله عنهما ـ قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وفى يده كتابان، فقال: «أتدرون ما هذان الكتابان؟» قال: قلنا: لا، إلا أن تخبرنا يا رسول الله. قال للذى فى يده اليُمنى: « هذا كتاب من رب العالمين، بأسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم ـ لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبدا» ثم قال للذى فى يساره: «هذا كتاب أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم ـ لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبدا» فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فلأى شىء إذاً نعمل إن كان هذا أمر قد فُرِغ منه؟ فقال[١] رسول الله ﷺ: «سَدِّدوا وقاربوا، فإن صاحب الجنة يختم له بعمل الجنة[٢]، وإن عَمِلَ أى عَمَل، وإن صاحب النار ليختم له بعمل النار[٣]، وإن عمل أى عمل» ثم قال بيده فقبضها، ثم قال: «فرغ ربكم عز وجل من العباد» ثم قال باليمنى فنبذ بها فقال: «فريق فى الجنة»، ونبذ باليسرى فقال: «فريق فى السعير».

وهكذا رواه الترمذى والنسائى جميعا، عن قتيبة، عن الليث بن سعد وبكر بن مضر، كلاهما عن أبى قَبِيل، عن شُفَىّ بن ماتع[٤] الأصبحى، عن عبد الله بن عمرو، به[٥].

وقال الترمذى: حسن صحيح غريب.

وساقه البغوى فى تفسيره من طريق بشر بن بكر[٦]، عن سعيد بن عثمان، عن أبى الزاهرية، عن عبد الله بن عمرو، عن النبى ﷺ، فذكره بنحوه. وعنده زيادات منها: ثم قال: «فريق فى الجنة وفريق فى السعير، عدل من الله عز وجل»[٧].

ورواه[٨] ابن أبى حاتم عن أبيه، عن عبد الله بن صالح ـ كاتب الليث ـ عن الليث، به.

ورواه ابن جرير عن يونس، عن ابن وهب، عن عمرو بن الحارث، عن أبى قَبِيل، عن شُفَى، عن رجل من الصحابة، فذكره[٩].

ثم روى عن يونس، عن ابن وَهْب، عن عمرو بن الحارث وحَيْوَة بن[١٠] شُرَيْح، عن يحيى بن أبى أسيد؛ أن أبا فراس[١١] حدثه: أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول: إن الله لما خلق آدم نفضه نفض المِزْوَد[١٢]، وأخرج منه كل ذريته، فخرج أمثال النَّغَف، فقبضهم قبضتين، ثم قال: شقى وسعيد، ثم ألقاهما، ثم قبضهما. فقال: فريق فى الجنة وفريق فى السعير[١٣].

وهذا الموقوف أشبه بالصواب، والله أعلم.

---

(١) فى ت، م: «قال».
(٢) فى م: «بعمل أهل الجنة».
(٣) فى م، ت، أ: «بعمل أهل النار».
(٤) فى أ: «رافع».
(٥) المسند (٢/١٦٧)، وسنن الترمذى برقم (٢١٤١)، والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٧٣).
(٦) فى م: «بكير».
(٧) معالم التنزيل للبغوى (٧/١٨٥).
(٨) فى ت: «روى».
(٩) تفسير الطبرى (٢٥/٧).
(١٠) فى أ: «عن».
(١١) فى ت: «عن أبى فراس».
(١٢) فى م: «المرود».
(١٣) تفسير الطبرى (٢٥/٧).

وقال الإمام أحمد، رحمه الله :حدثنا عبد الصمد، حدثنا حماد ـ يعنى ابن سلمة ـ أخبرنا الجُرَيرى، عن أبى نضرة، أن رجلا من أصحاب النبى ﷺ يقال له: أبو عبد الله ـ دخل عليه أصحابه يعودونه وهو يبكى، فقالوا له: مايبكيك؟، ألم يقل لك رسول الله ﷺ:«خذ من شاربك ثم أقره حتى تلقانى» قال: بلى، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول:«إن الله قبض بيمينه قبضة، وأخرى باليد الأخرى، قال: هذه لهذه، وهذه لهذه ولا أبالى» فلا أدرى فى أى القبضتين أنا[1].

وأحاديث القدر فى الصحاح والسنن والمسانيد كثيرة جدا، منها حديث على، وابن مسعود، وعائشة، وجماعة جمة.

وقوله: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ أى: إما على الهداية أو على الضلالة، ولكنه تعالى فاوت بينهم، فهدى من يشاء [2] إلى الحق، وأضل من يشاء عنه، وله الحكمة والحجة البالغة؛ ولهذا قال: ﴿وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾.

وقال ابن جرير: حدثنى يونس، أخبرنا ابن وَهْب، أخبرنى عَمرو بن الحارث، عن أبى سويد، حدثه عن ابن حجيرة: أنه بلغه [3] أن موسى، عليه السلام، قال: يارب خَلقُك الذين [4] خلقتهم، جعلت منهم فريقا فى الجنة وفريقا فى النار، لو ما أدخلتهم كلهم الجنة؟! فقال: يا موسى، ارفع ذَرْعك. فرفع، قال: قد رفعت. قال: ارفع. فرفع، فلم يترك شيئا، قال: يارب، قد رفعت، قال: ارفع. قال: قد رفعت، إلا ما لا خير فيه. قال: كذلك أدخل خلقى كلهم الجنة، إلا ما لا خير فيه.

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٩) وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠) فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٢) ﴾.

يقول تعالى منكراً على المشركين فى اتخاذهم آلهة من دون الله، ومخبراً أنه الولى الحق الذى لا تنبغى العبادة إلا له وحده، فإنه القادر على إحياء الموتى وهو على كل شىء قدير.

ثم قال: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أى: مهما اختلفتم فيه من الأمور، وهذا عام فى جميع الأشياء، ﴿فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أى: هو الحاكم فيه بكتابه، وسنة نبيه ﷺ، كقوله:﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي ﴾ أى: الحاكم فى كل شىء، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أى: أرجع فى جميع الأمور.

---

(١) المسند (٤/ ١٧٦).

(٢) فى أ: «شاء».

(٣) فى ت: «وروى ابن جرير بسنده».

(٤) فى ت: «الذى».

وقوله: ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أى: خالقهما وما بينهما، ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أى: من جنسكم وشكلكم، منةً عليكم وتفضلا جعل من جنسكم ذكرا وأنثى، ﴿وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾ أى: وخلق لكم من الأنعام ثمانية أزواج.

وقوله: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ أى: يخلقكم فيه، أى: فى ذلك الخلق على هذه الصفة لا يزال يذرؤكم(1) فيه ذكورا وإناثا، خلقا من بعد خلق، وجيلا بعد جيل، ونسلا بعد نسل، من الناس والأنعام.

وقال البغوى، رحمه الله: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ أى: فى الرحم. وقيل: فى البطن. وقيل: فى هذا الوجه من الخلقة.

قال مجاهد: ونسلا بعد نسل من الناس والأنعام.

وقيل: «فى» بمعنى «الباء»، أى: يذرؤكم به.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ أى: ليس كخالق الأزواج كلها شىء؛ لأنه الفرد الصمد الذى لا نظير له، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

وقوله: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ تقدم تفسيره فى «سورة الزمر»، وحاصل ذلك أنه المتصرف الحاكم فيهما، ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أى: يوسع على من يشاء، ويضيق على من يشاء، وله الحكمة والعدل التام، ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ (١٣) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنۢ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (١٤)﴾.

يقول تعالى لهذه الأمة: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾، فذكر أول الرسل بعد آدم وهو نوح، عليه السلام، وآخرهم وهو محمد ﷺ، ثم ذكر من بين ذلك من أولى العزم وهم: إبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم، عليهم السلام. وهذه الآية انتظمت ذكر الخمسة، كما اشتملت آية «الأحزاب» عليهم فى قوله:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ الآية [الأحزاب: ٧]. والدين الذى جاءت به الرسل كلهم هو: عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. وفى

(1) فى أ: «نوعكم».

الحديث: «نحن معشر (١) الأنبياء أولاد علات ديننا واحد» أى: القدر المشترك بينهم هو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم، كقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ أى: وصى الله [سبحانه و] (٢) تعالى جميع الأنبياء، عليهم السلام، بالائتلاف والجماعة، ونهاهم عن الافتراق والاختلاف.

وقوله: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ أى: شق عليهم وأنكروا ما تدعوهم إليه يا محمد من التوحيد.

ثم قال: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ أى: هو الذى يُقدّر الهداية لمن يستحقها، ويكتب الضلالة على من آثرها على طريق الرشد؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا اختلفوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾، أى: إنما كان مخالفتهم للحق بعد بلوغه إليهم، وقيام الحجة عليهم، وما حملهم على ذلك إلا البغىُ والعنادُ والمشاقة.

ثم قال [الله] (٣) تعالى: ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أى: لولا الكلمة السابقة من الله بإنظار العباد بإقامة حسابهم إلى يوم المعاد، لعجل لهم العقوبة فى الدنيا سريعاً.

وقوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ يعنى: الجيل المتأخر بعد القرن الأول المكذّب للحق ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ أى: ليسوا على يقين من أمرهم، وإنما هم مقلدون لآبائهم وأسلافهم، بلا دليل ولا بُرهان، وهم فى حيرة من أمرهم، وشك مريب، وشقاق بعيد.

﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٥)﴾.

اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستقلات، كل منها منفصلة عن التى قبلها، [لها](٤) حكم برأسه ـ قالوا: ولا نظير لها سوى آية الكرسى، فإنها أيضا عشرة (٥) فصول كهذه.

قوله(٦): ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ﴾ أى: فللذى أوحينا إليك من الدين الذى وصينا به جميع المرسلين قبلك أصحاب الشرائع الكبار المتبعة كأولى العزم وغيرهم، فادعُ الناس إليه.

وقوله: ﴿وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ أى: واستقم أنت ومن اتبعك على عبادة الله، كما أمركم الله عز وجل.

وقوله: ﴿وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ يعنى: المشركين فيما اختلقوه، وكذبوه، وافتروه من عبادة الأوثان.

وقوله: ﴿وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ﴾ أى: صدقت بجميع الكتب المنزلة من السماء على

---

(١) فى ت، م: «معاشر».
(٢) زيادة من ت، م، أ.
(٣) زيادة من م.
(٤) زيادة من ت، أ.
(٥) فى ت: «عشر».
(٦) فى ت: «فقوله».

الأنبياء، لا نفرق [١] بين أحد منهم.

وقوله: ﴿ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُم﴾ أي: في الحكم كما أمرني الله.

وقوله: ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي: هو المعبود، لا إله غيره، فنحن نقر بذلك اختيارا، وأنتم وإن لم تفعلوه اختيارا، فله يسجد من في العالمين طوعا واختياراً.

وقوله: ﴿ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ أي: نحن برآء منكم، كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١].

وقوله: ﴿لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم﴾ قال مجاهد: أي لا خصومة. قال السدي: وذلك قبل نزول آية السيف. وهذا متَّجَه؛ لأن هذه الآية مكية، وآية السيف بعد الهجرة.

وقوله: ﴿ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ﴾ أي: يوم القيامة، كقوله: ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ [سبأ: ٢٦].

وقوله: ﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع والمآب يوم الحساب.

﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (١٦) اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (١٨) ﴾.

يقول تعالى ـ متوعدا الذين يصدون عن سبيل الله من آمن به ـ: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ﴾ أي: يجادلون المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله، ليصدوهم عما سلكوه من طريق الهدى، ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: باطلة عند الله، ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ أي: منه، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي: يوم القيامة.

قال ابن عباس، ومجاهد: جادلوا المؤمنين بعد ما استجابوا لله ولرسوله، ليصدوهم عن الهدى، وطمعوا أن تعود الجاهلية.

وقال قتادة: هم اليهود والنصارى، قالوا لهم: ديننا خير من دينكم، ونبينا قبل نبيكم، ونحن خير منكم، وأولى بالله منكم. وقد كذبوا في ذلك.

ثم قال: ﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ يعني: الكتب المنزلة من عنده على أنبيائه ﴿ وَالْمِيزَانَ﴾، وهو: العدل والإنصاف، قاله مجاهد، وقتادة.

وهذه كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[الحديد: ٢٥]، وقوله: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ . أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ . وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧ ـ ٩].

(١) في ت: «لا يفرق».

وقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾: فيه ترغيب فيها، وترهيب منها، وتزهيد فى الدنيا.

وقوله: ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ أى: يقولون: ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سبأ:٢٩]، وإنما يقولون [١] ذلك تكذيبا واستبعادا، وكفراً وعناداً، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ أى: خائفون وَجِلُون من وقوعها ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ أى: كائنة لا محالة، فهم مستعدون لها عاملون من أجلها.

وقد رُوى من طرق تبلغ درجة التواتر، فى الصحاح والحسان، والسنن والمسانيد، وفى بعض ألفاظه؛ أن رجلا سأل رسول الله ﷺ بصوت جَهْوَرِىّ، وهو فى بعض أسفاره، فناداه فقال: يامحمد. فقال له النبى ﷺ نحوا من صوته «هاؤم». فقال: متى الساعة؟ فقال له رسول الله ﷺ: «ويحك، إنها كائنة، فما أعددت لها؟». فقال: حُب الله ورسوله. فقال: «أنت مع من أحببت»[٢].

فقوله فى الحديث: «المرء مع من أحب»، هذا متواتر لا محالة، والغرض أنه لم يجبه عن وقت الساعة، بل أمره بالاستعداد لها.

وقوله: ﴿أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ ﴾ أى: يحاجّون فى وجودها ويدفعون وقوعها، ﴿لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾ أى: فى جهل بين؛ لأن الذى خلق السموات والأرض قادرٌ على إحياء الموتى بطريق الأولى والأحرى، كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم:٢٧].

﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (١٩) مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢١) تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٢٢) ﴾.

يقول تعالى مخبرا عن لطفه بخلقه فى رزقه إياهم عن آخرهم، لا ينسى أحدا منهم، سواء فى رزقه البرّ والفاجر، كقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [هود:٦]. ولها [٣] نظائر كثيرة

وقوله: ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ ﴾أى: يوسع على من يشاء، ﴿ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ أى: لا يعجزه شىء.

---

(١) فى ت: «يقول».

(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٦١٦٧)، ومسلم فى صحيحه برقم (٢٦٣٩) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه.

(٣) فى ت: «ولهذا».

ثم قال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ﴾ أى: عمل الآخرة، ﴿نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ أى: نقويه ونعينه على ما هو بصدده، ونكثر نماءه، ونجزيه بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى ما يشاء الله. ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ أى: ومن كان إنما سعيه ليحصل له شىء من الدنيا، وليس له إلى الآخرة همّة[١] البتة بالكلية، حَرَمه الله الآخرة، والدنيا إن شاء أعطاه منها، وإن لم يشأ لم يحصل[٢] له لا هذه ولا هذه، وفاز هذا الساعى بهذه النية بالصفقة الخاسرة فى الدنيا والآخرة.

والدليل على هذا أن هذه الآية هاهنا مقيدة بالآية التى فى «سبحان» وهى قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا . وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا . كُلاًّ نُّمِدُّ هَٰؤُلاءِ وَهَٰؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا . انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ١٨ ـ ٢١].

وقال الثورى، عن مُغيرة، عن أبى العالية، عن أبى بن كعب [رضى الله عنه][٣] قال: قال رسول الله ﷺ: «بشر هذه الأمة بالسَّناء والرفعة، والنصر والتمكين فى الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا، لم يكن له فى الآخرة من نصيب»[٤].

وقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ أى: هم لا يتبعون ما شرع الله لك من الدين القويم، بل يتبعون ما شرع لهم شياطينهم من الجن والإنس، من تحريم ما حرموا عليهم، من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وتحليل الميتة والدم والقمار، إلى نحو ذلك من الضلالات والجهالة[٥] الباطلة، التى كانوا قد اخترعوها فى جاهليتهم، من التحليل والتحريم، والعبادات الباطلة، والأقوال الفاسدة.

وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «رأيت عَمرو بن لُحىّ بن قَمعَة يَجُر قُصْبَه فى النار»[٦]. لأنه أول من سيب السوائب. وكان هذا الرجل أحد ملوك خزاعة، وهو أول من فعل هذه الأشياء، وهو الذى حَمَل قريشا على عبادة الأصنام، لعنه الله وقبحه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْلا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾، أى: لعوجلوا بالعقوبة، لولا ما تقدم من الإنظار إلى يوم المعاد، ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أى: شديد موجع[٧] فى جهنم وبئس المصير.

ثم قال تعالى: ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا﴾ أى: فى عرصات القيامة، ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ أى: الذى يخافون منه واقع بهم لا محالة، هذا حالهم يوم معادهم، وهم فى هذا الخوف والوجل، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، فأين هذا من هذا:

---

(١) فى ت: «وهم». (٢) فى أ: «يجعل». (٣) زيادة من ت.

(٤) رواه البغوى فى شرح السنة (١٤/ ٣٣٥) من طريق الثورى به.

(٥) فى أ: «الجهالات».

(٦) انظر تخريج هذا الحديث عند تفسير الآية: ١٠٣ من سورة المائدة.

(٧) فى ت، أ: «وجيع».

أين من هو فى العَرَصات فى الذل والهوان والخوف المحقق عليه بظلمه، ممن هو فى روضات الجنات، فيما يشاء من مآكل ومشاربَ وملابس ومساكن ومناظر ومناكح وملاذ، فيما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

قال الحسن بن عرفة: حدثنا عمر بن عبد الرحمن الأبار، حدثنا محمد بن سعد الأنصارى[(١)]، عن أبى طَيْبَة، قال: إن الشَّرْب من أهل الجنة لتظلهم السحابة فتقول: ما أمطركُم. قال: فما يدعو داع من[(٢)] القوم بشىء إلا أمطرتهم، حتى إن القائل منهم ليقول: أمطرينا كواعب أترابا.

رواه ابن جرير، عن الحسن بن عرفة، به.

ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ أى: الفوز العظيم، والنعمة التامة السابغة الشاملة العامة.

﴿ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٤) ﴾.

يقول تعالى لما ذكر روضات الجنة، لعباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات: ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى: هذا حاصل لهم، كائن لا محالة، ببشارة الله لهم به.

وقوله: ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ أى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين من كفار قريش: لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح لكم ما لا تعطونيه، وإنما أطلب منكم أن تكفوا شركم عنى، وتذرونى أبلغ رسالات[(٣)] ربى، إن لم تنصرونى فلا تؤذونى بما بينى وبينكم من القرابة.

قال البخارى: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عبد الملك بن ميسرة قال: سمعت طاوسا[(٤)] عن ابن عباس: أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿ إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾، فقال سعيد بن جبير: قربى آل محمد. فقال ابن عباس: عَجِلْتَ، إن النبى ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة، فقال: إلا أن تصلوا ما بينى وبينكم من القرابة. انفرد به البخارى[(٥)].

ورواه الإمام أحمد، عن يحيى القطان، عن شعبة به. وهكذا روى عامر الشعبى، والضحاك، وعلى بن أبى طلحة، والعَوْفى، ويوسف بن مِهْران، وغير واحد، عن ابن عباس، مثله. وبه قال مجاهد، وعكرمة، وقتادة، والسدى، وأبو مالك، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهم.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى[(٦)]: حدثنا هاشم بن يزيد الطبرانى وجعفر القلانسى قالا: حدثنا

---

(١) فى ت: «روى الحسن بن عرفة بسنده». (٢) فى أ: «فى». (٣) فى ت، م، أ: «رسالة».
(٤) فى ت: «روى البخارى بسنده».
(٥) صحيح البخارى برقم (٤٨١٨)، والمسند (١/ ٢٢٩).
(٦) فى ت: «وروى الطبرانى».

آدم بن أبى إياس، حدثنا شريك، عن خُصَيف، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال لهم رسول الله ﷺ: «لا أسألكم عليه أجرا إلا أن تَوَدّونى فى نفسى لقرابتى منكم، وتحفظوا القرابة التى بينى وبينكم»(١).

وروى الإمام أحمد، عن حسن بن موسى: حدثنا قَزَعة، يعنى ابن سُوَيد ـ وابن أبى حاتم ـ عن أبيه، عن مسلم بن إبراهيم، عن قَزَعة بن سويد ـ عن ابن أبى نَجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس؛ أن النبى ﷺ قال: «لا أسألكم على ما آتيتكم من البينات والهدى أجرا، إلا أن تُوَادوا الله، وأن تقربوا إليه بطاعته»(٢).

وهكذا روى قتادة عن الحسن البصرى، مثله.

وهذا كأنه تفسير بقول ثان، كأنه يقول: ﴿ إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ أى: إلا أن تعملوا بالطاعة التى تقربكم عند الله زلفى.

وقول ثالث: وهو ما حكاه البخارى وغيره، رواية عن سعيد بن جبير، ما معناه، أنه قال: معنى ذلك أن تودونى فى قرابتى، أى: تحسنوا إليهم وتبروهم.

وقال السدى، عن أبى الديلم قال: لما جىء بعلى بن الحسين أسيرا، فأقيم على درج دمشق، قام رجل من أهل الشام فقال: الحمد لله الذى قتلكم واستأصلكم، وقطع قرنى الفتنة. فقال له على بن الحسين: أقرأت القرآن؟ قال: نعم. قال: أقرأت آل حم؟ قال: قرأت القرآن، ولم أقرأ آل حم. قال: ما قرأت: ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ ؟ قال: وإنكم أنتم(٣) هم؟ قال: نعم.

وقال أبو إسحاق السَّبِيعى: سألت عمرو بن شعيب عن قوله تعالى: ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾، فقال: قربى النبى ﷺ. رواهما ابن جرير(٤).

ثم قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا مالك بن إسماعيل، حدثنا عبد السلام، حدثنى يزيد ابن أبى زياد، عن مقسم، عن ابن عباس قال: قالت الأنصار: فعلنا وفعلنا، وكأنهم فخروا. فقال ابن عباس ـ أو: العباس، شك عبد السلام ـ: لنا الفضل عليكم. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأتاهم فى مجالسهم فقال: «يا معشر الأنصار، ألم تكونوا أذلة فأعزكم الله بى؟» قالوا: بلى، يا رسول الله. قال: «ألم تكونوا ضلالاً فهداكم الله بى؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «أفلا تجيبونى؟» قالوا: ما نقول يا رسول الله؟ قال: «ألا تقولون: ألم يخرجك قومك فآويناك؟ أو لم يكذبوك فصدقناك؟ أو لم يخذلوك فنصرناك»؟ قال: فما زال يقول حتى جثوا على الركب، وقالوا: أموالنا وما فى أيدينا لله ولرسوله. قال: فنزلت: ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾(٥).

وهكذا رواه ابن أبى حاتم، عن على بن الحسين، عن عبد المؤمن بن على، عن عبد السلام، عن

---

(١) المعجم الكبير (١١/ ٤٣٥).
(٢) المسند (١/ ٢٦٨).
(٣) فى ت، أ: «لأنتم».
(٤) تفسير الطبرى (٢٥/ ١٧).
(٥) تفسير الطبرى (٢٥/ ١٦).

يزيد بن أبى زياد ـ وهو ضعيف ـ بإسناده مثله، أو قريبا منه.

وفى الصحيحين ـ فى قسم غنائم حنين ـ قريب من هذا السياق، ولكن ليس فيه ذكر نزول هذه الآية. وذكْرُ نزولها فى المدينة فيه نظر؛ لأن السورة مكية، وليس يظهر بين هذه الآية الكريمة وبين السياق مناسبة، والله أعلم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا رجل سماه، حدثنا حسين الأشقر، عن قيس، عن الأعمش، عن سعيد بن جبير[١]، عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ **قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ** ﴾، قالوا: يا رسول الله، من هؤلاء الذين أمر الله بمودتهم؟ قال: «فاطمة وولدها، عليهم السلام»[٢].

وهذا إسناد[٣] ضعيف، فيه مبهم لا يعرف، عن شيخ شيعى مُتَخَرّق[٤]، وهو حسين الأشقر، ولا يقبل خبره فى هذا المحل. وذِكْرُ نزول هذه الآية فى المدينة بعيد؛ فإنها مكية ولم يكن إذ ذاك لفاطمة أولاد بالكلية، فإنها لم تتزوج بعلى إلا بعد بدر من[٥] السنة الثانية من الهجرة.

والحق تفسير الآية بما فسرها به الإمام حَبرُ الأمة، وترجمان القرآن، عبد الله بن عباس، كما رواه عنه البخارى [رحمه الله][٦]: ولا تنكر الوصاة[٧] بأهل البيت، والأمر بالإحسان إليهم، واحترامهم وإكرامهم، فإنهم من ذرية طاهرة، من أشرف بيت وجد على وجه الأرض، فخراً وحسباً ونسباً، ولاسيما إذا كانوا متبعين للسنة النبوية الصحيحة الواضحة الجلية، كما كان عليه سلفهم، كالعباس وبنيه، وعلى وأهل بيته وذريته، رضى الله عنهم أجمعين.

و [قد ثبت][٨] فى الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال فى خطبته بِغَدِير خُمّ: «إنى تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتى، وإنهما لم يفترقا حتى يردا على الحوض»[٩].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا إسماعيل بن أبى خالد، عن يزيد بن أبى زياد، عن عبد الله بن الحارث[١٠]، عن العباس بن عبد المطلب قال: قلت: يا رسول الله، إن قريشا إذا لقى بعضهم بعضا لقوهم ببشر حَسَن، وإذا لقونا لقونا بوجوه لا نعرفها؟ قال: فغضب النبى ﷺ غضباً شديدا، وقال: «والذى نفسى بيده، لا يدخل قلب الرجل الإيمان حتى يحبكم لله ولرسوله»[١١].

ثم قال أحمد[١٢]: حدثنا جرير، عن يزيد بن أبى زياد، عن عبد الله بن الحارث، عن عبد المطلب ابن ربيعة قال: دخل العباس على رسول الله ﷺ فقال: إنا لنخرج فنرى قريشا تُحدْث، فإذا رأونا

(١) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بسنده».
(٢) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١١/ ٤٤٤) من طريق حرب الطحان عن حسين الأشقر به.
(٣) فى أ: «الإسناد». (٤) فى أ: «مخترق». (٥) فى أ: «فى».
(٦) زيادة من ت، م، أ. (٧) فى ت: «ولا ينكر الوصاية». (٨) زيادة من ت، أ.
(٩) صحيح مسلم برقم (٢٤٠٨) بنحوه من حديث زيد بن الأرقم.
(١٠) فى ت: «وروى الإمام أحمد بإسناده».
(١١) المسند (١/ ٢٠٧).
(١٢) فى ت: «ثم روى الإمام أحمد».

سكتوا. فغضب رسول الله ﷺ ودَرّ عِرْقُ بين عينه[١]، ثم قال: «والله لا يدخل قلب امرئ[٢] إيمان حتى يحبكم لله ولقرابتى»[٣].

وقال البخارى: حدثنا عبد الله بن عبد الوهاب، حدثنا خالد، حدثنا شعبة، عن واقد قال: سمعتُ أبى يحدّث[٤] عن ابن عمر، عن أبى بكر الصديق، رضى الله عنه، قال: ارقبوا محمدا ﷺ فى أهل بيته[٥].

وفى الصحيح: أن الصديق قال لعلى، رضى الله عنهما: والله لقرابة رسول الله ﷺ أحب إلىَّ أن أصل من قرابتى[٦] [٧].

وقال عمر بن الخطاب للعباس، رضى الله عنهما: والله لإسلامك يوم أسلمت، كان أحب إلىَّ من إسلام الخطاب لو أسلم؛ لأن إسلامك كان أحب إلى رسول الله من إسلام الخطاب.

فحال الشيخين، رضى الله عنهما، هو الواجب على كل أحد أن يكون كذلك؛ ولهذا كانا أفضل المؤمنين بعد النبيين والمرسلين، رضى الله عنهما، وعن سائر الصحابة أجمعين.

وقال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، عن أبى حَيّان التيمى، حدثنى يزيد ابن حَيّان قال: انطلقت أنا وحُسَين بن مَيْسَرة، وعمر[٨] بن مسلم إلى زيد[٩] بن أرقم، فلما جلسنا إليه قال له حصين: لقد لقيتَ يا زيد[١٠] خيراً كثيراً، رأيتَ رسول الله ﷺ، وسمعت حديثه، وغزوتَ معه، وصليتَ معه. لقد رأيت يا زيد خيراً كثيراً. حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله ﷺ. فقال: يا ابن أخى، والله كَبُرت[١١] سنى، وقدم عهدى، ونسيت بعض الذى كنت أعى من رسول الله ﷺ، فما حدثتكم فاقبلوه، وما لا فلا تُكَلّفونيه. ثم قال: قام رسول الله ﷺ يوماً خطيباً فينا، بماء يدعى خُمّا ـ بين مكة والمدينة ـ فحمد الله وأثنى عليه، وذكر ووعظ، ثم قال: «أما بعد، ألا أيها الناس، إنما أنا بشر يوشك أن يأتينى رسول ربى فأجيب، وإنى تارك فيكم الثقلين، أولهما: كتاب الله، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به» فحث على كتاب الله ورغب فيه، وقال: «وأهل بيتى أذكركم الله فى أهل بيتى، أذكركم الله فى أهل بيتى». فقال له حصين: ومَنْ أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: إن نساءه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حُرِم الصدقة بعده. قال: ومن هم؟ قال: هم آل على، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل العباس. قال: أكل هؤلاء حرم الصدقة؟ قال: نعم.

وهكذا رواه مسلم [فى الفضائل][١٢]، والنسائى من طرق عن يزيد بن حَيّان به[١٣].

---

(١) فى ت، أ: «عينيه». (٢) فى ت، أ: «امرئ مسلم».
(٣) المسند (١/٢٠٧).
(٤) فى ت: «وروى البخارى بإسناده».
(٥) صحيح البخارى برقم (٣٧١٣).
(٦) فى أ: «أحب إلىَّ من أن أصل قرابتى».
(٧) صحيح البخارى برقم (٣٧١٢).
(٨) فى ت، أ: «وعمرو». (٩) فى أ: «يزيد». (١٠) فى أ: «يزيد».
(١١) فى ت، أ: «والله لقد كبرت». (١٢) زيادة من ت، م، أ.
(١٣) المسند (٤/٣٦٦) وصحيح مسلم برقم (٢٤٠٨) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٨١٧٥).

وقال أبو عيسى الترمذى[١]: حدثنا على بن المنذر الكوفى، حدثنا محمد بن فضيل، حدثنا الأعمش، عن عطية، عن أبى سعيد ـ والأعمش، عن حبيب بن أبى ثابت، عن زيد بن أرقم ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنى تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى، أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من[٢] السماء إلى الأرض، والآخر عترتى: أهل بيتى، ولن يتفرقَّا حتى يردا على الحوض، فانظروا كيف تخلفونى فيهما».

تفرد بروايته الترمذى[٣]، ثم قال: هذا حديث حسن غريب.

وقال الترمذى أيضا[٤]: حدثنا نصر بن عبد الرحمن الكوفى، حدثنا زيد بن الحسن، عن جعفر ابن محمد، عن أبيه، عن جابر بن عبد الله [٥] قال: رأيت رسول الله ﷺ فى حجته يوم عرفة، وهو على ناقته القصواء يخطب، فسمعته يقول: «يا أيها الناس، إنى تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا: كتاب الله، وعترتى: أهل بيتى».

تفرد به الترمذى أيضا[٦]، وقال: حسن غريب، وفى الباب عن أبى ذر، وأبى سعيد، وزيد بن أرقم، وحذيفة بن أسيد.

ثم قال الترمذى: حدثنا أبو داود سليمان بن الأشعث، حدثنا يحيى بن مَعين، حدثنا هشام بن يوسف، عن عبد الله بن سليمان النوفلى، عن محمد بن على بن عبد الله بن عباس، عن أبيه، عن جده عبد الله بن عباس[٧] قال: قال رسول الله ﷺ: «أحبوا الله لما يغذوكم [٨] من نعمه، وأحبونى[٩] بحب الله، وأحبوا أهل بيتى بحبى».

ثم قال[١٠]: حسن غريب إنما نعرفه من هذا الوجه[١١].

وقد أوردنا أحاديث أُخَر عند قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً** ﴾ [الأحزاب: ٣٣][١٢]، بما أغنى عن إعادتها هاهنا، ولله الحمد والمنة.

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا سويد بن سَعيد، حدثنا مُفَضّل بن عبد الله، عن أبى إسحاق، عن حَنَش قال: سمعت أبا ذر وهو آخذ بحلقة الباب يقول: يأيها الناس، من عرفنى فقد عرفنى، ومن أنكرنى فأنا أبو ذر، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما مثل أهل بيتى فيكم مَثَل سفينة نوح، من

---

(١) فى ت: «وروى الترمذى».
(٢) فى ت: «بين».
(٣) سنن الترمذى برقم (٣٧٨٨).
(٤) فى ت: «وروى الترمذى».
(٥) فى ت: «عبد الله رضى الله عنه».
(٦) سنن الترمذى برقم (٣٧٨٦).
(٧) فى ت: «وروى الترمذى أيضا عن ابن عباس».
(٨) فى ت: «يغدوكم به».
(٩) فى ت: «فأحبونى».
(١٠) فى ت: «وقال».
(١١) سنن الترمذى برقم (٣٧٨٩).
(١٢) انظر: تفسير الآية: ٣٣ من سورة الأحزاب.

دخلها نجا، ومن تخلف عنها هلك»[1].

هذا بهذا الإسناد ضعيف.

وقوله: ﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ﴾ أى: ومن يعمل حسنة ﴿ نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ أى: أجرا وثوابا، كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيماً ﴾ [النساء: ٤٠].

وقال بعض السلف: [إن][2] من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، ومن جزاء السيئة السيئة بعدها.

وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ أى: يغفر الكثير من السيئات، ويكثر القليل من الحسنات، فيستر ويغفر، ويضاعف فيشكر.

وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أى: لو افتريت عليه كذباً كما يزعم هؤلاء الجاهلون ﴿ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ أى: لطبع على قلبك وسلبك ما كان آتاك من القرآن، كقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ . لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ـ ٤٧] أى: لانتقمنا منه أشد الانتقام، وما قدر أحد من الناس أن يحجز عنه.

وقوله: ﴿ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ ليس معطوفا على قوله: ﴿يَخْتِمْ﴾ فيكون مجزوما، بل هو مرفوع على الابتداء، قاله ابن جرير، قال: وحذفت من كتابته «الواو» فى رسم المصحف الإمام، كما حذفت فى[3] قوله: ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨]، وقوله: ﴿ وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ [الإسراء: ١١].

وقوله: ﴿ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ معطوف على ﴿ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ﴾ أى: يحققه ويثبته ويبينه ويوضحه بكلماته، أى بحججه وبراهينه، ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أى: بما تكنه الضمائر، وتنطوى عليه السرائر.

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٢٥) وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (٢٦) وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (٢٧) وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (٢٨) ﴾.

يقول تعالى ممتنا على عباده بقبول توبتهم إليه إذا تابوا ورجعوا إليه: أنه من كرمه وحلمه أنه يعفو ويصفح ويستر ويغفر، كقوله: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]، وقد ثبت فى صحيح مسلم، رحمه الله، حيث قال:

---

(١) ورواه الحاكم فى المستدرك وصححه (٣/ ١٥٠) من طريق مفضل بن صالح عن أبى إسحاق به، وتعقبه الذهبى بقوله: «فيه مفضل ابن صالح واه»، ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٣/ ٣٧) من طريق عبد الله بن داهر عن عبد الله بن عبد القدوس عن الأعمش عن أبى إسحاق به، وفى إسناده عبد الله بن داهر الرازى متروك.

(٢) زيادة من ت، م ، أ. (٣) فى ت، أ: «من».

حدثنا محمد بن الصباح وزهير بن حرب قال[١]: حدثنا عمر بن يونس، حدثنا عكرمة بن عمار، حدثنا إسحاق بن أبى طلحة، حدثنى أنس بن مالك ـ وهو عمه [٢] ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه، من أحدكم كان راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها، قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم، أنت عبدى وأنا ربك ـ أخطأ من شدة الفرح»[٣].

وقد ثبت أيضا فى الصحيح من رواية عبد الله بن مسعود نحوه[٤] [٥].

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهرى فى قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ : إن أبا هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لله أشد فرحا بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته[٦] فى المكان الذى يخاف أن يقتله العطش فيه»[٧].

وقال همام بن الحارث: سئل ابن مسعود عن الرجل يفجر بالمرأة ثم يتزوجها؟ قال: لا بأس به، وقرأ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ الآية رواه ابن جرير، وابن أبى حاتم من حديث شريك القاضى، عن إبراهيم بن مهاجر، عن إبراهيم النخعى، عن همام، فذكره[٨].

وقوله: ﴿وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ أى: يقبل التوبة فى المستقبل، ويعفو عن السيئات فى الماضى، ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أى: هو عالم بجميع ما فعلتم وصنعتم وقلتم، ومع هذا يتوب على من تاب إليه.

وقوله: ﴿ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قال السدى: يعنى يستجيب لهم. وكذا قال ابن جرير: معناه يستجيب الدعاء لهم[٩] [لأنفسهم][١٠] ولأصحابهم وإخوانهم. وحكاه عن بعض النحاة، وأنه جعلها كقوله: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

ثم روى هو وابن أبى حاتم، من حديث الأعمش، عن شقيق بن سلمة، عن سلمة بن سبرة قال: خطبنا معاذ بالشام فقال: أنتم المؤمنون، وأنتم أهل الجنة. والله إنى أرجو أن يدخل الله من تَسْبون من فارس والروم الجنة، وذلك بأن أحدكم إذا عمل له ـ يعنى أحدُهم عملا ـ قال: أحسنت رحمك[١١] الله، أحسنت بارك الله فيك، ثم قرأ: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم

---

(١) فى أ: «قالا».
(٢) فى ت: «عمه رضى الله عنه».
(٣) صحيح مسلم برقم (٢٧٤٧).
(٤) فى ت: «مثله».
(٥) صحيح مسلم برقم (٢٧٤٤).
(٦) فى ت: «راحلته».
(٧) تفسير عبد الرزاق (٢/ ١٥٦) وقد روى متصلا، فرواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٦٧٥) من طريق عبد الرزاق عن معمر عن همام ابن منبه عن أبى هريرة به.
(٨) تفسير الطبرى (٢٥/ ١٨).
(٩) فى ت، م: «لهم الدعاء».
(١٠) زيادة من ت، م.
(١١) فى ت، م، أ: «يرحمك».

مِّن فَضْلِهِ﴾.

وحكى ابن جرير عن بعض أهل العربية أنه جعل[١] [مثل][٢] قوله: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ كقوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ﴾ [الزمر: ١٨] أى: هم الذين يستجيبون للحق ويتبعونه، كقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٣٦] والمعنى الأول أظهر؛ لقوله[٣] تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ أى: يستجيب دعاءهم ويزيدهم فوق ذلك؛ ولهذا قال ابن أبى حاتم:

حدثنا على بن الحسين، حدثنا محمد بن المصفى، حدثنا بقية، حدثنا إسماعيل بن عبد الله الكندى، حدثنا الأعمش، عن شقيق، عن عبد الله[٤] قال: قال رسول الله ﷺ فى قوله: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾، قال: «الشفاعة لمن وجبت له النار، ممن صنع إليهم معروفا[٥] فى الدنيا»[٦].

وقال قتادة عن إبراهيم النخعى اللخمى في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، قال: يشفعون فى إخوانهم، ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ قال: يشفعون فى إخوان إخوانهم.

وقوله: ﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ : لما ذكر المؤمنين وما لهم من الثواب الجزيل، ذكر الكافرين وما لهم عنده يوم القيامة من العذاب الشديد الموجع المؤلم يوم معادهم وحسابهم.

وقوله: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ أى: لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق، لحملهم ذلك على البغى والطغيان من بعضهم على بعض، أشرا وبطرا.

وقال قتادة: كان يقال: خير العيش ما لا يلهيك ولا يطغيك. وذكر قتادة حديث: «إنما أخاف عليكم ما يخرج الله من زهرة الحياة الدنيا»، وسؤال السائل: أيأتى الخير بالشر؟ الحديث.

وقوله: ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ أى: ولكن يرزقهم من الرزق ما يختاره مما فيه صلاحهم، وهو أعلم بذلك، فيغنى من يستحق الغنى، ويفقر من يستحق الفقر. كما جاء فى الحديث المروى: «إن من عبادى لمن[٧] لا يصلحه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه، وإن من عبادى لمن لا يصلحه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه».

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ أى: من بعد إياس الناس من نزول المطر، ينزله عليهم فى وقت حاجتهم وفقرهم إليه، كقوله: ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾ [الروم: ٤٩].

وقوله: ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ أى: يعم بها الوجود على أهل ذلك القُطْر وتلك الناحية.

---

(١) فى ت، م: «جعله».

(٢) زيادة من ت، أ. (٣) فى ت: «كقوله». (٤) فى ت: «روى ابن أبى حاتم بسنده عن عبد الله».

(٥) فى أ: «المعروف».

(٦) ورواه ابن أبى عاصم فى السنة برقم (٨٤٦) من طريق محمد بن مصفى عن بقية به، وفى إسناده إسماعيل الكندى. قال الذهبى فى الميزان (١/ ٢٣٥): «عن الأعمش، وعنه بقية، بخبر عجيب منكر».

(٧) فى ت: «من».

قال قتادة: ذكر لنا أن رجلا قال لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، قُحطَ المطر وقنط الناس؟ فقال عمر، رضى الله عنه: مطرتم، ثم قرأ: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ﴾[(١)].

﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أى: هو المتصرف لخلقه بما ينفعهم فى دنياهم وأخراهم، وهو المحمود العاقبة فى جميع ما يقدره ويفعله.

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (٢٩) وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ (٣٠) وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٣١) ﴾.

يقول تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ﴾ الدالة على عظمته وقدرته العظيمة وسلطانه القاهر ﴿خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا﴾ أى: ذرأ فيهما، أى: فى السموات والأرض، ﴿مِن دَابَّةٍ ﴾، وهذا يشمل الملائكة والجن والإنس وسائر الحيوانات، على اختلاف أشكالهم وألوانهم ولغاتهم، وطباعهم وأجناسهم، وأنواعهم، وقد فرقهم فى أرجاء أقطار الأرض والسموات، ﴿ وَهُوَ ﴾ مع هذا كله ﴿ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ أى: يوم القيامة يجمع الأولين والآخرين وسائر الخلائق فى صعيد واحد، يسمعهم الداعى، ويَنْفُذهم البصر، فيحكم فيهم بحكمه العدل الحق.

وقوله: ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ أى: مهما أصابكم أيها الناس من المصائب فإنما هو[(٢)] عن سيئات تقدمت لكم، ﴿ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ أى: من السيئات، فلا يجازيكم عليها بل يعفو عنها، ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ ﴾ [فاطر: ٤٥]. وفى الحديث الصحيح: «والذى نفسى بيده، ما يصيب المؤمن من نَصَب ولا وَصَب ولا هم ولا حُزَن، إلا كفر الله عنه بها من خطاياه، حتى الشوكة[(٣)] يشاكها»[(٤)].

وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُلَيَّة، حدثنا أيوب قال: قرأت فى كتاب أبى قِلاَبَة قال: نزلت: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ .وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، وأبو بكر يأكل، فأمسك وقال: يا رسول الله، إنى لراء ما عملت من خير وشر؟ فقال: «أرأيت ما رأيت مما تكره، فهو من مثاقيل ذَرّ الشر، وتدخر مثاقيل الخير حتى تعطاه يوم القيامة» قال: قال أبو إدريس: فإنى أرى مصداقها فى كتاب الله: ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾[(٥)].

ثم رواه من وجه آخر، عن أبى قِلاَبَة، عن أنس[(٦)]، قال: والأول أصح.

(١) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٥/ ١٩).

(٢) فى ت، أ: «هى». (٣) فى ت، أ: «بالشوكة».

(٤) صحيح البخارى برقم (٥٦٤١، ٥٦٤٢) وصحيح مسلم برقم (٢٥٧٣) «من حديث أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة رضى الله عنهما».

(٥) تفسير الطبرى (٢٥/ ٢٠).

(٦) تفسير الطبرى (٢٥/ ٢١).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا محمد بن عيسى بن الطباع، حدثنا مروان بن معاوية الفَزَارِى، حدثنا الأزهر بن راشد الكاهلى، عن الخَضْر بن القَوَّاس البجلى، عن أبى سخيلة[١]، عن على، رضى الله عنه، قال: ألا أخبركم بأفضل آية فى كتاب الله عز وجل، وحدثنا به رسول الله ﷺ، قال: ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾. وسأفسرها لك يا على: «ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء فى الدنيا، فبما كسبت أيديكم [٢]، والله تعالى أحلم من أن يُثَنِّى عليه العقوبة فى الآخرة، وما عفا الله عنه فى الدنيا فالله[٣] تعالى أكرم من أن يعود بعد عفوه».

وكذا رواه الإمام أحمد، عن مروان بن معاوية وعَبْدة، عن أبى سُخَيلة قال: قال على. . . فذكر نحوه مرفوعا[٤].

ثم روى ابن أبى حاتم [نحوه][٥] من وجه آخر موقوفا فقال: حدثنا أبى، حدثنا منصور بن أبى مزاحم، حدثنا أبو سعيد بن أبى الوضاح، عن أبى الحسن، عن أبى جُحَيفَة قال: دخلت على على ابن أبى طالب، رضى الله عنه، فقال: ألا أحدثكم بحديث ينبغى لكل مؤمن أن يَعيه[٦]؟ قال: فسألناه، فتلا[٧] هذه الآية: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾. قال: ما عاقب الله به فى الدنيا فالله أحلم من أن يُثَنِّى عليه العقوبة يوم القيامة، وما عفا الله عنه فى الدنيا فالله أكرم من أن يعود فى عفوه يوم القيامة.

وقال[٨] الإمام أحمد: حدثنا يعلى بن عبيد، حدثنا طلحة ـ يعنى ابن يحيى ـ عن أبى بُرْدَةَ، عن معاوية ـ هو ابن أبى سفيان، رضى الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من شىء يصيب المؤمن فى جسده يؤذيه إلا كَفَّرَ الله عنه به من سيئاته»[٩].

وقال أحمد أيضا: حدثنا حسين، عن زائدة، عن ليث، عن مجاهد[١٠]، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا كثرت ذنوب العبد، ولم يكن له ما يكفرها، ابتلاه الله بالحَزَنِ ليكفرها»[١١].

وقال[١٢] ابن أبى حاتم: حدثنا عمرو بن عبد الله الأودى، حدثنا أبو أسامة، عن إسماعيل بن مسلم، عن الحسن ـ هو البصرى ـ قال فى قوله: ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ قال: لما نزلت قال رسول الله ﷺ: «والذى نفس محمد بيده، ما من خَدْش عود، ولا اختلاج عِرْق، ولا عَثْرة قدم، إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر»[١٣].

وقال[١٤] أيضا: حدثنا أبى، حدثنا عمر بن على، حدثنا هُشَيْم، عن منصور، عن الحسن، عن

(١) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بإسناده». (٢) فى أ: «أيديكم ويعفو عن كثير». (٣) فى ت: «والله».
(٤) المسند (١/ ٨٥).
(٥) زيادة من أ. (٦) فى أ: «يصيبه».
(٧) فى ت: «قبل». (٨) فى ت: «وروى».
(٩) المسند (٤/ ٩٨) قال الهيثمى فى المجمع (٢/ ٣٠١): «رجال أحمد رجال الصحيح».
(١٠) فى ت، م: «عن مجاهد، وروى أيضا».
(١١) المسند (٦/ ١٥٧).
(١٢) فى ت: «وروى».
(١٣) ورواه هناد بن السرى فى الزهد برقم (٤٣١) من طريق إسماعيل بن مسلم به مرسلا.
(١٤) فى ت: «وروى».

عمران بن حصين، رضى الله عنه، قال: دخل عليه بعض أصحابه وقد كان ابتلى فى جسده، فقال له بعضهم إنا لَنَبْتَئِسُ لك لما نرى فيك. قال: فلا تبتئس بما ترى، فإن ما ترى بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾.

[قال:][١] وحدثنا أبى: حدثنا يحيى بن عبد الحميد الحمَّانى، حدثنا جرير، عن أبى البلاد[٢] قال: قلت للعلاء بن بدر: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾، وقد ذهب بصرى وأنا غلام؟ قال: فبذنوب والديك.

وحدثنا أبى: حدثنا على بن محمد الطَّنَافسى، حدثنا وكيع، عن عبد العزيز بن أبى رواد، عن الضحاك[٣] قال: ما نعلم أحدا حفظ القرآن ثم نسيه[٤] إلا بذنب، ثم قرأ الضحاك: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾. ثم يقول الضحاك: وأى مصيبة أعظم من نسيان القرآن.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ (٣٢) إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ (٣٤) وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٣٥)﴾.

يقول تعالى: ومن آياته الدالة على قدرته وسلطانه، تسخيره البحر لتجرى فيه الفلك بأمره، وهى الجوارى فى البحر كالأعلام، أى: كالجبال، قاله مجاهد، والحسن، والسدى، والضحاك، أى: هى[٥] فى البحر كالجبال فى البر، ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ﴾ أى: التى تسير بالسفن[٦]، لو شاء لسكنها حتى لا تتحرك[٧] السفن، بل تظل راكدة لا تجىء ولا تذهب، بل واقفة على ظهره، أى: على وجه الماء ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ أى: فى الشدائد ﴿شَكُورٍ﴾ أى: إن فى تسخيره البحر وإجرائه الهوى بقدر ما يحتاجون إليه لسيرهم، لدلالات على نعمه تعالى على خلقه ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ أى: فى الشدائد، ﴿شَكُورٍ﴾ فى الرخاء.

وقوله: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾ أى: ولو شاء لأهلك السفن وغرقها بذنوب أهلها الذين هم راكبون عليها[٨]، ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ أى: من ذنوبهم. ولو أخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك كل من ركب البحر[٩].

وقال بعض علماء التفسير: معنى قوله: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾ أى: لو شاء لأرسل الريح قوية عاتية، فأخذت السفن وأحالتها[١٠] عن سيرها المستقيم، فصرفتها ذات اليمين أو ذات الشمال، آبقة لا تسير على طريق، ولا إلى جهة مقصد.

---

(١) زيادة من ت، أ. (٢) فى أ: «أبى العلا». (٣) فى ت: «وروى أيضا عن الضحاك».
(٤) فى أ: «سببه». (٥) فى أ: «هذه». (٦) فى ت: «تسير بها السفن».
(٧) فى ت: «يتحرك». (٨) فى ت، م، أ: «فيها». (٩) فى م: «كل من يركب فى البحر»، وفى أ: «كل من يركب البحر».
(١٠) فى ت، أ: «فأجالتها»، وفى م: «فاجتالتها».

وهذا القول هو يتضمن هلاكها، وهو مناسب للأول[١]، وهو أنه تعالى لو شاء لسكن الريح فوقفت، أو لقواه فشردت وأبقَت وهلكت. ولكن من لطفه[٢] ورحمته أنه يرسله بحسب الحاجة، كما يرسل المطر بقدر الكفاية، ولو أنزله كثيرا جدا لهدم البنيان، أو قليلا لما أنبت الزرع[٣] والثمار، حتى إنه يرسل إلى مثل بلاد مصر سيحا من أرض أخرى غيرها[٤]؛ لأنهم لا يحتاجون إلى مطر، ولو أنزل عليهم لهدم بنيانهم، وأسقط جدرانهم.

وقوله: ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أى: لا محيد لهم عن بأسنا ونقمتنا، فإنهم مقهورون بقدرتنا.

﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩)﴾ .

يقول تعالى محقرا بشأن الحياة الدنيا وزينتها، وما فيها من الزهرة والنعيم الفانى، بقوله: ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أى: مهما حصلتم وجمعتم فلا تغتروا به، فإنما هو متاع الحياة الدنيا، وهى دار دنيئة فانية زائلة لا محالة، ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ أى: وثواب الله خير من الدنيا، وهو باق سرمدى، فلا تقدموا الفانى على الباقى؛ ولهذا قال: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى: للذين صبروا على ترك الملاذ فى الدنيا، ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أى: ليعينهم على الصبر فى أداء الواجبات وترك المحرمات.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾، وقد قدمنا الكلام على الإثم والفواحش فى «سورة الأعراف» ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ أى: سجيتهم [وخلقهم وطبعهم][٥] تقتضى الصفح والعفو عن الناس، ليس سجيتهم الانتقام من الناس.

وقد ثبت فى الصحيح: أن رسول الله ﷺ ما انتقم لنفسه قط، إلا أن تنتهك حرمات الله[٦]. وفى حديث آخر: «كان يقول لأحدنا[٧] عند المعتبة: ماله؟ تربت جبينه»[٨].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا ابن أبى عمر، حدثنا سفيان، عن زائدة، عن منصور[٩]، عن إبراهيم قال: كان المؤمنون يكرهون أن يستذلوا، وكانوا إذا قدروا عفوا.

---

(١) فى ت، أ: «للقول الأول». (٢) فى أ: «لطف الله». (٣) فى ت، م: «الزروع».
(٤) فى أ: «عليها». (٥) زيادة من أ.
(٦) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٦١٢٦) من حديث عائشة بلفظ: «وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه فى شىء قط، إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم بها لله».
(٧) فى أ: «للرجل».
(٨) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٦٠٣١) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .
(٩) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بسنده».

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أى: اتبعوا رسله وأطاعوا أمره، واجتنبوا زجره، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾، وهى أعظم العبادات لله عز وجل، ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أى: لا يبرمون أمرا حتى يتشاوروا [١] فيه، ليتساعدوا بآرائهم فى مثل الحروب وما جرى مجراها، كما قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ولهذا كان عليه [الصلاة][٢] السلام، يشاورهم فى الحروب ونحوها، ليطيب بذلك قلوبهم. وهكذا لما حضرت عمر بن الخطاب [رضى الله عنه][٣] الوفاة حين طعن، جعل الأمر بعده شورى فى ستة نفر، وهم: عثمان، وعلى، وطلحة، والزبير، وسعد، وعبد الرحمن بن عوف، رضى الله عنهم أجمعين، فاجتمع رأى الصحابة كلهم على تقديم عثمان عليهم، رضى الله عنهم، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾، وذلك بالإحسان إلى خلق الله، الأقرب إليهم منهم فالأقرب.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ أى: فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم واعتدى عليهم، ليسوا بعاجزين ولا أذلة، بل يقدرون على الانتقام ممن بغى عليهم، وإن كانوا مع هذا إذا قدروا وعفوا، كما قال يوسف، عليه السلام، لإخوته: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ [وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ][٤]﴾ [يوسف: ٩٢]، مع قدرته على مؤاخذتهم ومقابلتهم على صنيعهم إليه، وكما عفا رسول الله ﷺ عن أولئك النفر الثمانين الذين قصدوه عام الحديبية، ونزلوا من جبل التنعيم، فلما قدر عليهم مَنَّ عليهم [٥] مع قدرته على الانتقام، وكذلك عفوه عن غَوْرَث بن الحارث، الذى أراد الفتك به [عليه السلام] [٦] حين اخترط سيفه وهو نائم، فاستيقظ، عليه السلام، وهو فى يده صلْتًا، فانتهره، فوضعه من يده، وأخذ رسول الله ﷺ السيف من يده، ودعا أصحابه، ثم أعلمهم بما كان من أمره وأمر هذا الرجل، وعفا عنه. وكذلك عفا عن لبيد بن الأعصم[٧]، الذى سحره، عليه السلام، ومع هذا لم يعرض له، ولا عاتبه، مع قدرته عليه. وكذلك عفوه، عليه السلام، عن المرأة اليهودية ـ وهى زينب أخت[٨] مرحب اليهودى الخيبرى الذى قتله محمود بن مسلمة ـ التى سمت الذراع يوم خيبر، فأخبره الذراع بذلك، فدعاها فاعترفت فقال: «ماحملك على ذلك» قالت: أردت إن كنت نبيا لم يضرك، وإن لم تكن نبيا استرحنا منك، فأطلقها، عليه الصلاة والسلام، ولكن لما مات منه بشر بن البراء قتلها به، والأحاديث والآثار فى هذا كثيرة جدا، والحمد لله[٩].

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾، كقوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا

(١) فى أ: «يشاورون». (٢) زيادة من ت. (٣) زيادة من ت.
(٤) زيادة من أ. (٥) فى ت، م،أ: «عنهم». (٦) زيادة من ت.
(٧) فى ت: «أعصم». (٨) فى ت، م: «بنت». (٩) فى أ: «ولله الحمد والمنة».

اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]. وكقوله[١] ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٩]، فشرع العدل وهو القصاص، وندب إلى الفضل وهو العفو، كقوله [تعالى][٢] : ﴿ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ [المائدة: ٤٥]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾أى: لا يضيع ذلك عند الله كما صح فى الحديث: «وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا». وقوله: ﴿ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ أى: المعتدين، وهو المبتدئ بالسيئة.

[وقال بعضهم: لما كانت الأقسام ثلاثة: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات، ذكر الأقسام الثلاثة فى هذه الآية فذكر المقتصد وهو الذى يفيض بقدر حقه لقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾، ثم ذكر السابق بقوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾، ثم ذكر الظالم بقوله: ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ فأمر بالعدل، وندب إلى الفضل، ونهى من الظلم][٣].

ثم قال: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ أى: ليس عليهم جناح فى الانتصار ممن ظلمهم.

قال ابن جرير[٤]: حدثنا محمد بن عبد الله بن بَزِيع[٥]، حدثنا معاذ بن معاذ، حدثنا[٦] ابن عَوْن قال: كنت أسأل عن الانتصار: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾، فحدثنى على ابن زيد[٧] بن جدعان، عن أم محمد ـ امرأة أبيه ـ قال ابن عون: زعموا أنها كانت تدخل على أم المؤمنين عائشة[٨] ـ قالت: قالت أم المؤمنين: دخل علينا رسول الله ﷺ، وعندنا زينب بنت جحش، فجعل يصنع بيده شيئا فلم يَفْطِنْ لها، فقلت بيده حتى[٩] فَطَّنته لها، فأمسك. وأقبلت زينب تقحم لعائشة، فنهاها، فأبت أن تنتهى. فقال لعائشة: «سُبِّيها» فسبتها فغلبتها، وانطلقت زينب فأتت عليا فقالت: إن عائشة تقع بكم، وتفعل بكم. فجاءت فاطمة فقال[١٠] لها: «إنها حبة أبيك ورب الكعبة» فانصرفت، وقالت لعلى: إنى قلت له كذا وكذا، فقال لى كذا وكذا. قال: وجاء على إلى النبى ﷺ فكلمه فى ذلك[١١].

هكذا ورد هذا السياق، وعلى بن زيد بن جدعان يأتى فى رواياته بالمنكرات غالبا، وهذا فيه نكارة، والحديث الصحيح خلاف هذا السياق، كما رواه النسائى وابن ماجه من حديث خالد بن سلمة الفأفاء، عن عبد الله البَهِىِّ، عن عروة قال: قالت عائشة، رضى الله عنها: ما علمتُ حتى دخلت علىَّ زينب بغير إذن وهى غضبى، ثم قالت لرسول الله ﷺ: حسبك إذا قلبت لك ابنة أبى بكر ذُرَيِّعَتَيْهَا ثم أقبلت على فأعرضت عنها، حتى قال النبى ﷺ: «دونك فانتصرى» فأقبلت عليها حتى رأيتها وقد يبس ريقها فى فمها، ما[١٢] ترد على شيئا. فرأيت النبى ﷺ يتهلل وجهه. وهذا لفظ

---

(١) فى ت: «وقوله».
(٢) زيادة من ت.
(٣) زيادة من ت، أ.
(٤) فى ت: «وروى ابن جرير»
(٥) فى أ: «سويع».
(٦) فى ت: «عن».
(٧) فى ت : «يزيد».
(٨) فى ت: «عائشة رضى الله عنها».
(٩) فى أ: «فقلت له حتى».
(١٠) فى ت: «فقالت».
(١١) تفسير الطبرى (٢٥/ ٢٤).
(١٢) فى م: «لم» .

النسائى[١].

وقال البزار: حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا أبو غسان، حدثنا أبو الأحوص، عن أبى حمزة، عن إبراهيم، عن الأسود[٢]، عن عائشة، رضى الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «من دعا على من ظلمه فقد انتصر».

ورواه الترمذى من حديث أبى الأحوص، عن أبى حمزة ـ واسمه ميمون ـ ثم قال: « لانعرفه إلا من حديثه، وقد تكلم فيه من قبل حفظه»[٣].

وقوله: ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ أى: إنما الحرج والعنت﴿ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أى: يبدؤون الناس بالظلم. كما جاء فى الحديث الصحيح: «المُستَبَّان ما قالا، فعلى البادئ ما لم يَعْتَد المظلوم».

﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أى: شديد موجع.

قال أبو بكر بن أبى شيبة: حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا سعيد بن زيد ـ أخو حماد بن زيد ـ حدثنا عثمان الشحام، حدثنا [٤] محمد بن واسع قال: قدمت مكة فإذا على الخندق مَنْظَرَة، فأخذت فانطلق بى إلى مروان بن المهلب، وهو أمير على البصرة، فقال: حاجتك يا أبا عبد الله. قلت: حاجتى إن استطعت أن تكون كما قال أخو بنى عدى. قال: ومن أخو بنى عدى؟ قال: العلاء بن زياد، استعمل صديقا له مرة على عمل، فكتب إليه: أما بعد فإن استطعت ألا تبيت إلا وظهرك خفيف، وبطنك خميص، وكفك نقية من دماء المسلمين وأموالهم، فإنك إذا فعلت [٥] ذلك لم يكن عليك سبيل، ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾فقال[٦]: صدق والله ونصح ثم قال: ما حاجتك يا أبا عبد الله؟ قلت: حاجتى أن تلحقنى بأهلى. قال: نعم. رواه ابن أبى حاتم[٧].

ثم إنه تعالى لما ذم الظلم وأهله وشرع القصاص، قال نادباً إلى العفو والصفح: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ أى: صبر على الأذى وستر السيئة، ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾.

قال سعيد بن جبير: [يعنى] [٨] لمن حق الأمور التى أمر الله بها، أى: لمن الأمور المشكورة والأفعال الحميدة [٩] التى عليها ثواب جزيل وثناء جميل.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عمران بن موسى الطرسوسى، حدثنا عبد الصمد بن يزيد ـ خادم الفُضَيل بن عياض ـ قال: سمعت [١٠] الفضيل بن عياض يقول[١١]: إذا أتاك رجل

(١) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٧٦) وسنن ابن ماجه برقم (١٩٨١) قال البوصيرى فى الزوائد (٢/ ١١٥): «هذا إسناد صحيح على شرط مسلم».

(٢) فى ت: «وروى البزار بسنده».

(٣) سنن الترمذى برقم (٣٥٥٢) ورواه ابن أبى شيبة فى المصنف (١٠/ ٣٤٧) وابن عدى فى الكامل (٦/ ٤١٢) من طريق أبى الأحوص به، وقال ابن عدى: «لا أعلم من يرويه عن أبى حمزة غير أبى الأحوص».

(٤) فى ت: «عن». (٥) فى أ: «قبلت». (٦) فى ت، أ: «فقال مروان».

(٧) المصنف لابن أبى شيبة (١٤/ ٦٣)

(٨) زيادة من أ. (٩) فى ت: «المحمودة». (١٠) فى ت« وعن».

(١١) فى ت: «قال».

يشكو إليك رجلا فقل: «ياأخى، اعف عنه». فإن العفو أقرب للتقوى، فإن قال: لا يحتمل قلبى العفو، ولكن أنتصر كما أمرنى الله [١] عز وجل. فقل له[٢]: إن كنت تحسن أن تنتصر وإلا فارجع إلى باب العفو، فإنه باب واسع، فإنه من عفا وأصلح فأجره على الله، وصاحب العفو ينام على فراشه بالليل، وصاحب الانتصار يقلب الأمور[٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى ـ يعنى ابن سعيد القطان ـ عن ابن عَجْلان، حدثنا سعيد بن أبى سعيد[٤]، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، أن رجلا شتم أبا بكر والنبى ﷺ جالس، فجعل النبى ﷺ يعجب ويتبسم، فلما أكثر رد عليه بعض قوله، فغضب النبى ﷺ وقام، فلحقه أبو بكر فقال: يا رسول الله، إنه كان يشتمنى وأنت جالس، فلما رددت عليه بعض قوله غضبت وقمت! قال: «إنه كان معك ملك يرد عنك، فلما رددت عليه بعض قوله حضر[٥] الشيطان، فلم أكن لأقعد مع الشيطان». ثم قال: «يا أبا بكر، ثلاث كلهن حق، ما من عبد ظُلم بمظلمة فيغضى عنها لله، إلا أعز الله بها نَصْرَه، وما فتح رجل باب عطية يريد بها صلة، إلا زاده الله بها كثرة، وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة ، إلا زاده الله بها قلة».

وكذا رواه أبو داود، عن عبد الأعلى بن حماد، عن سفيان بن عيينة ـ قال: ورواه صفوان بن عيسى، كلاهما عن محمد بن عَجْلان [٦] .ورواه من طريق الليث، عن سعيد المَقْبُرى، عن بشير بن المحرر،عن سعيد بن المسيب مرسلا[٧].

وهذا الحديث فى غاية الحسن فى المعنى، وهو سببُ سبه للصديق[٨].

﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ (٤٤) وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ (٤٥) وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ (٤٦) ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن نفسه الكريمة: إنه ما شاء [٩] كان ولا راد له، وما لم يشأ لم يكن فلا موجد له[١٠]، وأنه من هداه فلا مُضِل له، ومن يضلل [١١] فلا هادى له، كما قال: **﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾** [الكهف: ١٧].

ثم قال مخبرا عن الظالمين، وهم المشركون بالله **﴿ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾** أى: يوم القيامة يتمنون

(١) فى ت: «ربى». (٢) فى ت، أ: «قال له الفضيل». (٣) بعدها: «رواه ابن أبى حاتم».
(٤) فى ت: «وروى الإمام أحمد بسنده». (٥) فى ت، م، أ: «وقع».
(٦) المسند (٢/٤٣٦) وسنن أبى داود برقم (٤٨٩٦، ٤٨٩٧).
(٧) سنن أبى داود برقم (٤٨٩٧).
(٨) فى ت، أ: «وهذا الحديث فى غاية الحسن وهو مناسب للصديق»، وفى م: «وهذا الحديث فى غاية الحسن فى المعنى وهو مناسب للصديق».
(٩) فى ت: «ما شاء الله». (١٠) فى أ: «فلا مؤاخذة له». (١١) فى ت، م: «يضلل الله».

الرجعة إلى الدنيا، ﴿يقولون هل إلى مرد من سبيل﴾، كما قال[تعالى][(١)]: ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين . بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨].

وقوله: ﴿وتراهم يعرضون عليها﴾ أى: على النار ﴿خاشعين من الذل﴾، أى: الذى قد اعتراهم بما أسلفوا من عصيان الله، ﴿ينظرون من طرف خفي﴾ قال مجاهد: يعنى ذليل، أى ينظرون إليها مسارقة خوفا منها، والذى يحذرون منه واقع بهم لا محالة، وما هو أعظم مما فى نفوسهم، أجارنا الله من ذلك.

﴿وقال الذين آمنوا﴾أى: يقولون يوم القيامة: ﴿إن الخاسرين﴾ أى: الخسار [(٢)] الأكبر ﴿الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة﴾ أى: ذهب بهم إلى [(٣)] النار، فعدموا لذتهم فى دار الأبد، وخسروا أنفسهم، وفرق بينهم وبين أصحابهم وأحبابهم وأهاليهم وقراباتهم[(٤)]، فخسروهم، ﴿ألا إن الظالمين في عذاب مقيم﴾ أى: دائم سرمدى أبدى، لا خروج لهم منها ولا محيد لهم عنها.

وقوله: ﴿وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله﴾ أى: ينقذونهم مما هم فيه من العذاب والنكال، ﴿ومن يضلل الله فما له من سبيل﴾ أى: ليس له خلاص.

﴿ استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله ما لكم من ملجإ يومئذ وما لكم من نكير (٤٧) فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور (٤٨)﴾.

لما ذكر تعالى ما يكون فى يوم القيامة من الأهوال والأمور العظام الهائلة، حذّر منه وأمر بالاستعداد له، فقال: ﴿استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله﴾ أى: إذا أمر بكونه فإنه كلمح البصر يكون، وليس له دافع ولا مانع.

وقوله: ﴿ما لكم من ملجإ يومئذ وما لكم من نكير﴾ أى: ليس لكم حصن تتحصنون فيه، ولا مكان يستركم وتتنكرون فيه، فتغيبون عن بصره، تبارك وتعالى، بل هو محيط بكم بعلمه وبصره وقدرته، فلا ملجأ منه إلا إليه، ﴿يقول الإنسان يومئذ أين المفر . كلا لا وزر . إلى ربك يومئذ المستقر﴾[القيامة: ١٠ ـ ١٢].

وقوله: ﴿فإن أعرضوا﴾ يعنى: المشركين ﴿فما أرسلناك عليهم حفيظا﴾ أى: لست عليهم بمصيطر. وقال تعالى: ﴿ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال تعالى: ﴿فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾ [الرعد: ٤٠]. وقال هاهنا: ﴿إن عليك إلا البلاغ﴾ أى: إنما كلفناك أن تبلغهم رسالة الله إليهم.

---

(١) زيادة من ت.
(٢) فى أ: «الخاسر».
(٣) فى ت: «فى».
(٤) فى ت: «وأقربائهم».

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾ أى: إذا أصابه رخاء ونعمة فرح بذلك، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ يعنى الناس ﴿سَيِّئَةٌ﴾ أى: جدب ونقمة وبلاء وشدة، ﴿فَإِنَّ الإِنسَانَ كَفُورٌ﴾ أى: يجحد ما تقدم من النعمة[١] ولا يعرف إلا الساعة الراهنة، فإن أصابته نعمة أشر وبطر، وإن أصابته محنة يئس وقنط، كما قال رسول الله ﷺ[للنساء][٢] :«يا معشر النساء، تصدقن فإنى رأيتكن أكثر أهل النار» فقالت امرأة: ولِمَ يارسول الله؟ قال:«لأنكن تُكثرن الشكاية، وتكفرن العشير، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم تركت يوما قالت: ما رأيت منك خيرا قط»[٣] .وهذا حال أكثر الناس [٤] إلا من هداه الله وألهمه رشده، وكان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فالمؤمن كما قال رسول الله ﷺ:«إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن»[٥].

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠)﴾ .

يخبر تعالى أنه خالق السموات والأرض ومالكهما والمتصرف فيهما، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه يعطى من يشاء، ويمنع من يشاء، ولا مانع لما أعطى، ولا معطى لما منع، وأنه يخلق ما يشاء، و﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا﴾ أى: يرزقه البنات فقط ـ قال البغوى: ومنهم لوط، عليه السلام ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ أى: يرزقه البنين فقط. قال البغوى: كإبراهيم الخليل، عليه السلام ـ لم يولد له أنثى، ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾ أى: ويعطى من يشاء من الناس الزوجين الذكر والأنثى، أى: من هذا وهذا[٦] .قال البغوى: كمحمد، عليه الصلاة والسلام ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ أى: لا يولد له. قال البغوى: كيحيى وعيسى، عليهما السلام، فجعل الناس أربعة أقسام، منهم من يعطيه البنات، ومنهم من يعطيه البنين، ومنهم من يعطيه من النوعين ذكورا وإناثا، ومنهم من يمنعه هذا وهذا، فيجعله عقيما لا نسل له ولا يولد له، ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ﴾ أى: بمن يستحق كل قسم من هذه الأقسام، ﴿قَدِيرٌ﴾ أى: على من يشاء، من تفاوت الناس فى ذلك.

وهذا المقام شبيه بقوله تعالى عن عيسى:﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾[مريم:٢١] أى: دلالة لهم على قدرته، تعالى وتقدس، حيث خلق الخلق على أربعة أقسام، فآدم، عليه السلام، مخلوق من تراب، لا من ذكر ولا أنثى، وحواء، عليها السلام، [مخلوقة] [٧] من ذكر بلا أنثى، وسائر الخلق سوى عيسى [عليه السلام] [٨] من ذكر وأنثى، وعيسى، عليه السلام، من أنثى بلا ذكر فتمت الدلالة بخلق عيسى ابن مريم، عليهما السلام؛ ولهذا قال:﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾، فهذا المقام فى الآباء، والمقام الأول فى الأبناء، وكل منهما أربعة أقسام، فسبحان العليم القدير.

---

(١) فى ت، م: «النعم». (٢) زيادة من ت، م،أ.

(٣) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٧٩)من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنه، وبرقم (٨٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٤) فى ت، م،أ:«النساء».

(٥) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٩٩) من حديث صهيب رضى الله عنه.

(٦) فى ت: «هذا من هذا».

(٧) زيادة من م. (٨) زيادة من ت،م، وفى أ:«عيسى ابن مريم عليهما السلام».

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (٥١) وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (٥٣)﴾.

هذه مقامات [١] الوحى بالنسبة إلى جناب الله، عز وجل، وهو أنه تعالى تارة يقذف فى روع النبى ﷺ شيئا لا يتمارى فيه أنه من الله عز وجل، كما جاء فى صحيح ابن حبان، عن رسول الله ﷺ؛ أنه قال: «إن رُوح القُدُس نفث فى رُوعى: أن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب»[٢].

وقوله: ﴿أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾، كما كلم موسى، عليه السلام، فإنه سأل الرؤية بعد التكليم، فحجب عنها.

وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لجابر بن عبد الله: «ما كلم الله أحدا إلا من وراء حجاب، وإنه كلم أباك كفاحا» الحديث[٣]، وكان [أبوه][٤] قد قتل يوم أحد، ولكن هذا فى عالم البرزخ، والآية إنما هى فى الدار [٥] الدنيا.

وقوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾، كما ينزل جبريل [عليه السلام] [٦] وغيره من الملائكة على الأنبياء، عليهم السلام، ﴿إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾، فهو على عليم خبير حكيم.

وقوله[٧]: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ يعنى: القرآن، ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ أى: على التفصيل الذى شرع لك فى القرآن، ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ﴾ أى: القرآن ﴿نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾، كقوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

وقوله: ﴿وَإِنَّكَ﴾ [أى] [٨]يامحمد ﴿لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وهو الخلق [٩] القويم، ثم فسره بقوله: ﴿صِرَاطِ اللَّهِ [الَّذِي][١٠]﴾ أى: شرعه الذى أمر به الله، ﴿الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أى: ربهما ومالكهما والمتصرف فيهما، الحاكم الذى لا معقب لحكمه، ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾، أى ترجع الأمور، فيفصلها ويحكم فيها.

آخر تفسير سورة «[حم][١١] الشورى» والحمد لله رب العالمين

---

(١) فى ت: «مقدمات».

(٢) ورواه البغوى فى شرح السنة (١٤/ ٣٠٤) من طريق إسماعيل بن أبى خالد عن زبيد اليامى عمن أخبره عن ابن مسعود به.

(٣) رواه الترمذى فى السنن برقم (٣٠١٠) وقال: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه».

(٤) زيادة من ت، أ.

(٥) فى ت: «دار».

(٦) زيادة من م.

(٧) فى ت: «فقوله».

(٨) زيادة من م.

(٩) فى ت، م، أ: «الحق».

(١٠) زيادة من أ.

(١١) زيادة من أ.

تفسير سورة الشورى

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾

وقد تقدم الكلام على الحروف المقطعة . وقد روىٰ ابن جرير(١) هاهنا أثرًا غريبًا عجيبًا منكرًا ، فقال : حدثنا أحمد بن زُهَير ، حدثنا عبد الوهاب بن نَجْدَةَ الحَوْطي ، حدثنا أبو المغيرة عبد القدوس بن الحجاج ، عن أرطاة بن المنذر قال : جاء رجل إلىٰ ابن عباس فقال له - وعنده حُذَيفة بن اليمان - : أخبرني عن تفسير قول الله : ﴿ حم * عسق ﴾ ، قال : فأطرق ثم أعرض عنه ، ثم كرر مقالته فأعرض عنه ، فلم يجبه بشيء وكره مقالته ، ثم كررها الثالثة فلم يُحِرْ إليه شيئًا . فقال حذيفة : أنا أنبئك بها ، قد عرفت لِمَ كرهها[١] ؟ نزلت في رجل من أهل بيته يقال له : عبد الإله - أو : عبد الله - ينزل علىٰ نهر من أنهار المشرق [يبتني عليه مدينتين ، شق][٢] النهر بينهما شقًا ، فإذا أذن الله في زوال ملكهم وانقطاع دولتهم ومدتهم ، بعث الله علىٰ إحداهما نارًا ليلًا ، فتصبح سوداء مظلمة قد احترقت ، كأنها لم تكن مكانها ، وتصبح صاحبتها متعجبة : كيف أفلتت ! فما هو إلا بياض يومها ذلك ، حتىٰ يجتمع فيها كل

---

(١) - أخرجه ابن جرير (٦/٢٥) ، وابن أبي حاتم - كما في الدر المنثور - ونعيم بن حماد فى الفتن ص ١٣٥ ، ومن طريقه الخطيب فى تاريخه (٤٠/١) من طريق أبي المغيرة عبد القدوس بن حجاج ، عن أرطاة ابن المنذر ؛ قال : جاء رجل ... فذكره . وعند نعيم بن حماد ، والخطيب ... عن أرطاة بن المنذر ، عمن حدثه عن ابن عباس . فعندهما واسطة بين أرطاه بن المنذر ، وبين حضور لهذه القصة . وهو الأصوب . وعليه فإن هذا الإسناد ضعيفٌ ، إما لإرساله ، كما أخرجه الطبرى من مرسل أرطاة بن المنذر ، وإما لإبهام أحد رواته كما عند نعيم بن حماد « عن أرطاة عمن حدثه عن ابن عباس » وقد استنكره المصنف هاهنا كما ترى.

---

[١] - في ز : « كررها » . [٢] - في ت : « يبنى عليه مدينتان يشق » .

جبار عنيد منهم ، ثم[١] يخسف اللّٰه بها وبهم جميعًا ، فذلك قوله : ﴿ حم * عسق ﴾ ، يعني : عزيمة من اللّٰه تعالىٰ وفتنة وقضاء حُمّ : ﴿حم﴾ ، «عين» يعني : عدلًا منه ، «سين» : يعني سيكون ، « ق » : يعني واقع لهاتين المدينتين .

وأغرب منه ما رواه الحافظ أبو يعلىٰ الموصلي(٢) في الجزء الثاني من مسند ابن عباس ، وعن أبي ذر ، عن النبي صلىٰ اللّٰه عليه وسلم في ذلك ، ولكن إسناده ضعيف جدًّا ومنقطع ، فإنه قال :

حدثنا أبو طالب عبد الجبار بن عاصم ، حدثنا أبو عبد الملك الحسن بن يحيىٰ الخشني الدمشقي ، عن أبي[٢] معاوية قال : صعد عمر بن الخطاب المنبر فقال : أيها الناس ، هل سمع منكم[٣] أحد رسول الله صلىٰ اللّٰه عليه وسلم يفسر : ﴿ حم * عسق ﴾ ؟ فوثب ابن عباس فقال : أنا . قال : ﴿ حم ﴾ اسم من أسماء اللّٰه [تعالىٰ . قال : فعين؟ قال : عاين المولون عذاب يوم بدر . قال : فسين ؟ قال : سيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون . قال : فقاف ؟ فسكت ، فقام أبو ذر ففسر كما قال ابن عباس - رضي اللّٰه عنهما - وقال : قاف : قارعة من السماء تغشىٰ الناس][٤] .

وقوله : ﴿ **كذلك يوحي إليك وإلىٰ الذين من قبلك اللّٰه العزيزُ الحكيم** ﴾ أي : كما أنزل إليك هذا القرآن ، كذلك أنزل الكتب والصحف علىٰ الأنبياء قبلك . وقوله : ﴿ **اللّٰه العزيز** ﴾ أي في انتقامه ، ﴿ **الحكيم** ﴾ في أقواله وأفعاله .

قال الإمام مالك(٣) - رحمه الله - : عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة : أن الحارث بن هشام سأل رسول الله صلىٰ اللّٰه عليه وسلم [فقال : يا رسول الله][٥] ، كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله صلىٰ اللّٰه عليه وسلم : « **أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده عليّ فيفصِمُ عني ، وقد وعيت ما قال . وأحيانا يأتيني الملك رجلًا فيكلمني ، فأعي ما يقول** » . قالت عائشة : فلقد رأيتُه ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد ، فَيفصِم عنه ،

(٢) - عزاه في الدر المنثور إلى ابن عساكر ، وأبي يعلى ، وقال : إسناده ضعيف . وهو - كما قال المصنف - ضعيف جدًّا . الحسن بن يحيى ضعفه غير واحدٍ . وقال الدارقطني : متروك ، وقال ابن حبان : استحق الترك . والحديث عزاه في المطالب (٤٠٩٢) إلى أبي يعلى .

(٣) - أخرجه مالك في الموطأ « جامع القراءة » حديث (٢٧٠) ، والبخاري في بدء الوحي من صحيحه حديث (٢) ، ومسلم في الفضائل ، باب : طيب عرق النبي صلى الله عليه وسلم حديث (٢٢٣٣) من طريق هشام بن عروة به .

[١] - في ز : « من » .
[٢] - سقط من : خ .
[٣] - ما بين المعكوفتين في ز : « أحد منكم » .
[٤] - ما بين المعكوفتين بياض في خ ، ز .
[٥] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .

وإن جَبِينه ليتفصَّدُ عَرَقًا .

أخرجاه في الصحيحين ولفظه للبخاري .

وقد رواه الطبراني(٤) عن عبد اللّه ابن الإمام أحمد ، عن أبيه ، عن عامر بن صالح ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة ، عن الحارث بن هشام : أنه سأل رسول اللّه صلىٰ اللّه عليه وسلم : كيف ينزل عليك الوحي ؟ فقال : « **مثل صلصلة الجرس ، فيفصِمُ عني وقد وَعَيتُ ما قال**[١] » . قال: « **وهو أشده عليّ** » . قال : « **وأحيانًا يأتيني الملك فيتمثل لي فيكلمني ، فأعي ما يقول** » .

وقال الإمام أحمد (٥) : حدثنا قتيبة ، حدثنا ابن لَهِيعة ، عن يزيد بن أبي حبيب ، عن عمرو ابن الوليد ، عن عبد اللّه بن عمرو - رضي اللّه عنهما - قال : سألت رسول الله صلىٰ اللّه عليه وسلم فقلت : يارسول الله ، هل تحس بالوحي ؟ فقال رسول اللّه صلىٰ اللّه عليه وسلم : « **أسمع صلاصل ثم أسكن**[٢] **عند ذلك ، فما من مرة يوحىٰ إليّ إلا ظننت أن نفسي تُقبَض** » . تفرد به أحمد .

وقد ذكرنا كيفية إتيان الوحي إلىٰ رسول الله صلىٰ اللّه عليه وسلم في أول شرح البخاري بما أغنىٰ عن إعادته هاهنا ، وللّه الحمد والمنة .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **له ما في السماوات وما في الأرض** ﴾ أي : الجميع عبيد له وملك له ، تحت قهره وتصريفه ، ﴿ **وهو العلي العظيم** ﴾ ، [كقوله تعالىٰ][٣] : ﴿ **الكبير المتعال** ﴾ ﴿**وهو العلى الكبير**﴾ والآيات في هذا كثيرة .

---

(٤) - المعجم الكبير (٣٣٤٣) عن عبد الله بن أحمد به . والحديث أخرجه أحمد (٢٥٧/٦) عن عامر بن صالح - من ولد عبد الله بن الزبير ، قال : حدثني هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة ، عن الحارث بن هشام . فجعله أيضًا من مسند الحارث بن هشام . قال الحافظ فى الفتح (١٩/١) : ويحتمل أن يكون الحارث أخبرها بذلك بعد ، فيكون من مرسل الصحابة - يعنى حديث عائشة السابق - وهو محكوم بوصله عند الجمهور . وقد جاء ما يؤيد ذلك ؛ ففى مسند أحمد من طريق عامر بن صالح ... وساق حديث أحمد ثم عقّب قائلًا : وعامر ضعيف ، لكن وجدت له متابعًا ... والمشهور الأول . اهـ . يعنى أن المشهور الحديث من مسند عائشة لا من مسند هشام .

(٥) - المسند (٢٢٢/٢) . وعزاه فى المجمع (٢٥٦/٨) إلى الطبرانى وقال : إسناده حسن . قلت : فى إسناده ابن لهيعة ، والكلام فيه مشهور ، والحديث صحيح بما سبق من مسند عائشة ، والحارث بن هشام . والله أعلم .

---

[١] - في ت : « قاله » . [٢] - في ت : «أسكت » .

[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .

وقوله : ﴿ **تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن** ﴾ ، قال ابن عباس ، والضحاك ، وقتادة ، والسدي ، وكعب الأحبار : أي فَرَقًا من العظمة . ﴿ **والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض** ﴾ ، كقوله : ﴿ **الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلمًا** ﴾ وقوله : ﴿ **ألا إن الله هو الغفور الرحيم** ﴾ إعلام بذلك وتنويه به .

وقوله : ﴿ **والذين اتخذوا من دونه أولياء** ﴾ يعني المشركين ﴿ **الله حفيظ عليهم** ﴾ أي : شهيد على أعمالهم ، يحصيها ويَعدّها عدًّا ، وسيجزيهم بها أوفر الجزاء . ﴿ **وما أنت عليهم بوكيل** ﴾ أي : إنما أنت نذير ، والله على كل شيء وكيل .

وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾

يقول تعالى : وكما أوحينا إلى الأنبياء قبلك ، ﴿ **أوحينا إليك قرآنًا عربيًا** ﴾ أي : واضحًا جليًا بينًا ، ﴿ **لتنذر أم القرى** ﴾ وهي مكة ﴿ **ومن حولها** ﴾ أي : من سائر البلاد شرقًا وغربًا . وسُمّيت مكة « أمّ القرى » ؛ لأنها أشرف من سائر[١] البلاد ، لأدلة كثيرة مذكورة في مواضعها . ومن أوجز ذلك وأدله ما قال الإمام أحمد(٦) :

حدثنا أبو اليمان ، حدثنا شعيب ، عن الزهري ، أخبرنا أبو سلمة بنُ عبد الرحمن أن عبد الله ابن عديّ بن الحمراء الزهري أخبره ، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو واقف

---

(٦) – المسند (٣٠٥/٤) ، وأخرجه عبد بن حميد (٤٩١) ، والدارمى (٢٥١٣) ، والترمذى فى المناقب ، باب : فضل مكة (٣٩٢٥) ، والنسائى فى الكبرى : كتاب الحج ، باب : فضل مكة (٤٢٥٢ - ٤٢٥٣) ، وابن ماجه فى المناسك ، باب فضل مكة (٣١٠٨) ، وابن حبان (٣٧٠٨) ، وابن أبى عاصم فى الآحاد والمثانى (٦٢١) ، والفسوى فى التاريخ (٢٤٤/١) ، والحاكم (٤٣١/٣) ، وابن الأثير فى أسد الغابة (٣/ ٣٣٦) ، وابن حزم فى المحلى (٢٨٩/٧) ، والمزى فى تهذيب الكمال (٢٩١/١٥) ، من طرق عن الزهرى عن أبى سلمة عن عبد الله بن عدى به . ورواه ابن أخى الزهرى عند الحاكم (٢٨٠/٣) عن الزهرى عن محمد بن جبير - بدلاً من أبى سلمة - عن عبد الله بن عدى فذكره ، وابن أخى الزهرى روايته ضعيفة فى الزهرى انظر شرح العلل ص ٢٦٧ - ٢٦٨ . ورواه عبد الرزاق عن معمر - عند أحمد (٣٠٥/٤) =

---

[١] - سقط من : خ .

بالحَزْوَرَة[١] في سوق مكة : «والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت». وهكذا رواه[٢] الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، من حديث الزهري، به . وقال الترمذي : حسن صحيح .

وقوله : ﴿ وتنذر يوم الجمع ﴾ ، وهو يوم القيامة ، يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد .

وقوله: ﴿لا ريب فيه﴾ أي: لا شك في وقوعه وأنه كائن لا محالة.

وقوله : ﴿ فريق في الجنة وفريق في السعير ﴾ ، كقوله : ﴿ يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ﴾ أي: يغبن[٣] أهل الجنة أهل النار وكقوله تعالىٰ : ﴿ ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود * وما نؤخره إلا لأجل معدود * يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد ﴾ .

قال الإمام أحمد(٧) : حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا ليث ، حدثني أبو قَبيل[٤]

= والنسائي في الكبرى (٤٢٥٤) ، والبزار ٢/ ٤٠ (١١٥٦ - كشف) - عن الزهرى عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة . فجعله من مسند أبي هريرة . وهذه الرواية وهمٌ . قال البزار : لا نعلم رواه عن الزهرى إلا معمر اهـ . يعنى بهذا الإسناد ، قال الحافظ في الإصابة (١٦٣/٦) : اختلف على الزهرى فيه ، فقال الأكثر : عن أبي سلمة عن عبد الله بن عدى بن الحمراء ، وقال معمر : عن الزهرى عن أبي سلمة عن أبي هريرة ومرة أرسله ، وقال ابن أخي الزهرى : عن محمد بن جبير بن مطعم عن عبد الله بن عدى . والمحفوظ الأول . قال البغوى لا أعلم له غيره . اهـ . وثمَّ خلافٌ آخر على الزهرى في هذا الحديث انظره في علل ابن أبي حاتم (٢٨٢/١) ورواه البزار برقم (١١٥٧ - كشف) من طريق محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة . وهذه الرواية أيضًا وهمٌ . فقد تفرد بها محمد بن عمرو ، قال الترمذى : وحديث الزهرى عن أبي سلمة عن عبد الله بن عدى ، أصح . وقال ابن أبي حاتم ، وأبو زرعة كما في العلل (١/ ٢٨٠) عن حديث محمد بن عمرو : هذا خطأ ، وهم فيه محمد بن عمرو ، ورواه الزهرى عن أبي سلمة عن عبد الله بن عدى وهو الصحيح . اهـ .

(٧) - المسند (١٦٧/٢) ، وأخرجه الدارمي في الرد على الجهمية (٢٦٣) ، والترمذى في القدر (٢١٤١) ، والنسائي في التفسير من الكبرى (١١٤٧٣) ، والطبرى في التفسير (٧/٢٥) ، وابن أبي عاصم في السنة (٣٤٨) ، وابن وهب في القدر (١٣) والفريابى في القدر (٤٥ - ٤٦) ، وأبو نعيم في الحلية ١٦٨/٥ - ١٦٩ ، والبغوى في التفسير من طرق عن أبي قبيل عن شُفى عن عبد الله بن عمرو به ، وهذا الإسناد جيد قوى . أبو قبيل وثقه غير واحد . وقال الحافظ : صدوق يهم . وشفى : تابعى جليل ، وترجم له بعضهم في كتب الصحابة . وللعلامة أحمد شاكر كلام نفيس على توجيه معنى هذا الحديث ، فانظره في تحقيقه لهذا الحديث على مسند أحمد . والحديث أخرجه البغوى في تفسيره (١٢٠/٤) من وجه آخر عن عبد الله بن عمرو عن النبى ، صلى الله عليه وسلم .

[١] - في ز : « بالحزورة » .
[٢] - في ت : « رواية » .
[٣] - في ت : « يخدم » .
[٤] - في ز : « قيل » .

المَعَافري[١] ، عن شُفَي الأصبحي ، عن عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما- قال : خرج علينا رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم وفي يده كتابان ، فقال : « **أتدرون ما هذان الكتابان؟** » . قال[٢] : قلنا : لا ، إلا أن تخبرنا يارسول الله . قال للذي في يده اليُمني : « **هذا كتاب من رب العالمين ، بأسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم ، ثم أجملَ علىٰ آخرهم لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبدًا** » . ثم قال للذي في يساره : « **هذا كتاب أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم ، ثم أجمل علىٰ آخرهم ، لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبدًا** » . فقال أصحاب رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : فلأي شيء إذًا[٣] نعمل إن كان هذا أمرًا[٤] قد فُرغ منه ؟ فقال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : « **سَدّدوا وقاربوا ، فإن صاحب الجنة يختم له بعمل الجنة ، وإن عمل أيّ عمل ، وإن صاحب النار ليختم له بعمل النار ، وإن عمل أيّ عمل** » . ثم قال بيديه فقبضهما[٥] ، ثم قال : « **فرغ ربكم - عز وجل - من العباد** » . ثم قال باليمنىٰ فنبذ بها فقال : « **فريق في الجنة** » ، ونبذ باليسرىٰ فقال : « **فريق في السعير** » .

وهكذا رواه الترمذي والنسائي جميعًا ، عن قتيبة ، عن الليث بن سعد وبكر بن مضر ، كلاهما عن أبي قَبيل[٦] ، عن شُفَيّ بن مانع الأصبحي ، عن عبد الله بن عمرو ، به .

وقال الترمذي: «**حسن صحيح غريب**» . وساقه البغوي في تفسيره من طريق بشر بن بكر ، عن سعيد بن عثمان ، عن أبي الزاهرية ، عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم ، فذكره بنحوه. وعنده زيادات منها؛ ثم قال: « **فريق في الجنة وفريق في السعير، عدل من الله عز وجل** » .

ورواه ابن أبي حاتم عن أبيه عن عبد الله بن صالح - كاتب الليث - عن الليث ، به

ورواه ابن جرير(٨) عن يونس ، عن ابن وهب ، عن عمرو بن الحارث ، عن أبي قَبيل ، عن شُفَي ، عن رجل من الصحابة ، فذكره ثم روىٰ عن يونس ، عن ابن وهب ، عن عمرو بن

(٨) - تفسير الطبرى (٧/٢٥) بهذا الإسناد . وأخرجه البيهقى فى الأسماء والصفات (٧١٣) من طريق آخر عن يحيى بن أسيد به . وقول المصنف : (والموقوف أشبه) . يفهم منه أنه جعل حديث عبد الله ابن عمرو المرفوع وحديثه الموقوف حديثًا واحدًا وعليه رجح الموقوف ، والذى يظهر لي أنهما حديثان مختلفان ، والمرفوع فيه زيادات ليست فى الموقوف ، وإن كان الموقوف جزءًا منه والله أعلم . هذا وإسناد الموقوف ضعيفٌ ، يحيى بن أبي أسيد ترجم له البخارى فى التاريخ (٢٦١/٨) ، وابن أبي حاتم فى الجرح والتعديل (١٢٩/٩) ولم يذكرا فيه جرحًا ولا تعديلًا وروى عنه جماعة ، ولم يوثقه معتبر فهو مجهول الحال.

[١] - في ز : « المغافري » .
[٢] - سقط من : خ ، ز .
[٣] - سقط من : خ ، ز .
[٤] - في ت : « أمر » .
[٥] - في ت : « فقبضها » .
[٦] - في ز : « قيل » .

الحارث وحيوة بن شريح ، عن يحيىٰ بن [أبي أسيد][١] : أن أبا فراس حَدّثه : أنه سمع عبد الله ابن عمرو يقول : إن الله لما خلق آدم نفضه نفض المزْوَد[٢] وأخرج منه كل ذريته فخرج أمثال النغف فقبضهم قبضتين ، ثم قال : شقي وسعيد . ثم ألقاهما ثم قبضهما فقال : فريق في الجنة وفريق في السعير . وهذا الموقوف أشبه بالصواب . والله أعلم .

وقال الإمام أحمد رحمه الله(٩) : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا حماد - يعني ابن سلمة - أخبرنا الجُرَيري ، عن أبي نضرة أن رجلًا من أصحاب النبي صلىٰ الله عليه وسلم يقال له : أبو عبد الله ، دخل عليه أصحابه يعودونه وهو يبكي ، فقالوا له : ما يُبكيك ؟ ألم يقل لك رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : « **خذ من شاربك ثم أقره حتىٰ تلقاني** » . قال : بلىٰ ، ولكن سمعت رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم يقول : « **إن الله قبض بيمينه[٣] قبضة ، وأخرىٰ باليد الأخرىٰ ، قال : هذه لهذه ، وهذه لهذه ولا أبالي** » . فلا أدري في أيّ القبضتين أنا .

وأحاديث القدر في الصحاح والسنن والمسانيد كثيرة جدًا ، منها حديث علي ، وابن مسعود ، وعائشة ، وجماعة جمة .

وقوله : ﴿ **ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة** ﴾ أي : إما علىٰ الهداية أو علىٰ الضلالة ، ولكنه تعالىٰ فاوت بينهم ، فهدىٰ من شاء[٤] إلىٰ الحق ، وأضل من شاء[٥] عنه ، وله الحكمة والحجة البالغة . ولهذا قال : ﴿ **ولكن يدخل من يشاء في رحمته والظالمون ما لهم من وليّ ولا نصير** ﴾ .

وقال ابن جرير(١٠) : حدثني يونس أخبرنا ابن وهب ، أخبرني عمرو بن الحارث ، عن أبي

---

(٩) - المسند (١٧٦/٤) ، (٦٨/٥) وذكره ابن الأثير فى أسد الغابة (٢١٥/٦) من طريق حماد بن سلمة عن سعيد الجريرى به وهذا الإسناد صحيح على شرط مسلم ، والجريري وإن كان قد اختلط بأخرة إلا أن حماد بن سلمة ممن سمع منه قبل الاختلاط كما ذكر العجلى فى ثقاته (٣٩٤/١) والحديث ذكره الهيثمى فى المجمع (١٨٦/٧) وقال : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح اهـ ، وفى القبضتين أحاديث انظر الأسماء والصفات للبيهقى (٧٠٥ - ٧١٥) ، والصحيحة (٤٧ - ٥٠) .

(١٠) - أخرجه الطبرى فى تفسيره (٩/٢٥) ووقع في المطبوع من التفسير « ... عن عمرو بن الحارث ، عن أبي شُبُّويه عن ابن حجيرة » ولا أعرف من سماه بأبي شبويه ، وإنما ترجم له المزى فى تهذيبه باسم أبي سَوِيَّة ، وترجم له ابن حبان باسم أبي سويد كما عند المصنف ، وقال : وقد غلط من سماه أبا سوية ، وقال الحافظ فى التقريب : أبو سويد ويقال : أبو سوية ، فالله أعلم ، قال ابن حجر فى التقريب : صدوق اهـ ، وأثنى عليه ابن يونس ، وابن ماكولا وعلى كل فلا يخفى أن الحديث بهذا السياق ضعيف من حيث =

---

[١] - ما بين المعكوفتين في ز : « الأسيد » .
[٢] - في ز : « المرود » .
[٣] - سقط من : خ .
[٤] - في ت : « يشاء » .
[٥] - في ت : « يشاء » .

سويد حدثه ، عن ابن حُجَيرة : أنه بلغه أن موسىٰ - عليه السلام - قال : يارب خَلقُك الذين خلقتهم ، جعلت منهم فريقًا في الجنة وفريقًا في النار ، لوما أدخلتهم كلهم الجنة ؟ ! فقال : يا موسىٰ ، ارفع ذَرْعك . فرفع ، قال : قد رفعت . قال : ارفع . فرفع[١] ، فلم يترك شيئًا ، قال : يارب ، قد رفعت . قال : ارفع . قال : قد رفعت ، إلا ما لا خير فيه . قال : كذلك أدخل خلقي كلهم الجنة ، إلا ما لا خير فيه .

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ الْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾

يقول تعالىٰ منكرًا علىٰ المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله ، ومخبرًا أنه الولي الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده ، فإنه القادر علىٰ إحياء الموتىٰ وهو علىٰ كل شيء قدير .

ثم قال : ﴿ **وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلىٰ الله** ﴾ أي : مهما اختلفتم فيه من الأمور ، وهذا عام في جميع الأشياء ، ﴿ **فحكمه إلىٰ الله** ﴾ أي هو الحاكم فيه بكتابه وسنة نبيه صلىٰ الله عليه وسلم ، كقوله : ﴿ **فإن تنازعتم في شيء فردوه إلىٰ الله والرسول** ﴾ ﴿ **ذلكم الله ربي** ﴾ أي : الحاكم في كل شيء ، ﴿ **عليه توكلت وإليه أنيب** ﴾ ، أي : أرجع في جميع الأمور .

وقوله : ﴿ **فاطر السموات والأرض** ﴾ أي : خالقهما وما بينهما ، ﴿ **جعل لكم من أنفسكم أزواجًا** ﴾ أي : من جنسكم وشكلكم ، مِنَّةً عليكم وتفضلًا ، جعل من جنسكم ذكرًا وأنثى ﴿ **ومن الأنعام أزواجًا** ﴾ أي : خلق لكم في الأنعام ثمانية أزواج .

وقوله : ﴿ **يذرؤكم فيه** ﴾ أي : يخلقكم فيه ، أي : في ذلك الخلق علىٰ هذه الصفة لا

= الإسناد فإنه من بلاغات ابن حجيرة عن موسى عليه السلام ، وقد ورد نحو هذا الأثر عن موسى من بلاغات عمار ابن يسار عن ابن عساكر فى تاريخه ٣٧١/١٧ مخطوط « ترجمة موسى بن عمران عليه السلام » .

[١] - سقط من : خ .

يزال يذرؤكم[١] فيه ذكور وإناث ، خلقًا من بعد خلق ، وجيلًا بعد جيل ونسلًا بعد نسل من الناس والأنعام .

[وقال البغوي رحمه الله : ﴿ **يذرؤكم فيه** ﴾ أي : في الرحم . وقيل : في البطن . وقيل : في[٢] هذا الوجه من الخلقة .

قال مجاهد: ونسلًا بعد نسل في الناس والأنعام][٣]. وقيل : « **في** » بمعنىٰ « **الباء** » ، أي : يذرؤكم به .

﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾ أي : ليس كخالق الأزواج كلها شيء ؛ لأنه الفرد الصمد الذي لا نظير له ، ﴿ **وهو السميع البصير** ﴾ .

وقوله : ﴿ **له مقاليد السموات والأرض** ﴾ تقدم تفسيره في « **سورة الزمر** » ، وحاصل ذلك أنه المتصرف الحاكم[٤] فيهما ، ﴿ **يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر** ﴾ أي : يوسع علىٰ من يشاء ، ويضيق علىٰ من يشاء ، و[٥]له الحكمة والعدل التام ، ﴿ **إنه بكل شيء عليم** ﴾ .

۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾

يقول تعالىٰ لهذه الأمة : ﴿ **شرع لكم من الدين ما وصىٰ به نوحًا والذي أوحينا إليك** ﴾ ، فذكر أول الرسل بعد آدم وهو نوح - عليه السلام - وآخرهم وهو محمد صلىٰ الله عليه وسلم ثم ذكر من بين ذلك من أولي العزم وهم : إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ ابن مريم عليهم السلام . وهذه الآية انتظمت ذكر الخمسة ، كما اشتملت آية « **الأحزاب** » عليهم في قوله :

---

[١] - بعده في ت : يذرؤكم .

[٢] - سقط من : ز .

[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .

[٤] - سقط من : خ .

[٥] - سقط من : ز .

﴿ **وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ ابن مريم** ﴾ الآية . والدين الذي جاءت به الرسل كلهم هو : عبادة اللّٰه وحده لا شريك له ، كما قال : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا يُوحىَ إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾ . وفي الحديث : « **نحن معشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد** »(١١) . أي : القدر المشترك بينهم هو عبادة اللّٰه وحده لا شريك له ، وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم ؛ كقوله تعالىٰ : ﴿ **لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجًا** ﴾ ، ولهذا قال هاهنا : ﴿ **أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه** ﴾ أي : وصىٰ اللّٰه سبحانه وتعالىٰ جميع الأنبياء عليهم السلام بالائتلاف والجماعة ، ونهاهم عن الافتراق والاختلاف .

وقوله : ﴿ **كبر على المشركين ما تدعوهم إليه** ﴾ أي : شق عليهم وأنكروا ما تدعوهم إليه يا محمد ، من التوحيد .

ثم قال : ﴿ **اللّٰه يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب** ﴾ أي : هو الذي يُقدِّر الهداية لمن يستحقها ، ويكتب الضلالة علىٰ من آثرها علىٰ طريق الرشد ، ولهذا قال : ﴿ **وما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم** ﴾ أي : إنما كان مخالفتهم للحق بعد بلوغه إليهم ، وقيام الحجة عليهم ، وما حملهم علىٰ ذلك إلا البغيُ والعنادُ والمشاقة .

ثم[١] قال تعالىٰ : ﴿ **ولولا كلمة سبقت من ربك إلىٰ أجل مسمى** ﴾ أي : لولا الكلمة السابقة من اللّٰه بإنظار العباد بإقامة حسابهم إلىٰ يوم المعاد ، لعجل لهم العقوبة في الدنيا سريعًا .

وقوله : ﴿ **وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم** ﴾ ، يعني : الجيل المتأخر بعد القرن الأول المكذِّب للحق ﴿ **لفي شك منه مريب** ﴾ أي : ليسوا علىٰ يقين من أمرهم ، وإنما هم مقلدون لآبائهم وأسلافهم ، بلا دليل ولا بُرهان، وهم في حيرة من أمرهم، وشك مريب ، وشقاق بعيد .

فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة علىٰ عشر كلمات مستقلات ، كل منها منفصلة عن التي قبلها ، حكم برأسه ، قالوا : ولا نظير لها سوىٰ آية الكرسي ، فإنها أيضا عشرة فصول كهذه .

فقوله[٢] : ﴿ **فلذلك فادع** ﴾ أي : فَلِلَّذي أوحينا إليك من الدين الذي وصّينا به جميعَ

---

[١] - سقط من : ز .   [٢] - في ت : « قوله » .

المرسلين قبلك أصحابَ الشرائع الكبار المتبعة كأولي العزم وغيرهم ، فادعُ الناس إليه .

وقوله : ﴿ **واستقم كما أمرت** ﴾ أي : واستقم أنت ومن اتبعك على عبادة الله كما أمرك الله عز وجل

وقوله : ﴿ **ولا تتبع أهواءهم** ﴾ ، يعني : المشركين فيما اختلقوه ، وكذبوه ، وافتروه من عبادة الأوثان .

وقوله : ﴿ **وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب** ﴾ أي : صَدّقتُ بجميع الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء ، لا نفرق بين أحد منهم .

وقوله : ﴿ **وأمرت لأعدل بينكم** ﴾ أي : في الحكم كما أمرني الله .

وقوله : ﴿ **الله ربنا وربكم** ﴾ أي : هو المعبود ، لا إله غيره ، فنحن نقر بذلك اختيارًا ، وأنتم وإن لم تفعلوه اختيارًا ، فله يسجد من في العالمين طوعًا واختيارًا .

وقوله : ﴿ **لنا أعمالنا ولكم أعمالكم** ﴾ أي : نحن برآء منكم ، كما قال تعالى : ﴿ **وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون** ﴾ .

وقوله : ﴿ **لا حجة بيننا وبينكم** ﴾ ، قال مجاهد : أي لا خُصُومة . قال السدي : وذلك قبل نزول آية السيف . وهذا مُتَّجه ؛ لأن هذه الآية مكية ، وآية السيف بعد الهجرة .

وقوله : ﴿ **الله يجمع بيننا** ﴾ أي : يوم القيامة ، كقوله : ﴿ **قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم** ﴾ .

وقوله : ﴿ **وإليه المصير** ﴾ أي : المرجع والمآب يوم الحساب .

وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾

يقول تعالى متوعدًا الذين يَصُدّون عن سبيل الله مَن آمن به : ﴿ **والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له** ﴾ أي : يجادلون المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله ، ليصدوهم عما سلكوه من طريق الهدى ، ﴿ **حجتهم داحضة عند ربهم** ﴾ أي : باطلة عند الله ، ﴿ **وعليهم**

غضب ﴾ أي : منه ، ﴿ **ولهم عذاب شديد** ﴾ أي يوم القيامة .

قال ابن عباس ، ومجاهد : جادلوا المؤمنين بعدما استجابوا للّٰه ولرسوله ، ليصدوهم عن الهدىٰ ، وطَمعوا أن تعود الجاهلية .

وقال قتادة : هم اليهود والنصارىٰ ، قالوا لهم : ديننا خير من دينكم ، [ونبينا قبل نبيكم ، ونحن خير منكم][١] ، وأولىٰ باللّٰه[٢] منكم . وقد كذبوا في ذلك .

ثم قال : ﴿ **اللّٰه الذي أنزل الكتاب بالحق** ﴾ ، يعني : الكتب المنزلة من عنده علىٰ أنبيائه ﴿ **والميزان** ﴾ ، وهو : العدل والإِنصاف . قاله مجاهد ، وقتادة . وهذه كقوله تعالىٰ : ﴿ **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط** ﴾ وقوله : ﴿ **والسماء رفعها ووضع الميزان * ألا تطغوا في الميزان * وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان** ﴾ .

وقوله : ﴿ **وما يدريك لعل الساعة قريب** ﴾ فيه ترغيب فيها وترهيب منها وتزهيد[٣] في الدنيا .

وقوله : ﴿ **يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها** ﴾ أي : يقولون : ﴿ **متىٰ هذا الوعد إن كنتم صادقين** ﴾ ؟ وإنما يقولون ذلك تكذيبًا واستبعادًا ، وكفرًا وعنادًا . ﴿ **والذين آمنوا مشفقون منها** ﴾ أي : خائفون وَجِلُون من وقوعها ، ﴿ **ويعلمون أنها الحق** ﴾ أي : كائنة لا محالة ، فهم مستعدون لها عاملون من أجلها .

وقد روي من طرق تبلغ درجة التواتر في الصحاح والحسان والسنن والمسانيد وفي بعض ألفاظه : أن رجلًا سأل رسول الله صلىٰ اللّٰه عليه وسلم بصوت جهوريّ ، وهو في بعض أسفاره ، فناداه فقال : يا محمد . فقال له النبي صلىٰ اللّٰه عليه وسلم [نحوًا من صوته][٤] : « **هاؤم** » . فقال : متىٰ الساعة ؟ فقال له رسول الله صلىٰ اللّٰه عليه وسلم : « **ويحك ، إنها كائنة ، فما أعددت لها ؟** » . فقال : حُبّ اللّٰه ورسولِه . فقال : « **أنت مع من أحببت** »(١٢) .

(١١) - أخرجه البخارى فى أحاديث الأنبياء برقم (٣٤٤٢ ، ٣٤٤٣) ، ومسلم فى كتاب الفضائل باب فضل عيسى عليه السلام برقم (٢٣٦٥) من حديث أبى هريرة .

(١٢) - أخرجه البخارى فى كتاب الأدب باب علامة الحب في الله حديث رقم (٦١٧١) ، ومسلم فى البر والصلة باب المرء مع من أحب حديث (٢٦٣٩) من حديث أنس بن مالك ، وأخرجه البخارى فى الموضع السابق حديث (٦١٦٨ - ٦١٧٠) ، ومسلم فى الموضع السابق حديث (٢٦٤٠ - ٢٦٤١) من حديث عبد الله بن مسعود .

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .

[٢] - سقط من : ز .

[٣] - في ز : « تزهد » .

[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .

فقوله في الحديث : « **المرء مع من أحب** » . هذا متواتر لا محالة ، والغرض أنه لم يجبه عن وقت الساعة ، بل أمره بالاستعداد لها .

وقوله : ﴿ **ألا إن الذين يمارون في الساعة** ﴾ أي : يحاجّون في وجودها ويدفعون وقوعها ، ﴿ **لفي ضلال بعيد** ﴾ أي : في جهل بيّن ؛ لأن الذي خلق السماوات والأرض قادرٌ علىٰ إحياء الموتىٰ بطريق الأولىٰ والأحرىٰ ، كما قال : ﴿ **وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه** ﴾.

اللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن لطفه بخلقه في رزقه إياهم عن آخرهم ، لا ينسىٰ أحدًا منهم ، سواء في رزقه البرّ والفاجر ؛ كقوله تعالىٰ : ﴿ **وما من دابة في الأرض إلا علىٰ الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين** ﴾ . ولها نظائر كثيرة .

وقوله : ﴿ **يرزق من يشاء** ﴾ أي : يوسع علىٰ من يشاء ، ﴿ **وهو القوي العزيز** ﴾ أي : لا يعجزه شيء .

ثم قال : ﴿ **من كان يريد حرث الآخرة** ﴾ أي : عمل الآخرة ، ﴿ **نزد له في حرثه** ﴾ أي : نقويه ونعينه علىٰ ما هو بصدده ، ونكثر نماءه ، ونجزيه بالحسنة عشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف ، إلىٰ ما يشاء الله . ﴿ **ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب** ﴾ أي : ومن كان إنما سعيه ليحصل له شيء من الدنيا ، وليس له إلىٰ الآخرة همّة ألبتة[١] بالكلية ، حرمه الله الآخرة ، والدنيا إن شاء أعطاه منها ، وإن لم يشأ لم يحصل له لا

[١] - سقط من : ز .

هذه ولا هذه ، وفاز هذا الساعي بهذه النية بالصفقة الخاسرة في الدنيا والآخرة .

والدليل علىٰ هذا أن هذه الآية هاهنا مُقَيَّدة بالآية التي في « سبحان » وهي قوله تعالىٰ : ﴿ **من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذمومًا مدحورًا * ومن أراد الآخرة وسعىٰ لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورًا * كلًّا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورًا * انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلًا** ﴾ .

وقال[١] الثوري : عن مُغيرَة ، عن أبي العالية ، عن أبي بن كعب قال : قال رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم : « **بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة ، والنصرة والتمكين في الأرض ، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا ، لم يكن له في الآخرة من نصيب** »(١٣) .

وقوله : ﴿ **أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله** ﴾ أي : هم لا يتبعون ما شرع اللّٰه لك من الدين القويم ، بل يتبعون ما شرع لهم شياطينهم من الجن والإنس ، من تحريم ما حرموا عليهم ، من البَحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، وتحليل الميتة والدم والقمار ، إلىٰ نحو ذلك من الضلالات والجهالات الباطلة . التي كانوا قد اخترعوها في جاهليتهم ، من التحليل والتحريم ، والعبادات الباطلة ، والأقوال الفاسدة .

وقد ثبت في الصحيح(١٤) أن رسول الله صلىٰ اللّٰه عليه وسلم قال : « **رأيت عَمرو بن لُحَيّ بن قَمَعَةَ يَجُرّ قُصْبه في النار أنه**[٢] **أول من سيب السوائب** » . وكان هذا الرجل أحد

---

(١٣) - أخرجه أحمد ، وابنه عبد الله فى زوائده (١٣٤/٥) ، والحاكم (٣١١/٤ ، ٣١٨) ، والبيهقى فى الدلائل (٣١٨/٦) ، والبغوى فى شرح السنة (٤١٤٥) من طريق المعتمر بن سليمان ، ويحيى بن يمان ، وزيد ابن الحباب وغيرهم عن الثورى عن المغيرة بن مسلم عن الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى ... فذكره ، ورواه قبيصة عن الثورى - فقال - عن أيوب عن أبى العالية عن أبَيّ - فجعل أيوب بدلًا من الربيع ابن أنس. وقبيصة ضعفه ابن معين فى حديثه عن الثورى ، والذى يؤيد أن هذا الحديث حديث الربيع بن أنس أن غير الثورى رواه عنه عن أبى العالية . فقد أخرجه أحمد (١٣٤/٥) ، وعبد الله بن أحمد فى زوائده على المسند (١٣٤/٥) من طريق عبد الرحمن بن مهدى ، وعبد الواحد بن غياث - كلاهما - عن عبد العزيز بن مسلم أخى المغيرة بن مسلم عن الربيع به . والحاصل : أن هذا الحديث يرويه المغيرة بن مسلم ، وأخوه عبد العزيز بن مسلم عن الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى بن كعب . والربيع بن أنس قال الحافظ فى التقريب : صدوق له أوهام ورمى بالتشيع .

قلت : وقد تفرد بهذا الحديث . ومن حسَّن إسناده فقد أصاب . والله أعلم .

(١٤) - أخرجه البخارى فى التفسير باب : ﴿ **ما جعل الله من بحيرة ...** ﴾الآية حديث رقم (٤٦٢٣ ، ٤٦٢٤) ، ومسلم فى صفة الجنة حديث رقم (٢٨٥٦) من حديث أبى هريرة .

---

[١] - في ت : وقال .

[٢] - في ت : « لأنه » .

ملوك خزاعة ، وهو أول من فعل هذه الأشياء ، وهو الذي حَمَل قريشًا علىٰ عبادة الأصنام ، لعنه اللَّه وقبحه ! ولهذا قال تعالى : ﴿ **ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم** ﴾ أي : لعوجلوا بالعقوبة ، لولا ما تقدم من الإنظار إلىٰ يوم المعاد ، ﴿ **وإن الظالمين لهم عذاب أليم** ﴾ أي : شديد موجع في جهنم وبئس المصير .

ثم قال تعالىٰ : ﴿ **ترىٰ الظالمين مشفقين مما كسبوا** ﴾ أي : في عرصات القيامة ، ﴿ **وهو واقع بهم** ﴾ أي : الذي[١] يخافون منه واقع بهم لا محالة ، هذا حالهم يوم معادهم ، وهم في هذا الخوف والوجل ، ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم ما يشاءون عند ربهم** ﴾ ، فأين هذا من هذا ؟ أين من هو في العَرَصات في الذل والهوان والخوف المحقق عليه بظلمه ، ممن هو في روضات الجنات ، فيما يشاء من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومناظر ومناكح وملاذ ، فيما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر علىٰ قلب بشر ؟

قال الحسن بن عرفة : حدثنا عُمَر بن عبد الرحمن الأبار ، حدثنا محمد بن سعد الأنصاري ، عن أبي طَيْبَة قال : إن الشَّرْبَ(*) من أهل الجنة لتظلهم السحابة فتقول : ما أمطِرُكم ؟ قال : فما يدعو داع من القوم بشيء إلا أمطرتهم ، حتىٰ إن القائل منهم ليقول : أمطرينا كواعب أترابًا .

رواه ابن جرير(١٥) عن الحسن بن عرفة ، به .

ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ **ذلك هو الفضل الكبير** ﴾ أي : الفوز العظيم ، والنعمة التامة السابغة الشاملة العامة .

ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾

يقول تعالىٰ لما ذكر روضات الجنات[٢] ، لعباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات : ﴿ **ذلك**

(*) الشرب : الجماعة من القوم يجتمعون على الشراب .

(١٥) - عزاه أيضًا في الدر إلى ابن جرير . ولم أجده في هذا الموضع من الآية عند قوله : ﴿ **لهم ما يشاءون عند ربهم** ﴾ فلعله سقط من المطبوع والله أعلم ، وهذا الإسناد رجاله لا بأس بهم ، وقد ترجم الحافظ لكل واحدٍ منهم بقوله : « صدوق » .

[١] - في ز : « الذين » . [٢] - في ت : « الجنة » .

الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أي : هذا حاصل لهم ، كائن لا محالة ، بيشارة الله لهم به .

وقوله : **﴿ قل لا أسألكم عليه أجرًا إلا المودة في القربىٰ ﴾** أي : قل يا محمد لهؤلاء المشركين من كفار قريش [ ][١] : لا أسألكم علىٰ هذا البلاغ والنصح لكم مالًا تعطونيه ، وإنما أطلب منكم أن تكفوا شركم عني ، وتذروني أبلغ رسالات ربي ، إن لم تنصروني فلا تؤذوني بما بيني وبينكم من القرابة .

قال البخاري(١٦) : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن عبد الملك بن ميسرة قال[٢] : سمعت طاوسًا عن ابن عباس : أنه سُئِل عن قوله تعالىٰ : **﴿ إلا المودة في القربىٰ ﴾** ، فقال سعيد بن جبير : قربىٰ آل محمد . فقال ابن عباس : عَجِلْتَ ، إن النبي صلىٰ الله عليه وسلم لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة[٣] ، فقال : إلا أن [تصلوا ما][٤] بيني وبينكم من القرابة . انفرد به البخاري .

ورواه الإمام أحمد عن يحيى القطان عن شعبة، به . وهكذا روىٰ عامر الشعبي ، والضحاك ، وعلي بن أبي طلحة ، والعوفي ، ويوسف بن مهران ، وغير واحد ، عن ابن عباس ، مثله . وبه قال مجاهد ، وعكرمة ، وقتادة ، والسدي ، وأبو مالك ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغيرهم .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني(١٧) حدثنا هاشم بن يزيد الطبراني وجعفر القلانسي قالا : حدثنا آدم بن أبي إياس ، حدثنا شريك ، عن خُصَيف ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : قال لهم رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : **« لا أسألكم عليه أجرًا إلا أن تَوَدُّوني[٥] في نفسي لقرابتي منكم ، وتحفظوا القرابة التي بيني وبينكم »** .

---

(١٦) - أخرجه البخارى فى التفسير باب : **﴿ إلا المودة فى القربى ﴾** حديث رقم (٤٨١٨) ، وأحمد (١/ ٢٢٩، ٢٨٦) ، والترمذى فى التفسير باب : «ومن سورة حم عسق » حديث رقم (٣٢٥١) ، والنسائى فى الكبرى (١١٤٧٤) من طرق عن شعبة به ، وقول المصنف : « انفرد به البخارى » غير صحيح ، فقد رأيت أن الترمذى أخرجه ، وكذلك النسائى فى الكبرى .

(١٧) - أخرجه الطبرانى فى الكبير ١١/(١٢٢٣٣) من هذه الطريق ، وأخرجه في الأوسط عن جعفر بن محمد القلانسي - وحده - به ، ثم أعاده فى الكبير (١١/ ١٢٢٣٨) من طريق آخر عن سعيد بن جبير ، والحديث عزاه السيطوي فى الدر إلى ابن أبى حاتم فى تفسيره ، وابن مردويه .

---

[١] - ما بين المعكوفتين في ز : « قل » .

[٢] - سقط من : خ ، ز .

[٣] - سقط من : ز .

[٤] - ما بين المعكوفتين في ز : « لما » .

[٥] - في ز : « تؤذوني » .

وروىٰ الإمام أحمد(١٨) ، عن حسن بن موسىٰ : حدثنا قَزَعة - يعني ابن سويد - وابن أبي حاتم ، عن أبيه ، عن مسلم بن إبراهيم ، عن قَزَعة بن سويد ، عن ابن أبي نَجيح ، عن مجاهد ، عن ابن عباس أن النبي صلىٰ الله عليه وسلم قال : « **لا أسألكم علىٰ ما آتيتكم من البينات والهدىٰ أجرًا ، إلا أن تُوَادوا الله ، وأن تَقرّبوا إليه بطاعته** » .

وهكذا روى قتادة(١٩) عن الحسن البصرى، مثله . وهذا كأنه تفسير بقول ثان ، كأنه يقول : ﴿ **إلا المودة في القربىٰ** ﴾ أي : إلا أن تعملوا بالطاعة التي تقربكم عند الله زلفىٰ .

وقول[١] ثالث : وهو ما حكاه البخاري وغيره(٢٠) ، رواية عن سعيد بن جبير - ما معناه - أنه قال : معنىٰ ذلك أن تودوني في قرابتي ، أي : تحسنوا إليهم وتبروهم .

وقال السدي(٢١) : عن أبي الديلم قال : لما جيء بعلي بن الحسين أسيرًا ، فأقيم علىٰ دَرَج دمشق ، قام رجل من أهل الشام فقال : الحمد لله الذي قتلكم واستأصلكم ، وقطع قَرني الفتنة . فقال له علي بن الحسين : أقرأت القرآن ؟ قال : نعم . قال : أقرأت آل حم ؟ قال : قرأت القرآن ، ولم أقرأ آل حم . قال : ما قرأت : ﴿ **قل لا أسألكم عليه أجرًا إلا المودة في القربىٰ** ﴾ ؟ قال : وإنكم أنتم هم ؟ قال : نعم .

وقال [أبو إسحاق][٢] السبيعي : سألت عمرو بن شعيب عن قوله تعالىٰ : ﴿ **قل لا أسألكم عليه أجرًا إلا المودة في القربىٰ** ﴾ ، فقال : قربىٰ النبي صلىٰ الله عليه وسلم . رواهما ابن جرير(٢٢) .

ثم قال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا مالك بن إسماعيل ، حدثنا عبد السلام ،

---

(١٨) - المسند (٢٦٨/١) ، وأخرجه الطبراني فى الكبير (١١١٤٤/١١) ، والطبرى فى تفسيره ٢٥/٢٥ ، والحاكم (٤٤٣/٢ ، ٤٤٤) وعزاه فى الدر إلى ابن مردويه ، وابن أبى حاتم من هذا الوجه ، وهذا الإسناد ضعيف لضعف قزعة ، وقال فى المجمع (١٠٣/٧) : « رواه أحمد والطبرانى ورجال أحمد فيهم قزعة وثقه ابن معين وغيره وفيه ضعف ، وبقية رجاله ثقات » ، والحديث صححه الحاكم ووافقه الذهبى .

(١٩) - أخرجه الطبرى فى تفسيره (٢٦/٢٥) من طريق سعيد بن أبى عروبة عن قتادة به .

(٢٠) - تقدم ضمن تخريج حديث ابن عباس فانظر الصفحة السابقة .

(٢١) - أخرجه الطبرى فى تفسيره (٢٥/٢٥) من طريق إسماعيل بن أبان قال ثنا الصباح بن يحيى المرى عن السدى به ، وإسماعيل بن أبان الوراق رمى بالتشيع ، فلا تقبل له الرواية التى تنصر مذهبه وهذا منه .

(٢٢) - أخرجه الطبرى فى المصدر السابق .

---

[١] - في ت : وقول .

[٢] - ما بين المعكوفتين في خ ، ز: «أبو الحسن» .

حدثني يزيد بن أبي زياد ، عن مقْسم ، عن ابن عباس قال : قالت الأنصار : فعلنا وفعلنا ، وكأنهم فخروا . فقال ابن عباس - أو : العباس ، شك عبد السلام - : لنا الفضل عليكم . فبلغ ذلك رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم فأتاهم في مجالسهم فقال : « **يامعشر الأنصار ، ألم تكونوا أذلة فأعزكم الله بي** ؟ » قالوا : بلىٰ ، يارسول الله . قال : « [**ألم تكونوا ضلالاً فهداكم الله بي**؟ » قالوا : بلىٰ ، يا رسول الله][١] . قال : « **أفلا تجيبوني** ؟ » قالوا : ما نقول يا رسول الله ؟ قال : « **ألا تقولون : ألَم يخرجك قومك فآويناك ؟ أوَ لم يكذبوك فصدقناك ؟ أولم يخذلوك فنصرناك ؟** » . قال : فما زال يقول حتىٰ جَثوا علىٰ الرُّكَب ، وقالوا : أموالنا وما في أيدينا للّه ولرسوله . قال : فنزلت : ﴿ **قل لا أسألكم عليه أجرًا إلا المودة في القربىٰ** ﴾ .

وهكذا رواه ابن أبي حاتم ، عن علي بن الحسين ، عن عبد المؤمن بن علي ، عن[٢] عبد السلام ، عن يزيد بن أبي زياد - وهو ضعيف - بإسناده مثله ، أو قريبًا منه(٢٣) .

وفي الصحيحين(٢٤) في قسم غنائم حنين قريب من هذا السياق ، ولكن ليس فيه ذكر نزول هذه الآية . وذكْرُ نُزولها في المدينة فيه[٣] نظر ؛ لأن السورة مكية ، وليس يظهر بين هذه الآية الكريمة وبين السياق مناسبة ، والله أعلم .

وقال ابن أبي حاتم(٢٥) : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا رجل سماه ، حدثنا حسين الأشقر ، عن قيس ، عن الأعمش ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه

---

(٢٣) - أخرجه ابن جرير فى تفسيره (٢٥/٥) ، وعزاه فى الدر إلى ابن مردويه وابن أبى حاتم من هذا الوجه، وأعله المصنف هنا بيزيد بن أبى زياد . وضعفه ابن حجر فى الفتح (٥٦٤/٨) وقال : ويبطله أن الآية مكية»اهـ .

(٢٤) - أخرجه البخارى فى المغازى والسير حديث رقم (٤٣٣٠) ، وفى التمنى باب ما يجوز من اللوْ وقوله تعالى : ﴿ **لو أن لي بكم قوة** ﴾ حديث رقم (٧٢٤٥) مختصرًا ، وأخرجه مسلم فى الزكاة حديث رقم (١٠٦١) من مسند عبد الله بن زيد به ، وفى الباب عن أنس بن مالك ، وأبى سعيد الخدرى ، أخرجهما أحمد (٦٧/٣ و ٧٦ ، ١٠٤ ، ٢٥٣) .

(٢٥) - أخرجه الطبرانى ٤٤٤/١١ (١٢٢٥٩) من طريق آخر عن حسين الأشقر به وعزاه السيوطي أيضًا فى الدر إلى ابن المنذر وابن مردويه ، وذكره الهيثمى فى المجمع (١٧١/٩) وقال : رواه الطبرانى وفيه جماعة ضعفاء وقد وثقوا . اهـ . يعنى حسين الأشقر وشيخه قيس بن الربيع ، وعليه فهذا الحديث ضعيف ، من حيث الإسناد ، وأما من حيث المتن ، فهذه الآية نزلت بمكة ولم يكن إذ ذاك لفاطمة أولاد بالكلية ، فإنها لم تتزوج بعلى إلا بعد بدر من السنة الثانية للهجرة كما ذكر المصنف .

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .

[٢] - في ز : « بن » . [٣] - سقط من : خ .

الآية : ﴿ **قل لا أسألكم عليه أجرًا إلا المودة في القربىٰ** ﴾ ، قالوا : يارسول الله ، من هؤلاء الذين أمر الله بمودتهم ؟ قال : « **فاطمة وولدها عليهم السلام** » .

وهذا إسناد ضعيف فيه مبهم لا يعرف عن شيخ شيعي متحرق ، وهو حسين الأشقر ، ولا يقبل خبره في هذا المحل . وذكْرُ نزول هذه الآية في المدينة بعيد ، فإنها مكية ولم يكن إذ ذاك لفاطمة أولاد بالكلية ، فإنها لم تتزوج بعلي إلا بعد بدر من السنة الثانية من الهجرة .

والحق تفسير الآية بما فسرها به الإمام حَبْرُ الأمة ، وترجمان القرآن ، عبد الله بن عباس ، كما رواه عنه البخاري ، ولا تنكر الوَصاةُ بأهل البيت ، والأمر بالإحسان إليهم ، واحترامهم وإكرامُهم ، فإنهم من ذُرِّيَة طاهرة ، من أشرف بيت وجد علىٰ وجه الأرض ، فخرًا وحسبًا ونسبًا ، ولا سيما إذا كانوا متبعين للسنة النبوية الصحيحة الواضحة الجلية ، كما كان عليه سلفهم ، كالعباس وبنيه ، وعليّ وأهل بيته وذويه[١] ، رضي الله عنهم أجمعين .

وفي الصحيح[٢] (٢٦) : أن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم قال في خطبته بغدير خم : « **إني تارك فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتي ، وإنهما لم يفترقا حتىٰ يردا عليَّ الحوض** » .

وقال الإمام أحمد(٢٧) : حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا إسماعيل بن أبي خالد ، عن يزيد

---

(٢٦) - أخرجه مسلم فى فضائل الصحابة ، باب : من فضائل على بن أبى طالب حديث رقم (٣٤٠٨) من مسند زيد بن أرقم بنحو السياق التى ذكرها المصنف وليس بلفظه ، ولهذا الحديث شواهد كثيرة . انظرها فى الصحيحة (٣٥٥/٤ ، ٣٦١) ، وسيأتى تخريجه مفصلًا عندما يذكر المصنف طرقه بعد قليل .

(٢٧) - هذا الحديث ضعيف مداره على يزيد بن أبى زياد وهو ضعيف وقد اختلط بأخرةٍ ، وقد اضطرب فى هذا الحديث ، فتارة يجعله من مسند العباس ، وتارة يجعله من مسند عبد المطلب بن ربيعة ، وفى بعض الطرق سماه المطلب بن ربيعة . أخرجه أحمد ٢٠٧/١ ، ١٦٥/٤ ، وفى الفضائل (١٧٥٧) ، والترمذى فى المناقب حديث رقم (٣٧٠٨) ، والنسائى فى المناقب من الكبرى حديث رقم (٨١٧٦) ، والبزار (٣١٦) ، والحاكم (٣٣٢/٣) ، والخطيب فى تاريخه (٣٨٦/٣) من طرق عن يزيد بن أبى زياد عن عبد الله بن الحارث به . قال البزار : لا نعلم رواه إلا يزيد بن أبى زياد عن عبد الله بن الحارث وللحديث طريق أخرى عند ابن ماجه فى المقدمة برقم (١٤٠) من طريق محمد بن كعب القرظى عن العباس ، وهذا الإسناد ضعيف لانقطاعه ، فإن محمد بن كعب لم يدرك العباس بن عبد المطلب كما يعلم من تاريخ وفاتهما ، وله طريق أخرى من مرسل أبى الضحى وهو مسلم بن صبيح قال : قال العباس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ... فذكره مرسلًا . أخرجه أحمد فى الفضائل (١٧٥٦) ، وقد وصله الطبرانى فى الكبير (٤٣٣/١١) (١٢٢٢٨) ، والخطيب فى تاريخه (٣١٦/٥ ، ٣١٧) عن أبى الضحى عن عبد الله بن عباس ، عن العباس ... فذكره . وإسناده ضعيف . ووصله الخطيب من وجه آخر عن أبى الضحى عن مسروق عن عائشة وضعفه أيضًا ، فالحاصل أن هذا الحديث ورد بأسانيد هذا حالها وهى بينة الضعف ، والله أعلم .

---

[١] - في ت : « وذريته » .

[٢] - في ز : « الصحيحين » .

ابن أبي زياد ، عن عبد الله بن الحارث ، عن العباس بن عبد المطلب قال : قلت : يارسول الله ، إن قريشًا إذا لقي بعضهم بعضًا لَقُوهم ببشر حَسَن ، وإذا لقونا لقونا بوجوه لا نعرفها ؟ قال : فغضب النبي صلىٰ الله عليه وسلم غضبًا شديدًا ، وقال : « **والذي نفسي بيده ، لا يدخل قلبَ الرجل الإيمانُ حتىٰ يحبكم لله ولرسوله** » .

ثم قال أحمد : حدثنا جرير ، عن يزيد بن أبي زياد ، عن عبد الله بن الحارث ، عن عبد المطلب بن ربيعة قال : دخل العباس علىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم فقال : إنا لنخرج فنرىٰ قريشًا تحدّث ، فإذا رأونا سكتوا . فغضب رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم ودَرّ عِرْق بين عينيه ، ثم قال : « **والله لا يدخل قلب امرئ مسلم إيمانٌ حتىٰ يحبكم لله ولقرابتي** » .

وقال البخاري(٢٨) : حدثنا عبد الله بن عبد الوهاب ، حدثنا خالد ، حدثنا شعبة ، عن واقد قال[١] : سمعتُ أبي يحدّث عن ابن عمر ، عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : ارقبوا محمدًا صلىٰ الله عليه وسلم في أهل بيته .

وفي الصحيح(٢٩) : أن الصديق قال لعليّ - رضي الله عنهما - : والله لقرابة رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم أحبّ إليّ أن أصل من قرابتي .

وقال عمر بن الخطاب للعباس(٣٠) - رضي الله عنهما - : والله لإسلامك يوم أسلمت كان أحبّ إليّ من إسلام الخطاب لو أسلم ؛ لأن إسلامك كان[٢] أحب إلىٰ رسول الله من إسلام الخطاب .

فحال الشيخين - رضي الله عنهما - هو الواجب علىٰ كل أحد أن يكون كذلك ، ولهذا كانا أفضل المؤمنين بعد النبيين والمرسلين - رضي الله عنهما - وعن سائر الصحابة أجمعين .

وقال الإمام أحمد رحمه الله : حدثنا إسماعيل بن إبراهيم ، عن أبي حَيّان التيمي ، حدثني يزيد بن حَيّان قال : انطلقتُ أنا وحصين بن ميسرة ، وعمر بن مسلم إلىٰ زيد بن أرقم ، فلما جلسنا إليه قال له حصين : لقد لقيت يا زيدُ خيرًا كثيرًا ، رأيتَ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم ، وسمعت حديثه ، وغزوتَ معه ، وصليتَ معه . لقد رأيتَ يازيد خيرًا كثيرًا . حدثنا

(٢٨) - أخرجه البخارى فى المناقب باب مناقب قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم حديث رقم (٣٧١٣)، ثم أعاده فى فضل الحسن والحسين حديث رقم (٣٧٥١) من طريق آخر عن شعبة .

(٢٩) - أخرجه البخارى فى الموضع السابق حديث رقم (٣٧١٢) .

(٣٠) - أخرجه ابن عساكر فى تاريخه ٩١٤/٨ من طريق إبراهيم بن المهاجر عن مجاهد عن ابن عباس قال : قال عمر للعباس ... فذكره .

[١] - سقط من : ز . [٢] - سقط من : خ ، ز .

يا زيدُ ما سمعتَ من رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم . فقال : يا ابن أخي ، واللّٰه لقد [كَبُرَت][١] سنّي وقدُم عهدي ، ونسيت بعضَ الذي كنت أعي من رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، فما حدثتكم فاقبلوه ، وما لا فلا تُكَلّفونيه . ثم قال : قام رسولُ اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم يومًا[٢] خطيبًا فينا ، بماء يدعىٰ خُمًا - بين مكة والمدينة - فحمد اللّٰه وأثنىٰ عليه ، وذَكَّر ووَعَظ ، ثم قال : « **أما بعد ، ألا أيها الناس إنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسولُ ربي فأجيب ، وإني تارك فيكم الثقلين ، أولهما : كتابُ الله ، فيه الهدىٰ والنور ، فخذوا بكتاب اللّٰه واستمسكوا به** » - فحثَّ علىٰ كتاب اللّٰه ورَغَّب فيه - وقال : « **وأهل بيتي ، أذكركم اللّٰه في أهل بيتي ، أذكركم اللّٰه في أهل بيتي** » . فقال له حصين : ومَن أهل بيته يا زيد ؟ أليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال : إن نساءه من أهل بيته ، ولكن أهل بيته من حُرم الصدقة بعده . قال : ومن هم ؟ قال : هم آل علي ، وآل عَقِيل ، وآل جعفر ، وآل العباس . قال : أكلّ هؤلاء حُرِمَ الصدقة ؟ قال : نعم .

وهكذا رواه مسلم في الفضائل والنسائي من طرق عن يزيد بن حيان ، به(٣١) .

وقال أبو عيسىٰ الترمذي(٣٢) : حدثنا علي بن المنذر الكوفي ، حدثنا محمد بن فضيل ، حدثنا الأعمش ، عن عطية ، عن أبي سعيد - والأعمشُ ، [عن حبيب بن أبي ثابت][٣] ، عن زيد بن أرقم - قال : قال رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم : « **إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي ، أحدهما أعظم من الآخر : كتابُ اللّٰه حبل ممدود من السماء إلىٰ الأرض ، والآخر عترتي : أهل بيتي ، ولن يتفرقا حتىٰ يردا عليَّ الحوض ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما** » . تفرد بروايته الترمذي ثم قال : هذا حديث حسن غريب[٤] .

وقال الترمذي أيضًا (٣٣) : حدثنا نصر بن عبد الرحمن الكوفي ، حدثنا زيد بن الحسن ، عن جعفر بن محمد ، عن أبيه ، عن جابر بن عبد اللّٰه قال : رأيت رسول الله صلىٰ اللّٰه عليه وسلم

---

(٣١) - أخرجه مسلم فى فضائل الصحابة حديث رقم (٣٤٠٨) ، وأبو داود (٤٩٧٣) ، وأحمد ٣٦٦/٤ ، وعبد بن حميد (٢٦٥) ، والدارمى (٣٣١٩) ، وغيرهم من طرق عن يزيد بن حيان به .

(٣٢) - (٣٣) - أخرجهما الترمذى فى المناقب ، باب : مناقب أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم حديث رقم (٣٧٨٦ ، ٣٧٨٨) ، وقد تقدمت الإشارة إلى صحة هذا الحديث بشواهده ومجموع طرقه ، ويستغرب من رواية الترمذى هذه أن النبى صلى الله عليه وسلم ذكر هذه الخطبة فى حجة الوداع . والمشهور أنه ذكرها يوم غد يرخم كما جاء فى صحيح مسلم . لذلك قال الترمذى عقب هذه الرواية : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه . وانظر شواهد هذا الحديث وبعض طرقه فى السلسلة الصحيحة (٤/ ٣٥٥) ، (٣٦١/٤) .

---

[١] - ما بين المعكوفتين في ز : « لقد كبر » . [٢] - سقط من : خ ، ز .

[٣] - ما بين المعكوفتين في ز : « عن أبي حبيب عن أبي ثابت » .

[٤] - في ت : « صحيح » .

في حجته يوم عرفة ، وهو علىٰ ناقته القَصواء[١] يخطب ، فسمعته يقول : « **يا أيها الناس ، إني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا : كتاب الله ، وعترتي : أهل بيتي** » .

تفرد به الترمذي أيضًا، وقال : حسن غريب . وفي الباب عن أبي ذر ، وأبي سعيد ، وزيد ابن أرقم ، وحُذَيفة بن أسيد .

ثم قال الترمذي(٣٤) : حدثنا أبو داود [سليمان بن][٢] الأشعث ، حدثنا يحيىٰ بن مَعِين ، حدثنا هشام بن يوسف ، عن عبد اللّٰه بن سليمان النوفلي ، عن محمد بن علي بن عبد اللّٰه بن عباس ، عن أبيه ، عن جده عبد اللّٰه بن عباس قال : قال رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم : « **أحبوا اللّٰه لما يَغذُوكم من نِعَمه ، وأحبوني بحب الله ، وأحبوا أهل بيتي بحبي** » .

ثم قال : حسن غريب ، إنما نعرفه من هذا الوجه .

وقد أوردنا أحاديث أخَر عند قوله تعالىٰ : ﴿ **إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرًا** ﴾ بما أغنى عن إعادتها هاهنا ، ولله الحمد والمنة .

وقال الحافظ أبو يعلىٰ (٣٥) : حدثنا سُوَيد بن سَعيد ، حدثنا مُفَضَّل بن عبد الله ، عن أبي إسحاق ، عن حَنَش قال : سمعت أبا ذر وهو آخذ بحلقة الباب يقول : يا أيها الناس ، من

(٣٤) - أخرجه أحمد فى فضائل الصحابة (١٩٢٢) ، والبخارى فى التاريخ ١/١٨٣ ، والترمذى فى المناقب باب : مناقب أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم حديث رقم (٣٧٩٠) ، والطبرانى فى الكبير (١/ ٣٨) ، (١٠/٣٤٣) ، والحاكم (٣/١٥٠) ، والبيهقى فى الشعب (١/ ٢٨٨) ، وفى مناقب الشافعى (١/٤٥) ، والذهبى فى الميزان (٢/٤٣٢) ، والمزى فى التهذيب (١٥/٦٤) ، والخطيب فى تاريخه (٤/ ١٦٠) ، وأبو نعيم فى الحلية (٣/٢١١) ، من طريق هشام بن يوسف عن عبد الله بن سليمان النوفلى به . وعبد الله بن سليمان ضعيف . قال الذهبى فى الميزان : فيه جهالة . وقال فى الديوان : مجهول . وقال الحافظ فى التقريب : مقبول . وقد تفرد بهذا الحديث ولم يتابع عليه فإسناده ضعيف لا يثبت .

(٣٥) - أخرجه ابن عدى فى الكامل (٦/٢٤٠٦) عن أبى يعلى به وأخرجه الحاكم (٣/١٥٠ - ١٥١) من طريق آخر عن المفضل بن صالح به . ووقع فى رواية أبى يعلى كما ذكر المصنف : «المفضل بن عبد الله» وإنما هو المفضل بن صالح ، قال ابن عدى فى الكامل : وكان سويد - الراوى عنه - يسميه المفضل بن عبد الله . اهـ . والمفضل ضعيف . قال البخارى : منكر الحديث ، وقال الذهبى فى استدراكه على الحاكم : «المفضل واه » وقال ابن عدى : أنكر ما رأيت له حديث الحسن بن على . قال الذهبى فى الميزان (٥/ ٢٩٢) ، وحديث سفينة نوح أنكر وأنكر . اهـ . يعنى هذا الحديث . والحديث أخرجه الطبرانى فى الكبير (٢٦٣٧) ، وفى الصغير (١/١٣٩ - ١٤٠) من طريق الأعمش ، عن أبى إسحاق به ، وفى إسناده عبد الله ابن داهر وهو متروك . وله طريق أخرى فقد أخرجه الطبرانى فى الكبير (٢٦٣٦) ، والبزار (٣٩٠) من طريق سعيد بن المسيب عن أبى ذر وإسناده واه فيه الحسن بن أبى جعفر وهو متروك ، ورواه الحسن بن أبى جعفر=

[١] - في ز : « القصوى » . [٢] - ما بين المعكوفتين في ز : « وسليمان » .

عرفني فقد عرفني ، ومن أنكرني[١] فأنا أبو ذر ، سمعتُ رسول الله صلىٰ اللّٰه عليه وسلم يقول : « **إنما مثل أهل بيتي فيكم مَثَل سفينة نوح ، من دخلها نجا ، ومن تخلف عنها هلك** » . هذا بهذا الإسناد ضعيف .

وقوله : ﴿ **ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنًا** ﴾ أي : ومن يعمل حسنة ﴿ **نزد له فيها حسنًا** ﴾ أي : أجرًا وثوابا ، كقوله : ﴿ **إن اللّٰه لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرًا عظيمًا** ﴾ .

وقال بعض السلف : من ثواب الحسنة الحسنةُ بعدها ، ومن جزاء السيئة السيئة بعدها .

وقوله : ﴿ **إن اللّٰه غفور شكور** ﴾ أي : يغفر الكثير من السيئات ، ويكثر القليل من الحسنات ، فيستر ويغفر ، ويضاعف فيشكر .

وقوله : ﴿ **أم يقولون افترىٰ علىٰ اللّٰه كذبًا فإن يشأ اللّٰه يختم علىٰ قلبك** ﴾ أي : لو افتريت عليه كذبًا كما يزعم هؤلاء الجاهلون ﴿ **يختم علىٰ قلبك** ﴾ أي : لطَبَع علىٰ قلبك وسَلَبك ما كان آتاك من القرآن ؛ كقوله تعالىٰ : ﴿ **ولو تقول علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم من أحد عنه حاجزين** ﴾ أي: لانتقمنا منه أشد الانتقام ، وما قدر أحد من الناس أن يحجز عنه .

وقوله : ﴿ **ويمح اللّٰه الباطل** ﴾ ، ليس معطوفًا علىٰ قوله : ﴿ **يختم** ﴾ فيكون مجزومًا ، بل هو مرفوع علىٰ الابتداء . قاله ابن جرير ، قال : وحذفت من كتابته « الواو » في رسم المصحف الإمام ، كما حذفت من[٢] قوله : ﴿ **سندع الزبانية** ﴾ ، وقوله : ﴿ **ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير** ﴾ .

وقوله : ﴿ **ويحق الحق بكلماته** ﴾ معطوف علىٰ ﴿ **ويمح اللّٰه الباطل ويحق الحق** ﴾ أي : يحققه ويثبته ويبينه ويوضحه ، ﴿ **بكلماته** ﴾ أي : بحججه وبراهينه ، ﴿ **إنه عليم بذات الصدور** ﴾ أي : بما تكنه الضمائر ، وتنطوي عليه السرائر .

وَهُوَ ٱلَّذِى يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿٢٥﴾
وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۚ وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٌ

= بإسناد آخر أخرجه الطبراني فى الكبير (٢٦٣٨) ، من طريقه عن أبى الصهباء عن سعيد بن جبير عن ابن عباس وهذا من تخليط هذا الهالك الحسن بن أبى جعفر . وللحديث شواهد فى أسانيدها كلها مقال وانظرها فى مجمع الزوائد (١٧١/٩) .

[١] - في ز : « أنكر » . [٢] - في ت : « في » .

شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾

يقول تعالىٰ ممتنًا علىٰ عباده بقبول توبتهم إليه إذا تابوا ورجعوا إليه : إنه من كرمه وحلمه أنه يعفو ويصفح ويستر ويغفر ، كقوله : **﴿ ومن يعمل سوءًا أو يظلم نفسه ثم يستغفر اللَّه يجد اللَّه غفورًا رحيمًا ﴾** وقد ثبت في صحيح مسلم - رحمه اللَّه - حيث قال(٣٦) :

حدثنا محمد بن الصباح وزهير بن حرب قالا : حدثنا عمر بن يونس ، حدثنا عكرمة بن عمار ، حدثنا إسحاق بن أبي طلحة ، حدثني أنس بن مالك - وهو عمه - قال : قال رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم : « **للَّه أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه ، من أحدكم كان راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه ، وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها ، فأتىٰ شجرة فاضطجع في ظلها ، قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذا هو[١] بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم ، أنت عبدي وأنا ربك - أخطأ من شدة الفرح** » .

وقد ثبت أيضًا في الصحيح من رواية عبد اللَّه بن مسعود نحوه (٣٧) .

وقال عبد الرزاق(٣٨) ، عن معمر ، عن الزهري في قوله : **﴿ وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ﴾** : إن أبا هريرة قال : قال رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم : « **للَّه أشد فرحًا بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته في المكان الذي يخاف أن يقتله العطش فيه** » .

وقال همام بن الحارث : سُئل ابن مسعود عن الرجل يفجر بالمرأة ثم يتزوجها ؟ قال : لا بأس به ، وقرأ : **﴿ وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ﴾** الآية . رواه ابن جرير ، وابن أبي حاتم من حديث شَريك القاضي ، عن إبراهيم بن مهاجر ، عن إبراهيم النخعي ، عن همام ،

---

(٣٦) - أخرجه مسلم فى كتاب التوبة من صحيحه ، حديث رقم (٢٧٤٧) .

(٣٧) - أخرجه مسلم فى كتاب التوبة من صحيحه ، حديث رقم (٢٧٤٤) . وفى الباب عن أبى هريرة ، والنعمان بن بشير ، والبراء بن عازب ، وكلها فى صحيح الإمام مسلم ، انظر كتاب التوبة باب فى الحض على التوبة والفرح بها .

(٣٨) - أخرجه عبد الرزاق فى تفسيره ١٩١/٢ ، وهو فى صحيح مسلم حديث رقم (٢٦٧٥) من طريق عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبى هريرة فذكره ، وانظر المصدر السابق .

---

[١] - سقط من : خ .

فذكره (٣٩) .

وقوله : ﴿ ويعفو عن السيئات ﴾ أي : يقبل التوبة في المستقبل ، ويعفو عن السيئات في الماضي ، ﴿ ويعلم ما تفعلون ﴾ أي : هو عالم بجميع ما فعلتم وصنعتم وقلتم ، ومع هذا يتوب علىٰ من تاب إليه .

وقوله : ﴿ ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ ، قال السدي : يعني يستجيب لهم . وكذا قال ابن جرير : معناه يستجيب الدعاء لهم ولأصحابهم وإخوانهم . وحكاه عن بعض النحاة ، وأنه جعلها كقوله : ﴿ فاستجاب لهم ربهم ﴾ .

ثم روىٰ هو وابن أبي حاتم(٤٠) ، من حديث الأعمش ، عن شقيق بن سلمة ، عن سلمة ابن سبرة قال : خطبنا معاذ بالشام فقال : أنتم المؤمنون ، وأنتم أهل الجنة . والله[١] إني أرجو أن يدخل الله من تَسْبُون من فارس والروم الجنة ، وذلك بأن أحدكم إذا عمل له - يعني أحدُهم عملًا قال : أحسنت - رحمك[٢] الله أحسنت بارك الله فيك - ثم قرأ : ﴿ ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله ﴾ .

وحكى ابن جرير عن بعض أهل العربية [أنه جعل][٣] [﴿ ويستجيب الذين آمنوا ﴾ كقوله : ﴿ الذين يستمعون القول ﴾ ، أي : هم الذين يستجيبون للحق ويتبعونه ، كقوله تبارك وتعالىٰ : ﴿ إنما يستجيب][٤] الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ﴾ والمعنىٰ الأول أظهر ، لقوله تعالىٰ : ﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ أي : يستجيب دعاءهم ويزيدهم فوق ذلك . ولهذا قال ابن أبي حاتم :

حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا محمد بن المصفىٰ ، حدثنا بقية ، حدثنا إسماعيل بن عبدالله الكَنَدي ، حدثنا الأعمش ، عن شقيق ، عن عبد الله قال : قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم في قوله : ﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ ، قال : « الشفاعة لمن وجبت له النار ، ممن صنع إليهم معروفًا في الدنيا »(٤١) .

(٣٩) - أخرجه ابن أبي حاتم - كما في الدر المنثور - والطبري في تفسيره ٢٥/٢٨ وفي إسناده شريك كان صدوقًا سيئ الحفظ ولا سيما بعد توليه القضاء .

(٤٠) - انظر المصدر السابق .

(٤١) - أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر - وابن أبي عاصم في السنة (٨٤٦) ، والطبراني في الكبير ١٠/ ٢٤٨ ، وفي الأوسط (٥٧٧٠) ، من طرق عن بقية به . وهذا إسنادٌ ضعيفٌ لا يثبت كما قال المصنف فيما سبق ، وعلته إسماعيل الكندي قال الذهبي : روى عن الأعمش ، وعنه بقية بخبر عجيب منكر .=

[١] - سقط من : خ ، ز .

[٢] - في ز : « يرحمك » .

[٣] - ما بين المعكوفتين في ز : « أن جعله » .

[٤] - مابين المعكوفتين في خ : « جعله قوله » .

و[١]قال قتادة عن إبراهيم النخعي اللخمي في قوله تعالىٰ : ﴿ **ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ ، قال : يشفعون في إخوانهم ، ﴿ **ويزيدهم من فضله** ﴾ ، قال : يشفعون في إخوان إخوانهم

وقوله : ﴿ **والكافرون لهم عذاب شديد** ﴾ ، لما ذكر المؤمنين وما لهم من الثواب الجزيل ، ذكر الكافرين وما لهم عنده يوم القيامة من العذاب الشديد الموجع المؤلم يوم معادهم وحسابهم .

وقوله : ﴿ **ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض** ﴾ أي : لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق ، لحملهم ذلك علىٰ البغي والطغيان من بعضهم علىٰ بعض ، أشرًا وبطرًا .

وقال قتادة : كان يقال : خير العيش ما لا يُلهيك ولا يُطغيك . وذكر قتادة حديث : « **إنما أخاف عليكم ما يخرج الله من زهرة الحياة الدنيا** » ، و[٢]سؤال السائل : أيأتي الخير بالشر ؟ الحديث (٤٢) .

وقوله : ﴿ **ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير** ﴾ أي : ولكن يرزقهم من الرزق ما يختاره مما فيه صلاحهم ، وهو أعلم بذلك ، فيغني من يستحق الغنىٰ ، ويفقر من يستحق الفقر . كما جاء في الحديث المروي : « **إن من عبادي لمَن لا يصلحه إلا الغنىٰ ، ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه ، وإن من عبادي لمَن لا يصلحه إلا الفقر ، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه** »(٤٣) .

= قلت : ولهذا الحديث إسنادٌ آخر ، فقد أخرجه أبو نعيم في الحلية ١٠٨/٤ ، ١٢٨/٧ من طريق ابن حمير عن الثورى عن الأعمش عن شقيق به ، وقال فى الموضع الأول : غريب من حديث الأعمش ، عزيز عجيب من حديث الثورى ، تفرد به إسماعيل الكندى عن الأعمش .وقال فى الموضع الثاني : «غريب من حديث الثورى تفرد به ابن حمير »، ورواه بقية عن إسماعيل بن عبد الله الكندى عن الأعمش مثله . اهـ .

قلت : يعنى أن حديث الثورى غير محفوظ ، والحديث حديث إسماعيل الكندى ، فقد أفحش الخطأ من اعتبر الثورى متابعًا لإسماعيل وصححه لذلك .

(٤٢) - أخرجه ابن جرير الطبرى من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة به مرسلًا والحديث فى الصحيحين وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدرى فقد أخرجه البخارى فى كتاب الجمعة ، باب : يستقبل الإمام القوم حديث (٩٢١) ، وأطرافه (١٤٦٥ ، ٢٨٤٢ ، ٦٤٢٧) ، ومسلم فى كتاب الزكاة باب : تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا حديث رقم (١٢٢ ، ١٢٣) - (١٠٥٢) .

(٤٣) - هذا الحديث يروى من مسند عمر بن الخطاب ، ومن مسند أنس بن مالك .

أولًا : حديث عمر ، أخرجه الخطيب فى تاريخه ١٥/٦ ، ومن طريقه ابن الجوزى فى العلل المتناهية ٤٤/١ من طريق يحيى بن عيسى ، عن سفيان الثورى ، عن حماد بن زيد ، عن أيوب ، عن أبي قلابة ، عن كثير ابن أفلح عن عمر بن الخطاب عن النبى صلى الله عليه وسلم عن جبريل فذكره ويحيى بن عيسى =

[١] - سقط من : ز . [٢] - سقط من : ز .

وقوله : ﴿ **وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا** ﴾ أي : من بعد إياس الناس من نزول المطر ، ينزله عليهم في وقت حاجتهم وفقرهم إليه ، كقوله : ﴿ **وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين** ﴾

وقوله : ﴿ **وينشر رحمته** ﴾ أي : يعم بها الوجود على أهل ذلك القُطر وتلك الناحية .

قال قتادة : ذُكر لنا أن رجلًا قال لعمر بن الخطاب : يا أمير المؤمنين ، قحط المطر وقَنَط الناس ؟ فقال عمر - رضي الله عنه - : مطرتم ، ثم قرأ : ﴿ **وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد** ﴾(٤٤) . أي : هو المتصرف لخلقه بما ينفعهم في دنياهم وأخراهم ، وهو المحمود العاقبة في جميع ما يقدره ويفعله .

= وهو الرملي . قال ابن معين : ليس بشيء . وقال النسائي : ليس بالقوى . وقال ابن حبان فى المجروحين (١٢٦/٣ - ١٢٧) ، وكان ممن ساء حفظه وكثر وهمه حتى جعل يخالف الأثبات فيما يروى الثقات ، فلما كثر ذلك فى روايته بطل الاحتجاج به . وقال ابن عدى فى الكامل (٢٦٧٣/٧) : « عامة رواياته مما لا يتابع عليه »وقال ابن الجوزى فى العلل المتناهية عقب روايته لهذا الحديث : «هذا حديث لا يصح ... ففيه يحيى ابن عيسى الرملى قال يحيى : ما هو بشيء . وقال ابن حبان : ساء حفظه فكثر وهمه فبطل الاحتجاج به».

ثانيًا : حديث أنس بن مالك . أخرجه ابن الجوزى فى العلل المتناهية (٤٤/١) وأبو نعيم فى الحلية (٨/ ٣١٨) ، والبغوى فى شرح السنة (٢٣/٥) والحكيم الترمذى فى نوادر الأصول ٤٢٩/١ ، وابن أبى الدنيا فى الأولياء (١) وزاد السيوطى فى الدر المنثور نسبته إلى ابن عساكر فى تاريخه ، وزاد ابن حجر فى الفتح (٣٤٢/١١) نسبته إلى البزار وأبى يعلى وزاد الألبانى فى الصحيحة (١٨٩/٤) نسبته إلى محمد بن سليمان الربعى فى جزء من حديثه ، وزاد الهيثمى فى المجمع نسبته إلى الطبرانى فى الأوسط . كلهم من طريق عمر بن سعيد الدمشقى ، والحسن بن يحيى الدمشقى كلاهما عن صدقة بن عبد الله الدمشقى عن هشام الكنانى ، عن أنس مرفوعًا وهذا إسنادٌ ضعيف جدًّا ، صدقة بن عبد الله - وهو أبو معاوية السمين - ضعيف ، وشيخه هشام الكنانى لا يعرف . وقال ابن الجوزى - كما فى العلل المتناهية (٤٤/١) : « هذا حديث لا يصح ففيه الخشنى ، قال يحيى بن معين : ليس بشيء . وقال الدارقطنى : متروك ، وأما صدقة فمجروح».

أما الخشنى وهو الحسن بن يحيى فقد تابعه عمر بن سعيد كما تقدم ، والحديث ذكره الهيثمى فى المجمع وعزاه للطبرانى فى الأوسط ، وأعله بعمر بن سعيد هذا . وعليه فهذا الحديث لا يصح عن النبى صلى الله عليه وسلم فالخشنى ، وصدقة ضعيفان ، وشيخهما ضعيف ، وهشام الكنانى الراوى عن أنس لم أجد من ترجمه ، وقال الشيخ الألبانى فى الصحيحة : لم أعرفه . وانظر كلام الحافظ ابن رجب الحنبلى على هذا الحديث في أثناء كلامه على شرح حديث : « من عادى لى وليًا » الحديث الثامن والثلاثون من جامع العلوم والحكم ، وانظر الصحيحة (١٨٨/٤) .

(٤٤) - أخرجه ابن جرير الطبرى فى تفسيره ، وعزاه فى الدر إلى عبد بن حميد ، وابن المنذر من هذا الوجه ، وقول عمر : «مطرتم »أى ما دام أن الحال أصبح كما تقولون فسيفى الله عز وجل بوعده وينزل الغيث ، وينشر رحمته ، ويؤيد هذا المعنى قول عمر كما فى الدر المنثور : « مطرتم إذًا ».

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾

يقول تعالىٰ : ﴿ **ومن آياته** ﴾ الدالة علىٰ عظمته وقدرته العظيمة وسلطانه القاهر ﴿ **خلق السماوات والأرض وما بث فيهما** ﴾ أي : ذرأ فيهما ، أي : في السماوات والأرض ، ﴿ **من دابة** ﴾ ، وهذا يشمل الملائكة والجن والإنس وسائر الحيوانات ، علىٰ اختلاف أشكالهم وألوانهم ولغاتهم ، وطباعهم وأجناسهم وأنواعهم ، وقد فرقهم في أرجاء أقطار الأرض والسماوات ، ﴿ **وهو** ﴾ ومع هذا كله ﴿ **وهو علىٰ جمعهم إذا يشاء قدير** ﴾ أي : يوم القيامة يجمع الأولين والآخرين وسائر الخلائق في صعيد واحد ، يسمعهم الداعي ، ويَنْفُذهم البصر ، فيحكم فيهم بحكمه العدل الحق .

وقوله : ﴿ **وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم** ﴾ أي : مهما أصابكم أيها الناس من المصائب فإنما هو عن سيئات تقدمت لكم ، ﴿ **ويعفو عن كثير** ﴾ أي : من السيئات ، فلا يجازيكم عليها بل يعفو عنها ، ﴿ **ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك علىٰ ظهرها من دابة** ﴾ ، وفي الحديث الصحيح : « **والذي نفسي بيده ، ما يصيب المؤمن من نَصَب ولا وَصَب ولا هَمّ ولا حزن ، إلا كفر الله عنه بها من خطاياه ، حتىٰ الشوكة يشاكها** »[٤٥] .

وقال ابن جرير : حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن عُلَيّة ، حدثنا أيوب قال : قرأت في كتاب أبي قلابة ، قال : نزلت : ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره** ﴾ ، وأبو بكر يأكل ، فأمسك وقال : يارسول الله ، إني لَرَاء ما عملت من خير وشر ؟ فقال : « **أرأيت ما رأيت مما تكره ، فهو من مثاقيل ذرّ الشر ، وتَدّخر مثاقيل الخير حتىٰ تعطاه يوم القيامة** » . قال : قال أبو إدريس : فإني أرىٰ مصداقها في كتاب الله : ﴿ **وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير** ﴾ . ثم رواه من وجه آخر عن أبى قلابة عن أنس قال : والأول أصح[٤٦] .

(٤٥) - أخرجه البخارى فى صحيحه - كتاب المرض ، باب : ماجاء فى كفارة المرض (٥٦٤١) ، (٥٦٤٢) ، ومسلم فى صحيحه - كتاب البر والصلة ، والآداب ، باب : « ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن »حديث (٢٥٧٣) ، من حديث أبى سعيد الخدرى ، وفى الباب عن أبى هريرة ، وعائشة وغيرهما .

(٤٦) - هذا الحديث يأتى تخريجه والكلام عليه فى سورة الزلزلة حيث استوعب المصنف هناك طرقه ، ورأيت أن الكلام عليه هناك أنسب ، والله المستعان .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا محمد بن عيسىٰ بن الطباع ، حدثنا مروان بن معاوية الفَزَاري ، حدثنا الأزهر بن راشد الكاهلي ، عن الخَضْر بن القَوّاس البجلي[١] ، عن[٢] أبي سخيلة ، عن علي - رضي الله عنه - قال : ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله - عز وجل - وحدثنا به رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم ، قال : **﴿ ما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾** ، وسأفسرها[٣] **لك يا علي : ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء في الدنيا، فبما كسبت أيديكم، والله تعالىٰ أحلم من أن يُثَنِّي عليه العقوبة في الآخرة، وما عفا الله عنه في الدنيا ، فالله تعالىٰ أكرم من أن يعود بعد عفوه »**(٤٧) .

وكذا رواه الإمام أحمد عن مروان بن معاوية [وعنده] عن[٤] أبي سخيلة قال : قال عليٌّ ... فذكر نحوه مرفوعًا .

ثم روىٰ ابن أبي حاتم نحوه من وجه آخر موقوفًا فقال : حدثنا أبي ، حدثنا منصور بن أبي مزاحم ، حدثنا أبو سعيد بن أبي الوضاح ، عن أبي الحسن ، عن أبي جُحَيفة قال : دخلت علىٰ علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - فقال : ألا أحدثكم بحديث ينبغي لكل مؤمن أن يَعِيَه ؟ قال : فسألناه ، فتلا هذه الآية : **﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾** . قال : ما عاقب الله به في الدنيا فالله أحلم من أن يُثَنِّي عليه العقوبة يوم القيامة ، وما عفا الله عنه في الدنيا فالله أكرم من أن يعود في عفوه يوم القيامة .

وقال الإمام أحمد (٤٨) : حدثنا يعلىٰ بن عبيد ، حدثنا طلحة - يعني ابن يحيىٰ - ، عن أبي بردة، عن معاوية - هو ابن أبي سفيان، رضي الله عنهما - قال[٥]: سمعت رسول الله

(٤٧) - وعزاه فى الدر المنثور إلى ابن أبى حاتم من هذا الوجه ، والحديث أخرجه أحمد ٨٥/١ ، وأبو يعلى (٣٥٢/١ ، ٤٥٣) ، والدولابى فى الكنى (١٨٥/١ - ١٨٦) ، وزاد السيوطى نسبته إلى ابن مردويه ، والحكيم الترمذى فى نوادر الأصول ، وإسحاق بن راهويه ، وابن منيع ، وعبد بن حميد من هذا الوجه . وهذا إسنادٌ ضعيف ، أزهر بن راشد الكاهلى ضعفه ابن معين وقال أبو حاتم : مجهول ، وقال الحافظ فى التقريب : ضعيف ، والخضر بن القواس : جهله أبو حاتم وذكره ابن حبان فى الثقات ، وشيخه ؛ قال أبو زرعة : لا أعرف اسمه . وقال الحافظ : مجهول ، وللحديث طريق أخرى فقد أخرجه أحمد (٩٩/١) ، وابن أبى حاتم كما ذكر المصنف ، والسيوطى فى الدر ، والحاكم ٤٤٥/٢ ، وصححه على شرط الشيخين ، وزاد الحاكم نسبته إلى ابن راهويه من طريقين عن أبى جحيفة . به موقوفًا وهذا هو الصحيح عن على ، والمرفوع لا يثبت لما سبق ذكره فى إسناده .

(٤٨) - أخرجه أحمد (٩٨/٤) ، وعبد بن حميد (٤١٥) ، وابن أبى الدنيا فى المرض والكفارات ، والحاكم ٣٤٧/١ من طريق طلحة بن يحيى عن أبى بردة به ، وصححه على شرط البخارى ومسلم ، وفى إسناده=

[١] - في خ : « الجليلى » ، وفي ز : « الجيلى» . [٢] - بعده في خ : « ابنَ » .
[٣] - في ز : « ما فسرها » . [٤] - بعده في خ : « ابن » .
[٥] - سقط من : خ .

صلىٰ اللّٰه عليه وسلم يقول : « **ما من شيء يصيب المؤمن[١] في جسده يؤذيه إلا كفر اللّٰه عنه به من سيئاته** » .

وقال أحمد أيضًا(٤٩) : حدثنا حسين، عن زائدة ، عن ليث ، عن مجاهد ، عن عائشة قالت : قال رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم: « **إذا كثرت ذنوب العبد، ولم يكن له ما يكفرها ابتلاه اللّٰه بالحزن ليكفرها** » .

وقال ابن أبي حاتم (٥٠) : حدثنا عمرو بن عبد اللّٰه الأودي ، حدثنا أبو أسامة ، عن إسماعيل بن مسلم ، عن الحسن - هو البصري - قال في قوله : ﴿ **وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير** ﴾ ، قال[٢] : لما نزلت قال رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم : « **والذي نفس محمد بيده ، ما من خدش عود ، ولا اختلاج[٣] عرق ولا عثرة قدم إلا بذنب ، وما يعفو اللّٰه عنه[٤] أكثر** » .

وقال أيضًا : حدثنا أبي ، حدثنا عمرو[٥] بن علي ، حدثنا هشيم ، عن منصور ، عن الحسن ، عن عمران بن حصين -رضي اللّٰه عنه - قال : دخل عليه بعض أصحابه وقد كان ابتلي في جسده ، فقال له بعضهم : إنا [لَنَبْتَئِسُ لك لما][٦] نرىٰ فيك . قال : فلا تبتئس بما

= طلحة بن يحيى لم يحتج به البخارى ، وقال الحافظ فى التقريب : صدوق يخطئ . فإسناد الحديث ضعيف ولكن الحديث له شواهد كثيرة يرتقى بها إلى الصحة ، وهو فى الصحيحين وغيرهما ، عن غير واحد من الصحابة ، وقد سبق بعض الشيء من هذه الشواهد كما ذكر المصنف ، وانظر السلسلة الصحيحة (٢٢٧٤).

(٤٩) - إسناده ضعيف ، وأخرجه أحمد (١٥٧/٦) ، والبزار ٨٧/٤ (٢٤٧١١ - كشف) من طريق حسين بن على به . وفيه الليث - وهو ابن أبى سليم - وهو ضعيف ، وقال الهيثمى فى المجمع (٢٩١/٢) : «رواه أحمد وفيه ليث ابن أبى سليم وهو مدلس وبقية رجاله ثقات »، وذكره أيضًا فى ١٩٢/١٠ وقال : «رواه أحمد والبزار وإسناده حسن» ، وانظر شواهده فيما سبق .

(٥٠) - إسناده ضعيف ، فبين الحسن والنبى صلى الله عليه وسلم مفاوز تنقطع فيها أعناق الإبل ، وإسماعيل ابن مسلم - وهو المكى - ضعيف والحديث أخرجه هناد فى الزهد (٤٢٩) ووكيع فى الزهد (٩٣) وعبد بن حميد وابن المنذر - كما فى الدر - من طرق عن إسماعيل بن مسلم به وفى رواية وكيع من طريق سفيان عن رجل عن الحسن به والحديث أخرجه البيهقي في الشعب ١٥٣/٧ ، وابن جرير الطبرى ٢١/٢٥ من طريق قتادة عن النبى صلى الله عليه وسلم مرسلًا أيضًا وفى الباب عن البراء بن عازب عند الطبرانى فى الأوسط - كما فى الجامع الصغير للسيوطى ، وصححه الألبانى (صحيح الجامع الصغير ١٢٠/٥ - ١٢١) ولفظه ما اختلج عرق ولا عين إلا بذنب .

[١] - في خ ، ز : « ابن آدم » .
[٢] - سقط من : خ ، ز .
[٣] - في خ ، ز : « اختلاف » .
[٤] - سقط من : ز .
[٥] - في ز : « عمرو » .
[٦] - ما بين المعكوفتين في ز : « لنيس لمما » .

ترىٰ ، فإن ما ترىٰ بذنب ، وما يعفو الله عنه أكثر ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ **وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير** ﴾(٥١) .

وحدثنا أبي : حدثنا يحيىٰ بن عبد الحميد الحمّاني ، حدثنا جرير ، عن أبي البلاد قال : قلت للعلاء بن بدر : ﴿ **وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم** ﴾ ، وقد ذهب بصري وأنا غلام ؟ قال : فبذنوب والديك (٥٢) .

وحدثنا أبي : حدثنا عليّ بن محمد الطنافسي ، حدثنا وكيع ، عن عبد العزيز بن أبي رَوّاد ، عن الضحاك قال : ما [نعلم أحدًا حفظ][١] القرآن ثم نسيه إلا بذنب ، ثم قرأ الضحاك : ﴿ **وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير** ﴾ . ثم يقول الضحاك : وأي مصيبة أعظم من نسيان القرآن (٥٣) ؟

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ (٣٢) إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ (٣٤) وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٣٥) ﴾

يقول تعالىٰ : ومن آياته الدالة علىٰ قدرته وسلطانه ، وتسخيره البحر لتجري فيه الفلك

---

(٥١) - أخرجه ابن أبى الدنيا فى الكفارات - ومن طريقه البيهقى فى الشعب (١٥٣/٧) ، وأخرجه عبد بن حميد - كما فى الدر المنثور - والحاكم ٤٤٥/٢ - ٤٤٦ ، وقال : «حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» والحديث رواه المبارك بن فضالة عن الحسن قال : «دخلنا على عمران بن الحصين ... فذكر نحوه» أخرجه البيهقى فى الشعب ١٩٦/٧ ، وفيه أن الحسن لقى عمران بن الحصين وسمع منه ، وفى ذلك نظر ، فقد قال على بن المدينى : «سمعت يحيى بن القطان وقيل له كان الحسن يقول : سمعت عمران بن حصين ؟ فقال : أما عن ثقة فلا» وهذا طعن صريح فى رواية المبارك هذه ، وذكر صالح بن أحمد أنه أنكر على من يقول عن الحسن حدثنى عمران - وسئل ابن معين عن الحسن هل لقى عمران بن الحصين ؛ فقال : أما فى رواية البصريين فلا وأما فى رواية الكوفيين فنعم ، وانظر ترجمة الحسن من جامع التحصيل .

(٥٢) - وعزاه فى الدر أيضًا إلى ابن المنذر ، وهذا الإسناد صحيح ، أبو البلاد وهو يحيى بن سليمان كذا ترجم له البخارى فى التاريخ الكبير ، وابن حبان فى الثقات ، وقال ابن أبى حاتم فى الجرح والتعديل (٩/ ١٦٠) : « يحيى بن أبى سليمان » واسم أبى سليمان الضحاك الغطفانى ، ثم نقل بإسناده عن ابن معين أنه قال : « ثقة » .

(٥٣) - أخرجه ابن أبى شيبة (١٦٢/٧) عن وكيع به، وعزاه فى الدر إلى ابن أبى حاتم ، وابن المبارك فى الزهد ، وعبد بن حميد وابن المنذر ، والبيهقى فى الشعب من هذا الوجه ، وعبد العزيز بن أبى روّاد صدوق عابد ، ورمى بالإرجاء ، ووقع فى المطبوع من المصنف لابن أبى شيبة : «ابن أبى داود» وهو تصحيف .

---

[١] - ما بين المعكوفتين في ز : « تعلّم أحد » .

بأمره ، وهي الجواري في البحر [كالأعلام ، أي][١] : كالجبال ، [قاله مجاهد ، والحسن ، والسدي ، والضحاك ، أي : هي في البحر كالجبال][٢] في البر ، ﴿ **إن يشأ يسكن الريح** ﴾ أي : التي تسير بالسفن ، لو شاء لسكنها حتىٰ لا تتحرك السفن ، بل تظل راكدة لا تجيء ولا تذهب ، بل واقفة علىٰ ظهره ، أي : علىٰ وجه الماء ، ﴿ **إن في ذلك لآيات لكل صبار** ﴾ أي : في الشدائد ، ﴿ **شكور** ﴾ أي : إن[٣] في تسخيره البحر وإجرائه الهواء بقدر ما يحتاجون إليه لسيرهم ، لدلالات علىٰ نعمه تعالىٰ على خلقه ﴿ **لكل صبار** ﴾ أي : في الشدائد ، ﴿ **شكور** ﴾ في الرخاء .

وقوله : ﴿ **أو يوبقهن بما كسبوا** ﴾ أي : ولو شاء لأهلك السفن وغرّقها بذنوب أهلها الذين هم راكبون عليها ، ﴿ **ويعف عن كثير** ﴾ أي : من ذنوبهم . ولو أخذهم[٤] بجميع ذنوبهم لأهلك كل من ركب في البحر .

وقال بعض علماء التفسير : معنىٰ قوله : ﴿ **أو يوبقهن بما كسبوا** ﴾ أي : لو شاء لأرسل الريح قوية عاتية ، فأخذت السفن وأحالتها عن سيرها المستقيم ، فصرفتها ذات اليمين أو ذات الشمال ، آبقة لا تسير علىٰ طريق ، ولا إلىٰ جهة مقصد .

وهذا القول هو يتضمن هلاكها ، وهو مناسب للأول ، وهو أنه تعالىٰ لو شاء لسكن الريح فوقفت ، أو لقواه فشَرَدت وأبِقَت وهَلكت . ولكن من لطفه ورحمته أنه يرسله بحسب الحاجة ، كما يرسل المطر بقدر الكفاية ، ولو أنزله كثيرًا جدًّا لهدم البنيان ، أو قليلًا لما أنبت الزرع والثمار ، حتىٰ إنه يرسل إلىٰ مثل بلاد مصر سيحًا من أرض أخرىٰ غيرها ، لأنهم لا يحتاجون إلىٰ مطر ، ولو أنزل عليهم لهدم بنيانهم ، وأسقط جدرانهم .

وقوله : ﴿ **ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص** ﴾ ، أي : لا محيد لهم عن بأسنا ونقمتنا ، فإنهم مقهورون بقدرتنا .

فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٣] - سقط من : ز .
[٤] - في ز : « واخذهم » .

يقول تعالىٰ مُحَقرًا لشأن الحياة الدنيا وزينتها ، وما فيها من الزهرة والنعيم الفاني ، بقوله : ﴿ **فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا** ﴾ أي : مهما حصلتم وجمعتم فلا تغتروا به ، فإنما هو متاع الحياة الدنيا ، وهي دار دنيئة فانية زائلة لا محالة ، ﴿ **وما عند الله خير وأبقىٰ** ﴾ أي: وثواب الله خير من الدنيا ، وهو باق سَرْمَديّ ، فلا تقَدّموا الفاني علىٰ الباقي ، ولهذا قال : ﴿ **للذين آمنوا** ﴾ أي : [للذين صبروا][1] علىٰ ترك الملاذ في الدنيا، ﴿ **وعلىٰ ربهم يتوكلون** ﴾ أي : ليعينهم علىٰ الصبر في أداء الواجبات وترك المحرمات .

ثم قال: ﴿ **والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش** ﴾ وقد قدمنا الكلام على الإثم والفواحش في « **سورة الأعراف** » .

﴿ **وإذا ما غضبوا هم يغفرون** ﴾ أي : سجيتهم تقتضي الصفح والعفو عن الناس ، ليس سجيتهم الانتقام من الناس .

وقد ثبت في الصحيح (٥٤) : « **أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما انتقم لنفسه قط إلا أن تنتهك[2] حرمات الله** » .

وفي حديث آخر (٥٥) : كان يقول لأحدنا عند المعتبة : « **ما له ؟ تَربت[3] جبينه[4]** » .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا ابن أبي عمر ، حدثنا سفيان ، عن زائدة ، عن منصور ، عن إبراهيم قال : كان المؤمنون يكرهون أن يستذلوا ، وكانوا إذا قدروا عفوا (٥٦) .

وقوله : ﴿ **والذين استجابوا لربهم** ﴾ أي : اتبعوا رسله وأطاعوا أمره ، واجتنبوا زجره ، ﴿ **وأقاموا الصلاة** ﴾ ، وهي أعظم العبادات لله - عز وجل - ﴿ **وأمرهم شورىٰ بينهم** ﴾ أي : لا يبرمون أمرًا حتىٰ يتشاوروا فيه ، ليتساعدوا بآرائهم في مثل الحروب وما جرىٰ مجراها ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل علىٰ الله** ﴾ ولهذا كان - عليه السلام - يشاورهم في الحروب ونحوها ، ليطيب بذلك[5] قلوبهم . وهكذا لما حضرت عمر بن

---

(٥٤) - أخرجه البخارى فى الأدب باب قول النبى صلى الله عليه وسلم : « يسروا ولا تعسروا » حديث رقم (٦١٢٦) ، وفى المناقب حديث رقم (٣٥٦٠) ، ومسلم فى الفضائل حديث رقم (٢٣٢٧) ، كلاهما من حديث عائشة به .

(٥٥) - أخرجه البخارى فى الأدب من صحيحه ، باب لم يكن النبى صلى الله عليه وسلم فاحشًا ولا متفحشًا ، وفى باب ما ينهى عن السباب واللعن حديث رقم (٦٠٣١) ، (٦٠٤٦) .

(٥٦) - وعزاه فى الدر إلى ابن أبى حاتم ، وابن جرير الطبرى ، وابن المنذر ، من هذا الوجه .

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .

[٢] - في ز : « انتهكت » .

[٣] - في ز : « برئت » .

[٤] - في خ ، ز : « يمينه » .

[٥] - في ز : « ذلك » .

الخطاب الوفاة حين طُعِن جعل الأمر بعده شورىٰ في ستة نفر ، وهم : عثمان ، وعلي ، وطلحة ، والزبير ، وسعد ، وعبد الرحمن بن عوف - رضي اللّٰه عنهم أجمعين[١] - فاجتمع رأي الصحابة كلهم علىٰ تقديم عثمان عليهم رضي اللّٰه عنهم .

﴿ **ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ ، وذلك بالإِحسان[٢] إلىٰ خلق الله ، الأقرب إليهم منهم فالأقرب .

وقوله : ﴿ **والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون** ﴾ ، أي : فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم واعتدىٰ عليهم ، ليسوا بعاجزين ولا أذلة ، بل يقدرون علىٰ الانتقام ممن بغىٰ عليهم ، وإن كانوا مع هذا إذا قدروا عفوا ، كما قال يوسف - عليه السلام - لإخوته : ﴿ **لا تثريب عليكم اليوم يغفر اللّٰه لكم** ﴾ ، مع قدرته علىٰ مؤاخذتهم ومقابلتهم علىٰ صنيعهم إليه ، وكما عفا رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم عن أولئك النفر الثمانين الذين قصدوه عام الحديبية ، ونزلوا من جبل التنعيم ، فلما قدر عليهم [عفا عنهم][٣] مع قدرته علىٰ الانتقام(٥٧) .

وكذلك عفوه عن « **غَوْرَث بن الحارث** » لما[٤] أراد الفتك به حين اخترط سيفه وهو نائم ، فاستيقظ - عليه السلام - وهو في يده صَلْتًا ، فانتهره ، فوضعه من يده ، وأخذ رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم السيف [من يده][٥] ، ودعا أصحابه ثم أعلمهم بما كان من أمره وأمر هذا الرجل ، وعفا عنه . وكذلك عفا عن لبيد بن الأعصم الذي سحره - عليه السلام - ومع هذا لم يعرض له ولا عاتبه مع قدرته عليه[٦] ، وكذلك عفوه - عليه السلام - عن المرأة اليهودية - وهي زينب أخت مرحب اليهودي الخيبري الذي قتله محمد بن مسلمة ، التي سمت الذراع يوم خيبر - فأخبره الذراع بذلك ، فدعاها فاعترفت ، فقال : « **ما حملك علىٰ ذلك ؟** » . قالت : أردت : إن كنت نبيًّا لم يضرك ، وإن لم تكن نبيًّا استرحنا منك . فأطلقها عليه الصلاة والسلام ، ولكن لما مات منه[٧] بشر بن البراء قتلها به ، والأحاديث والآثار [في هذا][٨] كثيرة جدًّا ، ولله الحمد .

---

(٥٧) - ذكر المصنفُ فى هذه الجزئية عدة مواقف لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسنعرجُ على كل موقف من هذه المواقف ونخرجها من موضعها ، سالكين فى ذلك المنهج المتبع من أول الكتاب ، وهو باختصار ما كان فى الصحيحين أو أحدهما اكتفينا بتخريج الموضع منهما أو من أحدهما ، وإن كان فى غيرهما استقصينا بقدر المستطاع تخريجه والحكم عليه .

أولًا : عفو النبى صلى الله عليه وسلم عن الثمانين فى غزوة الحديبية انظر هذا الخبر عند المصنف =

---

[١] - في ز : « جميعهم » .

[٢] - في ز : « الإحسان » .

[٣] - ما بين المعكوفتين في ت : « من عليهم » .

[٤] - في ت : « الذي » .

[٥] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .

[٦] - سقط من : خ ، ز .

[٧] - في ز : « معه » .

[٨] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالىٰ : ﴿ **وجزاء سيئة سيئة مثلها** ﴾ ، كقوله تعالىٰ : ﴿ **فمن اعتدىٰ عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدىٰ عليكم** ﴾ وقوله : ﴿ **وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين** ﴾ فشرع العدل وهو القصاص ، وندب إلىٰ الفضل وهو العفو ، كقوله : ﴿ **والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له** ﴾ ، ولهذا قال هاهنا : ﴿ **فمن عفا وأصلح فأجره على الله** ﴾ أي : لا يضيع ذلك عند الله ؛ كما صح في الحديث [٥٨] : « **وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا** » .

وقوله : ﴿ **إنه لا يحب الظالمين** ﴾ أي : المعتدين وهو المبتدئ بالسيئة .

ثم قال : ﴿ **ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل** ﴾ أي : ليس عليهم جناح في الانتصار ممن ظلمهم .

قال ابن جرير [٥٩] : حدثنا محمد بن عبد الله بن بَزيع ، حدثنا معاذ بن معاذ ، حدثنا ابن

= في تضاعيف كلامه على غزوة الحديبية في البداية والنهاية ٤/١٩١ .

ثانيًا : قصة غورث بن الحارث انظرها أيضًا في البداية والنهاية للمصنف ٤/٣ - ٤ ، والدلائل للبيهقي ٣/ ١٦٩ وأصل القصة في الصحيحين وغيرهما ، أخرجه البخاري في المغازي باب (٣١) غزوة ذات الرقاع ، الفتح (٧/٤٢٦) ، ومسلم في الفضائل حديث (١٣) ، (١٤) .

ثالثًا قصة لبيد بن الأعصم ، سوف يذكر المصنف قصته وما ورد فيها عند تفسير سورتي المعوذتين ورأينا أن من الأنسب تخريجها هناك .

رابعًا قصة المرأة اليهودية وهي زينب بنت الحارث . وقد عقد المصنف لها فصلاً كاملاً في البداية والنهاية ٤/ ٢٣٧ باب : « قصة الشاة المسمومة والبرهان الذي ظهر » ، وأصل الحديث أخرجه البخاري في كتاب الجزية الفتح (٦/٢٧٢) باب رقم (٥٨) ، وأخرجه في كتاب المغازي باب غزوة خيبر الفتح (٧/٤٠٠) ، وأخرجه في الطب باب (٥٥) ما يذكر في سم النبي صلى الله عليه وسلم .

(٥٨) - سبق تخريج هذا الحديث عند الآية (١٤٩) من سورة النساء وهذا الحديث بلفظ : «ما نقص مال من صدقة ولا زاد الله عبدًا بعفو إلا عزا ، ومن تواضع لله رفعه» .

(٥٩) - إسناده ضعيف . لحال علي بن زيد بن جدعان ، وأم محمد زوجة أبي علي بن زيد بن جدعان مجهولة الحال ترجم لها المزي ، وابن حجر ولم يذكرا فيها جرحًا ولا تعديلًا ، بينما قال الذهبي في الميزان=

عون قال : كنت أسأل عن الانتصار ﴿ **ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل** ﴾ ، فحدثني علي بن زيد بن جدعان ، عن أم محمد - امرأة أبيه ، قال ابن عون : زعموا أنها كانت تدخل على أم المؤمنين عائشة - قالت : قالت أم المؤمنين : دخل علينا[١] رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندنا زينب بنت جحش ، [فجعل يصنع][٢] بيده شيئًا فلم يَفْطِن لها ، فقلت بيده حتى فطنته لها فأمسك ، وأقبلت زينب تقحم[٣] لعائشة ، فنهاها ، فأبت أن تنتهي . فقال لعائشة : « **سُبّيها** » . فسبّتها فغلبتها ، وانطلقت زينب فأتت عليًا فقالت : إن عائشة تقع بكم ، وتفعل بكم . فجاءت فاطمة فقال لها : « **إنها حبّة أبيك وربّ الكعبة** » . فانصرفت وقالت لعلي : إني قلت له كذا وكذا ، فقال لي كذا وكذا . قال[٤] : وجاء عليّ إلى النبي صلى الله عليه وسلم فكلمه في ذلك .

هكذا ورد هذا السياقُ ، وعلي بن زيد بن جدعان يأتي في رواياته بالمنكرات غالبًا ، وهذا فيه نكارة ، والحديث الصحيح خلاف هذا السياق ، كما رواه النسائي وابن ماجة من حديث خالد بن سلمة الفأفاء ، عن عبد الله البَهِيّ ، عن عروة قال : قالت عائشة رضي الله عنها : ما علمتُ حتى دخلَت عَلَيّ زينبُ بغير إذن وهي غضبى ، ثم قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : حسبك إذا قَلَبت لك ابنة أبي بكر ذُرَيْعَتَيها[٥] .. ثم أقبلت عليّ[٦] فأعرضت عنها ، حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم : « **دونك فانتصري** » . فأقبلت عليها حتى رأيتها قد يَبِس ريقُها في فمها ، ما تَرُدّ عليّ شيئًا . فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم يتهلل وجهه . وهذا لفظ النسائي(٦٠) .

= (٤/الترجمة ١٠٩٣٨) : « تفرد عنها على بن زيد بن جدعان قلت : فهذا الإسناد واه والحديث أخرجه أحمد (١٣٠/٦) (٢٥٠٩٨) (٢٥٠٩٩) ، وأبو داود فى الأدب باب فى الانتصار حديث رقم (٤٨٩٨) من طرق عن ابن عون به ، وعزاه فى الدر إلى ابن مردويه ، ووقع عند أحمد «أم سلمة »بدلاً من «زينب بنت جحش »وذلك من رواية سليم بن أخضر عن ابن عون ، قال أحمد « إلا أن سليمًا قال أم سلمة » يعنى جعل الحمل فى هذا على سليم بن أخضر .

(٦٠) - هذا الحديث رواه زكريا بن أبى زائدة . واختلف عليه ، فرواه محمد بن بشر والمعلى بن منصور ويحيى بن زكريا بن أبى زائدة عنه عن خالد بن سلمة عن عبد الله البهى عن عروة عن عائشة به ، أخرجه هكذا أحمد ٩٣/٦ ، وابنه عبد الله ٩٣/٦ ، والبخارى فى الأدب المفرد (٥٥٨) ، والنسائى فى الكبرى كتاب عشرة النساء ، باب : فى الانتصار حديث رقم (٨٩١٤) ، (٨٩١٥) ، وفى التفسير ، سورة الشورى باب : ﴿ **ولمن انتصر بعد ظلمه** ﴾ حديث رقم (١١٤٧٦) ، وابن ماجه فى النكاح باب حسن معاشرة النساء (٦٣٧/١) حديث رقم (١٩٨١) ، وخالفهم إسحاق بن يوسف فرواه عن زكريا بن أبى زائدة =

[١] - سقط من : ز .

[٢] - ما بين المعكوفتين في ز: «فجعلت تصنع» .

[٣] - في ت : « تقلم » .

[٤] - سقط من : ز .

[٥] - في ز : « درعيها » .

[٦] - في ز : « إلى » .

وقال البزار : حدثنا يوسف بن موسىٰ ، حدثنا أبو غسان ، حدثنا أبو الأحوص ، عن أبي حَمزة ، عن إبراهيم ، عن الأسود ، عن عائشة - رضي اللّه عنها - قالت : قال رسول اللّه صلىٰ اللّه عليه وسلم : « **من دعا عَلَىٰ من ظلمه فقد انتصر** » .

ورواه الترمذي(٦١) من حديث أبي الأحوص ، عن أبي حمزة - واسمه ميمون - ، ثم قال : لا نعرفه إلا من حديثه ، وقد تُكلِّم فيه من قبل[١] حِفْظِه .

وقوله : ﴿ **إنما السبيل** ﴾ أي : إنما الحرج والعنت ﴿ **علىٰ الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق** ﴾ أي : يبدءون الناس بالظلم . كما جاء في[٢] الحديث الصحيح : « **المستَبَّان ما قالا ، فعلىٰ البادى ما لم يعتد المظلوم** » .

﴿ **أولئك لهم عذاب أليم** ﴾ أي : شديد موجع .

قال أبو بكر بن أبي شيبة(٦٢) : حدثنا الحسن بن موسىٰ ، حدثنا سعيد بن زيد أخو حماد ابن زيد حدثنا عثمان الشحام ، حدثنا محمد بن واسع قال : قدمت مكة فإذا علىٰ الخندق مَنْظَرَة فأُخِذت فانطُلِق بي إلىٰ مروان بن المهلب ، وهو أمير علىٰ البصرة ، فقال : ما حاجتَك يا أبا عبد اللّه ؟ قلت : حاجتي إن استطعت أن تكون كما قال أخو بني عدي . قال : ومَن أخو بني عدي ؟ قال : العلاء بن زياد ، استعمل صديقًا له مرة علىٰ عمل ، فكتب إليه : أما بعد ، فإن[٣] استطعت أن لا تبيت إلا وظهرك خفيف ، وبطنك خَميص ، وكَفّك نَقية من دماء المسلمين وأموالهم ، فإنك إذا فعلت ذلك لم يكن عليك سبيل ، ﴿ **إنما السبيل علىٰ الذين**

= عن عبد الله البهى عن عائشة ، ولم يذكر عروة ، أخرجه هكذا النسائى فى الكبرى كتاب عشرة النساء باب الانتصار حديث رقم (٨٩١٦) والحديث صححه الشيخ الألبانى على شرط مسلم انظر الصحيحة (١٨٦٢).

(٦١) - هذا الحديث ضعيف وعلته : أبو حمزة هذا ، قال الإمام أحمد : متروك ، والحديث أخرجه ابن أبى شيبة فى المصنف كتاب الدعاء ، باب : الرجل يظلم فيدعو الله على من ظلمه ٩٣/٧ ، والترمذى فى الدعوات من جامعه باب من دعا على من ظلمه فقد انتصر حديث رقم (٣٥٤٧) ، وأبى يعلى حديث رقم (٤٤٥٤ ، ٤٦٣١) وابن عدى فى الكامل ٢٤٠٧/٦ من طريق أبى حمزة به ، قال ابن عدى : « ... وأحاديثه التى يرويها خاصة عن إبراهيم مما لا يتابع عليها »قلت : وهذا منها . والحديث ضعفه الشيخ الألبانى كما فى ضعيف الجامع برقم (٥٥٨٨) .

(٦٢) - إسناده صحيح . الحسن بن موسى - وهو الأشيب - ثقة ثبت ، وسعيد بن زيد قال الحافظ : صدوق له أوهام وهو من رجال مسلم ، وعثمان الشحام قال الحافظ فى التقريب : «لا بأس به »، وهو من رجال مسلم .

---

[١] - في ز : « قبيل » .

[٢] - سقط من : ز .

[٣] - في ز : « إن » .

يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم ﴾ » . فقال : صدق والله ونَصح ، ثم قال : ما [١]حاجتك يا أبا عبد الله ؟ قلت : حاجتي أن تلحقني بأهلي . قال : نعم . رواه ابن أبي حاتم .

ثم إنه تعالىٰ لما ذم الظلم وأهله وشرع القصاص ، قال نادبًا إلىٰ العفو والصفح : **﴿ ولمن صبر وغفر ﴾** أي : صبر علىٰ الأذىٰ وستر السيئة ، **﴿ إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾** .

قال سعيد بن جبير : لمن حق الأمور التي أمر الله بها ، أي : لمن الأمور المشكورة والأفعال الحميدة التي عليها ثواب جزيل وثناء جميل .

و[٢]قال ابن أبي حاتم(٦٣) : حدثنا أبي ، حدثنا عمران بن موسىٰ الطرسوسي[٣] ، حدثنا عبد الصمد بن يزيد - خادم الفُضَيل بن عياض - قال : سمعت الفضيل بن عياض يقول : إذا أتاك رجل يشكو إليك رجلًا فقل : يا أخي ، اعف عنه ، فإن العفو أقرب للتقوىٰ . فإن قال : لا يحتمل قلبي العفو ، ولكن أنتصر كما أمرني الله عز وجل . [فقل له][٤] : إن كنت تحسن أن تنتصر وإلا فارجع إلىٰ باب العفو ، فإنه باب واسع ، فإنه من عفا وأصلح فأجره علىٰ الله ، وصاحب العفو ينام علىٰ فراشه بالليل ، وصاحب الانتصار يقلب الأمور .

وقال الإمام أحمد (٦٤) : حدثنا يحيىٰ - يعني ابن سعيد القطان - عن ابن عجلان ، حدثنا سعيد بن أبي سعيد ، عن أبي هُرَيرة -رضي الله عنه- : أن رجلًا شتم أبا بكر والنبي صلىٰ الله عليه وسلم جالس ، فجعل النبي صلىٰ الله عليه وسلم يعجب ويتبسم ، فلما أكثر رَدّ عليه بعض قوله ، فغضب النبي صلىٰ الله عليه وسلم وقام ، فلحقه أبو بكر فقال : يا رسول الله ، إنه

---

(٦٣) - صحيح إلى الفضيل ، فقد أخرج أبو نعيم فى حليته (١١٢/٨) هذا الخبر من وجه آخر عن عبد الصمد عن الفضيل به الحلية .

(٦٤) - أخرجه أحمد ٤٣٦/٢ ، وأبو داود فى كتاب الأدب ، باب : فى الانتصار ، حديث رقم (٤٨٩٨) ، والبيهقى فى الشعب ٢٥٨/٦ من طرق عن محمد بن عجلان عن سعيد المقبرى به . ورواية محمد بن عجلان عن سعيد المقبرى مضطربة . وقد اختلطت عليه رواية المقبرى عن رجل عن أبى هريرة ، ورواية المقبرى عن أبى هريرة فجعلها جميعًا عن أبى هريرة . فروايته عن المقبرى مردودة ، ولاسيما إذا خولف عن المقبرى كما فى هذا الحديث فقد رواه الليث بن سعد ، وهو ثقة ثبت ، عن المقبرى عن بشير بن المحرر عن سعيد بن المسيب مرسلاً . أخرجه هكذا أبو داود فى الموضع السابق حديث رقم (٤٨٩٧) والبخارى فى التاريخ الكبير ١٠٢/٢ كلاهما من طريق الليث به وقال البخارى : «وقال ابن عجلان : عن سعيد عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم ، والأول أصح »يعنى رواية الليث .

---

[١] - سقط من : ز .

[٢] - سقط من : ز .

[٣] - في ز : « الترسوسي » .

[٤] - ما بين المعكوفتين في خ ، ز : « قال له الفضيل » .

كان يشتمني وأنت جالس ، فلما رَدَدت عليه بعض قوله غضبتَ وقمتَ ! قال : « **إنه كان معك مَلَك يرد عنك ، فلما رددت عليه بعض قوله حضَر الشيطان ، فلم أكن لأقعد مع الشيطان** » .
ثم قال : « **يا أبا بكر ، ثلاث كلهن حَقّ : ما من عبد ظُلم بمظلمة فيغضي عنها لله ، إلا أعزّ الله بها نَصْرَه ، وما فتح رجل باب عطية يريد بها صلة ، إلا زاده الله بها كثرة ، وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة ، إلا زاده الله بها قلة** » .

وكذا[١] رواه أبو داود ، عن عبد الأعلىٰ بن حماد ، عن سفيان بن عيينة . قال : ورواه صفوان بن عيسىٰ ، كلاهما عن محمد بن عجلان . ورواه من طريق الليث ، عن سعيد المقبري ، عن بشير بن المحرر ، عن سعيد بن المسيب مرسلًا(٦٥) ، وهذا الحديث في غاية الحسن في المعنى وهو سبب سبه للصديق .

﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن نفسه الكريمة : إنه ما شاء كان ولا رَادّ له ، وما لم يشأ لم يكن فلا موجد له ، وأنه من هداه فلا مُضِلّ له ، ومن يضلل فلا هادي له ، كما قال : ﴿ **ومن يضلل فلن تجد له وليًا مرشدًا** ﴾ ثم قال مخبرًا عن الظالمين ، وهم المشركون بالله ﴿ **لما رأوا العذاب** ﴾ أي : يوم القيامة يتمنون الرجعة إلىٰ الدنيا ، ﴿ **يقولون هل إلىٰ مَرَدّ من سبيل** ﴾ ، كما قال : ﴿ **ولو ترىٰ إذ وقفوا علىٰ النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين * بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون** ﴾ .

وقوله : ﴿ **وتراهم يعرضون عليها** ﴾ أي : علىٰ النار ﴿ **خاشعين من الذل** ﴾ أي : الذي

(٦٥) - تقدم تخريجه فى سورة البقرة عند الآية رقم (٢٨٢) .

[١] - سقط من : خ ، ز .

قد اعتراهم بما أسلفوا من عصيان الله ، ﴿ **ينظرون من طرف خفي** ﴾ ، قال مجاهد : يعني ذليل . أي : ينظرون إليها مُسَارَقَةً خوفًا منها ، والذي يحذرون منه واقع بهم لا محالة ، وما هو أعظم مما في نفوسهم . أجارنا الله من ذلك .

﴿ **وقال الذين آمنوا** ﴾ أي : يقولون يوم القيامة : ﴿ **إن الخاسرين** ﴾ أي : الخَسَارَ الأكبرَ ﴿ **الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة** ﴾ أي : ذهب بهم إلى النار ، فَعَدموا لذتهم في دار الأبد ، وخسروا أنفسهم ، وفرّق بينهم وبين أصحابهم وأحبابهم وأهاليهم وقراباتهم ، فخسروهم ، ﴿ **ألا إن الظالمين في عذاب مقيم** ﴾ أي : دائم سرمدي أبدي ، لا خروج لهم منها ولا محيد لهم عنها .

وقوله : ﴿ **وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله** ﴾ أي : ينقذونهم مما هم فيه من العذاب والنكال ، ﴿ **ومن يضلل الله فما له من سبيل** ﴾ أي : ليس له خلاص .

اَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ (٤٧) فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ (٤٨)

لما ذكر تعالى ما يكون في يوم القيامة من الأهوال والأمور العظام الهائلة ، حَذّر منه وأمر بالاستعداد له ، فقال : ﴿ **استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله** ﴾ أي : إذا أمر بكونه فإنه كلمح البصر يكون ، وليس له دافع ولا مانع .

وقوله : ﴿ **ما لكم من ملجإ[١] يومئذ وما لكم من نكير** ﴾ أي : ليس لكم حصن تتحصنون فيه ، ولا مكان يستركم وتتنكرون[٢] فيه[٣] ، فتغيبوا عن بصره - تبارك وتعالى - بل هو محيط بكم بعلمه وبصره وقدرته ، فلا ملجأ منه إلا إليه ، ﴿ **يقول الإنسان يومئذ أين المفر * كلا لا وزر * إلى ربك يومئذ المستقر** ﴾ .

وقوله : ﴿ **فإن أعرضوا** ﴾ ، يعني المشركين ﴿ **فما أرسلناك عليهم حفيظًا** ﴾ أي : لست عليهم بمصيطر . وقال تعالى : ﴿ **ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء** ﴾ قال تعالى :﴿ **فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب** ﴾ . وقال هاهنا : ﴿ **إن عليك إلا البلاغ** ﴾ أي :

---

[١] - في ز : « نجاء » . [٢] - في ز : « تكرون » .
[٣] - سقط من : خ .

إنما كلفناك أن تبلغهم رسالة الله إليهم .

ثم قال تعالى : ﴿ **وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها** ﴾ أي : إذا أصابه رخاء ونعمة فرح بذلك ، ﴿ **وإن تصبهم** ﴾ يعني الناس ﴿ **سيئة** ﴾ أي : جدب ونقمة وبلاء وشدة ، ﴿ **فإن الإنسان كفور** ﴾ أي : يجحد ما تقدم من النعمة ولا يعرف إلا الساعة الراهنة ، فإن أصابته نعمة أشر وبطر ، وإن أصابته محنة يئس وقنط . كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم(٦٦) : « **يا معشر النساء ، تصدقن فإني رأيتكن أكثر أهل النار** » . فقالت امرأة : ولم يا رسول الله ؟ قال : « **لأنكن تُكثرن الشكاية ، وتكفُرن العشير ، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم تركت يومًا ، قالت : ما رأيت منك خيرًا قط** » . وهذا حال أكثر الناس إلا من هداه الله وألهمه رشده ، وكان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فالمؤمن كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن** »(٦٧) .

لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

يخبر تعالى أنه خالق السماوات والأرض ومالكهما والمتصرف فيهما ، وأنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه يعطي من يشاء ، ويمنع من يشاء ، ولا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع ، وأنه يخلق ما يشاء ، و ﴿ **يهب لمن يشاء إناثًا** ﴾ أي : يرزقه البنات فقط - قال البغوي : ومنهم لوط - عليه السلام - ﴿ **ويهب لمن يشاء الذكور** ﴾ أي : يرزقه البنين فقط . قال البغوي : كإبراهيم الخليل - عليه السلام - لم يولد له أنثى .

﴿ **أو يزوجهم ذكرانًا وإناثًا** ﴾ أي : ويعطي من يشاء من الناس الزوجين الذكر والأنثى ؛ أي : من هذا ومن[١] وهذا ، قال البغوي ، كمحمد عليه الصلاة والسلام . ﴿ **ويجعل من يشاء عقيمًا** ﴾ أي : لا يولد له . قال البغوي : كيحيى وعيسى ، عليهما السلام . فجعل الناس أربعة أقسام : منهم من يعطيه البنات ، ومنهم من يعطيه البنين ، ومنهم من يعطيه من النوعين ذكورًا وإناثًا ، ومنهم من يمنعه هذا وهذا ، فيجعله عقيمًا لا نسل له ولا يولد له . ﴿ **إنه عليم** ﴾ أي : بمن يستحق كل قسم من هذه الأقسام ، ﴿ **قدير** ﴾ أي : على ما[٢] يشاء ، من

(٦٦) - تقدم هذا الحديث مرارًا . فى سورة البقرة الآية رقم (١٥٣) ، وفى الأعراف رقم (٩٥) ، وفى يونس (١٢) ، وفى الروم رقم (٣٣) ، وفى سبأ الآية (١٩) وسيأتى فى التغابن الآية (١١)

(٦٧) - تقدم هذا الحديث فى سورة البقرة عند الآية رقم (٨٧) .

[١] - سقط من : ت . [٢] - في خ ، ت : « من » .

تفاوت الناس في ذلك .

وهذا المقام شبيه بقوله تعالى عن عيسى : ﴿ **ولنجعله آية للناس** ﴾ ؛ أي : دلالة لهم[١] علىٰ قدرته - تعالىٰ وتقدس - حيث خلق الخلق علىٰ أربعة أقسام : فآدم - عليه السلام - مخلوق من تراب ، لا من ذكر ولا أنثىٰ ، وحواء - عليها السلام - من ذكر بلا أنثىٰ ، وسائر الخلق سوىٰ عيسىٰ من ذكر وأنثىٰ ، وعيسىٰ - عليه السلام - من أنثىٰ بلا ذكر . فتمت الدلالة بخلق عيسىٰ ابن مريم ، عليهما السلام ؛ ولهذا قال : ﴿ **ولنجعله آية للناس** ﴾ ، فهذا المقام في الآباء ، والمقام الأول في الأبناء ، وكل منهما أربعة أقسام ، فسبحان العليم القدير!

۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

هذه مقامات الوحي بالنسبة إلىٰ جناب الله - عز وجل - وهو أنه تعالىٰ تارة يقذف في روع النبي صلىٰ الله عليه وسلم شيئًا لا يتمارىٰ فيه أنه من الله - عز وجل - كما جاء في صحيح ابن حبان ، عن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم أنه قال : « **إن روح القدس نفث في رُوعي : أن نفسًا لن تموت حتىٰ تستكمل رزقها وأجلها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب** »(٦٨) .

وقوله : ﴿ **أو من وراء حجاب** ﴾ كما كلم موسى - عليه السلام - فإنه سأل الرؤية بعد التكليم فحجب عنها . وفي الصحيح أن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم قال لجابر بن عبد الله : « **ما كلم الله أحدًا إلا من وراء حجاب ، وإنه كلم أباك كفاحًا** ..» ... الحديث . وكان قد قتل يوم أحد ، ولكن هذا في عالم البرزخ ، والآية إنما هي في الدار الدنيا .

وقوله : ﴿ **أو يرسل رسولًا فيوحي بإذنه ما يشاء** ﴾ ، كما ينزل جبريل وغيره من الملائكة علىٰ الأنبياء عليهم السلام ، ﴿ **إنه عليّ حكيم** ﴾ ، فهو عليّ عليم خبير حكيم .

(٦٨) - تقدم تخريجه في سورة آل عمران عند الآية رقم (١٦٩ ، ١٧١) .

[١] - سقط من : خ ، ز .

وقوله : ﴿ **وكذلك أوحينا إليك روحًا من أمرنا** ﴾ ، يعني القرآن ، ﴿ **ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان** ﴾ أي[١] : علىٰ التفصيل الذي شرع لك في القرآن ، ﴿ **ولكن جعلناه** ﴾ أي القرآن ﴿ **نورًا نهدي به من نشاء من عبادنا** ﴾ ، كقوله : ﴿ **قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد** ﴾ .

وقوله : ﴿ **وإنك** ﴾ أي يا محمد ﴿ **لتهدي إلىٰ صراط مستقيم** ﴾ ، وهو الحق[٢] القويم ، ثم فسره بقوله : ﴿ **صراط الله** ﴾ أي : شرعه الذي أمر به الله ، ﴿ **الذي له مافي السماوات وما في الأرض** ﴾ أي : ربهما ومالكهما والمتصرف فيهما ، الحاكم الذي لا معقب لحكمه ، ﴿ **ألا إلىٰ الله تصير الأمور** ﴾ أي ترجع الأمور ، فيفصلها ويحكم فيها .

[آخر تفسير سورة « سورة الشورى » والحمد لله رب العالمين] .

☆ ☆ ☆

---

[١] - سقط من : ز .

[٢] - في ت : « الخلق » .

سورة حمٓ[1] عٓسٓقٓ[2]

مكّيّة،[3] وهي ثلاث وخمسون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٤﴾

﴿حمٓ ۝ عٓسٓقٓ﴾ اسمان للسورة، ولذلك فُصِل بينهما، وعُدّا آيتين. وقيل: اسم واحد، والفصل ليناسب سائرَ الحواميم. وقُرئ: "حم سق".[4] فعلى الأوّل هما خبران لمبتدأ محذوف، وقيل: ﴿حمٓ﴾ مبتدأ ﴿عٓسٓقٓ﴾ خبره. وعلى الثاني الكلّ خبر واحد.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ كلام مستأنَف وارد لتحقيق أنّ مضمون السورة موافق لِما في تضاعيف سائر الكتب المنزَّلة على الرسل المتقدِّمة في الدعوة إلى التوحيد والإرشاد إلى الحقّ، أو أنّ إيحاءها مثلُ إيحائها بعد تنويهها بذكر اسمها، والتنبيهِ على فخامة شأنها. والكاف في حيّز النصب على أنّه مفعول لـ﴿يُوحِيٓ﴾ عَلى الأوّل، وعلى أنّه نعت لمصدر مؤكِّد له على الثاني.

و﴿ذَٰلِكَ﴾ على الأوّل إشارة إلى ما فيها، وعلى الثاني إلى إيحائها. وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بعلوّ رتبة المشار إليه وبُعد منزلته في الفضل، أي: مثلَ ما في هذه السورة مِن المعاني / أوحي إليك في سائر السور وإلى مَن قبلك مِن [٤٩و]
الرسل في كتبهم، على أنّ مَناط المماثلة ما أشيرَ إليه مِن الدعوة إلى التوحيد

---

[1] س ي – حم.

[2] س + وتسمّى سورة الشورى.

[3] س – مكّيّة.

[4] قراءة شاذّة، مروية عن ابن مسعود وابن عبّاس رضي الله عنهم. انظر: جامع البيان للطبري، ٤٤٦٤/٢٠؛ والمحتسب لابن جنّي، ٢٤٩/٢.

والإرشاد[١] إلى الحقّ وما فيه صلاح العباد في المعاش والمعاد. أو مثلَ إيحائها أوحي إليك عند إيحاء سائر السور، وإلى سائر الرسل عند إيحاء كتبهم إليهم، لا إيحاءً مغايرًا له كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ﴾ الآية [النساء، ٤/١٦٣]، على أنّ مدار المِثليّة كونه بواسطة المَلَك.

وصيغة المضارع على حكاية الحال الماضية للإيذان باستمرار الوحي، وأنّ إيحاء مثله عادتُه. وفي جعل مضمون السورة أو إيحائِها مشبَّهًا به مِن تفخيمها ما لا يخفى، وكذا في وصفه تعالى بوصفَي العزّة والحكمة. وتأخير الفاعل لمراعاة الفواصل مع ما فيه مِن التشويق.

وقُرئ: "يُوحَى"،[٢] على البناء للمفعول، على أنّ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مبتدأ، و"يُوحَى" خبره المسنَد إلى ضميره. أو مصدر، و"يُوحَى" مسنَد إلى ﴿إِلَيۡكَ﴾، و﴿ٱللَّهُ﴾ مرتفِع بما دلّ عليه "يُوحَى"، كأنّه قيل: مَن يُوحِي؟ فقيل: الله. و﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ صفتان له، أو مبتدأ -كما في قراءة "نُوحِي"-[٣] و﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ وما بعده خبَران له، أو ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ صفتان له، وقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ خبران له. وعلى الوجوه السابقة استئناف مقرِّر لعزّتِه وحِكمته.

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥﴾

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ وقُرئ بالياء.[٤] ﴿يَتَفَطَّرۡنَ﴾ يتشقّقن مِن عظمة الله تعالى.[٥] وقيل: مِن دعاء الولد له، كما في سورة مريم.[٦] وقُرئ: "يَنْفَطِرْنَ".[٧] والأوّل أبلغ؛

---

[١] س: والإشهاد؛ ي: والإشارة.

[٢] قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢/٣٦٧.

[٣] قراءة شاذّة، قرأ بها أبو حَيوة وبِشر عن أبي عمرو. مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٣٥.

[٤] قرأ بها نافع والكسائي. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٩.

[٥] م - تعالى.

[٦] في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ٨٨ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ﴾ الآيات [مريم، ١٩/٨٨-٩٠].

[٧] قرأ بها أبو عمرو ويعقوب وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٩.

لأنّه مطاوِع "فَطَّر"، وهذا مطاوِع "فَطَر". وقُرئ: "تَتَفَطَّرْنَ" بالتاء[١] لتأكيد التأنيث، وهو نادر.[٢]

﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾ أي: يبتدئ التفطّر مِن جهتهنّ الفوقانيّة. وتخصيصُها على الأوّل[٣] لِما أنّ أعظم الآيات[٤] وأدلَّها على العظمة والجلال مِن تلك الجهة، وعلى الثاني[٥] للدلالة على التفطّر مِن تحتهنّ بالطريق الأَولى؛ لأنّ تلك الكلمة الشنعاء الواقعة في الأرض حين أثّرت في جهة الفوق فلَأن تؤثِّر في جهة التحت أَولى. وقيل: الضمير لـ﴿ٱلْأَرْضِ﴾،[٦] / فإنّها في معنى الأَرَضِين. [٤٩ظ]

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ ينزّهونه تعالى عمّا لا يليق به ملتبسين بحمده، ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالسعي فيما يستدعي مغفرتهم مِن الشفاعة والإلهام، وترتيبِ الأسباب المقرِّبة إلى الطاعة، واستدعاءِ تأخير العقوبة طمَعًا في إيمان الكافر وتوبة الفاسق. وهذا يعمّ المؤمن والكافر؛ بل لو فُسِّر الاستغفار بالسعي فيما يدفع الخلَل المتوقَّع عَمَّ الحيوانَ؛ بل الجمادَ، وحيث خُصَّ بالمؤمنين -كما في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر، ٧/٤٠]- فالمراد به الشفاعة.

﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ إذ ما مِن مخلوق إلّا وله حظّ عظيم مِن رحمته تعالى. والآية على الأوّل زيادةُ تقرير لعظمته تعالى، وعلى الثاني بيان لكمال تقدّسِه عمّا نُسب إليه، وأنّ ترك معاجلتهم بالعقاب على تلك الكلمة الشنعاءِ بسبب استغفار الملائكة وفَرط غفرانه ورحمته، فَفيها رمز إلى أنّه تعالى يقبل استغفارهم ويزيدُهم على ما طلبوه مِن المغفرة رحمةً.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن يونس عن أبي عمرو. مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٣٤.

٢ قال ابن خالويه: «وهذا حرف نادر؛ لأنّ العرب لا تجمع بين علامتَي التأنيث، لا يقال: النساء تقُمنَ، ولكن: يقُمنَ، ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ﴾ [البقرة، ٢٣٣/٢]، ولا يقال: تُرضِعن. وقد كان أبو عمر الزاهد روى في نوادر ابن الأعرابي: الإبل تَتَشمَمْنَ، فأنكرناه، فقد قوّاه الآن هذا». مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٣٤.

٣ أي: على القول الأوّل في معنى ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾، وهو قوله: يتشقّقنَ مِن عظمة الله تعالى.

٤ وفي هامش م: عرش وكرسي. «منه».

٥ أي: على القول الثاني في معنى ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾، وهو قوله: يتشقّقنَ مِن دعاء الولد له.

٦ في الآية السابقة.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝٦﴾

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ شركاء وأندادًا ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ رقيب على أحوالهم وأعمالهم فيجازيهم بها. ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ بموكَّل بهم، أو بموكول إليه أمرهم، وإنّما وظيفتك الإنذار.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى مصدر ﴿أَوْحَيْنَا﴾. ومحلّ الكاف النصب على المصدريّة. و﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ مفعول لـ﴿أَوْحَيْنَا﴾، أي: ومثلَ ذلك الإيحاء البديع البيّن المُفْهِم أوحينا إليك قرآنًا عربيًّا، لا لَبس فيه عليك ولا على قومك.

وقيل: إشارة إلى معنى الآية المتقدِّمة مِن أنّه تعالى هو الحفيظ عليهم، وإنّما أنت نذير فحسبُ. فالكاف مفعول به لـ﴿أَوْحَيْنَا﴾، و﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ حال مِن المفعول به، أي: أوحيناه إليك، وهو قرآن عربي بيّن.

﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي: أهلَها، وهي مكّة. ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ مِن العرب، ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ / أي: يوم القيامة؛ لأنّه يُجمع فيه الخلائق، قال[1] تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ [التغابن، ٩/٦٤]. وقيل: يُجمع فيه الأرواح والأشباح. وقيل: الأعمال والعمّال. والإنذار يتعدّى إلى مفعولَين، وقد يستعمل ثانيهما بالباء، وقد حُذف ههنا ثاني مفعولَي الأوّل وأوّلُ مفعولَي الثاني للتهويل وإيهام التعميم. وقُرئ: "لِيُنْذِرَ" بالياء[2] على أنّ فاعله ضمير القرآن. [٥٠و]

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ اعتراض مقرِّر لِما قبله.

﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: بعد جمعهم في الموقِف، فإنّهم يُجمعون فيه أوّلًا ثمّ يُفرَّقون بعد الحساب. والتقدير: منهم فريق. والضمير للمجموعِين

---

١ س ي + الله.

٢ قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكر قارئها. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢١٠/٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٧٧/٥.

لدلالة ﴿ٱلْجَمْعِ﴾ عليه. وقُرِئا منصوبَين[١] على الحاليّة منهم، أي: وتُنذِر يوم جمعهم متفرّقين، أي: مشارفين للتفرّق، أو متفرّقين[٢] في دارَي الثواب والعقاب.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ⁨٨⁩﴾

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ﴾ أي: في الدنيا ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ قيل: مهتدين أو ضالّين. وهو تفصيل لِما أجمَله ابن عبّاس رضي الله عنهما في قوله: «على دينٍ واحد».[٣] فمعنى قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ أنّه تعالى يُدخل في رحمته مَن يشاء أن يُدخِله فيها، ويُدخل في عذابه مَن يشاء أن يُدخله فيه، ولا ريب في أنّ مشيئته تعالى لكلٍّ مِن الإدخالَين تابعة لاستحقاق كلٍّ مِن الفريقين لدخول مدخله. ومِن ضرورة اختلاف الرحمة والعذاب اختلافُ حال الداخلين فيهما قطعًا، فلم يشأ جَعْلَ الكلّ أمّة واحدة؛ بل جعلهم فريقين.

وإنّما قيل: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ للإيذان بأنّ الإدخال في العذاب مِن جهة الداخلين بموجَب سوء اختيارهم، لا مِن جهته تعالى، كما في الإدخال في الرحمة، لا لِما قيل مِن المبالغة في الوعيد.[٤]

وقيل: مؤمنين كلّهم، وهو ما قاله مقاتل: «على دين الإسلام»،[٥] كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام، ٣٥/٦]، وقولِه تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَـَٔاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة، ١٣/٣٢]. والمعنى: ولو شاء الله مشيئةَ قدرةٍ لقَسَرهم على الإيمان، ولكنّه شاء مشيئةَ حكمةٍ، / وكلّفهم وبنى أمرهم على ما [٥٠ظ]
يختارون ليُدخل المؤمنين في رحمته، وهم المرادون بقوله تعالى: ﴿مَن يَشَآءُ﴾، وترَك الظالمين بغير وليّ ولا نصير.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٢٤/٩.

٢ م س – متفرّقين ["صح" في الهامش].

٣ التفسير الوسيط للواحدي، ٤٤/٤؛ اللباب لابن عادل، ١٧٠/١٧.

٤ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٧٧/٥.

٥ تفسير مقاتل بن سليمان، ٧٦٤/٣؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤٤/٤.

وأنت خبير بأنّ فرضَ جعْل الكلّ مؤمنين يأباه تصدير الاستدراك بإدخال بعضهم في رحمته؛ إذ الكلّ حينئذ داخلون فيها، فكان المناسب حينئذ تصديرَه بإخراج بعضِهم مِن بينهم وإدخالِهم في عذابه، فالذي يقتضيه سباق النظم الكريم وسياقُه أن يُراد الاتّحاد في الكفر، كما في قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ الآيةَ [البقرة، ٢/٢١٣] على أحد الوجهين، بأن يُراد بهم الذين هم في فترة إدريسَ أو في فترة نوح عليهما السلام.

فالمعنى: ولو شاء الله لجعلهم أمّة واحدة متّفقة على الكفر، بأن لا يرسل إليهم رسولًا ليُنذرهم ما ذُكر مِن يوم الجَمع وما فيه مِن ألوان الأهوال، فيَبقَوا على ما هم عليه مِن الكفر، ولكن يُدخل مَن يشاء في رحمته، أي: شأنُه ذلك، فيُرسل إلى الكلّ مَن يُنذرهم ما ذُكر، فيتأثّر بعضهم بالإنذار، فيَصرِفون اختيارهم إلى الحقّ، فيوفِّقهم الله تعالى للإيمان والطاعة، ويدخلهم في رحمته، ولا يتأثّر به الآخَرون ويتمادَون في غيِّهم، وهم الظالمون، فيبقَون في الدنيا على ما هم عليه مِن الكفر، ويصيرون في الآخرة إلى السعير مِن غير وليّ يَلي أمرَهم، ولا نصيرٍ يخلِّصهم مِن العذاب.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٩﴾

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ جملة مستأنَفة مقرِّرة لِما قبلها مِن انتفاء أن يكون للظالمين وليّ أو نصير. و﴿أَم﴾ منقطعة، وما فيها مِن "بل" للانتقال مِن بيان ما قبلها إلى بيان ما بعدها، والهمزة لإنكار الوقوع ونفيِه على أبلغ وجهٍ وآكَدِه، لا لإنكار الواقع واستقباحه كما قيل،[١] إذ المراد بيان أنّ ما فعلوا ليس مِن اتّخاذ الأولياء في شيء؛ لأنّ ذلك فرع كون الأصنام أولياءَ، وهو أظهر الممتنِعات. أي:
[٥١و] بل أَتَخذُوا[٢] / متجاوزين الله تعالى[٣] أولياء مِن الأصنام وغيرها؟ هيهات!

---

[١] هو مفهوم كلام الزمخشري في الكشّاف، ٤/٢١١.

[٢] م: أَاِتّخذوا. [بهمزتين الأولى مفتوحة والثانية مكسورة]؛ س: اتّخذوا. | الصواب فيها ما أثبتُه بهمزة واحدة مقطوعة مفتوحة، كما في قوله تعالى: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ [مريم، ١٩/٧٨]، وهو ما تحتمله نسخة س.

[٣] م – تعالى.

وقوله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾ جواب شرطٍ محذوف، كأنّه قيل بعد إبطال وَلاية ما اتّخذوه أولياء: إن أرادوا وليًّا في الحقيقة فالله هو الوليّ، لا وليَّ سِواه.

﴿وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: ومِن شأنه ذلك، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو الحقيق بأن يُتَّخذ وليًّا، فليَخُصّوه بالاتّخاذ دون مَن لا يقدر على شيء.

﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ١٠﴾

﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ﴾ حكاية لقول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم للمؤمنين، أي: ما خالفكم الكفّار فيه مِن أمور الدين فاختلفتم أنتم وهمْ، ﴿فَحُكْمُهُۥٓ﴾ راجع ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾، وهو إثابة المُحِقّين وعقاب المُبطلين.

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الحاكم العظيمُ الشأنِ ﴿ٱللَّهُ رَبِّي﴾ مالكي ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في مجامع أمورِي خاصّةً، لا على غيره. ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أرجع في كلّ ما يَعِنُّ لي مِن مُعضلات الأمور، لا إلى أحد سِواه. وحيث كان التوكّل أمرًا واحدًا مستمرًّا والإنابةُ متعدّدةً متجدّدةً حسب تجدّد موادّها أُوثِر في الأوّل صيغة الماضي، وفي الثانية صيغة المضارع.

وقيل: وما اختلفتم فيه وتنازعتم مِن شيء مِن الخصومات فتحاكموا فيه إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ولا تُؤثِروا على حكومته حكومةَ غيره.

وقيل: وما اختلفتم فيه مِن تأويل آية واشتبه عليكم فارجعوا في بيانه إلى المُحكَم مِن كتاب الله[1] والظّاهرِ مِن سنّة رسول الله.[2]

وقيل: وما وقع بينكم الخلاف فيه مِن العلوم التي لا تتعلّق بتكليفكم ولا طريقَ لكم إلى علمه فقولوا: الله أعلم، كمعرفة الروح. ولا مساغَ لحَمل هذا على الاجتهاد لعدم جوازه بحضرة الرسول عليه السلام.[3]

---

١ س + تعالى.

٢ س + صلّى الله عليه وسلّم.

٣ س: عليه الصلاة والسلام. | انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢١٢/٤.

﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ١١﴾

﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خبر آخَر لـ﴿ذَٰلِكُمُ﴾،[١] أو خبر لمبتدأ محذوف، أو مبتدأ خبرُه: ﴿جَعَلَ لَكُم﴾. وقُرئ بالجرّ[٢] على أنّه بدل مِن الضمير، أو وصفٌ للاسم الجليل في قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾،[٣] وما بينهما اعتراض بين الصفة والموصوف.

﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ مِن جنسكم ﴿أَزْوَٰجًا﴾ نساءً. وتقديم الجارّ والمجرور على المفعول الصريح قد مرّ سرّه غيرَ مرّة. / ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي: وجعل للأنعام مِن جنسها ﴿أَزْوَٰجًا﴾، أو خلق لكم مِن الأنعام أصنافًا، أو ذكورًا وإناثًا. ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ يكثّركم مِن الذَّرْء؛ وهو البثّ، وفي معناه: الذَّرْوُ والذَّرّ. ﴿فِيهِ﴾ أي: فيما ذُكر مِن التدبير، فإنّ جعْل الناس والأنعام أزواجًا يكون بينهم توالد كالمنبَع للبثّ والتكثير. [٥١ظ]

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ أي: ليس مثلَه شيء في شأن مِن الشئون التي مِن جملتها هذا التدبير البديع. والمراد مِن ﴿مِثْلِهِۦ﴾ ذاتُه، كما في قولهم: مِثلك لا يفعل كذا، على قصد المبالغة في نفيه عنه، فإنّه إذا نُفِي عمّن يناسبه كان نفيه عنه أولى. ثمّ سُلكت هذه الطريقة في شأن مَن لا مِثلَ له. وقيل: ﴿مِثْلِهِۦ﴾ صفته، أي: ليس كصفته صفة.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ المبالغُ في العِلم بكلّ ما يُسمَع ويُبصَر.

﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ١٢ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ١٣﴾

﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خزائنهما ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ يوسّع ويضيّق حسبما يقتضيه مشيئته المؤسّسة على الحِكَم البالغة.

---

١ في الآية السابقة.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٣٢٥.

٣ في الآية السابقة.

﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ مبالِغ في الإحاطة به، فيفعل كلَّ ما يَفعل على ما ينبغي أن يُفعل عليه. والجملة تعليل لِما قبلها، وتمهيد لِما بعدها مِن قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾، وإيذان بأنّ ما شرع لهم صادر عن كمال العلم والحكمة، كما أنّ بيان نسبته إلى المذكورين عليهم السلام تنبيه على كونه دينًا قديمًا أجمعَ عليه الرسل.

والخطاب لأمّته صلّى الله عليه وسلّم،[١] أي: شرع لكم مِن الدين ما وصّى به نوحًا ومَن بَعْده مِن أرباب الشرائع وأُولي العزائم مِن مشاهير الأنبياء عليهم السلام، وأمَرهم به أمرًا[٢] مؤكّدًا. على أنّ تخصيصهم بالذِّكر لِما ذُكر مِن علوّ شأنهم، ولاستمالة قلوب الكفرة إليه؛ لاتّفاقِ الكلّ على نبوّة بعضهم، وتفرّدِ اليهود في شأن موسى عليه السلام، وتفرّدِ النصارى في حقّ عيسى عليه السلام، وإلّا فما مِن نبيّ إلّا وهو مأمور بما أُمِروا به، وهو عبارة عن التوحيد ودين الإسلام وما لا يختلف باختلاف الأمم وتبدّل الأعصار مِن أصول الشرائع والأحكام، كما يُنبئ عنه التوصية، فإنّها مُعرِبة عن تأكيد الأمر والاعتناءِ بشأن المأمور به.

والمراد بإيحائه إليه عليه السلام إمّا ما ذُكر في صدر السورة الكريمة وفي قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ﴾ الآيةَ،[٣] أو ما يعمّهما وغيرَهما ممّا وقع في سائر المواقع التي مِن جملتها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل، ١٦/١٢٣]، / وقولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف، ١٨/١١٠]، وغيرُ ذلك. والتعبير عن ذلك عند نسبته إليه عليه السلام بـ﴿ٱلَّذِيٓ﴾ لزيادة تفخيم شأنه مِن تلك الحيثيّة. [٥٢و]

وإيثار الإيحاء على ما قبله وما بعده مِن التوصية لِمراعاة ما وقع في الآيات المذكورة، ولِما في الإيحاء مِن التصريح برسالته عليه السلام القامع لإنكار الكفرة.

---

[١] س: عليه السلام.
[٢] س – أمرًا.
[٣] الشورى، ٤٢/٧.

والالتفات إلى نون العظمة لإظهار كمال الاعتناءِ بإيحائه، وهو السرّ في تقديمه على ما بعده مع تقدّمه عليه زمانًا.

وتقديم توصية نوح عليه السلام للمسارعة إلى بيان كون المشروع لهم دينًا قديمًا. وتوجيه الخطاب إليه عليه السلام بطريق التلوين[١] للتشريف والتنبيه على أنّه تعالى شَرَعَه لَهم على لسانه عليه السلام.

﴿أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ﴾ أي: دين الإسلام الذي هو توحيد الله تعالى وطاعته والإيمان بكتبه ورسله وبيوم الجزاء وسائرِ ما يكون الرجل به مؤمنًا. والمراد بإقامته تعديلُ أركانه وحفظُه مِن أن يقع فيه زَيغ، أو المواظبةُ عليه، أو التشمُّرُ له.

ومحلّ ﴿أَنْ أَقِيمُواْ﴾ إمّا النصب على أنّه بدل مِن مفعول ﴿شَرَعَ﴾ والمعطوفِين عليه، أو الرفعُ على أنّه جواب عن سؤال نشأ مِن إبهام المشروع، كأنّه قيل: وما ذاك؟ فقيل: هو إقامة الدين. وقيل: بدل مِن ضمير ﴿بِهِ﴾،[٢] وليس بذاك، لِما أنّه مع إفضائه إلى خروجه عن حيّز الإيحاء إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم[٣] مستلزمٌ لكون الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ للأنبياء المذكورين عليهم السلام. وتوجيه النهي إلى أممهم تمحُّل[٤] ظاهر، مع أنّ الأظهر أنّه متوجّه إلى أمّته عليه السلام وأنّهم المتفرِّقون كما ستحيط به خُبرًا. أي: لا تتفرّقوا في الدين الذي هو عبارة عمّا ذُكر مِن الأصول دون الفروع المختلفة حسب اختلاف الأمم باختلاف الأعصار كما ينطق به قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة، ٥/٤٨].

وقوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ شروع في بيان أحوال بعض مَن شُرِع لهم ما شُرِع مِن الدين القديم، أي: عَظُم وشقّ عليهم ﴿مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ مِن التوحيد ورفض عبادة الأصنام واستبعَدوه حيث قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص، ٣٨/٥].

---

١ التلوين: تغيير أسلوب الكلام إلى أسلوب آخر، وهو أعمّ مِن الالتفات. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٥/٢٦٠.

٢ س: ضميريه. | قاله البيضاوي، في أنوار التنزيل، ٥/٧٨.

٣ س: عليه السلام.

٤ التَّمحّل: الطلب بحِيلة وتكلُّف. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٥/١٦٦.

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ﴾ / استئناف وارد لتحقيق الحقّ. وفيه إشعار بأنّ منهم مَن يُجيب إلى الدعوة، أي: الله يجتلب إلى ما تدعوهم إليه مَن يشاء أن يجتبيَه إليه، وهو مَن صرف اختيارَه إلى ما دُعِي إليه، كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾ أي: يُقبِل إليه حيث يُمِدّه بالتوفيق والإلطاف.

﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ١٤﴾

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ﴾ شروع في بيان أحوال أهل الكتاب عقيب الإشارة الإجماليّة إلى أحوال أهل الشرك. قال ابن عبّاس رضي الله تعالى[١] عنهما: «هم اليهود والنصارى»،[٢] لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾ [البينة، ٤/٩٨]، أي: وما تفرّقوا في الدين الذي دُعُوا إليه ولم يؤمنوا كما آمَن بعضهم ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾ بحقّيّته بما شاهدوا في رسول الله صلّى الله عليه وسلّم والقرآنِ مِن دلائل الحقّيّة حسبما وجدوه في كتابهم، أو العلمُ بمبعثه عليه السلام.

وهو استثناء مفرّغ مِن أعمّ الأحوال، أو مِن أعمّ الأوقات، أي: وما تفرقوا في حال مِن الأحوال أو في وقت مِن الأوقات إلّا حالَ مجيء العلم أو إلّا وقتَ مجيء العلم ﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾ وحميّةً وطلبًا للرياسة، لا لأنّ لهم في ذلك شبهةً.

﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ وهي العِدَة بتأخير العقوبة ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ هو يوم القيامة ﴿لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾ لأُوقع القضاءُ بينهم باستئصالهم لاستيجاب جناياتهم لذلك قطعًا.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾...[٣] إلخ بيان لكيفيّة كفر المشركين بالقرآن إثرَ بيان كيفيّة كفر أهل الكتاب. وقُرِئ: "وُرِّثُوا"،[٤] وَ"وَرِثُوا".[٥]

---

١ س - تعالى.

٢ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٣٠٦/٨؛ واللباب لابن عادل، ١٧٨/١٧.

٣ م س ي - ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٢٩/٩. وذكرها الزمخشري بغير نسبة في الكشّاف، ٢١٦/٤.

٥ قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكر قارئها. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢١٦/٤.

أي: وإنّ المشركين الذين أُورثوا القرآنَ مِن بعد ما أُورِث أهلُ الكتاب كتابَهم ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ مِن القرآن ﴿مُرِيبٍ﴾ موقِعٍ في القلق أو في الرِّيبة، ولذلك لا يؤمنون به، لا لِمَحض البغي والمكابرة بعد ما علموا بحقّيّته كدأب أهل الكتابَين.

[٥٣و] هذا، وأمّا ما قيل[١] مِن أنّ ضمير ﴿تَفَرَّقُوٓاْ﴾ لأمم الأنبياء / عليهم السلام وأنّ المراد تفرّقُ كلّ أمّة بعد نبيّها مع علمهم بأنّ الفرقة ضلال وفساد وأمرٌ متوعَّد عليه على ألسنة الأنبياء عليهم السلام فيردّه قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾.

وكذا ما قيل[٢] مِن أنّ الناس كانوا أمّة واحدة مؤمنين بعد ما أهلك الله تعالى أهل الأرض بالطوفان، فلمّا مات الآباء اختلف الأبناء فيما بينهم، وذلك حين بعث الله تعالى النبيّين مبشّرين ومنذرين وجاءهم العلم، وإنّما اختلفوا للبغي بينهم، فإنّ مشاهير الأمم المذكورة قد أصابهم عذاب الاستئصال مِن غير إنظارٍ وإمهالٍ. على أنّ مساق النظم الكريم لبيان أحوال هذه الأمّة، وإنّما ذُكِر مَن ذُكِر مِن الأنبياء عليهم السلام لتحقيق أنّ ما شُرِع لهؤلاءِ دينٌ قديم أجمع عليه أولئك الأعلام عليهم السلام تأكيدًا لِوجوب إقامته، وتشديدًا للزجر عن التفرُّق والاختلاف فيه، فالتعرّض لبيان تفرّق أممهم عنه ربّما يوهم الإخلال بذلك المرام.

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾

﴿فَلِذَٰلِكَ﴾ أي: فلأجل ما ذُكر مِن التفرّق والشكّ المريب، أو فلأجل أنّه شُرع لهم الدين القويم القديم الحقيق بأن يتنافس فيه المتنافسون ﴿فَٱدْعُ﴾ أي: الناسَ كافّةً إلى إقامة ذلك الدين والعمل بموجَبه، فإنّ كلًّا مِن تفرّقهم وكونهم في شكٍّ مُريب، ومِن شَرْع ذلك الدين لهم على لسان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم سببٌ للدعوة إليه والأمرِ بها. وليس المشار إليه ما ذُكر مِن التوصية والأمرِ بالإقامة والنهي عن التفرّق حتّى يتوهّم شائبة التكرار.

---

١ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٥/٧٨. ٢ قاله الزمخشري في الكشّاف، ٤/٢١٦.

وقيل: المشار إليه نفس الدين المشروع، و"اللام" بمعنى "إلى"، كما في قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة، ٥/٩٩]، أي: فإلى ذلك الدين فادع ﴿وَٱسْتَقِمْ﴾ عليه وعلى الدعوة إليه ﴿كَمَآ أُمِرْتَ﴾ وأوحِي إليك، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ الباطلة، ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ أيّ كتابٍ كان مِن الكتب المنزّلة، لا كالذين / آمنوا ببعضٍ منها وكفروا ببعضٍ. وفيه تحقيق للحقّ، وبيان لاتّفاق الكتب في الأصول، وتأليف لقلوب أهل الكتابَين، وتعريض بهم. وقد مرّ بيان كيفيّة الإيمان بها في خاتمة سورة البقرة. [٥٣ظ]

﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ في تبليغ الشرائع والأحكام، وفصلِ القضايا عند المحاكمة والخِصام. وقيل: معناه: لأُسَوّي بيني وبينكم، ولا آمرَكم بما لا أعمله، ولا أُخالفَكم إلى ما أنهاكم عنه، ولا أُفرِّقَ بين أكابركم وأصاغركم. و"اللام" إمّا على حقيقتها والمأمورُ به محذوف، أي: أُمرتُ بذلك لأعدل، أو زائدةٌ، أي: أُمرتُ أن أعدِل، والباء محذوفة.

﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي: خالقُنا جميعًا ومتولّي أمورنا، ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا﴾ لا يتخطّانا جزاؤها ثوابًا كان أو عقابًا، ﴿وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ لا يُجاوِزكم آثارُها لنستفيد بحسناتكم ونتضرّرَ بسيّئاتكم، ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أي: لا مُحاجّة ولا خصومة؛ لأنّ الحقّ قد ظهر ولم يبق للمُحاجّة حاجة، ولا للمخالفة مَحمل سوى المكابرة.

﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ يوم القيامة، ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ فيظهر هناك حالنا وحالكم. وهذا كما ترى مُحاجَزة في مواقف المُجاوبة، لا مُتارَكةٌ في مواطن المُحارَبة حتّى يُصارَ إلى النسخ بآية القتال.[١]

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾

---

١ قال بالنسخ الثعلبي في الكشف والبيان، ٣٠٨/٨. وآية القتال قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج، ٣٩/٢٢].

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ﴾ أي: في دينه ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ﴾ مِن بعد ما استجاب له الناس ودخلوا فيه. والتعبير عن ذلك بالاستجابة باعتبار دعوتهم إليه، أو مِن بعد ما استجاب الله لرسوله عليه السلام وأيّده بنصره، أو مِن بعد ما استجاب له أهل الكتاب بأن أقرّوا بنُعوته عليهِ السلام، واستفتحوا به قبل مبعثه عليه السلام. وذلك أنّ اليهود والنصارى كانوا يقولون للمؤمنين: كتابنا قبل كتابكم، ونبيّنا قبل نبيّكم، ونحن خير منكم وأولى بالحقّ.

﴿حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ زالّة زائلة باطلة؛ بل لا حجّة لهم أصلًا. وإنّما عبّر عن أباطيلهم بالحجّة مُجاراةً معهم على زعمهم الباطل. ﴿وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٌ﴾ عظيم لمكابرتِهم الحقّ بعد ظهوره، ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ﴾ لا يُقادَر قدرُه.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ١٧﴾

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: جنس الكتاب ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ ملتبسًا به في أحكامه / وأخباره، أو بما يحقّ إنزاله مِن العقائد والأحكام. ﴿وَٱلۡمِيزَانَ﴾ والشرعَ الذي يُوازَن به الحقوق ويستوي بين الناس، أو نفسَ العدل بأن أنزل الأمْرَ به، أو آلةَ الوزن. [٥٤و]

﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ أي: أيّ شيء يجعلك عالمًا؟ ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ التي يُخبِر بمجيئها الكتاب الناطق بالحقّ ﴿قَرِيبٞ﴾ أي: شيء قريب، أو قريب مجيئُها. وقيل: "القريب" بمعنى: ذات قربٍ، أو ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾ بمعنى البعث. والمعنى: أنّها على جناح الإتيان، فاتّبع الكتاب واعمل به وواظب على العدل قبل أن يفاجئَك اليومُ الذي يوزن فيه الأعمال ويُوَفّى جزاؤها.

﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ١٨﴾

﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَا﴾ استعجالَ إنكارٍ واستهزاء. كانوا يقولون: متى هي؟ ليتها قامت حتّى يظهر لنا الحقّ، أهو الذي نحن عليه أم الذي عليه محمّد وأصحابه؟ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا﴾ خائفون منها مع اعتناءٍ بها لتوقّع الثواب، ﴿وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّ﴾ أي: الكائنُ لا محالةَ.

﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ﴾ يجادلون فيها، مِن المِرية، أو مِن "مَرَيتُ الناقة" إذا مَسَحْتَ ضَرعَها بشدّةٍ للحَلب؛ لأنّ كلًّا مِن المتجادلَين يستخرج ما عند صاحبه بكلام فيه شدّة. ﴿لَفِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ عن الحقّ، فإنّ البعث أشبه الغائبات بالمحسوسات، فمَن لم يهتدِ إلى تجويزه فهو عن الاهتداء إلى ما وراءه أبعدُ وأبعدُ.

﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ١٩﴾

﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ أي: بَرّ بليغ البِرّ بهم، يُفيض عليهم مِن فنون ألطافه ما لا يكاد يناله أيدي الأفكار والظنون، ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ أن يرزقه كيفما يشاء، فيختصّ كلًّا مِن عباده بنوعٍ مِن البِرّ على ما يقتضيه / مشيئته المبنيّة على الحِكَم البالغة. [٥٤ظ]

﴿وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ﴾ الباهرُ القدرةِ الغالبُ على كلّ شيء، ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ المنيع الذي لا يُغلَب.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ٢٠﴾

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ الحرث في الأصل: إلقاء البَذْر في الأرض، يُطلَق على الزرع الحاصل منه، ويُستَعمل في ثمرات الأعمال ونتائجها بطريق الاستعارة المبنيّة على تَشبيهها بالغِلال الحاصلة مِن البذور المتضمِّن لتشبيه الأعمال بالبذور، أي: مَن كان يريد بأعماله ثواب الآخرة ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ نضاعف له ثوابه بالواحد عشرةً إلى سبعِمائة فما فوقها.

﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ﴾ بأعماله ﴿حَرْثَ ٱلدُّنْيَا﴾ وهو متاعها وطيّباتها ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ أي: شيئًا منها حسبما قسمنا له، لا ما يريده ويَبتغيه، ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ إذ كانت هِمّته مقصورةً على الدنيا، وقد مرّ تفصيله في سورة الإسراء.[١]

---

[١] عند قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ الآيات [الإسراء، ١٧/١٨-٢٠].

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾ أي: بل ألهم شركاء مِن الشياطين؟ والهمزة للتقرير والتقريع. ﴿شَرَعُوا۟ لَهُم﴾ بالتسويل ﴿مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ كالشرك وإنكار البعث والعمل للدنيا. وقيل: شركاؤهم أوثانهم، وإضافتها إليهم لأنّهم الذين جعلوها شركاءَ لله تعالى. وإسناد الشرع إليها لأنّها سببُ ضلالتهم وافتتانهم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا﴾ [إبراهيم، ١٤/٣٦]، أو تماثيلُ مَن سَنّ الضلالةَ لهم.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ﴾ أي: القضاءِ السابق بتأخير الجزاء، أو العِدَة بأنّ الفصل يكون يوم القيامة ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين الكافرين والمؤمنين، أو بين المشركين وشركائهم. ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وقُرئ بالفتح[1] عطفًا على ﴿كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ﴾، أي: ولولا كلمة الفصل وتقديرُ عذاب الظالمين في الآخرة لقضي بينهم في الدنيا، فإنّ العذاب الأليم غالب في عذاب الآخرة.

﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾﴾

[٥٥و] ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يوم القيامة. / والخطاب لكلّ أحد ممّن يصلح له، للقصد إلى أنّ سوء حالهم غير مختصّ برؤية راءٍ دون راءٍ.[2] ﴿مُشْفِقِينَ﴾ خائفين ﴿مِمَّا كَسَبُوا۟﴾ مِن السيّئات، ﴿وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ أي: وَوَبالُه لاحق بهم لا محالةَ، أشفقوا أو لم يُشفقوا. والجملة حال مِن ضمير ﴿مُشْفِقِينَ﴾، أو اعتراض.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ﴾ مستقِرّون في أطيبِ بِقاعها وأنزهِها، ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: ما يشتهونه مِن فنون المستلَذّات حاصلٌ لهم عند ربّهم، على أنّ ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ظرف للاستقرار العامل في ﴿لَهُم﴾. وقيل: ظرف لـ﴿يَشَآءُونَ﴾.

---

[1] أي: بفتح همزة "وأنّ". قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج بن مسلم. مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٣٥.

[2] وفي هامش م: وهذا ليس مِن قَبيل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة، ٣٢/١٢] ونظائره، فتدبّر. «منه».

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذُكر مِن حال المؤمنين. وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بِبُعد منزلة المُشار إليه. ﴿هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ الذي لا يُقادَر قدرُه، ولا يُبلَغ غايته.

﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ الفضل الكبير هو ﴿ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ﴾ أي: يبشّرهم به. فحُذف الجارّ ثمّ العائد إلى الموصول، كما في قوله تعالى: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان، ٤١/٢٥]، أو ذلك التبشير الذي يبشّره الله[1] عباده ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾. وقُرئ: "يَبْشِرُ"،[2] مِن "أبشر".

﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ رُوي أنّه اجتمع المشركون في مَجمع لهم، فقال بعضهم لبعض: أترون أنّ محمّدًا يسأل على ما يتعاطاه أجرًا، فنزلت.[3] أي: لا أطلب منكم على ما أنا عليه مِن التبليغ والبِشارة ﴿أَجْرًا﴾ نفعًا ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: إلّا أن تَوَدّوني لقرابتي منكم، أو تَودّوا أهل قرابتي.

وقيل: الاستثناء منقطع، والمعنى: لا أسألكم أجرًا قطّ، ولكن أسألكم المودّة. و﴿فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ حال منها، أي: إلّا المودّةَ ثابتة في القربى متمكّنة في أهلها أو في حقّ القرابة. و﴿ٱلْقُرْبَىٰ﴾ مصدر كالزلفى بمعنى القَرابة.

رُوي أنّها لمّا نزلت قيل: يا رسول الله مَن قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودّتهم؟ قال: «عليّ وفاطمة وابناهما».[4]

وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «حَرمتِ الجنّة / على مَن ظلم أهل بيتي، وآذاني في عِترتي، ومَن اصطنع صنيعةً إلى أحد مِن ولد عبد المطّلب ولم يُجازِهِ فأنا أجازيه عليها غدًا إذا لَقِيَني يوم القيامة».[5] [٥٥ظ]

---

[1] س + تعالى.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن حميد بن قيس. انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٦١/٣. وأمّا "يَبْشُرُ" بفتح الياء وضمّ الشين وتخفيفها فقراءة صحيحة قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي. انظر: النشر لابن الجزري، ٢٣٩/٢.

[3] الكشف والبيان للثعلبي، ٣١٠/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٢١٩/٤.

[4] الكشّاف للزمخشري، ٢٢٠/٤. وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ٤٧/٣ (٢٦٤١).

[5] الكشف والبيان للثعلبي، ٣١٢/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٢٠/٤.

وقيل: ﴿ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ التقرّب إلى الله تعالى،[١] أي: إلّا أن تَودّوا الله ورسولَه في تقرّبكم إليه بالطاعة والعمل الصالح. وقُرئ: "إلّا مَوَدَّةً فِي القُرْبَى".[٢]

﴿وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةً﴾ أي: يكتسِبْ أيَّ حسنة كانت، فتتناول مودّةَ ذي القربى تناولًا أوّليًا، وعن السدّي: أنّها المرادة.[٣] وقيل: نزلت في الصِّدّيق رضي الله عنه ومودّته فيهم.[٤] ﴿نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا﴾ أي: في الحسنة ﴿حُسۡنًا﴾ بمضاعفة الثواب. وقُرئ: "يَزِدْ"،[٥] أي: يَزِدِ الله، وقُرئ: "حُسْنَى".[٦]

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾ لِمَن أذنب. ﴿شَكُورٌ﴾ لِمَن أطاع بتوفية الثواب، والتفضّل عليه بالزيادة.

﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾

﴿أَمۡ يَقُولُونَ﴾ بل أيقولون: ﴿ٱفۡتَرَىٰ﴾ محمّد ﴿عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا﴾ بدعوى النبوّة وتلاوة القرآن؟ على أنّ الهمزة للإنكار التوبيخي، كأنّه قيل: أيتمالكون أن ينسبوا مثله عليه السلام -وهو هو- إلى الافتراء لا سيّما الافتراء على الله الذي هو أعظم الفِرَى وأفحشُها؟

وقوله تعالى: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ استشهاد على بطلان ما قالوا ببيان أنّه عليه السلام لو افترى على الله تعالى لمنعه مِن ذلك قطعًا. وتحقيقه أنّ دعوى كون القرآن افتراء عليه تعالى قول منهم بأنّه تعالى لا يشاء صدوره

---

[١] م - تعالى.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٣٥/٩. وذكرها الزمخشري بغير نسبة في الكشّاف، ٢٢١/٤.

[٣] أي: المودّة لآل النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٣١٤/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٢١/٤. وفي جامع البيان للطبري، ٥٠٣/٢٠، عن السدّي، في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةً﴾ قال: «يعمل حسنة».

[٤] الكشّاف للزمخشري، ٢٢١/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٨٠/٥. والعبارة في أنوار التنزيل: "ومودّته لهم" [أي: لآل النبيّ صلّى الله عليه وسلّم].

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن علي وعبد الوارث عن أبي عمرو وأحمد بن جبير عن الكسائي. انظر: مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٣٥؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٣٣٥/٩.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الوارث عن أبي عمرو. انظر: مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٣٥.

عن النبيّ عليه السلام؛ بل يشاء عدمَ صدورِه عنه، ومِن ضرورته منعُه عنه قطعًا، فكأنّه قيل: لو كان افتراءً عليه تعالى لَشاءَ عدم صدوره عنك، وإن يَشَأْ ذلك يَخْتِم على قلبك بحيث لم يخطر ببالك معنًى مِن معانيه ولم تنطق بحرفٍ مِن حروفه، وحيث لم يكن الأمر كذلك -بل تواتر الوحي حينًا فحينًا- تبيّن أنّه مِن عند الله عزّ وجلّ.[١]

هذا، وقيل: المعنى: إن يَشأْ يجعلك مِن المختوم على قلوبهم، فإنّه لا يجترئ على الافتراء عليه تعالى إلّا مَن كان كذلك، ومؤدّاه استبعاد الافتراء مِن مثله عليه السلام، وأنّه في البعد مثلُ الشرك بالله والدخولِ في جملة المختوم على قلوبهم. وعن قتادة: «﴿يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ يُنسِكَ القرآنَ، ويَقطَعْ عنك الوحي».[٢] يعني: لو افترى على الله الكذب لَفعل به ذلك. وهذا معنى ما قيل: لو كذَب على الله لأنساه القرآن. وقيل: ﴿يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾: يربط عليه بالصبر حتّى لا يشقّ عليك أذاهم.[٣]

/ ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ استئناف مقرِّر لنفي الافتراء، [٥٦و] غيرُ معطوف على ﴿يَخۡتِمۡ﴾ كما يُنبئ عنه إظهار الاسم الجليل. وسقوط الواو[٤] -كما في بعض المصاحف-[٥] لاتّباع اللفظ كما في قوله تعالى: ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ﴾ [الإسراء، ١١/١٧]. أي: ومِن عادته تعالى أنّه يمحو الباطل ويُثبِت الحقّ بوحيه أو بقضائه، كقوله تعالى: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ[٦] بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ﴾ [الأنبياء، ١٨/٢١]، فلو كان افتراءً كما زعموا لَمحَقَه ودمَغه.

---

١ س: تعالى.
٢ الكشّاف للزمخشري، ٢٢٢/٤. ونحوه في جامع البيان للطبري، ٥٠٤/٢٠؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٣١٤/٨.
٣ عن مجاهد في الكشف والبيان للثعلبي، ٣١٤/٨.
٤ أي: الواو مِن: ﴿وَيَمۡحُ﴾.
٥ بل اتّفقت جميع المصاحف العثمانيّة على ذلك. نقل أبو عمرو الداني عن ابن الأنباري قوله: «وحُذفت الواو مِن أربعة أفعال مرفوعة، أوّلها في سبحان: ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ﴾ [الإسراء، ١١/١٧]، وفي عسق: ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ [الشورى، ٢٤/٤٢]، وفي القمر: ﴿يَدۡعُ ٱلدَّاعِ﴾ [القمر، ٦/٥٤]، وفي العلق: ﴿سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق، ١٨/٩٦]». قال أبو عمرو: «ولم تختلف المصاحف في أنّ الواو مِن هذه المواضع ساقطة». المُقنع لأبي عمرو الداني، ص ٤٢.
٦ م س ي: يقذف.

أو عِدَةٌ لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم بأنّه تعالى يمحو الباطل الذي هم عليه مِن البَهْتِ والتكذيب، ويثبت الحقّ الذي هو عليه بالقرآن أو بقضائه الذي لا مردّ له بنُصرته عليهم.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فيُجرِي عليها أحكامها اللائقة بها مِن المَحو والإثبات.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ التوبة: هو الرجوع عنِ المعاصي بالندم عليها، والعزمُ على أن لا يعاودها أبدًا. وروى جابر رضي الله عنه أنّ أعرابيًّا دخل مسجد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وقال: «اللّهمّ إنّي أستغفرك وأتوب إليك»، وكبّر، فلمّا فرغ مِن صلاته قال له عليّ رضي الله عنه: «يا هذا، إنّ سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذّابين، وتوبتُك هذه تحتاج إلى التوبة»، فقال: «يا أمير المؤمنين، وما التوبة؟» قال: «اسمٌ يقع على ستّة معانٍ: على الماضي مِن الذنوب الندامةُ، ولتضييع الفرائض الإعادةُ، وردُّ المظالم، وإذابةُ النفس في الطاعة كما رَبَّيتَها في المعصية، وإذاقتُها مرارةَ الطاعة كما أذَقْتَها حلاوة المعصية، والبكاءُ بدل كلِّ ضحك ضحكتَه».[1]

﴿وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ صغيرِها وكبيرها لمَن يشاء ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾[2] كائنًا ما كان مِن خير وشرّ، فيُجازي ويتجاوز حسبما يقتضيه مشيئته المبنيّة على الحِكَم والمصالح. وقُرئ: ﴿مَا تَفْعَلُونَ﴾ بالتاء.[3]

---

[1] الكشف والبيان للثعلبي، ٣١٥/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٢٢/٤.

[2] م س ي: يَفْعَلُونَ. | و"يَفْعَلُونَ" بالياء قراءة نافع وأبي جعفر وابن كثير وأبي عمرو وابن عامر ويعقوب بخلف عن رُويس وشعبة عن عاصم. انظر: النشر لابن الجزري، ٣٦٧/٢. وقد جعل المصنِّف هنا القراءة بالياء أصلًا ثمّ أشار إلى القراءة بالتاء الموافقة لرواية حفص بقوله: "وقُرئ"، وذلك على خلاف منهجه في الكتاب.

[3] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف، وهي رواية حفص عن عاصم، وهي الوجه الثاني لرُويس. انظر: النشر لابن الجزري، ٣٦٧/٢.

﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾

﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ / أي: يستجيب الله لهم، فحذف [٥٦ظ]
اللام كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾ [المطففين، ٣/٨٣]، أي: كالوا لَهم، والمراد إجابة دعوتهم والإثابة على طاعتهم، فإنّها كدعاء وطلبٍ لِما يترتّب عليها، ومنه قوله عليه السلام: «أفضل الدعاء الحمد لله».[١] أو يستجيبون لله بالطاعة إذا دعاهم إليها. وعن إبراهيم بن أدهم[٢] أنّه قيل له: ما بالُنا ندعو فلا نُجابَ؟ قال: «لأنّه دعاكم ولم تجيبوه»، ثمّ قرأ: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس، ٢٥/١٠].[٣]

﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ على ما سألوا واستحقّوا بموجَب الوعد. ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ بدلَ ما للمؤمنين مِن الثواب والفضل المزيد.

﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾

﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لتكبّروا وأفسدوا فيها بطَرًا، ولَعَلا بعضُهم على بعض بالاستيلاء والاستعلاء، كما عليه الجِبِلّة البشريّة. وأصل البغي: طلب تجاوز الاقتصاد فيما يتحرّى مِن حيث الكمّيّة أو الكيفيّة.

﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ﴾ أي: بتقدير ﴿مَّا يَشَآءُ﴾ أن ينزّله ممّا يقتضيه مشيئته.

---

١ سنن الترمذي، ٤٦٢/٥ (٣٣٨٣)؛ سنن ابن ماجه، ٧١٢/٤ (٣٨٠٠).

٢ هو إبراهيم بن أدهَم بن منصور بن يزيد بن جابر العجلي، البلخي، نزيل الشام، أبو إسحاق (ت. ١٦١هـ/٧٧٨م)، الإمام، العارف، سيّد الزهاد. كان أبوه مِن أهل الغنى في بلخ، فتفقّه ورحل إلى بغداد، وجال في العراق والشام والحجاز. وأخذ عن كثير مِن علماء الأقطار الثلاثة. وكان يعيش مِن العمل بالحصاد والحَمل والطحن، ويشترك مع الغزاة في قتال الروم. جاءه إلى المصيصة عبد لأبيه يحمل إليه عشرة آلاف درهم، ويخبره أنّ أباه قد مات، وخلّف له مالًا عظيمًا، فأعتق العبد ووَهبه الدراهم، ولم يَعبأ بمال أبيه. رُوي أنّه كان إذا حضر مجلس سفيان الثوري وهو يعِظ أوجز سفيانُ في كلامه مخافة أن يزِلّ. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٣٨٧/٧؛ والأعلام للزركلي، ٣١/١.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٢٢٣/٤؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٣٧/٩.

﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ محيط بخفايا أمورهم وجلاياها فيقدّر لكلّ واحد منهم في كلّ وقت مِن أوقاتهم ما يليق بشأنهم، فيُفقِر ويغني، ويمنع ويعطي، ويقبِض ويبسط، حسبما يقتضيه الحكمة الربّانيّة. ولو أغناهم جميعًا لبغَوا، ولو أفقرهم لهلَكوا. ورُوي أنّ أهل الصفّة تمنّوا الغِنَى، فنزلت.[١] وقيل: نزلت في العرب كانوا إذا أخصَبوا تحارَبوا، وإذا أَجْدَبوا انتجَعوا.[٢]

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ أي: المطر الذي يُغيثهم مِن الجَدْب، ولذلك خُصّ بالنافع منه. وقُرئ: "يُنزِلُ"،[٣] مِن الإنزال. ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ يئِسوا منه. وتقييد تنزيله بذلك مع تحقّقه بدونه أيضًا لتذكير كمال النعمة. وقُرئ بكسر النون.[٤]

﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ أي: بركاتِ الغيث ومنافعه في كلّ شيء مِن السهل والجبل والنبات والحيوان، أو رحمتَه الواسعةَ المنتظِمةَ لِما ذُكر انتظامًا أوّليًا. ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ الذي يتولّى عبادَه بالإحسان ونشر الرحمة، ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ المستحِقّ للحمد على ذلك لا غيرُه.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ على ما هما عليه مِن تعاجيب[٥]
[٥٧و] الصنائع، فإنّها بذاتها / وصفاتها تدلّ على شئونه العظيمة، ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا﴾

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٣١٧/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٢٣/٤.

٢ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٨١/٥. و"انتجعوا" بمعنى: ارتحلوا للنجعة؛ وهي طلب الكلأ في غير بلادهم؛ لعدم ما تتعيّش به دوابّهم، فإذا تفرّقوا اشتغلوا عن القتال. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٤٢٠/٧.

٣ م: يُنزّل [بتشديد الزاي، وهو سهو] | قرأ: "يُنْزِلُ الْغَيْثَ" بإسكان النون وتخفيف الزاي ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وحمزة والكسائي وخلف. وقرأ كذلك: "يُنْزِلُ بِقَدَرٍ" في الآية السابقة ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. انظر: النشر لابن الجزري، ٢١٨/٢.

٤ أي: "قَنِطُوا". قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. انظر: جامع البيان للطبري، ٨٥/١٤.

٥ التعاجيب: العجائب، لا واحد لها مِن لفظها. الصّحاح للجوهري، «عجب».

عطفٌ على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أو "الخلق" ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ مِن حيّ، على إطلاق اسم المسبَّب على السبب،[١] أو ممّا يدبّ على الأرض، فإنّ ما يختصّ بأحد الشيئين المتجاورين يصحّ نسبته إليهما، كما في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن، ٢٢/٥٥]، وإنّما يخرج مِن المِلح. وقد جُوّز أن يكون للملائكة عليهم السلام مشيٌ مع الطيران فيوصفوا بالدبيب، وأن يخلق الله في السماء حيوانًا يمشون فيها مشيَ الأناسيّ على الأرض، كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل، ٨/١٦]، وقد رُوي أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «فوقَ السماء السابعة بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، ثمّ فوق ذلك ثمانية أَوْعال[٢] بين رُكَبِهِنّ وأظلافهنّ[٣] كما بين السماء والأرض، ثمّ فوق ذلك العرشُ العظيم».[٤]

﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ أي: حَشْرهم بعد البعث للمحاسبة. وقوله تعالى: ﴿إِذَا يَشَآءُ﴾ متعلِّق بما قبله، لا بقوله تعالى: ﴿قَدِيرٌ﴾، فإنّ المقيّد بالمشيئة جمعُه تعالى، لا قدرتُه، و﴿إِذَا﴾ عند كونها بمعنى الوقت كما تدخل الماضيَ تدخل المضارعَ.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ﴾ أيّ مصيبة كانت ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: فهي بسبب معاصيكم التي اكتسبتُموها. و"الفاء" لأنّ ﴿مَا﴾ شرطيّة، أو متضمّنة لمعنى الشرط. وقُرئ بدونها[٥] اكتفاءً بما في الباء مِن معنى السببيّة.

﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ مِن الذنوب فلا يعاقب عليها. والآية مخصوصة بالمجرمين، فإنّ ما أصاب غيرَهم لأسباب أُخَر، منها تعريضه للثواب بالصبر عليه.

---

١ وفي هامش م: فإنّ الحياة سبب للدّبيب. «منه».

٢ أوْعال: جمع وَعْل بالفتح، وككَتِف؛ وهو تَيس الجبَل. انظر: القاموس المحيط للفيروزابادي، «وعل».

٣ أظلاف: جمع ظِلْف بالكسر؛ وهو للبقرة والشاة والظبي، وشبهها بمنزلة القدم لنا. انظر: القاموس المحيط للفيروزابادي، «ظلف».

٤ مسند الإمام أحمد، ٢٩٢/٣ (١٧٧٠)؛ سنن أبي داود، ١٠٥/٧ (٤٧٢٣).

٥ قرأ بها نافع وأبو جعفر وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٦٧/٢.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝٣١﴾

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فائتين ما قضي عليكم مِن المصائب وإن هربتم مِن أقطارها كلَّ مَهرب. ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ﴾ يحميكم منها ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدفعها عنكم.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ۝٣٢﴾

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ﴾ السفن الجارية ﴿فِى ٱلْبَحْرِ﴾ وقُرئ: "الجَوَارِي".[1] ﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ أي: كالجبال على الإطلاق لا التي عليها النار للاهتداء خاصّةً.

﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٣٣﴾

[٥٧ظ] ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ التي تُجريها. وقُرئ: "الرِّيَاحَ".[2] / ﴿فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ فيبقَين ثوابتَ على ظهر البحر، أي: غيرَ جاريات، لا غيرَ متحرّكات أصلًا.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكر مِن السفن اللاتي يجرين تارةً ويَركُدْنَ أخرى على حسب مشيئته تعالى ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ عظيمةً في أنفسها، كثيرةً في العدد، دالّةً على ما ذُكر مِن شئونه تعالى. ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ لكلّ مَن حبس نفسه عن التوجّه إلى ما لا ينبغي، ووكَل همّتَه بالنظر في آيات الله تعالى[3] والتفكّر في آلائه، أو لكلّ مؤمِن كامل، فإنّ الإيمان نصفه صبر ونصفه شكر.

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ۝٣٤﴾

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟﴾ عطفٌ على ﴿يُسْكِنِ﴾، والمعنى: إن يشَأْ يسكنِ الريح فيركُدنَ، أَوْ يُرسِلْها فيَغرَقنَ بعَصْفِها. وإيقاعُ الإيباق عليهنّ مع أنّه حالُ أهلهنّ للمبالغة والتهويل. وإجراء حُكمه على العفو في قوله تعالى: ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾

---

[1] قرأ بإثبات الياء وصلًا نافع وأبو جعفر أبو عمرو، وقرأ بإثباتها وصلًا ووقفًا ابن كثير ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٦٨.

[2] قرأ بها نافع وأبو جعفر. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٣.

[3] م - تعالى.

لِما أنّ المعنى: أو يُرسلْها فيُوبِقْ ناسًا ويُنجِ آخرين بطريق العفو عنهم. وقُرِئ: "وَيَعْفُو"[١] على الاستئناف.

﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ٣٥﴾

﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ عطفٌ على علّة مقدّرة، مثل: لِينتقم منهم وليعلمَ... إلخ، كما في قوله تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ [مريم، ٢١/١٩]، وقولِه تعالى: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف، ٢١/١٢]، ونظائرِهما. وقُرِئ بالرفع[٢] على الاستئناف، وبالجزم[٣] عطفًا على ﴿يَعْفُ﴾،[٤] فيكون المعنى: أو إن يشأ يجمَعْ بين إهلاك قوم وإنجاءِ قوم وتحذير قوم. ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾[٥] مِن مَهرب مِن العذاب. والجملة معلّق عنها الفعل.

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ٣٦﴾

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ﴾ ممّا ترغبون وتتنافسون فيه. ﴿فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: فهو متاعها تتمتّعون به مدّةَ حياتكم.

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ مِن ثواب الآخرة ﴿خَيْرٌ﴾ ذاتًا لِخلوص نفعه ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ زمانًا حيث لا يزول ولا يفنى ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ لا على غيره أصلًا. والموصول الأوّل لِما كان متضمّنًا لمعنى الشرط مِن حيث إنّ إيتاء ما أُوتوا سبب للتمتّع بها في الحياة الدنيا. دخلت جوابَها الفاءُ بخلاف الثاني. وعن عليّ رضي الله عنه / أنّه تصدّق أبو بكر رضي الله عنه[٦] بماله كلّه، فلَامَه جمعٌ مِن المسلمين، فنزلت.[٧] [٥٨و]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش، وعن أهل المدينة بنصب الواو. انظر: البحر المحيط لأبي حيان، ٣٤٠/٩؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٣.

٢ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣٦٧/٢.

٣ أي: "وَيَعْلَمِ الَّذِينَ" بكسر الميم. قراءة شاذّة، مرويّة عن أهل المدينة. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٣.

٤ في الآية السابقة.

٥ س ي + أي.

٦ س – رضي الله عنه.

٧ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٢٢/٨؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٨٣/٥.

﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ٣٧﴾

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ﴾ أي: الكبائر مِن هذا الجنس ﴿وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾ مع ما بعده عطفٌ على ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾،[١] أو مدح بالنصب أو الرفع. وبناءُ ﴿يَغۡفِرُونَ﴾ على الضمير خبرًا له للدلالة على أنهم الأخصّاء بالمغفرة حال الغضب لعِزّة منالِها. وقُرئ: "كَبِيرَ الإِثْمِ".[٢] وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: كَبِيرَ الإِثْمِ: الشرك.[٣]

﴿وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣٨ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ٣٩﴾

﴿وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ نزَل في الأنصار، دعاهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى الإيمان فاستجابوا له، ﴿وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ﴾ أي: ذو شورى، لا ينفردون برأيٍ حتّى يتشاوروا ويجتمعوا عليه، وكانوا قبل الهجرة وبعدها إذا حزَبهم أمر اجتمعوا وتشاوروا، ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ أي: في سبيل الخير، ولعلّ فصلَه عن قرينه بذكر المشاورة لوقوعها عند اجتماعهم للصلوات.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ﴾ أي: ينتقمون ممّن بغى عليهم على ما جعله الله تعالى لهم كراهةَ التذلّل، وهو وصف لهم بالشجاعة بعد وصفهم بسائر مهمّات الفضائل، وهذا لا ينافي وصفَهم[٤] بالغفران، فإنّ كلًّا منهما فضيلة محمودة في موقعِ نفسِه، ورذيلة مذمومة في موقع صاحبه، فإنّ الحِلم عن العاجز وعَوْرَاءِ الكرام محمود، وعن المتغلِّب ولَغواءِ اللِّئام مذموم، فإنّه إغراءٌ على البَغي، وعليه قول مَن قال:

إذا أنـت أكـرمـتَ الكـريـمَ ملَكْتَهُ ... وإن أنـت أكـرمـتَ اللّئيـمَ تـمرّدَا
فوضعُ الندى في موضع السيفِ بالعُلَى ... مضِرٌّ كوضع السيف في موضع الندَى[٥]

---

١ في الآية السابقة.
٢ أي: بكسر الميم. قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٣.
٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٢٢/٨؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٥٧/٤.
٤ س - بسائر مهمّات الفضل وهذا لا ينافي وصفهم؛ ي: وصفها.
٥ للمتنبي في ديوانه، ص ١٦٣.

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٠﴾

وقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾[1] بيان لوجه كون الانتصار مِن الخصال الحميدة، مع كونه في نفسه إساءةً إلى الغير، بالإشارة إلى أنّ البادئ هو الذي فعَله لنفسه، فإنّ الأفعال مستتبِعةٌ لِأجزيتها حتمًا، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرّ. وفيه تنبيه على حُرمة التعدّي. وإطلاق السيّئة على الثانية لأنّها تسوء مَن نزلت به.

﴿فَمَنۡ عَفَا﴾ عنِ المسيء إليه ﴿وَأَصۡلَحَ﴾ بينه وبين مَن يعاديه / بالعفو [٥٨ظ] والإغضاء، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ [فصلت، ٤١/٣٤]، ﴿فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ عِدَة مبهمة مُنبئة عن عِظَم شأن الموعود وخروجه عن الحدّ المعهود. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ البادئين بالسيّئة،[2] والمتعدّين في الانتقام.

﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ۝٤١﴾

﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ﴾ أي: بعد ما ظُلِم، وقد قُرئ به.[3] ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى ﴿مَن﴾ باعتبار المعنى، كما أنّ الضميرَين لَها باعتبار اللفظ. ﴿مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ بالمعاتبة أو المعاقبة.

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٤٢﴾

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ يبتدئونهم بالإضرار،[4] أو يعتدون في الانتقام. ﴿وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ أي: يتكبّرون فيها تجبّرًا وفسادًا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر مِن الظلم والبغي بغير الحقّ ﴿لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ بسبب ظلمهم وبغيهم.

---

١ س - ﴿مِّثۡلُهَا﴾.
٢ س: بالسنة.
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير وزيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٣.
٤ س: بالإصرار.

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾

﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ على الأذى ﴿وَغَفَرَ﴾ لِمَن ظَلَمه ولم ينتصر، وفوّض أمره إلى الله تعالى، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكر مِن الصبر والمغفرة ﴿لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي: إنّ ذلك منه، فحُذف ثقةً بغاية ظهوره، كما في قولهم: السَّمْن مَنَوان بدرهم.[١] وهذا في الموادّ التي لا يؤدّي العفو إلى الشرّ كما أشيرَ إليه.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾﴾

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ مِن ناصر يتولّاه مِن بعد خذلانه تعالى إيّاه. ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا ٱلْعَذَابَ﴾ أي: حين يرونه. وصيغة الماضي للدلالة على التحقّق. ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ﴾ أي: رجعةٍ إلى الدنيا ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾ حتّى نؤمِن ونعملَ صالحًا.

﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾﴾

﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أي: على النار المدلول عليها بالعذاب. والخطاب في الموضعين لكلّ مَن يتأتّى منه الرؤية. ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ متذلّلين متضائلين ممّا دهاهم. ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ أي: يبتدئ نظرهم إلى النار مِن تحريكٍ لأجفانهم ضعيفٍ، كالمَصبور[٢] ينظر إلى السيف.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي: المتّصفين بحقيقة الخُسران ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ﴾ بالتعريض للعذاب الخالد. ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ إمّا ظرف لـ﴿خَسِرُوٓا۟﴾ والقول في الدنيا، أو لـ﴿قَالَ﴾، أي: يقولون حين يرونهم على تلك الحال. وصيغة الماضي للدلالة على تحقّقه.

---

[١] تقديره: مَنَوان منه بدِرهم. و"مَنَوان" مثنّى "منا"، وهو ما يوزن به. انظر: الصِّحاح للجوهري، «منا».

[٢] المصبور: هو المحبوس على القتل. انظر: لسان العرب لابن منظور، «صبر».

/ وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ﴾ إمّا مِن تمام كلامهم، أو تصديق مِن الله تعالى لهم. [٥٩و]

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ٤٦﴾

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم﴾ برفع العذاب عنهم ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حسبما كانوا يرجون ذلك في الدنيا ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ يؤدّي سلوكُه إلى النجاة.

﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ ٤٧﴾

﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم﴾ إذ دعاكم إلى الإيمان على لسان نبيّه ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: لا يردّه الله بعد ما حكم به، على أنّ ﴿مِنَ﴾ صلةُ ﴿مَرَدَّ﴾، أو مِن قبل أن يأتي مِن الله يومٌ لا يمكن ردّه.

﴿مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ﴾ أي: مفرّ تلتجئون إليه ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ﴾ أي: إنكار لِما اقترفتموه؛ لأنّه مدوَّن في صحائف أعمالكم، وتشهد عليكم جوارحكم.

﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ ٤٨﴾

﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًا﴾ تلوين للكلام،[١] وصرف له عن خطاب الناس بعد أمرِهم بالاستجابة، وتوجيه له إلى الرسول عليه السلام، أي: فإن لم يستجيبوا وأعرضوا عمّا تدعوهم إليه فما أرسلناك رقيبًا ومحاسبًا عليهم. ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ﴾ وقد فعلتَ.

﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ﴾ أي: نعمةً مِن الصحّة والغنى والأمن ﴿فَرِحَ بِهَا﴾ أريدَ بـ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ الجنس؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ﴾ أي:

---

[١] التلوين: تغيير أسلوب الكلام إلى أسلوب آخر، وهو أعمّ مِن الالتفات. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٢٦٠/٥.

بلاء مِن مرضٍ وفقرٍ وخوفٍ ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ بليغ الكفر، ينسى النعمة رأسًا، ويذكر البليّة ويستعظمها ولا يتأمّل سببها؛ بل يزعم أنّها أصابَتْها بغير استحقاق لها. وإسنادُ هذه الخصلة إلى الجنس مع كونها مِن خواصّ المجرمين لغلبتهم فيما بين الأفراد.

وتصدير الشرطيّة الأُولى بـ﴿إِذَا﴾ مع إسناد الإذاقة إلى نون العظمة للتنبيه على أنّ إيصال النعمة محقَّق الوجود كثير الوقوع، وأنّه مقتضى الذات. كما أنّ تصدير الثانية بـ﴿إِن﴾ وإسنادَ الإصابة إلى السيّئة وتعليلَها بأعمالهم للإيذان بنُدرة وقوعها، وأنّها بمَعزِل مِن الانتظام في سلك الإرادة بالذات. ووضع الظاهر موضع الضمير للتسجيل على أنّ هذا الجنس موسوم بكفران النِّعم.

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فمِن قضيّته أن يملك التصرّف فيهما وفي كلّ ما فيهما / كيفما يشاء، ومِن جملته أن يقسم النعمة والبليّة حسبما يريده. ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ ممّا تعلمه وممّا لا تعلمه، ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾ مِن الأولاد ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ منهم مِن غير أن يكون في ذلك مدخل لأحد. [٥٩ظ]

﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾

﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ﴾ أي: يقرن بين الصنفين فيَهَبُهما جميعًا ﴿ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ قالوا:[١] معنى ﴿يُزَوِّجُهُمْ﴾: أن تلِد غلامًا ثمّ جاريةً ثمّ غلامًا، أو تلد ذكرًا وأُنثى توأمين. ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ والمعنى: يجعل أحوال العباد في حقّ الأولاد مختلفة على ما يقتضيه المشيئة فيهنّ، فيهب لبعضٍ إمّا صِنفًا واحدًا مِن ذكر أو أنثى، وإمّا صِنفين، ويُعْقِم آخرين.

---

[١] وفي هامش م: كواشي. «منه». | تفسير الكواشي، ٤٨٢ظ. | وهذا القول مرويّ عن مجاهد. انظر: تفسير مجاهد، ص ٥٩١؛ وجامع البيان للطبري، ٢٠/٥٣٨.

ولعلّ تقديمَ الإناث لأنّها أكثر لتكثير النسل، أو لأنّ مساق الآية للدلالة على أنّ الواقع ما يتعلّق به مشيئته تعالى، لا ما يتعلّق به مشيئة الإنسان، والإناث كذلك، أو لأنّ الكلام في البلاء، والعربُ تعدُّهنّ أعظمَ البلايا، أو لتطييب قلوب آبائهنّ، أو للمحافظة على الفواصل، ولذلك عُرّف، أو لجَبر التأخير.

وتغيير العاطف في الثاني لأنّه قسيم المشترَك بين القسمين، ولا حاجة إليه في الرابع لإفصاحه بأنّه قسيم المشترَك بين الأقسام المتقدّمة.

وقيل: المراد بيان أحوال الأنبياء عليهم السلام حيث وهب لشعيب ولوط إناثًا، ولإبراهيم ذكورًا، وللنبيِّ صلوات الله عليهم[١] ذكورًا وإناثًا، وجعل يحيى وعيسى عقيمين.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ مبالغ في العلم والقدرة، فيفعل ما فيه حكمة ومصلحة.

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ أي: وما صحّ لفردٍ مِن أفراد البشر ﴿أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ﴾ بوجه مِن الوجوه ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ أي: إلّا بأن يُوحِيَ إليه، ويلهمه، ويقذِف في قلبه، كما أوحى إلى أمّ موسى وإلى إبراهيم عليه السلام في ذبح ولده. وقد رُوي عن مجاهد: «أوحى الله الزبور إلى داود عليه السلام في صدره».[٢]

أو بأن يُسمعه كلامه الذي يخلقه في بعض الأجرام مِن غير أن يُبصر السامعُ مَن يكلّمه، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾، فإنّه تمثيل له بحال الملِكِ المحتجِب / الذي يكلّم بعض خواصّه مِن وراء الحجاب، يُسمع صوته [٦٠و]
ولا يُرى شخصه، وذلك كما كلّم موسى، وكما يكلّم الملائكةَ عليهم السلام.

أو بأن يكلّمه بواسطة الملَك، وذلك قوله تعالى: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ أي: ملَكًا ﴿فَيُوحِيَ﴾ ذلك الرسول إلى المرسَل إليه الذي هو الرسول البشري ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾

---

[١] س: صلّى الله عليه وسلّم.

[٢] الكشّاف للزمخشري، ٤/١٢٣٣؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٣٤٩.

أي: بأمره تعالى وتيسيره ﴿مَا يَشَآءُ﴾ أن يوحيَه إليه، وهذا هو الذي يجري بينه تعالى وبين الأنبياء عليهم السلام في عامّة الأوقات مِن الكلام.

وقيل: قوله تعالى: ﴿وَحْيًا﴾ وقوله تعالى: ﴿أَوْ يُرْسِلَ﴾ مصدران واقعان موقع الحال. وقوله تعالى: ﴿أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ ظرف واقع موقعها، والتقدير: وما صحّ أن يكلّم إلّا مُوحِيًا أو مُسمِعًا مِن وراء حجاب أو مرسِلًا. وقُرِئ: "أَوْ يُرْسِلُ" بالرفع[1] على إضمار مبتدأ.

ورُوي أنّ اليهود قالت للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم:[2] «أَلَا تُكَلِّم الله وتنظر إليه إن كنتَ نبيًّا كما كلّمه موسى ونظر إليه، فإنّا لَن نؤمِن حتّى تفعلَ ذلك»، فقال عليه السلام: «لم ينظر موسى إلى الله تعالى»، فنزلت.[3]

وعن عائشة رضي الله عنها: «مَن زعم أنّ محمّدًا رأى ربّه فقد أعظم على الله الفِريةَ»، ثمّ قالت: «أَوَلم تسمعوا ربّكم يقول...» فتَلَتْ هذه الآية.[4]

﴿إِنَّهُۥ عَلِىٌّ﴾ متعالٍ عن صفات المخلوقين لا يتأتّى جَريان المفاوضة بينه تعالى وبينهم إلّا بأحد الوجوه المذكورة، ﴿حَكِيمٌ﴾ يُجري أفعاله على سَنن الحكمة، فيكلّم تارةً بواسطة، وأخرى بدونها، إمّا إلهامًا، وإمّا خطابًا.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: ومِثل ذلك الإيحاء البديع ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ هو القرآن، الذي هو للقلوب بمنزلة الروح للأبدان حيث يحييها حياةً أبديّةً. وقيل: هو جبريل عليه السلام، ومعنى إيحائه إليه عليهما السلام إرساله إليه بالوحي.

﴿مَا كُنتَ تَدْرِى﴾ قبل الوحي ﴿مَا ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي: أيّ شيء هو؟ ﴿وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ أي: الإيمانُ بتفاصيل ما في تضاعيف / الكتاب مِن الأمور التي لا يهتدي إليها العقول، [٦٠ظ]

---

[1] قرأ بها نافع وابن ذكوان بخلف عنه، وقرآ كذلك: "فيوحي" بإسكان الياء. النشر لابن الجزري، ٢/٣٦٨.

[2] س: عليه السلام.

[3] الكشف والبيان للثعلبي، ٨/٣٢٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/٢٣٤.

[4] صحيح البخاري، ٦/١٤٠ (٤٨٥٥)؛ صحيح مسلم، ١/١٥٩ (١٧٧).

لا الإيمانُ بما يستقلّ به العقل والنظر، فإنّ درايته عليه السلام له ممّا لا ريب فيه قطعًا.

﴿وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ﴾ أي: الروح الذي أوحيناه إليك ﴿نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ﴾ هدايته ﴿مِنۡ عِبَادِنَا﴾، وهو الذي يصرف اختياره نحو الاهتداء به.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ﴾ تقرير لهدايته تعالى وبيان لكيفيّتها. ومفعول ﴿لَتَهۡدِيٓ﴾ محذوف ثقةً بغاية الظهور، أي: وإنّك لتَهدي بذلك النور مَن نشاء هدايته ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ هو الإسلام وسائر الشرائع والأحكام. وقُرئ: "لَتُهْدَى"،[١] أي: لَيَهدِيك الله، وقُرئ: "لَتَدْعُو".[٢]

﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ٥٣﴾

﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ بدل مِن الأوّل. وإضافته إلى الاسم الجليل ثمّ وصفُه تعالى بقوله تعالى:[٣] ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لتفخيم شأنه وتقرير استقامته وتأكيد وجوب سلوكه، فإنّ كون جميع ما فيهما مِن الموجودات له تعالى خلقًا ومِلكًا وتصرّفًا ممّا يوجب ذلك أتمّ إيجاب. ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾ أي: أمور ما فيهما قاطبة، لا إلى غيره، ففيه مِن الوعد للمهتدين إلى الصراط المستقيم والوعيد للضالّين عنه ما لا يَخفى.

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة ﴿حمٓ عسق﴾ كان ممّن يصلّي عليه الملائكة ويستغفرون له ويسترحمون له».[٤]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن حَوشب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٤.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٤.

٣ م - تعالى.

٤ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٠١/٨؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤٢/٤. وهو جزء مِن الحديث المرويّ عن أبيّ بن كعب في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سورة الشورى

وتُسمَّى سورة «حم عسق» و«عسق»، نزلَتْ على ما رُوي عن ابن عباس وابن الزبير بمكة[1]، وأطلق غيرُ واحد القولَ بمكِّيتها من غير استثناء.

وفي «البحر»: هي مكية إلا أربعَ آيات: من قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ [الآية: ٢٣] إلى آخر أربع آيات[2].

وقال مقاتل: فيها مدنيٌّ قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ﴾ إلى ﴿ٱلصُّدُورِ﴾ [الآيتان ٢٣-٢٤].

واستثنى بعضُهم قولَه تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ﴾ إلخ [الآية: ٢٤]؛ قال الجلال السيوطي[3]: ويدلُّ له ما أخرجه الطبراني والحاكم في سبب نزولها؛ فإنها نزلت في الأنصار[4]، وقولَه سبحانه: ﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ﴾ [الآية: ٢٧] إلخ فإنها نزلت في أصحاب الصُّفة رضي الله عنهم[5].

واستثني أيضاً ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾ [الآيات: ٣٩-٤١] حكاه ابن الفرس.

وسيأتي إنْ شاء الله تعالى ما يدلُّ على استثناء غيرِ ذلك على بعض الروايات، وجوِّز أن يكون الإطلاق باعتبار الأغلب.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٥٠٧ ونسبه لابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) في الإتقان ١/ ٤٩.

(٤) المعجم الكبير للطبراني (١٢٣٨٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ولم نقف عليه عند الحاكم. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٠٣: فيه عثمان بن عمير أبو اليقظان، وهو ضعيف.

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٤٤٥ عن عليٍّ رضي الله عنه.

وعددُ آياتها ثلاثٌ وخمسون في الكوفي وخمسون فيما عداه، والخلافُ في «حم عسق» وقوله تعالى: ﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ [الآية: ٣٢] كما فصَّله الداني[١] وغيره.

ومناسبةُ أوَّلها لآخر السورة قبلَها اشتمالُ كلٍّ على ذِكْر القرآن، وذبِّ طعن الكَفَرة فيه، وتسليةِ النبي ﷺ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾ لعلَّهما اسمان للسورة، وأُيِّدَ بِعَدِّهما آيتين، والفَصْلِ بينهما في الخطِّ، وبورودِ تسميتها «عسق» من غير ذِكْر «حم»، وقيل: هما اسمٌ واحدٌ وآيةٌ واحدة، وحقُّه أن يُرسَم متصلاً كما في «كهيعص» [مريم: ١] لكنه فُصل ليكون مفتتحُ السورة على طِرز مفتتح أخواتها، حيث رُسم في كلٍّ مستقِلًّا، وعلى الأول هما خبران لمبتدأ محذوف، وقيل: «حم» مبتدأ و«عسق» خبره. وعلى الثاني الكلُّ خبرٌ واحد.

وقيل: إن «حم عسق» إشارةٌ إلى هلاك مدينتين تُبنيان على نهر من أنهار المشرق يشقُّ النهر بينهما يجتمع فيهما كلُّ جبار عنيد، يبعثُ اللهُ تعالى على إحداهما ناراً ليلاً فتصبح سوداءَ مظلمةً قد احترقتْ كأنها لم تكن مكانَها، ويخسفُ بالأُخرى في الليلة الأُخرى، ورُوي ذلك عن حذيفة[٢].

وقيل: إن «حم» اسمٌ من أسماء الله تعالى و«عين» إشارةٌ إلى عذاب يوم بدر و«سين» إشارةٌ إلى قوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧] و«قاف» إلى قارعةٍ من السماء تُصيب الناس. ورُوي ذلك بسندٍ ضعيف عن أبي ذرٍّ[٣].

---

(١) في البيان في عدِّ أي القرآن ص٩١.

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ٤٦٤، وأورده الحافظ ابن كثير في تفسيره عند هذه الآية، وقال: أثر عجيب منكر.

(٣) أخرجه أبو يعلى وابن عساكر كما في الدر المنثور ٦/ ٢.

والذي يغلب على الظنّ عدمُ ثُبوت شيء من الروايتين.

وفي «البحر»: ذكر المفسرون في «حم عسق» أقوالاً مضطربةً لا يَصِحُّ منها شيء، ضربنا عن ذِكْرِها صفحاً[١]. وما ذكرناه أولاً قد اختاره غيرُ واحد، ومنهم من اختار أنها مُقَطَّعات جِيء بها للإيقاظ.

وقرأ ابنُ عباس وابن مسعود: «حم سق» بلا عين[٢].

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣﴾ كلامٌ مستأنفٌ واردٌ لِتحقيق أنَّ مضمونَ السورة موافقٌ لما في تضاعيفِ الكُتب المُنزلة على سائر الرُّسل المتقدِّمين في الدعوة إلى التوحيد والإرشاد إلى الحقِّ، أو أنَّ إيحاءها [مثلُ إيحاءها][٣]، بعد تنويهها بذكر اسمها والتنبيهِ على فَخامةِ شأنها، والكافُ مفعول «يوحي» على الأول، أي: يُوحي مثلَ ما في هذه السورة من المعاني، أو نعتٌ لمصدر مؤكِّد على الثاني، أي: يوحي إيحاءً مثلَ إيحائها إليك وإلى الرُّسل، أي: بواسطة المَلك، وهي في الوجهين اسمٌ كما هو مذهبُ الأخفش، وإن شئتَ فاعتبرها حرفاً، واعتبر الجار والمجرور مفعولاً، أو متعلِّقاً بمحذوف وقع نعتاً.

وقولُ العلامة الثاني في «التلويح»: إنَّ جار الله لا يُجوِّز الابتداءَ بالفعل، ويُقدِّر المبتدأ في جميع ما يقع فيه الفعلُ ابتداءً، كلامٌ غير مُسلَّم، وقد تردَّدوا فيه حتى قيل: إنه لم يظهر له وجه.

وجَوَّز أبو البقاء[٤] كون «كذلك» مبتدأ «ويُوحي» الخبر، والعائد محذوفٌ، أي: مثلُ ذلك يُوحيه إليك.. إلخ، وحذفُ مثله شائعٌ في الفصيح، نعم هذا الوجه خلافُ الظاهر.

(١) البحر المحيط ٧/ ٥٠٧.
(٢) القراءات الشاذة ص١٣٤، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٥.
(٣) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٨/ ٢١، والكلام منه.
(٤) في إملاء ما من به الرحمن (بهامش الفتوحات الإلهية) ٤/ ٢٨٨.

والإشارةُ ـ كما أشرنا إليه ـ إلى ما في السورة أو إلى إيحائها، والدلالةُ على البُعد لِبُعد منزلةِ المُشار إليه في الفضل. وصيغةُ المضارع على حكاية الحال الماضيةِ للدلالةِ على استمراره في الأزمنة الماضية، وأن إيحاءَ مثلهِ عادتُه عز وجل. وقيل: إنها على التغليب، فإن الوحي إلى مَنْ مضى مضَى، وإليه عليه الصلاة والسلام بعضُه ماضٍ وبعضُه مُستقبَل، وجوّز أن تكون على ظاهرها، ويُضمر عامل يتعلَّق به «إلى الذين» أي: وأَوحى إلى الذين، وهو كما ترى. وفي جَعْل مضمون السورة أو إيحائها مُشَبّهاً به من تفخيمها ما لا يخفى.

وقرأ مجاهد وابن كثير وعيَّاش ومحبوب كلاهما عن أبي عمرو: «يُوحَى» مَبنيّاً للمفعول[1]، على أن «كذلك» مبتدأ و«يُوحَى» خبره المُسند إلى ضميره، أومصدر و«يوحَى» مسند إلى «إليك»، و«الله» مرتفعٌ عند السكَّاكي[2] على الفاعلية ليوحي الواقع في جواب: مَن يُوحي؟ نحو ما قرَّروه في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ له فيها بالغُدوِّ والآصال رجالٌ﴾ [النور: ٣٦-٣٧] على قراءة «يُسبَّح» بالبناء للمفعول[3]، وقوله:

لِيُبكَ يزيدُ ضارعٌ لخصومةٍ ومختبطٌ مما تُطيح الطوائح[4]

وقال الزمخشري: رافِعُه ما دلَّ عليه «يوحَى»، كأنَّ قائلاً قال: من المُوحي؟ فقيل: الله[5]. وإنما قدّر كذلك ـ على ما قاله صاحب الكشف ـ ليدلَّ على أنَّ الإيحاءَ مُسلَّمٌ معلوم، وإنما الغرضُ من الإخبار إثباتُ اتِّصافه بأنه تعالى من شأنه الوحي، لا إثباتُ أنه مُوحٍ. ولم يَرْتَضِ[6] القول بعدم الفرقِ بين هذا وقولهِ تعالى:

---

(١) قراءة ابن كثير في التيسير ص١٩٤، والنشر ٢/ ٣٦٧، وهي غير المشهورة عن أبي عمرو، والمشهور عنه كقراءة الجمهور: «يُوحي». والكلام من البحر المحيط ٧/ ٥٠٨.

(٢) في مفتاح العلوم ص٨٧.

(٣) هي قراءة ابن عامر وشعبة، وسلفت عند تفسير الآية المذكورة من سورة النور.

(٤) البيت في الكتاب ١/ ٢٨٨ ونسبه للحارث بن نهيك، والخزانة ١/ ٣٠٣ و٣١٣، وقال البغدادي: الصواب أنه لنهشل بن حَرّيّ.

(٥) الكشاف ٣/ ٤٥٩.

(٦) أي: صاحب الكشف. ينظر حاشية الشهاب ٧/ ٤٠٩.

﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ﴾ بل أوجب الفرق؛ لأنَّ الفعلَ المضارع هنالك على ظاهره لم يؤتَ به للدلالة على الاستمرار. ولهم فيه مقال.

و«العزيز الحكيم» صفتان له تعالى عند الشيخين[1]، وجوَّز أبو حيان[2] كونَ الاسم الجليل مبتدأ وما بعدَه خبرٌ له. وقيل: «الله العزيز الحكيم» إلى آخر السورة قائمٌ مقام فاعل «يُوحي» أي: هذه الكلمات.

وقرأ أبو حيوة والأعشى عن أبي بكر وأبان: «نوحي» بنون العظمة[3]، فـ «الله» مبتدأ وما بعدَه خبر، أو«العزيز الحكيم» صفتان، وقولُه تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ۝٤﴾ خبرٌ له، وعلى الأوجه السابقة استئنافٌ مُقرِّر لِعزَّته تعالى وحِكمته عز وجل.

﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ﴾ وقُرئ: «يكاد» بالياء[4] ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ يتشقَّقْنَ من عظمة الله تعالى وجلالِه جلَّ شأنه، ورُوي ذلك عن قتادة.

وأخرج جماعةٌ منهم الحاكم - وصحَّحه - عن ابن عباس أنه قال: تكادُ السماوات يتفطَّرن من الثِّقل[5].

وقيل: مِن دعاء الشَّريك والولد له سبحانه؛ كما في سورة مريم، وأُيِّد هذا بقوله تعالى بعدُ: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الآية: ٦] فإيرادُ «الغفورُ الرحيم» بعدُ لأنهم استوجبوا بهذه المَقالةِ صبَّ العذاب عليهم، لكنه صُرف عنهم لِسَبقِ رحمته عزَّ وجل، والآية عليه واردةٌ للتنزيه بعد إثبات المالكية والعَظَمة، والأولُ أَولى في هذا المقام؛ لأنَّ الكلامَ مسوقٌ لبيان عظمتِهِ تعالى وعُلُوِّه جلَّ جلاله، ويُؤيِّده تركُ العاطف، ويليهِ ما رُوي عن الحِبْر؛ فإنَّ الآية وإنْ تضمَّنتْ عليه الغرضَ المسوق له الكلام لكن دلالتها عليه بناءً على القول الأول أظهر.

---

(١) تفسير البيضاوي (بهامش حاشية الشهاب) ٧/ ٤٠٩، وتفسير أبي السعود ٨/ ٢١.
(٢) في البحر المحيط ٧/ ٥٠٨.
(٣) القراءات الشاذة ص١٣٤، والبحر المحيط ٧/ ٥٠٧.
(٤) قرأ بها نافع والكسائي. التيسير ص١٥٠، والنشر ٢/ ٣١٩.
(٥) المستدرك ٢/ ٤٤٢.

وقرأ البصريان وأبو بكر: «يَنْفَطِرْنَ» بالنون[1]، والأول أبلغ؛ لأن المطاوِعَ والمطاوَعَ من التفعيل والتفعُّل الموضوع للمبالغة بخلاف الثاني، فإنه انفعالٌ مطاوع للثلاثي.

وروى يونس عن أبي عمرو أنه قرأ: «تتفطّرن» بتاءين ونون في آخره على ما في «الكشاف»[2]، و«تَنْفطرن» بتاء واحدة ونون على ما في «البحر»[3] عن ابن خالويه[4]، وهو على الروايتين شاذٌّ عن القياس والاستعمال؛ لأنَّ العربَ لا تجمعُ بين علامتي التأنيث، فلا تقول: النساءُ تَقُمنَ، ولا الوالداتُ تُرضِعْنَ، والوجهُ فيه تأكيدُ التأنيث كتأكيدِ الخطابِ في أرأيتَك؛ ومثله ما رواه أبو عمر الزاهد في «نوادر ابن الأعرابي»: الإبل تَتشمَّمنَ.

﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾ أي: يبتدئ التفطُّر من جهتهنَّ الفوقانية، وتخصيصُها ـ على الأول[5] في سبب التفطُّر ـ لِمَا أنَّ أعظَمَ الآيات وأدلَّها على العظمة والجلال ـ كالعرش والكرسي والملائكة ـ من تلك الجهةِ، ولذا كانت قِبلةَ الدعاء، وعلى الثالثِ: للدلالة على التفطُّر من تحتهنَّ بالطريق الأولى؛ لأنَّ تلك الكلمةَ الشَّنعاء الواقعةَ في الأرض حين أثَّرت من جهة الفَوق فلأَنْ تُؤثِّر من جهة التحت أولى، وكذا على الثاني؛ لأنَّ العادةَ تفطُّر سطح البيت ـ مثلاً ـ من جهته التحتانية بحصول ثِقل عليه.

وقيل: الضمير للأرض، أي: لجنسها، فيشمل السبعَ ولذا جمع الضمير. وهو خلافُ الظاهر.

وقال علي بن سليمان الأخفش[6]: الضمير للكُفَّار، والمراد: من فوق الفِرق

---

(١) التيسير ص١٩٤، والنشر ٢/ ٣١٩.
(٢) ٣/ ٤٥٩، وهي غير المشهورة عن أبي عمرو.
(٣) ٧/ ٥٠٨.
(٤) القراءات الشاذة ص١٣٤.
(٥) يعني على الوجه الأول. ينظر حاشية الشهاب ٧/ ٤٠٩.
(٦) ذكره عنه أبو حيان في البحر ٧/ ٥٠٨، وعنه نقل المصنف.

والجماعات المُلحدة، وبهذا الاعتبار أنّث الضمير، وفي ذلك إشارةٌ إلى أن التفطُّر من أجل أقوال هاتيكَ الجماعات. وفيه ما فيه.

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ يُنزِّهونه سبحانه عما لا يَليق به جلَّ جلالُه مُلتبسين بحمده عز وجل، وقيل: يُصلُّون. والظاهر العموم في الملائكة، وقال مقاتل: المرادُ بهم حملةُ العرش.

﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالسعي فيما يستدعي مَغْفرتَهم؛ من الشفاعة والإلهام وترتيبِ الأمور المُقرِّبة إلى الطاعة؛ كالمعاونة في بعض أمور المعاش، ودَفْع العوائق، واستدعاء تأخيرِ العقوبة طمعاً في إيمان الكافر وتوبةِ الفاسق، وهذا يَعُمُّ المؤمنَ والكافر. بل لو فُسِّر الاستغفار بالسعي فيما يدفع الخَلل المتوقَّع عمَّ الحيوانَ، بل الجماد. وهو فيما ذكر مجازٌ مرسل، أواستعارة.

وقال السدي وقتادة: المرادُ بمن في الأرض المؤمنون، لقوله تعالى في آيةٍ أُخرى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٧] والمرادُ بالاستغفار ـ عليه ـ حقيقتُه، وقيل: الشفاعة.

﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾ إذْ ما من مخلوق إلا وله حظٌّ عظيم من رحمته تعالى، وإنه سبحانه لذو مغفرةٍ للناس على ظُلمهم، وفيه إشارة إلى قبول استغفارِ الملائكة عليهم السلام، وأنه سبحانه يَزيدهم على ما طلبوه من المغفرة رحمةً.

والآيةُ على كون قوله تعالى: (تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ) لبيانِ عظمته جلَّ شأنه مُقرِّرةٌ لما دلَّ عليه ذلك ومُؤكِّدةٌ له؛ لأن تسبيحَ الملائكة وتنزيههم له تعالى لمزيدِ عظمته تبارك وتعالى وعظيمِ جلاله جلَّ وعلا، والاستغفار لغيرهم للخوفِ عليهم من سَطْوة جَبروته عزَّ وجل، والتذييلُ بقوله تعالى: (أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ) إلخ على هذا ظاهر.

وعلى كون تَفطُّر السماواتِ لِنسبةِ الولدِ والشَّريك بيانٌ لِكمالِ قُدسهِ تعالى عما نُسب إليه عزَّ وجل، فيكون تسبيحُهم عما يقوله الكَفَرة، واستغفارهم للمؤمنين الذين تبرَّؤوا عمَّا صدرَ من هؤلاء، والتذييلُ للإشارة إلى سببِ ترك مُعاجلة العذابِ

مع استحقاقهم له. وعَمَّم بعضُ المُستغفَر لهم، وأدخل استغفارَ الملائكة في سبب ترك المعاجلة.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ شُركاءَ وأنداداً ﴿اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ رقيبٌ على أحوالهم وأعمالهم، فيجازيهم بها ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝﴾ أي: بموكَّل بهم، أو: بموكول إليك أمرُهم، وإنما وظيفتُك البلاغُ والإنذار، فـ «وكيل» فَعيل بمعنى مفعول من المزيد أوالثلاثي.

وما في هذه الآية من المُوادعة على ما في «البحر» منسوخٌ بآية السيف[١].

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ «ذلك» إشارة إلى مصدر «أوحينا»، ومحلُّ الكاف ـ على ما ذهب إليه الأخفش[٢] من ورودها اسماً ـ النصبُ على المصدرية، و«قرآناً» مفعولٌ لـ «أوحينا»، أي: ومثلَ ذلك الإيحاء البديع البيِّن المُفهِم أوحينا إليك قرآناً عربيّاً لا لَبْس فيه عليك ولا على قومك.

وقيل: إشارة إلى ما تقدم من «الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل» فالكاف مفعولٌ لـ «أوحينا»، و«قرآناً عربياً» حالٌ من المفعول به، أي: أوحيناه إليك وهو قرآنٌ عربي. وجوَّز نصبُه على المَدْح أوالبدلية من «كذلك».

وقيل: أَولى من هذا أن يكون إشارةً إلى معنى الآيةِ المتقدِّمة من أنه تعالى هو الحفيظُ عليهم، وأنه عليه الصلاة والسلام نذيرٌ فحسب، لأنه أتمُّ فائدةً وأشملُ عائدةً، ولابدَّ عليه من التجوُّز في «قرآناً عربيّاً» إذْ لا يصِحُّ أن يقال: أوحينا ذلك المعنى وهو قرآنٌ عربيّ؛ لأنَّ القرآنية والعربية صفةُ اللفظ لا المعنى، لكن أمره سهل لِقُربه من الحقيقة، لِمَا بين اللَّفظ والمعنى من المُلابسة القوية حتى يُوصف أحدُهما بما يُوصَفُ به الآخر، مع ما في المجاز من البلاغة.

﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ أي: أهل أُمِّ القُرى، على التجوُّز في النسبة، أو بتقدير المضاف، والمراد بأُمِّ القُرى مكة، وسُمِّيتْ بذلك ـ على ما قال الراغب[٣] ـ لما رُوي

---

(١) البحر ٧/ ٥٠٨.

(٢) كما في البحر ٧/ ٥٠٩.

(٣) في مفردات ألفاظ القرآن (أمّ).

أنه دُحيت الدنيا من تحتها، فهي كالأصلِ لها، والأمُّ تُقال لكل ما كان أصلاً لشيء.

وقد يقال: هي أمٌّ لما حولها من القُرى لأنها حدثَتْ قبلَها، لا كلِّ قرى الدنيا، وقد يقال لبلد: هي أُمُّ البلاد، باعتبار احتياج أهالي البلاد إليها.

﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ مِن العرب، على ما ذهب إليه كثيرٌ، وخُصَّ المذكورون بالذِّكر لأنَّ السورةَ مكيةٌ، وهم أقربُ إليه عليه الصلاة والسلام، وأولُ مَن أُنذر، أو لِدَفْع ما يُتوَهَّم من أنَّ أهلَ مكة ومَن حَوْلَها لهم طمعٌ في شفاعته ﷺ وإن لم يُؤمنوا؛ لحقِّ القَرابة والمُساكنة والجِوار، فخصَّهم بالإنذار لإزالة ذلك الطمع الفارغ.

وقيل: «مَن حولها» جميعُ أهل الأرض، واختاره البغوي[1]، وكذا القُشيري[2]، وقال: لأنَّ الكعبةَ سُرَّةُ الأرض، والدنيا مُحدِقة بما هي فيه، أعني مكة. وهذا عندي لا يكاد يصِحُّ مع قولهم: إنَّ عَرْضَها: كام، وطولَها: عز[3]، وأن المعمورَ في جانب الشمال أكثر منه في جانب الجنوب.

﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ أي: يوم القيامة؛ لأنه يُجمع فيه الخلائق، قال اللهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ [التغابن: ٩] وقيل: تُجمع فيه الأرواح والأشباح، وقيل: الأعمال والعُمَّال.

والإنذار يتعدَّى إلى مفعولين، وقد يستعمل ثانيهما بالباء، وقد حُذف هاهنا ثاني مفعولي الأول، وهو يوم الجمع، والمراد به عذابه، وأوَّلُ مفعولي الثاني، وهو أمّ القُرى ومَنْ حولها، فقد حُذف من الأول ما أُثبت في الثاني ومن الثاني ما أُثبت في الأول، وذلك من الاحتباك.

وقال جار الله[4]: الأول عامٌّ في الإنذار بأمور الدنيا والآخرة، ثم خصَّ بقوله

---

(١) في تفسيره ٤/ ١٢٠.

(٢) في لطائف الإشارات ٣/ ٣٤٣.

(٣) لعله يعني أنَّ عرضها في حساب الجُمَّل: واحد وستون، وطولها: واحد وسبعون.

(٤) الكشاف ٣/ ٤٦١.

تعالى: «وتُنذر يومَ الجمع» يومُ القيامة زيادةً في الإنذار وبياناً لِعظمة أهوالِهِ؛ لأن الإفراد بالذِّكر يدلُّ عليه، وكذلك إيقاعُ الإنذار عليه ثانياً.

والظاهرُ عليه أن حذفَ المفعول الثاني من الأول لإفادةِ العموم وإنْ كان حذفُ الأول من الثاني لذلك أيضاً [أي:](١) وتُنذر كلَّ أحد يومَ الجمع.

وقيل: «يوم الجمع» ظرفٌ، فيكون المفعولان محذوفين.

وقرئ: «لِيُنذِرَ» بياء الغيبة(٢)، على أنَّ الفاعلَ ضميرُ القرآن لعدم حسن الالتفات هاهنا.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِۚ﴾ اعتراضٌ في آخر الكلام مُقرِّرٌ لما قبلَه، ويحتمل الحالية من «يوم الجمع»، أوالاستئناف.

﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾ أي: بعد جَمْعهم في الموقف، فإنهم يُجمعون فيه أولاً، ثم يُفَرَّقون بعد الحساب، و«فريق» مبتدأ و«في الجنة» صفته، والخبرُ محذوفٌ، وكذا «فريقٌ في السعير» أي: منهم فريقٌ كائن في الجنة، ومنهم فريقٌ كائنٌ في النار، وضميرُ منهم للمجموعين، لدلالة الجمع عليه، وجملةُ المبتدأ والخبر استئنافٌ في جواب سؤالٍ تقديره: ثم كيف يكون حالُهم؟ أوحالٌ، ولا ركاكةَ فيه، واشتراطُ الواو فيه غيرُ مُسلَّم.

وجُوِّز كون «فريق» فاعلاً للظرف المُقدَّر، وفيه ضعفٌ. وكونُه مبتدأً، والظرفُ المُقدَّر في موضع الصِّفة له و«في الجنة»خبره، أي: فريق كائنٌ منهم مستقرٌّ في الجنة. وكونُه مبتدأً خبرُه ما بعده من غير أن يكونَ هناك ظرفٌ مُقدَّر واقعٌ صفةً، وساغ الابتداءُ بالنكرة لأنها في سياق التفصيل والتقسيم، كما في قوله:

فثوب لَبِسْتُ وثوب أجر(٣)

---

(١) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق.

(٢) الكشاف ٣/ ٤٦١.

(٣) قائله امرؤ القيس، وهو في ديوانه ص١٥٩، وفي الكتاب ١/ ٨٦، والخزانة ١/ ٣٧٣، وصدره فيهما: فأقبلت زحفاً على الركبتين، ورواية الديوان:

=

وكونُه خبرَ مبتدأ محذوف، أي: المجموعون فريقٌ... إلخ.

وقرأ زيدُ بن علي ﵄: «فريقاً» «وفريقاً» بنصبهما[١]، فقيل: هو على الحال من مقدَّر، أي: افترقوا ـ أي: المجموعون ـ فريقاً وفريقاً، أو من ضمير جمعهم المُقدَّر؛ لأنَّ «أل» قامت مَقامه، أي: وتُنذر يومَ جمعهم متفرِّقين وهو من مجاز المشارفة، أي: مُشارفين للتفرُّق. أوالحال مُقدَّرة فلا يلزم كون افتراقِهم في حال اجتماعهم، أويقال: إنَّ اجتماعهم في زمان واحد لا يُنافي افتراقَ أمكنتهم، كما تقول: صلّوا في وقتٍ واحد في مساجدَ مُتفرِّقة، فالمراد: مُتفرِّقين في داريِ الثواب والعقاب، وإذا أُريد بالجمع جمع الأرواح بالأشباح، أو الأعمال بالعُمَّال لا يُحتاج إلى توفيق أصلاً.

وجوّز كون النصب بِتُنذر المُقدَّر أو المذكور، والمعنى: تُنذر فريقاً من أهل الجنة وفريقاً من أهل السعير؛ لأنَّ الإنذارَ ليس في الجنة والسعير. ولا يخفى تكلُّفه.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ جَعْلَهم أُمَّةً واحدةً ﴿لَجَعَلَهُمْ﴾ أي: في الدنيا ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ مُهتدين، أوضالِّين، وهو تفصيلٌ لما أجمله ابنُ عباس في قوله: على دين واحد[٢]، فمعنى قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ أنه تعالى يُدخل في رحمته من يشاء أن يُدخِلَه فيها، ويُدخل مَن يشاء في عذابه أَنْ يُدخله فيه، ولا ريبَ في أنَّ مشيئته تعالى لكلٍّ من الإدخالين تابعةٌ لاستحقاق كلٍّ من الفريقين لِدخول ما أَدخله، ومن ضرورة اختلافِ الرحمة والعذاب اختلافُ حال الداخِلين فيهما قطعاً، فلم يشأ جَعْلَ الكُلِّ أُمَّةً واحدةً، بل جعلهم فريقين، وإنما قيل: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ⑧﴾ وكان الظاهرُ أن يقال: ويُدخل مَن يشاء في عذابه ونِقمته، للإيذان بأنَّ الإدخالَ في العذابِ من جهة الداخِلين بموجب سوء اختيارهم، لا من جهته عزَّ وجل كما في الإدخال في الرحمة.

= فلمّا دنوت تسدَّيتُها فثوباً نسيت وثوباً أجرّ

(١) البحر المحيط ٧/ ٥٠٩.

(٢) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ١٢١.

واختار الزمخشري[1] كون المراد: أمةً واحدةً مؤمنين، وهو ما قاله مقاتل: على دين الإسلام، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٣٥] وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: ١٣] والمعنى: ولو شاء اللهُ تعالى مشيئةَ قُدرةٍ لَقَسرهم على الإيمان، ولكنه سبحانه شاء مشيئةَ حِكمة، وكلَّفهم وبنى أمرهم على ما يختارون لِيُدخلَ المؤمنين في رحمته، وهم المرادون بقوله تعالى: «من يشاء» وترك الظالمين بغير وليّ ولا نصير، والكلامُ متعلِّقٌ بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الآية: ٦] كالتعليل للنهي عن شِدَّة حِرْصه ﷺ على إيمانهم، فـ «الظالمون» مُظهَرٌ أُقيم مُقام ضمير المُتَّخِذين لِيُفيدَ أنَّ ظُلمهم علَّةٌ لما بعده، أوهو للجنس ويتناولهم تناولاً أولياً، وعدلَ عن الظاهر إلى ما في النظم الجليل - إذ الكلامُ في الإنذار، وهو أبلغُ في تخويفهم - لإشعاره بأنَّ كونهم في العذاب أمرٌ مفروغٌ منه، وإنما الكلامُ في أنه بعد تَحتُّمه هل لهم من يُخلِّصهم بالدَّفْع أوالرفع، فإذا نفى ذلك عُلم أنهم في عذابٍ لا خَلاص منه.

وتُعقِّب بأنَّ فرضَ جَعْلِ الكُلِّ مؤمنين يأباه تصديرُ الاستدراك بإدخال بعضهم في رحمته تعالى، إذ الكُلُّ حينئذ داخلون فيها، فكان المناسبُ حينئذ تصديرَه بإخراج بعضهم من بينهم وإدخالهم في عذابه.

وربما يقال: حيث إن الآيةَ متعلِّقةٌ بما سمعتَ كان المرادُ: ولو شاء اللهُ تعالى لجعلَ الجميعَ مؤمنين كما تُريد وتَحرِصُ عليه، ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك، بل جعل بعضَهم مؤمناً كما أردتَ، وجعل بعضَهم الآخر - وهم أولئك المُتخِذون من دونه أولياءَ - كُفَّاراً لا خَلاصَ لهم من العذاب حسبما تقتضيهِ الحِكمةُ، وكان التصديرُ بما صدّر به مناسباً كما لا يخفى على من له ذوقٌ بأساليبِ الكلام، إلا أن الظاهرَ على هذا: أَدخل مَنْ شاء، دون: يُدخِلُ مَنْ يشاء، لكن عدل عنه إليه حكايةً للحال الماضية.

---

(١) في الكشاف ٣/ ٤٦١.

وقال شيخُ الإسلام[١]: الذي يقتضيه سياقُ النظم الكريم وسياقُه أنْ يُرادَ الاتحادُ في الكُفر كما في قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ الآية [البقرة: ٢١٣] على أحد الوجهين، فالمعنى: ولو شاء اللهُ تعالى لَجعلهم أمةً واحدةً مُتَّفقةً على الكُفر بأنْ لا يُرسلَ إليهم رسولاً لِيُنذرهم ما ذُكِرَ من يومِ الجَمْع وما فيه من ألوان الأهوال، فيبقوا على ما هم عليه من الكُفر، ولكن يُدخِل مَنْ يشاء في رحمته سبحانه، أي: شأنُه عزَّ شأنه ذلك فَيُرسل إلى الكُلِّ مَنْ يُنذرهم ما ذُكِرَ، فيتأثَّر بعضُهم بالإنذار، فيصرفون اختيارَهم إلى الحقِّ فَيُوَفِّقهم اللهُ تعالى للإيمان والطاعات، ويُدخِلهم في رحمته عزَّ وجل، ولا يتأثَّر به الآخرون ويتمادَوْن في غيِّهم، وهم الظالمون، فيبقَوْن في الدنيا على ما هم عليه من الكُفر، ويصيرون في الآخرة إلى السعير من غير وليٍّ يلي أمْرَهم ولا نصيرٍ يُخلِّصهم من العذاب. انتهى.

ولا يخفى أنَّ بين قوله تعالى: (كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً) الآية، وقوله سبحانه: (وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً) بالمعنى الذي اختاره هنا فيهما نوعَ تَنافٍ، فتدبَّر جميعَ ذلك، والله تعالى المُوفِّق.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ جملة مستأنفة مُقرِّرة لما قبلها من انتفاء أن يكون للظالمين وليٌّ أو نصير.

وكلامُ «الكشاف»[٢] يُومِئ إلى أنه متصلٌ بقوله تعالى: «والذين اتخذوا» إلخ، على معنى: دَع الاهتمامَ بشأنهم واقطَع الطمعَ في إيمانهم، وكيتَ وكيتَ، أليسوا الذين اتَّخذوا من دون الله تعالى أولياءَ؟! وهو سبحانه الوليُّ الحقيقيُّ القادرُ على كلِّ شيء، وعدلوا عنه عز وجل إلى ما لا نسبةَ بينه تعالى وبينه أصلاً، وأن قولَه سبحانه: (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ) الآية اعتراضٌ مُؤكِّد لمضمون الآيتين.

و«أم» على القولين منقطعة، وهي تُقدَّر في الأغلب بِبَلْ والهمزة، وقدَّرها جماعةٌ هنا بهما إلا أنَّ بل على القول الثاني للإضراب، وعلى القول الأول للانتقال

(١) هو أبو السعود في تفسيره ٨/ ٢٣.
(٢) ٣/ ٤٦١.

من بيان ما قبلَها إلى بيان ما بعدَها، والهمزة قيل: لإنكار الواقع واستقباحه، وقيل: لا بل لإنكار الوقوع ونَفْيه على أبلغِ وجه وآكدِه، إذ المرادُ بيانُ أن ما فعلَوا ليس من اتخاذ الأولياء في شيء؛ لأنَّ ذلك فرعُ كون الأصنام أولياءَ، وهو أظهرُ المُمتنِعات، أي: بل اتَّخذوا مُتجاوزين اللهَ تعالى أولياءَ من الأصنام وغيرها.

﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾ قيل: هو جوابُ شرط مُقدَّر، أي: إنْ أرادوا وليّاً بحقٍّ فالله تعالى هو الوليُّ بحقٍّ، لا وليَّ بحقٍّ سواه عز وجل، وكونه جوابَ الشرط على معنى الإخبار ونحوه. وقال في «البحر»[1]: لا حاجةَ إلى اعتبار شرطٍ محذوف والكلامُ يَتِمُّ بدونه. ولعله يُريد ما قيل: إنه عطفٌ على ما قبلَه، أو إنه تعليلٌ للإنكار المأخوذ من الاستفهام، كقولك: أتضربُ زيداً فهو أخوك، أي: لا ينبغي لك ضربُه فإنه أخوك. وتُعقِّب بأنَّ المعروف في مثله استعمالُه بالواو، وإنما يحسن التعليل في صريح الإنكار، ولا يُناسب معنى المضي أيضاً.

﴿وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: شأنه ذلك نحو: فلانٌ يَقْري الضيفَ، ويَحمي الحريمَ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٩﴾ فهو سبحانه الحقيقُ بأنْ يُتَّخذ وليّاً، فَلْيخصُّوه بالاتِّخاذ دون مَن لا يقدِرُ على شيء ما أصلاً.

﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ﴾ إلى آخره حكايةٌ لقول رسول الله ﷺ للمؤمنين، أي: ما خالفكم الكُفَّار فيه من أمور الدين، كاتِّخاذ اللهِ تعالى وحدَه وليّاً، فاختلفتم أنتم وهم ﴿فَحُكْمُهُۥٓ﴾ راجعٌ ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ وهو إثابةُ المُحِقِّين وعقابُ المُبْطِلين.

ويجوز أن يكون كلاماً من جهته تعالى متضمِّناً التسليةَ، ويكون قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ إلخ بتقدير: قُلْ، والإمام[2] اعتبره من أول الكلام.

وأيًّا ما كان فالإشارةُ إليه تعالى من حيث اتّصافُه بما تقدَّم من الصفات ـ على ما قاله الطيبي ـ من كونه تعالى هو يُحيي الموتى، وكونه سبحانه على كلِّ شيء قدير، وكونه عزَّ وجلّ ما اختلفوا فيه فَحُكمه إليه.

---

(١) ٧/ ٥٠٩.

(٢) هو الرازي في تفسيره ٢٧/ ١٤٩.

وقال في «الإرشاد»: أي: ذلكم الحاكم العظيم الشأن ﴿ٱللَّهُ رَبِّي﴾ مالكي ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في مجامع أُموري خاصةً لا على غيره ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝١٠﴾ أرجعُ في كلِّ ما يَعِنُّ لي من مُعضِلات الأمور لا إلى أحد سواه، وحيث كان التوكّل أمراً واحداً مستمرّاً، والإنابةُ متعدِّدةٌ متجدِّدةٌ حسب تجدُّد موادِّها، أُوثر في الأول صيغةُ الماضي وفي الثاني صيغةُ المضارع.

وقيل: وما اختلفتم فيه وتنازعتُم من شيء من الخُصومات فتحاكموا فيه إلى رسول الله ﷺ، ولا تُؤثروا على حكومته حكومةَ غيره، كقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء:٥٩].

وقيل: وما اختلفتم فيه من شيء من تأويل آيةٍ واشتبه عليكم، فارجعوا في بيانه إلى المُحكَم من كتاب الله تعالى، والظاهرِ من سُنة رسولِ الله ﷺ.

وقيل: وما وقع بينكم الخلافُ فيه من العلوم التي لا تتعلَّق بتكليفكم ولا طريقَ لكم إلى عِلْمه فقولوا: اللهُ تعالى أعلم؛ كمعرفة الروح(١).

وأُورد على الكلِّ أنه مُخالف للسِّياق؛ لأن الكلام مسوقٌ للمشركين، وهو على ذلك مخصوصٌ بالمؤمنين.

وظاهرُ كلام الإمام(٢) اختيارُ الاختصاص، فإنه قال في وجه النَّظم الكريم: إنه تعالى كما منع رسولَه ﷺ أن يحمل الكُفَّار على الإيمان، كذلك منع المؤمنين أن يَشْرعوا معه في الخُصومات والمنازعات، وذكر أنه احتجَّ نُفاةُ القِياس به فقالوا: إما أن يكونَ المرادُ منه: وما اختلفتم فيه من شيء فحُكمه مستفادٌ من نصِّ الله تعالى، أو من القياس على ما نصَّ سبحانه عليه، والثاني باطل؛ لأنه يقتضي أن تكون كلُّ الأحكام مبنيةً على القياس، فتعيَّن الأول، ولِقائل أن يقولَ: لم لا يجوز أنْ يكون المرادُ: فحكمه معروفٌ من بيان الله تعالى سواء كان ذلك البيانُ بالنصّ أو بالقياس؟ وأُجيب عنه بأنَّ المقصودَ من التحاكم إلى الله تعالى قَطْعُ الاختلاف؛

(١) إرشاد العقل السليم ٨/ ٢٤.
(٢) هو الرازي في تفسيره ٢٧/ ١٤٩.

لقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ﴾، والرجوعُ إلى القياس مما يُقوِّي الاختلاف، فوجب الرجوعُ إلى النصوص. اهـ.

وأنت تعلم أنَّ النصوصَ غيرُ كافيةٍ في جميع الأحكام، وأن الآيةَ على ما سمعتَ أولاً مما لا يكادُ يصِحُّ الاستدلالُ بها على هذا المطلبِ من أول الأمر.

وفي «الكشاف»: لا يجوز حملُ الاختلاف فيها على اختلافِ المجتهدين في أحكام الشريعة؛ لأن الاجتهادَ لا يجوز بحضرة الرسول ﷺ[1].

ولا يخفى عليك أن هذه المسألة مُختلَفٌ فيها، فقال الأكثرون بجواز الاجتهاد المذكور عقلاً، ومنهم من أحاله. ثم المُجوِّزون منهم مَن مَنَعَ وقوعَ التعبُّد به، وهو مذهب أبي علي وابنه أبي هاشم[2]، وإليه ذهب صاحب «الكشاف»، وذِكْر ما يخالفه نقلٌ لمذهب الغير، وإنْ لم يُعقِّبه بردّ كما هو عادتُه في الأكثر، ومنهم من ادَّعى الوقوعَ ظنّاً، ومنهم مَن جَزَمَ بالوقوع، وقيل: إنه الأصح عند الأصوليين، ومنهم من توقَّف، والبحثُ فيها مستوفًى في أصول الفقه.

والذي نقوله هنا: إن الاستدلالَ بالآية على مَنْعه لا يكاد يَتِمُّ، وأقلُّ ما يقال فيه: إنه استدلالٌ بما فيه احتمال.

وقوله تعالى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خبرٌ آخر لـ «ذلكم»، أوخبر لمبتدأ محذوف، أي: هو فاطرُ، أوصفةٌ لـ «ربِّي»، أوبدلٌ منه، أومبتدأ خبره ﴿جَعَلَ لَكُم﴾.

وقرأ زيدُ بن علي رضي الله عنهما بالجر على أنه بدل من ضمير «إليه» أو«عليه»[3]، أو وصفٌ للاسم الجليل في قوله تعالى: «إلى الله» وما بينهما جملةٌ معترضة بين الصِّفة والموصوف.

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٦٢.

(٢) أبو علي: هو محمد بن عبد الوهاب البصري، شيخ المعتزلة، وصاحب التصانيف، منها كتاب الأصول، وكتاب الاجتهاد، وكتاب التفسير الكبير. مات سنة (٣٠٣هـ). وابنه أبو هاشم ـ واسمه عبد السلام ـ من كبار الأذكياء، أخذ عن والده، له كتاب الجامع الكبير. مات سنة (٣٢١هـ). السير ١٤/ ١٨٣ و١٥/ ٦٣.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٥٠٩.

وقد تقدَّم معنى «فاطر». و«جعل» أي: خلق ﴿مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ من جنسكم ﴿أَزۡوَٰجًا﴾ نساءً. وتقديمُ الجار والمجرور على المفعول الصريح لِمَا مرَّ غيرَ مرَّة.

﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجًا﴾ أي: وخلق للأنعام من جنسها أزواجاً كما خلقَ لكم من أنفسكم أزواجاً، ففيه جملةٌ مُقدَّرة لدلالة القرينة، أو: وخلقَ لكم من الأنعام أصنافاً، أو ذكوراً وإناثاً.

﴿يَذۡرَؤُكُمۡ﴾ يُكثِّركم؛ يقال: ذرأ اللهُ تعالى الخَلْقَ: بَثَّهم وكَثَّرهم، والذرء والذَّرُّ أخوان ﴿فِيهِۚ﴾ أي: فيما ذُكر من التدبير، وهو أنْ جعلَ سبحانه للناس والأنعام أزواجاً يكون بينهم توالدٌ، وجعل التكثُّر في هذا الجَعْل لوقوعه في خلاله وأثنائه، فهو كالمنبع له. ويجوز أن تكون «في» للسببية.

وغُلِّب في «يذرؤكم» المُخاطَبون العُقَلاء على الغُيَّبِ مما لا يعقل، فهناك تغليبٌ واحدٌ اشتمل على جهتي تغليب، وذلك لأنَّ الأنعامَ غائبٌ غيرُ عاقل، فإذا أُدخلت في خطاب العُقَلاء كان فيه تغليبُ العقل والخطاب معاً، وهذا التغليب ـ أعني التغليبَ لأجل الخطابِ والعقل ـ من الأحكام ذاتِ العلَّتين، وهما هنا الخطابُ والعقل، وهذا هو الذي عناه جارُ الله[1]، وهو مما لا بأسَ فيه؛ لأن العلَّةَ ليست حقيقةً.

وزَعْمُ ابن المُنَيِّر[2] أن الصحيحَ أنهما حُكمان مُتباينان غير مُتداخِلين، أحدهما: مجيئه على نعت ضمير العُقلاء أعمّ من كونه مُخاطباً أوغائباً، والثاني: مجيئه بعد ذلك على نَعْت الخطاب، فالأول لِتغليبِ العقل، والثاني لِتغليب الخِطاب = ليس بشيء، ولا يُحتاج إليه.

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٦٢، وقول الزمخشري هو: والضمير في يذرؤكم يرجع إلى المخاطبين والأنعام مغلَّباً فيه المخاطبون العقلاء على الغيَّب مما لا يعقل، وهي من الأحكام ذات العلتين.

(٢) في الانتصاف ٣/ ٤٦٢.

وكلامُ صاحب «المفتاح» يحتمل اعتبار تغليبين: أحدهما: تغليب المُخاطبين على الغُيَّب، وثانيهما: تغليبُ العُقَلاء على ما لا يَعقل[١].

وقال الطيبي: إن المقامَ يأبى ذلك؛ لأنه يُؤدِّي إلى أنَّ الأصل: يذرؤكم ويذرؤها ويذرؤكنّ ويذرؤها، لكن الأصل: يذرؤكم ويذرؤها لا غير؛ لأنَّ «كُم» في «يذرؤكم» هو «كُم» في «جعلَ لكم مِنْ أنفسكم أَزواجاً» بعينه، لكن غُلِّب هاهنا على الغُيَّب، فليس في يذرؤكم إلا تغليبٌ واحد. انتهى.

ثم إنه لا ينبغي أن يقال: إنَّ التذرئة حكمٌ عُلِّل في الآية بعلَّتين، إحداهما: جَعْلُ الناس أزواجاً، والثانية: جعل الأنعام أزواجاً، ويجوز أن يكون هو الذي عناه جارُ الله؛ لأن الحُكمَ هو البثُّ المطلق، وعلَّته المجموع، وإن جُعِلَ كلُّ جزء منه علةً فكلُّ بَثٍّ حكمٌ أيضاً، فأين الحكمُ الواحد المُتعدِّد عِلَّته؟ فافهم.

وعن ابن عباس أن معنى «يذرؤكم فيه»: يجعل لكم فيه معيشةً تعيشون بها[٢]. وقريبٌ منه قولُ ابن زيد: يرزقُكم فيه. والظاهر عليه أن الضميرَ لجَعْل الأزواج من الأنعام.

وقال مجاهد: أي: يخلقُكم نسلاً بعد نَسْل، وقَرْناً بعد قَرْن، ويتبادرُ منه أن الضميرَ للجَعْل المفهوم من «جعلَ لكم من أنفسكم أزواجاً» ويجوز أن يكون كما في الوجه الأول، ويُفهم منه أنَّ الذَّرْءَ أخصُّ من الخَلْق، وبه صرَّح ابنُ عطية[٣]، قال: ولفظةُ ذرأ تزيدُ على لفظة خَلَق معنًى آخرَ ليس في خَلَق، وهو توالي الطَّبقات على مرِّ الزمان.

وقال القتبي[٤]: ضمير «فيه» للبطن، لأنه في حُكم المذكور، والمرادُ: يخلقكم في بطون الإناث. وفي روايةٍ عن ابن زيد أنه لِمَا خلق من السماوات والأرض، وهو كما ترى، ومثلُه ما قبلَه، والله تعالى أعلم.

---

(١) مفتاح العلوم ص٢٤٢-٢٤٣.
(٢) أخرجه الطبري ٢٠/٤٧٦.
(٣) في المحرر الوجيز ٥/٢٨.
(٤) في تفسير غريب القرآن ص٣٩١، وينظر تفسير القرطبي ١٨/٤٤٩.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ نفي للمشابهة من كلِّ وجه، ويدخل في ذلك نفيُ أن يكونَ مثلَه سبحانه شيءٌ يُزاوجه عز وجل، وهو وجهُ ارتباط هذه الآيةِ بما قبلها، أوالمرادُ: ليس مِثْلَه تعالى شيءٌ في الشؤون التي من جُملتها التدبيرُ البديع السابق، فترتبطُ بما قبلها أيضاً.

والمرادُ من «مثله»: ذاتُه تعالى، فلا فرقَ بين: ليس كذاتِهِ شيء، و: ليس كمثله شيء، في المعنى، إلا أن الثاني كنايةٌ مشتملة على مُبالغة، وهي أن المُماثلة مَنْفيةٌ عمن يكون مثلَه وعلى صفته، فكيف عن نَفْسه؟ وهذا لا يستلزم وجودَ المِثْل، إذ الفرضُ كافٍ في المبالغة، ومثل هذا شائعٌ في كلام العرب نحو قول أَوْس بن حَجَر:

ليس كمثلِ الفتى زهيرٍ خلقٌ يُوازيه في الفضائل[1]

وقول الآخر:

وقَتْلى كمثلِ جذوع النخيلِ تَغَشَّاهم مُسْبِلٌ مُنْهمر[2]

وقول الآخر:

سعد بن زيد إذا أبصرتَ فَضْلَهُمُ ما إن كمِثْلهمُ في الناس من أحد[3]

وقد ذكر ابنُ قتيبة[4] وغيره أنَّ العرب تُقيم المِثْل مقامَ النَّفس، فتقول: مِثْلُك لا يَبْخَل، وهي تُريد: أنت لا تَبْخَل، أي: على سبيل الكناية، وقد سمعتَ فائدتها. وفي «الكشف» أنها الدلالة على فَضْل إثباتٍ لذلك الحُكم المطلوب وتمكينه، وذلك لوجهين؛ أحدهما: أنه فرضٌ جامعٌ يقتضي ذلك، فإذا قلتَ: مثلُك لا يبخل، دلَّ على أنَّ مُوجب عدم البخل موجودٌ، بخلافه إذا قلت: أنت لا تبخل. والثاني: أنه إذا جُعل من جماعةٍ لا يبخلون يكون أدلَّ على عدم البخل لأنه جعل معدوداً من

(١) ليس في ديوانه، وأورده أبو حيان في البحر المحيط ٧/ ٥١٠.
(٢) قائله أوس بن حجر، وهو في ديوانه ص٣٠، والبحر ٧/ ٥١٠.
(٣) لم نهتد إلى قائله، وهو في تفسير الطبري ٢٠/ ٤٧٧، والبحر المحيط ٧/ ٥١٠.
(٤) في تفسير غريب القرآن ص٣٩١.

جُملتهم، ومن ذلك قولهم: قد أَيفعت لِداته، أي: أترابُه وأمثالُه في السِّن، وقولُ رُقَيْقة بنت أبي صَيْفي بن هاشم في سُقيا عبد المطلب: ألا وفيهم الطَّيِّبُ الطاهر لِداته، تعني رسولَ الله ﷺ، إلى غير ذلك.

وقيل: إنَّ مِثْلاً بمعنى الصِّفة وشيئاً عبارة عنها أيضاً، حكاه الراغب(١)، ثم قال: والمعنى: ليس كصفته تعالى صفةٌ؛ تنبيهاً على أنه تعالى وإن وُصف بكثير مما يوصف به البشر، فليست تلك الصِّفاتُ له عز وجل حسبَ ما يُستعمل في البشر.

وذهب الطبري وغيره إلى أنَّ مِثْلاً زائدةٌ للتأكيدِ(٢)، كالكاف في قوله:

بالأمس كانوا في رخاء مأمولْ ... فأصبحت مثلَ كَعصفٍ مأكولْ(٣)

وقول آخر:

أَهَلْ عرفْتَ الدار بالغَريَّيْنْ ... وصالياتٍ كَكما يُؤَثْفَيْنْ(٤)

وتعقَّبه أبو حيان(٥) بأنه ليس بجيد؛ لأنَّ مِثْلاً اسمٌ، والأسماء لا تُزاد، بخلاف الكاف، فإنها حرفٌ فتصلح للزيادة.

ونُسب إلى الزجاج(٦) وابن جني والأكثرين القولُ بأنَّ الكافَ زائدةٌ للتأكيد،

---

(١) في مفردات ألفاظ القرآن ص٧٥٩.
(٢) تفسير الطبري ٢٠/ ٤٧٦-٤٧٧، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٧/ ٥١٠.
(٣) لم نقف على البيت الأول، والبيت الثاني لرؤبة، وهو في ملحق ديوانه ص١٨١ بلفظ: فصُيِّروا مثل...، وسلف ١/ ٤٦٠.
(٤) الرجز لخطام المجاشعي، وهو في اللسان (غرا) كما يلي:

أَهَلْ عرفْتَ الدار بالغَريَّيْنْ ... لم يبق من آيٍ بها يُحلَّيْنْ
غير خطامٍ ورمادٍ كِنْفَيْنْ ... وصالياتٍ ككما يُؤَثْفَيْنْ

والثاني في الكتاب ١/ ٣٢، والخزانة ٢/ ٣١٣. والغَريَّان قال ابن بري كما في اللسان (غرا): هما بناءان طويلان سُمِّيا بالغريين لأن النعمان بن المنذر كان يُغرِّيهما بدم من يقتله في يوم بؤسه.
(٥) في البحر المحيط ٧/ ٥١٠.
(٦) في معاني القرآن ٤/ ٣٩٥.

وردَّه ابنُ المُنَيِّر[١] بأنَّ الكاف تُفيد تأكيدَ التشبيه لا تأكيدَ النفي، ونفيُ المُماثلة المهملة أبلغُ من نَفْي المُماثلة المؤكَّدة، فليست الآيةُ نظيرَ شَطْري البيتين. ويقال نحوُه فيما نُقل عن الطبري ومن معه.

وأُجيب: بأنه يُفيد تأكيدَ التشبيه إنْ سلباً فسلب وإنْ إثباتاً فإثبات، فيندفع ما أُورد. نعم الأول هو الوجه، والمِثْل قال الراغب: أعمُّ الألفاظِ الموضوعة للمشابهة وذاك أنَّ النِّدَّ يقال لما يُشارِك في الجوهر فقط، والشِّبه لما يُشارِك في الكَيْفية فقط، والمُساوي لما يُشارِك في الكمية فقط، والشَّكل لما يُشارِك في القَدْر والمساحة فقط، والمِثْل عامٌّ في جميع ذلك، ولهذا لمَّا أراد اللهُ تعالى نفيَ الشِّبه من كلِّ وجه خصَّه سبحانه بالذِّكر[٢].

وذكر الإمام الرازي[٣] أن المِثْلين عند المُتكلِّمين هما اللذان يقوم كلٌّ منهما مقامَ الآخر في حقيقته وماهيته، وحَمَل المِثْل في الآية على ذلك، أي: لا يُساوي اللهَ تعالى في حقيقة الذاتِ شيءٌ، وقال: لا يصحُّ أن يكون المعنى: ليس كمثله تعالى في الصفات شيء؛ لأن العباد يُوصفون بكونهم عالِمين قادِرين، كما أنَّ اللهَ تعالى يُوصف بذلك، وكذا يوصفون بكونهم معلومِين مذكورين مع أنَّ اللهَ تعالى يوصف بذلك، وأطال الكلامَ في هذا المقام، وفي القلبِ منه شيء.

وفي «شرح جوهرة التوحيد»: اعلَمْ أن قُدَماء المعتزلة كالجُبَّائي وابنه أبي هاشم ذهبوا إلى أن المُماثلة هي المُشاركة في أخصِّ صفاتِ النفس، فمماثلةُ زيدٍ لعمرو مَثَلاً عندهم مشاركتُه إيَّاه في الناطقية فقط، وذهب المُحقِّقون من الماتُريدية إلى أن المُماثلة هي الاشتراكُ في الصفات النفسية كالحيوانية والناطقية لزيد وعمرو. ومِن لازمِ الاشتراكِ في الصفة النفسية أمران؛ أحدُهما: الاشتراكُ فيما يجب ويجوز ويمتنع. وثانيهما: أنْ يسدَّ كلٌّ منهما مَسَدَّ الآخر. والمُتماثلان وإن اشتركا في الصفات النفسية لكن لابدَّ من اختلافهما بجهة أُخرى ليتحقَّق

---

(١) في الانتصاف ٣/ ٤٦٣.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن ص٧٥٩.

(٣) في تفسيره ٢٧/ ١٥٠.

التعدُّد والتمايز فيصح التماثُل. ونُسب إلى الأشعري أنه يشترط في التماثل التساوي من كلٍّ وجه.

واعتُرض بأنه لا تعدُّد حينئذ فلا تماثل، وبأنَّ أهلَ اللغة مُطبقون على صحة قولنا: زيدٌ مِثْلُ عمرو في الفقه، إذا كان يُساويه فيه ويسدُّ مَسَدَّه وإن اختلف في كثير من الأوصاف، وفي الحديث: «الحِنطةُ بالحِنطة مِثْلاً بمثْل»[1] وأُريد به الاستواء في الكيل دون الوزنِ وعَدَدِ الحبَّات وأوصافها. ويُمكن أن يُجابَ بأنَّ مُرادَه التساوي في الوجه الذي به التماثُل حتى إن زيداً وعمراً لو اشتركا في الفقه وكان بينهما مساواةٌ فيه بحيث ينوبُ أحدُهما مَنابَ الآخر صحَّ القولُ بأنهما مِثْلان فيه وإلا فلا، فلا يُخالِفُ مذهبَ الماتُريدية. وفيه أيضاً أنه عز وجل ليس له سبحانه مُماثِلٌ في ذاته وصفاته فلا يسدُّ مَسَدَّ ذاته تعالى ذاتٌ، ولا مَسَدَّ صفته - جَلَّتْ صِفَتُه - صفةٌ، والمرادُ بالصفة الصفةُ الحقيقية الوجودية، ومن هنا تَعلم ما في قولِ الإمام: لا يصحُّ أن يكون المعنى: ليس كمثله تعالى في الصفات شيء؛ لأنَّ العباد يُوصفون بكونهم عالمين قادِرين، كما أن الله سبحانه يُوصف بذلك. فإنَّ معنى ذلك أنه تعالى ليس مِثْل صفتِهِ سبحانه صفة، ومن المعلوم البيِّن أنَّ علمَ العِباد وقُدرتهم ليسا مِثْلَ علم الله عز وجل وقُدرته جل وعلا، أي: ليسا سادَّين مَسَدَّهما، وأما كونه تعالى مذكوراً ونحوه فهو ليس من الصِّفات المُعتبرة القائمة بذاته تعالى كما لا يخفى.

وزعم جهمُ بن صفوان أن المقصودَ من هذه الآية بيانُ أنه تعالى ليس مسمًّى باسم الشيء؛ لأن كلَّ شيء فإنه يكون مِثْلاً لمثْلِ نَفْسه، فقوله تعالى: «ليس كمثله شيء» معناه ليس مِثْل مِثْلهِ شيء، وذلك يقتضي أن لا يكون هو سبحانه مسمًّى باسم الشيء[2]. فلم يجعل المِثْل كنايةً عن الذات على ما سمعتَ، ولا حَكَم بزيادته، ولا بزيادة الكاف، ومع هذا وإغماضِ العين عما في كلامه لا يَتِمُّ له مقصودُه، إذْ لنا أن نجعلَ ليس مِثْل مِثْله شيء نفياً للمِثْل على سبيل الكناية أيضاً لكن بوجه آخرَ،

---

(١) أخرجه أحمد (٧١٧١)، ومسلم (١٥٨٨) من حديث أبي هريرة ﷺ، وأخرجه البخاري (٢١٧٤)، ومسلم (١٥٨٤) من حديث عمر ﷺ بلفظ: «... البُرُّ بالبُرِّ...».

(٢) ذكر قول جهم الرازي في تفسيره ٢٧/ ١٥٣.

وهو أنه نفيٌ للشيء بنفي لازمِهِ؛ لأن نفيَ اللازم يستلزمُ نفيَ الملزوم، كما يقال: ليس لأخي زيدٍ أخٌ؛ فأخو زيد ملزومٌ، والأخُ لازمُه؛ لأنه لابدَّ لأخي زيد من أخٍ هو زيدٌ، فنفيت هذا اللازمَ والمرادُ نفيُ ملزومه، أي: ليس لزيد أخٌ، إذْ لو كان له أخٌ لكان لذلك الأخ أخٌ هو زيدٌ، فكذا نفيتَ أن يكونَ لِمِثْل الله تعالى مِثْلٌ والمرادُ نفي مِثْله سبحانه وتعالى؛ إذْ لو كان له مِثْلٌ لكان هو مِثْلَ مِثْلِهِ، إذ التقدير أنه موجودٌ، ومغايرتُه لما تقدَّم أنَّ مَبناهُ إثباتُ اللزوم بين وجود المِثْل ووجودِ مِثْل المِثْل ليكون نفيُ اللازم كنايةً عن نفي الملزوم من غير ملاحظةٍ والتفاتٍ إلى أنَّ حُكم الأمثالِ واحدٌ، وأنه يجري في النفي دون الإثبات، فإن نفي اللازم يستلزمُ نفيَ الملزوم دون العكس، بخلاف ما تقدَّم، فإنَّ مَبناه أنَّ حُكمَ المُتماثلين واحد وإلا لم يكونا مُتماثلين، ولا يُحتاج إلى إثبات اللزوم بين وجود المِثْل ومِثْل المِثْل، وأنه يجري في النفي والإثبات كما سمعتَ من الأمثلة، وليس ذاك من المذهب الكلامي في شيء؛ أما أولاً: فلأنه إيرادُ الحُجَّة، وليس في الآية إشعارٌ بها فضلاً عن الإيراد. وأما ثانياً: فلأنه حينئذ تكون الحُجَّةُ قياساً استثنائيّاً استثني فيه نقيضُ التالي هكذا: لو كان له سبحانه مِثْل لكان هو جل شأنه مِثْلَ مِثْلِهِ، لكنه ليس مِثْلاً لمثلِهِ، فلا بدَّ من بيان بطلانِ التالي حتى تَتِمَّ الحُجَّة، إذ ليس بيِّناً بنفسه، بل وجودُ المِثْل ووجودُ مِثْل المِثْل في مرتبةٍ واحدة في العلم والجهل، لا يجوزُ جَعْلُ أحدِهما دليلاً على الآخر، لكن قيل: إنَّ المفهومَ من: ليس مِثْلَ مِثْلِه شيء، على ذلك التقدير، نفيُ أن يكون مِثْلٌ لمثله سواه تعالى بقرينة الإضافة، كما أنَّ المفهومَ من قول المُتكلِّم: إنْ دخل داري أحدٌ فكذا، غيرُ المُتكلِّم، وأيضاً لا نُسلِّم أنه لو وُجِدَ له سبحانه مِثْلٌ لكان هو جلَّ وعلا مِثْلَ مِثْله؛ لأن وجودَ مِثْله سبحانه مُحال، والمُحال جاز أنْ يستلزم المُحال.

وأُجيب عن الأول: أن اسمَ «ليس»: «شيءٌ»، وهو نكرةٌ في سِياق النفي، فتعمُّ الآيةُ نفيَ شيء يكون مِثْلاً لمثله، ولا شكَّ أنه على تقدير وجودِ المِثْل يَصْدُقُ عليه أنه شيءٌ مِثْلٌ لمثله، والإضافةُ لا تقتضي خروجَه عن عموم شيء بخلاف المِثال المذكور، فإنَّ القرينَة العقلية دلَّت على تخصيص أحدٍ بغير المتكلِّم؛ لأن مقصودَه المنعُ عن دخول الغير.

وعن الثاني: أن وجودَ المِثْل لشيء مطلقاً يستلزمُ المِثْلَ مع قَطْع النظر عن خصوصية ذلك الشيء، وذلك بيِّنٌ، فالمنع بتجويز أن يكون لذاته تعالى مِثْلٌ ولا يكون هو سبحانه مِثْلاً لمثله مُكابرةٌ.

ثم إنَّ هذا الوجه لِكَثْرة ما فيه من القِيل والقال بالنسبة إلى غيره من الأوجه السابقة لم نذكره عند ذِكْرها، وهو على عِلَّاته أحسنُ من القول بالزيادة كما لا يخفى على مَن وفَّقه الله عز وجل.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ المُدرِك إدراكاً تامّاً لا على طريق التخيُّل والتوهُّم لجميع المَسموعات، ولا على طريق تأثُّر حاسَّة، ولا وصولِ هواء ﴿ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ المُدرِك إدراكاً تامّاً لجميع المُبْصَرات أوالموجودات لا على سبيل التخيُّل والتوهُّم، ولا على طريق تأثُّر حاسَّة ولا وصولِ شُعاع، فالسمعُ والبصر صِفتان غيرُ العلم على ما هو الظاهر، وأَرجَعَهما بعضُهم إلى صفة العلم، وتمامُ الكلامِ على ذلك في الكلام.

وقدَّم سبحانه نفيَ المِثْل على إثبات السَّمع والبصر؛ لأنه أهمُّ في نفسه وبالنظر إلى المُقام.

﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تقدَّم تفسيره في سورة «الزمر»[1]، وكذا قوله تعالى: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ وقرئ: «يُقدِّر» بالتشديد[2].

﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ مبالغ في الإحاطة به، فيفعل كلَّ ما يفعل جل شأنه على ما ينبغي أن يُفعل عليه، والجملة تعليلٌ لما قبلها وتمهيدٌ لما بعدَها من قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ وإيذانٌ بأنَّ ما شرع سبحانه لهم صادرٌ عن كَمال العلم والحِكمة، كما أن بيانَ نسبته إلى المذكورين عليهم الصلاة والسلام تنبيهٌ على كونه ديناً قديماً أَجمع عليه الرُّسل.

---

(١) عند تفسير الآية (٦٣).

(٢) الكشاف ٣/ ٤٦٣.

والخِطاب لأمته عليه الصلاة والسلام، أي: شرع لكم من الدين ما وصَّى به نوحاً ومَن بعده من أرباب الشرائع وأُولي العزم من مشاهير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأَمَرهم به أمراً مُؤكَّدا. وتخصيصُ المذكورين بالذِّكر لما أُشير إليه من عُلوِّ شأنهم، وعِظَم شُهرتهم، ولاستمالةِ قلوب الكَفَرة إلى الاتّباع، لاتِّفاق كلٍّ على نبوة بعضهم، واختصاصِ اليهود بموسى عليه السلام، والنصارى بعيسى عليه السلام، وإلا فما من نبيٍّ إلا وهو مأمورٌ بما أُمروا به من إقامة دين الإسلام، وهو التوحيد، وما لا يختلف باختلاف الأمم وتبدُّل الأعصار من أصول الشرائع والأحكام كما يُنبئ عنه التوصية، فإنها مُعرِبة عن تأكيد الأمر والاعتناء بشأن المأمور به.

والمرادُ بإيحائه إليه ﷺ إما ما ذُكر في صدر السورة الكريمة وفي قوله تعالى: (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ) الآية، وإما ما يَعمُّهما وغيرهما مما وقع في سائر المواقع التي من جُملتها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣] وقوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠] وغير ذلك.

وإيثار الإيحاء على ما قبلَه وما بعده من التوصية لمراعاة ما وقع في الآيات المذكورة، ولِمَا في الإيحاء من التصريحِ برسالته عليه الصلاة والسلام القامع لإنكار الكَفَرة.

والالتفات إلى نون العظمة لإظهار كمالِ الاعتناء بإيحائه، وفي ذلك إشعارٌ بأنَّ شريعتَه ﷺ هي الشريعةُ المُعتنَى بها غايةَ الاعتناء، ولذا عبَّر فيها بـ «الذي» التي هي أصلُ الموصولات، وذلك هو السرُّ في تقديم الذي أُوحي إليه عليه الصلاة والسلام على ما بعدَه مع تقدُّمه عليه زماناً.

وتقديم توصيةِ نوح عليه السلام لِلمُسارعة إلى بيان كون المشروع لهم ديناً قديماً، وقد قيل: إنه عليه الصلاة والسلام أولُ الرُّسل. وتوجيهُ الخطاب إليه عليه الصلاة والسلام بطريق التلوين للتشريف والتنبيه على أنه تعالى شَرعه لهم على لسانه ﷺ.

﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾ أي: دين الإسلام الذي هو توحيدُ الله تعالى وطاعته والإيمان بكتُبه ورُسُله، وبيومِ الجزاء وسائرِ ما يكون العبدُ به مؤمناً. والمرادُ بإقامته تعديلُ أركانه وحِفْظُه من أنَ يقعَ فيه زيغٌ، والمواظبةُ عليه.

و«أنْ» مصدرية، وتقدَّم الكلامُ في وَصْلها بالأمر والنهي، أومُخفَّفة من الثقيلة لِمَا في «شرع» من معنى العلم، والمصدر إما منصوبٌ على أنه بدلٌ من مفعول «شرع» والمعطوفين عليه، أومرفوع على أنه خبرُ مبتدأ محذوف، أومبتدأ خبره محذوف، والجملةُ جوابٌ عن سؤال نشأ من إبهام المشروع، كأنه قيل: وما ذاك؟ فقيل: هو أنْ أقيموا الدين.

وقيل: هو مجرور على أنه بدل من ضمير «به»، ولا يلزمه بقاءُ الموصول بلا عائد؛ لأنَّ المُبدَلَ منه ليس في نية الطَّرح حقيقة، نعم قال شيخ الإسلام[1]: إنه ليس بذاك لما أنه مع إفضائه إلى خروجه عن حيِّز الإيحاء إلى النبي ﷺ مستلزمٌ لكون الخطاب في النهي الآتي عن التفرُّق للأنبياء المذكورين عليهم السلام، وتوجيهُ النهي إلى أُممهم تمحُّلٌ ظاهرٌ مع أنَّ الأظهرَ أنه متوجِّه إلى أُمَّته ﷺ، وأنهم المُتفرِّقون. ثم بيَّن ما استظهره، وسَنُشير إليه إن شاء الله تعالى.

وجوّز كونه بدلاً من «الدين».

ويجوز كون «أنْ» مُفسِّرة، فقد تقدَّمها ما يتضمَّن معنى القول دون حُروفه.

والخطابُ في «أقيموا» وقولِه تعالى: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ على ما اختاره غيرُ واحد من الأجِلَّة شاملٌ للنبي ﷺ وأَتباعه وللأنبياء والأُمم قَبْلَهم، وضميرُ «فيه» للدِّين، أي: ولا تتفرَّقوا في الدين الذي هو عبارةٌ عما تقدَّم من الأُصول بأنْ يأتي به بعضٌ ولا يأتي بعضٌ، ويأتي بعضٌ ببعض منه دون بعض، وهو مُرادُ مقاتل، أي: لا تختلفوا فيه، ولا يشملُ هذا النهيَ عن الاختلاف في الفروع، فإنها ليست من الأُصول المُرادة هنا، ولم يَتَّحِدْ بها النبيون كما يُؤذن بذلك قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ

(١) هو أبو السعود في تفسيره ٨/ ٢٦.

جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨] وبعضُهم أدخلَ بعضَ الفروع في أصول الدين المرادة هنا من الدين.

قال مجاهد: لم يُبعث نبيٌّ إلا أُمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإقرار بالله تعالى وطاعته سبحانه، وذلك إقامةُ الدين.

وقال الحافظ أبو بكر بن العربي: لم يكن مع آدمَ عليه السلام إلا بنوه، ولم يُفرضْ له الفرائض، ولا شُرعت له المحارم، وإنما كان مُنبّهاً على بعض الأمور، مُقتصراً على بعض ضروريات المَعاش، واستمرَّ الأمر إلى نوح عليه السلام، فبعثه اللهُ تعالى بتحريم الأمهات والبنات، ووظَّف عليه الواجبات، وأوضحَ له الأدبَ في الديانات، ولم يَزَلْ ذلك يتأكَّد بالرُّسل، ويتناصر بالأنبياء واحداً بعدَ واحد، وشريعةً إثر شريعة، حتى ختمه سبحانه بخير المِلل على لسان أكرمِ الرُّسل، فمعنى الآية: شرعنا لكم ما شرعنا للأنبياء ديناً واحداً في الأصول، وهي التوحيد والصلاة والزكاة والصيام والحج، والتقرُّب بصالح الأعمال، والصِّدق، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وتحريم الكِبْر والزِّنا، والإيذاءِ للخَلْق، والاعتداءِ على الحيوان، واقتحام الدَّناءات، وما يعود بخرم المروءات، فهذا كلُّه مشروعٌ ديناً واحداً، وملَّة متَّحدة، لم يختلف على ألسنة الأنبياء وإن اختلفَتْ أعدادُهم. ومعنى «أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه»: اجعلوه قائماً، أي: دائماً مستمرّاً من غير خلافٍ فيه ولا اضطراب[1]. انتهى.

ولعله أراد بالصلاة والزكاة والصيام والحجِّ مُطلَقَها لا ما نعرفه في شرعنا منها، فإن الصلواتِ الخمسَ والزكاةَ المخصوصةَ وصيامَ شهر رمضان من خواصِّ هذه الأُمّة على الصحيح، والظاهرُ أن حَجَّ البيت لم يُشرَعْ لأمة موسى وأُمةِ عيسى عليهما السلام، ولا لأكثر الأمم قبلَهما، على أنَّ الآيةَ مكيةٌ، ولم تُشرع الزكاةُ المعروفة وصيامُ رمضان إلا في المدينة، وبالجملة لا شكَّ في اختلاف الأديان في الفروع، نعم لا يبعدُ اتفاقُها فيما هو من مكارم الأخلاق واجتنابِ الرَّذائل.

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٥٤.

﴿كَبُرَ﴾ أي: عَظُم وشقَّ ﴿عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ على سبيل الاستمرار التجدُّدي من التوحيد ورفضِ عبادة الأصنام، ويشعرُ بإرادته التعبير بالمشركين، وهو أصلُ الأصول وأعظمُ ما شقَّ عليهم كما تُنبئ بذلك الآيات، أو: ما تدعوهم إليه من إقامةِ الدين وعدمِ التفرُّق فيه.

﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾ تسليةٌ له ﷺ بأنَّ منهم مَن يُجيب، و«يجتبي» من الاجتباء بمعنى الاصطفاء، والضميرُ في «إليه» لله تعالى كما ذكر مُحيي السنة[1] وغيرُه، وكذا الضمير في قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ⑬﴾ أي: يصطفي إليه سبحانه من يشاء اصطفاءه، ويُخصِّصه سبحانه بفيضٍ إلهيٍّ يتحصَّل له منه أنواعُ النِّعم، ويهدي إليه عز وجل بالإرشاد والتوفيق من يُقبل إليه تعالى شأنه، وعُدِّي الاجتباءُ بإلى لِمَا فيه من الجمع على ما يُفهم من كلامِ الراغب[2]، وجَعَله جمعٌ من الجِباية بمعنى الجمع يقال: جبيتُ الماءَ في الحوض: جمعته فيه، فمنهم مَن اختار جَعْلَ ضمير «إليه» في الموضعين لـ «ما»؛ لِمَا فيه من اتّساق الضمائر، أي: يجتلب ويجمع مَن يشاء اجتلابَه وجَمْعَه إلى ما تدعوهم إليه، ومنهم مَن اختار جَعْله للدِّين لمناسبةٍ معنوية هي اتِّحادُ المُتفرِّق فيه والمُجتمع عليه.

والزمخشري[3] اختار كونَه من الجباية بمعنى الجَمْع، وعودَ الضمير على الدِّين، وما ذكره مُحيي السنة وغيره؛ قال في «الكشف»: أظهرُ وأملأُ بالفائدة، أما الثاني: فللدلالةِ على أنَّ أهلَ الاجتباء غير أهل الاهتداء، وكلتا الطائفتين هم أهلُ الدِّين والتوحيد الذين لم يتفرَّقوا فيه، وعلى مُختاره طائفة واحدة. وأما الأول: فلأنَّ الاجتباءَ بمعنى الاصطفاء أكثرُ استعمالاً، ولأنه يدلُّ على أنَّ أهلَ الدِّين هم صفوةُ الله تعالى اجتباهم إليه واصطفاهم لنفسه سبحانه، وأما الذي آثره الزمخشري فكلامٌ ظاهري بناه على أنَّ الكلامَ في عدمِ التفرُّق في الدين، فناسبَ الجمعَ، والانتهاءَ إليه.

---

(١) هو البغوي في تفسيره ٤/ ١٢٢.
(٢) في مفردات ألفاظ القرآن (جبي).
(٣) في الكشاف ٣/ ٤٦٤.

وقيل: «ما تدعوهم إليه» على معنى: ما تدعوهم إلى الإيمان به، والمرادُ به الرسالة، أي: ثَقُلَتْ عليهم رسالتك، وعَظُم لديهم تخصيصنا إياك بالرسالة والوحي دونهم، وقولُه تعالى: «الله يجتبي إليه من يشاء» ردٌّ عليهم على نحو ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. وما قدَّمنا أظهرُ.

﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟﴾ - أي: أُمم الأنبياء بعد وفاةِ أنبيائهم كما في «الكشف» منذ بَعْثِ نوح عليه السلام - في الدِّين الذي دُعوا إليه، واختلفوا فيه في وقتٍ من الأوقات ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ من أنبيائهم بأنَّ الفرقةَ ضلالٌ وفسادٌ وأمرٌ متوعَّدٌ عليه؛ وهذا يُؤيِّد ما دلَّ عليه سابقاً من أن الأُمم القديمة والحديثة أُمروا باتّفاق الكلمةِ وإقامة الدِّين، والمرادُ بالعلم سببه مجازاً مُرسلاً، ويجوز أن يكون التجوُّز في الإسناد، وأن يكونَ الكلامُ بتقدير مضافٍ، أي: جاءهم سببُ العلم، وقد يقال: «جاء» مجازٌ عن حصل. والاستثناءُ على ما أشرنا إليه مُفرَّغ من أعمِّ الأوقات، وجوِّز أن يكونَ من أعمِّ الأحوال، أي: ما تفرَّقوا في حال من الأحوال إلا حالَ مجيء العلم.

﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ أي: عداوةً، على أنَّ البغيَ الظُّلمُ والتجاوز، والعداوةُ سببٌ له، وهي الداعي للتفرُّق، أوطلباً للدنيا والرِّياسة على أنَّ البغي مصدر بغى بمعنى طَلَب.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ هي عِدَتُه تعالى بترك مُعاجلتهم بالعذاب ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ معلومٍ له سبحانه، وهو يومُ القيامة، أو آخر أعمارهم المُقدَّرة لهم ﴿لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ باستئصال المبطلين حين افترقوا لِعِظَم ما اقترفوا.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ هم أهلُ الكتاب الذين كانوا في عهده ﷺ، وقرأ زيدُ بن علي: «وُرِّثُوا» مبنيّاً للمفعول مُشدَّدَ الواو[1].

﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ أي: من كتابهم، فلم يُؤمنوا به حقَّ الإيمان ﴿مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾ مُقْلِق، أومُدخِل في الرِّيبة.

والجملةُ اعتراضٌ يُؤكِّد أن تفرُّقهم ذلك باقٍ في أعقابهم، منضمّاً إليه الشكُّ في

---

(١) ذكرها أبو حيان في البحر المحيط ٧/ ٥١٣.

كتابهم مع انتسابهم إليه، فهم تفرَّقوا بعد العلم الحاصل لهم من النبي المبعوث إليهم، المُصدِّق لكتابهم، وتفرَّقوا قبلَه شكّاً في كتابهم، فلم يُؤمنوا به، ولم يُصدِّقوا حقَّه.

﴿فَلِذَٰلِكَ﴾ أي: إذا كان الأمرُ كما ذكر، فلأَجْل ذلك التفرُّق، ولِمَا حَدَث بسببه من تَشعُّب الكُفْر في الأُمم السالفة شُعباً ﴿فَٱدۡعُ﴾ إلى الائتلاف والاتِّفاق على المِلَّة الحنيفية القديمة ﴿وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ أي: اثبتْ على الدُّعاء كما أُوحي إليك.

وقيل: الإشارةُ إلى قوله تعالى: «شرع لكم» وما يتَّصل به، ونُقِل عن الواحدي(١)، أي: ولأَجْل ذلك من التوصيةِ التي شُورِكْتَ فيها مع نوح ومَن بعدَه، ولأَجْل ذلك الأمر بالإقامة، والنهي عن التفرُّق، فادعُ.

وما ذُكر أولاً أولى؛ لأن قولَه تعالى: ﴿أَنۡ أَقِيمُوا﴾ شَمِلَ النبيَّ عليه الصلاة والسلام وأتباعَه كما سمعت، ويدلُّ عليه «كَبُرَ على المُشركين ما تَدْعوهم إليه»، فقوله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُ﴾ إلخ لا يتسبَّب عنه؛ لِمَا يظهر من التكرار، وهو تفرُّع الأمرِ عن الأمر، وأما تسبُّبه عن تفرُّقهم فظاهرٌ على معنى: فلِما أحدَثوا من التفرُّق وأبدعوا فاثْبُتْ أنت على الدعاء الذي أُمرت به، واستقِمْ، وهذا ظاهرٌ للمتأمِّل.

ومن الناس مَن جعل المُشارَ إليه الشرع السابق، ولم يُدخل فيه الأمرَ بالإقامة لئلا يلزمَ التكرار، أي: فلأَجْل أنه شرعَ لهم الدِّين القويم القديم الحقيقَ بأنْ يتنافسَ فيه المتنافسون فادْعُ، وقيل: هو الكتاب. وقيل: هو العلم المذكور في قوله تعالى: «جاءهم العلم». وقيل: هو الشكُّ، ورُجِّح بالقُرب، وليس بذاك.

واللامُ على جميع الأقوال المذكورة للتعليل، وقيل ـ على بعضها ـ: هي بمعنى «إلى» صلةُ الدُّعاء، فما بعدَها هو المَدْعوُّ إليه. وأنت تعلم أنه لا حاجةَ في إرادة ذلك إلى جَعْلها بمعنى إلى، فإنَ الدعاءَ يتعدَّى بها أيضاً كما في قوله:

---

(١) ينظر الوسيط ٤/ ٤٧.

دَعــوتُ لِــمَــا نــابَــنــي مِــسْــوراً[1]

ونُقل ذلك عن الفراء[2] والزجاج[3]، وأيّاً ما كان فالفاءُ الأُولى واقعةٌ في جواب شرط مقدَّر كما أشرنا إليه، والفاء الثانية مُؤَكِّدةٌ للأُولى.

وقيل: كان الناسُ بعد الطُّوفان أمةً واحدة مُوَحِّدين، فاختلف أبناؤهم بعد موتهم حين بعثَ اللهُ تعالى النبيِّين مُبشِّرين ومُنذرين، وجعل ضمير «تفرَّقوا» لأخلاف أولئك المُوحِّدين و«الذين أورثوا الكتاب» باقٍ على ما تقدَّم. والأولُ أظهر.

وقيل: ضمير «تفرَّقوا» لأهل الكتاب، تفرَّقوا من بعد ما جاءهم العلم بمبعثِ النبيِّ ﷺ، فهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ٤] وإنما تفرَّقوا حسداً له عليه الصلاة والسلام، لا لِشُبهة، والمرادُ بـ «الذين أُورثوا الكتابَ من بعدهم» مُشركو مكةَ وأحزابهم؛ لأنهم أُورثوا القرآنَ، فالكتابُ القرآنُ، وضميرُ «منه» له، وقيل: للرسول، وهو خِلافُ الظاهر.

واختار كونَ المُتفرِّقين أهلَ الكتاب اليهود والنصارى، والمُورَّثين الشاكِّين مُشركي مكة وأحزابهم شيخُ الإسلام، واستظهر أنَّ الخطابَ في «أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه» لأمته ﷺ، وتعقَّب القولَ بكون المتفرِّق كلَّ أمة بعد نبيِّها، والقولَ بكونه أخلافَ المُوحِّدين الذين كانوا بعد الطُّوفان، فقال: يردُّ ذلك قولُه تعالى: (وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ) فإنَّ مشاهيرَ الأُمم المذكورة قد أصابهم عذابُ الاستئصال من غير إنظار وإمهال، على أنَّ مَساقَ النظم الكريم لبيان أحوال هذه الأمة، وإنما ذُكِر مَن ذُكِرَ من الأنبياء عليهم السلام لتحقيق أنَّ ما شُرع لهؤلاء دينٌ قديم أَجمع عليه أولئك الأعلام عليهم الصلاة والسلام تأكيداً

(١) كتاب سيبويه ١/ ٣٥٢، والخزانة ٢/ ٩٢، وعجزه: فلبَّي فلبَّيْ يَدَي مسورِ. قال السيوطي في شرح شواهد المغني ٢/ ٩١٠: قائله أعرابي من بني أسد، وقال البغدادي: وهذا البيت من الأبيات الخمسين التي لا يعرف لها قائل.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢٢.

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٣٩٦.

لوجوب إقامته، وتشديداً للزجر عن التفرُّق والاختلاف فيه، فالتعرُّض لبيان تفرُّق أُممهم عنه ربما يُوهم الإخلال بذلك المرام[١]. انتهى.

وأجيب عن الأول: بأنَّ ضميرَ «بينهم» لأولئك الذين تفرَّقوا، وقد علمتَ أنَّ المرادَ بهم المُتفرِّقون بعد وفاة أنبيائهم، وهم لم يُصبهم عذابُ الاستئصال، وإنما أَصاب الذين لم يؤمنوا في عهد أنبيائهم، وإطلاقُ المُتفرِّقين ليس بذاك الظهور، وقيل: المرادُ: لَقُضي بينهم ريثما افترقوا، ولم يُمهلوا أعواماً. وقيل: المرادُ: لَقُضي بينهم بإهلاك المُبطلين وإثابةِ المُحقِّين إثابتهم في العُقبى. وهو كما ترى.

وعن الثاني: بأنا لا نُسلِّم إيهام التعرُّض لبيان تفرُّق الأُمم الإخلالَ بالمرام بعد بيان أنه لم يكن إلا بعدَ أنْ جاءهم العلم بأنه ضلالٌ وفسادٌ وأمرٌ متوعَّدٌ عليه، وأنه كان بغياً بينهم، ولم يكن لِشُبهةٍ في صحة الدِّين.

وقيل: ضمير «تفرقوا» للمشركين في قوله تعالى: «كبر على المشركين»؛ حكى في «البحر»[٢] عن ابن عباس أنه قال: «وما تفرَّقوا» يعني: قريشاً، و«العِلْم» محمدٌ ﷺ، وكانوا يتمنَّون أن يُبعث إليهم نبيٌّ كما قال سبحانه: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ الآية [فاطر: ٤٢]، وقد يقال عليه: المرادُ بالذين أُورثوا الكتاب أهلُ الكتاب الذين عاصروا النبي ﷺ، ومعنى «من بعدهم» ـ على ما قال أبو حيان[٣] ـ: من بعدِ أسلافهم. ونقل الطبرسي[٤] عن السُّدي ما يدلُّ على أنَّ المرادَ: من بعد أحبارهم، وفُسِّر الموصولُ بعوامِّ أهل الكتاب، وقيل: ضمير «بعدِهم» للمشركين أيضاً والبَعْدية رتبية كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠].

ولا يخفى عليك أنه لا بأس بعود ضمير «تفرَّقوا» للمشركين لو وُجد للذين أُورثوا الكتاب توجيهٌ يقع في حيِّز القَبول، والله تعالى الموفِّق.

---

(١) تفسير أبي السعود ٨/ ٢٧.
(٢) ٧/ ٥١٢.
(٣) في البحر المحيط ٧/ ٥١٣.
(٤) في مجمع البيان ٢٥/ ٤٣.

وجعلُ متعلَّق «استقم» الدعاءَ لا تخفى مناسبتُه. وجُوِّز جعلُه عامًّا، فيكون «استقم» أمراً بالاستقامة في جميع أُمورِه عليه الصلاة والسلام. والاستقامةُ أن يكونَ على خطٍّ مستقيم. وفسَّرها الراغب بلزوم المَنْهج المستقيم[1]. فلا حاجةَ إلى التأويل بالدوام على الاستقامة، أي: دُمْ على الاستقامة.

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: شيئاً من أهوائهم الباطلة، على أنَّ الإضافةَ للجنس ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ أي: بجميع الكُتب المُنزَلة؛ لأنَّ «ما» من أدوات العموم، وتنكير «كتاب» المُبيِّن مُؤيِّدٌ لذلك.

وفي هذا القولِ تحقيقٌ للحقِّ، وبيانٌ لاتِّفاق الكتب في الأصول، وتأليفٌ لقلوب أهل الكتابين، وتعريضٌ بهم حيث لم يُؤمنوا بجميعها.

﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ أي: أمرني اللهُ تعالى بما أمرني به لأَعْدِلَ بينكم في تبليغ الشرائع والأحكامِ، فلا أَخُصَّ بشيء منها شخصاً دون شخص. وقيل: لِأَعْدِلَ بينكم في الحُكم إذا تخاصمتم. وقيل: بتبليغ الشرائع وفَصْل الخصومة. واختاره غيرُ واحد. وقيل: لِأُسوِّي بيني وبينكم، ولا آمُرُكم بما لا أَعلمه، ولا أُخالفكم إلى ما أَنْهاكُم عنه، ولا أُفرِّقُ بين أَصاغِركم وأَكابركم في إجراء حُكم الله عز وجل. فاللامُ للتعليل والمأمورُ به محذوف.

وقيل: اللام مَزيدة، أي: أُمرتُ أنْ أَعْدِلَ، ويُحتاج لتقدير الباء، أي: بأنْ أَعْدِلَ، ولا يخلو عن بُعد.

﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي: خالقُ الكُلّ ومُتولِّي أمرِه، فليس المرادُ خصوصَ المُتكلِّم والمُخاطَب.

﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا﴾ لا يتخطَّانا جزاؤها ثواباً كان أو عقاباً ﴿وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ لا يُجاوزكم آثارُها لِننتفع بحسناتكم ونتضرَّر بسيئاتكم.

﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أي: لا احتجاجَ ولا خُصومة؛ لأنَّ الحقَّ قد ظهر، فلم يبقَ للاحتجاج حاجةٌ ولا للمُخالفة محملٌ سوى المُكابرة والعِناد، وجاءت الحُجَّة

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن (قوم).

هنا على أصلها، فإنها في الأصل مصدرٌ بمعنى الاحتجاج كما ذكره الراغب[١]، وشاعَتْ بمعنى الدليل، وليس بمراد.

﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ يومَ القيامة ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ فيفصِلُ سبحانه بيننا وبينكم.

وليس في الآية ما يدلُّ على مُتاركة الكُفَّار رأساً حتى تكونَ منسوخةً بآية السيف، وادَّعى أبو حيان[٢] أنَّ ما يظهرُ منها المُوادعة المنسوخة بتلك الآية.

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ﴾ أي: يُخاصمون في دينه، قال ابن عباس ومجاهد: نزلت في طائفةٍ من بني إسرائيل هَمَّتْ بردِّ الناس عن الإسلام وإضلالهم، فقالوا: كتابُنا قبلَ كتابِكم، ونَبِيُّنا قبلَ نبيِّكم، فدينُنا أفضلُ من دينكم، وفي روايةٍ بدل: فدينُنا.. إلخ: فنحن أولى باللهِ تعالى منكم[٣].

وأخرج ابن المنذر عن عكرمة قال: لما نزلت ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ قال المشركون بمكة لمن بين أظهرهم من المؤمنين: قد دخلَ الناسُ في دين الله أفواجاً، فاخرجوا من بين أَظهرنا أو اتْرُكوا الإسلام[٤]. والمُحَاجَّة فيه غيرُ ظاهرة، ولعلَّهم مع هذا يذكُرون ما فيه ذلك.

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ﴾ أي: من بعد ما استجاب الناسُ لله عز وجل، أو لدينه ودخلوا فيه وأذعنوا له؛ لِظُهور الحُجَّة ووُضوح المَحجَّة، والتعبيرُ عن ذلك بالاستجابة باعتبار دعوتهم إليه.

﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ زائلةٌ باطلةٌ لا تُقبل عنده عز وجل، بل لا حُجَّةَ لهم أصلاً؛ وإنما عبَّر عن أباطيلهم بالحُجَّة ـ وهي الدليل هاهنا ـ مجاراةً معهم على زَعْمهم الباطل.

وجُوِّز كون ضمير «له» للرسول عليه الصلاة والسلام؛ لكونه في حُكم المذكور، والمُستجيبُ أهلُ الكتب، واستجابتُهم له ﷺ إقرارُهم بِنُعُوته،

---

(١) في مفردات ألفاظ القرآن (حجج).
(٢) في البحر المحيط ٧/ ٥١٣.
(٣) تفسير الطبري ٢٠/ ٤٨٨-٤٨٩، وتفسير البغوي ٤/ ١٢٣ بنحوه.
(٤) الدر المنثور ٦/ ٤.

واستفتاحُهم به قبلَ مَبْعثِهِ عليه الصلاة والسلام، فإذا كانوا هم المُحَاجِّين كان الكلامُ في قوة: والذين يُحاجُّون في دين الله من بعدِ ما استجابوا لرسوله وأَقرُّوا بِنُعوته حُجَّتُهم في تكذيبه باطلةٌ، لما فيها من نَفْيِ ما أَقرُّوا به قبلُ وصَدَّقه العِيان.

وقيل: المُستجيب هو اللهُ عز وجل، وضمير «له» لرسوله عليه الصلاة والسلام، واستجابتُه تعالى له ﷺ بإظهار المُعجزات الدالَّة على صِدْقه. وإلى نحوه ذهب الجُبَّائي حيث قال: أي: من بعدِ ما استجابَ اللهُ تعالى دعاءه في كُفَّار بدر حتى قَتلَهم بأيدي المؤمنين، ودعاءَه على أهل مكة حتى قحطوا، ودعاءَه للمستضعفين حتى خَلَّصهم اللهُ تعالى من أيدي قريش، وغير ذلك مما يطولُ تَعْدادُه، وبُطلان حُجَّتهم لِظُهور خلافِ ما تقتضيه بِزَعْمهم بذلك.

وهذا ظاهرٌ في أنَّ هذه الآيةَ مدنيةٌ؛ لأن وقعةَ بدر بعدَ الهجرة، وحملُ «استُجيب» على الوَعْد خلافُ الظاهر جداً، وكذا ما رُوي عن عكرمة[1]. وقيل: إنَّ حملَ الاستجابةِ على استجابة أهل الكتاب يقتضي ذلك أيضاً إذْ لم يكن بمكة أحدٌ منهم. وقيل: لا يقتضيه؛ لأنَّ خبرَ استجابتهم وإقرارهم بنعوته ﷺ وهو عليه الصلاة والسلام بمكة بلغَ أهلَ مكة، والمُجادلون محمولٌ عليهم، فلا مانعَ من كونها مكيةً.

﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ عظيم لِمُكابرتهم الحقَّ بعد ظُهوره ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾ لا يُقادَر قَدْره.

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ﴾ جنس الكتاب، أوالكتاب المعهود، أوجميع الكتب ﴿بِالْحَقِّ﴾ مُلتبساً بالحقّ، بعيداً من الباطل في أحكامه وأخباره، أومُلتبساً بما يحقّ ويجب من العقائد والأحكام.

﴿وَالْمِيزَانَ﴾ أي: العدلَ؛ كما قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم[2]، أوالشَّرع الذي يُوزن به الحقوق، ويُسوِّي بين الناس، وعلى الوجهين فيه استعارةٌ.

---

(١) أي أن ما روي عن عكرمة ظاهر أيضاً في أن الآية مدنية.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٢٣.

ونسبةُ الإنزال إليه مجازٌ؛ لأنه من صفات الأجسام، والمُنزَل حقيقة مَنْ بَلَّغه. واعتبر بعضُهم الأمر، أي: أنزل الأمر بالميزان، وتُعقِّب بأنه أيضاً مُحتاجٌ إلى التأويل، وقد يقال: نسبة الإنزال وكذا النزول إلى الأمر مشهورةٌ جدّاً فالتحقَتْ بالحقيقة، ويجوز أن يُتجوَّز في الإنزال، ويقال نحو ذلك في «أنزل الكتابَ».

وعن مجاهد أنَّ الميزانَ الآلةُ المعروفة، فعلى هذا إنزالُه على حقيقته، وجوّز أن يكون على سبيل الأمر به، واستظهر الأول، لما نقل الزمخشري[1] في «الحديد» أنه نُزِّلَ إلى نوح وأُمِرَ أن يُوزن به، وكونُ المرادِ به ميزانَ الأعمال بعيدٌ هنا.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ أي: أيُّ شيء يجعلك دارياً، أي: عالماً ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ أي: إتيان الساعة الذي أخبر به الكتابُ الناطق بالحقِّ، فالكلام بتقدير مضافٍ مذكَّر، وقوله تعالى: ﴿قَرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾ خبرٌ عنه في الحقيقة؛ لأن المحذوفَ بقرينةٍ كالملفوظ، وهو وجهٌ في تذكيره. وجُوِّز أن يكون لتأويل الساعة بالبعث، وأن يكون «قريب» من باب: تامر ولابن، أي: ذات قُرب، إلى أَوْجُهٍ أُخَرَ تقدَّمت في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [الأعراف: ٥٦].

وأيَّاما كان، فالمعنى: إنَّ الساعةَ على جناح الإتيان، فاتَّبع الكتابَ، وواظِبْ على العَدْل، واعمَلْ بالشرع قبل أن يُفاجئك اليومُ الذي تُوزن فيه الأعمال، ويُوفَّى جزاؤها.

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ استعجالَ إنكارٍ واستهزاءٍ، كانوا يقولون: متى هي، ليتها قامَتْ حتى يظهرَ لنا أهو الذي نحن عليه أم كالذي عليه محمدٌ (عليه الصلاة والسلام) وأصحابُه؟!.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ أي: خائفون منها مع اعتناءٍ بها، فإنَّ الإشفاقَ عنايةٌ مختلطةٌ بخوف، فإذا عُدِّي بـ «من» ـ كما هنا ـ فمعنى الخوف فيه أظهرُ، وإذا عُدِّي بـ «على» فمعنى العناية أظهر، وعنايتُهم بها لِتوقُّع الثواب.

---

(١) في الكشاف ٤/٦٦.

وزعم الجلبي أن الآيةَ من الاحتباك، والأصل: يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها، فلا يُشفِقُون منها، والذين آمنوا مُشفِقون منها فلا يستعجلون بها.

﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ الأمر المُتحقِّق الكائن لا مَحالةَ.

﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: يُجادلون فيها، وأصلُه من: مَرَيْتُ الناقةَ، إذا مَسَحتَ ضرعَها للحَلْب، وإطلاق المُماراة على المُجادلة لأنَّ كلًّا من المُتجادِلَيْنِ يستخرج ما عند صاحبه. ويجوز أن يكون من المِرْية: التردُّد في الأمر، وهو أخصُّ من الشكّ، ومعنى المُفاعلة غيرُ مقصود، فالمعنى: إن الذين يتردَّدون في أمر الساعة ويشكُّون فيه ﴿لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ۝١٨﴾ عن الحقّ، فإن البعثَ أقربُ الغائبات بالمحسوسات؛ لأنه يُعلم تجويزه[1] من إحياء الأرض بعد موتها وغير ذلك، فمَن لم يهتدِ إليه فهو عن الاهتداء إلى ما وراءه أبعدُ وأبعد.

﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ برٌّ بليغُ البِرِّ بهم يُفيضُ جلَّ شأنُه على جميعهم من صنوفه ما لا يبلغه الأفهام، ويُؤذن بذلك مادةُ اللُّطف وصيغةُ المبالغة فيها وتنكيرُها الدالُّ على المبالغة بحسب الكمية والكيفية. قال حُجَّةُ الإسلام[2] عليه الرحمة: إنما يستحقُّ هذا الاسمَ مَنْ يعلم دقائقَ المصالح وغوامِضَها وما دقَّ منها ولَطُفَ، ثم يسلكُ في إيصالها إلى المستصلح سبيلَ الرِّفق دون العُنف، فإذا اجتمع الرِّفق في الفعل واللُّطف في الإدراك تمَّ معنى اللطيف، ولا يُتَصوَّر كمالُ ذلك إلا في الله تعالى شأنه.

فصنوفُ البِرِّ من المبالغة في الكَمّ، وكونها لا تبلغها الأفهام من المادة والمبالغة في الكيفية؛ لأنه إذا دقَّ جدّاً كان أخفى وأخفى، وإرادة الجميع من إضافة العبادِ - وهو جمعٌ - إلى ضميره تعالى فيُفيد الشُّمول والاستغراق، وبالعموم قال مقاتل إلا أنه قال: لطيفٌ بالبَرّ والفاجر حيث لم يَقْتلهم جوعاً.

---

(١) في (م): من تجويزه.

(٢) هو الإمام الغزالي رحمه الله، وكلامه في المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى ص١٠١.

وقال أبو حيان[(١)]: «لطيفٌ بعباده» أي: بَرٌّ بعباده المؤمنين ومَن سبق له الخلود في الجنة، وما يُرى من النعم على الكافر فليس بِلُطْفٍ، إنما هو إملاءٌ، إلا ما آل إلى رحمة ووفاة على الإسلام.

وحكى الطيبي هذا التخصيص عن الواحدي[(٢)]، ومالَ إلى ترجيحه، وذلك أنه ادَّعى أن الإضافة في «عباده» إضافةُ تشريفٍ، إذْ أكثرُ استعمال التنزيل الجليل في مثل ذلك، فيختصُّ العبادُ بأوليائه تعالى المؤمنين. وحَمَلَ اللُّطف على مَنْح الهداية وتوفيق الطاعة وعلى الكمالات الأُخروية والكرامات السنية، وحملَ الرزق في قوله تعالى: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ عليه أيضاً، وقال: إنَّ استعمالَه فيما ذكر كاستعماله في قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور: ٣٨] وجَعَلَ قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ۝١٩﴾ مُؤذِناً بالتعليل، كأنه قيل: إنما تلطَّف جلَّ شأنُه في حقِّ عباده المؤمنين دون مَنْ غَضِبَ عليهم بمحضِ مشيئته سبحانه، لأنه تعالى قويٌّ قادرٌ على أن يختصَّ برحمته وكرامته من يشاء من عباده، عزيزٌ غالب لا يمنعه سبحانه عما يُريده أحد.

وادَّعى أنه يكون وِزانُ الآية على هذا مع قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ الآية وزانَ قوله عز وجل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠] وينتظم الكلام أتمَّ انتظام وتلتئمُ أطرافه أشدَّ التئام، ولا يقال حينئذ: إنَّ قولَه تعالى: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ حكمٌ مترتِّب على السابق، فكان ينبغي أن يعمَّ عمومَه، والعمومُ أظهر.

وحديثُ التخصيص في «يرزق من يشاء» فقد أجاب عنه صاحبُ «التقريب» فقال: إنما خصَّص الرزقَ بمن يشاء مع أنهم كلَّهم بَرٌّ سبحانه بهم؛ لأنه تعالى قد يخصُّ أحداً بنعمة وغيرَه بأخرى، فالعموم لجنس البِرِّ، والخصوصُ لنوعه.

وأشار جار الله[(٣)] إلى أنه لا تخصيصَ بالحقيقة؛ فإن المعنى: اللهُ تعالى بليغ

---

(١) في البحر المحيط ٧/ ٥١٤.

(٢) الوسيط ٤/ ٤٨.

(٣) في الكشاف ٣/ ٤٦٥.

البرِّ بجميع عباده يرزقُ مَن يشاء ما يشاء سبحانه منه، فـ «يرزق من يشاء» بيانٌ لتوزيعه على جميعهم، فليس الرِّزق إلا النصيبَ الخاصَّ لكلٍّ واحد، ولمَّا شَمِلَ الدارين لاءَمَ قولَه تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ﴾ إلخ كلَّ المُلاءمة. ولا يتوقَّف هذا على ما قاله الطيبي.

ولعل أمرَ التذييل بالاسمين الجليلين على القول بالعموم أظهرُ، والتعليل أنسبُ، فكأنه قيل: لطيفٌ بعباده عامُّ الإحسان بهم؛ لأنه تعالى القويُّ الباهر القُدرة الذي غلب وغلبتْ قُدرته سبحانه جميعَ القُدَر، يرزق مَن يشاء، لأنه العزيزُ الذي لا يُغلَبُ على ما يُريد، فكلٌّ من الاسمين الجليلين ناظرٌ إلى حُكمٍ، فافهم ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]:

فكم لله من لُطْفٍ خَفِيٍّ يَدِقُّ خَفاه عن فَهم الذَّكي[1]

والحَرْثُ في الأصل إلقاءُ البَذْر في الأرض، يُطلق على الزرع الحاصل منه، ويُستعمل في ثمرات الأعمال ونتائجها بطريق الاستعارة المَبنية على تشبيهها بالغِلال الحاصلة من البذور، المتضمِّنِ لتشبيه الأعمال بالبذور، أي: مَن كان يُريد بأعماله ثوابَ الآخرة نُضاعِفْ له ثوابَه بالواحد عشرةً إلى سبع مئةٍ فما فوقها ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ﴾ بأعماله ﴿حَرْثَ الدُّنْيَا﴾ وهو متاعُها وطَيِّباتها ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ أي: شيئاً منها حَسْبَما قدَّرناه له بطلبه وإرادته ﴿وَمَا لَهُۥ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ إذْ كانت هِمَّتُه مقصورةً على الدنيا.

وقرأ ابن مقسم، والزعفراني، ومحبوب والمنقري كلاهما عن أبي عمرو: «يَزِدْ» و«يؤته» بالياء فيهما، وقرأ سلام: «نُؤْتِهُ» بضم الهاء[2]، وهي لغةُ أهل الحجاز.

وقد جاء في الآية فعل الشرط ماضياً والجوابُ مضارعاً مجزوماً؛ قال أبو حيان[3]: ولا نعلم خلافاً في جواز الجزم في مثل ذلك، وأنه فصيحٌ مختارٌ

(١) ذكره الشهاب في حاشيته ٧/ ٤١٧ ولم ينسبه.
(٢) البحر المحيط ٧/ ٥١٤، وما ذكره عن أبي عمرو غير المشهور عنه، وقراءة سلّام ذكرها أيضاً ابن جني في المحتسب ٢/ ٢٤٩.
(٣) في البحر المحيط ٧/ ٥١٤.

مطلقاً إلا ما ذكره صاحبُ كتاب «الإعراب» أبو الحكم بن عذرة[(١)] عن بعض النحويين أنه لا يَجيء في الفصيح إلا إذا كان فعلُ الشرط كان، وإنما يجيء معها لأنها أصلُ الأفعال، ونصُّ كلامِ سيبويه والجماعة أنه لا يختصُّ بكان، بل سائر الأفعال مثلُها في ذلك، وأنشد سيبويه للفرزدق:

دَسَّتْ رسولاً بأنَّ القومَ إن قَدروا عليك يَشفُوا صدوراً ذاتَ توغير[(٢)]

وقال أيضاً:

تَعشَّ فإنْ عاهدتني لا تخونني نَكُن مِثْلَ مَنْ يا ذئب يصطحبان[(٣)]

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾ في الكُفْر، وهم الشياطين ﴿شَرَعُوا۟ لَهُم﴾ أي: لهؤلاء الكَفَرة المعاصرين لك بالتسويل والتزيين ﴿مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ كالشِّرك، وإنكارِ البَعْث، والعمل للدنيا، و«أم» منقطعة، فيها معنى بل الإضرابية، والهمزةِ التي للتقرير والتقريع، والإضرابُ عما سبق من قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ [الآية: ١٣] إلخ، فالعطف عليه، وما اعترض به بين الآيتين من تتمةِ الأولى، وتأخير الإضراب ليدلَّ على أنهم في شرعٍ يُخالف ما شرعه الله تعالى من كلِّ وجه، فالشرك في مقابلة إقامة الدين. والاستقامةِ عليه، وإنكارُ البعث في مقابلة قوله تعالى (وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ) والعمل للدنيا لقوله سبحانه: (مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ).

وهذا أظهرُ مِن جَعْلِ الإضرابِ عما تقدَّم من قوله تعالى: (كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ) كما لا يخفى.

وقيل: شركاؤهم أصنامهم، وإضافتها إليهم لأنهم الذين جعلوها شركاء لله

(١) الحسن بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم الأنصاري، الأوسي، الخضراوي، النحوي، أخذ عن ابن عصفور وغيره، له تصانيف منها: المفيد في أوزان الرجز والقصيد، والإعراب عن أسرار الحركات في لسان الأعراب. توفي سنة (٦٤٤هـ). بغية الوعاة ١/ ٥١٠، وكشف الظنون ١/ ١٢٥.

(٢) الكتاب ٣/ ٦٩، وهو في ديوان الفرزدق ١/ ٢١٣.

(٣) ديوان الفرزدق ٢/ ٣٢٩، وفيه: واثقتني، بدل: عاهدتني.

سبحانه، وإسنادُ الشرع إليها لأنها سببُ ضلالتهم وافتتانهم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا﴾ [إبراهيم: ٣٦] وجوِّز أن يكونَ الاستفهامُ المقدَّر على هذا للإنكار، أي: ليس لهم شرعٌ ولا شارع، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ [الأنبياء: ٤٣] وأيّاً ما كان فضميرُ «شرعوا» للشُّركاء وضميرُ «لهم» للكُفَّار.

وجوِّز على تفسير الشركاء بالأصنام أن يكون الأولُ للكُفَّار، والثاني للشُّركاء، أي: شرع الكُفَّار لأصنامهم ورسموا من المعتقدات والأحكام ما لم يأذَنْ به الله تعالى، كاعتقادِ أنهم آلهةٌ، وأن عبادتَهم تُقرِّبهم إلى الله سبحانه، وكجعل البَحيرة والسائبة والوَصِيلة وغير ذلك، وهو كما ترى.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ﴾ أي: القضاء والحُكم السابق منه تعالى بتأخيرِ العذاب إلى يوم القيامة، أو إلى آخرِ أعمارهم ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين الكافرين والمؤمنين في الدنيا. أو حين افترقوا بالعِقاب والثواب. وجوِّز أن يكون المعنى: لولا ما وعدَهم الله تعالى به من الفصل في الآخرة لقضي بينهم، فالفصل بمعنى البيان كما في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات: ٣٨]. وقيل: ضمير بينهم للكُفَّار وشركائهم بأيِّ معنى كان.

﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهم المُحدَّث عنهم، أو الأعمُّ منهم، ويدخلون دخولاً أوليًّا ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ في الآخرة. وفي «البحر»(١): أي: في الدنيا بالقَتْل والأَسْر والنَّهْب، وفي الآخرة بالنار.

وقرأ الأعرج ومسلم بن جندب: «وأنَّ» بفتح الهمزة(٢) عطفاً على «كلمةُ الفَصْل»، أي: لولا القضاءُ السابق بتأخير العذاب وتقديرِ أنَّ الظالمين لهم عذابٌ أليم في الآخرة، أو لولا العِدَة بأنَّ الفصلَ يكون يومَ القيامة وتقدير أنَّ الظالمين لهم.. إلخ، لَقُضي بينهم، والعطفُ على التقديرين تتميمٌ للإيضاح لا تفسيريٌّ محض.

---

(١) ٧/ ٥١٥.

(٢) القراءات الشاذة ص١٣٤.

﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ جملةٌ مستأنفة لبيان ما قبلُ. والخطاب لكلِّ أحدٍ يصلحُ له لِلقَصْد إلى المبالغة في سوء حالهم، أي: ترى يا من يصحُّ منه الرؤيا الظالمين يومَ القيامة ﴿مُشْفِقِينَ﴾ خائفين الخوفَ الشديد ﴿مِمَّا كَسَبُوا۟﴾ في الدنيا من السيئات.

والكلامُ ـ قيل ـ على تقدير مُضاف، و«من» صلة الإشفاق، أي: مشفقين مِن وبال ما كسبوا ﴿وَهُوَ﴾ أي: الوبال ﴿وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ أي: حاصلٌ لهم لاحقٌ بهم.

واختار بعضُهم أنْ لا تقدير، و«من» تعليلية؛ لأنه أَدْخَلُ في الوعيد.

والجملة اعتراضٌ للإشارة إلى أن إشفاقَهم لا ينفعهم، وإيثار «واقع» على يقع مع أن المعنى على الاستقبال ـ لأنَّ الخوفَ إنما يكون من المتوقَّع، بخلاف الحزن ـ للدلالة على تحقُّقه، وأنه لا بدَّ منه. وجوِّز أن تكون حالاً من ضمير «مُشفِقين»، وظاهرُ ما سمعتَ أنه حالٌ مقدَّرة.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ﴾ أي: مُستقِرُّون في أطيبِ بقاعها وأنزهها. وقال الراغب[1]: هي محاسِنُها وملاذُّها، وأصلُ الروضة مستنقعُ الماء والخُضرة، واللغةُ الكثيرةُ في واوها جمعاً التسكين كما في المُنْزَل، ولغة هذيل بن مدركة فتحها، فيقولون: رَوَضات إجراءً للمُعتَلّ مُجرى الصحيح نحو جَفَنات، ولم يقرأ أحدٌ فيما عَلِمنا بلغتهم.

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: ما يشتهونه من فنون المستلذَّات حاصلٌ لهم عند ربهم، فالظرف متعلِّقٌ بمتعلَّق الجار والمجرور الواقع خبراً لـ «ما»، أو به، واختاره جارُ الله[2]، ونفى أن يكون متعلِّقاً بـ «يشاؤون» مع أنه الظاهرُ نحواً.

وبيَّن صاحب «الكشف» ذلك بأنه كلامٌ في مَعْرِض المبالغة في وصف ما يكون أهلُ الجنة فيه من النعيم الدائم، فأُفيد أنهم في أنزه موضع من الجنة وأطيبِ مَقْعد منها بقوله تعالى: (فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ) لأن روضةَ الجنة أنزه موضع منها، لاسيما والإضافة في هذا المقام تُنبىء عن تميُّزها بالشَّرف والطيب، والتعقيبُ بقوله تعالى:

---

(١) في مفردات ألفاظ القرآن (روض).

(٢) في الكشاف ٣/ ٤٦٦.

(لَهُم مَّا يَشَآءُونَ) أيضاً. ثم أُفيد أنَّ لهم ما يشتهون من ربِّهم، ولا خفاءَ أنك إذا قلت: لي عند فلان ما شئتُ، كان أبلغَ في حصول كلِّ مطالبك منه مما إذا قلت: لي ما شئتُ عند فلان، بالنسبة إلى الطالب والمطلوب منه؛ أما الأول: فلأنه يُفيد أن جميع ما تشاؤه موجودٌ مبذولٌ لك منه، والثاني يفيد أن ما شئتَ عنده مبذولٌ لا جميع ما تشاؤه. وأما الثاني: فلأنك وصفتَه بأنه يبذلُ جميعَ المُرادات، وفي الثاني وصفتَه بأن ما شئتَ عنده مبذولٌ لك، إمّا منه وإمّا من غيره. ثم في الأول مبالغةٌ في تحقيق ذلك وثُبوته كما تقول: لي عندك وقبلك كذا، فالله تعالى شأنه أخبر بأن ذلك حقٌّ لهم ثابتٌ مقضيٌّ في ذمة فَضْله سبحانه، ولا كذلك في الثاني.

ثم قال: ولعلّ الأوجه أنْ يجعل «عند ربهم» خبراً آخر، أي: الذين آمنوا وعملوا الصالحات عند ربِّهم في رَوْضات الجنات، لهم فيها ما يشاؤون، وإنما أُخِّر توخِّياً لسلوك طريق المبالغة في الترقِّي من الأدنى إلى الأعلى، ومراعاةً لترتيب الوجود أيضاً، فإن الوافدَ والضيفَ ينزلُ في أنزهِ موضع، ثم يحضرُ بين يديه الذي يَشتهيه، وملاكُ ذلك كلِّه أن يختصَّه ربُّ المنزل بالقُرب والكرامة.

وإنْ جعله حالاً من فاعل يشاؤون، أو من المجرور في «لهم» أفاد هذا المعنى أيضاً، لكنه يقصرُ عما آثرناه؛ لأنه قد أتى به إتيان الفَضْلة، وهو مقصودٌ بذاته عُمدة. ولَعمري إن ما آثره حسنٌ معنى، إلا أنه أبعدُ لفظاً مما آثره جار الله، ولا يخفى عليك ما هو الأنسب بالتنزيل.

وفي الخبر عن أبي ظَبية قال: إنَّ السِّربَ من أهل الجنة لَتظلُّهم السحابةُ فتقول: ما أُمْطِرُكم؟ فما يدعو داعٍ من القوم إلا أَمْطرتْه، حتى إن القائلَ منهم ليقول: أَمطرينا كواعبَ أتراباً[1].

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكر من حال المؤمنين، وما فيه من معنى البُعد للإيذان ببعد منزلة المُشارِ إليه. ﴿هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾﴾ الذي لا يُقْدَرُ قَدْرُه ولا تُبلَغ غايتُه، ويَصغُر دونه ما لغيرهم في الدنيا.

---

(١) أخرجه الطبري ٢٠/٦٤٦.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الفضلُ الكبير أوالثوابُ المفهوم من السِّياق هو ﴿ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: يُبشَّر به، فحذف الجار ثم العائد إلى الموصول كما هو عادتُهم في التدريج في الحذف، ولا مانعَ كما قال الشهاب[١] من حَذْفهما دفعةً. وجوَّز كون «ذلك» إشارةً إلى التبشير المفهوم من «يُبشِّر» بعدُ، والإشارة قد تكون لما يُفهم بعدُ كما قرَّروه في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] ونحوه، والعائدُ إلى الموصول ضميرٌ منصوب بـ «يُبَشِّر» على أنه مفعولٌ مطلق له؛ لأنه ضميرُ المصدر، أي: ذلك التبشير يُبَشِّره اللهُ عبادَه.

وزعم أبو حيان أنه لا يظهر جعلُ الإشارة إلى التبشير، لعدم تقدُّم لفظِ البُشرى، ولا ما يدلُّ عليها[٢]. وهو ناشئٌ عن الغَفْلة عما سمعتَ، فلا حاجة في الجواب عنه أن كونَ ما تقدَّم تبشيراً للمؤمنين كافٍ في صحة ذلك.

ثم قال: ومن النَّحْويين من جعل «الذي» مصدرية، حكاه ابنُ مالك عن يونس وتأوَّل عليه هذه الآية، أي: ذلك تبشيرُ الله تعالى عبادَه، وليس بشيء، لأنه إثباتٌ للاشتراك بين مختلفي الحدّ بغير دليل، وقد ثبتت اسمية الذي، فلا يعدلُ عن ذلك بشيء لا يقوم به دليلٌ ولا شبهة[٣].

وقرأ عبد الله بن يعمر وابن أبي إسحاق والجَحْدري والأعمش وطلحة - في رواية - والكسائي وحمزة: «يَبْشُر» ثلاثيًا[٤]. ومجاهد وحُميد بن قيس بضمّ الياء وتخفيف الشين من أَبشر[٥]، وهو معدًّى بالهمزة من بَشِرَ اللازم المكسور الشين، وأما بَشَر بفتحها، فمتعدٍّ، وبَشَّر بالتشديد للتكثير لا للتعدية؛ لأنَّ المعدَّى إلى واحد وهو مُخفَّف لا يُعدَّى بالتضعيف إليه، فالتضعيفُ فيه للتكثير لا للتعدية.

---

(١) في الحاشية ٧/ ٤١٨.
(٢) البحر المحيط ٧/ ٥١٦.
(٣) المصدر السابق.
(٤) البحر المحيط ٧/ ٥١٥، وقراءة الكسائي وحمزة - وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو - في التيسير ص١٩٥، والنشر ٢/ ٢٣٩.
(٥) المحتسب ٢/ ٢٥١، والبحر المحيط ٧/ ٥١٥.

﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ أي: على ما أتعاطاه لكم من التبليغ والبِشارة وغيرهما ﴿أَجۡرًا﴾ أي: نفعاً ما، ويختصُّ في العُرف بالمال ﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ﴾ أي: إلا مودَّتكم إيايَ ﴿فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ أي: لقرابتي منكم، فـ «في» للسببية مثلها في «إنَّ امرأةً دخلتِ النارَ في هِرَّة»[1] فهي بمعنى اللام لِتقارب السبب والعِلَّة، وإلى هذا المعنى ذهب مجاهد وقتادة وجماعة.

والخطاب إما لقريش على ما قيل: إنهم جمعوا له مالاً وأرادوا أن يَرْشُوه على أنْ يُمسِكَ عن سبِّ آلهتهم، فلم يفعل ونزلَتْ. وله عليه الصلاة والسلام في جميعهم قرابة[2]. أخرج أحمد والشيخان والترمذي وغيرهم عن ابن عباس أنه سُئل عن قوله تعالى: (إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ) فقال سعيدُ بن جُبير: قُربى آل محمد ﷺ، فقال ابنُ عباس: عَجِلْتَ، إنَّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام لم يكن بطنٌ من قريش إلا كان له فيهم قرابة[3].

أوللأنصار، بناءً على ما قيل: إنهم أَتَوْه بمال لِيستعين به على ما ينوبُه فنزلت، فردَّه[4]. وله عليه الصلاة والسلام قَرابةٌ منهم، لأنهم أخوالُه؛ فإنَّ أُمَّ عبد المطلب ـ وهي سلمى بنت زيد النجَّارية ـ منهم، وكذا أخوالُ آمنةَ أُمِّه عليه الصلاة والسلام كانوا على ما في بعض التواريخ من الأنصار أيضاً.

أو لجميع العرب؛ لِقَرابته عليه الصلاة والسلام منهم جميعاً في الجُملة، كيف لا وهم إما عدنانيون وقريش منهم، وإما قحطانيون والأنصار منهم، وقرابتُه عليه الصلاة والسلام من كلٍّ قد علمت، وذلك يستلزم قرابتَه من جميع العرب، وقُضاعةُ من قَحْطان لا قِسمٌ برأسه على ما عليه مُعظم النسَّابين.

والمعنى: إنْ لم تعرفوا حقِّي لِنبوَّتي وكوني رحمةً عامَّة ونعمةً تامَّةً، فلا أقلَّ من مودَّتي لأجل حقِّ القرابةِ وصلةِ الرحم التي تعتنون بحفظها ورعايتها.

---

(١) أخرجه أحمد (٧٥٤٧)، والبخاري (٣٣١٨)، ومسلم (٢٢٤٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٢) ذكره أبو حيان في البحر ٧/٥١٦.
(٣) مسند أحمد (٢٠٢٤)، وصحيح البخاري (٤٨١٨)، وسنن الترمذي (٣٢٥١)، ولم نقف عليه عند مسلم.
(٤) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص٣٩٥ مطولاً.

وحاصلُه: لا أطلبُ منكم إلا مودَّتي ورعايةَ حقوقي لِقرابتي منكم وذلك أمرٌ لازمٌ عليكم، ورُوي نحو هذا في «الصحيحين» عن ابن عباس[1]، بل جاء ذلك عنه رضي الله عنه في روايات كثيرة، وظاهرُها أنَّ الخِطابَ لقريش؛ منها ما أخرجه سعيدُ بن منصور وابنُ سعد وعبدُ بن حُميد والحاكم ـ وصحَّحه ـ وابن مردويه والبيهقي في «الدلائل» عن الشعبي قال: أكثرَ الناسُ علينا في هذه الآية «قل لا أسألكم» إلخ، فكتبنا إلى ابن عباس نسأله، فكتبَ رضي الله عنه: إنَّ رسولَ الله ﷺ كان وسطَ النسب في قريش، ليس بطنٌ من بُطونهم إلا وقد وَلدوه، قال الله تعالى: (قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا) على ما أَدْعوكم عليه (إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ) تَوَدُّوني لِقرابتي منكم، وتحفظوني بها[2].

ومنها ما أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني عنه قال: كان لرسول الله ﷺ قرابةٌ من جميع قريش، فلما كذَّبوه وأَبَوْا أن يُتابعوه قال: «يا قوم إذا أبيتم أن تُتابعوني، فاحفظوا قرابتي فيكم، ولا يكون غيرُكم من العرب أولى بحفظي ونُصرتي منكم»[3].

والظاهرُ من هذه الأخبار أنَّ الآيةَ مكيةٌ، والقولُ بأنها في الأنصار يقتضي كونَها مدنية.

والاستثناءُ متصلٌ بناءً على ما سمعتَ من تعميم الأجر. وقيل: لا حاجةَ إلى التعميم، وكونُ المودَّة المذكورة من أفرادِ الأجر ادعاءٌ كافٍ لاتصال الاستثناء.

وقيل: هو منقطع إما بناءً على أنَّ المودةَ له عليه الصلاة والسلام ليست أجراً أصلاً بالنسبة إليه ﷺ، أو لأنها لازمةٌ لهم لِيُمدحوا بصلة الرحم، فنفعُها عائدٌ عليهم، والانقطاعُ أقطعُ لتوهُّم المنافاة بين هذه الآيةِ والآيات المتضمنةِ لِنفي سؤال الأَجْر مطلقاً.

---

(١) سلف قريباً.

(٢) المستدرك ٢/ ٤٤٤، ودلائل النبوة ١/ ١٨٥، والكلام من الدر المنثور ٦/ ٦.

(٣) تفسير الطبري ٢٠/ ٤٩٥، وتفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٧٥، ومعجم الطبراني الكبير (١٣٠٢٦).

وذهب جماعةٌ إلى أن المعنى: لا أطلبُ منكم أجراً إلا محبَّتَكم أهلَ بيتي وقرابتي، وفي «البحر»[(١)]: إنه قولُ ابن جُبير والسدي وعمرو بن شُعيب. و«في» عليه للظرفية المَجَازيَّة، و«القربى» بمعنى الأقرباء، والجارُّ والمجرور في موضع الحال، أي: إلا المودة ثابتة في أقربائي مُتمكِّنة فيهم، ولمكانة هذا المعنى لم يَقُلْ: إلا مودَّةَ القُربى، وذكر أنه على الأول كذلك، وأمر اتِّصال الاستثناء وانقطاعه على ما سبق.

والمراد بقرابته عليه الصلاة والسلام في هذا القول قيل: ولدُ عبد المطلب، وقيل: عليٌّ وفاطمة وولدُها ﵃، ورُوي ذلك مرفوعاً؛ أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه من طريق ابن جُبير عن ابن عباس قال: لما نزلَتْ هذه الآيةُ «قُلْ لا أسألكم» إلخ قالوا: يا رسولَ الله، مَنْ قرابتُك الذين وَجَبتْ مودَّتُهم؟ قال: «عليٌّ وفاطمةُ وولدُها»[(٢)] صلى الله عليه وسلم وعليهم. وسندُ هذا الخبر على ما قال السيوطي في «الدر المنثور»[(٣)] ضعيفٌ، ونصَّ على ضَعْفه في «تخريج أحاديث الكشاف»[(٤)] ابنُ حجر. وأيضاً لو صحَّ لم يَقُلْ ابنُ عباس ما حُكي عنه في «الصحيحين» وغيرهما، وقد تقدَّم[(٥)]، إلا أنه رُوي عن جماعة من أهل البيت ما يُؤيِّد ذلك؛ أخرج ابنُ جرير عن أبي الدَّيْلم قال: لما جيء بعلي بن الحسين ﵄ أسيراً فأُقيم على درج دمشق، قام رجلٌ من أهل الشام فقال: الحمدُ لله الذي قَتلكم واستأصَلكم. فقال له علي ﵁: أقرأتَ القرآن؟ قال: نعم. قال: أقرأتَ آل حم؟ قال: نعم. قال: ما قرأتَ: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾؟ قال: فإنكم لأنتم هم؟ قال: نعم[(٦)].

وروى زاذان عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه قال: فينا في آل حم آيةٌ لا يحفظ

---

(١) ٧/ ٥١٦.
(٢) تفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٧٧، ومعجم الطبراني الكبير (١٢٢٥٩).
(٣) ٦/ ٧.
(٤) ص١٤٥.
(٥) تقدم قريباً.
(٦) تفسير الطبري ٢٠/ ٤٩٩، وأبو الدَّيلم اسمه: حَذلم بن بشير (أو: ابن بشر). الإكمال ٢/ ٤٠٥.

مودَّتَنا إلا مؤمن، ثم قرأ هذه الآية[١]، وإلى هذا أشارَ الكُميت في قوله:

وجدنا لكم في آل حم آيةً تأوَّلها منَّا تقيٌّ ومُعرِبُ[٢]

ولله تعالى دَرُّ السيد عمر الهيتي أحدُ الأقارب المُعاصرين حيث يقول:

بأَيَّةِ آيةٍ يأتي يزيد غداةَ صحائفُ الأعمال تُتلى
وقام رسولُ ربِّ العرش يتلو وقد صمَّت جميع الخَلْق قل لا

والخطابُ على هذا القول لجميع الأُمَّة لا للأنصار فقط وإن ورد ما يُوهم ذلك، فإنهم كلَّهم مُكَلَّفون بمودة أهل البيت؛ فقد أخرج مسلم والترمذي والنسائي عن زيد بن أرقم، أن رسولَ الله ﷺ قال: «أُذكِّركم اللهَ تعالى في أهل بيتي»[٣].

وأخرج الترمذي ـ وحسَّنه ـ والطبراني والحاكم والبيهقي في «الشعب» عن ابن عباس قال: قال عليه الصلاة والسلام: «أَحِبُّوا اللهَ تعالى لما يَغْذُوكم به من نعمه، وأَحِبُّوني لحبِّ الله تعالى، وأَحِبُّوا أهلَ بيتي لحبي»[٤].

وأخرج ابنُ حبان والحاكم عن أبي سعيد قال: قال رسولُ الله ﷺ: «والذي نفسي بيدِه، لا يُبغِضُنا أهلَ البيت رجلٌ إلا أَدخلَه اللهُ تعالى النار»[٥].

إلى غير ذلك مما لا يُحصى كَثْرةً من الأخبار، وفي بعضها ما يدلُّ على عموم القُربى وشُمولها لبني عبد المطلب؛ أخرج أحمد والترمذي ـ وصحَّحه ـ والنسائي

---

(١) أخرجه الواحدي في الوسيط ٤/ ٥٣، وفي إسناده عبد الغفور أبو الصباح الواسطي، قال البخاري: تركوه، وقال ابن عدي: ضعيف منكر الحديث. ميزان الاعتدال ٢/ ٦٤١.

(٢) ديوان الكميت ص١٨. وقوله: مُعرِب، قال الجوهري في الصحاح (عرب): أعرب بحجته إذا أفصح بها ولم يَتَّقِ أحداً.

(٣) صحيح مسلم (٢٤٠٨)، وسنن النسائي الكبرى (٨١١٩)، وهو عند الترمذي (٣٧٨٨) بمعناه، وأخرجه أحمد (١٩٢٦٥).

(٤) سنن الترمذي (٣٧٨٩)، والمعجم الكبير للطبراني (١٠٦٦٤)، والمستدرك ٣/ ١٥٠، وشعب الإيمان (١٣٧٨).

(٥) صحيح ابن حبان (٦٩٧٨)، والمستدرك ٣/ ١٥٠.

عن المطَّلب بن ربيعة قال: دخل العباسُ على رسول الله ﷺ فقال: إنَّا لَنخرجُ فنرى قريشاً تُحدِّث، فإذا رأَوْنا سكتوا، فغضب رسولُ الله ﷺ ودرَّ عِرْقٌ بين عينيه ثم قال: «واللهِ، لا يدخلُ قلبَ امرئ مسلمٍ إيمانٌ حتى يُحبَّكم لله تعالى ولِقرابتي»(١) وهذا ظاهرٌ إنْ خصَّ القُربى بالمؤمنين منهم، وإلا فقيل: إن الحُكم منسوخٌ. وفيه نَظر، والحقُّ وجوبُ محبة قَرابته عليه الصلاة والسلام من حيث إنهم قَرابته ﷺ كيف كانوا، وما أحسن ما قيل:

داريتُ أهلَكَ في هواكَ وهم عِدا ... ولأَجْلِ عينٍ ألفُ عينٍ تُكْرَمُ

وكلما كانت جهةُ القرابة أقوى كان طلبُ المودَّة أشدَّ، فمودَّةُ العلويِّين الفاطميين ألزمُ من محبة العباسيين على القول بعموم «القُربى»، وهي على القول بالخصوص قد تتفاوتُ أيضاً باعتبار تفاوت الجِهات والاعتبارات، وآثارُ تلك المودَّة التعظيم والاحترام، والقيامُ بأداء الحُقوق أتمَّ قيام، وقد تهاونَ كثيرٌ من الناس بذلك حتى عدُّوا من الرفض السلوكَ في هاتيك المسالك، وأنا أقول قولَ الشافعيِّ الشافي العَيِّ:

يا راكباً قِفْ بالمُحصَّب من مِنى ... واهتفْ بساكن خيفها والناهض

سَحراً إذا فاضَ الحجيجُ إلى منى ... فيضاً كملتطمِ الفراتِ الفائض

إنْ كان رَفْضاً حبُّ آل محمد ... فَلْيشهدِ الثَّقلانِ أني رافضي(٢)

ومع هذا لا أعدُّ الخروج عما يعتقده أكابرُ أهل السنة في الصحابة ﷺ ديناً، وأرى حُبَّهم فرضاً عليَّ مُبيناً، فقد أوجبه أيضاً الشارعُ، وقامت على ذلك البراهين السواطع.

ومن الظرائف ما حكاه الإمام عن بعض المُذَكِّرين قال: إنه عليه الصلاة والسلام قال: «مَثَلُ أهل بيتي كسفينةِ نوح، مَنْ رَكِبَ فيها نجا ومن تخلَّف عنها

---

(١) مسند أحمد (١٧٥١٥)، وسنن الترمذي (٣٧٥٨)، وسنن النسائي الكبرى (٨١٢٠)، وفي إسناده يزيد بن أبي زياد الهاشمي، وهو ضعيف كما في التقريب.
(٢) ديوان الشافعي ص٥٥، وذكرها الرازي في تفسيره ٧/ ١٦٦.

هَلك»[١] وقال: ﷺ: «أصحابي كالنُّجوم بأيهم اقْتديتُم اهتديتُم»[٢] ونحن الآن في بحر التكليف وتَضْربنا أمواجُ الشُّبهات والشهوات، وراكبُ البحر يحتاج إلى أمرين: أحدهما: السفينة الخالية عن العيوب. والثاني: الكواكبُ الطالعة النَّيِّرة، فإذا رَكِبَ تلك السفينةَ ووضع بَصَره على تلك الكواكب كان رجاءُ السلامة غالباً، فلذلك رَكِبَ أصحابُنا ـ أهلَ السنة ـ سفينةَ حُبِّ آل محمد ﷺ، ووضعوا أبصارَهم على نجوم الصحابة يرجُون أن يفوزوا بالسلامة والسعادة في الدنيا والآخرة[٣]. انتهى.

والكثيرُ من الناس في حقِّ كلٍّ من الآل والأصحاب في طرفي التفريط والإفراط، وما بينهما هو الصراطُ المستقيم، ثَبَّتنا اللهُ تعالى على ذلك الصراط.

وقال عبد الله بن القاسم: المعنى: لا أسألُكم عليه أجراً إلا أنْ يودَّ بعضُكم بعضاً، وتَصِلوا قَراباتِكم، وأمرُ «في» والاستثناءِ لا يخفى.

وأخرج عبد بن حُميد عن الحسن أن المعنى: لا أسألُكم عليه أجراً إلا التقرُّب إلى الله تعالى بالعمل الصالح[٤]. فالقُربى بمعنى القَرابة، وليس المرادُ قرابةَ النسب. قيل: ويجري في الاستثناء الاتصالُ والانقطاع، واستظهر الخفاجي[٥] أنه منقطع، وأنه على نهج قوله:

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٥٣٩٠) من حديث أبي ذر ﷺ، وفي إسناده عمرو بن عبد الغفار الفقيمي، قال أبو حاتم: متروك الحديث، وقال ابن عدي: اتهم بوضع الحديث. ميزان الاعتدال ٣/ ٢٧٢.

(٢) أخرجه عبد بن حميد في مسنده (٧٨٣) من حديث ابن عمر ﷺ، وفي إسناده حمزة النَّصِيبي؛ قال البخاري: منكر الحديث، وقال ابن عدي: عامّة ما يرويه موضوع. ميزان الاعتدال ١/ ٦٠٦. وقد ذكر الحافظ ابن حجر هذا الحديث في التلخيص الحبير ٤/ ١٩٠ وعدَّد طرقه، وكلها تالفة، ونقل عن البزار قوله: هذا الكلام لم يصح عن النبي ﷺ، وعن ابن حزم قولَه: هذا خبر مكذوب موضوع باطل.

(٣) تفسير الرازي ٢٧/ ١٦٧.

(٤) وأخرجه الطبري ٢٠/ ٥٠٠.

(٥) في حاشيته على البيضاوي ٧/ ٤١٩.

ولا عيبَ فيهم غيرَ أنَّ سُيوفَهم. . البيت[١]

وأراه على القول قبلَه كذلك.

وقرأ زيد بن علي رضي الله عنهما: «إلا مَوَدَّةً في القربى»[٢].

هذا، ومن الشيعة من أورد الآيةَ في مقام الاستدلال على إمامة عليٍّ كرم الله تعالى وجهه؛ قال: عليٌّ كرم الله تعالى وجهه واجبُ المحبة، وكلُّ واجبِ المحبة واجبُ الطاعة، وكلُّ واجبِ الطاعة صاحبُ الإمامة، ينتج: عليٌّ رضي الله عنه صاحبُ الإمامة. وجعلوا الآيةَ دليلَ الصُّغرى.

ولا يخفى ما في كلامهم هذا من البحث:

أما أولاً: فلأنَّ الاستدلالَ بالآية على الصُّغرى لا يتمُّ إلا على القول بأنَّ معناها: لا أسألُكم عليه أجراً إلا أن تودُّوا قرابتي، وتُحِبُّوا أهلَ بيتي، وقد ذهب الجمهور إلى المعنى الأول، وقيل في هذا المعنى: إنه لا يناسب شأنَ النبوة لِمَا فيه من التُّهمَة، فإنَّ أكثرَ طلبةِ الدنيا يفعلون شيئاً ويسألون عليه ما يكون فيه نَفْعٌ لأولادهم وقراباتهم، وأيضاً فيه منافاةٌ مّا لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [يوسف: ١٠٤].

وأما ثانياً: فلأنَّا لا نُسلِّم أنَّ كلَّ واجبِ المحبة واجبُ الطاعة، فقد ذكر ابن بابويه[٣] في كتاب «الاعتقادات» أنَّ الإمامية أجمعوا على وجوب محبة العلوية مع أنه لا يجب طاعةُ كلٍّ منهم.

وأما ثالثاً: فلأنَّا لا نُسلِّم أن كلَّ واجبِ الطاعة صاحبُ الإمامة، أي: الزعامة الكُبرى، وإلا لكان كلُّ نبي في زمنه صاحبَ ذلك، ونصُّ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ [البقرة: ٢٤٧] يأبى ذلك.

---

(١) البيت للنابغة الذبياني، وهو في ديوانه ص١١، وعجزه: بهنَّ فُلولٌ من قِراع الكتائب.
(٢) أوردها أبو حيان في البحر ٧/٥١٦.
(٣) محمد بن علي بن الحسين القُمِّي، رأس الإمامية، وصاحب التصانيف السائرة بينهم، يضرب بحفظه المثل. السير ١٦/٣٠٣.

وأما رابعاً: فلأن الآيةَ تقتضي أن تكون الصُّغرى: أهلُ البيت واجبو الطاعة، ومتى كانت هذه صُغرى قياسهم لا ينتج النتيجة التي ذكروها ولو سُلِّمت جميع مُقدِّماته، بل ينتج: أهلُ البيت صاحبو الإمامة، وهم لا يقولون بعمومه. إلى غير ذلك من الأبحاث، فتأمَّلْ ولا تَغْفُلْ.

﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾ أي: يكتسب أيَّ حسنةٍ كانت، والكلام تذييلٌ، وقيل: المرادُ بالحسنة المَودَّة في قُربى الرسول ﷺ، ورُوي ذلك عن ابن عباس والسُّدي، وأنَّ الآيةَ نزلت في أبي بكر رضي الله عنه لِشدَّة محبته لأهل البيت[١]، وقصةُ فَدَك والعوالي لا تأبى ذلك عند من له قلبٌ سليم[٢]. والكلام عليه تتميمٌ، ولعلَّ الأولَ أَوْلى، وحبُّ آل الرسول عليه الصلاة والسلام من أعظم الحسنات، وتدخلُ في الحسنة هنا دخولاً أوليّاً.

﴿نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا﴾ أي: في الحسنة ﴿حُسْنًا﴾ بمضاعفة الثوابِ عليها، فإنها يُزاد بها حُسن الحسنة، فـ «في» للظرفية و«حُسناً» مفعولٌ به أو تمييز.

وقرأ زيد بن عليّ، وعبد الوارث عن أبي عمرو، وأحمد بن جُبير عن الكسائي: «يزد» بالياء، أي: يزد اللهُ تعالى، وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو: «حُسنى» بغير تنوين[٣]، وهو مصدرٌ كَبُشرى، أو صفةٌ لموصوفٍ مقدَّرٍ، أي: صفة أوخَصْلة حُسنى.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ ساترٌ ذنوبَ عباده ﴿شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾ مُجازٍ مَن أطاع منهم بتوفيةِ الثواب والتفضُّل عليه بالزيادة، وقال السُّدي: غفورٌ لذنوب آل محمد ﷺ شكورٌ لحسناتهم.

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ بل أيقولون ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾ محمد عليه الصلاة والسلام ﴿عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بدعوى النبوة أوالقرآن، والهمزة للإنكار التوبيخي، و«بل» للإضراب من غير

(١) ذكره الرازي في تفسيره ٢٧/ ١٦٧، والبيضاوي في تفسيره (بهامش حاشية الشهاب) ٧/ ٤١٩.
(٢) ينظر في هذه القصة ما سلف ٥/ ٣٤٥.
(٣) القراءتان في البحر المحيط ٧/ ٥١٦. وهما غير المشهور عن أبي عمرو والكسائي.

إبطال، وهو إضرابٌ أطمُّ من الأول فأطم، فإنَّ إثباتَ ما هم عليه من الشرع وإنْ كان شرّاً وشركاً أقربُ من جَعْل الحقِّ الأبلج المُعتضِد بالبرهان النيِّر مِن أوسطهم فضلاً ودَعَةً وعقلاً افتراءً ثم افتراء على الله عز وجل، فكأنه قيل: أَيَتمالكون التفوُّه بنسبةِ مثلهِ عليه الصلاة والسلام إلى الافتراء[1] على الله عز وجل الذي هو أعظمُ الفِرى وأفحشُها ولا تحترقُ ألسنتهم؟!

وفي ذلك أتمُّ دلالة على بُعده ﷺ من الافتراء، كيف وقد أَردف بقوله تعالى: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ﴾ فإنَّ هذا الأسلوبَ مُؤدَّاه استبعادُ الافتراء من مثله عليه الصلاة والسلام، وأنه في البُعد مثلُ الشِّرك بالله سبحانه والدخول في جملة المختومِ على قلوبهم؛ فكأنه قيل: فإن يشأ اللهُ سبحانه يَجْعَلْكَ من المختومِ على قُلوبهم حتى تفتريَ عليه الكَذب، فإنه لا يجترئ على افتراء الكذبِ على الله تعالى إلا مَنْ كان في مِثْل حالهم، وهو في معنى: فإنْ يشأ يَجْعَلْكَ منهم، لأنهم هم المُفترون الذين شَرَعوا من الدين ما لم يأذَنْ به اللهُ تعالى، وما أحسنَ هذا التعريض بأنهم المُفترون، وأنهم في نفس هذه المَقالة عن افترائهم مُفترون، ونظيرُ الآية فيما ذُكر قولُ أمينٍ نُسِبَ إلى الخيانة: لعلَّ اللهَ تعالى خذلني، لعلَّ اللهَ تعالى أعمى قلبي، وهو لا يُريد إثباتَ الخِذْلان وعمى القلب، وإنما يريدُ استبعادَ أن يُخوَّنَ مِثْله، والتنبيهَ على أنه رُكب من تخوينه أمرٌ عظيم، فالكلامُ تعليلٌ لإنكار قولهم.

وأتى بـ «إنْ» مع أنَّ عدمَ مشيئته تعالى مقطوعٌ به قيل: إرخاء للعنان، وقيل: إشعاراً بعظمته تعالى، وأنه سبحانه غنيٌّ عن العالمين.

ثم ذيَّل بقوله تعالى: ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ﴾ تأكيداً للمفهومِ من السابق مِنْ أنه ليس من الافتراء في شيء، أي: كيف يكون افتراء ومِن عادته تعالى محوُ الباطل ومَحْقُه، وإثباتُ الحقِّ بوحيه أوبقضائه، وما أتى به عليه الصلاة والسلام يزدادُ كلَّ يوم قوةً ودَحْراً[2]، فلو كان مُفترِياً كما يَزْعُمون لَكشفَ اللهُ تعالى افتراءه ومَحَقَهُ وقذفَ بالحقِّ على باطلِهِ فَدَمَغَهُ.

---

(١) بعدها في (م): ثم إلى الافتراء.

(٢) في (م): ودحواً!

والفعلُ المضارع للاستمرار، والكلامُ ابتدائي، فـ «يمحُ» مرفوعٌ لا مجزوم بالعطف على «يختم»، وأُسقطَت الواو في الرَّسم في أغلبِ المصاحف تبعاً لإسقاطها في اللفظ لالتقاءِ الساكنين كما في ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨] و﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ﴾ [الإسراء: ١١] وكان القياسُ إثباتَها رسماً، لكن رَسْم المُصحف لا يلزم جَرْيُه على القياس، ويُؤيِّد الاستئنافَ دون العطف على «يختم» إعادةُ الاسم الجليل ورفع «يُحِقّ». وهذا ما ذكره جار الله[1] في الجملتين وبيانِ ارتباطهما بما قبلهما.

وقد دقَّق النظر في ذلك وأتى بما استحسنه النُّظار، حتى قال العلامة الطيبي: لو لم يكن في كتابه إلا هذا لَكفاه مَزِيَّةً وفَضْلاً، وجوّز هو أيضاً في قوله تعالى: «ويَمْحُ» إلخ أن يكون عِدَةً لرسول الله ﷺ بالنصر، أي: يمحو اللهُ تعالى باطِلَهم وما بهتوكَ به، ويُثْبت الحقَّ الذي أنت عليه بالقرآن وبقضائه الذي لا مردَّ له، وحينئذ يكون اعتراضاً يُؤكِّد ما سيق[2] له الكلامُ من كونهم مُبطلين في هذه النسبة إلى مَن هو أصدقُ الناس لهجةً بأصدق حديث من أصدق مُتكلِّم.

وقال في «إرشاد العقل السليم» في الجملة الأُولى: إنها استشهادٌ على بطلان ما قالوه ببيان أنه عليه الصلاة والسلام لو افترى على الله تعالى كَذِباً لمنعه من ذلك قطعاً، وتحقيقُه أنَّ دعوى كون القرآن افتراءً عليه تعالى قولٌ منهم أنه سبحانه لا يشاء صُدوره عن النبي ﷺ، بل يشاء عدمَ صدوره عنه، ومن ضرورياته منعُه عنه قطعاً، فكأنه قيل: لو كان افتراءً عليه تعالى لشاء عدمَ صدوره عنك، وإنْ يشأ ذلك يختِمْ على قلبك بحيث لم يخطرْ ببالك معنًى من معانيه، ولم تنطِقْ بحرف من حروفه، وحيث لم يكن الأمرُ كذلك، بل تواترَ الوحيُ حيناً فحيناً، تبيَّن أنه من عند الله عز وجل. وذكر في الجملة الثانية ما ذكره جار الله من الوجهين[3].

ولا يخفى عليك ما يَرِدُ على كلامه من المنع، مع أنَّ فيه جَعْلَ مفعول المشيئة غيرَ ما يدلُّ عليه الجواب، وهو ذلك المشارُ به إلى عدم الصدور، والمتبادرُ كون

---

(١) في الكشاف ٣/ ٤٦٨.
(٢) في الأصل: سبق.
(٣) تفسير أبي السعود ٨/ ٣١.

المفعول الختمَ على ما هو المعروف في نظائر هذا التركيب، أي: فإنْ يشأ اللهُ تعالى الخَتْم على قلبك يَخْتِم. وإيهامَ كون القرآن ناشئاً منه ﷺ لا مُنزلاً عليه عليه الصلاة والسلام.

وقال السمرقندي: المعنى: إنْ يشأ يختِمْ على قلبك كما فعل بهم، فهو تسليةٌ له عليه الصلاة والسلام وتذكيرٌ لإحسانه إليه وإكرامه له ﷺ لِيشكر ربَّه سبحانه ويترحَّم على مَن خُتِمَ على قلبه فاستحقَّ غضب ربِّه، ولولا ذلك ما اجترأ على نسبته لما ذكر، فالتفريعُ بالنظر إلى المعنى المَكْني عنه، وحاصلُه أنهم اجترؤوا على هذا لأنهم مطبوعون على الضلال. انتهى. وفيه شمةٌ مما ذكره الزمخشري.

وعن قتادة وجماعة: «يختِمْ على قلبك»: يُنْسِكَ القرآن، والمرادُ على ما قال ابن عطية: الردُّ على مقالةِ الكُفَّار وبيانُ بطلانها، كأنه قيل: وكيف يصحُّ أن تكونَ مفترياً وأنت من الله تعالى بمرأى ومَسْمعٍ، وهو سبحانه قادرٌ، ولو شاء لختم على قلبكَ فلا تَعْقِل ولا تَنْطِق، ولا يستمرّ افتراؤك[1]. وفيه أنَّ اللفظ ضيقٌ عن أداء هذا المعنى.

وذكر القشيري[2] أن المعنى: فإنْ يشأ اللهُ تعالى يختِمْ على قلوب الكُفَّار وعلى ألسنتهم ويُعاجلهم بالعذاب، وعَدَلَ عن الغيبة إلى الخطاب ومن الجَمْع إلى الإفراد. وحاصلُه: يَختِم على قلبك أيها القائل: إنه عليه الصلاة والسلام افترى على الله تعالى كَذِباً. وفيه من البُعد ما فيه، مع أن الكُفَّار مختومٌ على قلوبهم.

وقال مجاهد ومقاتل: المعنى: فإن يشأ يربطْ على قلبك بالصبر على أذاهم حتى لا يشقَّ عليك قولُهم: إنك مُفْتَرٍ. ولا مانعَ عليه من عطف «يَمْحُ» على جواب الشرط، بل هو الظاهر، فيكون سقوطُ الواو للجازم، و«يُحِقُّ» حينئذ مستأنفٌ، أي: وإنْ يشأ يمحُ باطِلَهم عاجلاً، لكنه سبحانه لم يَفعلْ لحكمةٍ، أومطلقاً، وقد فعل جلَّ وعلا بالآخرة وأظهر دينَه.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٣٤-٣٥.

(٢) كما في تفسير القرطبي ١٨/ ٤٧١.

وقيل: لا مانعَ من العطفِ على بعض الأقوالِ السابقة أيضاً، أي: إنْ يشأ يمحُ افتراءك لو افتريتَ. وهو كما ترى.

وكذا جُوِّز كونُ الجملة حاليةً وإنْ أحوجَ ذلك إلى تقدير المبتدأ، وفيه تكلفٌ مستغنًى عنه.

وربما يقال: إنَّ جملة «فإنْ يشأ اللهُ يَخْتِمْ» من تتمةِ قولهم مفرَّعاً على «افترى»، كأنه قيل: افترى على الله كذباً، فإنْ يشأ اللهُ يختِمْ على قلبه بسببِ افترائه فلا يعقِلُ شيئاً، أوكأنه قيل: افتريتَ على الله فإنْ يشأ يختِمْ على قلبك جزاءَ ذلك، إلا أنَّ نكتةَ اختيار الغَيبةِ في إحدى الجملتين والخطابِ في الأخرى غيرُ ظاهرة، وكونُها الإشارة إلى أنَّ مَن افترى يحقُّ أن يُواجَه بالجَزاء ليس مما يهشُّ له السامع فيما أرى.

ولعلَّ الأولى أن يكون «فإن يشأ» إلخ مفرَّعاً على كلامهم، خارجاً مخرجَ التهكُّم بهم، ولا بأس حينئذ بعطف «يمحُ» على جوابِ الشرط، ويُرادُ بالباطل ما هو باطلٌ بِزَعْمهم، كأنه قيل: أَمْ يقولون افترى على الله، فإذاً إن يشأ اللهُ يختِمْ على قلبك ويمحُ ما يَزْعُمون أنه باطل، وهذا كما تقول لمن أخبرَكَ أن زيداً افترى عليك وأنت تعلمُ أنه لم يَفْتَرِ، وإنما أدَّى عنك ما أمرتَه به: فإذاً نُؤدِّبه وننتقم منه ونمحو افتراءَه؛ تقصِدُ بذلك التهكُّمَ بالقائل. فتأمل.

فهذه الآية ـ كما قال الخفاجي[1] ـ من أصعبِ ما مرَّ في كلامه تعالى العظيم، وفَّقنا اللهُ تعالى وإيَّاكم لِفَهْم مَعانيه والوقوفِ على سرِّه وخافيه.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾ فيعلم سبحانه ما في صدرك وصدورهم فيُجري جلّ وعلا الأمرَ على حسب ذلك.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ بالتجاوز عما تابوا عنه، والقَبولُ يُعدَّى بعن لِتضمُّنه معنى الإبانة، وبمن لتضمُّنه معنى الأخذ كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ﴾ [التوبة: ٥٤] أي: تُؤخذ.

---

(١) في حاشيته على البيضاوي ٧/ ٤١٩.

وقيل: القَبول مُضمَّنٌ هنا معنى التجاوز، والكلامُ على تقدير مضاف، أي: يقبل التوبةَ مُتجاوِزاً عن ذنوب عباده. وهو تكلُّف.

والتوبة: أن يرجِعَ عن القَبيح والإخلال بالواجب في الحال، ويندمَ على ما مضى ويَعزِمَ على تركه في المستقبل، وزادوا التَّفَصِّي[1] منه بأي وجه أمكن إنْ كان الذنبُ لعبدٍ فيه حقٌّ، وذلك بالردِّ إليه أو إلى وكيلهِ، أو الاستحلال منه إن كان حيّاً، وبالردِّ إلى ورثتهِ إنْ كان ميتاً وَوُجِدوا، ثم القاضي لو كان أميناً ـ وهو كالإكسير، ومَن رأى الإكسير؟! ـ فإنْ لم يَقدِرْ على شيء من ذلك يتصدَّق عنه، وإلا يَدْعُ له ويستغفر.

وفي «الكشف»: التفصِّي داخلٌ في الرجوع؛ إذْ لا يصحُّ الرجوعُ عنه وهو ملتبسٌ به بعدُ، واختير أن حقيقتها الرجوعُ، وإنما الندمُ والعزمُ ليكونَ الرجوعُ إقلاعاً، ويتحقَّقَ أنه التوبة التي ندبنا إليها، وهو موافقٌ لِمَا في «الإحياء» من أنها اسمٌ لتلك الحالة بالحقيقة، والباقي شروطُ التحقُّق.

ويُشترط أيضاً أن يكون الباعثُ على الرجوع مع الندم والعزم دينيًّا، فلو رَجَعَ لمانعٍ آخرَ من ضَعْفِ بدن أو غرم لذلك لم يكن من التوبة في شيء، وأشار الزمخشري[2] إلى ذلك بكون الرُّجوعِ لأنَّ المرجوعَ عنه قبيحٌ وإخلالٌ بالواجب، وخرج عنه ما لو رَجَع طلباً للثناء أورِياء أوسُمعةً؛ لأنَّ قبحَ القبيح معناه كونُه مقتضياً للعقاب آجلاً وللذمِّ عاجلاً، فلو رَجَعَ لِمَا سبق لم يكن رجوعاً لذلك.

وروى جابر أنَّ أعرابيّاً دخل مسجدَ رسول الله ﷺ وقال: اللهم إني أستغفرك وأتوبُ إليك، وكبَّر، فلما فرغَ من صلاته قال له عليّ كرم الله وجهه: إن سُرعةَ اللسان بالاستغفار توبةُ الكذَّابين، وتوبتُك تحتاج إلى التوبة. فقال: يا أمير المؤمنين، ما التوبة؟ قال: اسمٌ يقعُ على ستةِ معانٍ: على الماضي من الذنوب الندامة، ولتَضْيِيعِ الفرائض الإعادة، وردّ المظالم، وإذابةُ النفس في الطاعة كما ربَّيتها في المعصية، وإذاقةُ النفس مرارةَ الطاعة كما أذقتها حلاوةَ المعصية،

(١) التفصِّي: التخلُّص من خير أو شر. القاموس المحيط (فصي).
(٢) في الكشاف ٣/ ٤٦٨.

والبكاءُ بدل كلِّ ضَحِكٍ ضَحِكْتَه[1].

وهذا يَحْتَمِلُ أن تكون التوبةُ مجموعَ هذه الأمور، فالمرادُ أكملُ أفرادها، ويحتمل أنها اسمٌ لكلِّ واحد منها، والأولُ أظهرُ.

واختلف في التوبة عن بعض المعاصي مع الإصرار على البعض؛ هل هي صحيحة أمْ لا؟ والذي عليه الأصحاب أنها صحيحةٌ؛ لِظواهر الآياتِ والأحاديث، وصِدْقِ التعريف عليها.

وأكثرُ المعتزلةِ على أنها غيرُ صحيحة، قال أبو هاشم منهم: لو تاب عن القَبيح لكونه قبيحاً وجب أن يتوبَ عن كلِّ القبائح، وإنْ تاب عنه لا لمجرَّد قُبحه بل لِغرض آخرَ لم تَصِحَّ توبتُه.

وتُعقِّب بأنه يجوز أن يكونَ الباعثُ شدةَ القُبح أو أمراً دينيّاً آخرَ، وأيضاً يجري نظيرُ هذا في فعل الحَسَنِ، بل يقال: لو فعل الحسنَ لكونه حسناً وجب عليه أن يفعلَ كلَّ حسن، وإنْ فعله لِغرضٍ آخرَ لم يُقبل. وفيه بحث.

واستدلَّ المعتزلة بالآية على أنه يجب عليه تعالى قَبول التوبة. واستدلَّ أهلُ السنة بها على عدم الوجوب، لمكان التمدُّح، ولا تمدُّحَ بالواجب، وفيه أيضاً بحثٌ، وإلا نفع في هذا المقام أدلةُ نفي الوجوب مطلقاً عليه عز وجل.

﴿وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ صغائرها وكبائرها لمن يشاء من غير اشتراطِ شيء، كالتوبة للكبائر واجتنابها للصغائر. وقال الطيبي: المعنى: من شأنه ـ تعالى شأنُه ـ قَبولُ التوبة عن عباده إذا تابوا، والعفوُ عن سيئاتهم بمحض رحمته أو بشفاعةِ شافع.

وقال المعتزلة: أي: يعفو عن الكبائر إذا تِيبَ عنها، وعن الصغائر إذا اجتُنبت الكبائر، فالعفو عن السيئات عليه أعمُّ من قَبول التوبة لِشُموله الصغائر إذا اجتنبت الكبائر، وهو تعميمٌ بعد تخصيص.

والظاهرُ مع أهل السنة؛ إذْ لا دلالة في النظم الجليل على تخصيص السيئات، نعم المرادُ بها غير الشِّرك بالإجماع.

---

(١) أخرجه الثعلبي في تفسيره ٨/ ٣١٥.

﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ۝﴾ بتاء الخطاب عند حفص والأخوين وعلقمة وعبد الله، وبياء الغيبة عند الجمهور[1]، وعلى الأول ففيه التفاتٌ، و«ما» موصولة، والعائدُ محذوف، أي: يعلم الذي تفعلونه كائناً ما كان من خير وشرّ، فيجازي بالثواب والعِقاب، أويتجاوزُ سبحانه بالعفو حسبما تقتضيه مشيئتُه جلَّ وعلا المَبْنيَّةُ على الحِكَم والمَصَالح.

وقيل: يعلم ذلك فيجازي التائبَ، ويتجاوزُ عن غيره إذا شاء سبحانه، والأولُ أظهر. وفي «الكشاف»[2]: يعلم سبحانه ذلك فَيُثيب على الحسنات ويُعاقِبُ على السيئات. وفي «الكشف» بعد نقله: هو - أي: قوله تعالى: «ويعلم» إلخ - تذييلٌ للكلام السابق يؤكِّد ما ذكره من القَبول والعفو؛ لأنه تعالى إذا علم العَمَلين والعاملين جازى كلًّا بما فعل، فأولى أنْ يُجازي هؤلاء المحسنين بأفعالهم، ثم فيه لطفٌ وحثٌّ على لزوم الحَذَر منه تعالى، والإخلاصِ له سبحانه في إمحاض التوبة، ونحن أيضاً لا نُنكر أنه تذييلٌ فيه تأكيدٌ كما لا يخفى.

﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ عطفٌ على «يقبل التوبة» فالفاعل ضميرُه تعالى. و«الذين» مفعول بدون تقدير شيء بناءً على أنَّ «يستجيب» يتعدَّى بنفسه كما يتعدَّى باللام، نحو: شكرتُه وشكرتُ له، أوبتقدير اللام على أنه من باب الحذف والإيصال، والأصل: يستجيبُ للذين آمنوا، بناءً على أنه يتعدَّى للداعي باللام، وللدعاء بنفسه، ونحوُ هذا قوله:

وداعٍ دعا يا من يُجيبُ إلى النَّدى ... فلم يَستجبه عند ذاك مُجيبُ[3]

وأَجابَ واستجابَ بمعنًى، أي: ويُجيب اللهُ تعالى الذين آمنوا إذا دَعَوْا، وحاصِلُه: يُجيب دعاءَهم. وجوَّز بعضُهم أن يكونَ الكلامُ بتقدير هذا المضاف، قيل: وهو أولى من القول بإيصال الفعل بحذف الصِّلة؛ لأنَّ حذف المضاف إذا لم يلبس مُنقاس، وذاك مسموع.

---

(١) التيسير ص١٩٥، والنشر ٢/ ٣٦٧. والأخوان: هما حمزة والكسائي.
(٢) ٣/ ٤٦٩.
(٣) البيت لكعب بن سعد الغنوي، وهو في الأصمعيات ص٩٦.

ويجوز أن يكون المرادُ: يُثيبهم على طاعتهم، فإنَّ الطاعةَ لكونها طَلَبَ ما يترتَّب عليها من الثواب شابهَتِ الدعاءَ وشابهت الإثابةُ عليها الإجابةَ، ومن هذا يُسمَّى الثناءُ دعاءً؛ لأنه يترتَّب عليه ما يترتَّب عليه. وسُئل سفيان عن قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث: «أكثرُ دعائي ودُعاءُ الأنبياء قبلي: لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، له الملك، وله الحمد، وهو على كلِّ شيء قدير»[١] فقال: هذا كقوله تعالى في الحديث القدسي: «مَنْ شغله ذِكْري عن مسألتي أعطيته أفضلَ ما أُعطي السائلين»[٢] ألا ترى قولَ أُمية بن الصَّلت لابن جدعان حين أتاه يبغي نائله:

أأذكُر حاجتي أَمْ قد كَفاني ... ثناؤك إنَّ شيمتَكَ الحياء
إذا أَثنى عليك المرءُ يوماً ... كفاه عن تعرُّضك الثناء[٣]

وجعلوا من ذلك قوله ﷺ: «أفضلُ الدُّعاء الحمدُ لله»[٤] على معنى أنَّ الحمدَ يدلُّ على الدعاء والسؤال بطريق الكناية والتعريض.

وقيل: هو على إطلاق الدُّعاء على الحمد لشبهه به في طلب ما يترتَّب عليه.

وجُوِّز أنْ يُرادَ بالإجابة معناها الحقيقيُّ والإثابة بناءً على القول بصحة الجمع بين الحقيقة والمجاز، أي: يُجيب دعاءَهم ويُثيبهم على الطاعة ﴿وَيَزِيدُهُم﴾ على ما سألوا واستحقُّوا ﴿مِّن فَضْلِهِۦ﴾ الواسع جلَّ شأنُه.

وقيل: إنَّ فاعل«ويستجيبُ»: «الذين آمنوا»، واستظهره أبو حيان[٥]، والجملةُ عطفٌ على مجموع قوله تعالى: (هو ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ) إلخ، أي: ينقادون لله تعالى ويُجيبونه سبحانه إذا دعاهم، وهو المرويُّ عن ابن جُبير.

وعن إبراهيم بن أدهم أنه قيل له: ما لنا ندعو فلا نُجاب؟ فقال: لأنه سبحانه

---

(١) سلف ١١/ ٤٢-٤٣.
(٢) سلف عند تفسير الآية (٢٠) من سورة الإسراء.
(٣) ديوان أمية ص١٧، وشرح الحماسة للمرزوقي ٤/ ١٧٨١، وفيهما: حياؤك، بدل: ثناؤك. و: من تعرُّضه، بدل: عن تعرُّضك.
(٤) أخرجه الترمذي (٣٣٨٣)، وابن ماجه (٣٨٠٠) من حديث جابر رضي الله عنه.
(٥) في البحر المحيط ٧/ ٥١٧.

دعاكم فلم تُجيبوه، ثم قرأ: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٥] و(وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ)(١). وهذا يُؤكِّد هذا الوجهَ؛ لأنه ـ قُدِّس سرُّه ـ ذكر أن اللهَ تعالى دعاكم بقوله عز وجل: (وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ) وذكر أن المؤمن من استجابَ دعوةَ ربِّه تعالى بقوله: (وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ) فمن لا يُجيب دعاءه تعالى لا يُجيب تعالى أيضاً دعاءه.

وكون الفاعل ضميرَه تعالى قد رُوي ما يقتضيه عن ابن عباس ومعاذ بن جبل(٢). «ويَزيدهم» عليه عطفٌ على ما قبلَه، وعلى الوجه الآخر عطفٌ على مُقدَّر، أي: فَيُوفِّيهم أجورهم ويَزيدهم عليها، على أسلوب ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا﴾ [النمل: ١٥] وقوله سبحانه: (مِّن فَضْلِهِۦٓ) متعلِّقٌ بـ «يزيدهم» مطلقاً، وجُوِّز تعليقُه بالفعلين على التنازع، فإنَّ الإجابةَ والثوابَ فضلٌ منه تعالى كالزيادة. وأيًّاما كان فالظاهرُ عمومُ «الذين آمنوا».

ورُوي عن سعيد بن جُبير [عن ابن عباس] أن رسول الله ﷺ حين قَدِمَ المدينةَ واستحكم الإسلامُ قالت الأنصار فيما بينها: نأتي رسولَ الله عليه الصلاة والسلام ونقول له: إنْ تَعْرُكَ أمورٌ فهذه أموالُنا تحكم فيها. فنزلت: (قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ) فقرأها عليهم، وقال: «تودُّون قرابتي من بعدي» فخرجوا مُسلِّمين، فقال المنافقون: إنَّ هذا لشيءٌ افتراه في مَجْلسه أراد بذلك عزَّ قرابته من بعده. فنزلت: (أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا) فأَرسل إليهم، فتلاها عليهم، فبكَوْا ونَدِموا، فأنزل الله تعالى: (وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ) فأرسلَ ﷺ إليهم فَبشَّرهم، وقال: (وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ) وهم الذين سَلَّموا لقوله. ذكر ذلك الطبرسي(٣)، وذكر قريباً منه في «الدر المنثور» لكن قال: أخرجه الطبراني في «الأوسط» وابن مردويه عن ابن جُبير بسند ضعيف(٤)، والذي يغلب على الظنّ الوضع.

---

(١) الكشاف ٣/٤٦٩.
(٢) قول معاذ ﷺ أخرجه الطبري ٢٠/٥٠٧، وذكره عنهما ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/٣٥.
(٣) في مجمع البيان ٢٥/٥٠، وما سلف بين حاصرتين منه.
(٤) الدر المنثور٦/٧، وهو في المعجم الأوسط (٥٧٥٨)، وفي الكبير (١٢٣٨٤)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/١٠٣: فيه عثمان بن عمير أبو اليقظان، وهو ضعيف.

﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾ بَدَلَ ما للمؤمنين من الإجابة والتفضُّل.

﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لَتكبَّروا فيها بطراً، وتجاوزوا الحدَّ الذي يليقُ بالعبيد، أولَظلَمَ بعضُهم بعضاً، فإنَّ الغِنى مَبْطرةٌ مَأْشرةٌ، وكفى بحال قارونَ عبرةً، وفي الحديث: «أَخْوَفُ ما أخاف على أُمتي زهرةُ الدنيا وكَثْرتُها»(١) ولبعض العرب:

وقد جعل الوَسْميُّ يُنبت بيننا وبين بني رومان نَبْعاً وشَوْحَطا(٢)

وأصلُ البغي طلبُ أكثر مما يجب بأنْ يتجاوز في القَدْر والكمية، أو في الوصف والكيفية.

﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ﴾ بالتشديد، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالتخفيف من الإنزال(٣).

﴿بِقَدَرٍ﴾ بتقديرٍ ﴿مَّا يَشَآءُ﴾ وهو ما اقتضَتْه حِكمتُه جلَّ شأنه.

﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾ محيطٌ بخفيَّات أُمورهم وجَلاياها، فيقدِّر لكلِّ واحد منهم في كل وقت من أوقاتهم ما يَليق بشأنه، فَيُفقِر ويُغني، ويمنع ويُعطي، ويقبِضُ ويَبسطُ، حسبما تقتضيه الحِكمةُ الربَّانية، ولو أغناهم جميعاً لَبَغَوْا، ولو أفقرهم لهلكوا.

واستشكلَت الآيةُ بأنَّ الغِنى كما يكون سببَ البغي فكذلك الفقر قد يكون، فلا يظهر الشرطية.

وأجاب جارُ الله(٤) بأنه لا شُبهة أن البغي مع الفقر أقلُّ، ومع البَسْطِ أكثرُ

---

(١) أخرجه أحمد (١١١٥٧)، والبخاري (١٤٦٥)، ومسلم (١٠٥٢) بنحوه، من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٢) أورده أبو العلاء في رسالة الصاهل والشاحج ص٥٤٠، وابن قتيبة في المعاني الكبير ٢/ ٨٩٥، وبنو رومان: رَهْط من طيِّئ، كما في الاشتقاق ص٣٨٠. والوَسْمي: مطر الربيع الأول، كما في القاموس (وسم)، والنبع والشوحط: ضربان من الشجر، وهي هاهنا القِسيّ. قاله ابن قتيبة.

(٣) التيسير ص٧٥، والنشر ٢/ ٢١٨.

(٤) في الكشاف ٣/ ٤٦٩.

وأغلبُ، وكلاهما سببٌ ظاهر للإقدام على البغي والإحجام عنه، فلو عمَّ البسط لغلبَ البغيُ حتى ينقلبَ الأمرُ إلى عكس ما عليه الآن.

وأراد ـ واللهُ تعالى أعلمُ ـ أن نظامَ العالم على ما هو عليه يستمرّ وإن كان قد يصدرُ من الغني في بعض الأحيان بغيٌ، ومن الفقير كذلك، لكن في أحدِهما ما يدفعُ الآخرَ، أما لو أفقرهم كلَّهم لكان الضَّعفُ والهُلْكُ لازماً، ولو بسطَ عليهم كلِّهم مع أن الحاجةَ طبيعيةٌ لكان من البغي ما لا يُقادَر قَدْرُه؛ لأن نظامَ العالم بالفقر أكثرُ منه بالغنى، وهذا أمرٌ ظاهرٌ مكشوفٌ. ثم إن الفقرَ الكُلِّي لا يُتصوَّر معه البغي، للضَّعف العامِّ، ولأنه لا يَجِدُ حاجته عند غيره لِيَظْلمه، وأما الغِنى الكُلِّي فعنده البغي التامّ. وأما الذي عليه سنَّةُ الله عز وجل فهو الذي جمع الأمرين مُشتملاً على خوفٍ للغني من الفقراء يَزَعُه عن الظُّلم، وخوفٍ للفقير من الأغنياء أكثرَ منه يدعوه إلى التعاون لِيفوزَ بمبتغاه، ويَزَعُه عن البغي، ثم قد يَتَّفق بغيٌ من هذا أو ذاك.

كذا قرَّره صاحبُ «الكشف» ثم قال: وهذا جوابٌ حسنٌ لا تَكَلُّفَ فيه، وهو إشارةٌ إلى ردِّ العلَّامة الطيبي، فإنه زعم أنه جوابٌ مُتَكَلَّف، وأن السؤال قويّ، وذهب هو إلى أنَّ المرادَ بـ «عبادِه» مَنْ خصَّهم الله تعالى بالكَرامة وجعلهم من أوليائه، ثم قال: وينصره التذييلُ بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ ووضع المُظهر موضعَ المُضمَر، أي: إنه تعالى خبيرٌ بأحوال عبادِهِ المُكرمين بصيرٌ بما يُصلحهم وما يُرْدِيهم، وإليه ينظرُ ما ورد عنه ﷺ: «إذا أحبَّ اللهُ تعالى عبداً حماهُ الدنيا كما يظلُّ أحدُكم يحمي سَقِيمَه الماء»[1] ويشدُّ من عَضُدِه قولُ خَبَّاب بن الأرَتّ: نظرنا إلى أموالِ بني قريظةَ والنضير وبني قَيْنُقاع فتمنَّيناها، فنزلت ﴿وَلَوْ بَسَطَ﴾ الآية، وقولُ عمرو بن حريث[2]: طلبَ قومٌ من أهل الصُّفَّة من الرسول ﷺ

(١) أخرجه الترمذي (٢٠٣٦) من حديث قتادة بن النعمان رضي الله عنه.

(٢) المخزومي، كان من بقايا أصحاب رسول الله ﷺ الذين كانوا نزلوا الكوفة، مولده قُبيل الهجرة، توفي سنة (٨٥هـ). السير ٣/ ٤١٧.

أن يُغنيهم اللهُ تعالى ويبسطَ لهم الأموالَ والأرزاق، فنزلت[١]، وعليه تفسيرُ محيي السنة[٢]. انتهى.

ولا يخفى أن الأنسبَ بحال المُكرَمين المُصْطَفين من عباده تعالى أن لا يُبْطِرهم الغِنى لِصفاء بَواطنهم وقُوَّة توجُّههم إلى حظائر القُدس، ومَزيد تعلُّق قلوبهم بمحبوبهم ووقوفهم على حقائق الأشياء، وكمالِ عِلْمهم بمنتهى زخارف الحياة الدنيا، وأبناءُ الدنيا لو فكَّروا في ذلك حقَّ التفكُّر لهان أمرُهم وقَلَّ شَغَفُهم كما قيل:

لـو فـكَّـر الـعـاشـقُ فـي مُـنـتـهـى ... حُـسـن الـذي يَـسْـبـيـهِ لـم يَـسْـبـهِ[٣]

فلعلَّ الأولى ما تقدَّم، أويقال: إنَّ هذا في بعض العباد المؤمنين، فتأمَّل.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ أي: المطر الذي يُغيثهم من الجَدْب، ولذلك خُصَّ بالنافع منه، فلا يقال غيثٌ لكلِّ مطر. وقرأ الجمهور: «يُنْزِلُ» مُخفَّفاً[٤].

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ يَئِسوا منه، وتقييدُ تنزيله بذلك مع تحقُّقه بدونه أيضاً لتذكير كمال النعمة. وقرأ الأعمش وابن وثاب: «قَنِطوا» بكسر النون[٥].

﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ أي: منافعَ الغيث وآثارَه في كل شيء من السهل والجبل والنبات والحيوان، أو رحمته الواسعة المنتظمة لما ذُكر انتظاماً أوليًّا.

وقيل: الرحمةُ هنا ظهورُ الشمس؛ لأنه إذا دام المطرُ سُئِم، فتجيء الشمس بعدَه عظيمةَ الموقع. ذكره المهدوي، وليس بشيء.

ومن البعيد جدًّا ما قاله السدي من أن الرحمةَ هنا الغيثُ نفسُه؛ عدَّد النعمة نفسها بلفظين.

وأيًّا ما كان فضميرُ «رحمته» لله عز وجل، وجُوِّز على الأول كونُه للغيث.

---

(١) ذكر الخبرين الواحدي في أسباب النزول ص٣٩٦.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٢٧.

(٣) البيت للمتنبي، وهو في ديوانه ١/ ٣٣٧.

(٤) قرأ بالتخفيف ابنُ كثير وأبو عمرو ويعقوب وحمزة والكسائي وخلف، وقرأ باقي العشرة بالتشديد. التيسير ص٧٥، والنشر ٢/ ٢١٨.

(٥) ذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٦، وأبو حيان في البحر ٧/ ٥١٨.

﴿وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾ الذي يتولَّى عباده بالإحسان ونشر الرحمة ﴿ٱلْحَمِيدُ ٢٨﴾ المستحقُّ للحمد على ذلك، لا غيره سبحانه.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ على ما هما عليه من تعاجيب الصنائع، فإنها بذاتها وصفاتها تدلُّ على شؤونه تعالى العظيمة، ومَن له أدنى إنصافٍ وشعورٍ يجزمُ باستحالة صُدورِها من الطبيعة العديمةِ الشعور.

﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا﴾ عطفٌ على «السماوات»، أي: ومن آياته خلقُ ما بثَّ، أو عطفٌ على «خَلْقُ»، أي: ومن آياته ما بَثَّ.

و«ما» تحتمل الموصولية والمصدرية، والموصولية أظهرُ، ولا حاجةَ عليه إلى تقدير مضاف، أي: خلق الذي بثَّ، خلافاً لأبي حيان[1].

﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ أي: حيوان له دبيبٌ وحركة، وظاهرُ الآية وجودُ ذلك في السماوات وفي الأرض، وبه قال مجاهد، وفسَّر الدابة بالناس والملائكة، ويجوز أن يكون للملائكة مشيٌ مع الطيران. واعترَض ذلك ابنُ المُنيِّر[2] بأن إطلاق الدابَّةِ على الأناسيِّ بعيدٌ في عُرف اللُّغة، فكيف بالملائكة؟! وادَّعى أنَّ الأصحَّ كونُ الدوابِّ في الأرض لا غير، وما في أحدِ الشيئين يَصْدُقُ أنه فيهما في الجملة، فالآية على أسلوب ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] وذلك لقوله تعالى في البقرة: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ [الآية: ١٦٤] فإنه يدلُّ على اختصاص الدوابِّ بالأرض؛ لأن مَقامَ الإطناب يقتضي ذِكْره لو كان، لا للعمل بمفهوم اللَّقب الذي لا يقول به الجمهور.

والجوابُ أن التي في البقرة لمَّا كانت كلاماً مع الغبيِّ والفَهِم والمُسترشِد والمُعانِد جيء فيه بما هو معروفٌ عند الكلّ؛ وهو بثُّ الدوابِّ في الأرض، وأما هاهنا فجيء به مُدمجاً مختصراً لِمَا تكرَّر في القرآن ـ ولاسيما في هذه السورة ـ مِن كمالِ قُدرته على كلِّ ممكن فقيل: «ومن آياته خلق السماوات والأرض وما بث

(١) البحر المحيط ٧/ ٥١٨.
(٢) في الانتصاف (مع الكشاف) ٣/ ٤٧٠.

فيهما» مُؤثَراً على لفظ الخَلْق لِيدلَّ على التكثير الدالِّ على كَمال القُدرة، وبيّن بقوله تعالى: «مِنْ دابَّة» تعميماً وتغليباً لغير ذوي العلم في السماوي والأرضي تحقيقاً للمخلوقية، فقد ثبتَ في صحاح الأحاديث ما يدلُّ على وجودِ الدوابِّ في السماء من مراكبِ أهل الجنة وغيرها(١)، وكذلك ما يدلُّ على وجود ملائكةٍ كالأوعال(٢)، بل لا يبعدُ أن يكونَ في كل سماء حيواناتٌ ومخلوقاتٌ على صُوَرٍ شتى وأحوالٍ مختلفة لا نعلمُها، ولم يُذكَر في الأخبار شيء منها، فقد قال تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨] وأهلُ الأرصاد اليوم يتراءى لهم بواسطة نظَّاراتهم مخلوقاتٌ في جِرْم القمر لكنهم لم يُحقِّقوا أمرَها لِنَقْص ما في الآلات على ما يدَّعون، ويَحتمِلُ أن يكون فيما عدا القمر، ونفيُ ذلك ليس من المعلوم من الدين بالضرورة لِيضرَّ القولُ به.

وقيل: المرادُ بالسماوات جهاتُ العُلوّ المُسامتةُ للأقاليم مثلاً. وفي جوِّ كلِّ إقليم، بل كل بلدة، بل كل قطعة من الأرض، حيواناتٌ لا يحصي كَثْرتَها إلا الله تعالى، بعضُها يُحَسُّ بها بلا واسطةِ آلةٍ، وبعضُها بواسطتها.

وقيل: المراد بها السُّحب، وفيها من الحيوانات ما فيها.

وكلٌّ ذلك على ما فيه لا يُحتاج إليه، وكذا لا يُحتاج إلى ما ذهب إليه كثيرٌ من أن المرادَ بالدابَّة الحيّ مجازاً؛ إما من استعمال المُقيَّد في المُطلق، أو

---

(١) منها ما أخرجه أحمد (٢٢٩٨٢) عن بريدة الأسلمي ﷺ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني أحب الخيل، ففي الجنة خيل؟ قال: «إن يدخلك الله الجنة، فلا تشاء أن تركب فرساً من ياقوته حمراء تطير بك في أيِّ الجنة شئتَ، إلا ركبت» وجاء آخر فقال: يا رسول الله، أفي الجنة إبل؟ قال: «يا عبد الله، إن يدخلك الله الجنة، كان لك فيها ما اشتهت نفسك، ولذت عينك» وهو حديث ضعيف في إسناده عبد الرحمن المسعودي، اختلط بأَخَرة، وكل من روى عنه هذا الحديث ممن روى عنه بعد الاختلاط، وانظر ما ذكره القرطبي في هذا الباب في التذكرة ص٤٨٥.

(٢) أخرج أحمد (١٧٧٠) في حديث طويل عن العباس ﷺ، وفيه «... وفوق السماء السابعة بحر، بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال، بين ركبهن وأظلافهن كما بين السماء والأرض...» وفي إسناده يحيى بن العلاء البجلي، قال الدارقطني: متروك الحديث، وقال أحمد: كذاب يضع الحديث. كما في التقريب.

إطلاقِ الشيء على لازمه، أوالمُسبَّبِ على سببه؛ لأن الحياةَ سببٌ للدبيب وإن لم تكن الدابَّةُ سبباً للحي، فيكون مجازاً مُرسلاً تبعيّاً؛ لأن الاحتياجَ إلى ذلك عدولٌ عن الظاهر، ولا يُعدَلُ عنه إلا إذا دلَّ دليلٌ على خِلافه، وأين ذلك الدليل؟! بل هو قائمٌ على وجودِ الدوابِّ في السماء كما هي موجودةٌ في الأرض.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ أي: حَشْرهم بعد البَعْث للمحاسبة ﴿إِذَا يَشَآءُ﴾ ذلك ﴿قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ تامُّ القُدرة كامِلُها، و«إذا» متعلِّقة بما قبلها لا بـ «قدير»؛ لأن المُقيَّدَ بالمشيئة جَمْعُهُ تعالى لا قُدْرتُه سبحانه، وهي كما تدخلُ على الماضي تدخل على المضارع، ومنه قوله:

وإذا ما أشاءُ أبعثُ منها آخرَ الليل ناشطاً مذعورا[١]

وقولُ صاحب «الكشف»: لقائلٍ أن يُفرِّق بين «إذا» و«إذا ما» = الظاهرُ أنه ليس في مَحَلِّه، وقد نصَّ الخفاجي على عدمِ الفرقِ، وجعل القولَ به تَوَهُّماً[٢]، وكذا نصَّ على أنها تدخلُ على الفِعلين ظرفيةً كانت أوشرطية. وقيَّد ذلك الطيبيُّ بما إذا كانت بمعنى الوقت كما هنا.

وضمير «جمعهم» قيل: للسماوات والأرض وما فيهما على التغليب. وهو كما ترى. وقيل: للدوابِّ المفهوم مما تقدَّم، وضمير العقلاء للتغليب المناسب، لكون الجمع للمحاسبة. وقيل: للناس المعلوم من ذلك، ولعله الأولى.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ﴾ أيُّ مصيبة كانت من مصائبِ الدنيا، كالمرض وسائر النَّكَبات ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: فبسببِ معاصيكم التي اكتسبتموها، و«ما» اسمٌ موصول مبتدأ، والمبتدأ إذا كان موصولاً صِلتُه جملةٌ فعلية تدخلُ على خبره الفاءُ كثيراً لما فيه من معنى الشرط لإشعاره بابتناء الخبر عليه، فلذا جيء بالفاء هنا.

---

(١) البيت لكعب بن زهير، وهو في ديوانه ص٣٣، وفيه: مطلع، بدل: آخر.
(٢) حاشية الشهاب ٧/ ٤٢٢.

وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر في رواية وشيبة: «بما» بغير فاء[1]؛ لأنها ليست بلازمة، وإيقاعُ المبتدأ موصولاً يكفي في الإشعار المذكور، وحُكي عن ابن مالك أنه قال: اختلافُ القراءتين دلَّ على أن «ما» موصولة، فجيء تارةً بالفاء في خبرها وأُخرى لم يُؤْتَ بها حطّاً للمشبَّه عن المشبَّه به.

وجوِّز كون «ما» شرطية، واستظهره أبو حيان[2] في القراءة بالفاء، وجعلها موصولةً في القراءة الأُخرى بناءً على أنَّ حذفَ الفاء من جواب الشرط مخصوصٌ بالشعر عند سيبويه نحو:

مَـن يَـفْـعَـلِ الـحَـسَـنـاتِ اللهُ يـشـكـرُهـا[3]

والأخفش وبعضُ نُحاة بغداد أجازوا ذلك مطلقاً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وقال أبو البقاء: حذفُ الفاء من الجواب حسنٌ إذا كان الشرطُ بلفظ الماضي[4]. ويُعلم منه مزيدُ حسن حَذْفها هنا على جعل «ما» موصولة.

﴿وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ ۝٣٠﴾ أي: من الذنوب، فلا يُعاقِبُ عليها بمصيبة عاجلاً، قيل: وآجلاً.

وجُوِّز كونُ المراد بالكثير الكثيرَ من الناس. والظاهرُ الأول، وهو الذي تشهدُ له الأخبار؛ روى الترمذي عن أبي موسى أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لا يُصيبُ عبداً نكبةٌ فما فوقَها، أو دونها، إلا بذنبٍ، وما يعفو اللهُ تعالى عنه أكثرُ، وقرأ (وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ)»[5].

(١) التيسير ص١٩٥، والنشر ٢/ ٣٦٧، والبحر ٧/ ٥١٨، وعنه نقل المصنف.
(٢) في البحر المحيط ٧/ ٥١٨.
(٣) كتاب سيبويه ٣/ ٦٥، وعجزه: والشرُّ بالشرِّ عند الله مثلان. واختلف في قائله؛ قال البغدادي في الخزانة ٩/ ٥١: نسبه سيبويه وخَدَمَتُه لعبد الرحمن بن حسان بن ثابت ﷺ، ورواه جماعة لكعب بن مالك الأنصاري. وقد سلف ٦/ ١٥٢.
(٤) إملاء ما من به الرحمن (بهامش الفتوحات الإلهية) ٢/ ٦٣١.
(٥) سنن الترمذي (٣٢٥٢) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

وأخرج ابنُ المنذر وجماعةٌ عن الحسن قال: لمَّا نزلَتْ هذه الآيةُ ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم﴾ إلخ، قال عليه الصلاة والسلام: «والذي نفسي بيده، ما مِنْ خَدْشِ عودٍ، ولا اختلاجِ عِرْقٍ، ولا نكبةِ حَجَرٍ، ولا عَثْرةِ قَدَم، إلا بذنب، وما يعفو اللهُ عز وجل عنه أكثرُ»[1].

وأخرج ابن سعد عن أبي مُليكة أنَّ أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما كانت تُصدَّع فتضعُ يَدَها على رأسها وتقول: بذنبي، وما يَغفِرُه اللهُ تعالى أكثرُ[2].

ورؤي على كفِّ شُريح قرحةٌ، فقيل: بم هذا؟ فقال: بما كسبت يدي[3].

وسُئل عمران بن حُصين عن مرضه فقال: إنَّ أحبَّه إليَّ أحبُّه إلى الله تعالى، وهذا بما كَسَبَتْ يدي[4].

والآيةُ مخصوصةٌ بأصحاب الذنوب من المسلمين وغيرهم، فإنَّ مَنْ لا ذَنْبَ له كالأنبياء عليهم السلام قد تُصيبهم مصائب؛ ففي الحديث: «أشدُّ الناسِ بلاءً الأنبياءُ، ثم الأمثلُ فالأمثل»[5] ويكون ذلك لرفع درجاتِهم أو لحِكَم أُخرى خَفِيتْ علينا، وأما الأطفال والمجانين فقيل: غيرُ داخلين في الخِطاب؛ لأنه لِلمُكلَّفين، وبفرض دخولهم أخرجهم التخصيصُ بأصحابِ الذنوب، فما يُصيبهم من المصائب فهو لحِكَم خَفِيَّة.

وقيل: في مصائب الطفل رفعُ درجته ودرجةِ أبويه، أومن يُشفق عليه بحسن الصبر.

ثم إنَّ المصائبَ قد تكون عقوبةً على الذنب وجزاءً عليه بحيث لا يُعاقَبُ عليه يومَ القيامة، ويدلُّ على ذلك ما رواه أحمد في «مسنده» والحكيم الترمذي وجماعةٌ عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه قال: ألا أُخبركم بأفضلِ آيةٍ في كتاب الله تعالى

---

(١) وأخرجه هناد في الزهد (٤٣١)، وهو مرسل.

(٢) طبقات ابن سعد ٨/ ٢٥١.

(٣) ذكره أبو حيان في البحر ٧/ ٥١٨.

(٤) ذكره القرطبي في تفسيره ١٨/ ٤٧٩.

(٥) أخرجه أحمد (١٤٩٤) من حديث سعد بن مالك رضي الله عنه، وسلف ٥/ ٨٩.

حدَّثنا بها رسولُ الله ﷺ: «(وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ) وسأُفَسِّرها لك يا علي: ما أصابك من مرض، أوعقوبةٍ أوبلاءٍ في الدنيا فبما كسبَتْ أيديكم، واللهُ تعالى أكرمُ من أَنْ يُثَنِّيَ عليكم العقوبةَ في الآخرة، وما عفا اللهُ تعالى عنه في الدنيا فالله سبحانه أكرمُ من أنْ يعودَ بعد عَفْوه»(١).

وزعم بعضُهم أنها لا تكون جزاءً؛ لأنَّ الدنيا دارُ تكليف، فلو حصل الجزاءُ فيها لكانت دارَ جزاء وتكليف معاً، وهو مُحالٌ، فما هي إلا امتحانات.

وخبرُ عليٍّ كرم الله وجهه يَرُدُّه، وكذا ما صحَّ من أنَّ الحدودَ ـ أي: غير حدّ قاطع الطريق ـ مُكَفِّرات(٢)، وأيُّ مُحالية في كون الدنيا دارَ تكليف ويقع فيها لبعض الأشخاص ما يكون جزاءً له على ذَنْبه، أي: مُكَفِّراً له.

وعن الحسن تفسير المصيبة بالحدّ قال: المعنى: ما أصابكم من حدٍّ من حدود الله تعالى فإنما هو بكسب أيديكم وارتكابِكم ما يُوجبه، ويعفو اللهُ تعالى عن كثيرٍ، فيستره على العبدِ حتى لا يُحَدَّ عليه. وهو مما تأباه الأخبار، ومع هذا ليس بشيء، ولعله لم يَصِحَّ عن الحسن.

وفي «الانتصاف»: إن هذه الآية تُبْلِسُ عندها القدرية(٣)، ولا يُمكنهم ترويجُ

(١) مسند أحمد (٦٤٩) بهذا اللفظ، وفي إسناده الأزهر بن راشد الكاهلي، وهو ضعيف، والخضر بن القواس وأبو سخيلة، وهما مجهولان كما قال الحافظ ابن حجر في التقريب. وأخرجه بنحوه بإسناد آخر ودون ذكر الآية أحمد (٧٧٥)، والترمذي (٢٦٢٦) وقال: حديث حسن غريب صحيح.

(٢) أخرج البخاري (١٨)، ومسلم (١٧٠٩) من حديث عبادة بن الصامت ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «بايعوني على أن لا تُشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا... فمن وَفَى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه» وفي رواية لمسلم (١٧٠٩) (٤٣): «... ومن أتى منكم حدّاً فأُقيم عليه فهو كفارته..» وينظر ما قاله الحافظ ابن رجب في هذا الباب في جامع العلوم والحكم شرح الحديث الثامن عشر.

(٣) أي: تنقطع فلا يكون لها حجةٌ، ويقال للذي يسكت عند انقطاع حجته ولا يكون عنده جواب: قد أَبْلَس. اللسان (بلس). وجاء بدلاً منها في الانتصاف: تنكسر.

حيلة في صرفها عن مقتضى نَصِّها، فإنهم[1] حملوا قولَه تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] على التائب، وهو غيرُ مُمكن لهم هاهنا، فإنه قد أثبت التبعيضَ في العفو، ومُحالٌ عندهم أن يكون العفوُ هنا مقيَّداً بالتوبة، فإنه يلزم تبعيضها أيضاً، وهي عندهم لا تتبعَّض، كما نقل الإمامُ عن أبي هاشم، وهو رأسُ الاعتزال، والذي تولَّى كِبره منهم، فلا محلَّ لها إلا الحقُّ الذي لا مِرْيةَ فيه، وهو ردُّ العفو إلى مشيئة الله تعالى غيرَ موقوفٍ على التوبة[2].

وأُجيب عنهم بأنَّ لهم أن يقولوا: المرادُ: ويعفو عن كثير فلا يُعاقِبُ عليه في الدنيا، بل يُؤخِّر عقوبته في الآخرة لمن لم يَتُبْ. وأنت تعلمُ ما دلَّ عليه[3] خبرُ عليٍّ كرم الله تعالى وجهه.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: بجاعلين اللهَ سبحانه وتعالى عاجزاً عن أنْ يُصيبكم بالمصائب بما كَسبتْ أيديكم وإنْ هربتُم في أقطار الأرض كلَّ مَهْرب، وقيل: المرادُ: إنكم لا تُعجِزون مَن في الأرض من جنوده تعالى، فكيف مَن في السماء. ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ من مُتَولٍّ بالرحمة يرحمكم إذا أصابتكم المصائب. وقيل: يَحميكم عنها ﴿وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾ يدفعها عنكم.

والجملة كالتقرير لقوله تعالى: «ويعفو عن كثير» أي: إن اللهَ تعالى يعفو عن كثيرٍ من المصائب إذْ لا قُدرة لكم أن تُعجزوه سبحانه فتفوِّتوا ما قضى عليكم منها، ولا لكم أيضاً من متولٍّ بالرحمة غيره عز وجل لِيرحمكم إذا أصابتكم، ولا ناصرَ سواه لِينصُرَكم منها، ولهذا جاء عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه أنَّ هذه أرجى آية في القرآن للمؤمنين[4]. ويقوِّي أمرَ الرجاء ـ على ما قيل ـ أن معنى «ما أنتم».. إلخ: ما أنتم بمعجزين اللهَ تعالى في دَفْعِ مصائبكم، أي: إنه سبحانه قادرٌ على ذلك.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ﴾ أي: السُّفن الجواري، أي: الجارية، فهي صفةٌ لموصوف

(١) في (م): فإنها.
(٢) الانتصاف (مع الكشاف) ٣/ ٤٧٠.
(٣) قوله: عليه، ساقط من (م).
(٤) أورده القرطبي في تفسيره ١٨/ ٤٧٨.

محذوف، لِقرينة قوله تعالى: ﴿فِى ٱلْبَحْرِ﴾ وبذلك حَسُنَ الحذفُ، وإلا فهي صفةٌ غير مختصة، والقياس فيها أن لا يُحذف الموصوف، وتقوم مقامَه. وجوَّز أبو حيان[1] أن يقال: إنها صفةٌ غالبة، كالأبطح، وهي يجوز فيها أنْ تليَ العواملَ بغير ذكر الموصوف.

و«في البحر» مُتعلِّق بالجواري، وقولُه تعالى: ﴿كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ في موضع الحال. وجُوِّز أن يكون الأولُ أيضاً كذلك. و«الأعلام» جمع: عَلَم، وهو الجبل، وأصلُه الأثرُ الذي يُعلم به الشيء، كعلَم الطريق، وعَلَم الجيش، وسُمِّي الجبلُ عَلَماً لذلك، ولا اختصاصَ له بالجبل الذي عليه النارُ للاهتداء، بل إذا أريد ذلك قُيِّد كما في قول الخنساء:

وإنَّ صخراً لتأتمُّ الهُداةُ به كأنه عَلَمٌ في رأسِهِ نارُ[2]

وفيه مبالغةٌ لطيفة، وحُكي أنَّ النبيَّ ﷺ قال لمَّا سَمِعه: «قاتَلها اللهُ تعالى، ما رَضِيَتْ بتشبيهه بالجبل حتى جَعلَتْ على رأسِهِ ناراً»[3].

وقرأ نافع وأبو عمرو: «الجواري» بياء في الوصل دون الوقف، وقرأ ابنُ كثير بها فيهما، والباقون بالحذف فيهما[4]. والإثباتُ على الأصل، والحذفُ للتخفيف، وعلى كلٍّ فالإعراب تقديري، وسُمع من بعض العرب الإعرابُ على الراء.

﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ التي تجري بها ويعدمُ سببَ تموُّجها، وهو تكاثفُ الهواء الذي كان في المحلّ الذي جرت إليه، وتراكم بعضه على بعض، وسببُ ذلك التكاثف إما انخفاضُ درجة حرارة الهواء فيقلّ تمدُّده ويتكاثفُ ويَتركُ أكثرَ المحلّ الذي كان مشغولاً به خليّاً، وإما تجمُّع فُجائيٌّ يحصل في الأبخرة المُنتشِرة في الهواء فيخلو مَحلّها، وهذا ـ على ما قيل ـ أقوى الأسباب، فإذا وجدَ الهواءُ أمامَه

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٥٢٠.

(٢) ديوان الخنساء ص٤٩.

(٣) أورده الرازي في تفسيره ٢٧/ ١٧٥، ولم نقف عليه مسنداً.

(٤) التيسير ص١٩٥، والنشر ٢/ ٣٦٨. وقرأ أبو جعفر كقراءة نافع وأبي عمرو، وقرأ يعقوب كقراءة ابن كثير.

فراغاً بسبب ذلك جرى بقوة لِيشْغَله فتحدث الريحُ وتستمرُّ حتى تملأ المحلَّ.

وما ذُكر في سبب التموُّج هو الذي ذكره فلاسفةُ العصر. وأما المُتقدِّمون فذكروا أشياءَ أُخر، ولعلَّ هناك أسباباً غيرَ ذلك كلِّه لا يعلمها إلا الله عز وجل، والقولُ بالأسباب تحريكاً وإسكاناً لا يُنافي إسنادَ الحوادث إلى الفاعل المُختار جلَّ جلاله وعَمَّ نَوالُه.

وقرأ نافع: «الرياح» جمعاً[1].

﴿فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ فيصِرْنَ ثوابتَ عل ظهر البحر، أي: غيرَ جاريات لا غيرَ مُتحرِّكات أصلاً. وفسَّر بعضُهم «يَظْللن» بـ: يَبْقَيْنَ، فيكون «رواكد» حالاً، والأولُ أَوْلى.

وقرأ قتادة: «فَيَظْلِلْنَ» بكسر اللام[2]، والقياسُ الفتح؛ لأن الماضي مكسورُ العين، فالكسر في المضارع شاذٌّ، وقال الزمخشري[3]: هو من ظلَّ يَظَلُّ ويَظِلُّ بالفتح والكسر، نحو: ضلَّ ـ بالضاد ـ يَضِلُّ ويَضَلُّ، وتعقَّبه أبو حيان[4] بأنه ليس كما ذكر؛ لأن يَضَلُّ بالفتح مِنْ ضَلِلْتُ بالكسر، ويَضِلُّ بالكسر مِنْ ضَلَلْتُ بالفتح، وكلاهما مَقِيسٌ.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكر من السُّفن المُسَخَّرة في البحر تحت أَمره سبحانه وحَسَب مشيئته تعالى ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ عظيمةً كثيرةً على عَظَمةِ شؤونه عزَّ وجل ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾ لكلِّ مَن حبس نَفْسَه عن التوجه إلى ما لا ينبغي ووكل هِمَّته بالنظرِ في آيات الله تعالى والتفكُّرِ في آلائه سبحانه، فالصبرُ هنا حَبْسٌ مخصوصٌ، والتفكُّر في نِعَمِهِ تعالى شُكر.

ويجوز أن يكونَ قد كَنَى بهذين الوَصْفين عن المؤمن الكامل؛ لأنَّ الإيمانَ

---

(١) وهي أيضاً قراءة أبي جعفر. التيسير ص٧٨، والنشر ٢/ ٢٢٣.

(٢) المحتسب ٢/ ٢٥٢.

(٣) في الكشاف ٣/ ٤٧١.

(٤) في البحر المحيط ٧/ ٥٢٠.

نِصْفُه صبرٌ ونِصْفُه شُكْر[١]. وذكر الإمام[٢] أنَّ المؤمنَ لا يخلو من أن يكون في السراء والضرَّاء، فإن كان في الضراء كان من الصابرين، وإنْ كان في السرَّاء كان من الشاكرين.

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ عطفٌ على «يُسكن»، أي: أو: يُهْلِكهنَّ بإرسال الريحِ العاصفة المُغرقة، والمرادُ ـ على ما قال غيرُ واحد ـ إهلاكُ أهلِها؛ إما بتقدير مضاف، أوبالتجوُّز بإطلاق المحلّ على حالِّه، أوبطريق الكناية؛ لأنه يلزمُ من إهلاكها إهلاكُ مَنْ فيها، والقرينةُ على إرادة ذلك قولُه تعالى: ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ وأصلُه: أويُرسلها ـ أي: الريح ـ فَيُوبقهنَّ؛ لأنه قَسيم «يُسكن» فاقتصر فيه على المقصود من إرسالها عاصفةً، وهو إما إهلاكُهم أوإنجاؤهم المرادُ من قوله تعالى: ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾﴾ إذ المعنى: أويُرسِلها فَيُوبق ناساً بذنوبهم ويُنْجِ ناساً على طريق العفو عنهم، وبهذا ظهر وجهُ جزم «يَعْفُ» لأنه بمعنى يُنْجِ معطوف على يُوبق، ويُعلم وجه عَطْفه بالواو لأنه مُندرجٌ في القَسيم، وهو إرسالها عاصفة. وعلى هذا التفسير تكون الآيةُ متضمنةً لإسكانها ولإرسالها عاصفةً مع الإهلاك والإنجاء، وإرسالُها باعتدالٍ معلومٌ من قوله سبحانه: «الجواري» فإنها المطلوبُ الأصلي منها.

وقال بعض الأجِلَّة: التحقيقُ أنَّ «يعفُ» عطفٌ على قوله تعالى: «يُسْكِن الريح» إلى قوله سبحانه: «بما كسبوا» ولذا عُطِفَ بالواو لا بـ «أو»، والمعنى: إنْ يَشَأْ يُعاقبهم بالإسكان، أوالإعصاف، وإن يشأ يَعْفُ عن كثير[٣].

وجوَّز بعضُهم[٤] حَمْلَ «يُوبقهنَّ» على ظاهره؛ لأنَّ السفنَ من جُملة أموالهم

(١) يشير إلى حديث أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أنس، الإيمان نصفان؛ نصف شكر ونصف صبر» أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١٥٩)، وفي إسناده عتبة بن السَّكن ويزيد بن أبان الرقاشي، وهما متروكان. كما في ميزان الاعتدال ٣/ ٢٨ و٤/ ٤١٨. وسلف ١١/ ٣٧٢.

(٢) في تفسيره مفاتيح الغيب ٢٧/ ١٧٥.

(٣) حاشية الشهاب ٧/ ٤٢٣.

(٤) المصدر السابق.

التي هلاكُها والخسارةُ فيها بذنوبهم أيضاً، وجعلَ الآيةَ مِثْلَ قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ﴾ إلخ.

وقرأ الأعمش: «يَعْفوْ» بالواو الساكنةِ آخره[1]، على عَطْفه على مجموع الشرط والجواب، دون الجواب وحدَه، كما في قراءة الجزم، وعن أهل المدينة أنهم قرؤوا: «يعفوَ» بالواو المفتوحة[2] على أنه منصوبٌ بـ «أنْ» مُضمرة وجوباً بعد الواو، والعطفُ على هذه القراءة على مصدر مُتصيَّد من الكلام السابق، كأنه قيل: يقع[3]، وهو من العطف على المعنى، وهذا مذهب البصريين في مِثْل ذلك، وتُسمَّى هذه الواو واوَ الصَّرف، لِصَرْفها عن عَطْف الفعل على[4] المجزوم قبلَها إلى عطف مصدر على مصدر. ومذهبُ الكوفيين أنَّ الواو بمعنى «أنْ» المصدرية ناصبة للمضارع بنفسها.

واختار الرضي أن الواو إما واو الحال، والمصدرُ بعدَها مبتدأٌ خبره مُقدَّر، والجملةُ حاليةٌ، أو واو المعية، ويُنصب بعدَها الفعل لِقَصْد الدلالة على معية الأفعال، كما أن الواو في المفعول معه دالةٌ على مصاحبة الأسماء فعدلَ به عن الظاهر ليكونَ نصّاً في معنى الجمعية.

والمشهورُ اليوم على أَلسنةِ المُعرِبين مذهبُ البصريين، وعليه خرَّج أبو حيان[5] النصبَ في هذه القراءة، وكذا خرَّج غيرُ واحد ومنهم الزجَّاج[6] النصبَ في قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ۝٣٥﴾ - أي: من مَهْرَب ومَخْلَص من العذاب - على ذلك، وجعلوا الجزاءَ بمنزلة الإنشاء كالاستفهام، فكأنه تقدَّم أحدُ الأمور الستة[7]، ولم يرتضِ ذلك الزمخشري، وقال: فيه نظرٌ، لما أورده

(١) ذكرها أبو حيان في البحر ٧/ ٥٢٠.
(٢) ذكرها أبو حيان في البحر ٧/ ٥٢٠، وهي قراءة شاذة.
(٣) كذا وقع في الأصل و(م)، والتقدير كما في البحر ٧/ ٥٢٠، والدر المصون ٩/ ٥٥٨: أو يقع إيباقٌ وعفوٌ عن كثير.
(٤) قوله: على، ليس في (م).
(٥) في البحر المحيط ٧/ ٥٢٠.
(٦) في معاني القرآن ٤/ ٣٩٩.
(٧) وهي: الأمر والنهي والنفي والاستفهام والتمني والعرض. ينظر حاشية الشهاب ٧/ ٤٢٤.

سيبويه في «الكتاب» قال: واعْلم أنَّ النصبَ بالفاء والواو في قوله: إنْ تأتني آتِك وأُعطِيَكَ، ضعيف، وهو نحوٌ من قوله:

وألـحـقُ بـالـحـجـازِ فـأَسـتـريـحـا[1]

فهذا تجوُّز، وليس[2] بِحدِّ الكلام ولا وجهِهِ، إلا أنه في الجزاء صار أقوى قليلاً؛ لأنه ليس بواجب أنه يفعل إلا أنْ يكونَ من الأول فعل، فلما ضارعَ الذي لا يُوجبه كالاستفهام ونحوه أجازوا فيه هذا على ضَعْف[3].

ولا يجوز أن تُحمل القراءةُ المُستفيضة على وجهٍ ضعيف ليس بحدِّ الكلام ولا وجهه، ولو كانت من هذا البابِ لما أخلى سيبويه مِنها كتابَه، وقد ذكر نظائرها من الآيات المُشكلة[4]. انتهى.

وخرَّج هو النصب في «يعلم» على العطف على عِلَّة مُقدَّرة، قال: أي: لينتقم منهم ويَعْلَمَ الذين.. إلخ. وكم من نظيرٍ له في القرآن العظيم، إلا أن ذلك مع وجودِ حرف التعليل كقوله تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١] وقولِه سبحانه: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الجاثية: ٢٢].

وقال أبو حيان[5]: يُبْعِدُ هذا التقرير أنه ترتَّب على الشرط إهلاكُ قوم ونجاةُ قوم، فلا يحسن: لِينتقمَ منهم.

وأُجيب بأنَّ الآيَةَ مخصوصةٌ بالمجرمين، فالمقصودُ الهلاكُ، ويجوز أن يُقدَّر: ليظهرَ عظيم قُدرته تعالى ويعلمَ الذين يُجادلون، فلا يَرد عليه ما ذُكر. ويَحسنُ ذلك التقدير في توجيه النصب في «يعفوَ» على ما رُوي عن أهل المدينة إذا خُدش التوجيهُ السابق بما نُقل عن سيبويه، فيقال: إنه عطفٌ على تعليل مُقدَّر، أي: لِينتقمَ منهم ويعفوَ عن كثير.

---

(١) البيت للمغيرة بن حبناء الحنظلي، وصدره كما في الخزانة ٨/ ٥٢٢: سأترك منزلي لبني تميم.

(٢) في الأصل و(م): ولا، والمثبت من الكتاب والكشاف، وفيهما: يجوز، بدل: تجوّز.

(٣) الكتاب ٣/ ٩٢.

(٤) الكشاف ٣/ ٤٧٢.

(٥) في البحر المحيط ٧/ ٥٢١.

وقراءة النصب في «يعلمَ» هي التي قرأ بها أكثرُ السبعة. وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر والأعرج وشيبة وزيد بن عليٍّ بالرفع[١]. وقَرَّر في «الكشف» وجهَه بأنه على عطفِ «يعلم» على مجموع الجملة الشرطية، على معنى: ومِن آياته الدالَّة على كَمال القُدرة السفنُ في البحر، ثم ذكر وجهَ الدلالة، وأنها مُسخَّرة تحت أمره سبحانه تارةً بتضمُّن نفع مَن فيها، وتارة بالعكس، ثم قال جلَّ وعلا: ويعلمُ الذين يُعاندون ولا يعترفون بآيات الله تعالى الباهرةِ، بدل قوله سبحانه فيها بالضمير الراجع إلى الآية المبحوث عنها شهادةً بأنها من آيات الله تعالى، وزيادةً للتحذير وذمٍّ الجِدال فيها، وليكون على أُسلوب الكناية على نحو: العرب لا تَخفِرُ الذِّمم، فكأنه لمَّا قيل: إن يشأ يُسكن الريحَ، وذكر سبب الدلالة، صار في معنى: يعلمها ويعترفُ بها المُتدبِّرون في آياتنا المسترشدون، ويعلمُ المجادِلون فيها المُنكِرون ما لهم مِنْ مَحيص. وجاز أن يُجعلَ عطفاً على قوله تعالى: «ومن آياته الجوار» وتُجعل هذه وحدَها آيات لِتضمُّنها وجوهاً من الدلالة أُقيمت مُقامَ المُضمر، والمعنى: ومِن آياتهِ الجوارِ ويَعلمُ المجادلون فيها، واعتُرض بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه ببيان وجه الدلالة، لِيدلَّ على موجبِ وعيدِ المُجادِل، وعلى كونها آيةً، بل آيات.

ونُقِلَ عن ابن الحاجب أنه يجوز أن يكون الرفعُ بالعطف على موضعِ الجزاء المُتقدِّم باعتبار كونه جملةً لا باعتبار عطفِ مُجرد الفعل ليجب الجزمُ، فتكون الجملتان مشتركتين في المُسبَّبية، وفيه بحثٌ يُعلم مما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وقرئ: «ويَعْلَمْ» بالجزم[٢]، وخُرِّج على العطف على «يعفُ»، وتسبُّبُه عن الشرط باعتبارِ تضمُّنِ الإخبار عن علم المُجادِلين بما يحلُّ بهم في المستقبلِ الوعيدَ والتحذيرَ، كما قيل:

سوف تَرى إذا انجلى الغُبار أفَرَسٌ تحتَكَ أمْ حمارُ[٣]

---

(١) التيسير ص١٩٥، والنشر ٢/ ٣٦٧، وقراءة الأعرج وشيبة وزيد بن علي في البحر المحيط ٧/ ٥٢١.

(٢) ذكرها الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٧٢، وأبو حيان في البحر ٧/ ٥٢١.

(٣) ذكره الثعالبي في التمثيل والمحاضرة ص٣٤٥، والميداني في مجمع الأمثال ١/ ٣٤٤.

ومرجعُ المعنى على ذلك: أنه تعالى إنْ يشأ يعصِف الريحَ فيُغرق بعضاً ويُنْجِ آخرين عفواً، ويُحذِّر جماعة أخرى.

واعتُرِض بأنَّ التخصيصَ بالمُجادِلين في هذا التحذير غيرُ لائح، وأيضاً عِلْمهم بأن لا مَحيص من عذاب الله تعالى على تقديرِ عصف الريح بأهل السُّفن على سبيل العِبرة، ولا اختصاصَ لها بهم ولا بهذا المَقدور خاصة.

وأُجيب عن الأول بأنَّ التخصيصَ بالمُجادلين لأنهم أولى بالتحذير، وعن الأخير بأنه أُريد أنَّ البَرَّ والبحر لا يُنجيان من بأسه عز وجل، فهو تعميم.

واختار في «الكشف» كونَ التخريج على أنَّ الآيةَ في الكافرين بمعنى: إنْ يشأ يعصِفِ الريحَ فيُغرقْ بعضَهم ويُنجِ آخرين منهم عفواً، ويعلموا ما لهم من مَحيص فلا يغترُّوا بالنجاة والعفو في هذه المرة، فالمُجادِلون هم الكثير الناجون، أوبعضهم، وهو على مِنوال قوله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ الآية [الإسراء: ٦٩].

ومن مجموع ما سمعتَ يلوح لك ضَعْفُ هذه القراءة، ولهذا لم يُقرأ بها في السبعة.

والظاهرُ على القراءات الثلاث أن فاعلَ «يعلم»: «الذين»، وجُملة «ما لهم مِنْ مَحيص» سادَّةٌ مَسَدَّ المفعولين، وفي «الدر المصون»[1] أنَّ الجملة في قراءة الرفع تحتمل الفعلية وتحتمل الاسمية، أي: وهو يعلم الذين، ولا يخفى أنَّ الظاهر على الاحتمال الثاني كون «الذين» مفعولاً أولاً، والجملةِ مفعولاً ثانياً، والفاعل ضميره تعالى المُستتر. وأوجب بعضُهم هذا على قراءة الجزم وعطفِ «يعلم» على «يَعْفُ»؛ لئلا يخرجَ الكلامُ عن الانتظام، ويظهرَ قصدُ التحذير؛ لشيوع أنَّ علمَ الله تعالى يكون كنايةً عن المجازاة، وهو كما ترى.

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ﴾ أيِّ شيء كان من أسباب الدنيا، والظاهرُ أنَّ الخطابَ للناس مطلقاً، وقيل: للمشركين، و«ما» موصولة مبتدأ والعائدُ محذوفٌ، أي: أُوتِيتُموه، والخبرُ ما بعدُ، ودخلت الفاء لِتضمُّنها معنى الشرط.

---

(١) ٩/ ٥٥٨.

وقال أبو حيان[1]: هي شرطية مفعولٌ ثانٍ لـ «أُوتيتم»، و«من شيء» بيانٌ لها، وقوله تعالى: ﴿فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: فهو متاعُها تتمتَّعون به مدَّة حياتِكم فيها، جوابُ الشرط.

والأول أوفقُ بقوله تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من ثواب الآخرة ﴿خَيْرٌ﴾ ذاتاً لِخُلوصِ نَفْعهِ ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ زماناً حيث لا يزولُ ولا يفنى؛ لأنَّ الظاهرَ أن «ما» فيه موصولةٌ، وإنما لم يُؤتَ بالفاء في خبرها مع أنَّ الموصولَ المبتدأ إذا وُصل بالظرف يتضمَّن معنى الشرط أيضاً؛ لأنَّ مُسبَّبية كون الشيء عند الله تعالى لخيريَّته أمرٌ معلوم مُقرَّرٌ غنيٌّ عن الدلالةِ عليه بحرف موضوعٍ له، بخلاف ما عندَ غيره سبحانه. والتعبيرُ عنه بأنه عند الله تعالى دون: ما ادّخَرَ، لذلك.

وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ إما مُتعلِّق بـ «أبقى»، أواللام لبيان مَن له هذه النعمة، فهو خبرُ مبتدأ محذوف، أي: ذلك للذين آمنوا ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ لا على غيره تعالى أصلاً.

وعن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه: اجتمع لأبي بكر رضي الله عنه مالٌ فتصدَّقَ به كلِّه في سبيل الله تعالى، فَلامَهُ المسلمون وخطَّأَهُ الكافرون، فنزلت[2].

والموصولُ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ مع ما بعدُ إما عطفٌ على الموصول الأول، أو هو مدحٌ مرفوعٌ على الخبرية لمبتدأ محذوف، أومنصوب بمقدَّر، كأعني، أو أمدح، والواو اعتراضيةٌ كما ذكره الرضي، وَغَفل أبو البقاء عن الواو فلم يذكُر العطفَ، وذكَر بدله البدل[3].

و«كبائر الإثم» ما رُتِّب عليه الوعيد، أو ما يُوجب الحدَّ، أو كلُّ ما نَهى اللهُ تعالى عنه. والفواحشُ: ما فَحُشَ وعَظُمَ قُبحه منها.

وقيل: المرادُ بالكبائر ما يتعلَّق بالبدع واستخراجِ الشُّبُهات. وبالفواحش

---

(١) في البحر المحيط ٧/ ٥٢٢.

(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٧٢، وخبر إنفاق أبي بكر رضي الله عنه ماله كلّه وإنفاق عمر رضي الله عنه نصف ماله أخرجه أبو داود (١٦٧٨)، والترمذي (٣٦٧٥) من حديث عمر رضي الله عنه دون ذكر الآية.

(٣) كذا نقل المصنف عن أبي حيان في البحر ٧/ ٥٢٢، والذي في الإملاء ٤/ ٢٩٤ خلافُ ذلك، ففيه: «الذين يجتنبون» معطوف على قوله تعالى: «للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون». .

ما يتعلَّق بالقوة الشهوانية. وبقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ ما يتعلَّق بالقوة الغَضَبية. وهو كما ترى.

والمراد بالإثم الجنس، وإلا لقيل: الآثام، و«إذا» ظرف لـ «يغفرون»، و«هم» مبتدأ لا تأكيد لضمير «غضبوا» وجوَّزه في «البحر»[1]، وجملة «يغفرون» خبره، وتقديمه لإفادة الاختصاص؛ لأنه فاعلٌ معنوي، واختصاصُهم باعتبار أنهم أحقَّاء بذلك دون غيرهم، فإنَّ المغفرة حالَ الغضب عزيزةُ المَنال[2]. وفي الآية إيماءٌ إلى أنهم يَغْفِرون قبل الاستغفار.

وقيل: «هم» مرفوعٌ بفعل يُفسِّره «يغفرون»، ولمَّا حُذف انفصل الضمير. وليس بشيء.

وجَعَل أبو البقاء[3] «إذا» شرطيةً، وجملةَ «هم يغفرون» جواباً لها.

وتعقَّبه أبو حيان[4] بأنه يلزم الفاء حينئذ، ولا يجوز حذفُها إلا في الشعر. وتقدَّم لك آنفاً ما ينفعك تذكُّره فتذكَّر.

وقرأ حمزة والكسائي: «كبير الإثم» بالإفراد[5] لإرادة الجنس أوالفرد الكامل منه، وهو الشرك، ورُوي تفسيره به عن ابن عباس ﵄، ولا يلزم التكرار؛ لأنَّ المراد الاستمرارُ والدوام.

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلَوٰةَ﴾ قيل: نزلَتْ في الأنصار دعاهم الله تعالى على لسان رسوله ﷺ للإيمان به وطاعته سبحانه فاستجابوا له، فأثنى عليهم جلَّ وعلا بما أَثنى، وعليه فهو من ذِكْر الخاصِّ بعد العامِّ لبيان شَرَفِهِ؛ لإيمانهم دون تردُّد وتَلَعْثُم، والآية إنْ كانت مدنيةً فالأمر ظاهرٌ، وإذا كانت مكية فالمرادُ بالأنصار من آمن بالمدينة قبل الهِجرة[6]، أوالمراد بهم أصحابُ العقبة.

---

(١) ٥٢٢/٧.
(٢) في (م): المثال.
(٣) في الإملاء ٤/ ٢٩٥ (بهامش الفتوحات الإلهية).
(٤) في البحر المحيط ٧/ ٥٢٢.
(٥) وقرأ بها خلف. التيسير ص١٩٥، والنشر ٢/ ٣٦٧.
(٦) ينظر تفسير القرطبي ١٨/ ٤٨٦.

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أي: ذو شورى ومراجعةٍ في الآراء بينهم، بناءً على أنَّ الشورى مصدرٌ كالبُشرى، فلا يَصِحُّ الإخبار؛ لأنَّ الأمر مُتشاوَرٌ فيه لا مشاورةٌ إلا إذا قصد المبالغة. وأُورِد أنه يقال من غير تأويل: شأني الكرم، والأمر هنا بمعنى الشأن، نعم إذا حُمل على القضايا المُتشاوَر فيها احتاج إلى التأويل أو قَصْدِ المبالغة.

وقيل: إن إضافةَ المصدر للعموم فلا يصحُّ الإخبار إلا بالتأويل. ورُدَّ بأن المرادَ: أمرهم فيما يُتشاوَرُ فيه لا جميعِ أُمورهم. وفيه نظر.

وقال الراغب: المشورة: استخراجُ الرأي بمراجعة البعض إلى البعض، من قولهم: شُرْتُ العسلَ وأَشرته: استخرجته، والشورى: الأمر الذي يُتشاوَرُ فيه[١]. انتهى. والمشهور كونه مصدراً.

وجيء بالجملة اسميةً مع أنَّ المعطوفَ عليه جملةٌ فعلية للدلالة على أنَّ التشاورَ كان حالَهم المستمر قبل الإسلام وبعدَه. وفي الآية مدحٌ للتشاور لاسيما على القول بأن فيها الإخبار بالمصدر؛ وقد أخرج البيهقي في «شعب الإيمان» عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «مَنْ أراد أمراً فشاور فيه وقضى، هُدِي لأَرشد الأمور»[٢].

وأخرج عبد بن حُميد والبخاري في «الأدب»[٣] وابن المنذر عن الحسن قال: ما تشاورَ قومٌ قطُّ إلا هُدُوا لأرشدِ[٤] أمرهم، ثم تلا: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾.

وقد كانت الشورى بين النبيِّ ﷺ وأصحابه فيما يتعلَّق بمصالح الحروب، وكذا بين الصحابة رضي الله عنهم بعده عليه الصلاة والسلام، وكانت بينهم أيضاً في الأحكام، كقتال أهل الرِّدة وميراث الجدّ وعَدَدِ حدِّ الخمر وغير ذلك.

والمرادُ بالأحكام ما لم يكن لهم فيه نصٌّ شرعيٌّ، وإلا فالشورى لا معنى لها، وكيف يليقُ بالمسلم العُدولُ عن حكم الله عز وجل إلى آراء الرجال والله سبحانه هو

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم (شور).

(٢) شعب الإيمان (٧١٣٢).

(٣) الأدب المفرد (٢٥٨)، والدر المنثور ٦/ ١٠.

(٤) في الأصل و(م) والدر المنثور ٦/ ١٠: وأرشد، وفي الأدب المفرد (٢٥٨): لأفضل حالهم. وأخرجه الطبري ٦/ ١٩٠، وأورده السيوطي في الدر المنثور ٢/ ٩٠ والمثبت منهما.

الحكيم الخبير، ويُؤيِّد ما قلنا ما أخرجه الخطيب عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه قال: قلتُ: يا رسولَ الله، الأمر ينزلُ بنا بعدَك لم ينزِلْ فيه قرآنٌ ولم يُسمع منك فيه شيء؟ قال: «اجمعوا له العابدَ من أُمَّتي، واجعلوه بينكم شورى ولا تَقْضوه برأي واحد»[1].

وينبغي أن يكون المستشارُ عاقلاً كما ينبغي أن يكون عابداً، فقد أخرج الخطيبُ أيضاً عن أبي هريرة مرفوعاً: «استرشدوا العاقلَ تُرشَدوا ولا تَعْصوه فتندموا»[2].

والشورى على الوجهِ الذي ذكرناه من جملة أسبابِ صلاح الأرض؛ ففي الحديث: «إذا كان أُمراؤكم خيارَكم، وأغنياؤكم أسخياءَكم، وأَمرُكم شورى بينكم، فظَهْرُ الأرض خيرٌ لكم مِن بَطْنها، وإذا كان أمراؤكم شِرارَكم، وأغنياؤكم بُخلاءَكم، وأمرُكم إلى نسائكم، فبَطْنُ الأرض خيرٌ لكم من ظهرها»[3].

وإذا لم تكن على ذلك الوجه كان إفسادُها للدين والدنيا أكثرَ من إصلاحها.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾ أي: في سبيل الخير؛ لأنه مَسوقٌ للمدح ولا مدحَ بمجرد الإنفاق، ولعلَّ فصله عن قرينه بذِكْر المُشاورة؛ لأن الاستجابةَ لله تعالى وإقامَ الصلاة كانا من آثارها، وقيل: لوقوعها عند اجتماعهم للصلوات.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ أي: ينتقمون ممن بغَى عليهم على ما جعلَه الله تعالى لهم، ولا يعتدُون، ومعنى الاختصاص أنهم الأخِصَّاء بالانتصار وغيرُهم يعدو ويَتجاوز، ولا يُراد أنهم ينتصرون ولا يغفِرون، لِيتناقضَ هو والسابق، فكأنه وَصَفَهم سبحانه بأنهم الأخصاء بالغُفران لا يغولُ الغضبُ أحلامَهم كما يغول في غيرهم، وأنهم الأخِصَّاء بالانتصار على ما جُوِّز لهم إن كافؤوا، ولا يعتدون كغيرهم، فهم محمودون في الحالتين بين حَسَنٍ وأحسن، مخصوصون بذلك من بين الناس.

---

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٠، وهو عند الخطيب في جامع بيان العلم (١٦١٢).
(٢) ذكره عن الخطيب الذهبيُّ في الميزان ٢/ ٢١٨ وفي إسناده سليمان بن عيسى السِّجْزي، كذَّبه أبو حاتم، وقال ابن عدي: يضع الحديث. كما في الميزان.
(٣) أخرجه الترمذي (٢٢٦٦) من حديث أبي هريرة ﷺ، وقال: حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث صالح المُرِّي، وصالح المري في حديثه غرائب ينفرد بها لا يتابع عليها، وهو رجل صالح.

وقال غير واحد: إن كُلّاً من الوصفين في محلّ، وهو فيه محمود، فالعفو عن العاجزِ المعترفِ بِجُرمه محمودٌ، ولفظ المغفرة مُشْعِرٌ به، والانتصار من المخاصِم المُصرِّ محمودٌ، ولفظُ الانتصار مُشْعِرٌ به، ولو أُوقعا على عكس ذلك كانا مذمومين، وعلى هذا جاء قوله:

إذا أنتَ أكرمتَ الكريمَ مَلَكْتَه ... وإنْ أنتَ أكرمتَ اللئيمَ تَمرَّدا

فوضعُ النَّدى في موضع السيف بالعلا ... مُضِرٌّ كوضع السيفِ في موضعِ النَّدى[1]

وقد يُحمد كلٌّ ويذمُّ باعتبارات أُخَر، فلا تناقضَ أيضاً سواء اتَّحد الموصوفان في الجملتين أَوْ لا.

وقال بعض المُحقِّقين[2]: الأوجهُ أن لا يُحمل الكلامُ على التخصيص، بل على التقوِّي، أي: يفعلون المَغفرة تارةً والانتصارَ أُخرى لا دائماً، للتناقض. وليس بذاك.

وعن النخعي أنه كان إذا قرأ هذه الآيةَ قال: كانوا يَكرهون أن يُذِلُّوا أنفسهم فيجترئَ عليهم الفُسّاق. وفيه إيماءٌ إلى أن الانتصار من المُخاصِم المُصِرّ، وإلا فلا إذلالَ للنفس بالعفو عن العاجز المُعترف.

ثم إنَّ جملةَ «هم ينتصرون» من المبتدأ والخبر صلة الموصول، و«إذا» ظرفُ «ينتصرون»، وجُوِّز كونها شرطيةً، والجملة جوابُ الشرط، وجملةُ الجوابِ والشرط هي الصِّلة. وتعقَّبه أبو حيان[3] بما مَرَّ آنفاً.

وجُوِّز أيضاً كون «هم» فاعلاً لمحذوف، وهو كما سمعت في «وإذا ما غضبوا» إلخ.

وقال الحوفي[4]: يجوز جعل «هم» توكيداً لضمير «أصابهم». وفيه الفصلُ بين

(١) البيتان للمتنبي، وهما في ديوانه ٢/ ١١.
(٢) كما في حاشية الشهاب ٧/ ٤٢٥.
(٣) في البحر المحيط ٧/ ٥٢٢.
(٤) كما في البحر ٧/ ٥٢٢.

المُؤكِّد والمُؤكَّد بالفاعل، ولعلَّه لا يمتنع، ومع هذا فالوجهُ في الإعراب ما أشرنا إليه أولاً.

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ بيانٌ لما جُعل للمنتصِر، وتسميةُ الفعلة الثانية ـ وهي الجزاءُ ـ سيئةً، قيل: للمُشاكلة. وقال جار الله[1]: تسميةُ كِلتا الفعلتين سيئةً؛ لأنها تسوءُ مَنْ تنزِلُ به. وفيه رِعايةٌ لحقيقة اللفظ، وإشارةٌ إلى أنَّ الانتصارَ مع كونه محموداً إنما يُحمَدُ بشرط رِعاية المُماثلة، وهي عَسِرة، ففي مَساقِها حثٌّ على العفو من طريق الاحتياط.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنۡ عَفَا﴾ أي: عن المُسيء إليه ﴿وَأَصۡلَحَ﴾ ما بينه وبين مَنْ يُعاديه بالعفو والإغضاء عما صَدَر منه ﴿فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ فيجزيه جلَّ وعلا أعظمَ الجزاء، تصريحٌ بما لَوَّح إليه ذلك من الحَثِّ، وتنبيهٌ على أنه وإن كان سلوكاً لِطريق الاحتياط يتضمَّنُ مع ذلك إصلاحَ ذات البين المحمود حالاً ومآلاً، ليكون زيادةَ تحريضٍ عليه. وإبهامُ الأجر وجَعْلُه حقّاً على العظيم الكريم جلَّ شأنه الدالّ على عِظَمه زيادةٌ في الترغيب. وجيء بالفاء لِيفرِّعه عن السابق، أي: إذا كان سلوكُ الانتصار غيرَ مأمون العِثار، فمن عفا وأَصلحَ فهو سالكُ الطريقَ المأمون العِثار المحمودَ في الدَّارين.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٠﴾ المُتجاوِزين الحدَّ في الانتقام، تتميمٌ لذلك المعنى، وتصريحٌ بما ضُمِّن من عُسر رِعاية طريق المُماثلة، وأنه قَلَّما تخلو عن الاعتداء والتجاوز لاسيما في حال الحَرَد[2] والتهاب الحَمِيَّة، فيكون دُخولاً في زُمرة مَن لا يُحبه اللهُ تعالى. ولا حاجةَ على هذا المعنى إلى جعل «فمن عفا» إلخ اعتراضاً، ثم لو كان كذلك بأن يكون هذا متعلِّقاً بـ «جزاء سيئة سيئة مِثْلُها» على أنه تعليلٌ لما يُفهم منه، فالفاءُ غيرُ مانعةٍ عنه كما تُوُهِّم، وأَدخل غيرُ واحدٍ المُبتدئين بالسيئة في الظالمين.

---

(١) في الكشاف ٣/ ٤٧٣.

(٢) الحَرَد: الغضب. مختار الصحاح (حرد).

﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ﴾ بعد ما ظُلم، بالبناء للمجهول، وقرئ به[1]، فالمصدر مُضافٌ لمفعوله، أوهو مصدرُ المبني للمفعول. واللام للقسم، وجُوِّز أن تكون لامَ الابتداء جيء بها للتوكيد، و«مَنْ» شرطيةٌ أو موصولة، وحُمِلَ «انتصر» على لفظها وحُمِلَ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ۝٤١﴾ ـ أي: للمُعاقب ولا للعاتب والعائب ـ على معناها.

والجملة عطفٌ على «من عفا»، وجِيء بها للتصريح بأنَّ ما حضَّ عليه إنما حضَّ عليه إرشاداً إلى الأصلح في الأغلب، لا أنَّ المنتصِرَ عليه سبيلٌ بوَجْهٍ حالاً أومآلاً، ولإيهام الحضِّ خلافَ ما تضمَّنتْه من نفي السبيل على العموم صُدِّرت باللام.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ تعيينٌ لمن عليه السبيل بعد نفي ذلك عن المنتصرين، والمرادُ بالذين يظلمون الناس من يبتدؤونهم بالظُّلم، أو يزيدون في الانتقام ويتجاوزون ما حدَّ لهم. وفَسَّر ذلك بعضهم بالذين يفعلون بهم ما لا يستحقُّونه، وهو أعمّ.

﴿وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: يتكبَّرون فيها تجبُّراً وفساداً.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالظُّلم والبغي بغير الحق ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤٢﴾ بسبب ظُلمهم وبَغْيهم، والمرادُ بهؤلاء الظالمين الباغين الكَفَرة. وقيل: من يَعُمُّهم وغيرهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝٤٣﴾ تحذير عن الظلم والبغي وما يؤدِّي إلى العذاب الأليم بوجه، وفيه حضٌّ على ما حضَّ عليه أولاً، اهتماماً به وزيادةَ ترغيب فيه. فالصبرُ هنا هو الإصلاح المُؤَخَّر فيما تقدَّم، قُدِّم هاهنا وعبِّر عنه بالصبر لأنه من شأن أُولي العَزْم، وإشارةً إلى أنَّ الإصلاح بالعفو والإغضاء إنما يُحمد إذا كان عن قُدرة لا عن عَجْز.

و«ذلك» إشارةٌ إلى المذكور من الصبر والمغفرة، و«عزم الأمور» الأمور المعزومة المقطوعة، أوالعازمة الصادقة. وجُوِّز في «مَن» أن تكون موصولةً وأن تكون شرطية. وفي اللام أن تكون ابتدائية وأن تكون قَسمية، واكتفي بجواب القسم عن جواب الشرط، وإذا جُعِلَتِ اللام للابتداء و«مَنْ» شرطيةً، فجملة «إنَّ ذلك» جوابُ الشرط،

(١) الكشاف ٣/ ٤٧٣.

وحُذفت الفاء منها، ومَن يخصُّ الحذفَ بالشعر لا يُجوِّز هذا الوجه.

وذكر جماعةٌ أن في الكلام حذفاً، أي: إن ذلك منه لمن عَزْم الأمور، وعلّل ذلك بأن الجملة خبرٌ، فلا بدَّ فيها من رابط، و«ذلك» لا يصلح له؛ لأنه إشارةٌ إلى الصبر والمغفرة، وكونه مغنياً عنه لأن المرادَ صبره، أو«ذلك» رابطٌ، والإشارة لـ «مَن» بتقدير: من ذوي عزم الأمور، تكلُّف.

هذا، واختار العلامة الطيبي أن تسمية الفعلة الثانية التي هي الجزاء سيئةً من باب التهجين دون المُشاكلة، وزعم أن المُجازي مُسيء، وبنى على ذلك رَبْطَ جملة «إنه لا يحب الظالمين» بما قبلُ، فقال: يمكن أن يقال: لمَّا نُسب المُجازي إلى المساءة في قوله سبحانه: «وجزاء سيئة سيئة مثلها» والمسيء في هذا المقام مفسد لِمَا في البين بدليل «فمن عفا وأصلح» علل مفهوم ذلك بقوله سبحانه: «إنه لا يحب الظالمين» كأنه قيل: مَنْ أخرجَ نفسَه بالعفو والإصلاح من الانتساب إلى السيئة والإفساد كان مُقْسِطاً، إنَّ اللهَ يحب المُقسِطين، فوضع موضعَه «فأجره على الله» ومَن اشتغل بالمُجازاة وانتسب إلى السيئة، وأفسد ما في البين، وحرم نفسَه ذلك الأجرَ الجزيل كان ظالماً نفسَه «إنه لا يحب الظالمين» فالآية واردةٌ إرشاداً للمظلوم إلى مكارم الأخلاق وإيثار طريق المرسلين.

وقال: إن قوله تعالى: «ولمن انتصر بعد ظُلمه» إلخ خطابٌ للوُلاة والحُكَّام، وتعليمٌ فِعْلَ ما ينبغي فِعْلُه بدليل قوله سبحانه: «إنما السبيلُ على الذين يَظْلِمون الناس» حيث أعاد السبيلَ المُنكَّر بالتعريف وعلَّق به «يظلمون الناس» وفسَّره بقوله تعالى: «عذابٌ أليم»، وكذا قوله سبحانه: «ولمن صبر وغفر» إلخ تعليمٌ لهم أيضاً طريقَ الحكم، يعني أن صاحبَ الحقِّ إذا عدلَ من الأَوْلى وانتصر من الظالم فلا سبيلَ لكم عليه لما قد رُخِّص له ذلك، وإذا اختار الأفضل فلا سبيلَ لكم على الظالم؛ لأن عفوَ المظلوم من عزم الأمور، فتعاونوا على البرِّ والتقوى، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان. انتهى. ولا يخفى ما فيه.

وفي «الكشف»: إنَّ جَعْلَ ما ذكر خطاباً للولاة والحُكَّام يوجب التعقيدَ في الكلام، فالمعوَّل عليه ما قدمناه، وقد جاءت أخبارٌ كثيرة في فضل العافين عمَّن ظَلمهم، أخرج البيهقي في «شعب الإيمان» عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ:

«قال موسى بن عِمران عليه الصلاة والسلام: يا رب مَنْ أعزُّ عبادك عندك؟ قال: مَنْ إذا قدر غَفَر»[١].

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في «الشعب» عن أنس قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إذا وقف العبادُ للحساب نادى مُنادٍ: لِيَقُم مَنْ أجرُه على الله تعالى فَلْيدخُلِ الجنة، ثم نادى الثانيةَ: لِيَقُمْ مَنْ أجره على الله تعالى، قالوا: ومَنْ ذا الذي أجرُه على الله تعالى؟ قال: العافون عن الناس، فقام كذا وكذا ألفاً فدخلوا الجنة بغير حساب»[٢].

وأخرج أحمد وأبو داود عن أبي هريرة أن رجلاً شتم أبا بكر رضي الله عنه والنبيُّ ﷺ جالسٌ، فجعل عليه الصلاة والسلام يعجبُ ويتبسَّم، فلما أكثرَ ردَّ عليه بعضَ قوله، فغضب النبيُّ ﷺ، وقام فلحقه أبو بكر رضي الله عنه فقال: يا رسولَ الله، كان يَشْتِمني وأنت جالسٌ، فلما رددتُ عليه بعضَ قوله غَضِبْتَ وقُمتَ! قال: «إنه كان معك مَلَكٌ يردُّ عنك، فلما رَدَدْتَ عليه بعضَ قوله وقع الشيطانُ، فلم أكن لأَقْعدَ مع الشيطان»، ثم قال عليه الصلاة والسلام: «ثلاثٌ مِن الحقِّ: ما من عبدٍ ظُلم بمظْلِمةٍ فَيُغضي عنها لله تعالى إلا أعزَّ الله عز وجل بها نَصْره، وما فتح رجلٌ باب عطية يُريد بها صلةً إلا زاده الله تعالى بها كَثْرةً، وما فتح رجلٌ باب مسألة يُريد بها كثرةً إلا زاده الله تعالى بها قِلّةً»[٣]. واستشكل هذا الخبر بأنه يُشعر بعتب أبي بكر رضي الله عنه، وهو نوعٌ من السبيل المنفي في قوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾. وأُجيب بأنَّا لا نُسلم ذلك، وليس فيه أكثرُ من تنبيهه رضي الله عنه على ترك الأَوْلى، وهو شيء والعتبُ شيء آخر، وكذا لا يُعَدُّ لوماً كما لا يخفى.

ومن الناس من خصَّ السبيلَ في الآية بالإثم والعِقاب، فلا إشكال عليه أصلاً.

وقيل: هو باقٍ على العموم إلا أن الآية في عوامِّ المؤمنين ومَن لم يبلغ مبلغَ أبي بكر رضي الله عنه، فإنَّ مثلَه يُلام بالشتم ـ وإن كان بحقٍّ ـ بحضرة رسولِ الله ﷺ قبلَ أن

---

(١) شعب الإيمان (٨٣٢٧).

(٢) الدر المنثور ٦/ ١١، وشعب الإيمان (٨٣١٣)، وأخرجه أيضاً الطبراني في الأوسط (١٩٩٨).

(٣) الدر المنثور ٦/ ١١، ومسند أحمد (٩٦٢٤)، وسنن أبي داود (٤٨٩٧).

يأذنَ له به قالاً أوحالاً، بل لاح عليه ﷺ ما يُشعر باستحسان السُّكوت عنه، وحسناتُ الأبرار سيئاتُ المُقرَّبين.

وقد أمرَ ﷺ بعضَ الأشخاص بردِّ الشَّتم على الشاتم؛ أخرج النسائي وابن ماجه وابن مردويه عن عائشةَ ﵂ قالت: دخلَتْ عليَّ زينبُ ﵂ وعندي رسولُ الله ﷺ فأقبلَتْ عليَّ تَسُبُّني، فوزعَها النبيُّ عليه الصلاة والسلام فلم تَنْتهِ، فقال لي: «سُبِّيها» فَسَبَبْتُها حتى جفَّ ريقُها في فمها ووجهُ رسول الله ﷺ يتهلَّل سروراً[(١)]. ولعله كان هذا منه عليه الصلاة والسلام تعزيراً لزينب ﵂ بلسان عائشةَ ﵂ لِمَا أنَّ لها حقّاً في الردّ ورأى المصلحة في ذلك.

وقد ذكر فقهاؤنا أن للقاضي أن يُعزِّرَ من استحقَّ التعزيرَ بشتم غير القذف، وكذا للزوج أن يُعزِّرَ زوجته على شَتْمها غير محرم، إلى أمور أُخر. فتأمَّل.

وظاهر قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ يقتضي رعايةَ المُماثلة مطلقاً، وفي «تفسير الإمام»[(٢)] أن الآيةَ تقتضي وجوبَ رعايةِ المُماثلة في كلِّ الأمور إلا فيما خصَّه الدليلُ، لأنه لو حُملت المُماثلة فيها على المماثلة في أمرٍ معيَّن فهو غير مذكور فيها، فيلزم الإجمال، وعلى ما قلنا يلزم تحمل التخصيص، ومعلومٌ أن دفع الإجمال أَولى من دفع التخصيص.

والفقهاءُ أدخلوا التخصيصَ فيها في صور كثيرة تارةً بناءً على نصٍّ آخرَ أخصَّ، وأخرى بناءً على القياس، ولا شكَّ أنَّ مَن ادَّعى التخصيصَ فعليه البيانُ، والمُكلَّف يكفيه أن يتمسَّك بها في جميع المطالب. وعن مجاهد والسدي: إذا قال له: أخزاه اللهُ تعالى. فليقل: أخزاه اللهُ تعالى، وإذا قَذَفه قَذْفاً يُوجب الحدَّ فليس له ذلك، بل الحدّ الذي أمر الله تعالى به، ونقل أبو حيان[(٣)] عن الجمهور أنهم قالوا: إذا بغى مؤمنٌ على مؤمن فلا يجوز له أن ينتصرَ منه بنفسه بل يرفعُ ذلك إلى الإمام أو نائبه.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ١٠، وسنن النسائي الكبرى (٨٨٦٥)، وسنن ابن ماجه (١٩٨١)، وفيه بدل: «سُبِّيها»: «دونك فانتصري» وهو في المسند (٢٤٦٢٠)، وقد أخرج البخاري (٢٥٨١) حديثاً طويلاً، وفيه قصة زينب ﵂ بنحوها.

(٢) تفسير الرازي ٢٧/ ١٨١.

(٣) في البحر المحيط ٧/ ٥٢٣.

وفي «مجمع الفتاوى»[١]: جاز المُجازاة بمثله في غير مُوجب حدٍّ، للإذن به «ولمن انتصر بعد ظُلمه فأولئك ما عليهم من سبيل» والعفوُ أفضلُ «فمن عفا وأَصلحَ فأجره على الله».

وقال ابن الهُمام[٢]: الأولى أنَّ الإنسانَ إذا قيل له ما يُوجب التعزير أن لا يُجيبه، قالوا: لو قال له: يا خبيثُ، الأحسن أن يكفَّ عنه ويرفعَه إلى القاضي لِيؤدِّبه بحضوره، ولو أجاب مع هذا فقال: بل أنت، لا بأس.

وفي «التنوير» وشرحه: ضرب غيره بغير حقٍّ وضربه المضروبُ أيضاً، يُعزَّران، كما لو تشاتما بين يدي القاضي ولم يتكافأا[٣].

وأنت تعلم ما يقتضيه ظاهر الآية ولا يُعدَلُ عنه إلا لنصّ، وظاهرُ كلام العلامة الطيبي أن المظلوم إذا عفا لا يلزم الظالمَ التعزير بضربٍ أوحبس أونحوه. وذكر فقهاؤنا أن التعزيرَ يغلَّب فيه حقُّ العبد، فيجوز فيه الإبراء والعفو واليمين والشهادة على الشهادة وشهادة رجل وامرأتين، ويكون أيضاً حقّاً لله تعالى فلا عفوَ فيه إلا إذا عَلِمَ الإمامُ انزجار الفاعل.. إلى آخر ما قالوا.

ويترجَّح عندي أن الإمام متى رأى بعد التأمل والتجرُّد عن حظوظ النفس تركَ التعزير للعفو سبباً للفساد والتجاسر على التعدِّي وتجاوز الحدود عَزَّر بما تقتضيه المصلحة العامة، ولْيَبْذُلْ وسعه فيما فيه إصلاحُ الدين وانتظامُ أمور المسلمين، وإياه أن يتَّبع الهوى فيضلَّ عن الصراط المستقيم.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: ما له من ناصر يتولَّاه من بعد خِذلان الله تعالى إيَّاه، فضمير «بعده» لله تعالى بتقدير مضاف فيه، وقيل: للخِذْلان المفهوم من «يضلل». والجملة عطفٌ على قوله تعالى: «أولئك لهم عذاب أليم»،

(١) وهو لأحمد بن محمد بن أبي بكر الحنفي، حيث جمع فيه الفتاوى الكبرى والصغرى للصدر وفتاوى أبي بكر محمد بن الفضل البخاري والسمرقندي وغيرها، ثم اختصره وسماه: خزانة الفتاوى. كشف الظنون ٢/ ١٦٠٣.

(٢) فتح القدير ٤/ ٢١٨.

(٣) الدر المختار شرح تنوير الأبصار ١/ ٤٤٠.

وكنَى بـ «مَن» عن الظالم الباغي تسجيلاً بأنه ضالٌّ مخذولٌ، أوأتى به مُبهماً لِيشمله شُمولاً أوليّاً، فقولُه سبحانه: «ولمن صبر» إلخ اعتراضٌ، لِمَا أشرنا إليه.

﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ أي: حين يرونه، وصيغة الماضي للدلالة على التحقُّق ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ﴾ أي: رَجْعة إلى الدنيا ﴿مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾﴾ حتى نُؤمِنَ ونعملَ صالحاً. وجوِّز أن يكون المعنى: هل إلى ردٍّ للعذاب، ومَنْع منه «من سبيل». وتنكير «مَرَدّ» وكذا «سبيل» للمبالغة، والجملة حال، وقيل: مفعول ثانٍ لـ «ترى».

﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أي: على النار المَدلول عليها بالعذاب، والجملة كالسابقة ﴿خَٰشِعِينَ﴾ متضائلين متقاصرين ﴿مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ أي: بسبب الذلّ لِعظم ما لَحِقَهم، فـ «من» سببية متعلِّقة بـ «خاشعين»، وهو وكذا ما بعدَه حال.

وجوِّز أن يُعلَّق الجارُّ بقوله تعالى: ﴿يَنظُرُونَ﴾ ويُوقف على «خاشعين» ﴿مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ والأول أظهر، والطَّرْف مصدر طَرَفَ: إذا حرَّك عينه، ومنه طَرْفَةُ العين، والمراد بالخَفِيّ الضعيف، و«مِنْ» ابتدائية، أي: يبتدئ نظرُهم من تحريكٍ لأجفانهم ضعيفٍ بِمُسارقةٍ كما ترى المصبورَ[1] ينظر إلى السيف، وهكذا نظرُ الناظر إلى المكارِهِ لا يقدرُ أن يفتحَ أجفانه عليها ويملأ عينيه منها كما يفعل في نَظَره إلى المَحابّ. ويجوز أن تكون «مِنْ» بمعنى الباء.

وعن ابن عباس: «خَفِيّ»: ذليل، فالطرفُ عليه جَفْنُ العين.

وقيل: يُحشرون عُمياً، فلا ينظرون إلا بقلوبهم، وذاك نظرٌ من طَرْف خَفِيّ. وهو تأويلٌ مُتكلَّف.

والجملتان السابقتان، أعني «ترى الظالمين» و«تراهم يُعرضون» معطوفان على «ومن يُضلل»، وأصلُ الكلام: والظالمون لمَّا رأوا العذابَ يقولون وهم يُعرضون عليها خاشعين، ثم قيل: «وترى» و«تراهم» خطاباً لكلِّ مَنْ يتأتَّى منه الرؤية ويَعتبر بحالهم، زيادةً للتهويل، كأنه يعجبهم مما هم فيه لِيعتبروا ويبتهجوا، ومنه يظهر أنه خطابٌ للنبيِّ ﷺ وأتباعه.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي: إنهم ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ﴾

---

(١) هو مَن يُقتل في غير حرب، فيقدَّم للقتل موثقاً. حاشية الشهاب ٧/ ٤٢٦.

بالتعريض للعذابِ الخالد، أو على ما مرَّ في «الزمر»[١]. وعدلَ عن: إنهم، إلى المُنزَلِ؛ تسجيلاً عليهم بأكمل الخُسران، إذ المرادُ: إنَّ الكاملين في صِفة الخُسران المتَّصِفين بحقيقته.

﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ مُتعلِّق بـ «خسروا» والقولُ في الدنيا، وجُوِّز أن يكونَ مُتعلِّقاً بـ «قال» والماضي لِتحقُّق الوقوع، أي: ويقولون إذا رَأوهم على تلك الصفة.

وفي «الكشف»: الظاهرُ أنه قولٌ يومَ القيامة كالخُسران، من باب التنازع بين الفعلين. وآثرَ صاحبُ «الكشاف» على ما يُؤذن به صنيعُه أن يتعلَّق بالخسران وحدَه[٢]، لأن الأصلَ في «قال الذين آمنوا إن الخاسرين» إلخ: وهم الخاسرون، كما أنَّ الأصلَ في «وترى الظالمين»: والظالمون لما رَأوا، ثم قيل: «وقال الذين آمنوا» على نحو ما قيل: «وترى» إلخ، وكما أنَّ الرؤيةَ رؤيةُ الدنيا استحضاراً لِعذابهم الكائن في الآخرة تهويلاً، كذلك القولُ، كأنهم جعلهم حضوراً يُعاين عذابَهم ويسمع ما يقول المؤمنون فيهم. وروعي[٣] الخطاب في الرؤية والغيبةُ في القول لأن مُعاينةَ العذاب لمَّا كانت أَدْخَلَ في التهويل جُعل العذاب قريباً مشاهداً، وخُصُّوا بالخطاب على سبيل استحضارِ الحال لمزيد الابتهاج، ولم يكن في الخُسران ذلك المعنى، لأنه أمرٌ معقولٌ، والمحسوساتُ أقوى، لاسيما إذا كُنَّ مُوجبات الخُسران، فجيء به على الأصل من الغيبة، وعَدَله من المضارع إلى الماضي؛ لأنه قولٌ صادرٌ عن مُقتضى الحال قد حقَّ ووقع، تفوَّهوا به أو لا. وأُسند إلى المؤمنين دلالةً على الابتهاج المذكور واغتباطهم بنجاتهم عمَّا هم فيه، وإلا فالقولُ والرؤية لكلٍّ من يتأتَّى منه القولُ والرؤية. وجَعْلُه حالاً ـ كما فعل الطيبي ـ على معنى: وتراهم وقد صدق فيهم قولُ المؤمنين في الدنيا: «إن الخاسرين» إلخ، من أسلوب قوله:

إذا ما انتَسَبْنا لم تَلِدْني لئيمةٌ[٤]

---

(١) عند الآية (١٥).

(٢) الكشاف ٣/ ٤٧٤، ويعني بصنيعه تقديمَه لهذا القول على القول الآخر، وهو أن يتعلق بـ «قال».

(٣) قوله: وروعي، تصحف في (م) إلى: ورد على.

(٤) ذكره الفراء في معاني القرآن ١/ ٦١، والطبري في تفسيره ٢/ ٥٧، وعجزه: ولم تَجِدِي من أن تُقِرِّي به بُدّا.

وفيه أنه إنما يرتكب عند تعذُّر الحقيقة، وقد أمكن الحمل على التنازع فلا تعذُّر. ثم إنه على التقدير لا يظهر أنه قولٌ فيها إلا بدليلٍ خارج، وهذا بخلاف ما ذكره جارُ الله في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾(1) [ق:٢٨] من تقدير: وقد صحَّ عندكم أنِّي قدمت؛ لأن في اللفظ إشعاراً به بيِّناً. انتهى.

ولعمري، لقد أبعد قُدِّس سِرُّه المَغْزى في هذه الآيات العِظام، وأتى بما تستحسنه النُّظَّار من ذوي الأفهام. فليفهم.

وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ۝٤٥﴾ إما من تمام كلامِ المؤمنين، ويجري فيه ما سمعتَ من الأصل ونُكتة العُدول، أو استئنافُ إخبار منه تعالى؛ تصديقاً لذلك.

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم﴾ برفع العذاب عنهم ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حَسْبَما يزعُمون ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ۝٤٦﴾ إلى الهدى أو النجاة.

وقيل: المراد: ما له من حُجَّة.

﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم﴾ إذا دعاكم لما به النجاةُ على لسان رسوله ﷺ ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ الجارُّ والمجرور إما متعلق بـ «مردّ» ويُعامل اسمُ «لا» الشبيهُ بالمضاف معاملتَه، فيترك تنوينُه كما نصَّ عليه ابنُ مالك في «التسهيل»(2)، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «لا مانعَ لما أعطيتَ»(3)، وقوله تعالى: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ [يوسف:٩٢] أي: لا يردُّه الله تعالى بعد ما حكم به.

ومن لم يرضَ بذلك قال: هو خبرٌ لمبتدأ محذوف، أي: ذلك من الله تعالى، والجملة استئنافٌ في جواب سؤال مقدَّر تقديره: ممن ذلك؟ أو حالٌ من الضمير المستتر في الظرف الواقع خبر «لا»، أو متعلِّق بالنفي أو بما دلَّ عليه كما قيل في قوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم:٢]. وقيل: هو متعلِّقٌ بـ «يأتي».

---

(1) الكشاف ٤/٨.

(2) ص٦٨.

(3) جزء من حديث أخرجه أحمد (١٨١٣٩)، والبخاري (٨٤٤)، ومسلم (٥٩٣) عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

وتُعقِّب بأنه خلافُ المتبادر من اللفظ والمعنى، وقيل: هو مع ذلك قليلُ الفائدة. وجوِّز كونه صفة لـ «يوم»، وتُعقِّبَ بأنه ركيكٌ معنًى.

والظاهرُ أن المرادَ بذلك اليوم يوم القيامة لا يوم وُرود الموت كما قيل.

﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: ملاذٍ تلتجئون إليه، فتخلصون من العذاب، على أن «ملجأ» اسمُ مكان، ويجوزُ أن يكونَ مصدراً ميمياً.

﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾﴾ إنكار، على أنه مصدرُ أنكر على غير القياس، ونفيُ ذلك مع قوله تعالى حكايةً عنهم: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] تنزيلاً لما يقع من إنكارهم منزلةَ العَدم لِعدم نَفْعهِ، وقيام الحُجَّة، وشهادة الجوارح عليهم، أو يقال: إن الأمرين باعتبار تعدُّد الأحوال والمواقف.

وجُوِّز أن يكون «نكير» اسمَ فاعل للمبالغة، أي: ما لكم مُنكِرٌ لأحوالكم غير مُميِّز لها لِيرحمكم، وهو كما ترى.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ تلوينٌ للكلام وصرفٌ له عن خطاب الناس بعد أمرهم بالاستجابة، وتوجيهٌ له إلى الرسول ﷺ، أي: فإن لم يستجيبوا وأعرضوا عمَّا تدعوهم إليه فلا تهتمَّ بهم، فما أرسلناك رقيباً ومُحاسباً عليهم ﴿إِنْ عَلَيْكَ﴾ أي: ما عليك ﴿إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ لا الحفظُ، وقد فَعلْتَ.

﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ أي: نعمة من الصِّحة والغِنى والأمن ونحوها ﴿فَرِحَ بِهَا﴾ أُريد بالإنسان الجنس الشامل للجميع، وهو حينئذ بمعنى الأناسي أو الناس، ولذا جمع ضميره في قوله سبحانه: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ وليست للاستغراق، والجمعية لا تتوقَّف عليه، فكأنه قيل: وإنْ تُصب الناسَ أو الأناسي ﴿سَيِّئَةٌ﴾ بلاءٌ من مرض وفقرٍ وخوفٍ وغيرها ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ بسبب ما صدرَ منهم من السيئات ﴿فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾ بليغُ الكُفر ينسى النعمة رأساً، ويذكر البليةَ ويستعظمها، ولا يتأمَّل سببها، بل يزعُم أنها أصابَتْه من غير استحقاق لها.

و«أل» فيه أيضاً للجنس، وقيل: هي فيهما للعهد على أن المرادَ المُجرمون، وقيل: هي في الأول للجنس وفي الثاني للعهد.

وقال الزمخشري: أراد بالإنسان الجمع لا الواحد لمكانِ ضمير الجمع، ولم يُرِدْ إلا المجرمين، لأن إصابةَ السيئة بما قَدَّمت أيديهم إنما يستقيم فيهم. ثم قال: ولم يَقُل: فإنه لَكَفور لِيُسجِّل على أنَّ هذا الجنس موسومٌ بِكُفْران النِّعم كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦][1]. فَفَهِمَ منه العلامة الطيبي أنها في الأول للعهد، وأنَّ المرادَ الكُفَّارُ المُخاطبون في قوله تعالى: «استجيبوا لربكم» لِترتُّب «فإن أعرضوا» عليه، ووضع المُظهَر موضع المُضْمَر للإشعار بتصميمهم على الكُفران، والإيذانِ بأنهم لا يَرْعَوون مما هم فيه، وأنها في الثاني للجنس ليكونَ المعنى: ليس بِبِدْعٍ من هذا الإنسان المعهودِ الإصرارُ؛ لأن هذا الجنسَ موسومٌ بِكُفران النعم، فيكونَ ذمُّ المطلق دليلاً على ذَمِّ المُقيَّد.

وفي «الكشف»: إنه أراد أنَّ الإنسان ـ أي: الأول ـ للجنس الصالح للكلّ وللبعض، وإذا قام دليلٌ على إرادة البعض تعيَّن، وقد قام، لما سلف أنَّ الإصابةَ في غير المجرمين للعِوض المرقِّي[2]، ولم يذهب إلى أن اللام للعهد، وجعل قوله تعالى: «فإن الإنسان كفور» للجنس ليكون تعليلاً للمقيّد بطريق الأولى ومطابقاً لما جاء في مواضعَ عديدة من الكتاب العزيز؛ ولا بأس بأن يجعل إشارةً إلى السالف، فإنه للجنس أيضاً، ويكون في وضع المُظهر موضعَ المُضمَر الفائدةُ المذكورة مراراً، بل هو أدلُّ على القانون الممهد في الأصول، وبكون كليهما للجنس أقول.

وإسناد الكُفران مع أنه صفةُ الكَفرة إلى الجنس لِغلبتهم، فهو مجازٌ عقليّ حيث أُسند إلى الجنس حالُ أغلب أفراده لملابسته الأغلبية، ويجوز أن يُعتبر أغلبُ الأفراد عينَ الجنسِ لِغلبتهم على غيرهم، فيكون المجاز لُغوياً. وكذا يقال في إسناد الفرح إذا كان بمعنى البَطَر فإنه أيضاً من صفات الكَفرة، بل إن كان أيضاً بمعناه المعروف، وهو انشراحُ الصدر بلذَّة عاجلة، وأكثر ما يكون ذلك في اللذات البدنية

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٧٤.

(٢) في الأصل و(م): الموفي، والمثبت من حاشية الشهاب ٧/ ٤٢٧.

الدنيوية، فإنه وإن لم يكن من خواصِّ الكُفَّار، بل يكون في المؤمنين أيضاً اضطراراً أو شُكراً، إلا أنه لا يعمُّ جميع أفراد الجنس. وإنْ قلتَ بعمومه لم تَحتجْ إلى ذلك، كما إذا فسَّرته بالبطر على إرادة العهد في الإنسان. وإصابة السيئة بالذنوب غير عامة للأفراد أيضاً، فحال إسنادها يعلم مما ذكرنا.

وتصديرُ الشرطية الأُولى بـ «إذا» مع إسناد الإذاقة بلفظ الماضي إلى نون العظمة للتنبيه على أنَّ إيصالَ النعمة مُحقَّقُ الوجود كثيرُ الوقوع، وأنه مرادٌ بالذات من الجواد المُطلق سبحانه وتعالى. كما أن تصدير الثانية بـ «إن» وإسناد الإصابة بلفظ المضارع إلى السيئة وتعليلها بأعمالهم للإيذان بِندرة وقوعها، وأنها بمعْزِل عن الانتظام في سِلك الإرادة بالذات والقصد الأوَّليِّ. وإقامةُ عِلَّة الجزاء مُقامَ الجزاء مبالغةٌ في ذمِّهم.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لا لغيره سبحانه اشتراكاً أو استقلالاً ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ من غير وجوب عليه سبحانه.

﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ استئناف بياني، أو بيانٌ لـ «يخلق»، أو بدلٌ منه بَدَلَ البعض على ما اختاره القاضي(١).

ولمَّا ذكر سبحانه إذاقةَ الإنسان الرحمةَ وإصابته بضدِّها أتبعَ جلَّ وعلا ذلك أن له سبحانه المُلك، وأنه تعالى يَقْسِم النعمةَ والبلاء كما شاء بحكمته تعالى البالغةِ، لا كما شاء الإنسان بهواه. وفيه إشارة إلى أن إذاقةَ الرحمةِ ليست للفرح والبَطر، بل للشُّكر لِمُوليها، وإصابة المحنة ليست للكُفْران والجزع بل للرجوع إلى مُبليها، وتأكيدٌ لإنكار كُفرانهم من وجهين: الأول: أن المُلك مُلكه سبحانه من غير مُنازع ومُشارك، يتصرَّف فيه كيف يشاء، فليس على مَن هو أحقرُ جُزء من مُلكه تعالى أن يعترضَ ويريد أن يجريَ التدبير حسب هواه الفاسد.

الثاني: أن هذا المُلك الواسعَ لذلك العزيز الحكيم جل جلاله الذي من شأنه أن يخلقَ ما يشاء، فأنّى يجوز أن يكون تصرُّفه إلا على وجهٍ لا يُتصوَّر أكملَ منه

(١) تفسير البيضاوي (مع حاشية الشهاب) ٧/ ٤٢٨.

ولا أوفقَ لمقتضى الحِكمة والصواب. وعند ذلك لا يبقى إلا التسليم والشُّغل بتعظيم المُنعم المُبلي عن الكُفران والإعجاب.

وناسبَ هذا المَساق أن يدلَّ في البيان من أول الأمر على أنه تعالى فعل لمحض مشيئته سبحانه، لا مَدخل لمشيئة العبد فيه، فلذا قُدِّمت الإناثُ وأُخِّرت الذُّكور، كأنه قيل: يخلق ما يشاء، يهبُ لمن يشاء من الأناسي ما لا يهواه، ويهب لمن يشاء منهم ما يهواه، فقد كانت العرب تعدُّ الإناثَ بلاءً: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل:٥٨]، ولو قدّم المُؤخَّر لاختلَّ النظم. وليس التقديمُ لمجرَّد رِعاية مناسبة القُرب من البلاء لِيعارَض بأنَّ الآيةَ السابقة ذُكِرت الرحمةُ فيها مقدَّمة عليه، فناسب ذلك تقديمَ الذكور على الإناث. وفي تعريف الذكور ـ مع ما فيه من الاستدراك لِقضية التأخير ـ التنبيهُ على أنه المعروفُ الحاضرُ في قلوبهم أولَ كلِّ خاطر، وأنه الذي عقدوا عليه مُناهم.

ولما قضى الوطر من هذا الأسلوب قيل: «أو يزوجهم» أي: الأولاد «ذكراناً وإناثاً» أي: يخلق ما يهبهم زوجاً؛ لأن التزويجَ جعلُ الشيء زوجاً، فـ «ذكرانا وإناثا» حال من الضمير، والواو قيل: للمعية؛ لأن حقَّه التأخير عن القِسمين سياقاً ووجوداً، فلا تتأتَّى المقارنة إلا بذلك، وقيل ذلك لأنَّ المرادَ: يهبُ لمن يشاء ما لا يهواه، ويَهَبُ لمن يشاء ما يهواه، أو يَهَبُ الأمرين معاً، لا أنه سبحانه يجعل من كلٍّ من الجنسين الذكورَ والإناث على حياله زوجاً، ولولا ذلك لَتوهّم ما ذُكر، فتأمَّله. ولِتركُّبه منهما لم يُكرَّر فيه حديث المشيئة، وقدّم المقدَّم على ما هو عليه في الأصل، ولم يُعرَّفْ إذْ لا وجهَ له.

ثم قيل: ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ أي: لا يُولد له، فقيِّد بالمشيئة لأنه قِسْم آخر، وكأنه جيء بـ «أو» في«أو يُزوِّجهم» دون الواو كما في سابقه من حيث إنه قسيمُ الانفراد المشترك بين الأولين، ولم يُؤت في الأخير لاتِّضاحه بأنه قسيمُ الهبة المشتركة بين الأقسام المتقدِّمة. فتأمَّل.

وقيل: قدَّم الإناث توصيةً برعايتهن لِضَعْفهنَّ، لاسيما وكانوا قريبي العهد بالوأد، وفي الحديث: «مَن ابتُلي بشيء من هذه البنات فأحسنَ إليهنَّ كُنَّ له ستراً

من النار»(١). وقيل: قُدِّمت لأنها أكثرُ، لِتكثير النسل، فهي من هذا الوجه أنسبُ بالخَلْق المراد بيانُه. وقيل: لِتطييب قلوب آبائهنَّ لما في تقديمهنَّ من التشريف، لأنهنَّ سببٌ لِتكثير مخلوقاته تعالى.

وقال الثعالبي: إنه إشارةٌ إلى ما في تقدُّم ولادتهن من اليُمن، حتى إن أولَ مولود ذَكَر يكون مشؤوماً فيقولون له: بِكْرُ بِكْرين(٢). وعن قتادة: من يُمن المرأة تَبكيرُها بأُنثى.

وقيل: قُدِّمتْ وأُخِّر الذكور مُعَرَّفاً للمحافظة على الفواصل.

والمناسب للسياق ما علمت سابقاً.

وقال مجاهد في «أو يزوجهم»: التزويجُ أن تلد المرأةُ غلاماً ثم تلد جارية.

وقال محمد بن الحنفية رضي الله عنهما: هو أن تَلِدَ توأماً غلاماً وجاريةً.

وزعم بعضُهم أن الآية نزلت في الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، حيث وهب سبحانه لشعيب ولوط عليهم السلام إناثاً، ولإبراهيم عليه السلام ذكوراً، ولرسوله محمد ﷺ ذكوراً وإناثاً، وجعل عيسى ويحيى عليهما السلام عقيمين.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۝٥٠﴾ مبالغ جل شأنه في العلم والقُدرة، فيفعل ما يفعل بحكمة واختيار.

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ أي: ما صحَّ لفرد من أفراد البشر. ﴿أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ ظاهرُه حصرُ التكليم في ثلاثة أقسام: الأول: الوحي، وهو المرادُ بقوله تعالى: «إلا وحيا» وفسَّره بعضُهم بالإلقاء في القلب سواء كان في اليقظة أو في المنام، والإلقاءُ أعمُّ من الإلهام، فإن إيحاء أُمِّ موسى إلهامٌ، وإيحاء إبراهيم عليه السلام إلقاءٌ في المنام وليس إلهاماً، وإيحاء الزبور إلقاءٌ في اليقظة كما روي عن مجاهد، وليس بإلهام؛ والفرقُ أن الإلهام لا يستدعي صورةَ كلام نفساني، فقد وقد، وأما اللفظي فلا، وأما نحو إيحاء الزبور

(١) أخرجه أحمد (٢٤٥٧٢)، والبخاري (١٤١٨)، ومسلم (٢٦٢٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٢) ثمار القلوب ص٦٦٦، وقوله: بكر بِكْرَين، يعني أن المولود بكر، وكل من أبويه كذلك.

فيستدعيه، وقد جاء إطلاقُ الوحي على الإلقاء في القلب في قولِ عَبيدِ بن الأبرص:

وأَوحــى إلــيَّ الله أنْ قــد تــآمــروا   بإبْلِ أبي أوفى فَقُمتُ على رجلي[1]

فإنه أراد: قَذَفَ في قلبي.

والثاني: إسماع الكلام من غير أنْ يُبصرَ السامعُ مَنْ يُكلِّمه كما كان لموسى، وكذا الملائكة الذين كلَّمهم الله تعالى في قضية خَلْق آدم عليه السلام ونحوهم، وهو المرادُ بقوله سبحانه: «أو من وراء حجاب» فإنه تمثيلٌ له سبحانه بحال المَلِك المُتحجِّب الذي يُكلِّم بعضَ خواصِّه من وراء حجاب يسمع صوتَه ولا يرى شَخْصَه.

والثالث: إرسال المَلَك، كالغالب من حال نبيِّنا ﷺ، وهو حالُ كثير من الأنبياء عليهم السلام، وزَعْم أنه من خصوصيات أُولي العَزْم من المرسلين غيرُ صحيح، وهو المرادُ بقوله عز وجل: «أو يرسل رسولاً» أي: مَلَكاً «فيوحي» ذلك الرسولُ إلى المُرسَل إليه الذي هو الرسول البَشَريُّ «بإذنه» أي: بأمره تعالى وتيسيره سبحانه «ما يشاء» أن يُوحِيَه، وهذا يدلُّ على أن المرادَ من الأول الوحي من الله تعالى بلا واسطة؛ لأنَّ إرسالَ الرسول جعل فيه إيحاء ذلك الرسول، وبنى المعتزلي على هذا الحصر أن الرؤيةَ غيرُ جائزة؛ لأنها لو صحَّت لصحَّ التكليم مُشافهةً، فلم يصحَّ الحصر.

وقال بعض: المراد حصرُ التكليم في الوحي بالمعنى المشهور، والتكليم من وراء حجاب، وتكليم الرُّسل البشريِّين مع أممهم. واستُبعِدَ بأنَّ العُرف لم يطَّرِدْ في تسمية ذلك إيحاءً.

وقال القاضي: إنَّ قولَه تعالى: «إلا وحياً» معناه: إلا كلاماً خَفِيّاً يُدرَكُ بسرعة، وليس في ذاته مُرَكَّباً من حروف مُقَطَّعة، وهو ما يعمُّ المشافهة كما رُوي في حديث المِعراج[2]، وما وُعد به في حديث الرؤية. والمُهْتَفُ به كما اتَّفق لموسى عليه

(١) لم نقف عليه في ديوان عبيد بن الأبرص، وأورده الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٧٥.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣) من حديث أبي ذر رضي الله عنه، وهو في مسند أحمد (٢١٢٨٨) من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه.

السلام في الطور، لكن عَطْف قوله تعالى: «أو من وراء حجاب» عليه يَخصُّه بالأول[١]. فالآية دليلٌ على جواز الرؤية لا على امتناعها.

وإلى الأول ذهب الزمخشري[٢]، وانتصر له صاحب «الكشف» عفا الله تعالى عنه فقال: وأما نحن فنقول والله تعالى أعلم: إنَّ قولهَ تعالى: «وما كان لبشر» على التعميم يقتضي الحصرَ بوجه لا يخصُّ التكلُّم بالأنبياء عليهم السلام ويدخلُ فيه خطابُ مريم، وما كان لأُمِّ موسى وما يقع للمُحَدَّثين من هذه الأمة وغيرهم، فحملُ الوحي على ما ذهب إليه الزمخشري أولى. ثم إنه يلزم القاضي أن لا يكونَ ما وقع من وراء حِجاب وحياً، لا أنه يُخصِّصه، لأنه نظيرُ قولك: ما كان لك أنْ تُنعم إلا على المساكين وزيد، نعم يحتمل أن يكونَ زيدٌ داخلاً فيهم على نحو: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ﴾[٣] [البقرة: ٩٨] وهذا يضرُّ القاضي لاقتضائه أن يكون هذا القسم - أعني ما وقع من وراء حجاب - أعلى المراتب، فلا يكون الثاني هو المشافهة، وتقدير: إلا وحياً من غير حجاب أو من وراء حجاب، خلافُ الظاهر، وفيه فكٌّ للنَّظم؛ لقوله سبحانه: «أو يُرسل» وهو عطفٌ على قوله تعالى: «إلا وحياً»، مع كونه خلافَ الظاهر. وعلى هذا يفسدُ ما بنَى عليه من حديث التنزُّل من القسم الأعلى إلى ما دونه، ومع ذلك لا يدلُّ على عدم وقوع الرؤية فضلاً عن جوازه، بل دلَّ على أنها لو وقعتْ لم يكن معها المكالمة، وذلك هو الصحيحُ؛ لأن الرؤية تستدعي الفناء والبقاء به عز وجل، وهو يقتضي رَفْعَ حجاب المُخاطب المستدعي كوناً وجوديّاً، ثم الكاملُ لتوفيته حقَّ المقامات الكُبرى يكون المحتظي منه بالشهود في مقام البقاء المذكور، ومع ذلك لا يمنعه عن حظّه من سماع الخطاب، لأنه حظ القلب المحجوب عن مقام الشهود، والمقصودُ أن الذي يصحُّ ذوقاً ونقلاً وعقلاً كونُ الخطاب من وراء حجاب ألبتة، وهو صحيحٌ، لكن لا ينفع مُنكرَ الرؤية ولا مُثبتها، وأما سؤال الترقِّي في الأقسام فالجواب عنه أن الترقِّي حاصلٌ بين الأول

(١) تفسير البيضاوي (مع حاشية الشهاب) ٧/ ٤٢٩.
(٢) الكشاف ٣/ ٤٧٥.
(٣) قوله: ورسله، ليس في الأصل و(م).

والثاني الذي له سُمّي الكَليمُ كليماً، وأما الثالث، فلما كان تكليماً مجازيّاً أُخِّر عن القسمين، ولم ينظر إلى أنه أشرفُ من القسم الأول، فإن ذلك الأمر غيرُ راجعٍ إلى التكليم، بل لأنه مخصوصٌ بالأنبياء عليهم السلام. انتهى.

وتُعقِّب ما اعتَرض به على القاضي بأنه لا يَرِدُ، لأن الوحيَ بذلك المعنى بالتخصيص المذكور والتقييد المأخوذ من التقابل صار مُغايراً لما بعدَه، وليس من شيء من القبيلين حتى يذهب إلى الترقِّي أو التدلِّي، لأنه لا يُعطف بـ «أو» بل بالواو كما لا يخفى. ولزوم أن لا يكون الواقعُ من وراء حجاب وحياً غيرُ مُسلَّم؛ لأنه إنْ أراد أن لا يكون وحياً مطلقاً فغيرُ صحيح؛ لأنَّ قوله تعالى بعدَه: «فَيُوحي بإذنه» قرينةٌ على أن المرادَ بالوحي السابق وحيٌ مخصوص كالذي بعدَه، وإنْ أراد أنه لا يكون من الوحي المخصوص السابق فلا يضرُّه، لأنه عينُ ما عناه، نعم الحصرُ على ما ذهب إليه القاضي غيرُ ظاهر إلا بعدَ ملاحظةِ أنه مخصوصٌ بما كان بالكلام، فتدبَّر.

والظاهرُ أن عائشة رضي الله عنها حملت الآيةَ على نحو ما حملها المعتزلة، أخرج البخاري ومسلم والترمذي عنها أنها قالت: مَنْ زعم أنَّ محمداً رأى ربَّه فقد كَذَب، ثم قرأت: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾[١].

وأنت تعلم أنَّ أكثرَ العلماء على أن النبيَّ ﷺ رأى ربَّه سبحانه ليلةَ الإسراء لِكَثْرة الروايات المصرِّحة بالرؤية، نعم ليس فيها التصريح بأنها بالعين، لكن الظاهرُ من الرؤية كونها بها. والمروي عن الأشعري وجمعٍ من المُتكلِّمين أنه جلَّ شأنه كلَّمه عليه الصلاة والسلام تلك الليلة بغير واسطة، ويُعزى ذلك إلى جعفر بن محمد الباقر وابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم، وهو الظاهرُ؛ للأحاديث الصِّحاح في مُرادَّة الصلاة واستقرارِ الخمسين على الخَمْس[٢]، وغير ذلك. وعائشةُ رضي الله عنها لم تَنْفِ الرؤية إلا اعتماداً على الاستنباط من الآيات، ولو كان معها خبرٌ لَذَكَرتْه،

(١) صحيح البخاري (٤٨٥٥)، وصحيح مسلم (١٧٧)، وسنن الترمذي (٣٢٧٨)، وهو في مسند أحمد (٢٤٢٢٧)، وسلف عند تفسير الآية (١٠٢) من سورة الأنعام.

(٢) ينظر حديث المعراج الذي سلف تخريجه قريباً.

واحتجاجُها بما ذُكر من الآيات غيرُ تامٍّ، أما عدمُ تمامية احتجاجها بآية «لا تدركه الأبصار» فمشهور، وأما عدمُ تمامية الاحتجاجِ بالآية الثانية فَلِما سمعتَ عن صاحب «الكشف» قُدِّس سِرُّه.

وقال الخفاجي ـ بعد تقرير الاحتجاج بأنه تعالى حصرَ تكليمه سبحانه للبشر في الثلاثة ـ: فإذا لم يَرَهُ جل وعلا من يُكلِّمه سبحانه في وقت الكلام لم يَرَه عز وجل في غيره بالطريق الأولى، وإذا لم يَرَهُ تعالى هو أصلاً لم يَرَه سبحانه غيره، إذْ لا قائل بالفصل. وقد أُجيب عنه في الأصول بأنه يحتمل أن يكون المرادُ حَصْرَ التكليم في الدنيا في هذه الثلاثة، أو نقول: يجوز أن تقع الرؤيةُ حالَ التكليم وحياً إذ الوحي كلامٌ بسرعة، وهولا يُنافي الرؤية[1]. انتهى.

ولا يخفى عليك أن الجواب الأول لا ينفع فيما نحن بصدده إلا بالتزام أنَّ ما وقع لنبيِّنا عليه الصلاة والسلام تلك الليلة لا يُعَدُّ تكليماً في الدنيا على ما ذكره الشرنبلالي في «إكرام أولي الألباب» لأنه كان في الملكوت الأعلى، وأنه يُستفاد من كلام صاحب «الكشف» منعٌ ظاهر للشرطية في وجه الاستدلال الذي قرَّره، وبعضُهم أجاب بأنَّ العامَّ مُخصَّصٌ بغير ما دليل.

وفي «البحر»: قيل: قالت قريش: ألا تُكلِّم الله تعالى وتنظر إليه إنْ كنتَ نبيّاً صادقاً كما كلَّم جلَّ وعلا موسى ونظر إليه تعالى. فقال لهم الرسول ﷺ: «لم ينظُرْ موسى عليه السلام إلى الله عز وجل» فنزلَتْ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ الآية[2]. وهذا ظاهرٌ في أن الآيةَ لم تتضمَّن التكليمَ الشِّفاهي مع الرؤية، وكذا ما فيه[3] أيضاً: كان من الكفار خوضٌ في تكليم الله تعالى موسى عليه السلام، فذهبت قريش واليهود في ذلك إلى التجسيم، فنزلت، فإنَّ عدمَ تَضمُّنها ذلك أدفعُ لتوهُّم التجسيم.

وبالجملة الذي يترجَّح عندي ما قاله صاحبُ «الكشف» قُدِّس سِرُّه أن الآيَةَ لا تنفع مُنكر الرؤية ولا مُثبتها، وما ذُكر من سبب النزول ليس بمتيقَّن الثُّبوت.

---

(١) حاشية الشهاب ٧/ ٤٣٠.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٥٢٦، وذكره الواحدي في أسباب النزول ص٣٩٦.

(٣) يعني: في البحر المحيط ٧/ ٥٢٦.

ويُفهم من كلام بعضهِم أن الوحيَ كما يكون بالإلقاء في الرُّوع يكون بالخطِّ؛ فقد قال النخعي: كان في الأنبياء عليهم السلام مَن يُخَطُّ له في الأرض. ومعناه اللغوي يشمل ذلك؛ فقد قال الإمام أبو عبد الله التيمي الأصبهاني[1]: الوحي أصلهُ التفهيم، وكلُّ ما فُهِمَ به شيء من الإلهام والإشارة والكَتْب فهو وحي. وقال الراغب[2]: أصل الوحي الإشارة السريعة، ولِتضمُّن السُّرعة قيل: أمرٌ وحيٌّ، وذلك يكون بالكلام على الرمز والتعريض، وقد يكون بصوتٍ مجرَّدٍ عن التركيب، وبإشارةِ ببعض الجوارح، وبالكتابة، وقد حُمل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً﴾ [مريم: ١١] فقد قيل: رَمَز، وقيل: اعتبار[3]، وقيل: كَتَبَ، وجَعَل التسخير من الوحي أيضاً، وحَمل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨].

وسيأتي إن شاء الله تعالى ما للصوفية قُدِّسَتْ أسرارهم من الكلام في هذه الآية.

و«وحياً» ـ على ما قال الزمخشري[4] ـ مصدرٌ واقعٌ موقعَ الحال، وكذا «أن يُرسلَ»؛ لأنه بتأويل إرسالاً. و«من وراء حجاب» ظرفٌ واقعٌ موقعَ الحال أيضاً، كقوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١] والتقدير: وما صحَّ أن يُكلِّم أحداً في حال من الأحوال إلا مُوحياً أو مُسمعاً من وراء حجاب أو مُرسلاً. وتعقَّبه أبو حيان[5] فقال: وقوع المصدر حالاً لا ينقاس، فلا يجوز: جاء زيدٌ بُكاءً، تريد: باكياً. وقاس منه المبرِّد[6] ما كان نوعاً للفعل نحو: جاء زيدٌ مشياً، أو سرعةً، ومنع سيبويه[7] من وقوع «أنْ» مع الفعل مَوْقعَ الحال، فلا يجوز: جاء زيدٌ أنْ يضحكَ، في معنى ضَحِكاً الواقع موقعَ ضاحكاً.

---

(١) محمد بن عيسى بن إبراهيم بن رزين، إمام في القراءات والنحو، صنَّف كتاب الجامع في القراءات، وكتاباً في العدد. توفي سنة (٢٥٣هـ). طبقات القراء ٢/ ٢٢٤.

(٢) في مفردات ألفاظ القرآن (وحي).

(٣) كذا في الأصل و(م)، ولعلها محرفة من: أشار، كما في مفردات الراغب.

(٤) في الكشاف ٣/ ٤٧٥.

(٥) في البحر المحيط ٧/ ٥٢٧.

(٦) في المقتضب ٣/ ٢٣٤.

(٧) في الكتاب ١/ ٣٧٠.

وأُجيبَ عن الأول بأنَّ القرآنَ يُقاس عليه ولا يلزم أن يُقاس على غيره، مع أنه قد يقال: يكتفى بقياس المبرّد. وعن الثاني بأنه علّل المنع بكون المصدر[1] الحاصل بالسَّبك معرفةً، وهي لا تقع حالاً، وفي ذلك نظرٌ؛ لأنه غيرُ مُطَّرد، ففي «شرح التسهيل»: إنه قد يكون نكرةً أيضاً، ألا تراهم فسَّروا ﴿أَن يُفْتَرَىٰ﴾ [يونس:٣٧] بـ: مفترى، وقد عرض ابنُ جنِّي ذلك على أبي عليٍّ فاستحسنه[2]، وعلى تسليم الاطّراد فالمعرفة قد تكون حالاً لكونها في معنى النكرة كـ: وحده، والاقتصار على المنع أولى لمكان التعسُّف في هذا.

واختار غيرُ واحدٍ أن «وحياً» بما عُطف عليه منتصبٌ بالمصدر، لأنه نوعٌ من الكلام، أو بتقدير: إلا كلامَ وحي، و«من وراء حجاب» صفةُ كلام أو سماع محذوف، وصفة المصدر تسدُّ مَسَدَّه، والإرسال نوعٌ من الكلام أيضاً بحسب المآل، والاستثناءُ عليه مُفرَّغ من أعمِّ المصادر.

وقال الزجاج: قال سيبويه: سألت الخليلَ عن قوله تعالى: «أو يرسل رسولاً» بالنصب، فقال: هو محمولٌ على أنْ سِوى هذه التي في قوله تعالى: «أن يكلمه الله» لما يلزم منه أن يقال: ما كان لِبَشرٍ أنْ يُرسِلَ الله رسولاً، وذلك غير جائز، والمعنى: ما كان لِبَشرٍ أنْ يُكلِّمه الله إلا بأنْ يُوحي أو أن يُرسل[3]. وعليه أن يقدِّر في قوله تعالى: «أو من وراء حجاب» نحو: أو أن يُسمِعَ من وراء حجاب، وأيّ داعٍ إلى ذلك مع ما سمعت؟!

واختلف في الاستثناء: هل هو متصلٌ أو منقطع؟ وأبو البقاء على الانقطاع[4]، وتعقَّبه بعضُهم بأنَّ المُفرَّغ لا يتَّصف بذلك، والبحث شهير.

وقرأ ابن أبي عبلة: «أو من وراء حُجُب» بالجمع[5]، وقرأ نافع وأهل المدينة:

---

(١) قوله: المصدر، ليس في (م).

(٢) قاله ابن جني في الخاطريات كما في حاشية الشهاب ٧/ ٤٣٠.

(٣) معاني القرآن ٤/ ٤٠٣، والكتاب ٣/ ٤٩.

(٤) الإملاء (بهامش الفتوحات الإلهية) ٤/ ٢٩٦.

(٥) ذكرها أبو حيان في البحر ٧/ ٥٢٧.

«أو يرسلُ رسولاً فيوحي» برفع الفعلين[١]، ووجَّهوا ذلك بأنه على إضمار مبتدأ، أي: هو يُرسل، أو هو معطوفٌ على «وحياً» أو على ما يتعلَّق به «من وراء» بناءً على أن تقديره: أو يسمع من وراء حجاب.

وقال العلامة الثاني[٢]: إنَّ التوجيه الثاني وما بعده ظاهرٌ، وهو عطف الجملة الفعلية الحالية على الحال المفردة، وأما إضمار المبتدأ فإنْ حُمل على هذا فتقديرُ المبتدأ لغو، وإن أُريد أنها مستأنفة فلا يظهر ما يعطف عليه سوى «ما كان لبشر» إلخ، وليس يحسن الانتظام. وتُعُقِّب بأنه يجوز أن يكونَ تقديرُ المبتدأ مع اعتبار الحالية، بناءً على أنَّ الجملة الاسمية التي الخبرُ فيها جملةٌ فعلية تُفيد ما لا تُفيده الفعلية الصِّرفة مما يُناسب حالَ إرسال الرسول، أو يقال: لا نُسلِّم أن العطف على «ما كان لبشر» ليس يحسن الانتظام، وفيه دغدغة لا تخفى.

وفي الآية ـ على ما قال ابنُ عطية[٣] ـ دليلٌ على أنَّ من حلفَ أنْ لا يُكلِّم فلاناً فراسَلَه حَنِثَ، لاستثنائه تعالى الإرسال من الكلام، ونقله الجلالُ السيوطي في «أحكام القرآن»[٤] عن مالك، وفيه بحثٌ، والله تعالى الهادي.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ﴾ مُتَعالٍ عن صفات المخلوقين ﴿حَكِيمٌ ۝٥١﴾ يُجري سبحانه أفعالَه على سَنَن الحِكمة، فيُكلِّم تارةً بواسطة وأخرى بدونها؛ إما إلهاماً وإما خِطاباً، أو إما عياناً وإما خطاباً من وراء حجاب على ما يقتضيه الاختلاف السابق في تفسير الآية.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: ومثلَ هذا الإيحاء البديع، على أنَّ الإشارة لِمَا بعدَ ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ وهو ما أوحي إليه عليه الصلاة والسلام، أو القرآن الذي هو للقلوب بمنزلة الروح للأبدان حيث يُحييها حياةً أبدية، وقيل: أي: ومثلَ الإيحاء المشهور لغيرك أوحينا إليك. وقيل: أي: ومثلَ ذلك الإيحاء المُفصَّل أوحينا إليك، إذ كان عليه الصلاة والسلام اجتمعَتْ له الطرقُ الثلاثُ سواء فُسِّر الوحي

(١) التيسير ص١٩٥، والنشر ٢/ ٣٦٨.
(٢) هو السَّعد التفتازاني، وكلامه في حاشية الشهاب ٧/ ٤٣٠.
(٣) في المحرر الوجيز ٥/ ٤٧.
(٤) وهو كتاب الإكليل في استنباط التنزيل ص٢٣١.

بالإلقاء أم بالكلام الشِّفاهي. وقد ذكر أنه عليه الصلاة والسلام قد أُلقي إليه في المنام كما أُلقي إلى إبراهيم عليه السلام، وألقي إليه عليه الصلاة والسلام في اليقظة على نحو إلقاء الزبور إلى داود عليه السلام. ففي «الكبريت الأحمر» للشعراني نقلاً عن الباب الثاني من الفتوحات المكّية أنه ﷺ أُعطي القرآن مُجملاً قبلَ جبريل عليه السلام من غير تفصيل الآيات والسور.

وعن ابن عباس تفسير الروح بالنبوة.

وقال الربيع: هو جبريلُ عليه السلام، وعليه ف «أوحينا» مُضمَّن معنى أرسلنا، والمعنى: أرسلناه بالوحي إليك لأنه لا يقال: أوحى المَلَكَ، بل: أرسله.

ونقل الطبرسي عن أبي جعفر وأبي عبد الله ﵄ أن المرادَ بهذا الروح مَلَكٌ أعظمُ من جبرائيل وميكائيل كان مع رسول الله ﷺ ولم يصعدْ إلى السماء[1]. وهذا القولُ في غاية الغرابة ولعلَّه لا يَصِحُّ عن هذين الإمامين.

وتنوين «روحاً» للتعظيم، أي: روحاً عظيماً.

﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ الظاهر أنَّ «ما» الأولى نافية، والثانية استفهامية في محلِّ رفع على الابتداء، و«الكتاب» خبر، والجملة في موضع نصب ب «تدري» وجملة «ما كنت» إلخ حالية من ضمير «أوحينا» أو هي مستأنفةٌ، والمضيُّ بالنسبة إلى زمان الوحي.

واستُشكلت الآيةُ بأن ظاهرَها يستدعي عدمَ الاتِّصاف بالإيمان قبلَ الوحي، ولا يصحُّ ذلك؛ لأن الأنبياء عليهم السلام جميعاً قبل البعثة مؤمنون، لعصمتهم عن الكُفر بإجماع مَنْ يُعتدُّ به. وأُجيب بعدَّة أَجوبة:

الأول: أن الإيمان هنا ليس المرادُ به التصديق المجرد، بل مجموع التصديق والإقرار والأعمال، فإنه كما يُطلق على ذلك يطلق على هذا شرعاً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة:١٤٣] والأعمال لا سبيلَ إلى درايتها من غير سَمْع فهو مُركَّب، والمركَّب ينتفي بانتفاء بعضِ أجزائه، فلا يلزم من انتفاء

---

(١) مجمع البيان ٢٥/٦٦.

الإيمان المركَّب بانتفاء الأعمال انتفاءُ الإيمان بالمعنى الآخر؛ أعني التصديق وهو الذي أجمع العلماءُ على اتِّصاف الأنبياء عليهم السلام به قَبل البِعثة، ولذا عبّر بـ «تدري» دون أن يقال: لم تكن مؤمناً، وهو جوابٌ حسن، ولا يلزمه نفي الإيمان عمَّن لا يعمل الطَّاعاتِ، ليكون القولُ به اعتزالاً كما لا يخفى.

الثاني: أن الإيمان إنما يُعنى به التصديقُ بالله تعالى وبرسوله عليه الصلاة والسلام دون التصديق بالله عز وجل ودون ما يدخل فيه الأعمال، والنبي ﷺ مخاطب بالإيمان برسالة نَفْسِهِ كما أن أُمَّته ﷺ مُخاطَبون بذلك، ولا شكَّ أنه قبل الوحي لم يكن عليه الصلاة والسلام يعلم أنه رسولُ الله، وما علم ذلك إلا بالوحي فإذا كان الإيمان هو التصديقَ بالله تعالى ورسوله ﷺ ولم يكن هذا المجموعُ ثابتاً قبل الوحي، بل كان الثابت هو التصديقَ بالله تعالى خاصَّةً المُجْمَعَ على اتِّصاف الأنبياء عليهم السلام به قبل البِعثة، استقام نفي الإيمان قبل الوحي، إلى هذا ذهب ابنُ المُنيِّر[1].

الثالث: أن المرادَ شرائعُ الإيمان ومَعالمه مما لا طريقَ إليه إلا السمع، وإليه ذهب محيي السنة البغوي[2]، وقال: إنَّ النبيَّ ﷺ كان قبلَ الوحي على دين إبراهيم عليه السلام، ولم تتبيَّن له عليه الصلاة والسلام شرائعُ دينه، ولا يخفى أنه إذا لم يُعتبر كونُ الكلام على حذف مضاف يلزمه إطلاقُ الإيمان على الأعمال وحدَها، وهو خلافُ المعروف.

الرابع: أن الكلامَ على تقدير مضاف، فقيل: التقدير: دعوة الإيمان،أي: ما كنتَ تدري كيف تدعو الخَلْقَ إلى الإيمان، وإليه يُشير كلامُ أبي العالية.

وقال الحسين بن الفضل: أي: أهل الإيمان، أي: لا تدري من الذي يُؤمن، وأنت تدري أنه لا يرتضي هذا إلا مَنْ لا يدري.

الخامس: أن المرادَ نفي دراية المجموع، أي:ما كنت تدري قبلَ الوحي

---

(١) في الانتصاف بهامش الكشاف ٣/ ٤٧٧.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٣٢.

مجموعَ الكتاب والإيمان، فلا يُنافي كونه ﷺ كان يدري الإيمان وحدَه. ويأباه إعادةُ «لا».

السادس: أن المرادَ: ما كنت تدري ذلك إذْ كنتَ في المهد، وإليه ذهب علي بن عيسى. وهو خلافُ الظاهر.

والظاهرُ أن المرادَ استمرارُ النفي إلى زمن الوحي، وظاهرُ كلام «الكشف» يميلُ إلى اعتبار نحو ذلك القيد، قال: لعل الأشبهَ أنَّ «الإيمانَ» على ظاهره، والآية واردةٌ في معرِض الامتنان، والإيحاءُ يشمل الإلقاءَ في الرُّوع وإرسالَ الرسول، فالإيمان عَرفَه بالأول، والكتاب بالثاني، على أن الآيةَ تدلُّ على أنه ﷺ عَرَفَهما بعد أن لم يكن عارفاً، وهو كذلك، أمَّا أنه عليه الصلاة والسلام عَرَفهما بعد الوحي فلا، فجاز أن يَعْرِفهما به، وجاز أن يعرفَ واحداً منهما معيَّناً به. وقد دلَّ الدليلُ على أن المعرف به هو الكتاب والإيمان بعد العقل وقبل الوحي، والتمسُّك به على أنه ﷺ لم يكن مُتعبّداً بشرع مَن قبله ضعيفٌ؛ لأن عدمَ الدِّراية لا يلزمه عدمُ التعبُّد، بل يلزمه سقوطُ الإثم إن لم يكن تقصيراً. انتهى.

وأنت تعلم أنَّ المتبادرَ أنه عليه الصلاة والسلام عرفهما بعد الوحي، وأما قولُه قُدِّس سِرُّه في تضعيف التمسُّك بذلك على أنه ﷺ لم يكن متعبداً بشرع من قبله أن عدمَ الدِّراية لا يلزمه عدمُ التعبد، فقد قيل عليه: إنه ساقطٌ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام إذا لم يدرِ شرعاً فكيف يتعبَّد به.

وقد يُجاب بأنَّ مرادَ المدقّق أنَّ الدرايةَ المنفيَّة الدرايةُ بمعنى العلم الجازم الثابت المطابق للواقع، وعدمُها لا يلزمه عدمُ التعبد، إذ يكفي في التعبد بشرع من قَبله عليه الصلاة والسلام الظنُّ الراجح ثبوتُه، فلعله كان حاصلاً له ﷺ.

ومثلُ هذا الظنّ يكفي المتعبِّدين اليوم بشرع نبينا عليه الصلاة والسلام، فإنَّ أكثرَ الفروع ظنيَّة، ومن يتتبَّع الأخبار يعلم أن العربَ لم يزالوا على بقايا من دين إبراهيم عليه السلام من الحجِّ والخِتان وإيقاع الطلاق والغُسل من الجنابة وتحريم ذواتِ المحارم بالقَرابة والصّهر وغير ذلك، وأن النبي ﷺ كان أحرص الناس على

اتّباع دين إبراهيم عليه السلام. وفي الصحيح أنه ﷺ كان ـ أي: قبل البِعثة ـ يتحنَّث بغار حراء[١]، وفسّر التحنُّث بالتحنُّف، أي: اتّباع الحنيفيَّة، وهي دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام، والفاء تُبدل ثاء في كثير من كلامهم، وفي رواية ابن هشام في «السير»: يتحنَّف بالفاء بدل الثاء[٢]. نعم فُسِّر أيضاً بالتعبّد كما في «صحيح البخاري»[٣] وباتقاء الحِنْث، أي: الإثم، كالتحرُّج والتأثُّم، وكل ذلك مما ذكره الحافظ القسطلّاني في «شرح الصحيح»[٤].

ثم إنَّ الظاهرَ أن من قال: إنه ﷺ كان متعبداً بشرع من قبله ليس مرادُه أنه عليه الصلاة والسلام كان متعبداً بجميع شرع مَن قبلَه، بل بما ترجَّح عنده ﷺ ثُبوتُه. والذي ينبغي أن يرجح كونُ ذلك من شرع إبراهيم عليه السلام لأنه من ذُرِّيته عليهما الصلاة والسلام، وقد كُلِّفت العرب بدينه.

وقال بعضهم: إنَّ عبادته ﷺ التفكُّر والاعتبار، ولعله أيضاً مما ترجَّح عنده عليه الصلاة والسلام كونُه من شريعته عليه السلام، وربما يقال: بما عَلِمه ﷺ لا على ذلك الوجه من شرع مَن قبله أنه ﷺ لم يَزلْ مُوحًى إليه، وأنه عليه الصلاة والسلام متعبِّدٌ بما يُوحى إليه إلا أن الوحيَ السابقَ على البِعثة كان إلقاءً وَنفْثاً في الرُّوع، وما عمل بما كان من شرائع أبيه إبراهيم عليهما الصلاة والسلام إلا بواسطة ذلك الإلقاء، وإذا كان بعضُ إخوانه من الأنبياء عليهم السلام قد أُوتي الحُكم صبيّاً ابن سنتين أو ثلاث فهو عليه الصلاة والسلام أولى بأنْ يُوحى إليه ذلك النوع من الإيحاء صبيّاً أيضاً، وَمن عَلِمَ مقامه ﷺ وصدَّق بأنه الحبيبُ الذي كان نبيّاً وآدم بين الماء والطين لم يستبعدْ ذلك، فتأمَّل.

﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ﴾ أي: الروح الذي أوحيناه إليك، وقال ابن عطية[٥]: الضّمير

---

(١) قطعة من حديث أخرجه مسلم (١٦٠) من حديث عائشة ﵂.
(٢) السيرة النبوية ١/ ٢٣٥.
(٣) الحديث (٣) من حديث عائشة ﵂.
(٤) إرشاد الساري ١/ ٦٢.
(٥) في المحرر الوجيز ٥/ ٤٤.

للكتاب. وقِيلَ: للإيمان، ورُجِّح بالقُرْب. وقِيلَ: للكتاب والإيمان، ووُحِّدَ لأنَّ مقصدَهما واحدٌ، فهو نظير ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢].

﴿نُورًا﴾ عظيماً ﴿نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ﴾ هدايتَه ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهو الذي يصرف اختياره نحوَ الاهتداء به. والجملة إمّا مستأنفة أو صفة «نوراً»، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ﴾ تقريرٌ لهدايته، وبيانٌ لكيفيتها، ومفعول «لتهدي» محذوف ثقةً بغايةِ الظُّهورِ، أي: وإنك لتهدي بذلك النور مَنْ تشاءُ هدايته ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾ هو الإسلام وسائر الشرائعِ والأحكام.

وقرأ ابنُ السميفع: «لتُهدِي» بضمِّ التاء وكسر الدال مِنْ أهدى[1]، وقرأ حوشب: «لَتُهدَى» مبنيّاً للمفعول، أي: ليهديك الله. وقُرِئ: «لتدعو»[2].

﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ بدلٌ من الأول وإضافتُهُ إلى الاسم الجليل ثُمَّ وصفُهُ بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لتفخيم شأنه وتقرير استقامته وتأكيدِ وجوب سلوكه فإنَّ كونَ جميع ما فيهما مِنَ الموجوداتِ له تعالى خَلْقاً ومُلْكاً وتَصرُّفاً مما يوجبُ ذلك أتمَّ إيجاب.

﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ۝٥٣﴾ أي: أمور مَن فيهما قاطبةً لا إلى غيرِهِ تعالى، وذلك بارتفاع الوسائط يومَ القيامة، ففيه مِنَ الوعدِ للمهتدين إلى الصِّراطِ المستقيم والوعيدِ للضَّالين عنه ما لا يخفى. وصيغة المضارع على ما قرَّرنا على ظاهرها من الاستقبال، وقال في: «البحر»[3]: المرادُ بها الاستمرار، كما في: زيدٌ يعطي، أي: مِنْ شأنِهِ ذلك. والأولُ أظهرُ، والله تعالى أعلمُ.

❁ ❁ ❁

ومما قاله أربابُ الإشارات في بعض الآيات: قال سبحانه: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ قيل: يشير ذلك إلى إنذار نفسه الشريفة، لأنها أُمُّ قُرى نفوسِ آدمَ

(١) البحر المحيط ٧/ ٥٢٨.
(٢) القراءات الشاذة ص١٣٤، ونسب قراءة: «لتدعو» لابن مسعود ﷺ.
(٣) البحر المحيط ٧/ ٥٢٨.

وأولاده، لأنه ﷺ أول العالمين خَلْقاً ومنه عليه الصلاة والسلام نشأت الأرواح والنفوس، ومن هذا كان آدمُ ومَنْ دونه تحت لوائه ﷺ، وقد أشار إلى ذلك سلطانُ العاشقين عمر بن الفارض بقوله على لسان الحقيقة المحمدية:

وإنـي وإنْ كـنـتُ ابـنَ آدمَ صـورةً فـلـي مـنـه مـعـنًى شـاهـدٌ بـأبـوَّتـي[1]

وقوله سبحانه: «ومَن حولها» يُشير إلى نفوس أهل العالم، وقد أنذر ﷺ كلّاً حسب استعداده.

وقيل في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾: إنه يُشير إلى التنزيه والتشبيه، وقرَّر ذلك الشيخُ الأكبر قدِّس سرّه بما يطول.

﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: مفاتيح سماوات القلوب وفيها خزائنُ لطفه تعالى ورحمته عز وجل، وأرض النفوس، وفيها خزائن قهره سبحانه وعزته جل جلاله، فكلُّ قلب مخزنٌ لنوع من ألطافه كالمعرفة والمحبة والشوق والتوحيد والهيبة والأنس والرِّضا إلى غير ذلك، وقد يجتمع في القلب خزائنُ، وكلُّ نفس مخزن لنوع من آثارِ قهره، كالنكرة والجُحود والإنكار والشرك والنفاق والحرص والكبر والبخل والشَّرَه وغير ذلك، وقد يجتمع في النفس خزائن، وفائدةُ الإخبار بأنَّ له سبحانه مقاليدَ ذلك قطعُ أفكار العباد عمن سواه سبحانه في جلب ما يُريدونه ودفع ما يكرهونه.

﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ يُشير إلى مقامي المجذوب والسالك، فالمجذوب من الخواصِّ اجتباه ربُّه سبحانه في الأزل، وسلَكه في مسلك من يُحبّهم، واصطنعه سبحانه لنفسه جل شأنه، وجذبه تعالى عن الدارين بجذبة تُوازي عمل الثقلين، فهو في مقعد صدقٍ عند مَليكٍ مقتدر، والسالك من العوامِّ سلكه في سلك من يُحبونه بالتوفيق للهداية والقيام على قدمي الجهد والإنابة إلى سبيل الرشاد من طريق العناد.

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ﴾ يُشير إلى الذين يُجادلون في

---

(١) ديوان ابن الفارض ص١٠٥.

معرفة الله تعالى بشُبَه العقل الذي استجابَ له تعالى حين دعاه فوصل إلى الحضرة، فهو في كشف وعِيان، وأولئك من وراء ما يزعُمون أنه برهان.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ يُشير إلى كفار النفوس، فإنهم شرعوا عند استيلائهم للأرواح والقلوب ما لم يرضَ به الله تعالى من مخالفات الشريعة وموافقات الطبيعة.

﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ يُشير إلى عموم لطفه تعالى، وهو أنواعٌ لا تُحصَى ومراتبُ لا تستقصَى.

وروى السُّلَمي عن سيِّد الطائفة قدِّس سرُّه[1]: اللطيف من نوَّر قلبك بالهدى، وربَّى جسمَك بالغذا ويخرجك من الدنيا بالإيمان ويحرسُك من نار لظى، ويُمكِّنك حتى تنظر وترى. هذا لطف اللطيف بالعبد الضعيف.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ استعملوا تكاليفَ الشرع لقمع الطبع وكسر الهوى وتزكية النفس وتصفية القلب وجِلاء الروح في روضات الجنات في الدنيا جنات الوصلة والمعارف وطيب الأنس في الخلوة، وفي الآخرة في روضات الجنة ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ حسب مراتبهم في القربات والوصلات والمكاشفات ونيل الدرجات، وعلى قَدْرِ هِممهم.

﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وهم أقاربه ﷺ الذين خُلقوا من عنصره الشريف وتحلَّوا بحلاه المُنيف كأئمة أهل البيت، ومودَّتهم يعود نفعها إلى من يودُّهم لأنها سببٌ للفيض، وهم ﷺ أبوابه، وفي قوله ﷺ: «أنا مدينةُ العلم وعليٌّ بابها[2]» رمزٌ إلى ذلك، فافهم الإشارة.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ لمزيد كرمه جلَّ شأنه، فمتى وفَّق عبداً للتوبة قبلها جوداً وكرماً، وعن بعضهم أنه قال لبعض المشايخ: إنْ تبتُ فهل يَقْبَلُني الله

(١) هو الجنيد، وكلامه في تفسير السلمي ٢/ ٢٢٧.
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣/ ١٢٦، وصحَّح إسناده، وتعقَّبه الذهبي بقوله: بل موضوع، وقال ابن الجوزي في الموضوعات ٢/ ٤٥٦ بعد أن ذكر طرقه: والحديث لا أصل له.

تعالى؟ فقال: إنْ يَقْبَلْكَ الله تعالى تَتُبْ إليه سبحانه. فقبولُ الله تعالى سابق على التوبة.

﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ إشارةٌ إلى الرؤية، فإن الجِنان ونعيمها مخلوقةٌ تقع في مقابلة مخلوق، وهو عمل العمال، والرؤية مما تتعلق بالقديم فلا تقع إلا فضلاً ربَّانياً، وفي بعض الأخبار أن هذه الزيادة أن يُشفِّعهم في إخوان إخوانهم.

﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم﴾ الاستجابة للعوامِّ بالوفاء بعهده تعالى، والقيام بحقه سبحانه، والرجوع عن مخالفته جل شأنه إلى موافقته عز وجل، وللخواصّ بالاستسلام للأحكام الأزلية والإعراض عن الدنيا وزينتها وشهواتها، ولأخصِّ الخواصِّ من أهل المحبة بصدق الطلب بالإعراض عن الدارين والتوجُّهِ لحضرة الجلال ببذل الوجود في نيل الوصول والوصال.

﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۞ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ﴾ قيل: فيه إشارة إلى أحوال المشايخ من حيث المريدون؛ فمنهم مَنْ يهب الله تعالى له، ومنهم مَنْ لا تَصرُّفَ له في غيره بالتخريج والتسليك، وهو أشبه شيء بالأنثى من حيث عدمُ التصرُّف، ومنهم مَنْ يَهَبُ سبحانه له مَنْ له قدرةُ التصرف بالتخريج والتسليك، وهو أشبهُ شيء بالذكر، ومنهم مَنْ يَهَبُ له تعالى هذا وهذا، ومنهم من يجعله جل وعلا عقيماً لا مُريد له أصلاً.

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ قال سيدي الشيخ عبد الوهاب الشعراني في تفسيره الآية المذكورة: اعلم أنَّ المانع من سماع كلام الحقِّ إنما هو البشرية، فإذا ارتفع العبدُ عنها كلَّمه الله تعالى من حيث كلَّم سبحانه الأرواح المجرَّدة عن الموادِّ، والبشر ما سُمِّي بشراً إلا لمباشرته الأمور التي تعوقُه عن اللحوق بدرجة الروح، فلما لم يلحق كلَّمه الله تعالى في الأشياء وتجلَّى سبحانه له فيها بخلاف مَنْ لحق كالأنبياء عليهم السلام فلا يتجلَّى الحقُّ سبحانه لغيرهم إلا في حجاب الصور، ولولا هدايته تعالى للعبد ما عرف أنه سبحانه ربُّه.

واعلم أنَّ الحقيقةَ تأبى أن يُكلِّمَ الله تعالى غيرَ نفسه، أو يسمع غيرَ نفسه، فلا بدَّ إذا خاطب عبداً على قصد إسماعه أن يكونَ جميعَ قواه؛ لأنه محالٌ أن يُطيقَ الحادثُ سماعَ كلام القديم ولم يكن الحقُّ سبحانه قوَّاه عند النجوى، ولذلك خَرَّ موسى عليه السلام صَعِقاً إذْ لم يكن له استعدادٌ يقبل به التجلّي اللائق بمقامه، وثبتَ نبينا ﷺ، ولمَّا لم يكن للجبل درجةُ المحبة التي يكون بها الحقُّ سَمْعَ عبده وبَصَرَه وجميعَ قواه لم يقدرْ على سماع الخطاب، فَدُكَّ.

واعلم أنَّ حديثَ الحقِّ سبحانه للخلق لا يزال أبداً، غيرَ أن من الناس من يفهم أنه حديثٌ كعمر بن الخطاب ﷺ ومَنْ ورثه من الأولياء، ومنهم من لا يعرف ذلك ويقول: ظهر لي كذا وكذا، ولا يعرف أن ذلك من حديث الحقِّ سبحانه معه، وكان شيخنا يقول: كان عمرُ من أهل السماع المُطلق الذي يُحدِّثهم الله تعالى في كلِّ شيء، ولكن له ألقاب، وهو أنه إن أجابوه به تعالى فهو حديثٌ، وإن أجابوه بهم فهي محادثة، وإن سمعوا حديثه سبحانه فليس بحديث في حقِّهم، وإنما هو خطاب أو كلام، وقد ورد في المتهجِّدين أنهم أهل المسامرة، فقد علمت أنَّ الوحي ما يُلقيه الله تعالى في قلوب خواصِّ عباده على جهة الحديث، فيحصل لهم من ذلك علمٌ بأمرٍ ما، فإن لم يكن كذلك فليس بوحي أو خطاب، فإن بعضَ الناس يجدون في قلوبهم علماً بأمرٍ ما مثل العلوم الضرورية عند الناس، فهو علم صحيحٌ، لكن ليس صادراً عن خطاب، وكلامنا إنما هو في الخطاب الإلهي المُسمَّى وحياً، فإنَّ الله تعالى جعل هذا الصنف من الوحي كلاماً يستفيد به العلم مَن جاء له.

واعلم أنه لا ينزل على قلوب الأولياء من وحي الإلهام إلا دقائقُ ممتدَّة من الأرواح الملكية لا نفس الملائكة، لأنَّ الملك لا ينزل بوحي على غير نبيٍّ أصلاً، ولا يأمر بأمر إلهي قطعاً؛ لأن الشريعة قد استقرَّت فلم يبقَ إلا وحي المُبشِّرات، وهو الوحي الأعمُّ، ويكون من الحق إلى العبد من غير واسطة، ويكون أيضاً بواسطة، والنبوَّة من شأنها الواسطة، فلا بُد من واسطة المَلك فيها، لكن الملك لا يكون حال إلقائه ظاهراً بخلاف الأنبياء عليهم السلام، فإنهم يرون المَلَكَ حال

الكلام، والوليُّ لا يشهد المَلكَ إلا في غير حال الإلقاء، فإنْ سمع كلامه لم يَرَهُ، وإن رآه لا يكلِّمه، فالعارفون لا ينالون ما فاتهم من النبوَّة مع بقاء المُبشِّرات عليهم إلا أن الناس يتفاضلون، فمنهم من لا يبرح في بشارة الواسطة، ومنهم من يرتفع عنها كالأفراد، فإنَّ لهم المبشرات بارتفاع الوسائط وما لهم النبوات، ولهذا يُنكر عليهم الأحكام لأنهم ضاهوا الأنبياء من حيث كونهم يعملون بما يرونه من تعريفات الحقِّ لهم كأنه شريعةٌ مستقلة في الظاهر، وليس ذلك بشريعة إنما هو بيانٌ لها، فالمنقطع إنما هو وحي التشريع لا غير، أما التعريف لأمور مجملة في السنَّة فهو باقٍ لهذه الأمة ليكونوا على بصيرة فيما يدعون الناس إليه، لأنه خبرٌ إلهي، وإخبار من الله تعالى للعبد على يد ملك مغيَّب على هذا المُلهم، ولا يكون الإلهام إلا في الخير.

و«ألهمها فجورها» على معنى إلهامها إيَّاه لِتجتنبه كما أنَّ إلهامها تقواها لتعمل بها. وأكملُ الإلهام أن يلهم اتباع الشرع والنظر في الكتب الإلهية، ويقف عند حدودها وأوامرها حتى يزولَ صدأ طبيعته وتنتقش فيها صورُ العالم.

وأما قوله تعالى: ﴿أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ فهو خطابٌ إلهيٌ يُلقيه على السمع لا على القلب، فيدركه من أُلقيَ إليه، فيفهم منه ما قَصَدَه مَنْ يُسمعه ذلك. وقد يحصل له ذلك في صورة التجلِّي، فتخاطبه تلك الصورة، وهي عين الحجاب، فيفهم من ذلك الخطاب علم ما يدلُّ عليه، ويعلم أن ذلك حجابٌ، وأن المتكلِّم منْ وراء ذلك الحجاب، وكل من أدرك صورة التجلِّي الإلهي يعلم أن ذلك هو اللهُ تعالى، فما يزيدُ صاحبُ هذا الحال على غيره إلا بمعرفته أنَّ المخاطِبَ له منْ وراء الحجاب.

وأما قوله تعالى: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ فهو ما ينزل به الملك أو ما يجيء به الرسول البشريُّ إلينا إذا نقلا كلام الله تعالى خاصة كالتالين، فإنْ نقلا علماً وجداه في أنفسهما وأفصحا عنه، فذلك ليس بكلام إلهي، ومن الأولياء من يعطي الترجمة عن الله سبحانه في حال الإلقاء والوحي الخاصّ بكل إنسان، فيكون المترجم مُوجداً لصور الحروف اللفظية أو المرقومة، ويكون روحُ تلك الصور كلامَ الله

عز وجل لا غير، وقد يقول الولي: حدثني قلبي عن ربِّي، يعني به من الوجه الخاصّ.

فاعلم ذلك، وتأمَّل ما قرَّرته لك فإنه نفيس، والله تعالى يتولَّى هداك. وله قدس سرُّه كلامٌ كثير في هذا المقام تركناه خوف الإطالة، ولعل فيما ذكرناه كفاية لذوي الأفهام.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ﴾ وهو ما به الحياة الطيبة الأبدية ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ قبل الإيحاء. قيل: أشير بهذا الإيحاء إلى الإيحاء في هذه النشأة، وكان له ﷺ في كلِّ حال من أحواله فيها نوعٌ من الوحي والدراية المنفية، إذ كان عليه الصلاة والسلام في كينونته قبل إخراجه منها بتجلي كينونته عز وجل، وإلا فهو ﷺ نبيٌّ ولا آدم ولا ماء ولا طين، ولا يعقل نبيٌّ بدون إيحاء.

﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو التوحيد السليم من زوايا الأغيار ويُشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾.

تمت السورة بتوفيق الله عز وجل، والصلاة والسلام على أوَّل نورٍ أشرق من شمس الأزل وبَهَا، والحمد لله تعالى.

(سورة الشورىٰ)

(مكيّة، وهي ثلاث وخمسون آية)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾﴾

فصل ﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ من ﴿عٓسٓقٓ ﴿٢﴾﴾ كتابة مخالفًا لـ ﴿كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾﴾ [مريم: الآية ١] تلفيقًا بأخواتها ولأنها آيتان و﴿كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾﴾ آية واحدة ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ﴾ (**أي مثل ذلك الوحي أو مثل ذلك الكتاب**) يوحي إليك ﴿وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ وإلى الرسل من قبلك ﴿ٱللَّهُ﴾ يعني أن ما تضمنته هذه السورة من المعاني قد أوحى الله إليك مثله وفي غيرها من السور، وأوحاه إلى مَن قبلك يعني إلى رسله. والمعنى أن الله كرّر هذه المعاني في القرآن وفي جميع الكتب السمٰوية لما فيها من التنبيه البليغ واللطف العظيم لعباده. وعن ابن عباس ﷺ : ليس من نبيّ صاحب

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله : (**سورة الشورىٰ، مكيّة، وهي ثلاث وخمسون آية**) من غير ألف ولام وتُسمى سورة الشورى وسورة حم عسق وسورة عسق وسورة حم سق. **قوله** : (**أي مثل ذلك الوحي أو مثل ذلك الكتاب**) يعني أن ﴿كَذَٰلِكَ﴾ في موقع المطلق أو المعمول به وقيل: بل كلاهما تقرير المفعول به وإنما الاختلاف في تعيين المشار إليه.

كتاب إلا أوحي إليه بـ ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾. (﴿يوحَى﴾ بفتح الحاء: مكيّ). ورافع اسم الله على هذه القراءة ما دلّ عليه ﴿يوحَى﴾ كأن قائلًا قال: مَن الموحي؟ فقيل: الله ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب بقهره ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ المصيب في فعله وقوله:

﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٤ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾

﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ﴾ ملكًا وملكًا ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ شأنه ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ برهانه.

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ (وبالياء: نافع وعلي. ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ﴾ يتشققن، ﴿ينفطرن﴾: (بصري وأبو بكر) ومعناه يكدن ينفطرن من علوّ شأن الله وعظمته يدلّ عليه مجيئه بعد قوله: ﴿ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ وقيل: من دعائهم له ولدًا كقوله: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ [مريم: الآية ٩٠] ومعنى ﴿مِن فَوْقِهِنَّ ۚ﴾ أي (يبتدىء الانفطار) من جهتهن الفوقانية. وكان القياس أن يقال ينفطرن من تحتهن من الجهة التي جاءت منها كلمة الكفر لأنها جاءت من الذين تحت السمٰوات، ولكنه بولغ في ذلك فجعلت مؤثرة في جهة الفوق كأنه قيل: يكدن ينفطرن من الجهة التي فوقهن مع الجهة التي تحتهن. وقيل: من فوقهن من فوق الأرض فالكناية راجعة (إلى الأرض) لأنه بمعنى الأرضين. وقيل: يتشققن لكثرة ما على السمٰوات من

قوله: (﴿يوحَى﴾ بفتح الحاء: مكيّ) أي قرأه ابن كثير المكيّ وقرأ الآخرون بكسر الحاء.

قوله: (وبالياء: نافع وعلي) الكسائي والباقون بتاء التأنيث. **قوله**: (﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾) بنون ساكنة بعد الياء وكسر الطاء مخففة مضارع انفطر انشق (بصري) أي أبو عمرو وسهل ويعقوب وليسا من السبعة (وأبو بكر) شعبة والباقون بتاء فوقية مفتوحة مكان النون وفتح التاء مشددة مضارع تفطر تشقق. **قوله**: (يبتدىء الانفطار) من جهتين الفوقانية نسبة للفوق على خلاف القياس كالتحتاني والألف والنون كثيرًا ما يراد في النسب. **قوله**: (إلى الأرض) أي جنسها فيشمل السبع ولذا جمع الضمير.

الملائكة، قال ﷺ: («أطّت السماء) أطًّا (وحقّ لها أن تئطّ)، ما فيها موضع قدم إلا وعليه ملك قائم أو راكع أو ساجد». ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ خضوعًا لما يرون من عظمته و﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي للمؤمنين منهم كقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: الآية ٧] خوفًا عليهم من سطواته أو يوحدون الله وينزّهونه عما لا يجوز عليه من الصفات حامدين له على ما أولاهم من ألطافه، متعجبين مما رأوا من تعرّضهم لسخط الله تعالىٰ، ويستغفرون لمؤمني أهل الأرض الذين تبرءوا من تلك الكلمة، أو يطلبون إلى ربهم أن يحلم عن أهل الأرض ولا يعاجلهم بالعقاب ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ لهم.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ أي جعلوا له شركاء وأندادًا ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ رقيب على أقوالهم وأعمالهم لا يفوته منها شيء فيجازيهم عليها ﴿وَمَآ أَنتَ﴾ يا محمد ﴿عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ بموكل عليهم ولا مفوّض إليك أمرهم إنما أنت منذر فحسب. ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثل ذلك ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ وذلك إشارة إلى معنى الآية التي قبلها من أن الله رقيب عليهم لا أنت بل أنت منذر لأن هذا المعنى كرّره الله في كتابه أو هو مفعول به لـ ﴿أَوْحَيْنَآ﴾ ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ حال من المفعول به أي أوحيناه إليك وهو قرآن عربي بيّن ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي مكة لأن الأرض دحيت من تحتها أو لأنها أشرف (البقاع والمراد أهل أم القرى) ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾

قوله: (أطّت السماء) الأطيط صوت الأقتاب وحنين الإبل أي كثرة ملائكتها قد أثقلتها حتى أطّت وهو مثل وإيذان بكثرتها وأريد به تقرير عظمته تعالى وإن لم يكن ثم أطيط أطَّ يَئِطّ كفرّ يفرّ. **قوله**: (وحُق) مجهول أي ينبغي (لها أن تئِطّ) أي تصح من جهة ازدحام الملائكة أو من خشية الله.

قوله: (البقاع) في المصباح البقعة من الأرض القطعة منها وتضم الباء في الأكثر فتجمع على بقع مثل غرفة وغرف وتفتح فتجمع على بقاع مثل كلبة وكلاب. اهـ. **قوله**: (والمراد أهل أُم القرى) قدر المضاف لأن نفس مكة لا يصح

(من العرب) ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ يوم القيامة لأن الخلائق تجتمع فيه ﴿لَا رَيْبَ فِيهِۚ﴾ **(اعتراض لا محل له، يقال: أنذرته كذا وأنذرته بكذا)** وقد عدي ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ إلى المفعول الأول ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ إلى المفعول الثاني ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ **(أي منهم فريق)** في الجنّة ومنهم فريق في السعير، **(والضمير)** للمجموعين لأن المعنى يوم جمع الخلائق.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾﴾

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي مؤمنين كلهم ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦۚ﴾ أي يكرم مَن يشاء بالإسلام ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ﴾ والكافرون ﴿مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ﴾ شافع ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ دافع.

إنذارها. **قوله: (من العرب)** تقييده بالعرب لا ينافي عموم رسالته عليه الصلاة والسلام لأن تخصيص الشيء بالذكر لا ينافي عموم الحكم لما عداه.

قوله: (اعتراض لا محل له) على قول مَن يجوّز الاعتراض في آخر الكلام والمشهور أنه لا يقع إلّا بين متلازمين كالمبتدأ والخبر والمعطوف والمعطوف عليه.

قوله: (يقال: أنذرته كذا وأنذرته بكذا) الإنذار يتعدّى لمفعولين ثانيهما يكون منصوبًا ومجرورًا بالباء تقول: أنذرته كذا ولتنذرنه بكذا فاقتصر في الأوّل على أوّل مفعوليه وحذف ثانيهما إذ التقدير لتنذر أهل أم القرى بعذاب يوم الجمع بقرينة ما بعده وأول مفعولي الثاني وهو أهل مكة بقرينة ما قبله وقد حذف من الأول ما أثبت في الثاني فهو من الاحتباك.

قوله: (أي منهم فريق...) الخ التقدير منهم فريق للارتباط بما قبله إذ لا ارتباط بدون الضمير. **قوله: (والضمير)** أي الضمير المجرور في منهم لما دلّ عليه يوم الجمع فإن المعنى يوم جمع الخلائق في موقف الحساب ولفظة من للتبعيض قدم الأول لشرافته وأما قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هُود: الآية ١٠٥] قدم الشقي فيه لكثرته.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٩﴾

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ﴾ الفاء **(لجواب شرط مقدر)** كأنه قيل بعد إنكار كل ولي سواه **(إن أرادوا أولياء بحق)** فالله هو الولي بالحق، وهو الذي يجب أن يتولى وحده لا ولي سواه. (﴿وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾) فهو الحقيق بأن يتخذ وليًا دون من لا يقدر على شيء.

﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ۝١٠﴾

﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ﴾ **(حكاية قول رسول الله ﷺ للمؤمنين أي ما خالفتكم فيه الكفار)** من أهل الكتاب والمشركين فاختلفتم أنتم وهم فيه من أمر من أمور الدين ﴿فَحُكۡمُهُۥٓ﴾ أي حكم ذلك المختلف فيه مفوّض ﴿إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ وهو إثابة المحقّين فيه من المؤمنين ومعاقبة المبطلين (﴿ذَٰلِكُمُ﴾) الحاكم بينكم ﴿(ٱللَّهُ رَبِّي) عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ فيه رد كيد أعداء الدين ﴿وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ أرجع في كفاية شرّهم. وقيل: وما وقع بينكم الخلاف فيه من العلوم التي لا تتصل بتكليفكم ولا طريق لكم إلى علمه فقولوا: الله أعلم كمعرفة الروح وغيره.

قوله: **(لجواب شرط مقدّر)** دلّ عليه المقام. **قوله:** **(إن أرادوا أولياء بحق)** ينصرهم ويعينهم على الحق. **قوله:** (﴿وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾) مناسب لقوله: ﴿وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ﴾. **قوله:** (﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾) تعميم بعد التخصيص وجه التخصيص ما أشرنا من مناسبته بما قبله.

قوله: **(حكاية قول رسول الله ﷺ للمؤمنين أي بما خالفكم فيه الكفار...)** الخ في حاشية البيضاوي للعلّامة الشيخ زاده رحمه الله غاية ما في الباب أنه لا يجوز الاجتهاد والقياس بحضرة الرسول ﷺ.اهـ وفي حاشيته للعلّامة الشهاب رحمه الله فليس في الآية دليل على منع الاجتهاد في زمنه ﷺ أو بحضرته فإن الأصح عند الأصوليين وقوعه.اهـ. **قوله:** (﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي﴾) هذا دليل على كون قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ﴾... الخ حكاية قول الرسول ﷺ فإضافة الرب للاستغراق فيفيد الحصر.اهـ قونوي. وفي حاشية العلّامة شيخ زاده رحمه الله قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ مبتدأ و﴿ٱللَّهُ﴾ [الشورى: الآية ١٠] خبره وربي نعت لله و﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ خبر بعد خبر قدّم الظرف فيهما ليفيد الاختصاص.اهـ.

﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾

﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ارتفاعه على أنه أحد أخبار ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ **(أو خبر مبتدأ محذوف)** ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ خلق لكم **(من جنسكم)** من الناس ﴿أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا﴾ أي وخلق للأنعام أيضًا من أنفسها أزواجًا (﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ **يكثركم**). يقال: ذرأ الله الخلق بثهم وكثرهم ﴿فِيهِ﴾ **(في هذا التدبير)** وهو أن جعل الناس والأنعام أزواجًا حتى كان بين ذكورهم وإناثهم التوالد والتناسل، **(واختير** ﴿فِيهِ﴾ **علي** «به») لأنه جعل هذا التدبير **(كالمنبع)** والمعدن للبث والتكثير. **(والضمير في** ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ **يرجع إلى المخاطبين والأنعام)** مغلبًا فيه المخاطبون العقلاء على الغيب مما لا يعقل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ قيل: إن كلمة التشبيه كررت لتأكيد نفي التماثل وتقديره ليس مثله شيء. وقيل: المثل زيادة وتقديره ليس كهو شيء كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ [البقرة: الآية ١٣٧]. وهذا لأن المراد نفي المثلية، وإذا لم تجعل الكاف أو المثل زيادة كان إثبات المثل. (**وقيل: المراد ليس كذاته شيء**) لأنهم يقولون «مثلك لا يبخل»

قوله: **(أو خبر مبتدأ محذوف)** أي هو فاطر السمٰوات والأرض أي خالقهما. **قوله**: **(من جنسكم)** أي من أنفسكم أي استعارة للجنس يعني خلق لكم من جنسكم لا من جنس غيركم فإن التجانس شرط التضام وباعث المحبة والالتيام. **قوله**: (﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ **يكثركم**) من الذرء وهو البث وهو الانتشار فيلزمه الكثرة فتفسيره تفسير باللازم. **قوله**: **(في هذا التدبير)** أي مرجع الضمير الجعل المذكور فسّره أولًا بهذا التدبير رعاية بتذكير الضمير وإفراده فالتدبير هنا من صفات الفعل، وكذا في سائر المواضع التي يسند فيها إليه تعالى. **قوله**: **(واختير** ﴿فِيهِ﴾ **علي** «به»... **الخ)** جواب عما يقال هذا التدبير ليس ظرفًا للبث والتكثير بل هو سبب له فلم قيل: يذرؤكم في هذا التدبير ولم يقل بهذا التدبير. **قوله**: **(كالمنبع)** وهو محل نُبوع الماء وظهوره. **قوله**: **(والضمير في** ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ **يرجع إلى المخاطبين والأنعام)** وفيه تغليبان تغليب العقلاء فإن كم ضمير العقلاء وتغليب المخاطب على الغائب فإن مقتضى الظاهر أن يقال: يذرؤكم وإياهن أورد بدل إياهن ضمير المخاطب. **قوله**: (**وقيل: المراد ليس كذاته شيء**...) الخ شروع

يريدون به نفي البخل عن ذاته ويقصدون المبالغة في ذلك بسلوك طريق الكناية، لأنهم إذا نفوه عمن يسد مسده فقد نفوه عنه فإذا علم أنه من باب الكناية لم يقع فرق بين قوله: «ليس كالله شيء» وبين قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ إلا ما تعطيه الكناية من فائدتها وكأنهم عبارتان متعقبتان على معنى واحد وهو نفي المماثلة عن ذاته ونحوه ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: الآية ٦٤] فمعناه بل هو جواد من غير تصور يد ولا بسط لها، لأنها وقعت عبارة عن الجود حتى إنهم استعملوها فيمن لا يد له فكذلك استعمل هذا فيمن له مثل ومَن لا مثل له ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لجميع المسموعات بلا أذن ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ لجميع المرئيات **(بلا حدقة)**، وكأنه ذكرهما لئلا يتوهم أنه لا صفة له كما لا مثل له.

﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾

(﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ **مرّ في «الزمر»**) ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي يضيق ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ ۞ ﴿شَرَعَ﴾ بين وأظهر ﴿لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ أي شرع لكم من الدين دين نوح ومحمد ومَن بينهما من الأنبياء عليهم السلام، ثم فسّر المشروع الذي اشترك هؤلاء الأعلام من رسله فيه بقوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا ٱلدِّينَ﴾ والمراد إقامة دين الإسلام الذي هو توحيد الله وطاعته والإيمان برسله وكتبه وبيوم الجزاء وسائر ما

في تفسير قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ على وجه لا تكون الكاف مزيدة.

قوله: **(بلا حدقة)** في المصباح حدقة العين سوادها والجمع حدق وحدقات مثل قصبة وقصب وقصبات وربما قيل: حداق مثل رقبة ورقاب. اهـ.

قوله: (﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ **مرّ في «الزمر»**) قال المصنّف رحمه الله في سُورة الزمر (﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾) أي هو مالك أمرهما وحافظهما وهو من باب الكناية لأن حافظ الخزائن ومدبر أمرها هو الذي يملك مقاليدها ومنه قولهم: فلان ألقيت إليه مقاليد الملك وهي المفاتيح واحدها مقليد وقيل: لا واحد

يكون المرء بإقامته مسلمًا، ولم يرد به الشرائع فإنها مختلفة قال الله تعالى: (﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾) [المائدة: الآية ٤٨] **(ومحل** ﴿أَنْ أَقِيمُوا﴾ **نصب بدل)** من مفعول «شرع» والمعطوفين عليه، **(أو رفع على الاستئناف)** كأنه قيل وما ذلك المشروع؟ فقيل: هو إقامة الدين ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ ولا تختلفوا في الدين قال علي ﷺ: لا تتفرقوا فالجماعة رحمة والفرقة عذاب. ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ﴾ عظم عليهم وشق عليهم ﴿مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ من إقامة دين الله والتوحيد ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي﴾ **(يجتلب ويجمع)** ﴿إِلَيْهِ﴾ إلى الدين بالتوفيق والتسديد ﴿مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ يقبل على طاعته.

﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾

﴿وَمَا تَفَرَّقُوا﴾ أي أهل الكتاب بعد أنبيائهم ﴿إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ إلا من بعد أن علموا أن الفرقة ضلال وأمر متوعد عليه على ألسنة الأنبياء عليهم السلام

لها من لفظها أو الكلمة أصلها فارسية. اهـ بحروفه. **قوله**: (﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ﴾) أيها الأمم (﴿شِرْعَةً﴾) شريعة (﴿وَمِنْهَاجًا﴾) طريقًا واضحًا في الدين يمشون عليه. اهـ جلالين. **قوله**: **(ومحل** ﴿أَنْ أَقِيمُوا﴾ **نصب بدل...)** الخ على أن كلمة ﴿أَنْ﴾ مصدرية والمعنى شرع إقامتكم الدين لما عرفت أن ﴿أَنْ﴾ المصدرية إذا دخلت على الأمر والنهي يراد به المصدر ومعنى الأمر والنهي منسلخ عنهما نبّه أولًا على كون ﴿أَنْ﴾ مفسرة بقوله: ثم فسر المشروع الذي اشترك هؤلاء الأعلام من رسله فيه بقوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ ثم جوّز كونها مصدرية. **قوله**: **(أو رفع على الاستئناف)** فتكون ﴿أَنْ﴾ مصدرية ويكون الفعل معها في تأويل المصدر كأنه قيل: وما ذلك الشروع فقيل: هو إقامة الدين والاجتماع عليها وترك التفرّق في إقامته فإن الأمر إذا انتظم على هذا الوجه زال الفساد وظهر العدل وتباعد الناس عن التظالم فيتفرّغون لعمارة دنياهم ويتوصلون بها إلى إقامة دينهم وينالون المنزلة الرفيعة عند ربهم. **قوله**: **(يجتلب ويجمع)** إشارة إلى أن يجتبي مأخوذ من الجباية[1] من جبى الخراج جمعه لأن الكلام في عدم التفرّق في الدين يناسب

(١) وهي طلب الخراج، ١٢ منه.

﴿بَغْيَا بَيْنَهُمْ﴾ حسدًا وطلبًا للرياسة و(**الاستطالة**) بغير حق ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهي بل الساعة موعدهم ﴿لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ لأهلكوا حين افترقوا لعظم ما اقترفوا ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ هم أهل الكتاب الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ من كتابهم لا يؤمنون به حق الإيمان ﴿مُرِيبٍ﴾ (**مدخل في الريبة**). وقيل: وما تفرّق أهل الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بمبعث رسول الله ﷺ كقوله تعالىٰ: (﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝٤﴾) [البينة: الآية ٤]، ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾. هم المشركون أورثوا القرآن من بعد ما أورث أهل الكتاب التوراة والإنجيل.

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝١٥﴾

﴿فَلِذَٰلِكَ﴾ فلأجل ذلك التفرّق ولما حدث بسببه من تشعب الكفر (**شعبًا**) ﴿فَٱدْعُ﴾ إلى الاتفاق والائتلاف على (**الملّة**) الحنيفية القوية ﴿وَٱسْتَقِمْ﴾ عليها وعلى الدعوة إليها ﴿كَمَآ أُمِرْتَ﴾ كما أمرك الله ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ المختلفة الباطلة ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ بأي كتاب صح أن الله تعالىٰ أنزله يعني الإيمان بجميع الكتب المنزّلة لأن المتفرقين آمنوا ببعض وكفروا ببعض كقوله:

الجمع والانتهاء إليه وكثير من المفسرين على أنه من الاجتباء بمعنى الاصطفاء وضمير ﴿إِلَيْهِ﴾ لله وهذا هو الظاهر الشائع في الاستعمال.

قوله: (**الاستطالة**) الترفّع. **قوله**: (**مدخل في الريبة**) كأصبح بمعنى دخل في الصباح وهو أحد معاني الأفعال. **قوله**: (﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾) في الإيمان به صلّى الله عليه وسلّم (﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾) أي هو صلّى الله عليه وسلّم أو القرآن الجائي به معجزة له وقبل مجيئه صلّى الله عليه وسلّم كانوا مجتمعين على الإيمان به إذا جاء فحسده من كفر به منهم. اهـ جلالين.

قوله: (**شعبًا**) في المصباح الشعبة من الشجرة الغصن المتفرّع منها والجمع شعب مثل غرفة وغرف. اهـ. **قوله**: (**الملّة**) الحنيفية ملّة الإسلام. **قوله**:

(﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾) إلى قوله: (﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾) [النساء: الآية ١٥١] ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ في الحكم إذا تخاصمتم فتحاكمتم إليّ ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي كلنا (عبيده) ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ هو كقوله: (﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾) [الكافرون: الآية ٦] ويجوز أن يكون معناه إنا لا نؤاخذ بأعمالكم وأنتم لا تؤاخذون بأعمالنا ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أي لا خصومة لأن الحق قد ظهر وصرتم مَحجوجينَ به فلا حاجة إلى المحاجة، ومعناه لا إيراد حجة بيننا لأن المتحاجين يورد هذا حجته وهذا حجته ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ يوم القيامة ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ المرجع لفصل القضاء فيفصل بيننا وينتقم لنا منكم.

﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۝١٦﴾

﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ﴾ يخاصمون (في دينه) ﴿مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ﴾ من بعد ما استجاب له الناس ودخلوا في الإسلام ليردوهم إلى دين الجاهلية كقوله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ (لَوْ يَرُدُّونَكُمْ) مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾ [البقرة: الآية ١٠٩]. كان اليهود والنصارى يقولون للمؤمنين: كتابنا قبل كتابكم ونبيّنا قبل نبيّكم فنحن خير منكم وأولى بالحق. وقيل: من بعد ما استجيب لمحمد عليه السلام

(﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾) إلى **قوله**: (﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾) في تفسير الجلالين (﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ﴾) من الرسل (﴿وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾) منهم (﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾) الكفر والإيمان (﴿سَبِيلًا﴾) طريقًا يذهبون إليه (﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾) مصدر مؤكد لمضمون الجملة. **قوله**: (**عبيده**) جمع عبد. **قوله**: (﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾) في تفسير الجلالين (﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾) الشرك (﴿وَلِيَ دِينِ﴾) الإسلام وهذا قبل أن يؤمر بالحرب وحذف ياء الإضافة السبعة وقفًا ووصلًا وأثبتها يعقوب في الحالين. اهـ.

قوله: (**في دينه**) بتقدير المضاف وفيه تنبيه على أن هذا القول في معنى التعليل لقوله: ﴿لَا حُجَّةَ﴾ [الشورى: الآية ١٥] وبيان لعنادهم وصيغة المفاعلة للمبالغة والمعنى والذين من الكفار يحاجون أي يبالغون في إبراز الحجة لإبطال دين الله. **قوله**: (﴿لَوْ يَرُدُّونَكُم﴾) لو مصدريّة فإن لو تنوب عن أن في المعنى دون

دعاؤه على المشركين (يوم بدر) ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ﴾ باطلة وسمّاها حجة وإن كانت شبهة لزعمهم أنها حجة ﴿عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ بكفرهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في الآخرة.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ (أي جنس الكتاب) ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالصّدق (أي ملتبسًا) به ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ والعدل والتسوية. ومعنى إنزال العدل أنه أنزله في كتبه المنزلة. وقيل: هو عين الميزان أنزله في زمن نوح عليه السلام ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ أي لعل الساعة قريب منك وأنت لا تدري (**والمراد مجيء الساعة**)، و(**الساعة في تأويل البعث**). ووجه مناسبة اقتراب الساعة مع إنزال الكتب والميزان أن الساعة يوم الحساب ووضع الموازين بالقسط فكأنه قيل: أمركم الله بالعدل والتسوية والعمل بالشرائع فاعملوا بالكتاب والعدل قبل أن يفاجئكم يوم حسابكم ووزن أعمالكم.

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ (استهزاء) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ﴾ خائفون ﴿مِنْهَا﴾ وجلون لهولها ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾

اللفظ. اهـ جمالين. **قوله**: (يوم بدر) يقتضي أن الآية مدنيّة لأن وقعة بدر بعد الهجرة فيعارض كون السورة مكيّة من غير استثناء من المصنّف رحمه الله كما قيل: إلا أن يكون تبشيرًا له ووعدًا جعل كالماضي لتحققه.

قوله: (أي جنس الكتاب) فيدخل القرآن فيه دخولًا أوليًا. **قوله**: (أي ملتبسًا) به أي الباء للملابسة. **قوله**: (**والمراد مجيء الساعة**) بتقدير المضاف أو (**الساعة في تأويل البعث**) تسمية للحال باسم ما حلّ فيه وهذا توجيه لتذكير قريب مع أن الساعة مؤنثة.

قوله: (استهزاء) فإنه عليه أفضل الصلاة والسلام لما هدّدهم بيوم القيامة قالوا مستهزئين: متى تقوم الساعة وليتها قامت حتى يظهر الحق أهو الذي نحن

(الكائن لا محالة) ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ﴾ **(المماراة الملاجّة)** لأن كل واحد منهما **(يمري)** ما عند صاحبه ﴿لَفِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ﴾ عن الحق لأن قيام الساعة غير مستبعد من قدرة الله تعالىٰ، وقد دلّ الكتاب والسنّة على وقوعها، والعقول تشهد على أنه لا بد من دار جزاء.

﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ١٩﴾

﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ في إيصال المنافع وصرف البلاء من وجه يلطف إدراكه وهو برّ بليغ البر بهم قد توصل برّه إلى جميعهم. وقيل: هو من لطف بالغوامض علمه وعظم من الجرائم حلمه، أو مَن ينشر المناقب ويستر **(المثالب)**، أو يعفو عمَن **(يهفو)**، أو يعطي العبد فوق الكفاية ويكلفه الطاعة دون الطاقة. و**(عن الجنيد)**: لطف بأوليائه فعرفوه ولو لطف بأعدائه ما جحدوه ﴿يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ﴾ أي يوسع رزق مَن يشاء إذا علم مصلحته فيه، في الحديث «إن من عبادي المؤمنين مَن لا يصلح إيمانه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين مَن لا

عليه أم ما تدعوننا إليه فإنهم لما لم يؤمنوا بها لم يخافوا ما فيها فهم يطلبون وقوعها استبعادًا لقيامها بخلاف الذين آمنوا فإنهم مشفقون منها لعلمهم بأنهم محاسبون ومجزيون بما عملوا في الدنيا مع اعتنائها أي مع اعتنائهم بها واهتمامهم بشأنها أي يجمعون بين الخوف منها والاهتمام بشأنها لتوقعهم ما فيها من الثواب. **قوله**: **(الكائن لا محالة)** هذا مستفاد من التأكيد وإشارة إلى أن الحق بمعنى المتحقق الواجب مثل قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ [الحج: الآية ٦] الآية. **قوله**: **(المماراة الملاجّة)** والمحاجة والمجادلة فيما فيه مرية وأصل ذلك من مريت الشاة مَسَحْتَ ضرعها للحلب. اهـ تفتازاني رحمه الله. وفي تاج العروس الملاجة التمادي في الخصومة وقيل: هو الاستمرار على المعارضة في الخصام. اهـ. **قوله**: **(يمري)** أي يحلب وينزع من مرى الناقة بيده إذا مسح.

قوله: **(المثالب)** العيوب كذا في لسان العرب. **قوله**: **(يهفو)** في الصحاح الهفوة الزلّة وقد هفا يهفو هفوة. اهـ. **قوله**: **(عن الجنيد)** بن محمد سيّد هذه الطائفة الصوفية وكان فقيهًا على مذهب أبي ثور مات سنة سبع وتسعين ومائتين رحمه الله.

يصلح إيمانه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك» ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِيُّ﴾ الباهر القدرة الغالب على كل شيء ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ المنيع الذي لا يغلب.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ﴾ سمى ما يعمله العامل مما يبتغي به الفائدة حرثًا مجازًا ﴿نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِۦ﴾ بالتوفيق في عمله أو التضعيف في إحسانه أو بأن ينال به الدنيا والآخرة ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي مَن كان عمله للدنيا ولم يؤمن بالآخرة ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ **(أي شيئًا منها)** لأن «من» للتبعيض وهو رزقه الذي قسم له لا ما يريده ويبتغيه ﴿وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ وماله نصيب قط في الآخرة وله في الدنيا نصيب، ولم يذكر في عامل الآخرة أن رزقه المقسوم يصل إليه للاستهانة بذلك إلى جنب ما هو بصدده من **(زكاء)** عمله وفوزه في المآب.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾ قيل: هي «أم» المنقطعة وتقديره بل ألهم شركاء. وقيل: هي المعادلة لألف الاستفهام. وفي الكلام إضمار تقديره أيقبلون ما شرع الله من الدين أم لهم آلهة ﴿شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ أي لم يأمر به؟ ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ﴾ أي القضاء السابق بتأجيل الجزاء أي ولولا العدَة بأن الفصل يكون يوم القيامة ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ بين الكافرين والمؤمنين أو لعجلت لهم العقوبة ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وإن المشركين لهم عذاب أليم في الآخرة وإن أُخِّر عنهم في دار الدنيا.

قوله: (أي شيئًا منها) أي شيئًا كائنًا منها على أن منها متعلق بمحذوف هو صفة للمفعول الثاني المحذوف لقوله: ﴿نُؤْتِهِۦ﴾. **قوله**: (زكاء) في المصباح الزكاء بالمدّ النماء والزيادة. اهـ.

﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمْۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾﴾

﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ المشركين في الآخرة ﴿مُشْفِقِينَ﴾ خائفين ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾ من جزاء كفرهم ﴿وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمْۗ﴾ نازل بهم **(لا محالة أشفقوا أو لم يشفقوا)** ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِۖ﴾ **(كأن روضة جنة المؤمن أطيب بقعة فيها وأنزهها)** ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ﴾ **(عند نصب بالظرف لا بـ «يشاؤون»)** ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ على العمل القليل.

قوله: **(لا محالة أشفقوا أو لم يشفقوا)** أي لا بد لهم منه. **قوله:** **(كأن روضة[1] جنة المؤمن أطيب بقعة فيها وأنزهها)** والظاهر أن الإضافة للبيان إذ جملة بقاعها أطيب وأنزه إلا أن يقال أن المراد بالمؤمنين الصديقون والسابقون بالخيرات فيكونون في أطيب بقاعها ومن دون ذلك من المؤمنين في أطيب بقاعها لكن المراد العموم ثم المؤمنون الذين لم يعملوا الصالحات فحالهم مسكوت عنها ولك أن تقول أن ما ذكر في النظم الكريم عام ومكانهم أطيب البقاع ومكان عصاة الموحّدين طيب. اهـ قنوي. وفي الخطيب وروضة الجنة أطيب بقعة فيها وفيه تنبيه على أن عصاة المؤمنين من أهل الجنة لأنه خصّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات بأنهم في روضات الجنات وهي البقاع الشريفة من الجنة، فالبقاع التي دون تلك الروضات لا بد وأن تكون مخصوصة بمن كان دون الذين آمنوا وعملوا الصالحات. اهـ.

قوله: **(عند نصب بالظرف لا بـ «يشاؤون»)** يعني أن عند منصوب ومتعلق بالظرف وهو لهم أو بعامله لا بيشاؤون لأنه على الأول يكون قوله: ما يشاؤون باقيًا على عمومه ويكون المعنى جميع ما يشتهونه حاصل لهم منه تعالى خاصة بخلاف الثاني فإنه يدل على أن ما يشاؤون عنده حاصل لهم منه أو من غيره ولا يدل على حصول جميع مطالبهم. اهـ شيخ زاده رحمه الله وشهاب رحمه الله.

---

(١) فإن رياض الأرض متنزهاتها، فما بالك برياض الجنان، اهـ شهاب، ١٢ منه.

﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الفضل الكبير ﴿ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ﴾ (﴿يَبْشُرُ﴾ **مكيّ وأبو عمرو وحمزة وعلي**) ﴿عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي به عباده الذين آمنوا **(فحذف الجار)** كقوله: (﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾) [الأعراف: الآية ١٥٥] ثم حذف الراجح إلى الموصول كقوله: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: الآية ٤١].

ولما قال المشركون: أيبتغي محمد على تبليغ الرسالة أجرًا نزل ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على التبليغ ﴿أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ يجوز أن يكون **(استثناء متصلًا)** أي لا أسألكم عليه أجرًا إلا هذا وهو أن تودّوا أهل قرابتي، ويجوز أن يكون منقطعًا أي لا أسألكم عليه أجرًا قطّ ولكني أسألكم أن تودوا قرابتي الذين هم

قوله: (﴿يَبْشُرُ﴾) بفتح الياء وسكون الموحّدة وضم الشين مخففة من بشر الثلاثي (**مكيّ**) أي ابن كثير المكيّ (**وأبو عمرو وحمزة وعليّ**) الكسائي والباقون بضم الياء وفتح الباء الموحّدة وكسر الشين مشددة وهو منقول من بشره يبشره بفتح العين في الماضي وضمّها في المضارع والتشديد فيه للتكثير لا للتعدية لأن الثلاثي متعدٍّ بنفسه ولا فرق بين القراءتين من حيث المعنى إلا بأن إحداهما فيها معنى التكثير لا في الأخرى. **قوله:** (**فحذف الجار**...) الخ على عادتهم في التدريج في الحذف ولا مانع من حذفهما دفعة واحدة.اهـ شهاب. وفي حاشية الكشّاف للعلّامة التفتازاني رحمه الله. **قوله:** (**فحذف الجار**) مبناه على أنهم لا يجوزون حذف الجار والمجرور دفعة بل التدريج بخلاف مثل السمن منوان بدرهم.اهـ. **قوله:** (﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾) من قومه. **قوله:** (**استثناء متصلًا**) بجعل المودّة من قبيل الأجر نظرًا إلى كونها في مقابلة ما يتعاطاه من إرشادهم وإلى زعمهم أنه يسأل أجرًا.اهـ تفتازاني رحمه الله. وفي حاشية شيخ زاده رحمه الله. فإن قيل: كيف يصح أن يكون الاستثناء متصلًا والحال أنه يفيد كونه عليه الصلاة والسلام طالبًا للأجر على تبليغ الوحي وأنه لا يجوز لوجوه أولها أنه تعالى حكى عن أكثر الأنبياء تصريحهم بنفي طلب الأجر فقال في قصة نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [الشعراء: الآية ١٠٩]... الخ، وكذا في قصة هود وصالح ولوط وشعيب عليهم الصلاة والسلام ورسولنا ﷺ أفضل الأنبياء وسيّد المرسلين فكيف

قرابتكم ولا تؤذوهم. ولم يقل إلا مودة القربى أو المودة للقربى لأنهم جعلوا مكانًا للمودة ومقرًا لها كقولك: «لي في آل فلان مودّة ولي فيهم حب شديد» تريد أحبهم

يليق بشأنه أن يطلب الأجر على تبليغ الوحي والرسالة. وثانيها أنه عليه الصلاة والسلام أيضًا صرّح بنفي طلب الأجر فقال: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [صَ: الآية ٨٦] وقال: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ [سَبأ: الآية ٤٧]. وثالثها أن التبليغ كان واجبًا عليه لقوله تعالى: ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المَائدة: الآية ٦٧] وطلب الأجر على طلب الواجب لا يليق بأقل الناس قدرًا فضلًا عن سيّد الكائنات. ورابعها أن متاع الدنيا أقل الأشياء وأخسّها بالنسبة إلى الوحي الإلـٰهي وعلم النبوّة فكيف يصح في العقل أن يطلب أخس الأشياء بمقابلة أشرف الأشياء. وخامسها أن طلب الأجر يوهم التهمة وذلك ينافي القطع بصحة النبوّة فثبت بهذه الوجوه أنه لا يجوز منه عليه الصلاة والسلام أن يطلب الأجر على التبليغ البتة فكيف يصح أن يصدر منه ما يجري مجرى طلب الأجر وهو المودّة في القربى أجيب عنه بأنه من قبيل قول مَن قال:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

لأن حاصله أنا لا أطلب منكم إلا هذا وهذا في الحقيقة ليس بأجر لأن الأجر ما يجب بمقابلة العمل ومودّة أقربائه عليه الصلاة والسلام واجبة على قريش وقد روي عن الشعبي أنه قال: أكثر الناس على أن المراد بالقربى في هذه الآية عليّ وابناه وصاحبته فكتبنا إلى ابن عباس رضي الله تعالى عنه نسأله عن ذلك فكتب ابن عباس إلينا أن رسول الله ﷺ كان وسط النسب من قريش ليس بطن من بطونهم إلا وقد ولده وكان له فيهم قرابة وإن فرض أنه عليه الصلاة والسلام لم يبعث إليهم نبيًا ولم يبلغ إليهم وحي الله تعالى لأن أقرباءه عليه الصلاة والسلام ذوو قرابتهم فكانت صلتهم والامتناع من إيذائهم واجبة بحكم المروءة الجبلية فمودّتهم في القربى لا تكون أجر التبليغ لوجوبها عليهم مع قطع النظر عن التبليغ فلا يكون عليه الصلاة والسلام طالبًا للأجر على التبليغ إلّا أنه عليه الصلاة والسلام سمّاها أجرًا واستثناها منه تشبيهًا لها به وهذا القدر كافٍ في صحة الاتصال ولأن حصول المودّة بين المسلمين أمر واجب قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبَة: الآية ٧١] وقال عليه الصلاة والسلام: المؤمنون كالبنيان يشدّ

وهم مكان حبي ومحله. وليست «في» بصلة لـ ﴿ٱلْمَوَدَّةَ﴾ كاللام إذا قلت إلا المودة للقربى، **(إنما هي متعلقة بمحذوف)** تعلّق الظرف به في قولك: «المال في الكيس» وتقديره إلا المودة ثابتة في القربى ومتمكنة فيها. والقربى مصدر كالزلفىٰ والبشرىٰ بمعنى القرابة، والمراد في أهل القربى. و**(رُوِيَ)** أنه لما نزلت قيل: يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم؟ قال: **(عليّ وفاطمة**

بعضه بعضًا والآيات والأخبار في هذا الباب كثيرة وإذا كان حصول المودّة بين جمهور المسلمين واجبًا فحصولها في حق أشراف المسلمين وأكابرهم أولى فكأنه قيل: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، ومن المعلوم أن المودّة في القربى ليست أجرًا في الحقيقة فرجع حاصل الكلام إلى أنه لا يسأل أجرًا البتة. اهـ. **قوله**: **(إنما هي متعلّقة بمحذوف)** منصوب أنه حال من المودّة. **قوله**: **(رُوِيَ...)** الخ هذا يقتضي أن هذه الآية مدنيّة فإن الحسن والحسين رضي الله تعالى عنهما إنما ولدا بالمدينة ولم يذكر المصنّف رحمه الله أن هذه السورة مدنيّة وقيل: إنه ليس بمرضي له لضعف الحديث المذكور في تخريج أحاديث الكشّاف لابن حجر. **وقوله**: **(عليّ)** بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشيّ الهاشمي أبو الحسن أول الناس إسلامًا في قول الكثير من أهل العلم، وُلد قبل البعثة بعشر سنين على الصحيح فربي في حجر النبيّ ﷺ ولم يفارقه وشهد معه المشاهد إلّا غزوة تبوك فقال له بسبب تأخيره له بالمدينة ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى وزوجه بنته فاطمة وكان اللواء بيده في أكثر المشاهد ولما آخى النبيّ ﷺ بين أصحابه قال له: أنت أخي ومناقبه كثيرة حتى قال الإمام أحمد: لم ينقل لأحد من الصحابة ما نقل لعليّ رضي الله تعالى عنه وقال غيره: وكان سبب ذلك تنقيص بني أميّة له فكان كل مَن كان عنده علم من شيء من مناقبه من الصحابة يثبته وكلما أرادوا إخماده وهدّدوا من حديث بمناقبه لا يزداد إلا انتشارًا وقد ولّد له الرافضة مناقب كثيرة موضوعة هو غني عنها. اهـ. الإصابة في تمييز الصحابة. **قوله**: **(وفاطمة)** بنت إمام المتّقين رسول الله ﷺ محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم الهاشمية صلّى الله وسلّم على أبيها ورضي الله عنها كانت تكنّى أُم أبيها بكسر الموحّدة بعدها تحتانية ساكنة، ونقل ابن فتحون عن بعضهم

وابناهما). وقيل: معناه إلا أن تودوني لقرابتي فيكم ولا تؤذوني ولا تهيّجوا علي إذ لم يكن **(من بطون قريش)** إلا بين رسول الله وبينهم قرابة. وقيل: القربى التقرّب إلى الله تعالىٰ أي إلا أن تحبوا الله ورسوله في تقرّبكم إليه بالطاعة والعمل الصالح ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾ يكتسب طاعة. **(عن السدي)**: أنها المودة في آل رسول الله ﷺ نزلت في **(أبي بكر)** ﷺ ومودته فيهم والظاهر العموم في أي حسنة كانت إلا أنها تتناول المودّة تناولًا أوليًا لذكرها عقيب ذكر المودّة في القربى.

﴿نَزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًاۚ﴾ أي نضاعفها كقوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةًۚ﴾ [البقرة: الآية ٢٤٥] **(وقرىء ﴿حسنى﴾)** وهو مصدر كالبشرى والضمير يعود إلى الحسنة أو إلى الجنّة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لمن أذنب **(بطوله)** ﴿شَكُورٌ﴾ لمن أطاع بفضله. وقيل: قابل للتوبة حامل عليها.

بسكون الموحّدة بعدها نون وهو تصحيف وتلقب الزهراء روت عن أبيها روى عنها ابناها وأبوهما وعائشة وأُم سلمة وسلمى أم رافع وأنس وأرسلت عنها فاطمة بنت الحسين وغيرها.اهـ الإصابة. **قوله**: **(وابناهما)** أبو محمد الحسن وأبو عبد الله الحسين رضي الله تعالى عنهما. **قوله**: **(بطن)** أي قبيلة **(من بطون قريش)** وقريش هم أولاد النضر بن كنانة أحد أجداده. **قوله**: **(عن السدي)** في المصباح السدة الباب وينسب إليها على اللفظ فيقال: السديّ ومنه الإمام المشهور وهو إسماعيل السديّ لأنه كان يبيع المقانع ونحوها في سدّة مسجد الكوفة والجمع سدد مثل غرفة وغرف.اهـ. **قوله**: **(أبي بكر)** الصدّيق بن أبي قحافة خليفة رسول الله ﷺ صحب النبيّ ﷺ قبل البعثة وسبق إلى الإيمان به واستمرّ معه طول إقامته بمكة ورافقه في الهجرة وفي الغار وفي المشاهد كلها إلى أن مات وكانت الراية معه يوم تبوك، وحجّ بالناس في حياة النبيّ ﷺ سنة تسع واستقرّ خليفة في الأرض بعده ولقبه المسلمون خليفة رسول الله ﷺ. **قوله**: **(وقرىء ﴿حسنى﴾)** بألف التأنيث بلا تنوين في السمين العامة على «حُسنًا» بالتنوين وهو مصدر على فعل نحو شكر وهو مفعول به وعبد الوارث عن أبي عمر وحسنى بألف التأنيث على وزن بشرى ورجعى وهو مفعول به أيضًا ويجوز أن يكون صفة كفضلى فيكون وصفًا لمحذوف أي خصلة حسنى.اهـ. **قوله**: **(بطَوْله)** أي بإنعامه الواسع.

(**وقيل: الشكر في صفة الله**) تعالىٰ عبارة عن الاعتداد بالطاعة (**وتوفية ثوابها**) والتفضل على المثاب.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۖ﴾ «أم» منقطعة ومعنى الهمزة فيه التوبيخ كأنه قيل: أيتمالكون أن ينسبوا مثله إلى الافتراء ثم إلى الافتراء على الله الذي هو أعظم (**الفرى**) وأفحشها؟ ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَۗ﴾ قال (**مجاهد**): أي يربط على قلبك بالصبر على أذاهم وعلى قولهم: ﴿ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۖ﴾ لئلّا تدخله مشقّة بتكذيبهم ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ أي الشرك وهو كلام مبتدأ غير معطوف على ﴿يَخْتِمْ﴾ لأن محو الباطل غير متعلّق بالشرط بل هو وعد مطلق دليله تكرار اسم الله تعالىٰ ورفع ﴿وَيُحِقُّ﴾ وإنما سقطت الواو في الخط كما سقطت في (﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾) [الإسراء: الآية ١١] و﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾ [الفلق: الآية ١٨] على أنها مثبتة في (**مصحف نافع**) ﴿وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ﴾ ويظهر الإسلام ويثبته ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ﴾

قوله: (**وقيل: الشكر في صفة الله**. . .) الخ يعنى أن الشكر من الله تعالى يُراد به هذا المعنى مجازًا لأن معناه الحقيقي وهو فعل ينبىء عن تعظيم المنعم بسبب كونه منعمًا لا يتصوّر منه تعالى لامتناع أن ينعم عليه أحد حتى يقابله بالشكر شبّهت إثابته أهل الطاعة وتفضله عليه بالزيادة بالشكر الحقيقي من حيث إن كل واحد منهما يتضمن الاعتداد بفعل الغير وإكرامه لأجله. **قوله**: (**وتوفية ثوابها**) أي إعطائه كاملًا مع زيادة عليه.

قوله: (**الفرى**) جمع فرية وهي الكذبة. **قوله**: (**مجاهد**) بن جبر بفتح الجيم وسكون الباء الموحّدة من كبار التابعين كان إمامًا في القراءة والتفسير رحمه الله. **قوله**: (﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ﴾) على نفسه وأهله إذا ضجر (﴿دُعَآءَهُۥ﴾) أي كدعائه له (﴿بِٱلْخَيْرِ﴾) حذفت الواو من يدعو لفظًا لاستقبال اللام الساكنة كما في قوله تعالى: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾ [العلق: الآية ١٨] الملائكة الغلاظ الشداد لإهلاكه وحذفت في الخط أيضًا تبعًا للفظ لكنها غير محذوفة معنى. **قوله**: (**مصحف**) ضم الميم أشهر من كسرها. قوله: (نافع) مولى عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهم

مما أنزل من كتابه على لسان نبيه ﷺ وقد فعل الله ذلك فمحا باطلهم وأظهر الإسلام ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي عليم بما في صدرك وصدورهم فيجزي الأمر على حسب ذلك.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَـٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ يقال: قبلت منه الشيء إذا **(أخذته)** منه وجعلته مبدأ قبولي. ويقال: قبلته عنه أي عزلته عنه وأبنته عنه. والتوبة أن يرجع عن القبيح **(والإخلال بالواجب)** بالندم عليهما والعزم على أن لا يعود، وإن كان لعبد فيه حق لم يكن بد من التفصي على طريقه. وقال علي رضي الله عنه: **(هو اسم يقع على ستة معانٍ)**: على الماضي من الذنوب الندامة، ولتضييع الفرائض الإعادة ورد المظالم، **(وإذابة النفس)** في الطاعة كما ربيتها في المعصية، **(وإذاقة النفس مرارة الطاعة)** كما أذقتها حلاوة المعصية، **(والبكاء بدل كل ضحك ضحكة. وعن السدي)**: هو صدق العزيمة على ترك الذنوب والإنابة بالقلب إلى علاّم الغيوب.

وهو من كبار التابعين، تُوفي سنة سبع عشرة وقيل: سنة عشرين ومائة رضي الله تعالى عنه.

قوله: **(أخذته)** أي الشيء وكذا عزلته وضمير منه وعنه وجعلته للرجل مثلاً. **قوله**: **(والإخلال بالواجب)** عطفه على القبيح لا يكون فعلًا والتوبة لا يخصه بل عن ترك الواجبات أيضًا. **قوله**: **(هو اسم يقع على ستة معانٍ...)** الخ وهو محتمل لأن تكون التوبة مجموع هذه الأمور. فالمراد أكمل أفرادها ويحتمل أنها اسم لكل واحد منها والأول أظهر. اهـ شهاب. **قوله**: **(وإذابة النفس)** أراد به الجسد فالمراد أنه يضعفه ويصيّره مهزولًا بعدما قوّاها وسمنها. **قوله**: **(مرارة الطاعة)** كونها صعبة شاقة كما يشق تناول المر الكريه الطعم. **قوله**: **(والبكاء بدل كل ضحك ضحكة)** أي ضحكة المعاصي وإسناده إلى المعاصي مجازي إن قيل إن ضحك بمعنى أضحك لكنه خلاف الظاهر والبكاء إما حقيقة أو التباكي وكذا المراد بالضحك أعم من الحقيقي والحكمي وهو التلذذ أو السرور. اهـ قنوي. **قوله**: **(وعن السدّي)** هو الإمام المشهور إسماعيل السدي رحمه الله.

وعن غيره: هو أن لا يجد حلاوة الذنب في القلب عند ذكره. وعن **(سهل)**: هو الانتقال من الأحوال المذمومة إلى الأحوال المحمودة. **(وعن الجنيد)**: هو الإعراض عما دون الله ﴿وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ وهو ما دون الشرك، يعفو لمَن يشاء بلا توبة (﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ **بالتاء: كوفي غير أبي بكر**) أي من التوبة والمعصية ولا وقف عليه للعطف عليه واتصال المعنى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أي إذا دعوه استجاب دعاءهم وأعطاهم ما طلبوه وزادهم على مطلوبهم. واستجاب وأجاب بمعنى، والسين في مثله لتوكيد الفعل كقولك «تعظم»

قوله: (سهل) بن عبد الله التستري أحد أئمة القوم لم يكن له في وقته نظير في المعاملات والورع وكان صاحب كرامات لقي ذا النون المصري بمكة سنة خروجه إلى الحج، تُوفي كما قيل سنة ثلاث وثمانين ومائتين وقيل: ثلاث وسبعين ومائتين. **قوله**: **(وعن الجنيد)** بن محمد سيّد هذه الطائفة الصوفية مات سنة سبع وتسعين ومائتين. **قوله**: **(بالتاء كوفيّ غير أبي بكر)** عبارة الخطيب قرأ حمزة والكسائي وحفص بتاء الخطاب إقبالًا على الناس عامة، وهذا خطاب للمشركين وقرأ الباقون بالغيبة نظرًا إلى قوله تعالى ﴿عَنْ عِبَادِهِۦ﴾، وقال تعالى بعد: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾. اهـ. وعبارة تفسير النيسابوري ﴿مَا تَفْعَلُونَ﴾ على الخطاب حمزة وخلف وعلي وحفص. اهـ. وعبارة البغويّ (﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾) قرأ حمزة والكسائي وحفص تفعلون بالتاء وقال: هو خطاب للمشركين، وقرأ الآخرون بالياء لأنه بين خبرين عن قوم فقال قبله: ﴿عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ وبعده ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾. اهـ. وعبارة الجمالين. **قوله**: بالتاء الفوقانية حفص وحمزة والكسائي على الالتفات. اهـ. وعبارة تفسير الكبير ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم بالتاء على المخاطبة والباقون بالياء على المغايبة. وعبارة الإتحاف. واختلف في «ما يفعلون» فحفص وحمزة والكسائي وخلف ورويس بخلف عنه بالتاء من فوق وافقهم الحسن والأعمش والباقون بالياء من تحت وبه قرأ رويس من غير طريق إلى الطيب. اهـ. وعبارة القنوي. **قوله**: **(وقرأ الكوفيّون غير أبي بكر** ﴿مَا تَفْعَلُونَ﴾ **بالتاء)** فيكون التفاتًا. اهـ. وعبارة الشهاب قوله: قرأ الكوفيّون... الخ بالتاء الفوقية وغيرهم بالتحتية وعلى الأول فهو التفات. اهـ. وعبارة شيخ زاده رحمه الله. **قوله**: **(قرأ الكوفيّون غير أبي بكر)** أي قرأ حمزة

و«استعظم» والتقدير ويجيب الله الذين آمنوا. وقيل: معناه ويستجيب للذين فحذف اللام. مَنَّ عَليهم بأن يقبل توبتهم إذا تابوا ويعفو عن سيئاتهم ويستجيب لهم إذا دعوه ويزيدهم على ما سألوه. **(وعن إبراهيم بن أدهم أنه قيل له: ما بالنا ندعوه فلا نُجاب؟ قال: لأنه دعاكم فلم تجيبوه)** ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في الآخرة.

﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾

﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ﴾ أي لو أغناهم جميعًا ﴿لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من البغي وهو الظلم أي لبغي هذا على ذاك وذاك على هذا لأن الغنى مبطرة مأشرة،

والكسائي وحفص عن عاصم «يفعلون» بالياء من تحت نظرًا إلى قوله: ﴿عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ وقوله بعده: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ والباقون بتاء الخطاب التفاتًا للناس عامة أو خطابًا للمشركين. اهـ بحروفها. وعبارة السمين قوله تعالى: بما يفعلون قرأ الأخوان وحفص «يفعلون» بالياء من تحت نظرًا إلى قوله تعالى: ﴿عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ والباقون بالخطاب إقبالًا على الناس عامة. اهـ بحروفها فافهم.

قوله: (وعن إبراهيم بن أدهم بن منصور أنه قيل له: ما بالنا ندعوه فلا نجاب؟ قال: لأنه دعاكم فلم تجيبوه) يعني أنه يجوز أن يكون قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ في محل النصب على أنه مفعول به وفاعل يستجيب مضمر فيه يعود على الله ويجوز أيضًا أن يكون ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ في محل الرفع على أنه فاعل ﴿يَسْتَجِيبُ﴾ ويكون المفعول محذوفًا أي يستجيبون لله بالطاعة إذا دعاهم إليها على أن استجاب بمعنى أطاع أو أجاب ويؤيد كون الموصول فاعل يستجيب ما رُوِيَ أنه قيل لإبراهيم بن أدهم: ما بالنا ندعو فلا يجاب لنا قال: لأنه دعاكم فلم تجيبوه ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: الآية ٢٥] أي أنه تعالى دعاهم وقرأ قوله: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فأشار بقراءة قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: الآية ٢٥] إلى أنه تعالى دعاهم وبقراءة قوله: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الشورى: الآية ٢٦] إلى أنه لم يجب إلى دعائه إلا البعض.

وكفى بحال قارون وفرعون عبرة! أو من البغي وهو الكبر أي لتكبّروا في الأرض ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ﴾ (**بالتخفيف: مكي وأبو عمرو**) ﴿بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ بتقدير يقال قدره قدْرًا وقدَرًا ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٌ﴾ يعلم أحوالهم فيقدر لهم ما تقتضيه حكمته فيفقر ويغني ويمنع ويعطي ويقبض ويبسط، ولو أغناهم جميعًا لبغوا ولو أفقرهم لهلكوا، وما ترى من البسط على مَن يبغي ومن البغي بدون البسط فهو قليل، ولا شك أن البغي مع الفقر أقل ومع البسط أكثر وأغلب.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾ (﴿يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ **بالتشديد: مدني وشامي وعاصم**) ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ﴾ (**وقرىء ﴿قنِطوا﴾**) ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ أي بركات الغيث ومنافعه وما يحصل به (**من الخصب**). وقيل لعمر ﷺ: اشتدّ القحط وقنط الناس. فقال: مطروا إذا أراد هذه الآية. (**أو أراد رحمته في كل شيء**) ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ الذي يتولى عباده بإحسانه ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ المحمود على ذلك يحمده أهل طاعته.

قوله: (بالتخفيف: مكيّ وأبو عمرو) أي قرأ ابن كثير المكيّ وأبو عمرو بسكون النون وتخفيف الزاي والباقون بفتح النون وتشديد الزاي.

قوله: (بالتشديد: مدنيّ) أي نافع المدنيّ وكذا أبو جعفر المدنيّ وليس من السبعة (**وشاميّ**) أي ابن عامر الشاميّ (**وعاصم**) عبارة تفسير النيسابوري (﴿يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾) بالتشديد أبو جعفر ونافع وابن عامر وعاصم. اهـ وعبارة الإتحاف وقرأ (﴿**ينزل**﴾ **الغيث**) بالتخفيف ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف. اهـ بحروفها. وعبارة الخطيب قرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائي بفتح النون وتشديد الزاي والباقون بسكون النون وتخفيف الزاي. اهـ فافهم. **قوله: (وقرىء ﴿قنِطوا﴾)** بكسر النون وهي قراءة شاذّة وفي الإتحاف وعن الأعمش ﴿قَنِطُواْ﴾ بكسر النون لغة. اهـ. **قوله: (من الخصب)** في المصباح الخصب وزان حمل النّماء والبركة وهو خلاف الجدب وهو اسم من أخصب المكان بالألف فهو مخصب وفي لغة خصب يخصب من باب تعب فهو خصيب وأخصب الله الموضع إذا أنبت به العشب والكلأ. اهـ. **قوله: (أو أراد رحمته في كل شيء)** إشارة إلى أن ضمير رحمته لله تعالى وأن قوله تعالى: ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ بعد قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي علامات قدرته ﴿خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مع عظمهما (﴿وَمَا بَثَّ﴾) فرق ﴿وَمَا﴾ يجوز أن يكون مرفوعًا ومجرورًا حملًا على المُضاف أو المُضاف إليه ﴿فِيهِمَا﴾ من السمٰوات والأرض ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ الدواب تكون في الأرض وحدها لكن يجوز أن ينسب الشيء إلى جميع المذكور وإن كان ملتبسًا ببعضه كما يقال: بنو تميم فيهم شاعر مجيد وإنما هو **(في فخذ)** من أفخاذهم ومنه قوله تعالىٰ: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ [الرحمٰن: الآية ٢٢] وإنما يخرج من الملح، ولا يبعد أن يخلق في السمٰوات حيوانات يمشون فيها مشي الأناسي على

يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ مع أن الغيث رحمة بالغة تعميم بعد التخصيص أي من باب عطف العام على الخاص كأنه قيل: ينزل الرحمة التي هي الغيث وينشر سائر أنواع الرحمة.

قوله: (﴿وَمَا بَثَّ﴾) في محل الجر عطفًا على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أو الرفع عطفًا على ﴿خَلْقُ وَمَا﴾ موصولة لكونها مبنية بـ ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ [الشورى: الآية ٢٩]. اهـ تفتازاني رحمه الله. وعبارة الشهاب ﴿وَمَا﴾ تحتمل الموصولية والمصدرية أي ومن آياته بثّه فيهما. اهـ. وعبارة التمجيد وقالوا: يمكن أن يقال أن ما مصدريّة والمضاف إليه محذوف والمعنى ومن آياته بثّه فيهما أقول يرد هذا الوجه من البيانية في ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾. اهـ. **قوله**: **(في فخذ)** في المصباح الفخذ بالكسر وبالسكون للتخفيف دون القبيلة وفوق البطن وقيل: دون البطن وفوق الفصيلة وهو مذكّر لأنه بمعنى النفر والفخذ بالكسر أيضًا وبالسكون للتخفيف من الأعضاء مؤنّثة والجمع فيها أفخاذ. اهـ. فائدة جليلة طبقات النسب سبع الشعب(١) بفتح الشين والقبيلة والعمارة بكسر العين على القليل والأفصح فتحها والبطن والفخذ والفصيلة بوزن قبيلة والعشيرة وكل واحدة تدخل فيما قبلها فالقبائل(٢) تحت الشعوب والعمائر تحت القبائل والبطون تحت العمائر والأفخاذ تحت البطون والفصائل تحت الأفخاذ

---

(١) هو أعلى طبقات النسب، ١٢ منه. (٢) هي دون الشعوب، ١٢ منه.

لأرض، أو يكون للملائكة مشي مع الطيران فوصفوا بالدبيب كما وصف به الأناسي ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ يوم القيامة ﴿إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ (﴿إِذَا﴾ **تدخل على المضارع كما تدخل على الماضي**)، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١﴾ [الليل: الآية ١].

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ۝٣٠ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ۝٣١﴾

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ﴾ **(غمّ وألم)** ومكروه ﴿فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ أي بجناية كسبتموها عقوبة عليكم. (﴿**بما كسبت**﴾ **بغير الفاء: مدني وشامي على أن** ﴿**ما**﴾ **مبتدأ و**﴿**بما كسبت**﴾ **خبره**) من غير تضمين معنى الشرط، ومن أثبت الفاء فعلى تضمين معنى الشرط. وتعلّق بهذه الآية مَن يقول بالتناسخ وقال لو لم يكن للأطفال حالة كانوا عليها قبل هذه الحالة لما تألّموا. وقلنا: الآية مخصوصة

والعشائر تحت الفصائل مثال خزيمة شعب وكنانة قبيلة وقريش عمارة وقصيّ بطن وعبد مناف فخذ وبنو هاشم فصيلة والعباس عشيرة وليس بعد العشيرة حيّ يوصف وسُمِيَ الشعب شعبًا لتشعب القبائل منه.اهـ خطيب بزيادة يسيرة. **قوله**: (﴿إِذَا﴾ **تدخل على المضارع كما تدخل على الماضي**) لما كان إذا للقطع والماضي هو يدل على القطع كان دخوله على الماضي أصلًا وعلى المضارع ملحقًا به.

قوله: **(غمّ)** في المصباح غمّه الشيء غمًّا من باب قتل غطاه ومنه قيل للحزن غمّ لأنه يغطي السرور والحلم.اهـ. **قوله**: **(وألم)** في لسان العرب الألم الوجع والجمع آلامٌ.اهـ. **قوله**: (﴿**بما كسبت**﴾ **بغير الفاء: مدنيّ**)[1] أي نافع المدنيّ، وكذا أبو جعفر المدنيّ وليس من السبعة **(وشاميّ)** أي ابن عامر الشاميّ والباقون بالفاء. **قوله**: **(على أن** ﴿**ما**﴾ **مبتدأ و**﴿**بما كسبت**﴾ **خبره)** فيكون ما موصولة.

---

(١) اعلم أن دخول الفاء في خبر المبتدأ إذا كان اسمًا موصولًا مشروط بكون مضمون الصلة سببًا للخبر وقصد السببية وأما إذا لم يكن سببًا ولم يقصد سببيته لم يصح دخول الفاء لأنه ليس بشرط حقيقة فلا يضره عدم سببيته.

بالمكلفين بالسباق والسياق وهو ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ أي من الذنوب فلا يعاقب عليه أو عن كثير من الناس فلا يعاجلهم بالعقوبة، وقال ابن عطاء: مَن لم يعلم أن ما وصل إليه من الفتن والمصائب باكتسابه وأن ما عفا عنه مولاه أكثر كان قليل النظر في إحسان ربه إليه. وقال محمد بن حامد: العبد ملازم للجنايات في كل أوان وجناياته في طاعته أكثر من جناياته في معاصيه لأن جناية المعصية من وجه وجناية الطاعة من وجوه والله يطهّر عبده من جناياته بأنواع من المصائب ليخفف عنه أثقاله في القيامة، ولولا عفوه ورحمته لهلك في أول خطوة، وعن علي رضي الله تعالىٰ عنه: هذه أرجى آية للمؤمنين في القرآن لأن الكريم إذا عاقب مرة لا يعاقب ثانيًا وإذا عفا لا يعود ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي بفائتين ما قضى عليكم من المصائب ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم﴾ متول بالرحمة ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ناصر يدفع عنكم العذاب إذا حلّ بكم.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾﴾

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ (ٱلْجَوَارِ)﴾ جمع جارية وهي السفينة ﴿الجواري﴾ (**في الحالين: مكي وسهل ويعقوب، وافقهم مدني وأبو عمرو في الوصل**) ﴿فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ كالجبال ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ (ٱلرِّيحَ)﴾ ﴿الرياح﴾ (**مدني**) ﴿فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ﴾ ثوابت لا تجري ﴿عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ على ظهر البحر ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على بلائه

قوله: (﴿ٱلْجَوَارِ﴾) بإثبات الياء (**في الحالين: مكيّ**) أي ابن كثير المكيّ (**وسهل**) بن محمد (**ويعقوب**) بن إسحٰق وليسا من السبعة (**وافقهم مدنيّ**) أي نافع المدنيّ. وكذا أبو جعفر المدنيّ وليس من السبعة (**وأبو عمرو**) البصري (**في الوصل**). عبارة تفسير النيسابوري ﴿ٱلْجَوَارِ﴾ بالياء في الحالين ابن كثير وسهل ويعقوب وافق أبو جعفر ونافع وأبو عمرو في الوصل.اهـ. وعبارة الخطيب قرأ نافع وأبو عمرو بإثبات الياء وصلًا لا وقفًا وابن كثير وهشام بإثباتها وقفًا بخلاف عن هشام والباقون بحذفها وقفًا ووصلًا وأمال الجواري محضته الدوري عن الكسائي وفتح الباقون.اهـ. **قوله**: (﴿ٱلرِّيحَ﴾) بألف بعد الياء جمعًا (مدنيّ) أي نافع المدنيّ وكذا أبو جعفر المدنيّ وليس من السبعة والباقون بغير ألف إفرادًا.

﴿شَكُورٌ﴾ لنعمائه أي لكل مؤمن مخلص **(فالإيمان نصفان)**: نصف **(شكر)** ونصف **(وصبر)**. أو صبار على طاعته شكور لنعمته ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ **(يهلكهن)** فهو عطف على ﴿يُسْكِنِ﴾ والمعنى إن يشأ يسكن الريح فيركدن أو يعصفها فيغرقن بعصفها ﴿بِمَا كَسَبُوا۟﴾ من الذنوب ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ منها فلا يجازي عليها. وإنما أدخل العفو في حكم الإيباق حيث جزم جزمه لأن المعنى أو إن يشأ يهلك ناسًا وينج ناسًا على طريق العفو عنهم.

﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿وَيَعْلَمَ﴾ بالنصف عطف على تعليل محذوف تقديره لينتقم منهم ويعلم ﴿ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا﴾ أي في إبطالهما ودفعها، (﴿وَيَعْلَمُ﴾ **مدني وشامي)** على الاستئناف ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ مهرب من عذابه ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الثواب ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ **(«ما» الأولى ضمّت معنى الشرط فجاءت الفاء في جوابها بخلاف الثانية)**. نزلت في أبي بكر

قوله: **(فالإيمان)** أي فشعبه **(نصفان)** أي يرجع إلى أمرين **(شكر وصبر)** وإضافة النصف إلى الشكر وإلى الصبر للبيان وإنما أولنا بالشعب لأن الإيمان الحقيقي وهو التصديق لا يتجزى فلا يتصوّر له النصف. **قوله**: **(يهلكهن)** أي يهلك أصحابهن بإغراق السفن بالريح العاصفة أي الشديدة، يقال: عصفت الريح إذا اشتدّت والإيباق الإهلاك.

قوله: (﴿وَيَعْلَمُ﴾) برفع الميم على القطع والاستيناف بجملة فعلية **(مدنيّ)** أي نافع المدنيّ. وكذا أبو جعفر المدنيّ وليس من السبعة **(وشاميّ)** أي ابن عامر الشاميّ. وقرأ الباقون بنصبها. **قوله**: **(«ما» الأولى)** يعني ﴿فَمَآ أُوتِيتُم﴾ والثانية ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾. **قوله**: **(ضمّت معنى الشرط)** من حيث إن بناء ما أوتوا سبب للتمتع بها **(فجاءت الفاء في جوابها)** أي في خبرها سُمِيَ الخبر جوابًا نظرًا إلى تضمن المبتدأ معنى الشرط. **قوله**: **(بخلاف الثانية)** لأن كونه عنده ليس سببًا لكونه خيرًا وأبقى بل الأمر بالعكس إذ المراد العندية المكانة والكلام استعارة عبر به عما هو نفيس

الصدّيق ﷺ حين تصدّق (**بجميع ماله**) فلامه الناس ﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ﴾ عطف على ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ وكذا ما بعده ﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ﴾ أي الكبائر من هذا الجنس، (﴿**كبير الإثم**﴾ **عليّ وحمزة**). وعن ابن عباس: كبير الإثم هو الشرك. ﴿وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ قيل: ما عظم قبحه فهو فاحشة كالزنا ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ﴾ من أمور دنياهم ﴿هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾ أي هم (**الأخصّاء**) بالغفران في حال الغضب (**والمجيء بهم**). وإيقاعه مبتدأ وإسناد ﴿يَغۡفِرُونَ﴾ إليه لهذه الفائدة ومثله ﴿هُمۡ يَنتَصِرُونَ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ﴾ (**نزلت في الأنصار**) دعاهم الله ﷻ للإيمان به وطاعته فاستجابوا له بأن آمنوا به وأطاعوه ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وأتموا الصلوات

وشريف للتنبيه على شرافته فثبت ما قلنا من أن الخيرية سبب للتعبير بعند الله تعالى بل سبب الخيرية والبقاء الدائم خلوصه ودوامه. **قوله**: (**بجميع ماله**) هذا مشروع لمن آمن نفسه وعياله وإلا فغير مشروع. اهـ قنوي رحمه الله.

قوله: (﴿**كبيرَ الإثم**﴾) بكسر الباء بلا ألف ولا همز بوزن قدير على التوحيد (**عليّ**) الكسائي (**وحمزة**) وهي للجنس فهي بمعنى قراءة الجمع، كما قرأ الباقون بفتح الباء الموحّدة وألف بعدها وبعد الألف همزة مكسورة جمع كبيرة. **قوله**: (**الأخصاء**) جمع خصيص بمعنى المختصّ يقال: اختصّ بكذا إذا انفرد به وتميّز كأحباء جمع حبيب. **قوله**: (**والمجيء بهم**) بضم الهاء على إرادة لفظه في قوله تعالى: ﴿هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾.

قوله: (**نزلت في الأنصار**) لعله أشار به إلى جواب ما يقال الاستجابة للرب تعالى أليس قد فهم من قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [المائدة: الآية ٨٢] وما ذكر بعده إلى هٰهنا فما الفرق بينه وبين ما قبله حتى يعطف أحدهما على الآخر. وتقرير الجواب أنه من قبيل عطف الخاص على العام بأن يكون ما سبق عليه عبارة عن المؤمنين الذين يجمعون الصفات المذكورة ثم عطف عليه الأنصار الذين استجابوا لربهم الحسنى كمال الإجابة والانقياد للإشارة إلى أنهم لكمال استجابتهم كأنهم

الخمس ﴿وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ﴾ أي (ذو شورىٰ) لا ينفردون برأي حتى يجتمعوا عليه، وعن الحسن: ما تشاور قوم إلا هدوا لأرشد أمرهم، والشورى مصدر كالفتيا بمعنى التشاور ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ يتصدّقون ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ﴾ الظلم ﴿هُمۡ يَنتَصِرُونَ﴾ ينتقمون ممن ظلمهم أي يقتصرون في الانتصار على ما جعله الله تعالىٰ لهم ولا يعتدون، وكانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فيجترىء عليهم الفساق. وإنما حمدوا على الانتصار لأن مَن انتصر وأخذ حقّه ولم يجاوز في ذلك حد الله فلم يسرف في القتل إن كان ولي دم فهو مطيع لله وكل مطيع محمود. ثم بيّن حد الانتصار فقال:

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٠﴾

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ فالأولى سيئة حقيقة والثانية لا. وإنما سُميت لأنها مجازاة السوء، أو لأنها تسوء مَن تنزل به، ولأنه لو لم تكن الأولى لكانت الثانية سيئة لأنها إضرار، وإنما صارت حسنة لغيرها، أو في تسمية الثانية سيئة إشارة إلى أن العفو مندوب إليه. والمعنى أنه يجب إذا قوبلت الإساءة أن تقابل بمثلها من غير زيادة ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ﴾ بينه وبين خصمه بالعفو و**(الإغضاء)** ﴿فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ عدة مبهمة لا يقاس أمرها في العظم ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين يبدءون بالظلم أو الذين يجاوزون حد الانتصار. في الحديث: «ينادي منادٍ يوم القيامة مَن كان له أجر على الله فليقم فلا يقوم إلا مَن عفا».

ليسوا من عداد المؤمنين الموصوفين فيكون للتعريف في المعطوف للعهد الخارجي. **قوله**: **(ذو شورى)** يعني أن شورى مصدر بمعنى التشاور كالفتيا بمعنى الإفتاء والمعنى أن التشاور كان حالهم المستمرة ويدل عليه عطف الاسمية على الفعلية حيث قيل: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ﴾، وبولغ فيه بجعل أمرهم نفس الشورى مدحهم بذلك تنبيهًا على أنه خصلة ممدوحة.

قوله: **(الإغضاء)** في المصباح أغضى الرجل عينه بالألف قارب بين جفنيها ثم استعمل في الحلم فقيل: أغضى على القذى إذا أمسك عفوًا عنه.اهـ. وفي لسان العرب أغضى عينًا على قذى صبر على أذى.اهـ.

﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾

﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ﴾ أي أخذ حقه بعدما ظلم (**على إضافة المصدر إلى المفعول**) ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى معنى من دون لفظه ﴿مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ للمعاقب ولا للمعاتب والمعايب ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ يبتدئونهم بالظلم ﴿وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يتكبرون فيها ويعلون ويفسدون ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وفسّر السبيل (**بالتبعة**) والحجة ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ على الظلم والأذى ﴿وَغَفَرَ﴾ ولم ينتصر (﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ **أي الصبر والغفران منه**) ﴿لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي من الأمور التي ندب إليها أو مما ينبغي أن يوجبه العاقل على نفسه ولا يترخص في تركه. وحذف الراجع أي «منه» لأنه مفهوم كما حذف من قولهم: السمن منوان بدرهم، وقال أبو

قوله: (**على إضافة المصدر إلى المفعول**) كقوله تعالى: ﴿بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ﴾ [صَ: الآية ٢٤] ومن دعاء الخير أي من بعد ظلم الظالم إياه. **قوله**: (**بالتبعة**) في المصباح التبعة وزان كلمة ما تطلبه من ظلامة[١] ونحوها.اهـ. وفي لسان العرب التبعة والتِبَاعة ما اتبعتَ به صاحبك من ظلامة ونحوها والتَّبِعة والتِّبَاعة فيه إثم يُتبَع به يقال: ما عليه من الله في هذا تبعة ولا تِباعة.اهـ.

قوله: (﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ **أي الصبر والغفران منه**) اللام في قوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ موطئة للقسم ومن شرطية، وقوله: ﴿لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ جواب للقسم المقدّر سادّ مسدّ جواب الشرط أو لام الابتداء ومن موصولة مبتدأ ونهاية صلة وغفر وإن مع اسمها وخبرها خبر المبتدأ وعلى التقديرين العائد إلى من محذوف لدلالة فحوى الكلام عليه أي أن ذلك منه لمن عزم الأمور كما في قولهم: السمن منوان بدرهم أي منوان منه بدرهم والمعنى أن الصبر على الظلم والأذى والتجاوز عمن ظلمه لمن معزومات الأمور التي ندب الله إليها فينبغي أن يوجبه العاقل على نفسه ويعزم عليه ولا يرخص في تركه أو من عزائم الله التي لم تنسخ ولا تنسخ أبدًا.

---

(١) بالضم اسم لما تطلبه عند الظالم.

سعيد القرشي: الصبر على **(المكاره)** من علامات الانتباه، فمَن صبر على مكروه يصيبه ولم يجزع أورثه الله تعالىٰ حال الرضا وهو أجل الأحوال، ومَن جزع من المصيبات وشكا وكله الله تعالىٰ إلى نفسه ثم لم تنفعه شكواه.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَـٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾﴾

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ فما له من أحد يلي هدايته من بعد إضلال الله إيّاه ويمنعه من عذابه ﴿وَتَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ يوم القيامة ﴿لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ حين يرون العذاب واختير لفظ الماضي للتحقيق ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ **(يسألون ربهم الرجوع)** إلى الدنيا ليؤمنوا به. ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ على النار **(إذ العذاب يدلّ عليها)** ﴿خَـٰشِعِينَ﴾ **(متضائلين)** متقاصرين **(مما يلحقهم** ﴿مِنَ ٱلذُّلِّ﴾**)** ﴿يَنظُرُونَ﴾ إلى النار ﴿مِن (طَرْفٍ) خَفِيٍّ﴾ **(ضعيف)** بمسارقة **(كما ترى المصبور ينظر إلى السيف)**.

قوله: **(المكاره)** جمع مَكْرَهة وهو ما يَكْرَهُهُ الإنسان ويشقّ عليه.

قوله: **(يسألون ربهم الرجوع)** إشارة إلى أن ﴿مَرَدٍّ﴾ مصدر ميميّ وتنكيره وتنكير السبيل للمبالغة والجملة مفعول ثانٍ أو حال. **قوله:** **(إذ العذاب)** المذكور في قوله: ﴿لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ **(يدل عليها)** أي على النار وعرضهم على النار إحراقهم بها. **قوله:** **(متضائلين)** في لسان العرب تضاءل الرجل أخفى شخصه قاعدًا أو تصاغر. اهـ. **قوله:** **(مما يلحقهم** ﴿مِنَ ٱلذُّلِّ﴾**)** إشارة إلى أن قوله: ﴿مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ متعلق بـ ﴿خَـٰشِعِينَ﴾ ﴿وَمِنَ﴾ للتعليل أي من أجل الذلّ. **قوله:** (﴿طَرْفٍ﴾) مصدر طرف إذا حرك عينه ومنه طرفة العين. **قوله:** **(ضعيف)** بمعنى خفي إذ الخفاء يستلزم الضعف فذكر الملزوم وأريد اللازم إذ الخفاء الحقيقي وهو مقابل الجهر ليس بمراد هنا. **قوله:** **(كما ترى المَصْبور[1] ينظر إلى السيف)** وهو

---

(١) الذي أخذت يداه ورجلاه وأخذ حتى يقتل بالسيف.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ ﴿يَوۡمَ﴾ متعلّق بـ ﴿خَسِرُوٓاْ﴾ وقول المؤمنين واقع في الدنيا أو يقال **(أي يقولون)** يوم القيامة إذا رأوهم على تلك الصفة ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ﴾ دائم.

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ ﴿٤٧﴾﴾

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ﴾ من دون عذابه ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ إلى النجاة ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم﴾ أي أجيبوه إلى ما دعاكم إليه ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ﴾ أي يوم القيامة ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ «من» يتصل بـ ﴿لَّا مَرَدَّ﴾ أي لا يردّه الله بعدما حكم به، أو بـ ﴿يَأۡتِيَ﴾ أي من قبل أن يأتي من الله يوم لا يقدر أحد على ردّه ﴿مَا لَكُم مِّن (مَّلۡجَإٖ) يَوۡمَئِذٖ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ﴾ أي ليس لكم مخلص من العذاب ولا تقدرون أن تنكروا شيئًا مما اقترفتموه ودوّن في صحائف أعمالكم، والنكير الإنكار ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ﴾ عن الإيمان.

﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ ﴿٤٨﴾﴾

﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ﴾ رقيبًا ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ ما عليك إلا تبليغ الرسالة وقد فعلت ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ **(المراد الجمع لا الواحد)** ﴿مِنَّا رَحۡمَةٗ﴾ نعمة وسعة وأمنًا وصحة ﴿فَرِحَ بِهَاۖ﴾ بطر لأجلها ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ﴾ بلاء كالمرض

المقتول صبرًا أي حبسًا بلا حرب فيقدم للقتل موثقًا فحينئذ ينظر إلى الجلّاد وآلة قتله كالسيف من طرف خفي أي مسارقة. **قوله: (أي يقولون)** إشعار بأن الماضي على هذا التقدير من قبيل ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ﴾ [الأعراف: الآية ٤٨].

قوله: (﴿مَّلۡجَإٖ﴾) مصدر ميميّ أو اسم مكان.

قوله: **(المراد الجمع لا الواحد)** عبارة الشهاب أراد بالإنسان الجنس الشامل للجميع وهو ح بمعنى الأناسي والناس، ولذا جمع ضميره في قوله: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ﴾ بعد ما أفرده رعاية للفظه في قوله: فرح بها وليس المراد بالجنس هنا الاستغراق

والفقر ونحوهما. وتوحيد فرح باعتبار اللفظ والجمع في ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ باعتبار المعنى ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ بسبب معاصيهم ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ ولم يقل فإنه كفور ليسجل على أن هذا الجنس موسوم بكفران النعم كما قال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: الآية ٣٤]. والكفور البليغ الكفران. والمعنى أنه يذكر البلاء وينسى النعم و**(يغمطها)**. قيل: أُريد به كفران النعمة. وقيل: أُريد به الكفر بالله تعالىٰ.

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ﴾ **(أي يقرنهم)** ﴿ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ لما ذكر إذاقة الإنسان الرحمة وإصابته بضدها، أتبع ذلك أن له تعالىٰ الملك وأنه يقسم النعمة والبلاء كيف أراد ويهب لعباده من الأولاد ما يشاء، فيخص بعضًا بالإناث، وبعضًا بالذكور، وبعضًا بالصنفين جميعًا، ويجعل البعض عقيمًا. **(والعقيم التي لا تلد وكذلك رجل عقيم وإذا كان لا يُولد له)**. وقدم الإناث أولًا على الذكور لأن سياق الكلام أنه فاعل لما يشاؤه لا ما يشاؤه الإنسان، فكان ذكر الإناث اللاتي من جملة ما لا يشاؤه الإنسان أهم والأهم واجب التقديم، وليلي الجنس الذي كانت العرب تعدّه بلاءً ذكر البلاء. ولما أخر الذكور وهم **(أحقّاء)** بالتقديم تدارك تأخيرهم بتعريفهم **(لأن التعريف تنويه وتشهير له)**، ثم أعطى بعد

كما توهّم وإن كانوا يطلقون الجنس ويريدون به ذلك لأن ما ذكر ليس حال الجميع والجنسية فقط كافية في المراد هنا والجمعية لا تتوقف على الاستغراق. اهـ. **قوله**: **(يغمطها)** أي يسترها.

قوله: **(أي يقرنهم)** في المختار قرن بين الشيئين من باب ضرب ونصر وصله به. اهـ. **قوله**: **(والعقيم التي لا تلد)** والجمع عقائم وعقم. **قوله**: **(وكذلك رجل عقيم)** كأمير **(وإذا كان لا يُولد له)** والجمع عقماء وعقام. **قوله**: **(أحقاء)** جمع حقيق. **قوله**: **(لأن التعريف تنويه بالاسم وتشهير له)** ورفع لقدره بناء على أن التعريف يكون للعهد فكأنه قيل: ويهب لمن يشاء الفرسان الأعلام الذين

ذلك كلا الجنسين حقه من التقديم والتأخير وعرّف أن تقديمهن لم يكن لتقدمهن ولكن لمقتض آخر فقال: ﴿ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾. **(وقيل: نزلت في الأنبياء عليهم السلام)** حيث وهب للوط وشعيب إناثًا، ولإبراهيم ذكورًا، **(ولمحمد ﷺ ذكورًا وإناثًا)**، وجعل يحيىٰ وعيسىٰ عليهما السلام عقيمين ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ﴾ بكل شيء ﴿قَدِيرٌ﴾ قادر على كل شيء.

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ **(وما صحّ لأحد من البشر)** ﴿أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ أي إلهامًا كما رُوِيَ «نفث **(في روعي)**» أو رؤيا في المنام كقوله عليه السلام: «رؤيا الأنبياء وحي» وهو كأمر إبراهيم عليه السلام بذبح الولد ﴿أَوْ مِن وَرَاءِ﴾ حِجَابٍ أي يسمع كلامًا من الله كما سمع موسى عليه السلام من غير أن يبصر السامع مَن يكلمه. وليس المراد به حجاب الله تعالىٰ لا يجوز عليه ما يجوز على الأجسام من الحجاب ولكن المراد به أن السامع محجوب عن الرؤية في الدنيا ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ أي يرسل ملكًا ﴿فَيُوحِيَ﴾ أي الملك إليه. وقيل: وحيًا كما أُوحي إلى الرسل بواسطة الملائكة

يذكرون في المجالس والمحافل بالمفاخر والمعالي لا يغيبون عن الأذهان والخواطر ولا يخفى أن مثل هذا التنويه يقاوم التنويه الحاصل بتقديمهم على الإناث. **قوله: (تنويه)** في المصباح ناه بالشيء نوهًا من باب قال ونوّه به تنويهًا رفع ذكره وعظمه. اهـ. **قوله: (وقيل: نزلت في الأنبياء عليهم السلام...)** الخ قال: أكثر المفسرين هذا على وجه التمثيل وإنما الحكم عام في كل الناس لأن المقصود بيان نفاذ قدرة الله تعالى في تكوين الأشياء كيف شاء فلا معنى للتخصيص. **قوله: (ولمحمد ﷺ ذكورًا وإناثًا)** فإنه كان له ﷺ من البنين ثلاثة على الصحيح القاسم وعبد الله وإبراهيم ومن البنات أربع زينب ورقية وأُم كلثوم وفاطمة.

قوله: (وما صح لأحد من البشر) أي وما أمكن له وما كان كذا يستعمل تارة بمعنى ما لاق وما حسن وتارة بمعنى ما صح وما أمكن والمراد هنا نفي الصحة والإمكان أي وما صح لفرد من أفراد البشر وكان بمعنى التامة وفاعله أن يكلّمه الله. **قوله: (في روعي)** في المصباح الروع بالضم الخاطر والقلب يقال: وقع في

﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ أي نبيًا كما كلّم أمم الأنبياء (**على ألسنتهم**). و﴿وَحْيًا﴾ و«أن الرسل» مصدران واقعان موقع الحال لأن «أن يرسل» في معنى إرسالًا و﴿مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ ظرف واقع موقع الحال كقوله: ﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: الآية ٢٩١]. والتقدير: وما صحّ أن يكلّم أحدًا إلا موحيًا أو مسمعًا من وراء حجاب أو مرسلًا. ويجوز أن يكون المعنى: وما كان لبشر أن يكلّمه الله إلا بأن يوحي أو أن يسمع من وراء حجاب أو أن يرسل رسولًا وهو اختيار (**الخليل**، ﴿**أو يرسلُ رسولًا فيوحي**﴾ **بالرفع: نافع**) على تقدير أو هو يرسل ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ إذن الله ﴿مَا يَشَآءُ﴾ من الوحي ﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ﴾ قاهر فلا يمانع ﴿حَكِيمٌ﴾ مصيب في أقواله وأفعاله فلا يعارض.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي كما أوحينا إلى الرسل قبلك أو كما وصفنا لك ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ إيحاء كذلك ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ﴾ (**يريد ما أوحي إليه**) لأن الخلق يحيون به في دينهم كما يحيا الجسد بالروح (﴿مَا كُنتَ تَدْرِى﴾) الجملة حال من الكاف في ﴿إِلَيْكَ﴾.

روعي كذا.اهـ. **قوله**: (**على ألسنتهم**) أي على ألسنة أنبيائهم. **قوله**: (**الخليل**) بن أحمد بن عمرو بن تميم كان إمامًا في علم النحو وعنه أخذ سيبويه علوم الأدب. ويقال إن أباه أحمد أول مَن سُمّي بأحمد بعد رسول الله ﷺ وكانت ولادته في سنة مائة للهجرة وتُوفي سنة سبعين وقيل: خمس وسبعين ومائة وقيل: عاش أربعًا وسبعين سنة رحمه الله تعالى. **قوله**: كقوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾، بعد قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ أي والذين يذكرون قائمين وكائنين على جنوبهم. **قوله**: (﴿**أو يرسلُ رسولًا فيوحي**﴾ **بالرفع نافع**) أي قرأ نافع برفع اللام من ﴿يُرْسِلَ﴾ وسكون الياء من «يُوحي» والباقون بنصب اللام والياء.

قوله: (**يريد ما أوحي إليه**) أي الرسول من الكتاب والشريعة تشبيهًا بالروح التي بها حياة البدن ومعنى الأمر الحكم. **قوله**: (﴿مَا كُنتَ تَدْرِى﴾) ما نافية والجمع بين الماضي والمستقبل للتنبيه على دوام ذلك واستمراره، وما في قوله: ﴿مَا ٱلْكِتَٰبُ﴾ استفهامية منسلخة عن الاستفهام الحقيقي ﴿وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ ولا زائدة

﴿مَا ٱلۡكِتَٰبُ﴾ القرآن ﴿وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ أي شرائعه أو ولا الإيمان بالكتاب لأنه إذا كان لا يعلم بأن الكتاب ينزل عليه لم يكن عالمًا بذلك الكتاب. وقيل: (**الإيمان يتناول أشياء**) بعضها الطريق إليه العقل، وبعضها الطريق إليه السمع، فعنى به ما الطريق إليه السمع دون العقل وذاك بما كان له فيه علم حتى كسبه بالوحي ﴿وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ﴾ أي الكتاب ﴿نُورًا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ﴾ ﴿لتدعو﴾ وقرىء به ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ الإسلام ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ (**بدل**) ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ ملكًا وملكًا ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ (ٱلۡأُمُورُ)﴾ هو وعيد بالجحيم ووعيد بالنعيم والله أعلم بالصواب.

مؤكدة للنفي السابق. **قوله**: (**الإيمان**) اسم (**يتناول أشياء**) يريد أنه اسم للتصديق والإقرار والأعمال التي بعضها مما لا سبيل إليه سوى السمع كالتفاصيل والخصوصيات وذلك البعض لم يكن للنبيّ ﷺ فيه علم إلى وقت نزول الوحي فهو المراد بالإيمان الذي لم يدر به. **قوله**: (**بدل**) من الأول بدل الكل. **قوله**: (﴿**ٱلۡأُمُورَ**﴾) أي أمور الخلائق في الآخرة فيثيب المحسن ويعاقب المسيء.

هذا آخر ما أمليته في حلّ ما في سورة الشورى الحمد لله على توفيق الإتمام
فالآن أشرع مُستعينًا بفضله ومُستهديًا بهديته في حلّ ما في سورة الزخرف
والله يقول الحق وهو يهدي السبيل